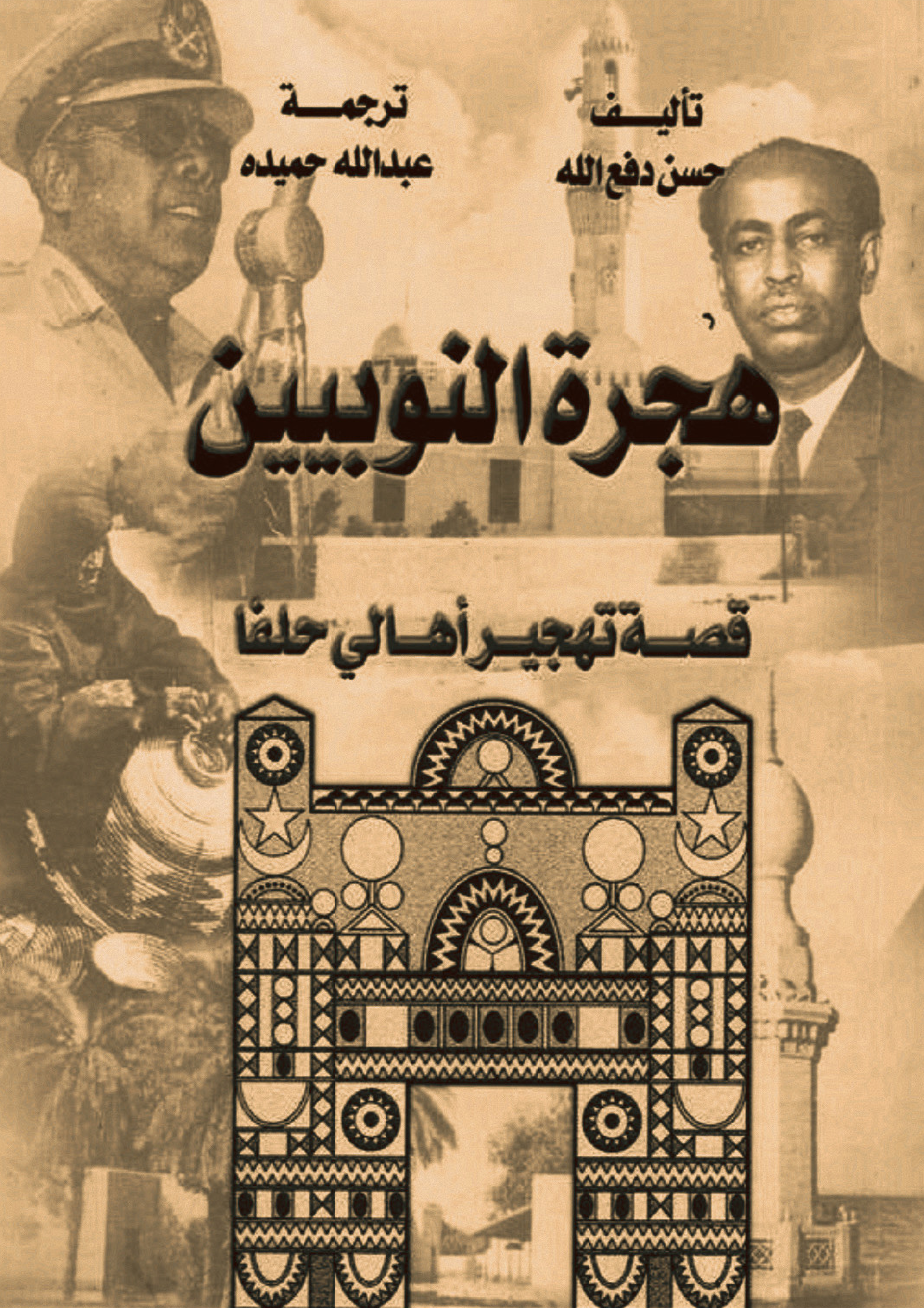


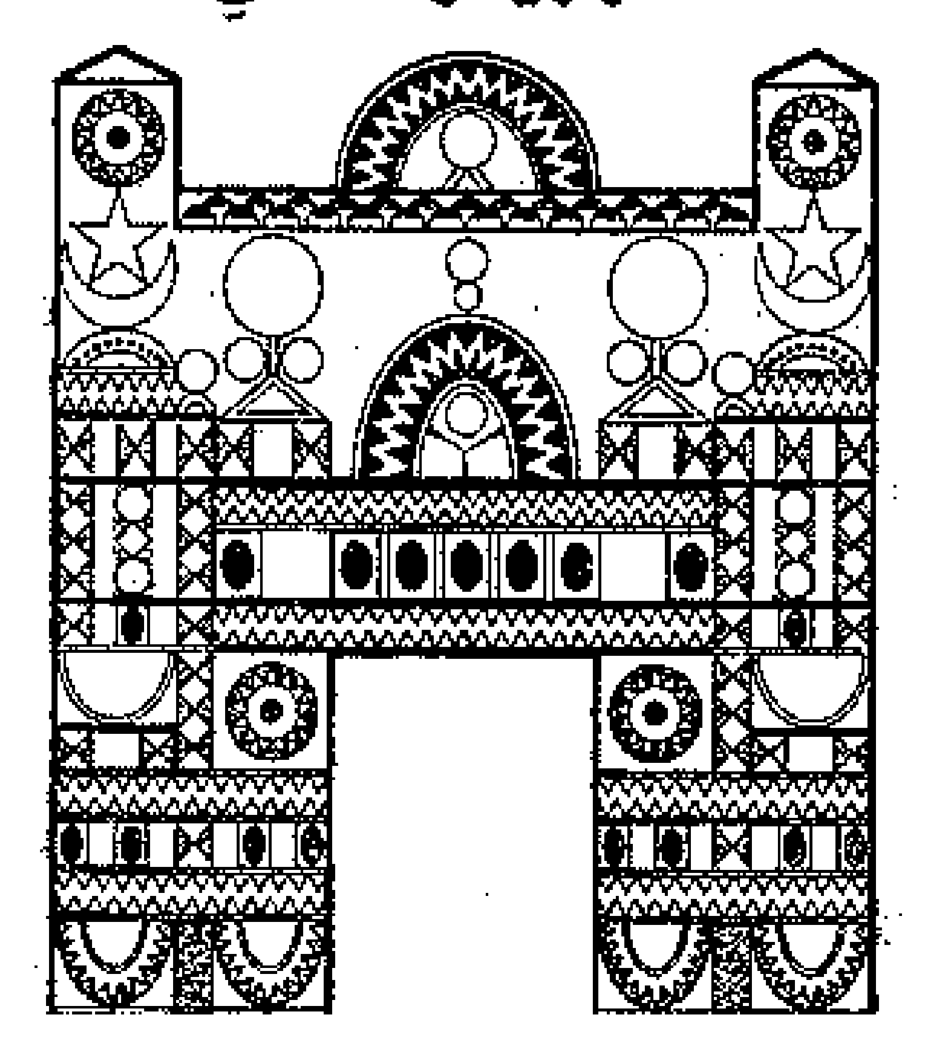
تأليف
حسن دفع الله
ترجمة
عبدالله حميده
هجرة النوبيين
قصة تهجير أهالي حلفا

تأليف
حسن دفع الله

ترجمة
عبدالله حميده



قصة تهجير أهالي حلفا



هجرة النوبيين

قصة تهجير أهالي حلفا

المؤلف

حسن دفع الله

المترجم

عبدالله حميدة

الطبعة الأولى ٢٠٠٣م

الإهـداء

إلى :

النوبيين الذين عشت بين ظهرانيهم ستة أعوام

شهدَتْ الفترة الحاسمة لتهجيرهم وإعادة توطينهم .

وإلى :

أجيالهم القادمة ، أهدي هذا الكتاب .

حسن دفع الله

تقديم

بقلم : (إيان كنيسون)

أرسى الإداريون الذين عملوا في السودان تقاليد راسخة في مجال التدوين منذ ما يعرف بـ (يوميات غردون في الخرطوم) وساهم (سلاطين ونجت وماكمايكل وهندرسون وديفس وجاكسون ودنكان وجتسكل) في هذا السبيل . وتفاوتت أعمالهم ما بين مذكرات بحتة - غالباً ما تكون ذات نغمة حنين للوطن - إلى سير ذاتية تمتزج بتقارير موضوعية وملاحظات ، أو هي دراسة أكاديمية هامة . وقد بلغ مستوى هذه المدونات درجة عالية من حيث المعلومات والجودة ، أضاف إليها (حسن دفع الله) عملاً ممتازاً من خلال كتاب فريد في نوعه .

لم يكن السودانيون يلوذون بالصمت طيلة هذا الوقت ، لكنهم بالطبع كانوا يكتبون بالعربية ، فلقد وقف قارئ الإنجليزية - مؤخراً - على الكنوز التي تزخر بها السير الذاتية السودانية عندما صدر المجلد الأول من كتاب بابكر بدري (تاريخ حياتي) هذا بالإضافة إلى ما نشره السودانيون من دراسات أكاديمية بالغة القيمة باللغة الإنجليزية ومن بين هؤلاء : (مكي شبيكة ومكي عباس ويوسف فضل حسن ومحمد عمر بشير ومدثر عبد الرحيم وسعد الدين فوزي وزكي مصطفى وفرانسيس دينق) . هذا إلى جانب مؤلفات أعدها صحفيون مقتدرون مثل (بشير محمد سعيد) وروائيون من أمثال (الطيب صالح) . لكن (حسن دفع الله)جاءنا بشيء جديد تماماً . فهو هنا - كإداري - لا يسجل ما يستلطفه او يشغل باله - ولكنه - على العكس - أوقف كتابه كله

لمعالجـــة مشكلة إدارية رهيبة وجد نفسه فجأة يبذل فيها كل قواه ووقته على مـدى ســنوات . فالكتاب يتناول كيف استطاع المؤلف أن يحل تلك المشكلة، وكيف حافظ على هدوء أعصابه حتى أنجز العمل .

كـــان علــيه أن يقوم بإجلاء ٥٠,٠٠٠ من السكان وأن يعوضهم عن أراضيهم ونخيلهم وأن يتعامل مع معارضي التهجير وأن يواجه الوضع الناجم عـــن رفض المسئولين لنصائحه . وكان عليه أن يحرك البواخر العتيقة عبر الشــلالات وان يــرعى أفراداً من بعض الأسر الأجنبية المالكة وأن يصنف المشــاكل التـــي تواجـــه اثنتين وعشرين بعثة أثرية وأن ينسق حركة خمسة وخمســـين قطـــاراً (بما في ذلك إجراء الاستعدادات اللازمة لحالات الولادة المـــتوقعة) وأن يخرج رفات عثمان دفنة من قبره . وإلى جانب كل هذا قام بما قد لا يعتبره البعض ضرورياً حيث أنه واظب على تسجيل يومياته .

كانـــت مصـــادر الكتاب تعتمد على يومياته وعلى الأوراق الرسمية . ويـــبدو أن اليومـــيات كانت عملاً غير عادي، فلم تحوِ مجموعة واضحة من القـــرارات الإداريـــة التـــي تـــم اتخاذهـــا فقط ، وإنما أعطت صورة جلية للانطباعات والأثر الذي خلفته منطقة النوبة على وجدان أحد موظفي الخدمة المدنـــية القادم من منطقة أخرى من السودان . اتجهت عيون (حسن) في كل اتجـــاه تستمتع بأساليب الحياة عند النوبيين . فالنوبيون بالنسبة إليه – جزئياً - أغـــراب ، ولكـــنهم - جزئياً أيضاً - أناس يشاطرونه من جوانب عديدة ثقافة شـــمال الســـودان العريضة . فإذا بمعرفته العامة تؤجج إدراكه وتعاطفه غير المـــألوف ، وإذا بملاحظاتـــه وردود فعله تغدو ملاحظات وردود فعل إداري مـــتحرر عالي الثقافة ... ذلك الذي يدس قطعة كفن في يد الموظف المسئول

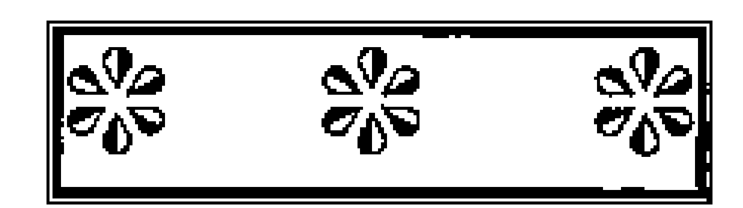
عن حركة القطارات تحسباً لموت أحد في الطريق إلى منطقة إعادة التوطين .. والــذي لا يصــيبه الضجر إذا ما توقف القرويون ساعات لوداع أسلافهم الغابريــن قبل أن يغادر بهم القطار .. والذي يقتطع من زمنه جزءاً ليتأمل ما يكون عليه حال قرية من القرى حين تخلو من أي أحد من الناس ... والذي يســجل بآلة تصويره انهيار المنازل في غمرة المياه المتدفقة... والذي تتوجه عاطفته الصادقة إلى أولئك الذين كتبت عليهم مأساة الهجرة من ديار أجدادهم .. والذي يضفي بروحه المرحة مسحة من الحياة على فصول هذه القصة .

لقــد كانــت القرى المتأثرة بالتهجير مأهولة - وباستمرار - منذ مئات السـنين بــأجداد السكان الحاليين . وكانت صدمة التهجير عظيمة لأن هؤلاء النوبيين عاشوا حياة متميزة ومنعزلة في منطقة متفردة من القطر ، وتحركوا إلــى ديار وسكن نمطي عادي .. هنا لا وجود لنهر النيل .. لا غابات نخيل توفر جهد العمل .. لم تعد آثار أجدادهم تحرس أعتاب الأبواب . وبالرغم من أن ســكان وادي حلفـا وضواحيها قد تقبلوا الهجرة على المدى الطويل كأمر واقــع ، وضحوا من أجل الوطن الكبير (هنا يشير حسن دفع الله إلى شعور مــتزايد بأن التهجير لم يكن كسباً مطلقاً لأصدقائهم المصريين الذين حصلوا على زيادة في حصة الماء ولكنهم فقدوا الطمي الخصيب).. لكن - على الأقل - فإن خزاناً جديداً قد أقيم في خشم القربة و إن زراعة مروية قد حلت مكان الصــحراء .. وربمــا تمكن السودان من إقامة مجتمع جديد حول بحيرة السد العالــي عندما تبلغ ذروة منسوبها وعندما يتم اكتشاف ثروات طبيعية في تلك المنطقة .. ولكن في نهاية الأمر - فإن القصة التي يرويها حسن دفع الله تثير أسئلة لا فكاك منها حول الربح والخسارة في عملية التهجير .

لقد ملأني هذا الكتاب - شخصياً - ببهجة عظيمة وأقنعني بأنه إذا كان لا بد من تنفيذ المهمة التي وصفها (حسن دفع الله) فإنه أو شخصاً آخر يماثله هـــو الإنسان المناسب ليتولاها . وإنني لأرجو من الذين يديرون مشروعات مشابهة أن ينتبهوا إلى ما أنجز هذا الرجل وبأي الطرائق كان هذا الإنجاز.

أما بالنسبة للجانب الأدبي من الكتاب فإنني شديد الإعجاب بالمزاوجة بيــن شخصـــية المؤلف الإنسانية .. المتسامحة والعملية .. وشخصية الكاتب الذي يسرد بأسلوب شديد الوضوح والحبكة قصة هذا العمل التنفيذي المعقد .

حـاشيـةٌ (قبيل الطبع) لم يعش (حسن دفع الله) ليرى هذا الكتاب مطبوعاً فقد توفي في مايو ١٩٧٤م وكان حينها قد بلغ الخمسين من العمر .



مقدمة المؤلف

عندما قررت مصر إقامة خزان السد العالي عند أسوان ، لفتت أنظار العالم بهذا المشروع المدهش تصميماً وحجماً وتكلفة وفائدة ، لكن آثاره الضارة على أرض النوبة لم تسترع انتباه أحد . فالبحيرة التي خلقها الخزان كانت ذات أثر مدمر على كل النوبة المصرية وامتد أثرها على مسافة ١٥٠ كيلو متراً داخل السودان . ففي السودان - وحده- ابتلعت مياه البحيرة سبعاً وعشرين قرية بالإضافة إلى مدينة وادي حلفا . وفقد ٥٠ ألف نوبي سوداني مأواهم وكل أراضيهم ومساكنهم ونخيلهم ومقومات حياتهم . أما في مصر فقد قدر عدد النوبيين المتأثرين به (في القطرين) ١٢٠ ألف نفس .

والموضوع الذي يتناوله هذا الكتاب يتعلق بالنوبيين السودانيين الذين كانوا يقطنون الجزء الشمالي من مركز وادي حلفا ويعطي صورة لعملية تصفية أملاكهم الثابتة ، وتهجيرهم وإعادة إسكانهم في موطنهم الجديد بخشم القربة . وباعتباري مفتشاً لمركز وادي حلفا ، ثم - في وقت لاحق - مسئولاً عن التهجير ، وعشت بين أبناء حلفا لمدة ستة أعوام شهدت خلالها المصير المفجع الذي آل إليه وطنهم ، ووقفت على بناء منطقة إعادة إسكانهم ، فقد ألقى على عاتقي كل أمر يرتبط بالتهجير من كافة وجوهه المادية والعاطفية .

ولأنني لم أجد ما يسعفني من السوابق ، فقد كان عليّ أن أعتمد على خيالي وعلى الحالة المعنوية للسكان . وانطلاقاً من حقيقة أنني عشت بين ظهرانيهم مدة طويلة مكنتني من التعرف عليهم بصورة جيدة ، فقد ساعدني ذلك كثيراً في تقييم مختلف الأوضاع وتحديد القضايا واتخاذ القرارات .

يصف الجزء الأول من الكتاب لأرض النوبة المفقودة وقراها ومدينة وادي حلفا ، ويروي شيئاً عن النوبيين وأساليب حياتهم وتقاليدهم والطبيعة التي من حولهم

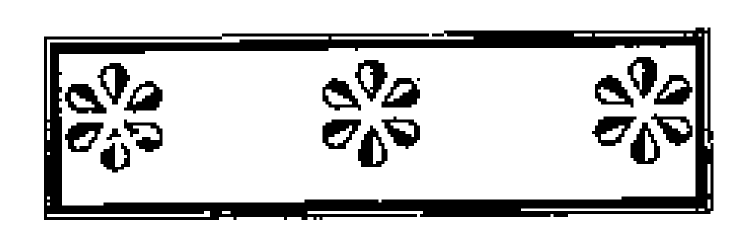
واقتصادهم المحلي . وقد جمعت هذه المادة أثناء إقامتي في وادي حلفا وهي في زعمي تحتوي على معلومات أولية ذات قيمة عن النوبة المفقودة . ويعالج الجزء الثاني موضوع التهجير ومعضلاته المعقدة (الإنساني منها والمادي) وحتى إكمال إخلاء السكان بسلام إلى موطنهم الجديد قبل أن تزحف مياه بحيرة السد العالي على موطنهم القديم . ويناقش هذا الجزء بالتفصيل كيف أن صحراء البطانة في منطقة خشم القربة قد تم تعميرها من لا شئ لتصبح إحدى أفضل مناطق الإسكان في إفريقيا .

لقد جمعت مادة هذا الجزء بعناية أثناء عملي معتمداً للتهجير ، فكنت أحتفظ بصور من التقارير الشهرية التي أبعث بها إلى لجنة التوطين بالخرطوم حول الأحوال في حلفا ، وبصور من وقائع كل الاجتماعات المهمة في الخرطوم وفي وادي حلفا . بالإضافة إلى ذلك فقد كانت في حوزتي مجموعات كاملة لكل تقارير الإحصاءات السكانية والمسوحات الاجتماعية التي أجريت في المناطق المتأثرة بالتهجير . وأخيراً وليس آخراً اعتمدت على مفكرتي الخاصة .

وإذا وضعنا في الاعتبار الوقت الذي أتاحته إتفاقية مياه النيل لتنفيذ خطط إعادة التوطين وترحيل أهالي حلفا ، والمستوى الممتاز والكفاءة العالية التي تم بها إنجاز هذا العمل ، فإن ذلك يعد مفخرة للجهاز الإداري لنظام عبود . وكان للتعاون الملموس بين الخدمة المدنية والحكومة أثره على جودة تخطيط وتنفيذ هذا المشروع الكبير الذي أصبح حقيقة ماثلة . ولا أحتاج إلى تقديم أي أمثلة هنا ، لأن القارئ سيجدها في ثنايا الكتاب ، ويكفي أن أذكر أنه خلال فترة ثلاث سنوات تم بناء خزان كامل تتفرع منه شبكة ري كاملة ، وتم تخطيط كل القرى ومدينة حلفا الجديدة بمستوى لا تضارعه أي مدينة سودانية أخرى . وفي حلفا القديمة تمت تصفية الأملاك الثابتة كما تم ترحيل كافة السكان بممتلكاتهم المنقولة بسلام قبل أن تغمر المياه ضفتي النيل في ١٩٦٤م .

لشكر البروفسير (إ. كنيسون) الذي باقتراحه وتشجيعه - عندما كان يعمل في جامعة الخرطوم - قمت بكتابة هذا العمل والذي ساعدني مؤخراً في صياغة مادته بجامعة (هَل) . وأشكر كذلك البروفسير (ف. ريفش) الذي راجع المادة ولسدى إليّ اقتراحات قيمة . وأنا مدين لدكتور (يوسف فضل حسن) ودكتور (م. س. جدرج) من جامعة الخرطوم للاهتمام الذي أبدياه بقراءة المادة ولقيامهما بالاتصال بممثل المجلس الثقافي البريطاني بالخرطوم السيد (م . س . دالزيل) الذي رشحني للمنحة التي مكنتني من الصياغة النهائية لهذا الكتاب . ولمحرر دورية (السودان في رسائل ومدونات) لسماحة باقتباس أجزاء من مادة الفصلين الرابع والسابع والتي ظهرت قبلاً في محتويات تلك المطبوعة . لكل هؤلاء أنا مدين بكثير من الشكر والعرفان .

ح . دفع الله



كلمة المترجم

أســتدعي انتباهــي-منــذ عشــرين عاماً -كتاب (هجرة النوبيين) للمــرحوم حســن دفع الله باعتباره توثيقاً بالغ الأهمية لتجربة إنسانية نادرة الحدوث في تاريخ البشرية . غير أن هذه التجربة الفريدة لم تكن حين صدرت في متناول الدارسين والمهتمين والراغبين في التعرّف عليها لسببين : السبب الأول هــو أن مــادة الكــتاب- والــذي صدر في عام ١٩٧٥م-كانت باللغة الإنجلــيزية . أما السبب الثاني فقد كان شح الكمية المطبوعة منه وتداوله في نطــاق ضــيق لا يتعدي الأكاديميين وقارئي الإنجليزية الذين يتابعون إنتاج المطابع وحركة النشر علي وجه العموم .

ودار بخلــدي مــرات عديــدة أن أشرع في ترجمة هذا العمل النادر بدوافــع ثقافــية بحتة حتى غيّض الله لي-علي مدي عام كامل-أن أفرغ من ترجمته وأضعه بين يدي القارئ الكريم .

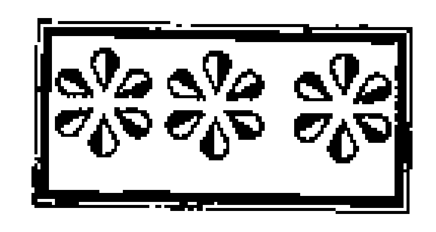
لقد اجتهدت-ما وسعتني الحيلة-أن تكون الترجمة وافية وشاملة وبلغة تشــبه اللغة الرصينة التي كتب بها الكتاب . وتمشياً مع هذا النسق رأيت ان أضــيف بعض الحواشي لشرح بعض المعاني والألفاظ التي قد تستعجم علي القــارئ مــن غير السودان كما صححت بعض الهنات الطباعية التي لم يكن المؤلف- في ظني – سبباً فيها .

إننــي لجــد شــاكر لأفراد وجماعات كُثر أبدوا اهتماما بهذه الترجمة وتــابعوا صــدورها بقــدر جزيل من التشجيع فللأخ الوفي : أسامة داوود عبداللطيف الذي شجعني قولاً وعملاً على طباعة هذا الكتاب ولأسرة المرحوم حسن دفع الله التي أبدت امتنانها وتقديرها لهذه الترجمة ، ولأسرة جــــريدة

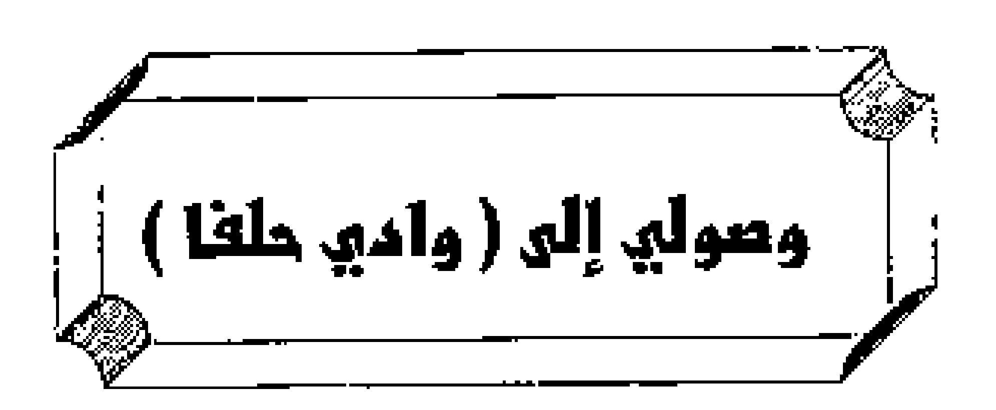
(الرأي العام)التي نشرت فصولاً من الترجمة في عدة حلقات وللدكتور عبد الرحمـــن إبراهـــيم الخلـــيفة الذي تابع ظروف طباعة هذا الكتاب، ولأستاذنا الفاضل بروفيسور : محمد إبراهيم أبو سليم الذي أشاد بها في جريدة (الشارع السياســـي) ، وللأســـتاذ : إبراهـــيم العوام الذي ساهم بإخلاص في تصميم الغلاف ولشقيقي : إبراهيم حميدة الذي عاونني في غالب مراحل هذا العمل ، ولأسرة (إرم لطباعة الكمبيوتر) وكبيرها : عبدالعزيز خضر ، وللأخوين : د. محمد ربيع عبدالله و د. خيري عبدالرحمن الذين راجعا مادة الكتاب وأسديا لـــي ملاحظـــات قيمة ، وللأخ السموءل خلف الله ، وللأخوين د. المعتصم عبدالرحـــيم - والـــي الشـــمالية السابق ، والأستاذ أحمد محمد تاجر- وزير الشـــؤون الاجتماعـــية بالولاية ولأسرة المركز السوداني للخدمات الإعلامية وكبيرها الأستاذ : الطاهر حسن أحمد التوم ، ولأسرة مطبعة مصحف إفريقيا التي حرصت على طباعته ، لكل هؤلاء ولمن فات عليّ ذكرهم سهواً خالص التقدير والعرفان .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ع . حميدة



الفصل الأول



وصولي إلى (وادي حلفا)

في ١٧ أغسطس ١٩٥٨ وعندما كنت أقضي إجازتي، تلقيت توجيهات من وزارة الداخلية للسفر إلي (وادي حلفا) منقولاً من مقر عملي في مركز (الزراف) بمديرية أعالي النيل وحملت التوجيهات أوامر صريحة بإلغاء ما تبقـــي من أسابيع الإجازة وأن أستقل أول طائرة من (الخرطوم) إلي (حلفا) لاستلام إدارة المركز من زميلي السيد (عبد السميع غندور) الذي تم نقله إلي الإستوائية .

وفي ٢١ أغسطس إستقليت طائرة الخطوط الجوية السودانية من طراز (داكوتا) وسرعان ما كنت أطير شمالاً فوق سماء (الخرطوم) المبلدة بالغيوم . وكان طريق الطائرة يتابع مجري النيل حتى (كريمة) في رحلة –حتى هذه النقطة– كانت مريحة ومسلية . وكان منظر النيل والمدن الصغيرة والقرى علي طول مجري النهر والخضرة التي تحتضن الضفتين، أمراً منعشاً جداً . وعـــندما عـــبرنا فـــوق (كريمة) تغيّر المنظر تماماً . فقد مضت الطائرة في الفضــــاء الأزرق فـــوق الصحراء النوبية وغدا ما تحتنا أرضاً جدباء وسهلاً رملـــياً رتيباً تتناثر فوقه جبال صخرية ممتدة إلي ما لا نهاية . ولم تكن هناك مظاهـــر حـــياة أو حـــركة في تلك المنطقة الشاسعة إلا ما كنا نراه من ظل الطائرة – من تحتنا –يتبعنا علي الدوام . وبعد سبعين دقيقة من الطيران الذي لا يخلـــو مـــن الرتابة والضجر فوق تلك الأصقاع الموحشة ، التقطت عيناي شـــريطاً أخضـــر يشـــق طريقه عبر الصحراء إلي امتداد الأفق . جلب هذا المنظر الراحة إلي نفسي ، وأنبأني الشريط الفضي الذي يلمع من بعيد إلي أننا نقـــترب مـــن النيل مرة أخري وإلي أن رحلتي قد اقتربت من نهايتها . وبعد لحظـــات أنزلت (الداكوتا) عجلاتها ثم أخذت طريقها علي المدرج ، وعندما

توقفت الطائرة كنت أول ركابها على سلم الخروج واستطعت أن أرى عدداً من مستقبليَّ والأعيان ينتظرون مقدمي في واجهة مبنى المطار . وهرع لاستقبالي عبد السميع غندور (مفتش المركز الذي سأخلفه) بقامته المديدة الرشيقة و (مختار التوم) ضابط البلدية .وبعد استقبال حار وكلمات ودودة قدم لي (عبد السميع) بقية المستقبلين . كان تجمعاً من الناس الممتازين الذين نشأت بيني وبينهم روابط صداقة قوية أثناء إقامتي في (حلفا) . من بين هؤلاء (صالح عيسى عبده) ناظر المنطقة الشمالية للمركز .وهو رجل بدين وصاحب وجه بشوش ، و (أحمد شريف داؤود)و (مرغني علي إبراهيم) رئيس المجلس البلدي .

يقع المطار في منتصف سهل مستو من الرمل الأبيض الخشن ومحاط بتلال صخرية منخفضة ذات لون داكن تتميز بانحدار حاد وفجوات سطحية تمتلئ بالرمال التي تجرفها رياح الشتاء العاتية .

كانت الشمس قد استوت في كبد السماء عندما هبطت بنا الطائرة وكان الجو حاراً كعادة ما يكون في أغسطس في هذا الجزء من السودان . هذه الشمس القاسية التي نشرت أشعتها الساطعة على الرمال البيضاء أحدثت سراباً خادعاً غطى كل المناظر الطبيعية بأوهام من الرؤى القائمة وعكس بوضوح كل شئ على صفحته الزجاجية الكذوب .

غادرنا أرض المطار إلى المدينة بسيارة كانت ترتج وتتخبط على طريق مرصوف غير أنه وعر ، مما يؤكد أن يد الصيانة والتمهيد لم تمتد إليه منذ أعوام . وبعد مسيرة عشر دقائق وعندما كانت السيارة تقترب من منحنى حاد ، رأيت بيوت قرية (دغيم) تمتد إلى ضفة النهر . كان أحد أطراف

القرية غائباً عن أنظارنا لأنه يقع خلف جبلين ينحدران تدريجياً نحو الطريق . وبُنيت المنازل إما بالطين أو بالطوب الأخضر وأغلبها مطلي بطبقة خارجية من الجير الرملي مما أكسبها مظهراً ناعماً . وكان لبعض المباني (فرندات) ذات أقواس رومانية الشكل مما يجعلها تبدو حديثة بالمقارنة مع المنازل النوبية التقليدية التي تشبه القلاع . وتشق القرية طرق واسعة تتفرع عنها أزقة ضيقة مغطاة بأكوام الرمل ، غير أنها نظيفة وخالية من الأوساخ . وينتصب عالياً خزان المياه (الصهريج) علي أعمدة رمادية اللون ، كأوضح المعالم في ذلك الجزء من القرية . ويندر أن تري شخصاً في ذلك الجو الحار من اليوم فكل شئ يبدو في سكون الموت إضافة إلي أن اختفاء الأشجار والنباتات كلية يوحي بأنها قرية مهجورة تماماً . وفي الخلفية القصوى ينتظم خط كثيف من أشجار النخيل –محاذياً مجري النيل ومخفياً للنهر بجريده المتهدلّ . ومن بعيد –وعلي الضفة الغربية –تبدو سلسلة من الجبال ذات قمم مستوية ، وكثبان رملية تتجه نحو النهر لا يميزها إلا منزل البروفيسور (أميري [1]) الأبيض اللون والمطل علي أطلال مدينة (بوهين)القديمة وراء الأشجار الخضراء عند ضفة النهر .

وعندما اتجهت السيارة يميناً برز لنا باقي القرية التي كان يشقها الطريق إلي نصفين . وكان أبرز المباني علي الإطلاق الجامع الكبير الذي قام علي موقع متميز في منتصف إحدى الساحات حيث كانت المئذنة تشرئب عالياً في السماء .

[1] (1) عالم آثار شهير كان يقيم في هذه المنطقة .

بنـــي هـــذا الجامع ملك مصر المخلوع (فاروق) كإشارة ذات مغزى سياسي عندما كان مستقبل السودان يتأرجح بين الاستقلال والاتحاد مع مصر . وبالقـــرب مـــن هذا المسجد قامت مباني المدرسة بمداخل ردهاتها ذوات القـــباب . وفي زاوية الساحة وبالقرب من الطريق قبعت إحدى الاستراحات المبنية من الطين لاستقبال المسافرين الذين ينتظرون القطار المتجه للخرطوم . وعندما خلفنا وراءنا تلك القرية الهادئة مررنا –فجاءة – بمشروع (شارلي راشد) السوداني ذي الأصل السوري الذي جاء والده في معية حملة (كتشنر) كطبيـــب . كانت هناك أكواخ صغيرة من القش عند الحقل يسكنها عمال من الصعايدة مما يدل على أن الأيدي العاملة التي كان يستخدمها (راشد) ليس من بينها نوبيون . وفي قبالة هذا المشروع الذي يروي بالمضخات وعلى الجانب الأيمن للطريق قامت بيوت خربة متلاصقة علي رؤوسها أعواد من الخيزران ثبتـــت عليها خرق ملونة تحركها الرياح معلنة أنها (الإنداية[1]) . هذا المكان يعـــرف بـــ (ديم جاكسون) . ولاشك أن (هـــ .س جاكسون) الذي كان مديراً علي مديرية حلفا أواخر عشرينيات القرن العشرين ، قد قام بتخطيطه . ومن خلفه علي النقيض – قامت (الفيلا [2]) الوحيدة في دغيم والمملوكة لموظف نوبي يدعي (محمد علي إدريس) . كانت القناة الرئيسية لمشروع (شارلي) تعـــبر الطريق علي بعد ياردات قليلة إلي ما بعد (ديم جاكسون) علي الحدود الجنوبية لمدينة (وادي حلفا) .

وبعد مسافة قصيرة إلي جهة اليسار ، وجدنا أنفسنا في أفضل مناطق المديـــنة عمـــراناً . كـــان منزل المفتش ذو الطابقين بفرنداته المحاطة بسياج

---

[1] مكان بيع الخمور البلدية – المترجم .

[2] وردت خطأ هكذا : Village – المترجم .

مزخـــرف ، يُـــري مـــن بعيد . لقد تم بناؤه في مطلع العشرينات من القرن العشـــرين وكان ظهره إلي النهر وله حديقة واسعة ذات شجيرات مزهرة تم جلـــبها مـــن إنجلـــترا . وعند المدخل الرئيسي تم نصب مدفعين عتيقين من طـــراز (كـــروب) تذكـــاراً لحملة (كتشنر) . وبالقرب من هذا المنزل وفي الجانـــب الجنوبـــي مـــن الساحة قام مسجد من طراز عتيق مبني من الطوب الأخضر ومطلي بالجير الأبيض ، وليس له مئذنة ولكن له قبة تقليدية ـذات نوافـــذ زجاجـــية ـفي منتصف السقف .وكان علي المؤذن أن يصعد علي منـــبر خشـــبي في زاوية السقف حين يدعو أن (حي علي الصلاة) . وقد تم تشـــييد هذا المسجد في عهد الخديوي المصـــري (إسماعيل باشا) في سبعينيات القـــرن التاسع عشر ، وحمل أسمه . وفي غرب المسجد وعلي شاطئ النهر وفـــي مـــا بين منزل مفتش المركز وفندق النيل ، قامت ثلاثة منازل يقطنها بعـــض كبار الموظفين . ولقد تم بناء فندق النيل ـوالذي كان يحتل مساحة واسـعة حيـــث ينتهي الطريق جنوب المسجد ـمن طابقين وهو أفخر مباني المدينة علي الإطلاق . فمنتصف الفندق يحوي الصالات وغرف الإستقبال ، بيـنما يضـم جناحاه عشرين غرفة جيدة التأثيث والنظافة ، وواجهته مظللة بفـــرندات مقابلـــة لسياج الطابق الأرضي .أما الطابق الأول فله شرفات تطل علـــي حديقة جميلة تغطي كل المساحة الممتدة إلي الشاطئ . وفي الشتاء ـ حيـــن يـبدأ موسم السياحة ـفإن الممر الخلفي الذي يقود إلي صالة الطعام يـــتحول إلي سوق صغير لبيع مشغولات العاج والفضة وريش النعام والهدايا الـــتذكارية السـودانية . وعلـــي شـــاطئ النهر ترسو بصفة دائمة الباخرة (الســـودان) ـالتي كانت مملوكة لشركة (توماس كوك وابنه) إمتداداً للفندق .

وإلـــي شمال منزل المفتش تقع مباني (السردارية) الشهيرة المكونة من أثنتي عشـــرة غـــرفة متجاورة بفرندة تمتد علي طول تلك الغرف . وكان الجنرال (غـــردون) يستخدم الغرفة الواقعة علي الطرف الجنوبي ثم تحولت إلي مقر إقامـــة لكتشنر باشا إبان فترة ما قبل إعادة فتح السودان .ولأن (كتشنر) كان ســـردار الجيش المصري ، فإن المبني قد أخذ اسمه من هذه الرتبة العسكرية حســـبما تسجل تلك اللوحة الرخامية التذكارية المثبتة في جانب من المدخل . وظل المبني محافظاً علي حالة طيبة ، وكان مأهولاً بموظفي شركات الطيران العالمية عندما حللتُ بالمدينة ولكنه –مؤخراً –تم تخصيصه لموظفي مصلحة الطيران المدني .

كـــان منزل المفتش ومبني (السر دارية) يقعان علي مقربة من ورش السـكة حديـــد ذات الجلبة العالية حيث قامت سقائف فولاذية ضخمة تتم فيها صـــيانة القاطـــرات المتجهة إلي الخرطوم وتزويدها بالزيوت ..كانت منطقة الورشـــة مغطـــاة بالرماد الأسود والخطوط الحديدية وحظائر الفحم الحجري وخزانات الوقود ، وتعج بالعمال الذين يرتدون ملابساً لطخها الزيت . كانت الضـــجة اللا متناهية لسبك الحديد وخبطات (المطارق) الرتيبة وأزيز البخار ونفخـــة وصـــليل القطـــارات حيـــن تـــتحول من خط إلي آخر أو قطر وفك المقطورات ، يؤدي إلي خلق إزعاج متواصل . وكانت (الصافرة) الكهربائية التي تطلق ما بين أوقات الراحة الرسمية أثناء ساعات العمل ، تضيف إزعاجاً آخـــر إلـــي ذلك الذي يخيم علي المنطقة . كان خط التحويل الرئيسي يعبر الطريق مباشرةً من أمام بوابة منزل مفتش المركز ، ولم تنس سلطات السكة حديـــد أن تضع إشارتيْ إنذار علي جانبي الطريق لتوجيه سائق القطار بدفع

البخار في (صافرة القاطرة) ، فيسبب ذلك إزعاجاً لا مثيل له . ويفسر أطفالي هـذه العـادة التـي لا تفـتر بأنها تحية من سائقي القطارات لأبيهم المنهك الأعصـاب . وعلـي الشـاطئ خلـف هذه الورش كان هناك مرسي واسعاً لصـيانة البواخر التي تعمل في خط الشلال ويضم المرسي رصيفين أكبرهما صـندل فولاذي عائم والثاني (مزلقان) خرصاني ينحدر من الشاطئ إلي قلب النهر وله عجلات تجري علي قضبان وبكرة كبيرة ذات حبال تستخدم لسحب الـبواخر والصنادل إلي الشاطئ عندما تكون في حاجة إلي إصلاح . وهناك رافعـان عملاقـان يـتحركان علي خط السكة حديد ويطلان علي الرصيف الخرصاني لشحن وتفريغ البضائع ذات الثقل العالي . وكانت هناك- دائماً- أكثر من باخرة في انتظار دورها لدخول هذا الرصيف النشط .. ويمكنني أن أري ثـلاث بواخر راسية في انتظار دورها . وكل البواخر في هذه الناحية تحمـل أسماء فلكية (الثريا- المريخ-الشمس - القمر) وأسماء أخري . وشذ عـن هـذه القاعدة إسمٌ واحد لزورق سحب قوي يسمي (النوبة) تم الاستيلاء علـية من الإيطاليين في البحر الأبيض المتوسط إثناء الحرب العالمية الثانية وجئ به عكس التيار إلي (وادي حلفا) .

وفـي زاوية من زاويا الرصيف وبالقرب من الطريق قام مبني ضخم مـن طابقين يضم مكاتب مدير الحوض وموظفيه وقد تم إرساء حجر أساسه إثـناء سـنوات التحضير لإعادة فتح السودان وتم استخدامه وقتها كمستشفي عسـكري . وفـي الجانب الشرقي من الطريق وبالقرب من حوض البواخر يصطف عدد من (القطا طي) يمثّل النمط التقليدي لمساكن عمال السكة حديد ، وبعض مساكن موظفي السكة حديد يظللها صف من أشجار النخيل .. وهذه

ثم غرسها في الحقيقة بواسطة أسري المهدية الذين نفوا إلي (وادي حلفا) .

هذه كانت المناطق المجاورة لمكان إقامتي وكان انطباعي الأول ، أن نقلـــي قـــد أحدث تغييراً بليغاً في حياتي . فقد انتقلت من منزل منعزل ومن مجـتمع محـــدود في(فنجاك) ، لأعيش في قلب ورشة السكة حديد والمنطقة الصــناعية بكـــل ضـــجيجها . كذلك فقد جئت من منطقة شبه استوائية مليئة بالمستنقعات ذات أمطار غزيرة إلي منطقة صحراوية غير ممطرة .

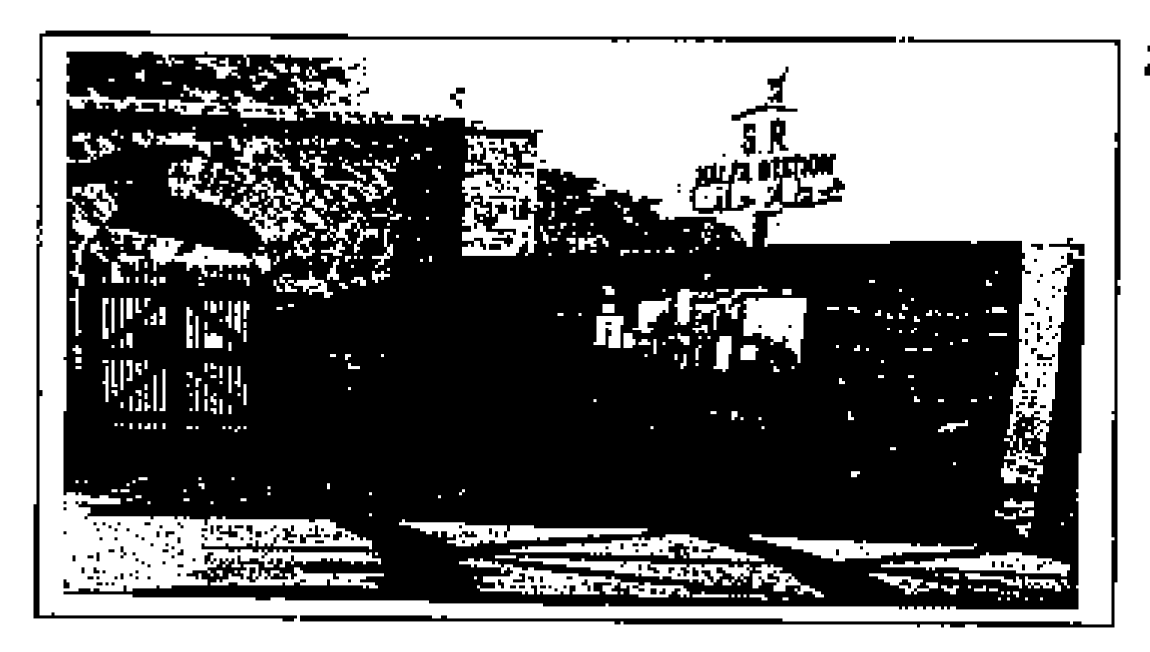
عندما دخلت المنزل كان خالياً تماماً . فقد أخبرني (عبد السميع) أنه كان حريصاً علي إخلائه لدرجة أنه أرسل كل لوازمه وعائلته يسبقانه . ألقيت نظـــرة سريعة علي الغرف ، وسرني أنني وجدتها واسعة بالمقارنة مع بيتي الصغير في (فنجاك) .وقد سحرتني في غرفة النوم رسومات (ميكي ماوس) ومجموعـــة الدببة ذات الملابس الزاهية وهي تعزف الموسيقي . وعلمت أن هذه الرسومات من عمل زوجة أحد المفتشين الإنجليز . كان الطابق الأرضي فسيحاً ومريحاً مما دفع كل من سبقوني للاستغناء عن الطابق الأعلى ، ولهذا فقـــد حـــذوت حذوهم . وبالنسبة لرجل مثلي قضي أربع سنوات ونصف في أدغال (أعالي النيل) ، فقد كانت المدينة المتمتعة بالكهرباء وبإمدادات المياه ضرباً من البدع .

من هناك اتجهنا إلي المكتب . وبعد مرورنا بمكاتب البواخر ، دخلنا ميداناً صغيراً يمتد ما بين كاتدرائية صغيرة في إحدى جوانبه ، ومحطة توليد الكهـــرباء والســـجن مـــن الجانب الآخر ، ورأينا اثنين من حراس السجن يجلسان باسترخاء أمام بوابة السجن ، بينما كان سبعة من المساجين يتناولون وجبـــتهم فـــي ساحة السجن خلف البوابة المغلقة . ثم طرقنا أحسن شوارع

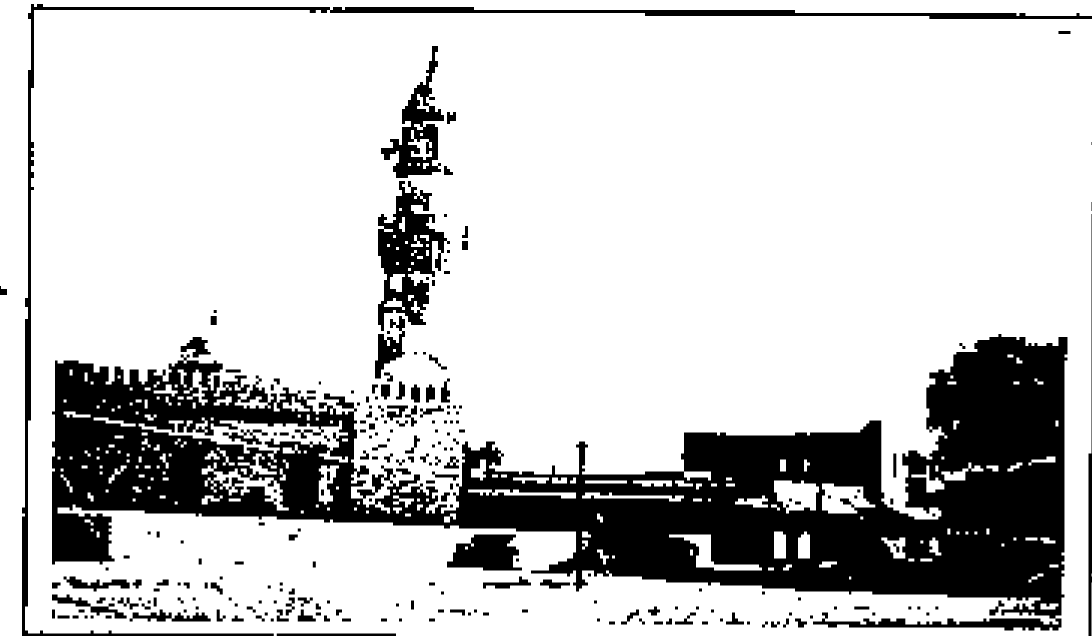
المدينة والذي كان أيضا الأول من نوعه في البلاد . فعلي مسافة تصف ميل حُـف طـريق الإسـفلت بصفين من أشجار النخيل الكثيفة كأنها في اعتدالها مسـطرة . وقامـت سيقانها جنباً إلي جنب في استقامة كاملة وكان الجريد يتهادى برشاقة في مهب النسيم .

لاشـك أن الموسـم كـان طيباً كما يلاحظ من سبائط التمر القرمزي والأصفر المتهدلة من بين الجريد .. وفي وقت لاحق قمت بزراعة أحواض زهـور عريضة علي جانب الطريق كانت تزدهر في الشتاء بألوان زاهية . وينتهي الطريق عند مباني المركز .

ثم شرعنا في مسيرة متسارعة وقمنا بزيارة المصالح المحصورة في مبانـي رئاسة المركز حيث تم تقديمي لكبار الموظفين . كان مبني المركز يقـوم فـي شكل نصف دائرة تواجه النهر من الناحية الغربية وتواجه طريق النخـيل من الشرق . وكان الصف الرئيسي من المبني يحوي مكتب مفتش المركز والكتبة والمسّاح ومكتب الزراعة . ويستخدم الجزء الجنوبي المأمور والمحكمـة الأهلية والمحكمة الشرعية . أما الجناح الشمالي فتحتله المحكمة المدنية ومصلحة الأراضي . وكل المبني مظلل بممر طويل يسير من مبتداه إلـي منـتاه . وخارج المبني تجاه النهر يقوم مكتب الشرطة بمخزن سلاحه الـذي يخفره ليلاً ونهاراً حرس مسلح . وتظلل منتصف ساحة المبني أشجار عتـيقة مورقـة يلوذ بظلها جمهور الرجال والنساء الذين ينتظرون يومياً ما تتمخض عنه دعاواهم أو لمتابعة القضايا المعلن عنها أمام المحكمة في تاريخ معيـن . وهكذا انتهي يوم العمل الأول لوصولي . وفي خلال الأيام العديدة التالية فرغت من زيارة ما تبقي من المصالح ...



محطة السكة
حديد (حلفا)

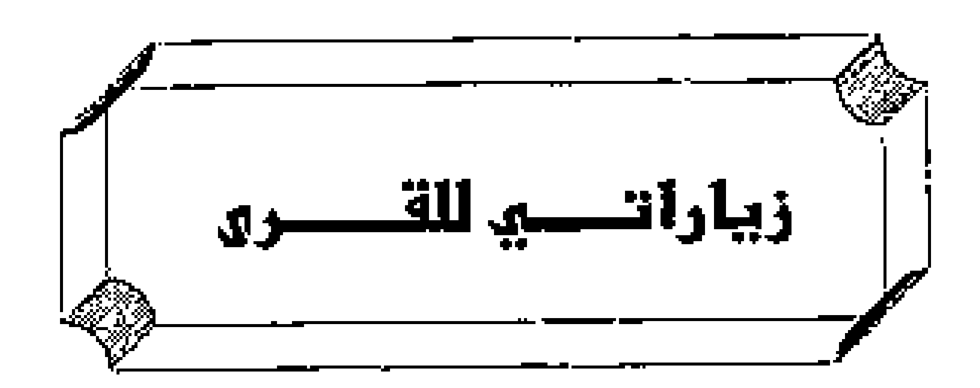


جامع التوفيقية



شاطئ النيل
(منازل وشركات)

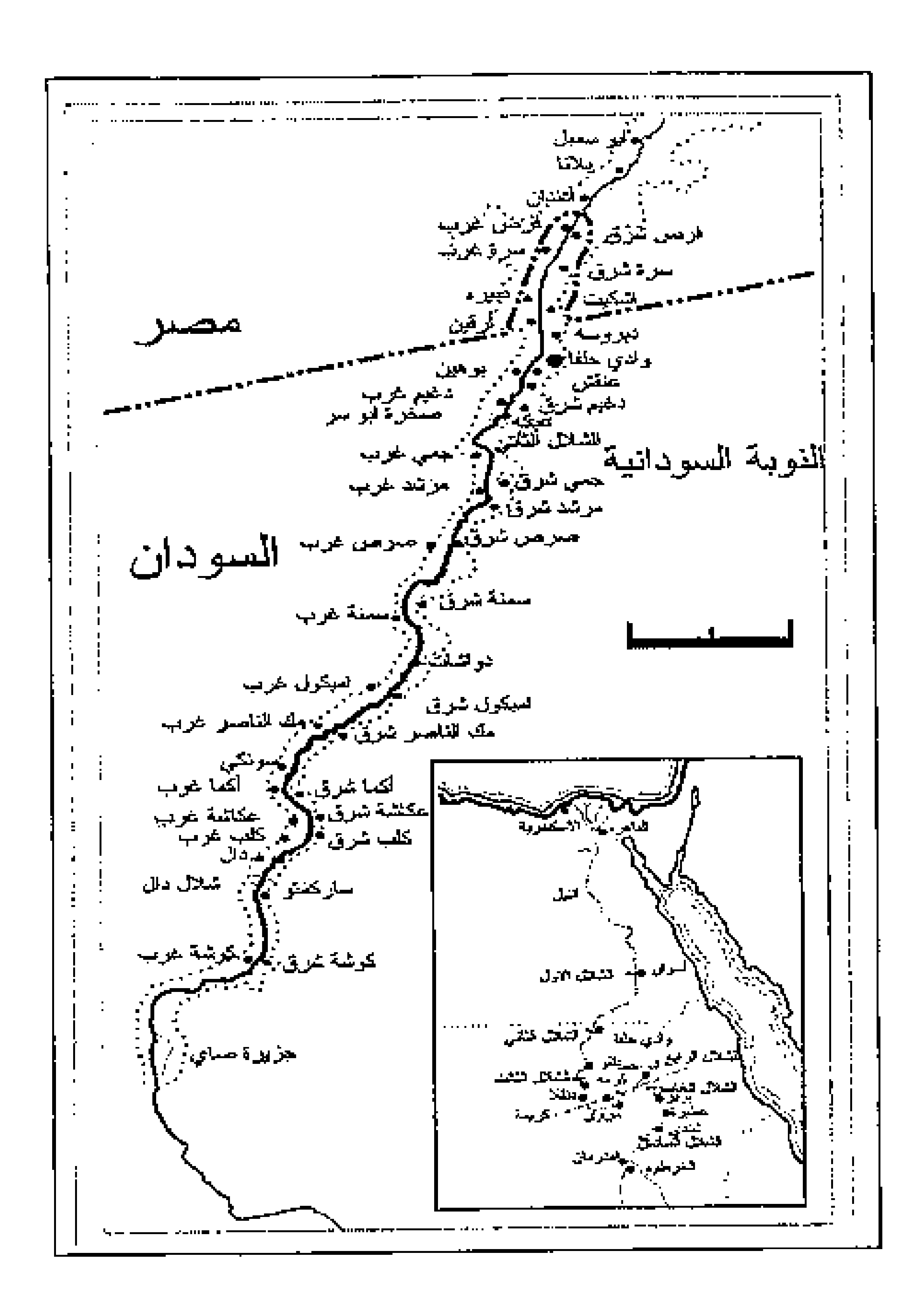
الفصل الثاني



في اليوم الرابع قررنا أن نسافر شمالا لزيارة النقطة الحدودية(فرص.) وعندما عبرنا حدود المدينة مررنا بقرية صغيرة يقال لها(شيخ على) تقع على حافة منحدر الجبل حيث تزرع أحواض قليلة في اتجاه النهر . وفي زاوية من زوايـــا القرية التقطت أبصارنا مئذنة حجرية لمسجد صغير . ويفصل سهل أمتد لمسافة ثلاثة أميال هذه القرية عن قرية (الصحابة) ذات المنازل الطينية المنتشـــرة عـــند سفح (جبل الصحابة) . كان ذلك الجبل نسيج وحده فهو يقع تماما على نقطة عبور خط ٢٢ للنيل وبالتالي فهو ذو أهمية سياسية ومساحية ، فضـــلا عـــن أن اســـمه قد جلب العديد من الروايات .فقد قيل أن عدداً من المســـلمين الصالحين قد زاروا هذه المنطقة في فجر الإسلام وربطوا خيولهم في قمة الجبل ولهذا فقد سمي جبل صحابة رسول الله محمد (ص) . كذلك فان الجبل قد انغلق عن نتوء في سلسة الجبال الرئيسية التي تشمخ بمحاذاة النهر ، ويســـد الطريق أمام القطاع الشمالي للسلسلة بحيث لا يبقي سوى فسحة تقدر بياردات قليلة تسمح بمرور الخط الحديدي وطريق السيارات . ونسبة لوجود أكـــوام من الحجارة المكسّرة عند سفحه ، فإن هذا يعتبر دليلاً علي أن المكان كـــان يوما ما محجراً لأغراض البناء. وعند النظر من سفح الجبل إلي جهة الغـــرب يشـــاهد المرء بوضوح قرية (أرقين) على الضفة الغربية بمدارسها وعياداتها الطبية التي اكتست حلة من الجير الأبيض . كما يشاهد غابة النخيل الكثـــيفة علـــى ضفة النهر. ومن جبل الصحابة وعلى بعد ثلاثة أميال عبر فضاء من الرمل يصل المرء قرية (اشكيت) .

تمـــتاز (أشكيت) بمنظر بهيج خصوصاً لمن يراها أول مره . وهي إحدى أكبر مناطق النوبيين المأهولة في القطاع الشمالي من المركز ، وكانت

تقـــع فـــي نهايـــة المنطقة المروية لمشروع (دبيرة) الزراعي . كانت القناة الرئيسية للمشروع تبدأ من الطرف الجنوبي وتسير موازية للطريق المتجه إلي دبـــيرة وكانت مضخات المياه تحمل على مراكب طافية قرب الشاطئ . لقد خططت القرية على سهل منحدر وعلى سفح سلسلة من الجبال الصخرية التي تمـــتد جنوبا وشمالا . وإلي الغرب ما بين القرية والنهر زرعت الأرض تبعاً للدورة الزراعية واستظلت بأشجار النخيل المتفرقة التي تتشابك ويزداد عددها كلما اتجهنا إلي النهر حتى تصبح غابة كثيفة على الشاطئ . كانت (أشكيت) قـــرية نموذجـــية مـــن حيث انتمائها النوبي التقليدي ، وكل بيت يقوم كوحدة مســـتقلة عـــن جـــيرانه ، وغرف المنزل تحيطها أربعة جدران في منتصفها (صـــالة) وأغلب المنازل لا تحتوي على أي نوافذ ، فيما عدا فتحات صغيرة فـــي أعالي الجدران وتحت مستوي السقف مباشرة ،والذي يتمدد على جدران من الطين القوي من القاعدة إلي القمة تتخللها بوابة كبيرة من الخشب المحلي تغلـــق بمزلاج نوبي تقليدي ... هذا المنزل يعطيك الانطباع بأنه شبيه بقلعة عتـــيقة ويذكرني بنوع العمارة في سجون وسط السودان . وفي المتوسط فان مســـاحة البيـــت تـــبلغ ٤٠٠ متر مربع (٢٠م×٢٠م) وبوابته تكون دائما في منتصـــف الحـــائط الأمامي وتفتح على صالة صغيرة مساحتها ٣×٤ أمتار . ومن يمين أو يسار الصالة ديوان الضيوف وهو أوسع غرف المنزل وأحسنها أثاثا . وتجاور هذه الغرف حجرة نوم كبيرة تفتح على الصالة أما بقية غرف العائلة فإنها تقوم متجاورة حول حدود الحائط وهي في المتوسط ثلاث غرف . وفي الخلف يقوم المطبخ والمخزن . وعلى طول الحائط الخارجي الأمامي تقوم مسطبة عرضها متر واحد وارتفاعها نصف متر ومبلّطة – مثل الحائط


مصر
السودان
النوبة السودانية
أبو سمبل
أدندان
سرة شرق
سرة غرب
وادي حلفا
عنقش
بوهين
دغيم غرب
دغيم شرق
صخرة أبو سر
الشلال الثاني
جمي غرب
جمي شرق
مرشد غرب
مرشد شرقا
صرص غرب
صرص شرق
سمنة شرق
سمنة غرب
دوشات
لميكول غرب
لميكول شرق
مك الناصر غرب
مك الناصر شرق
أكما غرب
أكما شرق
عكاشة غرب
عكاشة شرق
كلب غرب
كلب شرق
دال
شلال دال
ساركمتو
كوشة غرب
كوشة شرق
جزيرة صاي
القاهرة
الاسكندرية
أسوان
الشلال الأول
وادي حلفا
الشلال الثاني
الخرطوم

الرئيســـي للمبنـــي – بالـــرمل الجيري الناعم . وتستخدم النساء هذه المسطبة في مناسبات الأفراح والأتراح .

إن تفــرُّد ملامـــح المـــنازل في (أشكيت) يأتي من زخارفها التي تبز مثــيلاتها فـــي القرى الأخرى . فالجدران الداخلية للغرف وخصوصا غرف الضيوف تزخر بأشكال من الجير الملوَّن أو بصحاف الصيني . كذلك يستخدم المحـــار والحصـــى الملون . وفي بعض الحالات تكون الرسومات نباتات أو حيوانات أو أشكال هندسية ملونة . وفي بعض المنازل فإن المحّار والحجارة تصاغ لتعطي صوراً فسيفسائية أو حروفا ذات مغزى ديني مثلما هو الحال – في أغلب الأحيان – في تشكيل اسم الجلالة . وعلى صفحات الأسوار المجيّرة لـــبعض البيوت ، تقوم النساء الحاذقات برسم أشكال مزخرفة لأشجار النخيل والناس والحيوانات والفاكهة .

هـــنالك تخميـــنات عديـــدة حول نشأة طريقة زخرفة مداخل البيوت . فـــبعض الدارســـين يظنون أنها موروثة من تأثير الأساطير المصرية القديمة التي فقدت مغزاها الديني بمرور الزمن حتى صارت مجرد زخرفة لا غير . وآخـــرون – مثل السيد إبراهيم احمد – يعتقد أنها رقية لوقاية البيت وقاطنية مـــن (العيـــن) . وفي العادة فإن صحاف الصيني توضع بالضبط على عتبة مدخـــل البوابة في شكل أربعة خطوط تمثل الحرف اللاتيني (M) بالإضافة إلى صحنين يوضعان فوق الزاوية الوسطى للحرف لتعطي في منظرها شكل قبة الضريح الذي ترفرف راياته من الجهتين . إن متوسط عدد الصحاف التي تســـتعمل لهذا الغرض يصل الثلاثين . وفي حالة فقراء الناس فإن هنالك عدد أقل من الصحاف. وفي بعض الأحيان لا يري سوى صحن واحد مثبت في

منتصف العتبة العليا للبوابة . وفي أحد المنازل هنالك بوابتان على الطريق الرئيســي (لأشكيت) تلفتان النظر بتميز خاص ينعكس من الزخرفة البديعة التي تتداخل فيها خطوط (الجبص) المرسومة بإحكام في شكل خطوط هندسية مســتقيمة ودوائــر تــتداخل فــيها خطوط متعرجة بارزة . وهذا النوع من الزخــرفة يغطي مساحة عرضها متران في جانب من جوانب البوابة ، بينما يتمــيز أعلى العتبة بنصف دائرة من التعرجات البارزة وهلال ونجمة . وهذه النــتوءات الجبصية البارزة يتم طلاؤها بالجير الأبيض أو الملوّن . وهناك صـــانعان ماهــران همـــا: (حسن عرابي) و (أحمد بتول) معروفان في هذه المنطقة بصناعة هذه الزخارف البديعة وكلاهما ينسب إلى قبيلة العقيلات[1] في مصـــر ، لكنهما يقيمان في هذه المنطقة. وهما يقومان أيضا بعمل الزخارف الداخلــية – غالباً – في غرف الضيوف بالبيوت النوبية[2] .ويحتل منتصف القــرية مبنى ضخم ذو طابقين تملكه أسرة (أيوب) وهي من أكبر الأسر في (أشكيت)وتم بناؤه على الطراز الحديث ويتميز بأقواسه الرومانية .

يفصــل (أشــكيت) عــن قرية دبيره (أكثر القرى سكاناً في شمال المركــز) فضـــاء رملي ضيق . وهي في حقيقة الأمر مجموعة من القرى المتلاصــقة المنتشــرة فـــي مابيــن سلسلة التلال من الناحية الشرقية والنيل .فالجــزء الأوســط حيــث (دبيرة) الأصلية يقع عند أسفل التلال الممتدة في انحدارهـــا نحو الطريق الرئيسي وخط السكة حديد . هنا يبرز منزل الناظر

---

(١) يوردها المؤلف:"علبقات"والصحيح" عقيلات"أي"بني عقيل"بن أبي طالب. وقد نبهني د. خيري عبدالرحمن إلى أن المسمات خلفاويان. المترجم .

(٢) قام الأستاذ : أحمد محمد علي حاكم بمسح لأعمال هذين الفنانين تضمنتها الورقة (رقم ١/ ١٩٦٥) التي نشرتها وحدة أبحاث السودان جامعة الخرطوم . إنتقل الأستاذ حاكم إلى رحمة الله في وقت لاحق وتطورت وحدة أبحاث السودان إلى : معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية.المترجم .

صـــالح عيسى عبده (صالحين) الجميل الضخم والمبني من الصخر الرملي بفرنداته الفسيحة وسقفه الأسمنتي . وهو أكبر المنازل في هذه الناحية ويغطي مساحة من الأرض تفوق الفدان . وإلي الشمال من هذا المنزل صفان طويلان من شجر النخيل يسيران متوازيين نحو الغرب وبينهما القناة الرئيسية القديمة لمشروع (لويزو) المروي . أما منطقة ما بين الطريق والنهر فقد كانت سهلاً منبســطاً يظل مخضراً طوال العام بمنتجات الدورة الزراعية وبساتين النخيل حيث تنتهي – كالعادة – عند ضفة النهر بغابات كثيفة من شجر النخيل . وهنا يمكن رؤية المبني المهجور لمضخة مشروع "لويزو"بمدخنته العالية المبنية من الطـوب الأحمـر ، وإلــي الجنوب الغربي لدبيرة – وفوق سهل مرتفع من الحصـــي – تقع قرية (الحصا) التي يبدو أنها قد استمدت إسمها منه وحول القــرية يمــتد سهل فسيح أخضر طوال العام لكنه يخلو من أشجار النخيل . فأشــجار النخـيل التـــي تمتلكها القرية توجد في الناحية الجنوبية قرب قناة المشروع وعند شاطئ النهر. وفي أقصى شمال (دبيرة) تلقاك قرية (هاجر) التـــي تنتشـــر بيوتها عند أسفل الجبال إلي حدود المنطقة المزروعة . وهكذا فإنها تحتمي جيداً بظلال النخيل . وإلي الشمال من هاجر تقع أطلال دبيره القديمة مغروسة في الرمال قرب شاطئ النهر.

بُنيت كل المنازل في قري دبيره على الطراز النوبي التقليدي وأغلب مداخـــل البـــيوت مزخرفة بصحون الصيني لكن شكلها لا يرقي إلي زخرفة "أشـــكيت" .وإلـــي الشمال قليلا من هاجر تقع (سره شرق) وبما ان مشروع دبـيره الزراعي ينتهي عند (هاجر)، فإن على سكان (سره) أن يعتمدوا كليا على السواقي لري أراضيهم . وهم يملكون – نسبياً – أرضاً زراعية ضيقة

وعـــدداً أقــل مـــن أشجار النخيل بالمقارنة مع القرى الجنوبية . فالقرى مثل "اشكيت" "ودبيرة" تقوم على أرض مرتفعة عند أسفل المنحدر وتنتشر منازلها إلـــي أسفل في اتجاه الطريق الرئيسي حيث تقف أيكة من أشجار التين البرية العملاقـــة لتحجـــب حدودهـــا الغربية عن الأنظار . وإلي الشمال من (سره) يـــنحرف الطـــريق شرقا ويمر - تقريبا - فوق قمم السلسلة المنخفضة من الـــتلال . ويـــبدو منظر النيل من هنا مدهشا . وفيما عدا الشريط الزراعي الضـــيق علـــى طول الضفتين بالإضافة إلي منازل النوبيين وربما زوج من "الفلوكات[1]" تسبح بأقصى سرعتها، فإن المشهد ليس سوى قفز رملي وتلال صحراوية تمتد حتى الأفق . وبعد مسيرة عشر دقائق بالسيارة يصل الراكب إلـــى (فـــرص شرق) ذات المنازل المنتشرة على المنحدر المتجه نحو النهر. وفـــي طـــرفها الشـــرقي يقف مسجد القرية المبنى بالطوب الأخضر بمئذنته المنخفضة ونوافذه المقوسة التي جعلتني لأول وهلة أظنه برجاً لمراقبة الحدود

يعتمد السكان هنا كلياً على زراعة أرض (جزيرة فرص) الواقعة في منتصـــف النهر قبالة القرية وهي جزيرة دائمة الخضرة تتخللها مجموعة من أشجار النخيل بينما تدير الثيران سلسلة من السواقي لري الحقول الخضراء .

وعلي بعد أربعة أميال شمال (فرص) تنتصب نقطة الحدود على قمة تل صغير يخفق فوقها علم السودان عالياً . وتتكون النقطة من مخزن للسلاح والذخـــيرة ومسكنين لرجال الجيش والشرطة الذين يحرسون الحدود . وفي أســـفل ذلك التل تقبع خرائب كنيسة قديمة بني نصفها بالحجر ونصفها الآخر بالطوب الأخضر وعلي منتصف حائطها الغربي تم تثبيت إشارة طريق تحمل

---

[1] الفلوكة : مركب شراعي صغير وسريع الحركة - المترجم .

الحرفيــن اللاتينييــن S – E [1] وهكذا تفصل الكنيسة بين نقطتي الحدود • وعلــى الضفة الغربية توجد علامة مماثلة فوق الأرض علي بعد مائتي يأردة من حيث كنا نقف. وعبر وادٍ رملي ضحل ، كان يمكننا أن نري نقطة الحدود المصرية ذات الغرفتين وخيمة التفتيش يرفرف عليها العلم المصري • وعبر الحــدود يمكــن رؤية قرية (أدندان) بأدق التفاصيل من نقطة حدودنا •وهي مبنــية على نفس طراز ومستوي (فرص) مع احتمال زيادة في أعداد أشجار النخيل وسعة في الأرض الزراعية •

تــبدأ قري الضفة الغربية بـــ (فرص غرب) في الشمال وهي قرية صـــغيرة وأشــد قــري القطاع الشمالي فقراً ، فأراضيها الزراعية شحيحة وأشـــجار نخـــيلها محدودة والمباني ذات مستوى متدن تقوم غالباً فوق كثبان الرمل. وليس هناك حزام شجري يحمى القرية من الرياح الشمالية التي تحمل إلـــيها سحباً من رمال الصحراء • وعلي مسافة قصيرة غرب (فرص) يوجد منخفض من الأرض تنساب إليه مياه النهر وتتراكم لتخلق مستنقعاً صغيراً • ولأن مياه هذا المستنقع مالحة.فإن هذا يدل على وجود ترسبات لمعادن مالحة تحـــت الطـــبقة الأرضية للقرية • ونسبةً لخلو القرية من الزراعة ، فقد برع أهلهـــا فـــي تسيير المراكب وركوب الإبل • والحرفة الرئيسية هنا هي نقل البضائع بالمراكب من وإلي بلادنا (الواقعة على الحدود المصرية)•

وإلـــي الجـــنوب مـــن (فرص) توجد "سرة غرب" فدبيرة غرب ثم "عكشة" وكل هذه القري تقريباً تشبه "سرة شرق" مع احتمال ندرة في الزراعة وأشجار النخيل .• ومن الملاحظ أن الكثبان الرملية تختفي تدريجياً في اتجاه

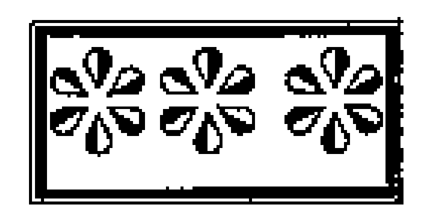
---

(١) يرمز حرف (S) إلى السودان ويرمز حرف (E) إلى مصر – المترجم •

الجنوب حيث تنعدم تماماً عند القرية الكبيرة "أرقين" .

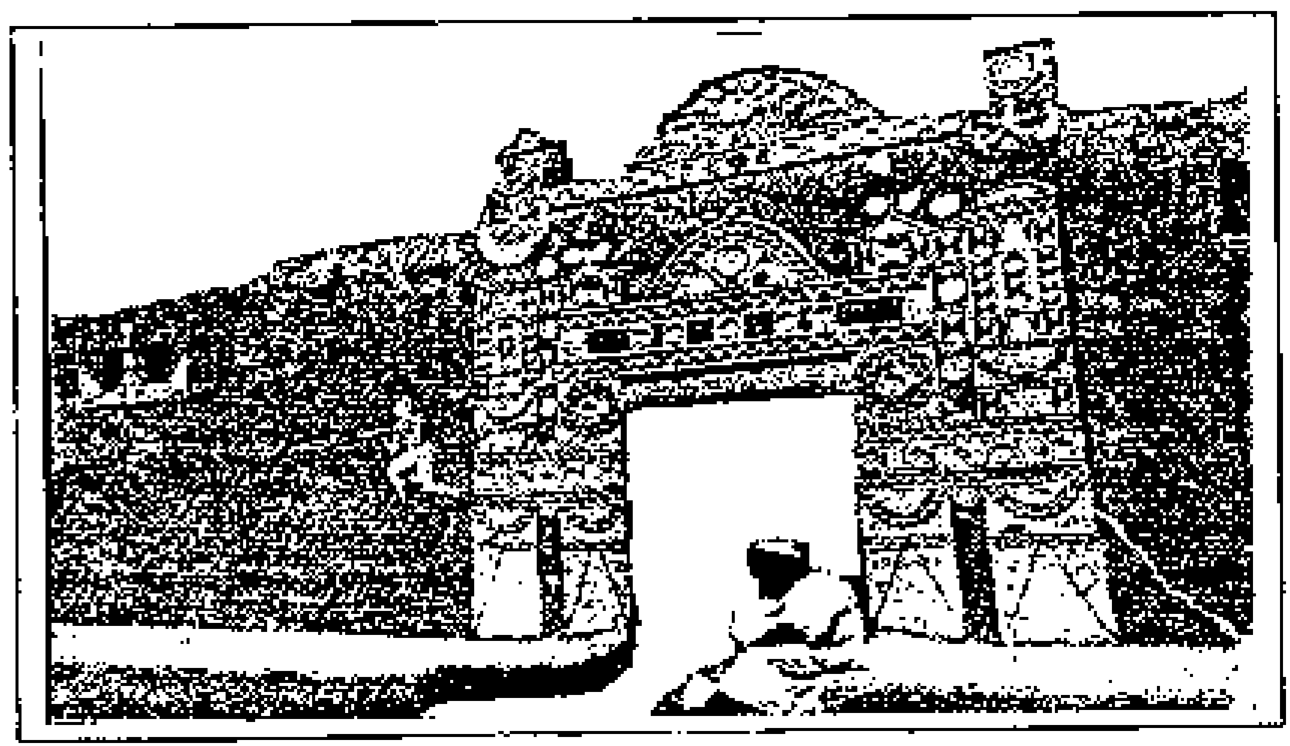
إن قرية (أرقين) هي إحدى أكبر المناطق المأهولة بالسكان في القطاع الشمالي للمركز وتأتي في المرتبة الثانية بعد (دبيرة) لكنها أكبر قري الضفة الغربية.وهي عنقود من ثلاث قري متجاورة تكوّن في مجموعها أكبر المناطق السكانية في المركز وهذه القري الثلاث هي (أشاويركي) (وسيلادوس) (وشاركوتاري) وقد بنيت على منحدر صخري متدرج موازٍ للنيل ويفصلها عنه حزام زراعي يروي بالسواقي أو المضخات. أما المنازل فتصعد تدريجياً منتظمة في صفوف ، فيراها الناظر من الجهة الشرقية عند جبل الصحابة (خاصةً المنازل التي في الواجهة) بوضوح من أساسها وحتي سقوفها . وتبدو ضفة النهر مغطاة بغابة نخيل كثيفة تمتد إلي مسافة ثلاثة أميال تقريباً جعلت أبناء (أرقين) يفخرون بما يملكون من النخيل ويطلقون علي قريتهم (عروس النخيل) .

وبالرغم من أن النوبيين – عموماً أناس مؤدبون ، إلا أن أبناء (أرقين) يمتازون بشعور مرهف تجاه الآخرين ومستوى تعليمهم أعلي من بقية سكان القطاع الشمالي حيث يأتي مباشرةً بعد قرية (دغيم) وذلك قياساً علي كل المناطق الريفية للمركز .





إبراهيم أحمد



البوابة النوبية التقليدية

الفصل الثالث

وصف مدينة (وادي حلفا)

تقع مدينة (وادي حلفا) على الضفة الشرقية لنهر النيل وتستلقي على سهل منبســط يتوســط سلسلة من الجبال المنخفضة من جهة الشرق والنهر ،وباستثناء إرتفاع طفيف عندحافته الشمالية، فإن هذا السهل مستو ويميل قليلا في اتجاه النهر . والــتربة عموما من الطمي الأسود الذي تغطيه غلالة من الرمل الناعم . والسلسة الجبلــية تمــتد من الشمال إلى الجنوب بما يبعد أربعة أميال من النهر عند طرفها الجنوبي ، ثم تضيق حتى تتراجع إلى مسافة ميل واحد عند حدودها الشمالية .

وكانــت المنطقة السكنية مقسمة إلى قطاعات قبلية أو أهلية فالسكان الذين يقطنون المدينة والبالغ عددهم (١١٠٠٠) نسمة موزعون على الأحياء بتنوع عرقي فريد . فالمنطقة الواقعة شمال السوق وحتى (دبروسة) كانت سكناً للتجار من ذوى الاصــل الســورى والمصرى والذين أقاموا هناك منذ خواتيم القرن التاسع عشر. وكانوا أغنى قطاعات المجتمع وكانت منازلهم ــ غالبا ــ مكونة من طابقين وتحتل كــل المســاحة الصــغيرة المخصصة لها بحيث لا يبقى متنفس منها بين الغرف المتلاصقة . وهى مبنية بالطوب الأخضر المطلي بالجير فتبدو وكأنها من الحجر. أما الأبواب والنوافذ التى أكلتها (الأرضة) فعتيقة . أما الشرفات المزخرفة بالخشب المطلــة على الأزقة الضيقة فتضفى مسحة تركية على كل المنطقة، ويحتل مسجد ذو مئذنةعالــية ــ بــناه الخشيوي توفيق ــ موقعا يشرف على مجرى النهر ، هذا الحي كان يطلق عليه (التوفيقية) مما يتضح أنه نشأ على عهد توفيق باشا . وتشغل مدرســة مصرية ــ بالقرب من الكنيسة القبطية ومبانى المجلس البلدى ــ المساحة الواقعة إلى الشمال من هذه المنطقة .

وســوق (حلفا) هو أبرز معالم المدينة قاطبة ويشغل المساحة ما بين محطة السكة حديد والتوفيقية ويتكون من ٤٠٠ دكان قائمة فى خمسة صفوف من الشمال إلى الجنوب تربطها أزقة ضيقة . ومبانى الدكاكين غالبا حجرية وبلا مظلات تقى المشــاة أو الــتجار حــرارة الشــمس .وبعضــها خاصة تلك التى تواجه الغرب تحــتمىبحواجز مصــنوعة من ألواح الخشب العتيق المثبت أعلى عتبة الباب وقد تركت تتدلى بحالة يرثى لها .

ومؤكد أن السوق على كل حال يعتبر مركز حركة المدينة كلها وهو يمور بالمشــترين والباعة كما يكتظ بالبضائع . وفي الحقيقة فهو يحوى من البضائع بما يفــوق ســعته كما يرى من السلع المكدسة على أرضية أغلب الدكاكين والتى تملأ أيضــا الرفوف حتى السقوف . فتجار الأقمشة السوريون يتعاملون فى كافة أنواع المنســوجات بدءاً بالصوف الانجليزى والنايلون وانتهاءً بالدمورية وأنواع الأقمشة

الشـــعبية. والـــتجار المصـــريون تمتلـــئ متاجرهم بآنية الطبخ والأدوات المنزلية وحاجـــيات الإستهلاك المتنوعة (البقالة) . أما التجار النوبيون فيتعاملون في السلع المـــتعددة التـــي يحـــتاج إليها الانسان في حياته اليومية .وفي أركان السوق توجد المقـــاهي ذات الأثـــاث الرديء ــ في أغلب الأحيان ــ وأجهزة الراديو المفتوحة (علـــى الآخر) .. هنا يلتقي المهربون والمتبطلون ويتقاطر متصيدو الأخبار على محطـــة قصـــهم اليومي بينمايتصاعد دخان التبغ من فوهة الشيشة التركية . وهذه المقاهي تهئ مناخا خصبا للإشاعة لتبيض وتفرخ .

بالإضـــافة إلـــى هـــؤلاء الـــتجار المتنوعين فإن السوق تعج بالإسكافيين والنجاريـــن والحدادين وبائعي (الأنانيك) والخياطين وبائعي الفاكهة وتجار الغلال الذيـــن يصدرون التمر إلى مصر ويشتغلون كوسطاء في بيع السلع المختلفة . وفي الطـــرف الشمالي من السوق تنهمك المخابز في إنتاج الخبز وتدور المطاحن بنقيق القمح والحبوب أما جزارات اللحم وعرائش بيع الخضروات فتقع في زاوية السوق الشـــمالية الشرقية . وهذا الجزء من السوق مزدحم على الدوام وشديد الضوضاء صـــباحا . فالقصـــابون يصيحون بأعلى أصواتهم ينادون جمهرة المتسوقين الذين يمـــرون أمامهم بسلالهم الفارغة . ويتعارك باعة الخضر حول كمية من الطماطم والبطـــيخ وحـــزم الملوخية التي نزلت لتوها من فوق ظهورحمير المزارعين بينما يتصـــايح باعة الخبز والدولجن والبيض لجذب المشترين وينادي باعة الشاي على ســـلعهم بـــتحريك الأكواب بين أصابعهم في ايقاع كما يفعل الراقص الأسباني . أضف إلى كل هذا نباح الكلاب الضالة حول الجزارة وصياح الدجاج والبط ونهيق الحمـــير وضوضاء المطاحن الشديدة . وفي الحقيقة فإن هذه الفوضى الشاملة هي الـــتي تجعل كل شخص يناضل لإسماع صوته للآخرين . وعلى ضفة النهر وفي الطرف الغربي للسوق تقوم منطقة الفنادق والمطاعم والحانات ووكالات السياحة . وعـــند مدخل الطريق الرئيسي في الطرف الجنوبي تبرز مباني المدرسة الحكومية الوســـطى بداخليتها ذات الطابقين .وفي شرق السوق يوجد ميدان فسيح يستخدم في الاحـــتفالات الوطنـــية وهذا الميدان يفصل السوق عن حي أركويت الذي يقطنه ــ عمومـــا ــ العليقات (العقيلات) والكنوز والأسر ذات الأصول المصرية . ومنازل (على حسب الله لاشين وعبد الغني علي موسى وعبده أحمد سليمان وشوربجي آدم) ذات الطابقيـــن هي أبرز المباني في هذة المنطقة وبقية المساكن مبنية من الطوب الأخضر المبلط بالرمل الجيري ومطلي بالجير الأبيض . وفي الطرف الشمالي لهذا الحـــي تقـــع مســـاكن الشرطة ذات السقوف المقببة . وفي الطرف الجنوبي يشمخ ضريح (سيدي إبراهيم) على الحدود الشمالية للمقابر . وسيدي إبراهيم الميرغني[1]

---

(١) هو السيد إبراهيم بن السيد المحجوب بن السيد محمد سر الختم بن السيد محمد عثمان (الختم) – المترجم

هــو (إبن عم السيد على الميرغنى زعيم طائفة الختمية) الذى توفى فى وادى حلفا وهو فى طريقه إلى القاهرة . أما المدرسة الأهلية الوسطى ذات المعمل ذي المبنى الــرائع ، ودار الســينما ذات الشاشـــة العريضة المقوسة فيقعان أيضا فى الطرف الجنوبي لهذا الحي .

وإلـــى الجنوب من هذا الحى وفى مواجهة المستشفى ومبنى المركز تماما يشــاهد المرء البنايات الجديدة لحى(العباسية) المبنية من الحجر بنوافذها الضخمة ذات الاقواس والخالية من الخشب والتى فتحت على الحائط الخارجي . ومن خلف هذيــن الصــفين من منازل (العباسية) الأنيقة ، يقع حى (التبس)[1] ببيوته الطينية المــزدحمة التى ماهى إلا صورة للبؤس . وهذا الحى فى الغالب تسكنه بعض أسر (الكــنوز) والعمال من غير الأصول النوبية السودانية . وإلى الغرب من هذا الحى وعــبر الطريق الرئيسى ، يمتد (حى عثمان) المبنى بذات المستوى البائس والذي يقطنه خليط شبيه لسابقه من السكان . وإلى الشمال قليلا من أركويت ــ وبانحياز قليل جهة الغرب ــ يمتد حى (البصاولة) على مدى ميلين كأكبر أحياء المدينة . ولان سكان هذا الحى يفوقون سكان بقيةالمدينة عددا فقد سار عليهم لقب (الروس) وكــان الأجدر أن يطلق عليهم (الصينيون) . وهؤلاء جميعهم كانوا من المصريين الذيــن هاجروا من صعيد مصر ليجدوا عيشا سهلا فى(وادى حلفا) فاستقروا هناك وتجنسوا بالجنسية السودانية.وهم طبقة مجتهدة ولذا فقد كان أكثرهم يمتهنون أعمالا يدويـــة شاقة فى السوق وفى المصالح الحكومية . فبعضهم من صغار التجار وقليل مــنهم من أغنيائهم وبما أنهم قد جاءوا إلى (حلفا) خلال الأربعين عاما الأخيرة فما زالوا يتمسكون بمظاهر الحياة التقليدية للفلاحين المصريين . ومنازلهم ضيقة وغالبا ما يبيتون فى الطرقات الرملية صيفا ولا يأوون إلى غرفهم المحدودة إلافى الشتاء . وتقالــيد الســكن عندهم صعيدية تماما فدواجنهم وبطهم وأوزهم وغنمهم وحمامهم يقاسمهم السكنى . وعند المرور بأى شارع فى حى (البصاولة) فإن المرء لا يخطئ رائحة الدواجن المختلطة برائحة الخبز الحار، تداهمك كليا فى نفحة واحدة . غير أن أكثر المبانى تميزا هنا منازل(حاج زيدان) و (سيد حامد) فهما من علية القوم،

وبالرغم من أن (البصاولة)غير محبوبين من قبل النوبيين ، لكنني وجدتهم مهذبيــن وواقعيين ومجتهدين . وخلال إقامتى فى (وادى حلفا) لاحظت رابطة الدم الــتى تجمع بين بصاولة(وادى حلفا) وبصاولة ومدنى (المدينة التى تقع فى وسط السودان) فوجدت أن المجموعتين فى الأصل قد هاجرتا من(بوصيل)[2] في صعيد مصر وانحدرتا من أصل واحد.

---

[1] وردت (التبت) في النص الإنجليزي – المترجم.

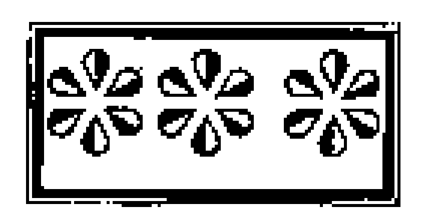
(٢) بوصيل :تعرف أيضا بـ (بصيلة) – المترجم .

وإلـــى الشـــمال مـــن حى (البصاولة) بمحاذاة الشاطئ يقع حى (دبروسة) منفصـــلاعن حـــى (التوفيقـــية) بملعب كرة القدم وبمقبرة صغيرة وبحديقة المركز المــــثمرة وبنادى الموظفين ونادي الشرطة . وكان هذا الحى هو أصل مدينة(وادى حلفـــا) ويرجع تاريخه إلى ما قبل نشأة (التوفيقية) .فقرية (دبروسة) كانت معروفة قبل أن تبعث مدينة (وادى حلفا) إلى الوجود .وهذا ما يؤكد أن هذا الحي هو الوحيد من جملة أحياء المدينة الذى لايسكنه غير النوبيين . فأغلب المنازل مبنية من الطين علـــى الطـــريقة النوبية إلا قليل جداً منها بنى على الطراز الحديث . وبما أن هذا الحـــى يمـــتد بعـــيدا عـــن السوق فقد أنشأ المجلس البلدى فيه سوقاصغيرا لمقابلة إحتياجات المستهلكين اليومية .

حتى عام ١٩٤٦ م كانت (دبروسة) تقوم على شاطئ النهر ، لكن عندما حدث الفيضان فى ذلك العام غرقت كل المنازل فأضطر الأهالي إلى الانتقال بعيدا والسكن فى الأماكن المرتفعة . وتحول موقع القرية القديم إلى رقعة زراعية تنتج أنواعا من المحاصيل وصارت غابات النخيل الكثيفة قبالة شاطئ النهرمعلما على ذلك الموقع .

وإلـــى الشرق من (دبروسة) وإلى الشمال من حى (البصاولة) يمتد (حى الجـــبل) أفقـــر أحياء المدينة والذي لا نجد فيه إلا قليلا من المنازل ذات المستوى المتميز عن باقى سكن الأهلين . فأغلبية المنازل بائسة ومحصورة وضيقة كأبراج الحمام . وسكانها تجرى في عروقهم الدماء الزنجية من سلالة الفرقة السودانية التي كانـــت تـــرابط فـــى (القيقر)[1] أثناء سنوات الإستعداد لإعادة فتح السودان . وقد حافظوا على بعض تقاليدهم الأصلية مثل رطانتهم وغنائهم ورقصتهم الشهيرة التى تعرف بـــ : (الكمبلا) .

وخلـــف الجبل هناك مقبرة صغيرة ثم هناك مشروع (محمد على ابراهيم) الزراعـــي الـــذي يغطى المساحة ما بين الجبل (ومعسكرات) الجيش الواقعة على الحدود الشمالية للمدينة.



(١) القيقر : حصن مرتفع – ص ٩٤٩ : قاموس اللهجة العامية – عون الشريف – المترجم .

الفصل الرابع

تأريخ مدينة (وادي حلفا)

لعله من قبيل الفائدة ، أن نفرد عدداً من الصفحات لتاريخ (وادي حلفا) ، لأن هــذا الجانب عموماً لم يجد من يقوم بتسجيله • فالذين عاصروا سكان المدينة الأوائل هم الآن من الأموات ، ومن كان منهم علي قيد الحياة فهو قد بلــغ أرذل العمــر بحيــث لا يمكنه تذكر متي نشأت • ولا تحوي السجلات التاريخــية المنشــورة أواخــر العهــد التركي مادة مفيدة ، ولم يذكر كل من (ســلاطين) والأب(أورلولدر) وادي حلفا إلا لماماً في كتابيهما (السيف والنار فــي السودان) و(عشرة أعوام في أسر المهدي) .وكان السبب في ذلك يرجع إمــا إلي إنهما عملا في أماكن بعيدة عن (وادي حلفا) ، وإما أن (حلفا) نفسها لــم تكــن ذات أهمية في تلك الأيام • فعندما وصف (سلاطين) مسار رحلته الأولــي إلــي الســودان عن طريق (أسوان) في عام ١٨٧٨م خص بالذكر (كروســكو) و(بربــر) ، أما الأب (اورلولدر) الذي دخل السودان عن طريق ســواكن في عام ١٨٨٠م فقد هرب عبر الصحراء من (أبوحمد) مروراً بآبار (المــرّات) ووصــل إلــي النيل عند (كروسكو) شمال (وادي حلفا) في عام ١٨٩١م• وقــد إختار (سلاطين) طريق (العلاقي) عبر الصحراء مباشرةً من (أبوحمد) إلي (أسوان) في عام ١٨٩٥م• وفي تلك الأيام كان الطريق السالك من (أسوان) إلي (بربر) يمر عبر (كروسكو، حلفا ، أبوحمد) وعندما وصل (كرومر) لأول مرة إلي مصر في عام ١٨٧٩م كانت هنالك محطة سكة حديد قائمــة فــي (وادي حلفــا) ولذلك كانت إشارته إلي (حلفا) في كتابه (مصر الحديثة) من باب الأمر الواقع • ولا توجد هناك وثائق تاريخية ذات قيمة في دار الوثــائق بالخرطوم لتلقي ضوءً علي مسيرة الأحداث في هذا الجزء من القطر قبل عام ١٨٩٢م •

وعلـــي كـــل فإن (حلفا) وما جاورها لم تخضع لدولة المهدية وكانت الحـــدود الشـــمالية لمديـــرية (دنقـــلا) خلال إمارتي (النجومي) و (يونس ودالدكسيم) عند (صواردة) علي بعد ١٤٠ ميلاً جنوبي (حلفا) ٠ وذكر (علي مبارك) الذي زار (حلفا) في عام ١٨٩٢م في كتابه:(الخطط التوفيقية الجديدة) إن كلمـــه (حلفـــا) خـــلال العهد التركي كانت تعني كل المنطقة الواقعة بين الشـــلالين الأول والثاني وتنتهي جنوباً عند (خور حلفا) الذي يبعد عن دنقلا مســـافة تســـتغرق أحـــد عشر يوماً ٠ وذكر أيضاً أن المنطقة تتبع لمحافظة (أسـوان) وتـــدار مـــن قرية (الدر) ولذلك فإن الاحتمال الغالب هو أن تكون الوثائق الخاصة بإنشاء (وادي حلفا) موجودة بقصر عابدين بالقاهرة ٠

إن مشـــاهير الـــرحالة الذيـــن زاروا السودان خلال العهد التركي لم ينشـــغلوا بمـــنطقة وادي حلفـــا وإنما كرّسوا جل اهتمامهم بالأماكن الأثرية٠ فالرحالة (لينانت دي بلفوندس)[1]نشر إنطباعاته عن رحلته إلي(سنار)في عام ١٨٢١م ٠ والجزء التالي مترجم من الفرنسية حول تلك الرحلة :-

(وفـــي ٢٨ أغسطس وصلنا إلي قرية بشمال "أرقين" . وكانت قرية كبيرة ذات رقعة زراعية واسعة بها العديد من أشجار النخيل ٠ وبعد أقل من إحدي عشرة ساعة وصلنا إلي جزيرة بالقرب من (وادي حلفا) ٠ وفي المساء حللـــنا بوادي حلفا نفسها ٠ وكان مصطفي أغا حاكم المنطقة في مهمة بدنقلا تـــتعلق بترتيبات عودة المراكب التي سيّرها إسماعيل باشا وتسهيل مرورها عبر الشلال الكبير ٠٠٠ هذا الشلال الذي فتحه إسماعيل باشا قبل حملته علي السودان والذي أصبح سالكاً للمراكب ٠) ثم أشار (لينانت) إلي أنه قد استظل

---

[1] Linant de Bellfonds.

بشجرة تجنباً للأتراك الأشرار الذين كانوا في القرية "التي يحتمل أن تكون دبروسه" ، وعندما أجبرته العاصفة إلى التحرك جنوبا في اليوم التالي ، أمضى الليل في مخازن الغلال أسفل الشلال. ثم وصف الممر الذي تم شقه في أسفل الشلال فقال: (كان طريق المراكب عبر الشلال يقع في الجانب الشرقي للنهر ، ولم يكن يبدو وعراً مثل ذلك الذي في أسوان وربما لأنني شاهدته في فترة الفيضان فقد بدا لي شديد السهولة) .

إن الكتب التاريخية لاتحدد متى تم إنشاء مدينة حلفا . فمكي شبيكة يقول في كتابه (السودان في قرن) إن جنود محمد على باشا قاموا بنسف بعض الصخور في الشلال الثاني عند مدينة حلفا وذلك لتامين ممر المراكب. ويبدو أن بروفيسور مكي قد أشار إلي وادي حلفا ليقرب إلي ذهن القارئ موقع الشلال لا ليؤكد وجود المدينة في تلك الأيام . غير أن هناك لمحات يجدها القارئ في كتاب (مصر في السودان) لـ: (رتشارد هل) الذي أشار في تعليقه على مشروع السكة حديد إلي أن مهندسا يدعي (فاولر) قام بناءً على طلب من الخديوي بإعداد خطة لربط القاهرة بالخرطوم وذلك عام ١٨٧٣م .

اقترح "فاولر" خطاً ملاحياً إلي حلفا وخطاً حديدياً من حلفا إلي الخرطوم بحري[١] مروراً بـ(كوكا) ثم (الدبة) فالمتمة . وأشار كذلك إلي أن تنفيذ الخط قد بدأ في عام ١٨٧٥م عند وادي حلفا ووصل إلي "صرص" في عام ١٨٧٧م ثم توقف بسبب معارضة الجنرال غردون فكان ذلك أقدم حدث أرتبط بوادي حلفا . ولم يعط "هل" وصفاً للمدينة حين بدأ مد الخط الحديدي ويحتمل أن

---

(١) الإشارة هنا إلي ضفة النيل الأزرق الشرقية المقابلة للخرطوم ، لأن الخرطوم بحري لم تكن حينها قد ظهرت في حيز الوجود-المترجم .

تكـــون حلفـــا حتى ذلك الوقت لاتعني سوى نقطة على الخريطة في الطرف الشـــمالي للشلال أو إشارة للمنطقة الواقعة بالقرب من "خور حلفا" الذي ربما كـــان اســـما قديمـــاً لخور موسى باشا الممتلئ حتى يومنا هذا بنبات الحلفا .
وبالتأكـــيد فـــإن الشروع في مد الخط الحديدي لم يكن يرجع إلي أهمية مدينة كانـــت قائمة وإنما لوقوع حلفا عند طرف الشلال أي أن خط السكة حديد كان يبدأ حيث كان ينتهي الخط الملاحي .

إن الآثـــار الحيّة للعهد التركي في مدينة وادي حلفا تكشف دليلا مهما عـــن نشأة المدينة . أولاً: لاشك أن مبنى (السر دارية) كان قائما إبان الفترة الأولى التي تقلد فيها غردون منصب الحكمدارية في السودان مابين (١٨٧٧–١٨٧٩م) وإنـــه اســـتخدم هذا المبنى كاستراحة في إحدى زياراته خلال تلك الفترة ربما لمتابعة سير العمل في مد الخط الحديدي الذي أوقفه عند "صرص" لأن كرومـــر أشار إلي أن غردون قد اتبع الطريق من "كرومسكو" إلي " أبو حمد" فبربر في رحلته الخاطفة إلي الخرطوم . وهذا يعني أن غردون لم يمر بـــتاتا بـــوادي حلفـــا في عام ١٨٨٤م . ثانياً : أن بناء مسجد القيقر في عهد إسماعيل باشا (١٨٦٣) يدل على وجود بعض السكان في المنطقة آنئذ ، وفي نفـــس الوقـــت فإن أياً من الكتب التاريخية لم يشر إلي وادي حلفا إبان بداية ولايـــة إســـماعيل باشـــا فـــيما عدا ما ذكره "داوود بركات" ضمناً في كتابه بالعربـــية: (مصـــر والسودان وأطماع السياسة البريطانية) من أن عملية مد الخط الحديدي قد بدأت في عام ١٨٧٧م أثناء حكمدارية غردون .

إن هـــذا المسح المحدود للحقائق التاريخية المتوفرة ، يتجه إلي إعطاء فكـــرة بأن المدينة قد ولدت مع بداية مد الخط الحديدي في وقت ما عند نهاية

ولايـــة الحكمدار إسماعيل باشا أيوب (١٨٧٣ ١٨٧٧) أو أثناء ولاية غردون (١٨٧٧-١٨٧٩م). وفي كل الأحوال فإن "القيقر" الذي برز مقراً لسكن عمال الســكة حديـــد أو هو معسكر عمال ملحق به "ورش" وبجواره أكواخ طينية يقطـــنها العمال ، إستمر على هذا الحال حتى عام (١٨٨٥م) حين تم تحويله إلي منطقة عسكرية .

وبعد سقوط الخرطوم أصبح الموقع الإستراتيجي لحلفا ذا أهمية خاصة فقـــد كان أهم موقع على الحدود المصرية لأنه يقع على الخط الملاحي الممتد مـــن " أســـوان" . وبالإضافة إلي ذلك فإنه كان يقع في نهاية شلال وعر يسد النهر من الناحية الجنوبية ويعرقل أي نوع من الملاحة . وإلي جانب كل ذلك ، فهو بداية الخط الحديدي المتجه إلي " صرص" . وقد أثبتت كل هذه المزايا العســكرية جدواها وأمكن استخدامها إبان حملة إنقاذ غردون وصد محاولات "النجومـــي" للهجـــوم على مركز حلفا . ثم استخدمت حلفا في عام" ١٨٨٦م " نقطة انطلاق لإعادة فتح السودان .

فـــي ١٣ أغسطس ١٨٨٤م حل "وود" و " ونجت" بوادي حلفا وأحالا الموقـــع إلـــي قاعدة عسكرية لتقدم حملة إنقاذ غردون وبدأت الترتيبات لجمع الإبل التي تحمل الرجال والمتاع وتجميع المراكب وإقامة المخازن . وسرعان مـــا حطـــت القـــوات بواسطة البواخر وامتلأ المكان بالجنود والمؤن ووصل اللـــورد "ولزلـــي" في ٨ أكتوبر . ولأنه كان على غير علم بالوعورة البالغة للشـــلال الثانـــي فقد جلب معه أسطولاً صغيراً من البواخر الضخمة بغية أن يســـتخدمها لنقل الإمدادات للحملة . وعلى كل حال فقد فشلت المحاولة للعبور

بتلك البواخر فوق الشلال وتم إيقافها أمامه واستُخدم بدلاً عنها القياسات [١] .

وجـــرت أولاً محاولة لعبور البواخر فوق الشلال بمساعدة القياسات تحت توجيه "داؤود كوكي" شيخ الشلال فنجحت بخسائر محدودة جداً وفي ١٩ أكـــتوبر حاولت البواخر الست اجتياز "الباب الكبير" بصعوبة بالغة وبخسائر كبيرة في صفوف المراكب المتقدمة التي وصفها " ونجت" بأنها استحالت إلي أعواد ثقاب.

وتــم بــناء حــوض صغير للبواخر في جمي " على بعد اثني عشر كيلومـــترا جـنوب وادي حلفا " وأرسلت المخزونات والمؤن إلي " صرص" بالقطـــار الذي كانت تجره القاطرة الوحيدة المتوفرة . ووصّف "توماس آرثر" حلفا في تلك الأيام في كتابه (الحرب في مصر والسودان) بأنها عشرة أو اثنا عشر كوخاً إلي جانب مساكن السكة حديد .

أثناء الأسبوع الأخير من أكتوبر غادرت قوات حملة الإنقاذ حلفا على ظهـر الـــبواخر متجهة إلي دنقلا ، وبعد فشلها ثم رجوعها ، تمركزت تلك القوات في وادي حلفا وأصبحت قوات حدود ميدانية بغرض حماية مصر من الغـــزو ولحمايـــة خـــط السكة حديد . فقد أفردت حامية في "كوشة" تتبع لها محطـــتان خارجيـــتان في كل من (دال ومقراكا) على سهل يتحكم في ضفتي الـــنهر . كذلك كان الغرض من قيام هذه الحامية الدفاع عن " عكاشة" الواقعة علـــى بعـــد اثنين وعشرين كيلو مترا شمالا والتي كانت في ذلك الوقت نقطة بدايـــة الخط الحديدي . وفي " أرقو " ومنطقة السكوت والمحس برز نوع من الإدارة الأهلـــية تحت رئاسة الملك "طمبل" وتولي فيه الشيخ محجوب إدريس

---

[١] القياسات : مراكب شراعية كانت تستخدم غالبا للتجارة المستقلة .

إدارة منطقة السكوت والمحس . وسمح لكليهما بسلطات إدارية بقدر ما يستطيعان .

في ذلك الوقت ، تجمع أسطول النهر جنوب الشلال وكانت له ترسانته وورشته في (جَمّي) . وقد ظل جزء من هذا الأسطول يجوب (بأطوافه) أنحاء النهر في الفترة من عام ١٨٨٥ م إلى عام ١٨٩٦م . وكان ذلك الجزء من الأسطول يتكون من البواخر الآتية: (عكاشة وخيبر ودال وأبو كلية والتيب وطماي والمتمة) . وفي عام ١٨٩٦م توجهت هذه البواخر إلى الخرطوم ضمن قوات الغزو بينما كانت البواخر الأصغر: (أبيس وتوشكي وأمسبكول وهكسوس و تنجور وسمنه) تعمل في خط حلفا –الشلال . وكان مالك هذه البواخر (توماس كوك وابنه) .

وعندما تم سحب هذه الحامية من دنقلا وتراجعت القوات إلى حلفا في صيف ١٨٨٥م تتبع جيش المهدي أثرها واحتل دنقلا . وتم تعيين الأمير "عبد الرحمن النجومي " أميراً على المنطقة ، وعندما تقدم من دنقلا شمالاً فر الملك طمبل إلى عكاشة ، لكن الشيخ محجوب ثبت وقاوم .

وفي نوفمبر تحركت قوات ود النجومي من عمارة (وهي قرية في منطقة عبري التابعة للسكوت) وبعد أن تجنّبت الحامية الموجودة في (كوشة) هاجمت النقطة العسكرية في (أمبكول) وأزالت ما طوله ميل من خط السكة حديد . وبعد أيام قليلة عاود هجومه عليها وتم إرسال قوة عسكرية بالقطار من وادي حلفا بقيادة "بتلر" قامت بفك الحصار . وتوالت بعد ذلك المناوشات والمواجهات الحدودية خلال الفترة من ١٨٨٦ إلي ١٨٨٨ حيث استطاع الأنصار غزو " فركة " وأرسلوا قوة كبيرة لاحتلال حامية كوشة ، وبعد

معــركة قصـــيرة أجبرت قوات النجومي علي التراجع وتمت ملاحقتها جنوبا حيث هزمت في معركة (جنس) ثم انسحب الأنصار إلى "كرمه" وبدا بعدها أن فترة من الهدوء قد حلت . فقد أرسلت القوات البريطانية إلى أسوان وأوكلت حمايـــة (وادي حلفا) للجيش المصري . وعندما علم " الخليفة" بجلاء القوات البريطانية استدعي ود النجومي وكلّفه رسميا بقيادة الحملة لغزو مصر .

يقــول(ونجت) مؤرخا لهذه النقطة : (أحرق النجومي منزله الكائن بـــأم درمان وأقسم ألا يعود إلا بعد هزيمة مصر ٠) وجمع النجومي قوة من (١١٠٠٠) جندي أغلبهم من الجعليين وعرب البطاحين واتجه إلي دنقلا وأثناء ذلك أرسل (يونس ود الدكيم) إلى دنقلا أميرا على المنطقة ليكون في استقبال النجومـــي٠ ويصـــف الأب (اورلولـــدر)الجـــنود الذيـــن تكونت منهم حملة ودالنجومي في أستعرضهم اليومي عبر الطريق المتجه شمالاً من أم درمان ، بـــأنهم (حمـــلان أرسلت للذبح) ٠ وبما أن أحداً منهم لم يعد أبداً ، فقد أطلق على ذلك الطريق (شارع الشهداء) وهو الاسم الذي استمر حتى اليوم .

فـــي عام ١٨٨٧ م تحرك ود النجومي إلى " فركة " . وفي ٢٧ أبريل شـــوهدت قـــوة اســتطلاع مـــن الأنصار قوامها ٢٠٠ رجل علي مقربة من (صـــرصن) حيث وصل الجيش المصري بعد مسيرة ليلية وأبادها . تلي ذلك توقـــف المناوشـــات على الحدود بسبب اشتعال العداوة مع صالح سالم زعيم عـــرب الكبابـــيش بكردفان والذي تلقي النجومي الأمر بتدميره . فقُتل صالح وأُخضـــعت قبيلته ، ووجه النجومي بعد ذلك قواته وبأعداد كبيرة من " فركة" إلـــى "سمنة". وفي أواخر سبتمبر أحتل جنود النجومي" صرص" . وفي ٢٥ أكتوبر شوهد ١٠٠٠ من تلك القوات يتجهون إلي وادي حلفا ، وأقاموا نقطة

في " جُمَّيْ" على بعد ثلاثة عشر ميلا جنوب مدينة حلفا . وتأخر تقدمهم بسبب نقص المؤن وتفشي مرض الجدري . وفي عام ١٨٨٠ م لم يقع من الأحداث ما هو ذي أهمية فيما عدا الهجوم على قرية "العلاقي" وهزيمة " العبابدة" وما تبع ذلك من هجوم فرق الصحراء على شرق النيل وإغارتها على "كلابشة" .وتناقصت قوات النجومي نتيجة للمشاكل التي نشبت مع أثيوبيا وذهاب النجومي نفسه إلى أم درمان . وفي أعقاب ذلك شن بعض اتباعه هجوماً على " دبروسه " .

في ١٩ يوليو ١٨٨٨م هوجمت دبروسه بلا هوادة بواسطة جزء من الجهادية الذين أضرموا النار في مساكنها ونهبوها وقتلوا خمسين من أهلها. بالإضافة إلى ذلك غرق مائة وسبعة وثلاثون آخرون كانوا يحاولون عبثاً الوصول إلى المراكب . وفي وقت لاحق تبين أن الذي حدث تم بخيانة من شخص منهم يدعي أبو زيد أو الجزار (كما كان النوبيون يطلقون عليه) لأنه اختلف مع قومه حول مسألة زواج لم يناصروه فيها . وفي سبيل رد الاعتبار لنفسه قرر أن ينتقم منهم فاتجه مباشرة إلى قوات النجومي التي كانت تعسكر بالقرب من (خور موسى باشا) جنوب القرية وشجعهم على مهاجمة القرية . وأخبرهم بأن دبروسه مليئة بالحيوانات المكتنزة لحماً وبالأطعمة وبأنها مخزن غلال المدينة كلها. ولكي يجعل ادعاءه أكثر إقناعا أخبرهم بسهولة دخول القرية بسبب وقوعها خارج المنطقة الحصينة . وتلك كانت حقيقة . ولم يكن هناك من عرض أكثر إغراءً لمحاربين جوعي من هذا العرض ، فكان الهجوم . وبعد معركة (توشكي) تم القبض على " أبو زيد" وأُعدم علنا في ساحة من ساحات القرية .

فـــي يونيو ١٨٨٩م عاد ود النجومي بقوة قوامها ١١ ألف مقاتل بعد انتصـــار الخليفة في الجبهة الأثيوبية ، وانضم أليه في " صرص" ١٢٠٠ من المقاتليـــن المقيميـــن في الحامية . وراجت شائعات في وادي حلفا بأن التقدم المـــتوقع لغـــزو مصر سيتواصل على طول الضفة الغربية بدلاً عن الضفة الشـــرقية وهذا ما دفع السلطات لسد الطريق أمام النجومى في عدد من النقاط الضـــعيفة علـــى امـــتداد الضفة الغربية . وأخيرا بدأ الغزو المتوقع بعبور النجومـــي إلى الضفة الغربية عند صرص واتباعه طريقا موازيا للنهر وعلى مبعدة منه بأمل الالتفاف حول وادي حلفا والوصول إلى النهر عند نقطة تقع بيـنها وبيـــن كروسكو . وبعد مسيرة شاقة في حر الصحراء وصلت قوات النجومى إلى نقطة تقع علي بعد ميلين غرب " أرقين" وعلى بعد أربعة أميال شـــمال وادي حلفـــا وشنت هجوما جريئاً على القرية والتحمت مع قوة بقيادة الكولونيل "العقيد" ودهاوس الذي صد الهجوم بمعونة البواخر والبوارج ٢٠٠ من الجنود ٠(رأيت بنفسي بقايا عظام القتلى وأظافرهم على الرمال في أسفل جـــبل الديم في عام ١٩٦٠م) . وكانت حالة جيش النجومى تدعو للرثاء فقد رفـــض النوبيون الانضمام إليه. ونفدت مؤونته وطحنت رجاله المجاعة ولم يكـــن هناك أمل في أي إمداد من دنقلا أو من "أم د رمان" لأن ذلك العام شهد جفافـــاً وجيوشـــاً من الجراد قضت على الأخضر واليابس في السودان.ودعا "جسرنفل" النجومى للاستسلام ولكن النجومي أبى وواصل سيره شمالا حتى عسكر يوم ٢ يوليو في سهل يبعد خمسة أميال من قرية توشكي .وفي الصباح الـــباكر من يوم ٤ يوليو نشبت المعركة الشهيرة وتم استئصال جيش النجومي عن آخره بمن في ذلك النجومي نفسه وأغلب أمرائه و ١٢٠٠ من جنوده.

الان دعونا نتأمل الآثار التي تركتها حملة النجومي على مدينة وادي حلفا . ففي المقام الأول وبالرغم من أن الحملة كانت ضعيفة وغير منظمة فقد أثبتت بجلاء أن الخليفة كان مصمماً على غزو مصر وهذا – في الحقيقة – كان جزءً من رسالة المهدية التي أعلن قائدها المهدي أن دعوته ستنداح حتى مصر وفلسطين والأراضي المقدسة والجزيرة العربية . وما كان في مقدور الخليفة أن يتخلى عن الأمانة التي ألقاها على عاتقة سيده ليتولى تنفيذها . وهكذا برزت حلفا إلى الوجود كقاعدة حدودية ذات حامية حصينة لوقف تقدم النجومي ولصد أية عملية عدوانية تأتي من الجنوب . وتواصلت التوترات والاحتكاكات حتى عام ١٨٩٦م على امتداد المنطقة الواقعة ما بين عكاشة وصرص.

في هذه الفترة ونسبة لتركيز القوى العسكرية في ما كان يعرف بالتيقر، أغري الوضع كثيراً من التجار للإقامة في المدينة . وفي ذات الوقت فإن عدم إحساس سكان القرى المجاورة لحلفا بالأمان أثناء تقدم قوات النجومي ، دفعهم للجلاء عن تلك القري والبحث عن السلامة في المدينة . وفي غمرة هذه الموجات الدافقة جاء إلى المدينة عدد مقدر من قدامي المحاربين. ولابد أن عدد السكان قد ازداد بمعدلات عالية أثناء تلك الأيام .

وتبعاً لهذه التطورات فقد استوجب الأمر تقديم سلسلة من الخدمات لهؤلاء السكان من العسكريين والمدنيين . فتم إنشاء مستشفي كما تم فتح مكتب للبريد والبرق لتأمين الاتصالات المهمة مع القاهرة ومع النقاط الخارجية حول حلفا. وانتظمت حركة الملاحة النهرية بكفاءة وتدفقت المؤن العسكرية والتجارية على المدينة النامية و أصبحت حلفا – حينئذ – ذات

أهمـــية عسكرية وسياسية أدت إلى إغلاق مركز إدارة النوبة في "الدر" ونقله إلــيها . وجذب بريق المدينة سكان النوبة الشمالية الذين جاءوا إلى العاصمة الجديدة بحثاً عن العمل أو التجارة ثم استقروا بها بعد ذلك . وخلال السنوات الست التي أقمتها بالمدينة ، لاحظت أن معظم الأسر النوبية التي كانت تعيش فــي القــرى الواقعـــة بين الشلال الثاني وفرص ، تحتفظ بعلاقات إجتماعية وتتواصل مع أقربائها للذين يعيشون قرب الحدود المصرية والذين تربطها بهم آصرة الدم . وقد أدى سحق "محجوب إدريس" ونهب النجومي لمنطقة المحس والسكوت لرحيل بعض السكان إلى وادي حلفا حيث مكثوا إلى ما بعد معركة " فركة" في ٨ يوليو ١٨٩٦م ((وهي أولى المعارك ذات الخطر خلال إعادة فتح السودان))، ثم عادوا إلى قراهم .

وهناك أكثر من دليل على تشجيع استقرار بعض الأسر المصرية في وادي حلفـــا تلك الأيام ، فقد تم بناء مدرسة في " التوفيقية" ، و أقام الخديوي مسجداً وبرز السوق إلى الوجود . ووصف " على مبارك" في كتابه: " الخطط التوفيقية " وادي حلفا في تلك الأيام بما يلي:

(إن قــرية وادي حلفا تعتبر أعظم الأماكن شهرة في المنطقة الواقعة على طول ضفتي النيل بين الشلالين الأول والثاني . ففيها مكتب بريد ومخزن حــبوب ومركـــز إداري ومبان حكومية بمستوي جيد . وهناك أيضا مدرسة ومســـجد و أشجار نخيل وساقية . ورغم أن رقعتها الزراعية محدودة إلا أنها خصـــبة . وللقرية أيضا مقاهيها واستراحتها وحاناتها وسوقها اليومية . وفي بعـــض الكتـــب الإنجليزية ذُكر أن النوبة السفلى تعني: الأرض الواقعة على طول النيل ما بين حلفا وأسوان. وهي شريط ضيق على ضفتي النيل ما بين

سلسلة مــن الصخور السوداء الممتدة إلى مسافة ٣٥٠ كيلو مترا . ويلاحظ المسافرون ما بين أسوان ووادي حلفا —أو العكس —حلالا صغيرة في ذلك الــوادي تــتكون كل منها من خمسة أو سته بيوت مظللة بأشجار النخيل أو الــدوم و أشـجار أخــري . ومعظم هذه القري تقع على الضفة الشرقية . وتحــوي هذه المنطقة العديد من المواقع الأثرية . ولأن هذه القرى تقوم على نقطــة الــتقاء الأودية بالنيل فإنها أخذت أسماءها من هذه الأودية وفي بعض الأحيان فان مجموعة من القرى تسمي باسم واد واحد ، ص ٣٨) ،

ووصف (نعوم شقير)—الذي صحب حملة إعادة فتح السودان – حلفا فــي كتابه (تاريخ وجغرافية السودان)[1]بقوله:(كانت حلفا قرية صغيرة تقع علــى بعد ٢٢٦ كيلو مترا جنوبي الشلال الأول ، على خط عرض ٢١,٥٥ وخط طول ٣١,١٩)، وبُني المعسكر الذي كان يقيم فيه الجيش المصري إبان الــثورة المهديــة لحمايــة الحــدود خارج المدينة . وتكوّن هذا المعسكر من مستشفي وسجن عسكري وكان يقع على رأس خط السكة حديد . وكان هناك أيضــا مسبك لصهر الحديد ومنزل الحاكم والقائد ومسجد عتيق . وعلى بعد ميليــن شمالاً تقع مدينة التوفيقية التي كان يطلق عليها " دبروسه" حيث بني الخديوي توفيق مسجداً . وتجمع التجار ورجال الأعمال في هذه النقطة وبنو أحد أفضل المراكز التجارية على الحدود)،

غير أن هناك وصفاً ثالثاً أكثر تشويقاً للقيقر وللمدينة في عام ١٨٩٦م جــاء علــي لسان (ونستون تشرشل) في كتابه : (حرب النهر) حيث يقول : (المدينة ومعسكرها لايزيد عرضها عن ٤٠٠ ياردة تمتد علي ضفة النهر ،

---

[1] الصحيح : جغرافية وتاريخ السودان – المترجم .

وتنحشـــر ما بين النيل والصحراء بطول يقارب الثلاثة أميال ... والمنازل والمكاتب والثكنات العسكرية كلها مبنية من الطين ذو اللون الداكن البائس . وقليل من المباني يرتفع إلي مستوى الطابقين . وفي الطرف الشمالي للمدينة تحتل مجموعة من المنازل جيدة البناء واجهة النهر وعلي البعد ينعش المسافر مـــا بيـــن (كروسكو) والشلال منظر أشجار النخيل والأسوار البيضاء ومئذنة الجامع ويملاؤه بأمل التطلع إلي الملاهي المتمدنة .

ويحمى المدينة من جهة الصحراء سور من الطين وخندق وهناك قطع مـــن مدافـــع (كـــروب) الميدانـــية علي قواعد بارزة بينما تستريح مؤخرة الاســـتحكامات علي حافة النهر . وتنتصب قلاع خمس متفرقة تحمي الجهة البرية من هجوم العرب المرعب آنذاك ... لقد أصبحت حلفا الآن في نهاية خـــط السكة حديد الذي يمتد مسرعاً . وصار استمرار وصول وإرسال آلاف الأطـــنان مـــن المواد وبناء المظلات والورش والمخازن يضفي حيوية على المدينة المتحضرة في هذا الموقع الأفريقي البائس) .

ويمكـــن إيراد وصف بقليل من التفاصيل للقيقر بعد ما تم العثور – بمحـــض الصـــدفة– علي خريطة قديمة له بين معروضات متحف حلفا . رســـم هـــذه الخريطة المساح العسكري النقيب (محمد أفندي غالب) الضابط بالجـــيش المصـــري فـــي ٣٠ ديسمبر ١٨٩٦م وهي الخريطة ذات المباني المرقمة والتي تشرح بدقة ما تضمه الأسوار المنيعة للمنطقة المحصنة .

كانت التوفيقية تنمو بسرعة جنباً إلي جنب مع نمو القيقر . وقد افتتح الخديـــوي (توفـــيق) المســـجد في عام ١٨٩٢م. وكان لتدفق الجنود أثره في انـــتعاش الـــتجارة فـــازداد عدد التجار الأجانب والوافدين والمقيمين بالمدينة

وقامـــت مبانٍ فاخرة حول المسجد وازداد عدد المتاجر المليئة بالبضـائع وكان أول المقيميـــن بالمدينة من التجار (نيكولاس لويزو اليوناني وأخويه : كوستا وبترو ٠) وقد صحب نيكولاس الجنرال كتشنر أثناء حملة استرجاع السودان حـــتي ســـقوط أم درمـــان ،وهناك تجار يونانيون آخرون مشهورون هم : (إفـــانجلوس باتـــاس وديمتري جورج جيانس وبنيوتي كاربونوبولو والإغريقي الشــــهير : كباتو) وكلهم من تجار (البقالة) الذين جاءوا من مصر وأنشأوا تجـــارتهم بالتعامل مع الجيش في وادي حلفا ٠ وهناك عبارة تداولتها الألسن في تلك الأيام الاستعمارية تقول إنه (لا يخرج الضابط البريطاني غازياً إلا وفـــي معيَّـــته بقـــال يونانـــي ليمده بحصته من الويسكي ٠) وأثناء قراءاتي العريضة في أحداث تاريخ السودان وقفت علي أربعة من الشواهد تؤيد صحة هذا الزعيم ٠ فعندما اغتال المناصير الكولونيل (العقيد) استيورت في (هبية) عـــام ١٨٨٤م ، كـــان هـــناك تجاراً يونانيين يتبعونه في مركب علي طول الطـــريق من الخرطوم وحتي تلك القرية ٠ وعندما تم إرسال (سلاطين) إلي المهـــدي في (الرهد)بعد سقوط دار فور في عام ١٨٨٤م كان في معيته تاجر يوناني يدعي (ديمتري زقادا) وقد بقي في الأسر طوال فترة المهدية ٠ وعند إطلاعي علي سجلات استقرار قبيلة النوير (عندما كنت في فنجاك تبيَّن لي أن مفـــتش المركز (فرجسون) الذي اغتاله النوير في (أدوك)عام ١٩٢٧م ،مات معـــه تاجـــر يونانـــي كان يرافقه وقد إستبسل حتي فرغ مسدسه من الطلقات الـــنارية ٠ أما الحادث الرابع فقد كان وصول نيكولاس لويزو إلي حلفا أبان فترة الاستعداد لإعادة فتح السودان ٠

كـــان أفـــراد للجالية اليونانية هم الرواد الذين أدخلوا أساليب التجارة

الحديثة في السودان ، ونحن مدينون لهم بالاحترام والعرفان . كذلك فإن البزازين السوريين جاءوا بحرير دمشق الفاخر وبالأقمشة الأجنبية من القاهرة وبنوا حوانيتهم وسكنوا في منازل من طابقين . وكانت أولى الأسر السورية التي أقامت في وادي حلفا أسرة (عزيز يغمور وشقيقه بشير ، وجورج حكيم وشقيقه حبيب ، ومحمود أبو زيد وأسعد أفندي راشد). وكانت ذريتهم التي تجنّست بالجنسية السودانية من بين أغنى رجال الأعمال في المدينة . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، فقد جذبت حلفا في تلك الأيام أسراً مصرية أيضا كان أغلبها من التجار العموميين الذين جلبوا المعدات المنزلية والأواني . فكان (علي الشامي ومحمد وعبد المجيد علوب وعبد الله وشقيقه صالح محروس وتلب أحمد عواد) من أوائل التجار المصريين الذين أقاموا في التوفيقية . وبعد فتح السودان إنضم إلى ركب القادمين مزيد من السوريين والمصريين وجعلوا حلفا وطناً لهم مثل: (خويلد وعبد الغفور أبو زيد وعبيد يوسف) و آخرون . وخلال هذه الفترة نمت التوفيقية باطراد وكانت لها سوقها ومسجدها .

وفي عام ١٨٩٥م افتتحت أولى المدارس الأولية " الابتدائية" في المبنى الذي شغلته في ما بعد المدرسة الوسطى بأشراف ناظر "مدير" مصري . وتم بناء فندق ذي طابقين على الشاطئ قبالة المنوق استخدم بعد إعادة فتح السودان رئاسة للمديرية . وفي عام ١٩٢٠م – عندما قام المركز الحالي – صار المبنى مكتباً لمصلحة السكة حديد . وعلى كل فإن التوفيقية –في تلك الأيام – كانت تبدو حضرية أكثر منها ريفية ، وتوارت دبروسه –النواة الأصلية للمنطقة –عن واجهة الصورة وأخذت المدينة تتشكل . وهناك صورة

الـــتقطها (ي . أ . واليس بدج) في عام ١٩٠٠ م وظهرت في كتابه(السودان المصري تأريخه وآثاره) توضح كيف كانت التوفيقية في تلك الأيام . ولم تكن أي مـــن الفـــنادق أو بيوت الأعمال ما بين دكان عثمان عبد القادر ومكاتب الســـكة حديد ، قد شيدت كما لم تكن الكنيسة اليونانية قد قامت. لكن (بدج) لم يدل بوصف للتوفيقية .

فـــي ١٢ مـــارس ١٨٩٦م أصدر (كرومر) أوامره للسردار كتشنر بالشروع في غزو مديرية دنقلا وبوجه خاص الاستيلاء على (عكاشة) التي تـــم احتلالها بلا مقاومة لأن الأنصار كانوا قد أخلوها . وفي هذا الوقت كانت التعزيزات تتوالى من القاهرة لتشكل الجيش الغازي. ونزلت كتائب الجنود – الواحـــدة تلـــو الأخرى –من بواخر (توماس كوك) إلى حلفا واتجهت إلى الخـــط الأمامـــي . وفـــي الفترة من ٢٠ مارس إلى ٦ يونيو تجمعت قوة من ٩١٠٠ جـــندي نظامـــي وسبع من سرايا الخيالة بالإضافة إلى سرايا الهجانة والمشـــاة وبطاريـــة مدفعية ومدفعي ماكسيم منصوبين على السهل الصخري لعكاشة استعداداً للانقضاض الثاني على فركة . وفي مساء ذلك اليوم تحركت القوة جنوباً بقيادة السردار . وتقهقر الأنصار إلى دنقلا . فتم الاستيلاء على " كوشة " التي تبعد ستة أميال عن (فركة) و أسرع جزء من القوة جنوباً و أقام نقطة ارتكاز عند " صوارده" .

خـــلال تلك الأيام ، كانت مدينة حلفا خالية من الجنود فيما عدا كتيبة مـــن الجنود البريطانيين تقيم في الحامية (القشلاق) . وفي نهاية يونيو انتشر وبـــاء الكولـــيرا الـــذي قضى على عدد كبير ممن كان في المدينة ، فرحلت الكتيبـــة البريطانية إلى صرص . وسرعان ما انتقلت العدوى جنوباً وأفزعت

القوات المتمركزة في (فركة.) وخلال الفترة القصيرة التي انتشر فيها الوباء مات ١٠٠٠ شخص وعندما أنحسر الوباء تحرك الجيش إلى كوشة.

في تلك الأيام التي سبقت زحف الجيش على دنقلا ، حدث أمران هامان أحدهما ذو أثر بالغ ويمكن اعتباره نقطة تحول في تاريخ مدينة حلفا بل يمكن القول أن حلفا كانت مدينةٌله ببقائها . ففي كل تاريخ السودان ، لا يخفى على المرء أهمية الشلال الثاني في مسيرة ما يقع من أحداث . فمنذ قديم الزمان كان هذا الحاجز المانع يشكل عقبة كؤوداً أمام الغزاة والفاتحين . ولم يتمكن الفراعنة القدماء من فتح أي ممر فيه ولكنهم قنعوا بإقامة المدن الحصينة في بوهين وسمنة لتامين مرور البضائع وضمان سلامة الاتصال البري بالطرف الأخر للشلال . وفي عام ١٨٢٠ م عندما شرع "محمد علي" في غزو السودان تحت إمرة ابنه إسماعيل ، تجمع أسطوله النهري عاجزاً عند الطرف الأدنى من الشلال ، ولولا العمل التاريخي بشق قناة عن طريق تفجير الصخور الصلبة والذي مكّن من جر الأسطول والقّياسات ، لما نجحت الحملة . وعند زيارتي لمساعد مدير حوض البواخر –في صيف ١٩٦٢م – قبيل الفيضان والذي كان يسعي لتوسيع نفس الممر بنفس الوسيلة ، رأيت الثغرات التي كانت توضع فيها المتفجرات كما رأيت حجارة الجرانيت المنسوفة في قطاع القناة الجاف تذكاراً لتلك المغامرة.

ثم جاءت حملة الإنقاذ وبعد جهد جهيد وبخسارة كبيرة في البواخر أمكن سحبها بالأسلاك والحبال الفولاذية بقوة ٣٠٠٠ من الرجال.

وفي ١٤ أغسطس ١٨٩٦م وعند بداية الفيضان ، عبرت البواخر الحربية الأربع ، (المتمة –أبو كلية –دال –عكاشة) بسلام قناة إسماعيل و

أسخرت بالطرف الجنوبي: (للباب الكبير) حيث الانحدار الحاد لمستوي النهر . فقد تم تفريغ الباخرة الأولي " المتمة" من حمولتها من المعدات الثقيلة وتمت تغطـــية هيكلها من أعلاه إلي أدناه بالألواح الخشبية لحمايتها من أي دمار. ثم مرت الأسلاك والحبال الفولاذية علي كتفي المضيق المسطحين ، وبعد ساعة ونصف استطاع ٢٠٠٠ من الجنود سحبها فوق المياه المنحدرة الفوارة وبنفس الطـــريقة أمكن سحب بقية الأسطول إلي المياه الهادئة . ويمكن الرجوع إلي (حرب النهر) لونستون تشرشل للوقوف علي تفاصيل تلك المعاناة.

وقـــبل الـــتطرق إلي النقطة الثانية ، أود ان أقف عند ظاهرة الشلال الثاني ، والتي تعتبر من عجائب الطبيعة بالرغم من أنها –الآن –قد اختفت تحـــت المـــاء . فهذا الشلال الذي يقع علي بعد ١٠ كيلومترات جنوبي مدينة حلفـــا كـــان –في يوم ما –مجموعة من الجزر البركانية التي لا حصر لها تغطـــي مجـــري الـــنهر من الشاطئ إلي الشاطئ مسافة ثمانية أميال تتخللها خلجـــان وشقوق ضيقة وعميقة يمر من خلالها النهر في شكل نهيرات جياشة مندفعاً بقوة كأنما ينحط من علٍ مخلفاً زبداً تبتلعه الدوامات والأمواج . وبعد أن يهـــبط الماء منحدراً من (الباب الكبير) ، يدور ضد التيار ثم يعرّج ميمماً شـــطر الجانب الأخر من الكتلة الصخرية . وعندما يدور التيار حول جزر " كوكـــي " تـــتوهج تلك الجزر وتلمع وتتراقص ألوانها السوداء البنفسجية كما الـــرخام . وعـــند النظر إلي هذا المشهد من قمة صخرة (أبو سر) قبالة قرية (عبكة) فإن سحره يتجاوز كل الحدود . وصخرة (أبو سر) ذاتها تعتبر معلماً بـــارزاً مـــن معالم المنطقة . فهي تنتصب إلي علو ٢٠ متراً فوق الشاطئ ، وجانـــبها الذي يواجه النهر عمودي من قمته إلي قاعدته ، أما جانبها الغربي

فمنحدر أملس يرتفع إلى صخرة " المنبر" الشهيرة (حيث اعتاد المسافرون منذ مائتي عام على نحت أسمائهم عليها) .

وأمـــا الحـــدث الثاني فقد كان مد خط سكة حديد الصحراء . وكانت هـــناك خطط لثلاثة خيارات : الأول من " كورتي " مروراً بأبو طليح عبر صحراء جقدول ثم المتمة . والثاني على امتداد طريق سواكن –بربر الشهير . والثالث من كروسكو عبر الصحراء النوبية إلى أبو حمد مروراً بوادي حلفا . وبعد دراسة متأنية تم اختيار طريق الصحراء النوبية رغم اعتراض وانتقاد الجهات العسكرية والهندسية في إنجلترا.

أمـــا الخياران الآخران فقد كان حتماً أن يكون لهما أثر عكسي على مستقبل وادي حلفا . فلو تم اختيار طريق سواكن –بربر ، فإن خط الإمداد الرئيسي كـــان سينقل إلى البحر الأحمر وبالتالي فان حلفا كانت ستقع فريسة للإهمال كما أن نقطة الحدود الدولية كانت ستقع في مكان ما بأرض السكوت . أما لو تم اختيار طريق الصحراء النوبية الذي ينتهي عند كروسكو ، فإن حلفا كانت ســـتكون محطة سكة حديد صغيرة ، بينما ينتقل حوض البواخر الحالي شمالاً إلى كروسكو . وفي هذه الحالة فإن كروسكو كانت ستكون في داخل السودان . ولكن نسبة لوجود مسبق لورش سكة حديد بحلفا ، فقد تم استبعاد كروسكو .

وتقـــرر أن يبدأ الخط الحديدي من حلفا بالرغم من أن ذلك يطيل مدة الـــرحلة الـــنهرية من أسوان يومين. وعندما تم اتخاذ القرار النهائي ، أصدر السردار أوامره بالمضي قدماً في تنفيذ الخطة فوراً . وسافر (جروارد) كبير مهندسي السكة حديد إلى إنجلترا واشتري خمس عشرة قاطرة و ٢٠٠ عربة ســـكة حديـــد وتدفقت على وادي حلفا القضبان الحديدية والفلنكات وخزانات

المياه والقاطرات وعربات السكة حديد والمعدات الهندسة وقطع الغيار من كل الأنواع . ووُسّعت الورش ، وتم استيعاب المهندسين والحرفيين وفنيي السكة حديــد والميكانيكيــن كما تم تعيين العمال المهرة وعمال اليومية المحليين . وافتــتح معهــدان فنــيان لتدريب الكوادر الجديدة . وفي مطلع عام ١٨٩٧م أرســيت أولــى الفلنكات ومُدّ الخط الحديدي إلى مسافة أربعين ميلاً ومرت فترة ركود إلى أن تم إنجاز كل التحضيرات . وفي ٨ مايو بدأ العمل الحقيقي المنستظم وأخذ الخط الحديدي يتقدم بمعدل كيلومترين يوميا حتى وصل إلى أبو حمد في نوفمبر . ولا يحتاج الأمر إلى تأكيد الدور التاريخي الذي أداه هذا الخــط الحديدي في تقرير مصير مدينة وادي حلفا . فلم يكن هناك أثر لمدينة قبل مد خط صرص الحديدي . وكانت المنطقة مهجورة فيما عدا تسع أسر في قــرية دبروســه فــي أقصى الشمال . وعندما بدأ مد الخط الحديدي ، ظهر معســكر للعمــال ومنازل فرقة السكة حديد العسكرية في منطقة (القيقر) إلى جانب مسجد كبير وورش سكة حديد . وبعد فشل حملة الإنقاذ وسحب حامية دنقلا، تقرر مد الخط الحديدي إلى عكاشة وتم تعيين مزيد من القوى العاملة . وعــند اندلاع معركة فركة وإخلاء الحامية المقيمة في القيقر، وقع عبء مد الخــط الحديدي إلى "كرمة" على عاتق ورش السكة حديد بحلفا ، فازداد عدد العامليــن . وبعــد استسلام دنقلا وصدور قرار إعادة فتح السودان ، حافظت حلفــا على هذا المركز إلى أن تم إنشاء ميناء بورتسودان في ١٩٠٦م بل إن حلفا – بعد هذا التاريخ –ظلت البوابة الرئيسية لحركة التجارة بين السودان مصر .

وبعد سقوط أم درمان ، وهزيمة الخليفة النهائية في معركة " الجديد"

، تحـــدد مســـتقبل الوضع السياسي للسودان كما رسمه كرومر بعد مداولات مضـــنية وذات مستوي عال في لندن . وقد أشارت المادة (١) —من اتفاقية الحكـــم الثنائـــي الصـــادرة في ١٩ يناير ١٨٩٩م والتي رسمت الحدود بين السودان ومصر بما أثر على الوضع السياسي والإداري لحلفا —إلى ما يلي:-

"يطلق لفظ " السودان " في هذه الاتفاقية على جميع الأراضي الواقعة جنوب خط عرض ٢٢ درجة وهي:

١. الأراضي التي لم يخلها قط المصريون منذ عام ١٨٨٢ أو:

٢. الأراضي التي كانت قبل ثورة السودان تحت إدارة حكومة جناب الخديوي وفُقدت منها مؤقتا ثم استعيدت بواسطة حكومة صاحبة الجلالة بالتضامن مع الحكومة المصرية أو ... الخ ...)

يلاحــظ أن الفقرة (٢) لا تنطبق على وادي حلفا التي لم تفقدها مصر بـــتاتا إبـــان الثورة المهدية والتي كانت —قبل الثورة —تتبع إداريا لمصر . ومـــن الغريب أن تشمل الفقرة (٢) حلفا بالتحديد ولا تشمل سوكن. ولا أريد بهـــذا أن أشـــكك في سودانية حلفا ، ولكن أياً من كرومر أو تشرشل لم يفسر أسباب اختيار خط عرض ٢٢ درجة ليكون الفاصل بين المدينة والتخلف وهذا بالتأكـــيد لـــم يكن صحيحاً . وخط عرض ٢٢ْ درجة هذا الخط الوهمي الذي يعـــبر النيل عند (جبل الصحابة) علي بعد ٥ كيلو مترات شمال وادي حلفا كان مجرد حد اعتباطي . فلم يتم اختياره على أسس جغرافية أو اجتماعية فهو يشـــطر أرض النوبة —الموحدة جغرافيا وتاريخيا وإثنياً —إلى نصفين ينتمي كل منهما إلى قطر آخر . وعلى كل ، فإن النوبيين —إثنيا واجتماعيا —هم بـــلا شـــك سودانيون وليس هنالك ما يجمعهم بالمصريين . فمنذ سقوط الدولة

المصرية القديمة ظلت النوبة –كما هو الحال بالنسبة لبقية بلاد السودان – مستقلة وبقيت كذلك حتى دخول العرب بالإسلام إلى السودان .

وبما أن العرب جاءوا مقيمين غير غزاة فقد امتزجوا بالنوبيين وبقيت النوبة منطقة حكم ذاتي كشأن مملكتي سنار والعبدلاب الصغيرتين . و أثناء حكم المماليك لمصر ، لم تكن النوبة مجرد كيان مستقل ولكنها كانت أيضا صعبة المنال . ويتضح هذا من خلال كتب المكتشفين والرحالة المشهورين أمثال: (جونسا لدفج بركهارت وتوماس ليغ وفردريك لدفج نوردن) الذين زاروا النوبة في القرن الثاني عشر الميلادي . وذكر مكي شبيكة في كتابه (السودان في قرن) أن محمد على عندما استولى على عرش مصر وصمم على استئصال المماليك ، فر منهم الذين كانوا يعيشون في الصعيد إلى بلاد النوبة لاجئين . ولأن النوبة كانوا بحاجة إلى حماية المماليك ، فقد تعاملوا بمقتضيات الضرورة ورحبوا بهؤلاء الفارين حكاما على بلادهم. وعندما وقعت مذبحة القلعة بالقاهرة والتي أجهز فيها محمد على قادة المماليك ، استسلم أعوانهم وبالتالي خضعت كل بلاد النوبة للحاكم الجبار الجديد . وهذا الحدث يسجل أول تبعية للنوبة إلى أرض مصر منذ أن كانت كذلك في أقدم الأزمان .. ولكن الأمر يقتضي أن نشير إلي أن ذلك قد تم بسنوات قليلة قبل الفتح التركي للسودان في عام ١٨٢٠م .

ولو أخذت في الاعتبار هذه الخلفية التاريخية الاجتماعية ، لخُطّت الحدود السياسية شمالا(عند الشلال الأول) ولأخذت النوبة برمتها وصفها الطبيعي ضمن البنية السودانية . لكن الذي حدث هو أن رغبة كرومر –التي لم تخطر على بال أحد – قد تحققت .

وفي مارس ١٨٩٩م – وباتفاق محلي بين قمندان وادي حلفا وضابط شرطة التوفيقية من جانب وممثل مصلحة الأراضي المصرية وضابط شرطة مركز حلفا القديمة من جانب آخر –تم مد حدود السودان الشمالية (الواقعة على النيل) إلي فرص ، شمال خط عرض ٢٢ درجة . وصدقت السلطات المصرية على الاتفاقية كما يوضح الخطاب التالي الصادر من وزارة الداخلية بالقاهرة في ٢٦ مارس ١٨٩٩ م إلي محافظة النوبة " الحدودية" بشأن ترسيم حدود السودان :-

(إطلعنا على خطابكم رقم " ١٩" حسابات بتاريخ ١٤ مارس ١٨٩٩م والذي أوضحتم فيه أنه –بناء على التماس قمندان حلفا وتنفيذا للاتفاقية المبرمة بين صاحبة الجلالة البريطانية ملكة إنجلترا والحكومة المصرية بتاريخ ١٩ يناير ١٨٩٩م بشأن الحدود الفاصلة بين مصر والسودان –قد تم الاتفاق بين القمندان المشار إليه وضابط شرطة التوفيقية من جانب ، وممثل مصلحة الأراضي المصرية في تلك المحافظة وضابط شرطة مركز حلفا من الجانب الأخر لمد الحدود السودانية شمالا بغرب النيل عند نقطة تبعد ٢٠٠ متر شمال (بربا فرص[1]) وبشرق النيل عند (خرابة) أدينداں ، وإنه قد تم وضع علامتي حدود هناك : يحمل الوجه الشمالي لكل منهما كلمة (مصر) ويحمل الجزء الجنوبي منهما كلمة (السودان) وأن هذا الترتيب قد تم بحضور عمد ومشائخ القريتين المذكورتين أعلاه وإنه تبعاً لذلك تم التنازل عن قرية فرص للسودان فيما عدا ٣أفدنة وقيراطين و٨٥ شجرة نخيل استبقيت في حدود مصر . ومن ضمن أراضي " أدينداں " الخاضعة للضريبة والتابعة لمصر تم

---

[1] بناء خرب بناحية فرص .

التـــنازل للسودان عن ٩٩ فدانا و٧ قراريط وه١٥٥ شجرة نخيل . وإنه بناء علـــى ترتيبات إعادة رسم الحدود هذه فقد تم ضم عشر قري من المحافظة لتكون ضمن الأراضي السودانية بمساحة قدرها ٣٠٩٤ فدانا و ١٢ قيراطاً و ٢٢٠ ســـهما مـــن الأراضي ، منها ١١٢ فدانا و٥ قراريط و ١٢ سهما غير مسجلة وكذلك ٨٢,٢٠٦ شجرة نخيل ، وبعدد من السكان يبلغ ١٣,١٣٨ نسمه . وبـــناء على ذلك أوصيتم بان يتم تقسيم ما تبقي من فرع مركز حلفا وفرع مركز الكنوز ويسمي بالآتي:

١. فرع حلفا يسمي فرع مركز " الدر" ورئاسته في كروسكو ويضم ٢٢ قـــرية مـــن أدندان " في الجنوب إلي " شاتورما" في الشمال ، على امتداد ١٤٤ كيلو مترا منها ٩١١٧ فدانا و١٠ قراريط و ٨ أسهم من الأراضـــي الخاضـــعة للضريبة و ٢٥٤,٨٩٢ شجرة نخيل . وعدد سكان هذا الفرع ٣١,٧٠٣ نسمه .
٢. فـــرع مركـــز الكنوز يسمي فرع مركز " أبوهور" ورئاسته في " ابو هور" ويضم ١٨قرية من " مديك" في الجنوب الي الشلال في الشمال وعلى امتداد ١٤٤ كيلو مترا منها ٨,٠٢٥ فدانا و٥ قراريط من الأراضي الخاضعة للضريبة و ١١٠٤٤٠ نخلة وعدد سكان فرع المركز ٣٢,٣١٩ نسمة حسبما تبينه القائمة والخريطة المرفقة بخطابكم)٠

(وفـــي ذات الوقت تسلمنا خطاباً برقم ٥" ضرائب مباشرة" من وزارة المالـــية يوضح موافقتهم على ما جاء أعلاه بناء على مخاطبتكم لهم ، لكنهم يوصـــون بـــأن يســـمي مركز حلفا : فرع مركز كروسكو وليس " الدر" كما اقترحـــتم ، وأن تسمي المديرية : مديرية أسوان ٠ وبالإضافة إلي ما خاطبتم

به وزير الداخلية فإن وزارة المالية قد حددت أسماء القري العشر كما يلي :
سره شرق ، فرص ، دبيره ، سره غرب، أشكيت ، أرقين ، دغيم ، عنقش ، دبروسه وان تُضم هذه القرى العشر إلي جانب الأراضي الخاضعة للضريبة التــي ذكــرتموها ، ٧٢٠فدانــا و٥ قيراط و٨ أسهم من الأراضي ملكا حراً للحكومــة ، ونحــن إذ نصدق –هنا –على إعادة رسم الحدود هذه ، والتي تشمل عدد القرى والسكان والأراضي الخاضعة للضريبة وعدد أشجار النخيل وتغيــير اسم فرع مركز حلفا حسبما أوصت به وزارة المالية ليتطابق مع اســم رئاســته وإطلاق اسم : مديرية أسوان علي المركز ، بهذا نكتب لكم ولوزارات العدل والأشغال العامة والمالية للعلم).

هذا يوضح إلي أي حد يمكن للعاديين من الناس أن صنعوا التاريخ .

يلاحظ في هذه الوثيقة أن الأرض التي تم التنازل عنها للسودان تضم ثــلاث قــرى جنوب خط عرض ٢٢ درجة وبالتحديد هي دبروسه ، عنقش ودغــيم والتي لم تكن في أي يوم خاضعة للإدارة السودانية قبل إبرام اتفاقية يناير. وفي نفس الوقت فإنه لا يوجد سبب محدد لاختيار نقطتي الحدود اللتين ســبق الحديث عنهما . ولربما كانت هذه المسألة مضمنة في مذكرة القمندان المشار إليه سلفاً.

وعــند إسدال الستار على حملة استرجاع السودان ، تم إخلاء الحامية المقــيمة في القيقر تماماً وتم ترحيل أسر الجنود السودانيين التي كانت تقيم داخــل الحامية إلى شمال شرق دبروسه حيث تم تخصيص قطع سكنية لتلك الأسر . وفي ذات الوقت أزيلت مخازن الذخيرة وترسانة الجنود المصريين ، وبرزت مساكن جديدة أنيقة في المكان اليابس لسكن ومقر الجنود السودانيين

. وحُوِّل المستشفي إلى رئاسة للسكة حديد ثم مؤخراً إلى ناد بريطاني . وفي التوفيقية أقام "لويزو" فندقاً من طابقين يطل –من جهة النهر –على السوق . وبنــي الإغــريق كنيســة كاثوليكــية صغيرة في المنطقة التي شغلتها إدارة الجمارك لاحقاً .

وخــلال السنوات الباكرة من القرن العشرين بدأت الإدارة تأخذ شكلاً مدنــياً . فحلفا كانت –أثناء فترة الإعداد لحملة استرجاع السودان –تخضع للحكم العسكري وكانت إدارتها مجرد ترس في آلة الحرب الضخمة . كان (ود هــاوس) أول الحكــام العسكريين وخلفه " قرنفل" ثم "هنتر" وعندما حل السردار بحلفا في مارس ١٨٩٦م جمع ما بين منصبي الإداري الأول والقائد العســكري . وعــندما اندلعت الحرب واندفع الجنود جنوبا ، أوكلت الإدارة للقوة البريطانية التي تمركزت – احتياطاً –بالحامية . وعندما أزيلت مباني القــيقر الطينية ابتاعت الحكومة الفندق المملوك " للويزو" واستخدمته رئاسة محلية . فاحتلت المحكمة الشرعية والقسمان " الكتابي " و " الحسابي" الطابق الأراضي بينما أبقي الطابق الأول للمدير ومساعديه الإداريين البريطانيين . أما رئاسة المركز فقد كانت تزاول عملها من المبني الذي صار مؤخراً متحفاً . وأثــناء السنوات العشر الأولي لم تكن الإدارة مستقرة كما لم يكن تحديد السياسات ممكناً بسبب تعدد المديرين الذين خدموا في وادي حلفا . وبمراجعة قائمــة المديريــن المضــمنة فــي الدوريــة القديمة المحفوظة بدار الوثائق بالخــرطوم ، تبين لي أن اثني عشر مديراً قد عملوا في حلفا في الفترة من ١٩٠٥م إلى ١٩١٠م ، بل إن عام ١٩٠٥وحده شهد تعاقب سبعة من المديرين . وفــي عام ١٩١٢م بدأت فترة الإدارة المدنية وكان السيد (ج. ي.. آيل)

أول المديريـــن المدنييـــن . وابتداءً من هذا التاريخ تطاولت فترات المديرين وتراوحـــت ما بين عامين وسبعة أعوام حسبما تكشفه القوائم الرسمية . وفي عام ١٩٢٢م خُصصت المساحة التي كانت تقع بين إدارة الجمارك والطابية رقم ٥ " أو ما كان يعرف بـــ :"أبو فريق وبش" والتي كانت أرضا زراعية تروي بالساقية –لبناء المستشفي ومحطة السكة حديد ورئاسة الإدارة المحلية ، بعـــد أن دفعـــت عنها تعويضات مجزية . وتم منح مباني (فندق لويزو) لمصلحة السكة حديد.

وفـــي عام ١٩٣٥م –ونتيجة لسياسة دمج المحافظات الصغيرة – أصـــبحت إدارة حلفـــا فـــي مستوي مركز تابع للمديرية الشمالية التي كانت عاصـــمتها " الدامـــر" . وكان السيد " برفس" آخر حكام حلفا قبل تنفيذ هذه السياســـة . وقـــد تـــم إلغاء مركزيْ (عبري) و(دلقو) مع الإبقاء هناك على نقطتي شرطة وبعض المحاكم الأهلية التي تختص بالمسائل الأمنية الطفيفة . وينبغـــي التذكير هنا بأن سياسة الحكم غير المباشر طُبِّقت لأول مرة في عام ١٩١٥م علـــى أثـــر مرسوم أصدره الحاكم العام عيّن بموجبه عُمد ومشايخ القرى من بين الأهالي للمساعدة في جباية الضرائب وإعانة مفتش المركز في تســـيير الشئون الإدارية الطفيفة .وفي عام١٩٢٤ م خَطَتْ تلك السياسة خطوة متقدمة بإنشاء محاكم أهلية تستطيع – بقوة القانون– البت في القضايا الجنائية والمدنية وفقاً للعرف القائم على التقاليد الاجتماعية والقبلية السائدة.

وفـــي الفترة بين ١٩٣٥ م و١٩٥٣م عمل ستة من مفتشي المراكز البريطانيين في حلفا ، أولهم السيد "ت. جونستون" وأخرهم السيد "آربثنوت" . وكان السيدان (هاريسون) و(بن) قد خلفّا ذكرى حسنة . وفي عام ١٩٤٨م تم

تعيين أول مساعد مفتش سوداني وهو المرحوم السيد عز الدين مختار الذي خدم مع السيد " بن ". وفي عام ١٩٥٢م خلفه السيد علام حسن . وفي أغسطس ١٩٥٣م تمت سودنة الإدارة ورقي السيد محمد خليل بتيك (الإداري النوبي الشهير) إلى وظيفة المفتش وتقلد وظيفة مفتش مركز حلفا لمدة عامين . وعند ترقيته إلى نائب مدير مديرية ، تقلد السيد حسن جبارة –أحد زملائي– وظيفة المفتش لمدة عام ثم خلفه صديقي عبد السميع غندور . أما أنا نفسي فقد كنت آخر مفتش مركز في هذه المنطقة التي حكم عليها بأن تختفي تحت مياه بحيرة السد العالي[1] .

وفي خواتيم القرن التاسع عشر وأثناء العقد الأول من القرن العشرين تم اختيار " حلفا" مكاناً ملائماً لاعتقال ونفي كبار أسرى المهدية من الأمراء والقادة الذين ينتسبون لفترة حكم الخليفة ، وذلك لعزلتها وبعدها عن باقي مناطق السودان ومصر . هنا نأتي إلى قصة هؤلاء الأبطال التعساء .ففي أعقاب هزيمة النجومي في "توشكي" عام ١٨٨٩م تم نقل كل الأسرى إلى القاهرة . ثم شُيِّد سجن خصيصاً لهم برشيد عام ١٨٩٣م وذلك لقضاء فترة حبس غير محددة . وعندما حدثت معركة " النخيلة " في أبريل ١٨٩٨م استسلم الأمير محمود ود أحمد ومعه كم مقدّر من رجاله فيهم إخوانه الثلاثة إسماعيل و محمد المهدي وعلى ، فتم إرسالهم إلى وادي حلفا في طريقهم للانضمام إلى أسرى معركة توشكي . أما الأسرى الذين كانوا في مرتبة أقل من حيث الأهمية وهم بشير أحمد الناجي ، والفكي محمد أبو حراز ، وراشد يونس، ومحمد جار، وعبد الماجد هيام ، وود قمر ، فقد تم حبسهم بالمنطقة

---

[1] يسمى الجزء الواقع في السودان من هذه البحيرة : (بحيرة النوبة) – المترجم .

العسكرية في حلفا . وفي ذلك الوقت تقرر إنشاء سجن آخر في " دمياط " لحبس أسرى المهدية من الشخصيات الهامة والذين يتوقع القبض عليهم أحياء حينما تتقدم الحملة إلى أم درمان . وبعد معركتي كرري وأم دبيكرات تم القبض على مجموعة كبيرة من الأمراء العظام وعلى شخصيات مهمة معظمهم من " التعايشة والتناقله " حيث تم نقلهم للمنفي –تحت الحراسة العسكرية –إما إلى حلفا بالسكة الحديد أو إلى سواكن ومن ثم بالبحر الأحمر إلى دلتا النيل . وبعد معركة أم دبيكرات فر عثمان دقنه وعاش متخفياً في " قوز رجب" ثم لجأ بعد ذلك إلى جبال واريبا " بالقرب من البحر الأحمر حيث وشي به شخص يدعي " محمد أور". وفي الحال تم القبض عليه وأرسل عن طريق البحر الأحمر إلى دمياط .

وفي بداية القرن العشرين ، كان أشهر أولئك الأسرى[1] أبناء المهدي[2] وأبناء الخليفة عبد الله[3] وأبناء الخليفة علي ود حلو[4] وأبناء الأمير

---

(١) استقيت جزءاً من معلوماتي من دار الوثائق بالخرطوم ، وجزءاً آخر من السيد : عمر يعقوب ، ابن أخ الخليفة – الذي قضى حوالي عشر سنوات أسيراً بوادي حلفا .

(٢) هؤلاء كانوا : عبدالله والطاهر ونصر الدين وعلي وقد أرسلوا أربعتهم إلى مدرسة خاصة في رشيد وكانوا يعاملون معاملة طيبة وعقب إكمالهم للمدرسة الابتدائية التحقوا بوظائف دنيا في مصر حيث توفي عبدالله ونصر الدين أما الطاهر فقد توفي بوادي حلفا وهو في طريقه لأرض الوطن بصحبة أخيه علي الذي كان الوحيد من بين إخوته الذي بقي على قيد الحياة وأما عبدالرحمن الذي كان حينها في الثالثة عشرة من عمره فقد ترك في كنف أمه بأم درمان .

(٣) كان عددهم ثمانية عشر وقد قسموا إلى ثلاث فئات تبعاً للعمر . فالذين كانوا قادرين على العمل التحقوا بالمصالح الحكومية بمصر والشباب منهم بعث بهم للتدريب بمدرسة (ميت الديبة) الزراعية إما الأطفال فقد ادخلوا مدرسة رشيد مع أبناء المهدي وأما عثمان شيخ الدين أكبر أبناء الخليفة فقد حبس في سجن رشيد إلى أن توفي مثل الأمير محمود ود أحمد والآخرين . غير أن عمر استوعب في مصلحة المخازن والمهمات بمصر وعند عودته إلى السودان عمل بمصلحة المالية ثم تم تجنيده مؤخراً ضابطاً بقوة دفاع السودان . وأما عبدالصمد فقد عمل بمصلحة المخازن والمهمات مثل عمر وعند عودته للسودان تم تعيينه (صول) بقوة دفاع السودان . وأما يحي وأشقاؤه الثلاثة (إسماعيل وإبراهيم الخليل وحمزة) فقد ألحقوا بمدرسة (ميت الديبة) وتوفي إسماعيل بمصر بينما عاد يحي وأخواه اللذان بقيا على قيد الحياة للسودان وعملوا بمصلحة الزراعة . وأما الطاهر ومحمد الأمين ومحمد المهدي وعلي فقد عادوا جميعاً إلى السودان في عام ١٩٠٨م وأما عبدالمجيد وحسن وعبدالرحيم ومحمد السيد وسليمان وداؤود وفضل والطيب الذين كانوا صبياناً صغاراً فقد ألحقوا بمدرسة رشيد ثم أعيدوا إلى أم درمان في عام ١٩٠٨م وأما عبد السلام أصغر الأبناء فقد كان رضيعاً ولذلك ترك في رعاية أمه بأم درمان .

يعقــوب[٥] أخ الخليفة الذين ألقي القبض عليهم إثر مقتل الخليفة في معركة أم دبيكرات . أما كبار الأمراء وكبار الشخصيات الذين أرسلوا إلي سجون الدلتا فقد كانوا : يونس ود الدكيم ، وعبد الباقي ، وعبد الوكيل ، وإبراهيم مالك ، وفضــل حسن ، والختيم موسى ، ومحمد الأمين يعقوب ، وخاطر حميدان ، وإبراهيم مخير ، وعلي الشيخ سعيد ، والأمير محمد زين . وأما أولئك الذين يــأتون فــي مرتــبة ثانية من الأهمية فقد نقلوا إلي وادي حلفا بعد إتمام فتح السودان .

وفــي عــام ١٩٠٤م شرع علي عبد الكريم (وهو ابن عم المهدي ، وكــان مهووســاً ومختــل العقل) في التبشير بتعاليم تتعارض مع الشريعة الإســلامية وجمع حوله رهطاً من الأتباع . وقد اعتبرت حركته خطرة علي الأمــن وعلــي صــحة الدين . فأعتقل هو وأتباعه الذين كان أشهرهم محمد الزاكي وعوض أبو القاسم وسعد العيش ، ونقلوا إلي وادي حلفا وحبس علي عــبد الكــريم حبســاً خاصاً في الحصن (رقم ٤) ولم يكن يسمح له بمغادرة الزنزانة . وبقي سجناء الدلتا البؤساء يعانون من الظلم حتى عام ١٩٠٨م . ففــي ٢مارس ١٩٠٨م رفع سجناء رشيد تظلماً إلي مصلحة المخابرات وإلي ســلاطين باشا الذي كان في هذا الوقت المفتش العام للسودان ، يطلبون فيه إعادتهم إلي وطنهم . وتشكوا من رطوبة طقس الدلتا الذي أودي بحياة العديد

---

[٤] كان عددهم سبعة وهم : محمد أحمد الذي اعتقل في سجن رشيد مع آخرين ثم نقل إلي وادي حلفا لاحقا ويعقوب الذي مكث في سجن رشيد إلي أن أطلق سراحه في عام ١٩٠٨م وعند عودته إلي السودان استخدم في قلم المخابرات ثم عبدالله موسى الذي ألحق بمدرسة (مبيت تحتية) واستوعب عند عودته إلي السودان بمصلحة الزراعة ثم إسماعيل الذي كان قيد الحبس في سجن رشيد وبعد إطلاق سراحه في عام ١٩٠٨م عاد إلي السودان وأقام في كوستي . ثم : الطيب وصديق القاصران في ذلك الوقت اللذان أعيدا إلي السودان في صحبة أميهما بعد أن أمضيا فترة قصيرة بسجن رشيد .

[٥] كان عددهم تسعة وهم : عمر وعلي وموسى وأحمد وعبدالماجد وعبدالرحمن وحسن وعبدالله وعبدالله وكلهم أرسلوا إلي المنفي في وادي حلفا . وقد ضم الاثنان الأخيران إلي إخوتهما بعد عامين وألحقوا كلهم بمدرسة السكة حديد بالمدينة عدا أحمد الذي عين كاتبا . وفي عام ١٩٠٨م أطلق سراحهم وأرسلوا إلي عطبرة حيث تم تعيينهم عمالا بالسكة حديد .

منهم وأدي إلي تدهور صحة من بقوا علي قيد الحياة . وفي ذات الشهر زار سجون الدلتا (هـ . ن . بريلزفورد) أحد قادة حزب الأحرار البريطاني وتحدث إلي عثمان دقنة ،وبما أن حالة السجناء المحزنة كانت لا تحتاج إلي دليل فقد نقل للمسؤولين البريطانيين امتياءه من سوء معاملتهم ورجا أن يعاملوهم معاملة حسنة .

وعند عودته إلي لندن كتب السيد (بريلزفورد) مقالاً نقدياً في صحيفته أشفعة بتقرير إلي الحكومة . وسرعان ما أبدت الصحافة المصرية اهتمامها بالقضية وظهرت مقالات في (الأهرام) و (المنبر) و(اللواء) و (المؤيد) . ودبج الصحفي الشهير حسين هيكل محرر جريدة (السياسة) الناطقة باسم حزب الأحرار المصري مقالاً نارياً بعنوان : "الرحمة فوق العدل.. عثمان دقنة : السجين الخالد " ، عبر فيه عن قناعته بأن أولئك السجناء ليسوا مجرمين وإنما هم عظماء بلادهم وأن ما قاموا به لا يتجاوز حدود الحق المقدس للدفاع ضد الغزو الأجنبي ، وأهاب بالسلطات البريطانية إطلاق سراحهم فوراً وإعادتهم سالمين إلي ديارهم .

وقد أفزعت حملة (بريلزفورد) وما أججته من المشاعر في الصحافة المصرية ، السلطات البريطانية في القاهرة وبعد تحقيق حذر تقرر الإفراج عن السجناء المسالمين ونقل المشاكسين منهم إلي وادي حلفا . ونتيجة لذلك تم إطلاق سراح إبني المهدي الذين بقيا علي قيد الحياة وكل أبناء الخليفة علي ود حلو ماعدا محمد أحمد وسمح لهم بالعودة إلي أهلهم . ولإيجاد مكان لحبس بقية السجناء في وادي حلفا فقد أُفرج عن أبناء الأمير يعقوب وأرسلوا إلي عطبرة ليجدوا عملاً ، أما بقية السجناء ممن هم في مرتبة أقل من حيث

الأهمية فقد أفرج عنهم من سجون دمياط وحلفا. ثم صدر قرار بنقل من تبقي مـــن سجناء الدلتا إلي وادي حلفا . وقد وصلت آخر دفعة منهم في ١٣ أبريل ١٩٠٨م ثم تبعهم (دقنة) في ديسمبر .

وبنهاية عام ١٩٠٨م تم تقسيم من تبقي من السجناء[1] السياسيين في وادي حلفـــا تبعاً للأهمية السياسة، في مجموعات . فشملت المجموعة الأولي كـــبار القادة والذين وضعوا تحت الحبس الخاص في الحصن رقم ٤ ولم يكن مسموحاً لهم بمغادرة الزنازين إلا مرة واحدة ظهراً وهؤلاء هم : عثمان دقنة وعلي عبد الكريم . وأما المجموعة الثانية فقد حبست أيضا في الحصن (رقم ٤) وقـــد مُنعوا من الاختلاط بالأهالي . وأما المجموعة الثالثة فتشمل السجناء الشباب الذين وضعوا تحت عقوبات مخففة لا تتعدي في أغلب الحالات تحديد الإقامـــة وقد عاشوا في معسكر البجانة وسمح لهم بحرية الحركة في المدينة والاشتغال في السوق ، واستخدم بعضهم في ورش السكة حديد .

وبعـــد مرور بعض السنين ، غيرت حكومة السودان معاملتها لهؤلاء الســـجناء وقررت اتخاذ خطوات إيجابية لإعادتهم لممارسة حياتهم العادية في المجـــتمع السوداني الجديد ، فأولئك الذين تلقوا تدريباً زراعياً في المزرعة التجريبـــية بميـــت الديبة في مصر ، ألحقوا بمصلحة الزراعة وهناك آخرون كـــثر تـــم تعيينـــهم حرفيين في ورش السكة حديد ، وهناك عدد منهم حددت

---

[1] انخفض العدد إلي : عثمان دقنة ، علي عبدالكريم، إسماعيل أحمد وزوجته مستورة وابنه محمد وابنته صفية ، محمد المهدي أحمد وزوجته صفية وبناته حليمة وفاطمة وسكينة ، إبراهيم مالك الذي كان في الستين من عمره وبناته مبروكة وزهرة وفاطمة وابنه عباس ، عبدالباقي عبد الوكيل الذي كان في الخامسة والستين من العمر وزوجته فاطمة وبناته زهرة وابنه بلال ، محمد أحمد الطاهر والذي كان في الثامنة والعشرين من العمر وزوجته الشلكاوية (عطا الكريم) وابنيه يعقوب وعلي وبناته آمنة ونور الشام والبقية كانوا هم : خاطر حمدان وعلي فرفار الذي كان الساعد الأيمن للزاكي طمل ، ورحمة الحسون وإبراهيم مالك وإبراهيم مكي ويعقوب أبو زينب ويونس ود الدكيم وعلي الشيخ سعيد ومحمد الزاكي وإبراهيم الترجماوي والفكي موسي وقمش الحسن وعوض أبوالقاسم ومحمد فضل الله والشريف أحمد عبدالرحمن وملك الشلك يور ديتوك .

إقامـــته فـــي أم درمان ، وود مدني والقضارف والجبلين وسنجة وكوستي .
وبحلول ديسمبر عام ١٩١٧م لم يبق إلا أربعة أعتبر إطلاق سراحهم خطراً علـــي الأمن في ذلك الوقت وهم : عثمان دقنة وعلي عبد الكريم وعوض أبو القاسم ومحمد أحمد الحلو . وبعد فترة قصيرة سُمح لعوض أبو القاسم ومحمد أحمـــد الحلو بمغادرة وادي حلفا والعيش تحت رقابة الشرطة في موطنيهما تاركيـــن عـــثمان دقنة وعلي عبد الكريم الذين كتب عليهما أن يبقيا في هذه المدينة مدي الحياة.

وفـــي عـــام ١٩٢٣م إلتمس عثمان دقنة من السلطات السماح له بأداء فريضـــة الحج ، إلا أنّ هذه الأمنية النبيلة رفضت بشكل متعسف ... وتسرب الخـــبر إلـــي أحد أعضاء البرلمان البريطاني من حزب الأحرار فوجه سؤالاً حول رفض طلب عثمان دقنة لزيارة الأراضي المقدسة. فأنكر وكيل وزارة الخارجـــية الـــتماس عثمان دقنة أو إبداء رغبته في هذا الشأن وأكد لأعضاء الـــبرلمان أن عـــثمان دقنة يعيش حياة هادئة وهنيئة في منفاه . ولكن صحف حـــزب الأحرار شنت حملة من الإنتقادات علي الإجابة الكاذبة وطلبت إجراء تحقيق دقيق يزيل عن عثمان دقنة ما لحق به من ظلم .

لاشـــك أن ما كتبته الصحافة قد هز الحكومة البريطانية ، فقد سمحت مـــرغمة لدقنة في عام ١٩٢٤م بالتوجه إلي مكة المكّرمة . وعند عودته إلي وادي حلفـــا خُصّص له منزل صغير بالقرب من مركز الشرطة حيث قضي بقـــية حـــياته صـــائماً كل النهار قانعاً بقليل من الطعام واللبن والتمر ليلاً ، مكرســـاً كل وقته للصلاة وتلاوة القرآن حتى توفي بهدوء في ليلة١٧ ديسمبر ١٩٢٧م . وبعـــد جنازة صامتة دفن في مقابر سيدي إبراهيم . وهكذا أسدل

الســتار علــي حياة أعظم الأبطال الذين عرفهم تاريخ السودان وأحد أشجع وأفرس مقاتلي القرن التاسع عشر ... قائد (الفزي وزي [1]) والمحارب الذي انتصـــر فـــي خمس معارك وهزم جيش الإمبراطورية في (طوكر وسنكات والتــب وهــندوب وطمـــاي وخور شمبات) .. صاحب البطولة والجسارة والمهــارة التـــي أذهلــت مؤرخـــي العالم وجعلت (تشرشل) يخلع عليه حلل الإطراء .

وبعد وفاة عثمان دقنة بقي علي عبد الكريم وحيداً مع عائلته في القيقر يفلح قطعة أرضه الصغيرة ويجني ثمار نخيله حتى وفاته عام ١٩٤٢م .

لقد عامل سكان النوبة هؤلاء السجناء الأبطال – في قيودهم وعزلتهم – معاملة طيبة . أما الذين سمح لهم بالاختلاط مع الأهالي فقد تركوا وراءهم أصدقاء عديدين ما زالوا يذكرونهم بكل عطف . وبالرغم من أن سيرة عثمان دقنة كانت مجهولة بالنسبة لعامة الناس في مدينة حلفا إلا أنه كان بالنسبة إليهم من الأولياء الذين نسجت عنهم كرامات عديدة .

---

(1) الفزي وزي : إشارة إلى الهدندوة أصحاب الشعر الكثيف المجعد ـ المترجم .

ونجت

كرومر

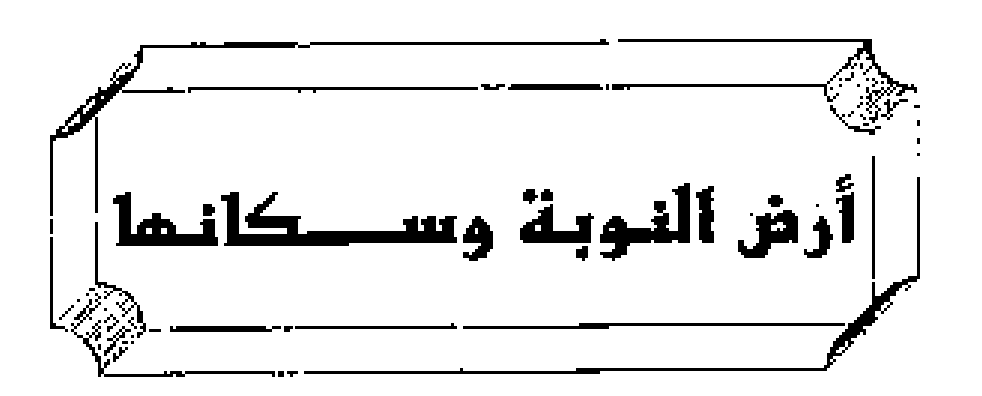
كتشنر

محمود ود أحمد اسيرا



ابناء المهدي (الصف الثاني) وابناء الخليفة (الصفين الأول والثالث)

الفصل الخامس



الـــدارس لتاريخ السودان -قديمه وحديثه- يلاحظ أن كل المؤثرات الكبرى -تقريباً- قد دخلت البلاد عن طريق النيل وعبر أرض النوبة . فقد لعب هذا النهر دوراً كبيراً في تشكيل تاريخ النوبة وتاريخ السودان عموماً . ففي الأزمان القديمة أرسل عظماء الفراعنة الذين ينتسبون إلي الدولة الوسطي أســاطيلهم إلـــي أعالي النهر فيما وراء الشلال الأول وبنوا مدنهم ومعابدهم علـــي امـــتداد الشاطئين في بلاد النوبة وأنشأوا دفاعاتهم عند الشلالين الثاني والثالث . وهكذا امتدت أولي الحضارات التي عرفها العالم إلي تلك المنطقة . وبعـــد قرون من الحياة المستقرة ، تقدم الكوشيون من الجنوب وغزوا النوبة ونهبوا مدنها ثم ساروا شمالاً حتى أخضعوا مصر . ولكن الفراعنة سرعان ما استعادوا قوتهم واسترجعوا ما فقدوه من البلاد .

وفي فجر المسيحية استقل الآباء المسيحيون مراكبهم من (رشيد) إلي النوبة حاملين الإنجيل وداعين إلي سبيل السلام . فأقاموا في خرائب المدن الفرعونـــية القديمـــة وبنوا كنائسهم علي انقاض المعابد. وعلي نقيض قدماء المصريين ، نشر الآباء المسيحيون نفوذهم حتى بلغ أقاصي السودان وأخذوا فـــي بـــناء المـــدن والكنائس حتى بلغوا علوة جنوبي الخرطوم حيث أقاموا مملكـــتهم المســـيحية . ثم انتشر الإسلام في منتصف القرن الثامن الميلادي عـــندما اندفـــع المســـلمون العرب -وهم مشبعون بقوة الإيمان- علي طول ضـــفتي النيل من مصر إلي بلاد النوبة وأقاموا حضارتهم الإسلامية الجديدة فوق آثار المملكة المسيحية المحتضرة . وتم بناء المساجد بالقرب من أنقاض الكـــنائس وفـــي بعـــض الأحيان تم تحويل الكنائس إلي مساجد . ومثلما فعل ســابقوهم من المسيحيين فقد توغل المسلمون العرب جنوباً واستقروا في منطقة

(حزام السافنا) الذي يتيح لإبلهم مرعي طيباً .

في القرن التاسع عشر كان النيل هو الطريق الرئيسي لثلاث غزوات ، وهـــي غــزوات : محمـــد علي باشا وإسماعيل باشا واسترجاع السودان عام ١٨٩٦م . وبسرغم الطبيعة المستعجلة لحملة إنقاذ غردون في عام ١٨٨٤م فلــم يكــن هناك طريق أسرع من النيل . وحتى (النجومي) لم في استطاعته تجنــب النيل وهو في طريقه لغزو مصر مع سابق علمه بتمركز قوات العدو فــي المنطقة الواقعة في ما بين عكاشة وحلفا ..باختصار فإن بلاد النوبة كانــت الــبوابة التــي عبرت من خلالها الحضارات والاديان والجيوش إلى السودان .

إن أحـــد أوضـــح ســمات بلاد النوبة هو عزلتها ، فهي منطقة نائية ومنفصـــلة عن باقي القطر بموانع طبيعية . فمن ناحية الشرق والغرب فهي مقطوعـــة عــن العالم بالصحراء التي لا حدود لها ومن ناحية الجنوب تمتد صحراء العتمور القاحلة إلي مسافة تقرب من ٥٠٠ كيلو متر بين وادي حلفا وأبــو حمــد . أمـــا مجري النيل إلي دنقلا فمسدود بثلاثة شلالات (الثاني والثالث والرابع) والشلال الثالث وحده يتكون من سلسلة من أربعة جنادل (ســمنة وتــنجور ودال وكجبار) . ومن جهة الشمال تبعد أسوان مسيرة ٢٣ ســاعة بالباخرة من وادي حلفا . وقبل مد خط السكة حديد فإن الوصول إلي حلفا لم يكن ممكناً إلا عبر ثلاثة طرق وعرة . فمن جهة الغرب يمتد (درب الأربعين الذي تجتازه القوافل عبر الصحراء بدءً بمدينة (دارا) البعيدة بالقرب من جبل مرة بمديرية دار فور ومروراً بالغدائر والواحات والأودية والسهول الرملـية حتى تصل إلي أسوان محملة بالعاج وريش النعام وجلود الحيوانات

المتوحشـــة والمطـــاط الخام المستخرج من غابات بحر الغزال .وهذه القوافل المكونـــة مـــن مئات الإبل تتوقف في محطتها الأخيرة (بواحة سليمة) قبل أن تـــتوجه إلـــي النيل جنوبي حلفا .ثم تسير بمحاذاة الضفة الغربية للنيل عبر (بلانـــة) و(عنيـــبة) إلي (دراو) بالقطر المصري . ولأن هذا الطريق طويل وقـــاحل فإن استعماله كان قاصراً علي فصل الشتاء حينما يكون الطقس بارداً ويقـــل الاحتياج إلي الماء . وإلي الجنوب فإن الاتصال ببربر يتعذر إلا عن طريقيـــن : الأول يســـير علي الضفة الغربية ويتتبع منحيات النيل المتعددة مـــروراً بكوكا ودنقلا وكزيمة ثم عبر أرض المناصير إلي أبو حمد فبربر ، والثانـــي هو الطريق الشهير الذي يجتاز العتمور ويربط كروسكو بأبو حمد مروراً بآبار(المرات) .وهذا الطريق هو الذي سلكه غردون في آخر رحلة له إلي الخرطوم ، وهو الذي التزمه (أورلولدر) عند هروبه من أم درمان ، ولا يزال عرب العبابدة يطرقونه لتهريب البضائع والإبل إلي مصر .

فالـــنوبة – كما رأينا –بلاد معزولة وظل النوبيون مشدودين إليها ، يعيشون في عالمهم الخاص، ولهذا السبب بقيت بلادهم بمعزل عما كان يجري في السودان خلال القرن التاسع عشر .

السكان :–

إدعـــي (سلقمان)– عالم الإجتماع الشهير –في كتابه (أجناس أفريقيا) أن النوبييـــن ينـــتمون إلي الجنس الحامي الأفريقي ، وهم ينتسبون إلي نفس العنصر الذي ينتمي إليه قدماء المصريين وقبائل البجا بشرق السودان ، لكن لا يعـــرف بالضـــبط من أين جاء أسلافهم إلي بلاد النوبة . ويميل (أ . ج. آركـــل وبروفيســـور بلملـــي) إلي القول بأن أصولهم جاءت من (بُنت) ببلاد

الصـــومال . ويقول(لزلي قرينر) - بغير تأكيد جازم - إن ثقافتهم كانت آســيوية أكثر من أي تأثير آخر . ولربما جاءوا من آسيا عبر البحر الأحمر عـــن طريق ميناء (القصير) . ومهما كان الجدل حول هذه المسألة فإن علينا أن نفترض أنهم كانوا من الحاميين إلي تثبت الأبحاث العلمية غير ذلك .

وفـــي كـــل تـــاريخهم القديم وخلال الحقبة المسيحية ، ظل النوبيون محافظيـــن علـــي دمائهم الحامية. وحينما حدثت هجرة العرب الرئيسية إلي السودان في منتصف القرن الثامن الميلادي، كانت بلاد النوبة أول المتأثرين بهـــا . وتوغـــل العـــرب إلي أقاصي بلاد النوبة واختلطوا بأهلها وارتبطوا بأواصــــر المصاهرة مع بعضهم . وكانت هذه أول مرة تختلط فيها الملامح الحامـــية للنوبييـــن بالدم السامي . وكان هذا هو التفسير الوحيد -كما يقول (داوود كـــبارة) فـــي (الدر الفريد في الأخبار المفيدة) لحقيقة وجود الأشراف وعرب الحجاز بالسودان . غير أنه لا يوجد مرجع تاريخي يحدد حجم الوجود العربي في بلاد النوبة لكن بما أن العرب قوم مترحلون وبما أن النوبة منطقة جافـــة فيمكـــن افـــتراض أن إقامـــتهم لم تكن بالكثافة التي في حزام السافنا الســـوداني . وهـــذا يتفق مع الزعم التقليدي القائل بنقاء الأصل النوبي الذي تدعيه الأسر النوبية .

وفـــي القرن التاسع عشر إختلط الدم التركي بالدم النوبي . فقد تزوج الكشّـــاف (وهـــم عمـــال صغار عيّنهم الأتراك لإدارة القرى) نساء نوبيات وأصـــبح أحفادهم يعرفون اليوم بالكشّاف . وهم ينتسبون من ناحية الأم إلي النوبيين الذين يعتبرونهم إخوانا لهم ويتمتعون بكامل حقوقهم الاجتماعية وبحق امـــتلاك الأرض والإقامة في الأرض التي ولدوا فيها . وفي عهد (همام أبو

يوســف) حــدث أمر مهم يتعلق بتعريف سلالة الكشاف وأماكن إقامتهم كما تــرويه خلاصـــة القصة الواردة في مخطوطة المؤرخ النوبي (كُبارة.) تقول القصة : " إن همام إعتاد أن يبيع حق حكم النوبة لمن يدفع مقداراً معيناً من المال . وهذا التقليد الذي كان سائداً لزمن طويل قد أجج نار التنافس بين قبائل الكشـــاف . وتبعاً لذلك عقد كشاف (إبريم) حلفاً بينهم مكوناً من ثمانية من فــروعهم هي " الإبريماب والمجراب والأغا حسين والسكوراب والكيخياب والتباشيا والحمدوناب والكارياب "، وقرروا شن الحرب على الفروع الأربعة المكونة من" الداوودباب والدبابيا والمندولاب والآزريهان . "

وعــندما أحست فروع القبيلة الأربعة بنوايا أعدائها ، إنتقلت جنوباً إلي (الدر) وجهزت نفسها للقتال. ولكن قبل بداية المعركة تدخل بعض الشيوخ وعقدوا صلحاً بين الخصمين وفق شروط : تتولى قبائل (إبريم) بموجبها حكــم ســت إقطاعــيات هي إبريم وجنيبة وعنيبة ومصمص وتوشكي شرقاً وغــرباً. أمـــا القبائل الأربعة الأخرى فقد مُنحت خمسة عشر موقعاً تحكمها وهـــي : (عمارنة وفرّيق وبلانّه وقسطل وأدندان وجزيرة فرص ومرّه شرق ومرّه غرب ودبيرة وأشكيت وأرقين ودبروسه وعنقش وحلفا ودغيم) . وبذلك تم التوصل إلي وفاق، وساد السلام زمناً طويلاً . ولا يستطيع أحد من نوبيي حلفـــا أن يؤكد أو ينفي ما رواه (كُبارة) عن العداء الذي كان مستحكماً بين (الكُشـــاف) بالرغم من أن (كُبارة) لم يكن معاصراً له. وأظن أن صدقيه ما روي تظل مهتزة وتستدعي بحثاً دقيقاً .

الجدول التالي يوضح الفروع المختلفة لأصول النوبيين:

(١) النوبيون الخلّص:	(٣) النوبيون الأتراك:
أولاد جير – سوي – دُقما	نووداب – دبابيا – ونياب – مندولاب
غردقة – دكين – نوريا	كسرياب – سكوراب – بزرقانئاب –
(٢) النوبيون المستعربون	كخياب – بيرماب – مجراب [١] –
جوابرة – حيلاًب – قراريش	أغا حسين – شلاباب – إبريماب
أولاد أورك الدين	– تباشيا – حمدوناب – كارياب –
أولاد عاصم – عباسين	حمدولاب .

بمرور الأيام ظهر مزيد من (الكشاف) في منطقة النوبة ليضيفوا فروعاً جديدة إلي قائمة (كُبَارة) . فهناك أتراك آخرون يعرفون بالُغز تركوا أثراً في النوبة . وقد شكل قطاع النوبيين الأتراك الكم الأكبر من سكان المنطقة التي غمرتها المياه مؤخراً .

الجدول التالي يوضح الأقسام القبلية تبعاً لأصلها وهو مأخوذ من وثيقة ورثها (شريف داوود) من والده الذي كان عمدة مدينة حلفا .

وأقسام النوبيين ومجموعاتهم المصنفة آنفاً لا تنزع غالباً الي العيش بمعزل عن بعضها البعض . فهم جميعاً ينتسبون الي أم نوبية ويشعرون أن رابطة الأمومة التي تجمعهم قوية بما فيه الكفاية لتشدهم إلي بعضهم بعضاً. وفي ذات الوقت فهم لايحتقرون بعضهم ولا يتعاملون مع بعضهم علي أساس

---

(١) يشكل المجراب معضلة مثيرة : فهم يدعون أنهم جاءوا منذ زمان قديم من (الحجر) وسكنوا في (جزيرة المجراب) المقابلة لدغيم وربما كان أمراً شيقاً لعلماء الاجتماع أن يثبتوا أو ينفوا هذا الزعم بوسائل علمية ولكن بالنسبة لي ومشاهداتي القليلة من أصحاب تعبون للحجر – أرى أنهم من نسب بني الأوراجين أو الحجريين وعلي كل حال فقد أدخلتهم وثيقة (شريف داوود) في زمرة النوبيين الأتراك .

التفرقة العنصرية بل إن النوبيين الخُلّص لا يتفاخرون بعنصرهم فهناك شعور عــام بالمساواة رغم التنوع العرقي في كل قرية من القري . بل ليست هناك قرية واحدة يسكنها فرع واحد من فروع النوبيين ، وهذا الجدول المأخوذ من وثيقة شريف داؤود ، يعطي فكرة عن تعدد الأصول العرقية المتعايشة في كل القــري التــي غمرتها المياه. وهذه الحقيقة تم اختبارها بالرجوع إلي شيوخ معظم القري المعنية فوُجِدت صحيحة .

اسم القرية	الفرع النوبي
فرص غرب	[illegible]
فرص شرق	[illegible]
سرة شرق	[illegible]
دبيرا	[illegible]
اشكيت	[illegible]
أرقين	أغلبية من [illegible]
دبروسة	أغلبية من [illegible]
[illegible]	[illegible]
دغيم	الأغلبية من: [illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]

الفصل السادس

السمات الشخصية للنوبيين المعاصرين

(١) الطابع العام للشخصية :-

النوبيون يُعتبرون من أكثر قبائل السودان مسالمة ، رغم قسوة الحياة وفقرها في المنطقة التي يعيشون فيها • وهم كرماء ومهذبون حين يتعاملون مــع الغــرباء والأجانـــب • فالضـــيوف يلقون منهم حسن الرفادة والتقدير ويطعمـــون عندهم بأحسن الإدام والشراب المتاح. وحتى في المناطق الفقيرة مـثل (بطــن الحجر) يعجب الزوار دائماً باستقبال الناس العطوف ، إذ أن الضـــيف بالنســـبة للنوبيـــين يعتبر شخصاً جديراً بالاحترام البالغ كما تعتبر الحفـــاوة بـــه واجباً اجتماعيا. فالضيف النازل على شخص بعينه منهم يكون ضـــيفاً علـــي القرية كلها • وحين يتسامع الناس لكلمة: (أسكتي) فإن القرية برمتها تتسابق للاحتفاء به. وبمجرد أن يدخل الضيف منزل النوبي يحس بأنه قـــد حل بأهله • فوجوه مضيفيه البشوشة تطوقه بالحنان وتظل تثرثر وتسخر مـــن الحـــياة • ولا تنطبق هذه البشاشة علي الرجال وحدهم، فالنساء اللاتي تقدمت بهن السن يقمن في غيبة الرجال بواجبهن الاجتماعي بمستوي يدعو إلي الإعجاب. وأثناء فترة السنوات الست التي قضيتها في بلاد النوبة لم أكن أخطئ غلبة هذه العادة ، فالنوبيون البخلاء قليلون جداً •

كذلـــك فـــإن مـــن خصائص النوبيين : النظافة. فهم يكنسون منازلهم باســـتمرار ويلقـــون بالأوساخ في مكانها الصحيح حيث يتم حرقها • كما أن طرقات القرى نظيفة ، أما الملابس التي يرتدونها فمغسولة دائماً وأما الأطفال فبريـــئون من الأدران ••• إنهم بحق قوم يعشقون النظافة وترتيب البيوت ، فكل أدوات المنزل تغسل وتجفف وتوضع في مكانها الملائم •

وحينما زار الأمير (صدر الدين أغا خان) قرية بوهين في عام ١٩٦٢م ، أبدى رغبته في أن يزور بيتاً من بيوت النوبيين . وبالصدفة كان بيت أحد بحارة القارب الذي عبرنا به، يقع في القرية التي تلي بوهين- وعندما أخبرته برغبة الضيف الكبير ، سر ورحب بزيارة منزله فدخلنا المنزل غرفة غرفة وجبنا كل أركانه بما في ذلك غرفة المطبخ . وعبر الزائر عن إعجابه بمستوي النظافة الممتاز. ثم دخلنا عشوائياً منزلين آخرين فحصلنا علي نفس النتيجة .

والنوبيون مشهورون كذلك بالأمانة والمسالمة، وهم يحترمون حرمات الآخرين فلا ينتهكونها ولا يعرفون السرقة أو النفاق ومن الأمور العادية أن تجدهم يغلقون بوابات المنازل بمزاليج خشبية من الخارج لا من الداخل ، ولعل السبب الرئيسي وراء استخزاء الخيانة في مجتمعهم هو انتساب بعضهم لبعض وعدم إقامة العنصر الأجنبي بينهم ، وهناك اعتبار لحقيقة أن أي شخص لايتعدى حدود ما هو حق له. وإلي جانب هذا ينبغي أن نذكر أنه وبالرغم من أن بعضهم سليطو اللسان سريعو الاستجابة للإثارة فإنهم لايلجأون إلي العنف للحصول علي ما يعتقدون أنه حق من حقوقهم . وخلال إقامتي في حلفا لم يتعد عدد المحبوسين في سجن المركز إثني عشر سجيناً كانوا جلهم من الصعايدة الذين عبروا الحدود من مصر دون الحصول علي وثائق الدخول الضرورية. والنوبيون لم يعرفوا أبداً كقبيلة مقاتلة ويذكر (هـ .س. جاكسون) مدير حلفا في أواخر ١٩٢٠م في أحد خطاباته للخرطوم أن النوبيين (قبل سنوات حين تم تجنيدهم في صفوف الجيش المصري قاموا بإحراق أخشاب مخزون البنادق للحصول علي النار التي يطهون عليها

طعامهم.) وللحقيقة فإن الخدمة العسكرية لا تستهوي النوبيين إلا قليلاً .

ولكونهم مسالمين ولاعدوانيين فإن النوبيين يعتمدون في كل شئ تقريباً علي الحكومة ولكنهم من ناحية أخرى يقاضون ويكتبون العرائض والشكاوي. ولربما كانوا أشهر قبائل السودان قاطبة من حيث المقاضاة والمشاكسة باستثناء أهل (بارا) و (بربر). فهم يتشككون في أي شئ ويستهويهم إرسال (العرائض) في أي موضوع. وعندما تكون هناك شكوي ذات طبيعة عامة فإنهم يستقطبون مساندة إخوانهم بالخارج الذين اعتادوا علي إرسال البرقيات المطولة التي لا حصر لها من مصر ومن أنحاء السودان الأخرى .

وفي أولي جولاتي في منطقة(السكوت) لاحظت وأنا أقترب من (عبري)تجمعاً كبيراً من الرجال علي جانب الطريق بالقرب من قرية(عمارة) فظننته تشييعاً لجنازة أحد الأهالي ولدهشتي -عندما اقتربت السيارة منهم- رأيت ذلك الجمع كله يشير إلينا بالوقوف فأمرت السائق بإيقاف السيارة ونزلت منها فابتدرني شخص يدعي خليل عثمان (والذي كان يبدو أنه المتحدث باسم التجمع) بخطبة مطولة انتقد فيها العمدة وازدراه ثم أوضح في عبارات قوية كيف أن العمدة أساء معاملتهم. وفي خاتمة خطبته طالب بفصل العمدة فحاولت أن أوضح لهم أنني جديد علي المنطقة وأحتاج إلي وقت للنظر في شكواهم ، ولكن قليلاً منهم كان يسمعني في غمرة الهرج. ثم سألت خليل (كم قضي العمدة من الزمن في منصبه؟) فأجاب: (إثنى عشر عاماً بطولها.) فسألت: (لماذا لذتم بالصمت طوال هذه المدة ؟) وللإجابة علي هذا السؤال جذب خليل حزمة أوراق من جيبه وقدمها لي. كانت حزمة الأوراق المربوطة جيداً بشريط أبيض تحوي ست وثائق تتكون كل منها من صفحتين

موقــع علــيها ومخــتومة من ما يزيد عن مائة من الأسماء ومطبقة بترتيب زمني. كانت الوثيقة الأولي شكوي موجهة لمفتش المركز البريطاني قبل سبع سنوات وتحوي نقداً لاذعاً للعمدة ولأبيه رئيس المحكمة وتطلب إقالتهما معاً. ولأنــه كان من الواضح أن مفتش المركز لم يستجب للشكوي، وفقد وجّهت (العريضــة) الثانــية لمدير المديرية الشمالية وأصبحت التهمة موجهة لثلاث جهــات مــن بيــنهما مفــتش المركز نفسه. أما الوثيقة الثالثة فقد رفعت إلي السكرتير الإداري وفيها شكوي ضد ظلم المدير الذي وقف إلي جانب المفتش وأرســلت الوثــيقة الــرابعة إلــي حاكم عام السودان وفيها انتقادات للخدمة الإداريــة. وعُنونــت الوثــيقة الخامسة إلى السفير البريطاني (المعتمد) في القاهره،تهيب به التدخل في الأمر. وأرسلت الوثيقة الأخيرة إلى الملك فاروق تشكو له فيها الإدارة البريطانية برمتها. وعندما فرغت من الإطلاع علي تلك الوثائق الشيقة ، سألت (خليل) إن كان هو وقومه قد لقوا شيئاً من الإنصاف ؟ فقــال بأســف:(لم نلق شيئاً .. فمازال العمدة يتمتع بسلطاته كأي مستعمر بريطاني.) حينها قلت له:(مالك لم تشكيهم لله رب العالمين ؟)

وعــندما عدت من جولتي وجدت ٢٢٣ برقية تنتظرني في وادي حلفا وكلها من أبناء (عمارة) العاملين في مصر .

ومــن الصــفات العامة الأخرى للنوبي : اعتداده العميق بذاته. فحين تعتريه محنة خاصة فإنه لا يكشفها للآخرين مهما كانت. وإذا كان من الفقراء فإنــه يبقي عفيفاً ويخفي بؤسه ويبدو سعيداً كغيره من الناس وهو لا يستجدي أحــداً ولا يســتهين بكرامته، ومهما عضه الجوع والعوز فإنه يتحمله بصبر وجلــد يثــير الإعجــاب. وتــبلغ هذه الصفات مداها حين يخفي الواحد منهم

مصـــائبه عـــن أقرب الناس إليه ، أولئك الذين يمكن أن يكون في مقدورهم مســـاعدته. ومـــن الأمـــور المعلومة عن النوبيين أنهم لا يحبون أن يواجهوا بالحقائق المرة • وهم حساسون تجاه النقد حتي لو كان بناءً وجاء بنيّة حسنة • وهم سفيانيون ويحبون الثناء •

وكشـــأن كـــل قـــبائل السودان ، فإن للنوبيين معايبهم. فمن النادر أن يخـــالف نوبي أخاه حتى ولو كان علي خطأ • ولا أستطيع أن أقول إن كان ذلـــك يـــرجع للاحترام المتبادل أم إلي الخشية البالغة أم إلي الاثنين معاً لأنه أحياناً يتجاوز حدود اللياقة. وهم كذلك متطرفون في علاقتهم ببعضهم بعضاً. فالنوبـــي بالنســـبة للنوبـــي الآخر إما صديق حميم أو عدو لدود • والصداقة عندهم عرضة لأن تكون ضحية لأتفه الإختلافات فإذا إنقطعت الروابط تستقر العـــداوة إلـــي ما لانهاية. ولهذا فيبدو أنهم يعرفون جيداً نقاط ضعف بعضهم بعضـــاً مما يتيح مرعى خصباً لعناصر التطرف والعناد. ويبدو هذا جلياً كلما بـــرزت قضية عامة حيث يكون تفاعلهم معها سلبياً أكثر منه إيجابياً. فحينما يكون القرار ضد رغباتهم مهما كان عادلاً ومنصفاً فإنه يواجه باحتجاج واسع وبشكاوي عاصفة ولكنهم تجاه القرارات الجيدة التي في صالحهم سلبيون ولا مبالين •

ومن السمات البارزة للمجتمع النوبي القديم، الأثر الذي خلفته الهجرة الجماعـــية والفـــردية للذين في منتصف العمر والقادرين علي العمل. وهناك رصـــد لعـــدد الزوجات اللاتي غاب عنهن أزواجهن والأسر التي غاب عنها عائلها ضمن العمل الإحصائي الذي جري مؤخراً والذي أوضح أن الرقم كان مخيفاً حقاً. وهذه الحالة لا تقتصر على مركز حلفا وحده ، فدنقلا تعاني منها

بما هو أسوأ ، ولكننا لا نستطيع أن نلوم النوبيين أو الدناقلة عليها، إذ أن قسوة الطبـيعة هي السبب الرئيسي . فقد فضل هؤلاء الرجال السفر مكرهين إلي بلد ما والبحث عن عمل يؤمن لهم عيشهم وعيش أسرهم العزيزة ، بدلاً عن ملازمتها في ظل الحرمان والفقر . ولسوء الحظ فقد جذبت النوبيين الآمال العريضــة لأنهم كانوا يثقون في استثمار مهاراتهم وفنونهم في البلاد النائية مــثل القاهــرة ، بل وأبعد من ذلك ...إنجلترا . فأصبح من الصعب عليهم معــادوة أسرهم سنوياً بانتظام مما أدي إلي اصطلاء الزوجات بنار الهجر الطويل وحرمان الأطفال من رعاية الأبوة المطلوبة في هذا الطور الحرج من فترة النمو . وحدثني الدكتور طه بعشر (اختصاصي الطب النفسي) الذي قام بسلســلة من الزيارات للمنازل قبيل التهجير ، عن تعاسة أولئك الزوجات . فكلما زار المنازل وسأل الأمهات عن أحوالهن كانت الإجابة : (حسناً .. كل شئ علي ما يرام ما عدا والد أطفالي الذي ظل غائباً... عاماً) .وهكذا فإن كـل شئ ليس علي ما يرام . وفي غالب الأحوال فإن هذه الأسر تترك في كنف خال الأولاد أو جدهم الذي يمنحها جزءً من منزله لتعيش فيه . ولهذا السبب كانت منازل النوبيين واسعة ومقسمة إلي أجزاء .

والأم النوبية تواجه الحياة مع أطفالها وحدها. فإن عليها أن تتحمل كل أعــباء الحياة المنزلية نيابة عن زوجها . وهكذا تقوم النساء بفلاحة حيازات الأرض التــي تركها لهن أزواجهن ويشرفن علي حصادها . ثم إن عليهن أن يؤمّــن مخــزون القمــح ويضمن مؤونة الغد ، ويقمن بتلقيح أشجار النخيل موســمياً ثــم يحصـــدن إنتاجها ويسوقنه . وبالإضافة إلي ذلك يتولين صيانة منازلهن ويرعين المواشي والدواب . ولقد أوضحت أرقام التعداد السكاني أن

الفلاّحـــات من النساء في المنطقة التي غمرتها المياه كن أكثر من الرجال . وعندما حصرنا أشجار النخيل لأغراض التعويض،وجدنا أن كل (الصمدنيين) من النساء. (الصمد هو رئيس المزارعين في الرقعة الزراعية).

ومـــن المؤكد أن أرض النوبة تحتضن أفضل النساء العاملات علي امتداد السودان . فالمرأة النوبية تقوم بدور مقّدر في بناء الإقتصاد الإجتماعي ، وتحتل مركزاً متميزاً في المجتمع . والطاعنات في السن من النساء يتمتعن بالعافـــية وقـــوة التحمل العضلي الذي يمتحهن المقدرة علي العمل الشاق . وبعـض النســاء أكثر شهرة وأعلي مقاماً من الرجال ومن الأمثلة المعروفة (ســت فاطمـــة ريّة) والدة السيد جمال محمد أحمد التي عرفت بالكرم وقوة الشخصية .

وزي النساء في بلاد النوبة له خاصية لافتة للنظر . فهن يرتدين فوق الفستان العادي ، عباءة متميزة مصنوعة من قماش أسود رقيق يطلق عليه (الجرجار) وهو زي طويل فضفاض له أكمام تتدلى إلي الكعبين وله ذيل من الخلف يلامس الأرض ليمحو آثار القدم عند المشي . ويضعن علي رؤوسهن طـرحة سـوداء من نفس القماش يطوّقن بها أعناقهن برفق ويتدلي طرفاها (المجدوعين) علي الكتفين ليبقي الوجه وحده سافراً . ولا يعرف أحد أصل هذا الزي الذي اشتهرت به المرأة النوبية . أنه حجاب ناجع يجعل النساء – من كل الأعمار – متماثلات وهن يسرن في مجموعات علي طول الطريق . لكـــن الأجيال الصاعدة من بنات النوبيين أصبحن يملن إلي ارتداء الثوب السوداني بدلاً عن (الجرجار) وهذا ما نجده في منطقة السكوت والمحس .

٢. طقوس الموت والزواج والميلاد:[١]

ليس هناك في طقوس الموت عند النوبيين ما هو غريب سوي أن (العنقريب) الذي توضع عليه جنازة المرأة يُعرش بجريد النخل ويغطي بالقرمصيص[١]. ويتم الدفن بالطريقة السُنية التي يكون فيها مكان الرأس جهة الجنوب مستقبلاً القبلة . وكما هو الحال في أغلب أنحاء السودان ، فإن المأتم يمتد إلي ثلاثة أيام ، حيث يجلس الرجال تحت سقيفة هيكلها من الحطب وسقفها من حصير القمـــح تُقــام خصيصاً لهذه المناسبة .أما النساء فيجلسن علي مسطبة الدار الأمامــية أو يبقيــن بداخل غرف المنزل . وفي اليوم الثالث تقام (الكرامة) وهـــي طعــام أو ملابس توزع علي الفقراء وبها ينتهي المأتم . ومثلما هو الحال في كل أنحاء السودان ، فإن أقارب وأصدقاء الميت يسهمون في تكلفة المـــأتم إمــا بدفــع قلـيل من ا لمال أو بإحضار شئ من السكر والبن .. وبالإضــافة إلـــي ذلــك فإن أرباب الأسر يشتركون في إطعام المعزّين بما يحضرونه من منازلهم عند كل وجبة .

وعــندما يـبلغ الولد الحادية عشرة من عمره ، يختار له أهله صبية مناسبة لتكون زوجة المستقبل . وهي عادة ما تكون بنت العم أو بنت الخال أو بنــت الخالــة أو بنت العمة أو إحدى بنات الأقربين . ويتم (حجزها) له بصـــورة مبدئـية ، وينشــأ الطرفان وهما علي علم بأنهما سيكونان زوجي المستقبل . وعندما يدركان سن الزواج (وهي في العادة : الحادية والعشرين بالنسبة للذكر والثامنة عشرة بالنسبة للأنثي) يقوم الأب أو الأم أو من هو في مقــام رب الأســرة بطلب يد الفتاة من ذويها (رسمياً) لولده . وتتم الخطبة

---

(١) جمعت هذه المعلومات من نساء طاعنات في السن وأضفت إليها- في بعض المواضع – ملاحظاتي الشخصية .

بهـــدوء وبغـــير احتفال أو دفع مال أو هدايا . وتقتصر مناسبتها علي تأكيد الارتباط وتحديد تاريخ الزفاف . وبعد الخطبة تلزم الفتاة بيتها ولا يسمح لها بالخروج إلي الشارع .

وفـــي أغلـــب الحالات يتم دفع المهر مقدماً ، إلا في حالة أن تكون العروس من أسرة موسرة ، ففي هذه الحالة يؤجل دفع المهر إلي يوم الزفاف . أما الأسر الفقيرة فتحتاج إلي دفعه مقدماً لتتمكن من مقابلة التزامات العرس مـــثل شـــراء الملابـــس والعطور السائلة واليابسة للعروس ، وتوفير القمح والـــذرة وأدوات المطـــبخ . ويـــتفاوت المهر من ٢٠ جنيهاً سودانياً في حده الأدنـــى إلي ٥٠ جنيهاً في حده الأقصى مع ١٠ جنيهات (مؤخر صداق) . كذلك فإن أهل العريس يقومون بتجهيزاتهم للمناسبة والتي تشمل أثاث المنزل وبعض ملابس العروس وإقامة وليمة ضخمة يذبح لها ثور لحيم.

وفـــي الأمسية السابقة للزفاف ، تكون (ليلة الحنة) التي يتم التحضير لهـــا بحفـــل غداء ضخم يذبح له عجل سمين ويدعي له كل أقرباء وأصدقاء العـــريس ، فيجلسون ليتناولوا الطعام علي سجاجيد أو حصائر مصفوفة فوق الأرض كعادة النوبيين . وبعد الفراغ من الوليمة يبسط " برش" (وهو حصير ناعم مصنوع من قصب القمح المصبوغ وأوراق جريد النخل) علي الأرض . وتوضـــع قوارير الزيت الهندي (المحلبية) قرب البرش . ثم تتقاطر علي المكـــان أفواج من الفتيات والنساء وهن يغنين أهازيج الفرح في مدح أسلاف العـــريس . وفـــوق البرش يستلقي العريس وعليه ملابس خفيفة لتبدأ مراسم الحنّاء (الحنة) علي يديْ سيدة متقدمة في السن من أقرب أقربائه . فتبدأ أولاً بمسح باطن قدمه وأصابعه بـ (المحلبية) ثم تضع (الحنة) عليها . وفي هذا

الوقــت يتـناول كل أصدقاء العريس العازبين قليلاً من (المحلبية) و(الحنة) ويضـــعونها علـــي أصـــابعهم تيمناً ، ثم يؤتي بصحن كبير مملوء إلي نصفه بالمـــاء ويوضــــع قرب العريس إيذاناً ببدء دفع المساهمات النقدية (النقطة) . وتستهل أم للعريس (النقطة) بإلقاء قطع ذهبية في الصحن . ثم يتبعها أقارب وأصدقاء العريس واحداً بعد الآخر يعدون مساهماتهم أمام الجمع ثم يضعونها بالقـــرب من الصحن وسط زغاريد النساء المحتشدات . ويكلف أحد أقرباء العريس بمراقبة سير هذه العملية من حيث معرفة أشخاص المساهمين وحجم المســاهمة ليــتم تســجليها لاحقاً وحفظها لدي العريس مرجعاً لتسديدها في أعراســـهم . وبعـــد انتهاء فقرة (النقطة) يعلن ووالد العريس وأمه ما وهباه لولدهمـــا مـــن الأرض والنخـــيل . بعدها تجمع (النقطة) وتسلم لأم العريس لتســـاعدها في تغطية نفقات العرس . وبعد اختتام طقوس (الحنة) تبدأ حفلة الرقص البهيجة التي يقودها لفيف من المغنين المحترفين والهواة بآلات العود والكمان (بالنسبة للمحدثين منهم) وبالدفوف التي يشبه إيقاعها الجاز الشعبي (بالنسبة للمغنين النوبيين التقليديين) . والدف آلة موسيقية خفيفة مصنوعة من إطـــار خشـــبي عليه غطاء من جلد الغنم مشدود عليه ، يسمونه (الطار) . ويقف كل الضيوف في دائرة واسعة خارج المنزل بينما تتجمع النساء جانباً . أمـــا المغنون فيقفون في منتصف الدائرة بعازفيهم بينما يقف صف من عشرة رجال في حدود الدائرة مقابلاً لعدد مماثل من الفتيات في الجانب الآخر . ثم تعزف المقطوعة الأولي ويغنّي المغنيّ :

يا جميل سلاتَقي

أو دّري سلاّنقي

وتعنـــي حرفياً : (أيتها الجميلة .. لم سلوتني وأنا العليل) .. وهي أغنـــية كانت شهيرة إبان إقامتي في وادي حلفا ، وقد يغني المغني أي أغنية أخـــري بالعربـــية أو النوبـــية . وعندما تبدأ الأغنية يتقارب الصفان بخطي موقعة وتدور الفتيات بأجسامهن يميناً ويساراً ، بينما يشرع كل الحاضرين في تصفيق منسجم وهم يرددون المقطع الأول . وتزغرد النساء بين آن وآخر ويشيد الرجال بالراقصين الحاذقين .. وهناك رقصة خاصة تؤديها فتاتان في منتصف الدائرة بمصاحبة المغني والفرقة الموسيقية .وهناك من بين المغنيين دائمـــاً من هو مخول له جمع المساهمات من أقارب وأصدقاء العريس أثناء الحفـــل . وفي كل مرة يتلقى فيها قدراً من المساهمة يصيح علناً .. (دائماً في الأفراح .. فلان : صديق العريس ، تسلمنا منه كذا من النقود) وهذه المســـاهمة تكون دائماً جزيلة ومن القطع الفضية وتوزع علي أعضاء الفرقة الموســـيقية بالإضافة إلي مبالغ أخري يدفعها العريس .. ويستمر الحفل حتى الفجـــر . وفي بيت العروس يقام حفل عشاء تدعي له كل النساء من أقاربها ويذبح له خروف ثم تبدأ مراسم (الحنة) بلا رقص .

وفـــي مساء يوم العرس تؤخذ الأثاثات الجديدة وملابس العروس من منزل آل العريس إلي منزل آل العروس . وعند وصولها إلي هناك ، تتلقاها زغاريد النساء اللائي يكن قد تجمعن لهذه المناسبة .

وبعـــد صـــلاة المغـــرب يتجمع كل أقرباء وأصدقاء العريس بمنزله ويخرجون – فيما عدا العريس – في زفة إلي منزل العروس لعقد القران .

ويتم العقد تحت يدي مأذون شرعي يقوم بتجهيز (القسيمة[1]) في وقت لاحق .
وعندما تتم إجراءات العقد يقوم أقرب أقرباء العريس بتقديم هدية منه للعروس ، وهي عادة ما تكون حلي ذهبية تتحلى بها جباه النساء من النوع الذي يطلق عليه (قُصة الرحمان) وزوج من الأسورة الفضية وقطعة قماش مزركشة تحوي قطعاً من الذهب . وأثناء ذلك يقدم التمر للضيوف .

وبينما تتواصل إجراءات عقد الزواج (وفقاً للتقاليد النوبية) ، تقوم سبع نساء بحمل قدح ملئ (بالفَتة) المكونة من الخبز والحساء والأرز واللحم ، ويتجهن به إلي ضفة النهر حيث يتناولن جزءً منه ويقذفن ما تبقي في الماء (لإطعام الملائكة) ثم يغسلن القدح ويملأنه بالماء وتقوم إحدى النساء بإلقاء خاتمهما فيه ، ثم يحملن القدح بعناية ويعدن إلي منزل العروس . وعند وصولهن يقمن بغسل وجه العروس ورأسها بالماء ويغطينها بثوب (القرمصيص) وتسمي النساء هذا الماء: (موية الشهادة) .

ثم يتناول الضيوف طعام العشاء في منزل آل العروس حيث يذبح عجل أمام باب غرفة العروس حين تكون جالسة علي مرتبة موضوعة علي الأرض وعليها (برش) أحمر في مواجهة العجل المذبوح لترى الدم المتدفق من عنقه ، وبعد ذلك تغطي العروس (بقرمصيص) عليه ثوب ممن الدمورية ومن العادة فإن النسوة يحتفين بهذه المناسبة بزغاريد عالية النبرة .
وبعد الفراغ من العشاء يتجه المدعون مباشرةً الي منزل آل العريس لحضور تزينه وعند وصولهم يقابلون بزغاريد النساء ، ثم يتجه الجمع إلي ساحة المنزل لحضور الزينة ويكون الاحتفال كما يلي: يجلس العريس علي برش

---

[1] القسيمة: وثيقة عقد الزواج .

أحمر وبجانبه عدد من الأواني الخشبية[١] التي تحوى دقيق الصندل والمحلب ، أمـــا الزيوت الهندية والعطور فتحويها سلطانيات صغيرة . وفي خضم غناء النسوة تقوم سيدة متقدمة في السن بتضمبخ رأس العريس بالزيوت المعطرة ثم تنثر فوقه مسحوق الصندل والمحلب المعطّر .. يسمي هذا العمل (الجرتق) .. ثـــم يقـــوم رفاق العريس العازبون بغمس أصابعهم في زيت الصندل ثم يستنشقونها تفاؤلاً بالمناسبة . ثم يلبس العريس ملابس جديدة من بينها عباءة يرتديها لأول مرة دليلا على إنه أصبح متزوجاً . ثم يسير الجميع في موكب حاشـــد (ســـيرة) إلى بيت العروس . وهذا الموكب يقوده عادة رجال الطرق الصـــوفية بأناشـــيدهم تبركاً أو فرقة غنائية تكون في مقدمة الموكب وتكون النساء في المؤخرة مع العريس . وحين يكون منزل العروس في نفس القرية أو فـــي قـــرية مجاورة ، فان الموكب يمشي سيراً على الأقدام ويتوقف على مـــراحل لإجـــلاس العريس ووزيريه – اللذين يكون إحدهما شقيقه الأصغر والآخر أحد أصدقائه المقربين غير المتزوجين –على كراسي خفيفة ليشاهدوا رقص الفتيات ، ثم يستأنف الموكب السير ويتوقف الفينة بعد الأخرى . و إذا كـــان منزل العروس في قرية بعيدة أو كان عبر النهر ، فان الموكب يستقل الحافلات أو المراكب.

وعـــند وصول الموكب مدخل دار العروس ، يُعطي العريس سلطانية مليئة باللبن المسكّر والزبد ، يطعم منها سبع جرعات ثم يهبه الباقي لوزيريه وأصـــدقائه جلباً للحظ السعيد . ثم يُعطي العريس (إناءً صغيراً) يحوى بخور الصـــندل ولـــباناً وشبّاً في مبخر يضعه فوق رأسه ثم يحطه سبعاً. ثم تقوده

(١) يسمى الواحد منها (حُق) – المترجم.

وحـــده ســـيدة يقال لها (الوزيرة) إلى غرفة العروس فيدخل ويضع يده على جبهـــتها وهذا يسمي: " لمس القُصّة " . وبعد ذلك يدعو الله أن يباركه ويعود إلى الجمع ليتلقي التهاني . وفي هذا الوقت تكون وليمة العشاء قد تم تجهيزها ، ثم يتواصل الرقص حتى الفجر على النسق الذي وصفناه آنفاً.

وعـــند الفجـــر يســـير العروســـان إلى شاطئ النهر في رفقة الأهل والأصـــدقاء حيـــث يغســـلان وجهيهما مباشرة من النيل وينثران الماء على بعضـــهما ، ثم تتجه المسيرة إلى أقرب بستان نخيل لقطع بعض الجريد وعند عودتها يقدم لها الشاي والإفطار.

وفـــي الظهيرة يدخل العريس إلى غرفته وهو يحمل صندوقاً صغيراً مملـــوءً بـــالقطع النقدية المعدنية والحلوى . وبعد برهة يؤتي بالعروس إلى الغـــرفة فـــي ثوب " قر مصيص " تزفها النسوة بالزغاريد وقد حزمت في طرف الثوب قليلا من الحَبّة " الدريش". وفي لحظة دخولها يقوم العريس بفتح صـــندوقه وينثر محتوياته على رأسها وتقوم هي – بالمقابل- بنثره بحبوب القمح المهروسه . وهنا تتسابق الفتيات والأطفال –في فوضى- لجمع القطع المعدنية و الحلوى باعتبارها نهباً مشروعاً.

وبعـــد انتهاء كل هذه "الطقوس" يخرج الحاضرون من الغرفة ويبقي العريسان منفردين . ويشرع العريس في مساومة العروس لتتكلم . وكلما طال ســكوتها ، زاد الثمـــن إلى أن يبلغ القيمة التي اتفقت العروس مع أمها عليها فتنطق. وتسمي هذه العادة (فتح الخشم) أي فتح الفم أو الاستنطاق. وفي بعض الأحـــيان يكون ما يدفع هدية ساعة أو أسوره ذهبية ولكن المال الذي يدفع لا يتعدى في الغالب خمس جنيهات. وفي المساء تخرج العروس على الضيوف

وتشـــاهد الــرقص الذي يتواصل إلي منتصف الليل ثم يدخل العريس غرفته ويبقي مع عروسه حتي الصباح ·

وفـــي فجـــر اليوم الثاني للعرس تذبح أم العريس خرافاً بمنزلها وتعد كمـــيات هائلـــة من الطعام وتحملها في صواني ومعها سلال مليئة بالرغيف والكابـــيدة وسلطانية مليئة باللبن الي منزل العروس · وعند وصولها يتناول العريس سبع جرعات من ذلك اللبن ويغمس يده اليمني في السلطانية ثم يقدمها للعـــروس التـــي تتناول منها سبع جرعات. بعد ذلك تقوم أم العريس بإهداء العروس سبيكة من الذهب ·

وفـــي الـــيوم الثالـــث تقيم أم العروس وليمة غداء لأقارب وأصدقاء العريس يشترط أن تحوي أفراخ الحمام المشوي ·

ويســـتمر العـــرس لمدة سبعة أيام يوقد البخور في كل يوم منها علي عتبة باب العروس حيث يقوم العريس بالقفز فوقه سبع مرات صباحاً ومساءً. وفـــي الـــيوم الأخير تقيم أم العريس مأدبة عشاء ضخمة بمنزل العروس لكل قريباتها وصديقاتها فيجتمعن عادةً في منزلها ثم يسرن حيث الوليمة ·

وتـــبعاً للعـــادات النوبية فإن كل إمراة من المدعوات أن تحضر معها هديـــة من حب القمح أو الدقيق محمولاً في طبق من البوص غير أن بعضهن يأتيـــن بهديـــة نقدية. وتحمل أم العريس عند خروجها من منزلها سلة كبيرة مملوءة بالفول السوداني والحلويات وزجاجات العصير والسكر والشاي. وعند وصـــولهن لمـــنزل العروس تقدم لهن الشربات والشاي والفول السوداني ثم يتناولـــن طعـــام العشاء وبعد الفراغ منه تقوم كل واحدة من المدعوات بتقديم هديـــتها لأم العريس ويتم جمع الهدايا كلها في حاوية مخصوصة. وفي وفي

المقابل يقدم لكل واحدة من المدعوات قليل من الفول السوداني أو (الآبريه [١])

وخـــلال هـــذا الوقـــت يكون العريس جالساً بالغرفة وبيده كراسة يسجل فيها الهدايـــا وتفـــتح أم العريس قائمة الهدايا النقدية باسم ابنها العازب الأصغر ثم تتـــبعها الأخـــريات بالهدايا نيابةً عن أبنائهن العازبين أو بناتهن العازبات أما النساء اللاتى لا أولاد لهن فيسجلن هدايهن بأسماء أزواجهن. وبعد الفراغ من تقديم الهدايا النقدية تقوم أم العريس بجمعها لتصبح ملكاً لها وتحتفظ بالكراسة لتقوم برد الهدية حين يحين وقتها .

وفـــي المســـاء يقوم العريس بزيارة أمه في منزلها حاملاً معه هدايا فاخرة من الطعام وعند وصوله تنثر أمه عليه حبيبات القمح داعية الله أن يديم حياته وأن يرزقه الذرية الصالحة ثم تهديه قطعة من الذهب .

وفـــي ظهـــيرة نفس اليوم تتوالي مجموعات من الفتيات مهمة مرافقة العروس الي المطبخ حيث يشرفن علي قيامها بإعداد سبعة أقراص[١] مخبوزة مـــن دقيق القمح علي أتون صاج مسطّح وبعد أن ينثر السكر علي الأقراص يقـــدم إلي سبع بنات (يشترط أن يكن حديثات الزواج) ليأكلنها مع العروس. ولا بد من أن تتناول كل واحدة منهن سبع لقيمات قبل أن يتسلمن هدايهن من العطور .

وبحلـــول الـــيوم السابع تنتهي الاحتفالات ويباشر العروسان حياتهما الجديدة زوجاً وزوجة .

ولا يســـتطيع أحـــد –عـــن يقين– أن يحدد متي بدأت ممارسة هذه

---

[١] رقائق من خبز الذرة المختمر والمخلوط بالبهارات – المترجم .

(١) يسمى القرص باللهجة المحلية (كليدة) .

الطقوس وأنا بدوري لا يمكنني أن أردها إلي المصريين القدماء أو إلي الحقبة المسـيحية أو إلي الإسلام غير أن تفسير بعض ملامحها سهل للغاية بالنسبة لـي. فاللبـن مثلاً يرمز إلي السلام والفأل عند معظم القبائل في السودان أما القمح فهو علامة الرخاء وأما (اللُبان المرْ) و (الشَب) اللذان يحرقان بخوراً مع الصندل فإنهما يبطلان السحر ويطردان (العين) •

أن الكمـية الهائلـة من الهدايا والإسهامات التي تعبّر عن تقاليد نوبية راسـخة هي ظاهرة لافتة تؤكد الأهمية الاجتماعية للزواج في حياة النوبيين وتلـزم كـل عضـو فـي ذلك المجتمع بدفع نصيبه المفروض. وأن الحقيقة المجردة التي تتضح من خلال احتفاظ المرأة النوبية بقائمة تحوي أسماء الذين سـاهموا في زواج ابنها تعني أنها تهتم برد قيمة المساهمة ربما بمقدار أجزل في المناسبات المستقبلية الشبيهة. فبدلاً عن إلقاء تبعة تكاليف الزواج كلها علي العريس فإن المجتمع كله يساهم في تخفيفها وهذه الإسهامات تعتبر –عرفياً– دَيْناً اجتماعـياً. وبهذا تهون المصاعب المالية للزواج ويتمهد الطريق أمام الرجال لإكمال نصف دينهم ولهذا السبب يتزوج النوبيون في سن مبكرة •

وعـند ولادة طفل تتلقى القابلة هدايا من الحلوى والشربات وكمية من القمح أو الذرة بالإضافة إلي هدية نقدية لا تتجاوزفي غالب الأحيان جنيهين •

ويسمى المولود في اليوم السابع وتقام وليمة عشاء كبيرة بهذه المناسبة إذا كـان المولود ذكراً أو وليمة غداء إذا كان أنثي وعلي الدوام فإن الوليمة تكون كبيرة احتفاء بالمولود البكر الذكر يصاحبها حفل راقص ليلاً وفي بعض الأحـيان يقوم والد المولود في يوم الجمعة الأولى لميلاد الطفل بإعداد وليمة

غـــداء حافلـــة من (الفتة [1]) يحملها إلي المسجد عقب صلاة الجمعة لتتناولها جمهرة المصلّين. ويسمي الطفل البكر الذكر باسم جده لأبيه كما تسمي الطفلة البكر باسم جدتها لأبيها .

والأسـماء الشـائعة للذكـور عـند النوبيين هـي (داؤود وخليل وعبدالرحمـن ودهب.)وهذا الاسم الأخير حكر خاص للنوبيين مثله مثل اسم (ماتي) عند الدناقلة .

وفـي اليوم السابع تحمل مجموعة من النساء المولود إلي النيل وهن يحمـل صحناً كبيراً مليئاً بالفتة يأكلن منها ويقذفن ما تبقي في النهر (لإطعام الملائكـة.) ثـم يطلق البخور في مبخر تتعداه امرأة معينة سبع مرات وهي تحمـل المولـود. وبعـد الفراغ من هذه الطقوس تقذف النساء بكل ملابس المولـود التـي ألبسـها خلال الأسبوع الأول إلى النهر ثم يملأن دلواً بالماء يحملـنه إلـي أم المولود في بيتها. وتستقبل الأم مجموعة النساء عند مدخل البيت وتغسل وجهها بماء النيل ثم تجهز طبقاً منسوجاً من السعف يحوي ربعاً من القمح والتمر ليوضع عليه المولود. فتمسك الأم بيدي المولود بينما تمسك إمرأة أخري برجليه ثم يرفعانه برفق فوق الطبق ويضعانه فوق القمح والتمر وهـن يصـحن (ماشنقيت ... ماشانقتا) وهذا تعبير نوبي لا يعرف له الآن معنـي. ثـم يؤرجحـنه سبع مرات قبل أن ينزلنه علي الطبق. وترشف الأم جرعة من ماء النهر ثم تنثرها فوق المولود قائلة : (سلامة جناي) .

وفـي الـيوم الرابع عشر توزع البليلة[1] علي الجيران والمدعوّين ثم تلـبس الأم ومولودهـا ملابس جديدة ويطلق البخور في الغرفة وتأتي بعض

---

[1] الفتة : طعام من فتات الخبز والأرز واللحم – المترجم .

[1] أي صنف من الحبوب يغلي بالماء حتي ينضج ثم يملح وتضاف إليه البهارات – المترجم .

النسـاء بجـريد النخل ويكنسن به أركان الغرفة الأربعة وهن ينادين ملائكة الرحمـن لمرافقتـن إلـي النهر: (ياملائكة الرحمن قوموا ننزل البحر.) ثم يجمعـن مـا كنسـن مـن الأركان ويحملن معهن كمية من البليلة المخلوطة والمـبخر ويصـلة يبللن بها الصندل ويذهبن في موكب إلي النهر في صحبة الأم ومولودها • وعند الوصول إلي شاطئ النهر يضعن المبخر علي الأرض حيـث تقـوم الأم وهي تحمل المولود –هذه المرة– بالقفز فوق المبخر سبع مرات • ثم يقذفن بكل ما أتين به من المنزل في الماء ويعدن إلي أهلهن •

وقـد يلاحظ القارئ الوظيفة التي تؤديها الملائكة في مناسبات الزواج والمـيلاد عند النوبيين فهي ترمز إلي لجوئهم للدين طلباً للحماية من الشرور ولكـن مـن الخطأ علي كل حال الإعتقاد بأن لا عمل للملائكة سوى حضور مناسبات النوبيين •

(٣) جوانب أخرى من حياة النوبيين :–

يلاحـظ عمومـاً أن النوبييـن عندما يكونون في مناطق أخري من السودان لا يخـتلطون طواعـية بغيرهم من السودانيين وأينما ذهبوا فإنهم يعيشون متماسكين في مجموعات منعزلة. وعلي الرغم من وجود حالات شاذة تتمثل في أشخاص كالمرحوم د• محمد أحمد علي ومحمد خليل بتيك وآخرين لهـم صداقات عديدة من غير النوبيين، فإن البقية منهم تحصر ذاتها غالباً في محـيط مجـتمعها النوبي. وقد أثارت هذه العزلة الاجتماعية تساؤلات عديدة ولكننـي أظن أنها ترجع إلي نشأتهم في منطقة بعيدة عن التداخل الاجتماعي مـع الأخريـن مـن الناحية الجغرافية مما حصر معرفتهم علي أهليم الذين عايشوهم. بالإضافة إلى ذلك فإنهم لا يزوجون بناتهم مطلقاً لغير النوبيين غير

انهم لا يمانعون أن يتزوج أبناؤهم من غير النوبيات. ولا أستطيع أن أجزم إن كان هذا السلوك الاجتماعي يعود إلي حرصهم علي نقاء دم الأم النوبية أم أنه مجـــرد تعصب قبلي. فإذا كان في الأمر تعصب فإن من المؤكد أن النوبيين ليســوا بدعـــاً في هذا المقام فحتي وقت قريب كانت كل قبائل السودان تقريباً تتقاسم هذه النزعة واعتادت أن تستنكر زواج بناتها من غرباء باعتبار أن كل القبائل الأخرى لا ترقي إلي مستواها. وبالرغم من أن هذه النزعة الذميمة قد اندثرت عند أغلب القبائل إلا أن بعضها(مثل النوبيين) مازال يستمسك بها .

يطلق علي النوبيين في مصر والسودان (البرابرة) أو (البربريين) وفي الحقــيقة فإنه لا علاقة لهذين اللفظين بالبربر أو المغاربة الذين يقطنون شمال إفريقــيا كما أنه لا علاقة لهما بالبربرية ولا يستطيع أحد أن يحدد متي وكيف نشأ أصلها. وينكر النوبيون أنهم قد أطلقوا كلمة (برابرة) علي أنفسهم كما أن الرحالة القدماء لم يستخدموا هذا اللفظ عند الإشارة علي النوبيين. إلا أن لفظي (بربــري (وبرابرة) ظهرا لأول مرة في التاريخ أبان العهد التركي إذ إنهما وردتـــا فـــي كتابـــي (ســـلاطين) و(أورلولدر) بمعني فضفاض يشمل قبيلة الـــرباطاب. ويحتمل أن يكون اللفظ مشتقاً من مدينة بربر والتي كانت أشهر المراكز التجارية في السودان خلال الحكم التركي وكانت معروفة للمصريين أكثر من معرفتهم للخرطوم . وبالنسبة لسوداني تلك الأيام فإن كل من يجئ من الشمال فهو منسوب إلي بربر وبالتالي فهو (بربري) . وحتي وقت قريب جداً فإن سكان بربر كان يطلق عليهم البرابرة في أنحاء عديدة من السودان . أما في مصر فإن السودانيين عموماً هم (البرابرة) حتى إشعار آخر .

(٤) الخدمة المنزلية :-

احـــترف النوبيون منذ أجيال خدمة المنازل باعتبارها خدمتهم التقليدية التي لا ينافسهم عليها أحد وباعتبار أنهم القبيلة السودانية الوحيدة التي تجيدها. وبالرغم من أن خدمة المنازل ليست حرفة ذائعة في أنحاء القطر الأخرى إلا أن النوبـــيون يفخـــرون بهـــا.وقد تساءل (ليزلي قرينر[1]) عمّا إذا كانت هذه الحرفة هي التي جعلتهم علي نظافة أم أن نظافتهم هي التي مهدت لهم السبيل إلـــيها ، وأنا أظن شخصياً أنه ليس من السهل أن يصير المرء خادماً جيداً. فالخـــادم يحتاج إلي مزايا أخري تؤهله للخدمة المنزلية فبالإضافة إلى حاسة الـــنظافة فـــلا بد أن يكون أميناً ومؤتمناً وحاذقاً وحسن التصرف حتي يحقق الانســـجام مـــع رب المـــنزل. والنوبيون حائزون علي كل هذه المزايا ولكن الـــتاريخ لا يحدثنا عن متي امتهنوا هذه الحرفة ،ويبدو أن أسرة محمد علي هي التي اكتشفت (الخادم النوبي). فالخديويّون الأتراك الذين لم يكونوا يثقون فـــي المصـــريين وكـــانوا عرضـــة للمؤامرات والخيانات،وجدوا في النوبي المخلـــص الموالي الخادم المثالي الذي يؤتمن علي دخول الغرف الخاصة في قصورهم ويكتم أسرار أسرهم ويقوم بتجهيز الطعام الصحي الشهي لموائدهم الـــباذخة. وقـــد كان رجال (السكّوت) من طلائع من عملوا في قصر عابدين واثبـــتوا جدارتهـــم مما شجع مزيداً من أبناء جلدتهم ليجدوا عملاً في قصور الأمراء والباشوات القاهريين ، وحذا الموظفون البريطانيون حذو الباشوات. ولم يمض غير وقت قليل حتى غزا النوبيون المطابخ في أهم بيوت القاهرة ، فاستثمروا صلاتهم بكبار رجال الحكومة للحصول علي الامتيازات. وشهدت

Leslie Greener(1)

هـذه الفـترة العهد الزاهر لاتجاه طموح الرجال النوبيين نحو عاصمة مصر وجذبـتهم الحـياة الراقية وأضواء المآدب المترفة في منازل مصر الفخمة. وعـندما اعتلي الملك فؤاد العرش لم ينس أن يستصحب معه خادمه الخاص المخلـص (إدريـس عثمان علي) ابن السكوت إلي قصر عابدين. ويبدو أن إدريـس كـان رفيقاً نادراً حاز علي احترام واعجاب سيده فارتقى مكاناً علياً وكان يعتبر رئيس الخدم في القصر. ولزيادة مكانته امتيازاً تم منحه لقب (بيه) ، وكـان هو الخادم الوحيد الحائز علي هذا اللقب طوال تأريخ مصر. وكان إدريس حريصاً علي تمكين أهله في القصر فعين سليمان أبو القاسم مساعداً له وعـندما توفـي إدريس خلفه سليمان الذي ظل في الخدمة الملكية حتى عهد فـاروق. وعندما توفي سليمان حلّ محله (محمد الحسن سليماني) الذي خدم سيده بإخلاص حتى قيام الانقلاب العسكري في عام ١٩٥٢م .

لقـد قدّم هؤلاء الخدم العظماء خدمات جليلة لسادتهم الملكيين فحازوا علـي مراتـب عالـية وأدوا واجبهم بمستوي يثير الإعجاب. وعندما زرت الإسكندرية في عام ١٩٥٥م ذهبت إلي قصر المنتزه متفرجاً فرأيت (السكّوت) لا يزالون في الخدمة وطاف بي أحدهم-بأدب جم – علي الغرف الباذخة ولم ينس أن يريني المكتب الذي كان يجلس عليه (سليماني.) كان مكتباً مجاوراً لمكتـب الملـك مجيد التأثيث وله منضدة من خشب (الأور) تجاورها خمسة تلفونـات موضـوعة علـي أحد الرفوف. وتحتوي غرفة المكتب علي ستة كراسـي جلـوس من الجلد اللامع,وعلي الأرضية سجادة عجمية نفيسة بينما زينت الجدران بلوحات جميلة رائعة (لا يستطيع أحد أن يدخل علي الملك ما لـم يـأذن له سليماني) هكذا قال رفيقي النوبي ثم أضاف: (وحتى الوزراء

أحـياناً يعتمدون علي نفوذه الشخصي لدي الملك لحل مشاكلهم). وفي النزل الملكي بالحرم المكي أدهشني أن أقف علي جناح خاص لسليماني موقوفاً علي استخدامه الشخصي. لقد عرف فؤاد وفاروق أين يضعا ثقتهما وبالحق فإن من خدمهما لم يفجعهما بخذلان.

أن محمد حسن سليماني هو الوحيد الذي بقي حياً من بين أولئك الخدم الثلاثة المشهورين وشهد تجربة الاستيلاء علي السلطة • وبالرغم من أنه كان علـي معـرفة دقيقة بكل تفاصيل حياة الملك المخلوع بحيث إنه لو أراد أن يبيعها للصحافة العالمية لحصل علي ثمن غال. لكنه آثر الصمت كشأن الخادم الأمين •

إن مصر لم تهش للنوبيين مثل ما هشت إبان عهدىّ فؤاد وفاروق، فقد كـانوا يحصـلون بسـهولة علي الأعمال المجزية من خلال تشجيع ومساندة ذويهـم العامليـن فـي الخدمة الملكية الخاصة وخدمة كبار الموظفين. وكان طبيعـياً أن يكون هنالك تدفق مستمر لشباب النوبة علي ميدان عابدين. وكان أكثر ما يحصلون عليه من حظوظ ينعكس علي أنحاء بلاد النوبة وعلي منطقة السـكوت بوجـه الخصوص. فهناك قامت المنازل الفخمة ووجدت الأثاثات الحديثة طريقها- في اتجاه أعالي النيل- إلي الغرف وأصبحت علامات الثراء تظهـر بطـريقة أو بأخرى. واستخدم سليمان أبو القاسم نفوذه لدي الحكومة المصـرية فأقامـت مسجداً في قرية أهله وصار والد أحد الخدم شهيراً وغنياً لدرجة أنه كان يعطّر حماره بماء الكلونيا حين يذهب به في جولة عبر القرية. وحدثنـي أحد أصدقائي النوبيين كيف أنهم كانوا يتطلعون إلى إجازات أولئك الخـدم باعتبارها مناسبة عظيمة لأنهم يعودون إلى بلاد النوبة بحقائب مليئة

بالهدايــا من شارع فؤاد ويوزعون العطايا علي كل أهلهم، وحدثني آخر من أســـرة غنية أنه عندما كان تلميذاً في مدرسة حلفا سأله المعلم عما يطمح إليه فـــي حـياته فجاءت إجابته المباشرة بقوله: (أن أصير خادماً). ولم يكن في ذلك عجب إذا علمنا أن الأمهات في تلك الأيام كنّ يهدهدن أطفالهن بأهزوجة تقول :

تبقي كبيره .

هدّام باشا .

هدامة المديره .

كرسي في صلبه .

كمشه في إيده .

عـندما اكتملت حملة استرجاع السودان واستقرت الإدارة البريطانية، اعـــتمد الموظفـــون البريطانيون كلهم علي النوبيين في الخدمة المنزلية .وقد اثبـــت النوبيون جدارتهم واستمرارهم في هذا الشأن . وكان بعضهم ـــ ممن تقدمـــت بـــه الســـن - عزيزاً علي مخدّميهم إلي حد أنهم أمّنوا لهم معاشاً شـــهرياً. وكـــان من ضمن الملفات الروتينية التي تدخل مكتبي في الأسبوع الأول من كل شهر ، ملف المعاشات الذي يحوى (شيكات) عديدة من قدماء البريطانيين إلي خدمهم السابقين . وعندما غادر الموظفون البريطانيون البلاد دفعـــوا لخدمهم مكافآت سخية استثمروها بطريقتهم . وقد أستوعب التوسع الـــذي حـــدث في مصلحة الفنادق والمرطبات أغلب أولئك الخدم بينما أتجه البعض إلي العمل المستقل فأنشأوا مطاعمهم الخاصة في عديد مدن السودان .

ويـــبدو أن رجـــال السكوت لم يكونوا يرضون بغير العمل في قصر

عابدين ، فتركوا العمل في قصر الحاكم العام للحلفاويين . فإلي جانب أحمد حـــاج – المنتســـب إلي منطقة السكوت –والذي شغل منصب كبير طباخي كتشـــنر وعاش إلي وقت قريب في (جنس) ، فإن بقية العاملين في (القصر) كانوا من منطقة وادي حلفا[1]

مـــع كل ذلك ينبغي ألا يظن القارئ أن النوبيين هم قبيلة من الخدم . ورغـــم أن هذه المهنة تغلب عليهم ، فإنهم التمسوا كذلك سبلاً أخري للمعاش . ذلك أنهم يمتازون بمستوى أفضل من التعليم بالمقارنة مع أجزاء أخرى من الســـودان . وهـــناك مجموعة كبيرة من النوبيين العاملين في الخدمة المدينة بمختلف المصالح الحكومية منهم – علي سبيل المثال :– السادة : إبراهيم أحمد ، داؤود عبد اللطيف ، محمد خليل بتيك الذين تقلّدوا أعلي المراتب . وهـــناك طبيب نوبي شهير هو الدكتور محمد أحمد علي الذي احترمه وأحبه كل السودانيين لمشاعره الإنسانية تجاه المرضي والفقراء . وفي السياسة فإن للنوبييـــن قـــادتهم الخصوصـــيين الذين خلقّوا سمعة طيبة وأظهروا شجاعة وحماساً لتقرير مصير السودان إبان حملة النضال من أجل الاستقلال .فالسيد إبراهـــيم أحمـــد –أحـــد أشهر الشخصيات في كل القطر ، والذي لعب دوراً مقـــدراً فـــي مسيرة التعليم العالي في البلاد – كان أحد القادة الذين تزعموا الحركة الاستقلالية في السودان . والسيد محمد نور الدين – علي النقيض من إبراهيم أحمد – كان زعيماً للحزب السياسي الذي كافح من أجل الوحدة

---

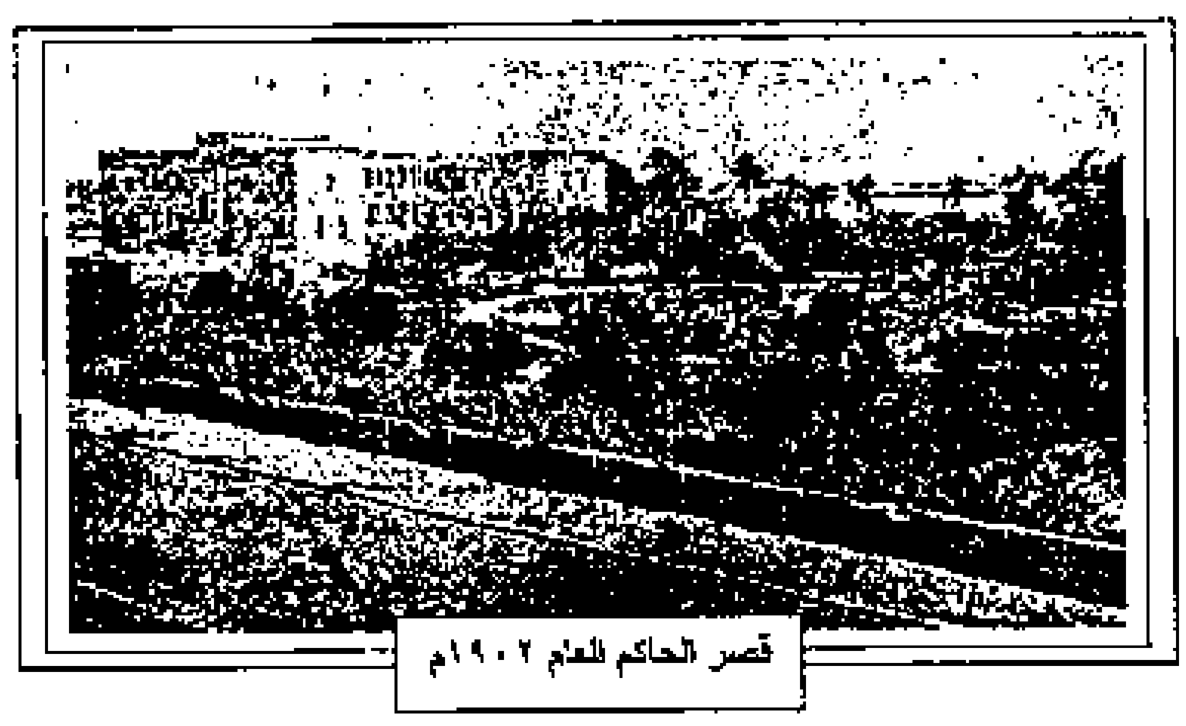
(١) كان عيسى محمد نور النادل الأول في قصر الحاكم العام وعندما صار (ونجت) حاكماً عاما تقلد هذه الوظيفة محمد خليل شوربجي خلفاً لمحمد نور يعاونه الصادق رمضان. وتقلد حسين شريف وظيفة خادم خصوصي بينما كان أحمد كبارة مسئولاً عن الفسيل. أما داؤد خليل (الخادم الخصوصي للرئيس عبود) فقد دخل القصر صبيا في عام ١٩١٦م ليكون رهن إشارة السيدة (ونجت) ويحمل شمسيتها وحقيبتها وعندما شب عن الطوق تم تعيينه (سفرجيا) وفي عام ١٩٢٧م تمت ترقيته إلي كبير سفرجية وبعد الاستقلال عين خادما خصوصيا للرئيس وبقي في خدمة القصر حتي وفاته عام ١٩٧٦م.

مــع مصر . وفي حقل العمل الخاص يبرز محجوب محمد أحمد وأبناء عبد الغني من بين أشهر التجار السودانيين في الخرطوم .

وحتى وقت قريب ، كانت معرفة النوبيين – عموماً –عن السودان ، ضعيفة جداً . فعندما جئت لأول مرة إلي وادي حلفا ، أدهشني أن النوبيين يطلقــون علينا كلمة (السودانيين) ويتحدثون عن القطار السريع القادم من الخــرطوم باعتباره : (قطار السودان) . وأغلبية النوبيين لم يزورا السودان مطلقاً ويظنون أن باقي القطر يضم أناس من الزنوج المتوحشين المتخلفين . وينبغي ألا يفهم من هذا أنهم يعتبرون أنفسهم مصريين بالرغم من أن قطاعاً كبــيراً جداً منهم قد زار القاهرة عدة مرات ، ويعرف عن مصر أكثر مما يعــرف عــن وطــنه الأم لكن السبب –أولاً – يرجع إلي أن أضواء مدينة القاهرة كانت أكثر جاذبية واستهواء لقضاء الإجازة من الخرطوم . ثانياً – وهذا سبب أكثر أهمية –كان وجود أقربائهم العاملين بالقاهرة يشكل فرصة لتســهيل إقامــتهم هناك . ثالثاً : رخاء العيش في مصر عنه في السودان . وفــي هــذه الأثــناء فإن اتصالهم بالمصريين قد أثر علي أخلاقهم . فتراهم يتحدثون العربية بلهجة مصرية خفيفة ويستخدمون عبارات الترحيب المسهبة التــي أشــتهر بها المصريون . ويلبس أغنياؤهم وكبارهم الجبة الصعيدية ، ويقدمــون القهوة في منازلهم بطريقة (الكنكة التركية) لأن إبريق (الجبنة) التقليدي غير معروف لديهم. وأسماء الجهات عندهم مصرية خالصة فيطلقون علــي الشمال : (بحري) ، وعلي الجنوب (قبلي) . وهم المجموعة الوحيدة في السودان التي تدخن (الشيشة) . ولم يبدأ النوبيون في التحقق من أن وطنهم الأم يضــم قبائل محترمة – تفتخر بأصلها مثلهم – وأن أرضه البكر تتبع

للنوبيين لهجتهم الخاصة التي تتكون من عدة مئات من الكلمات النوبية القديمـــة تـــتخللها كثـــيرٌ من الألفاظ العربية المحرّفة . وهي وسيلة التفاهم الوحـــيدة بين النساء العجائز لأن الرجال والجيل الجديد من الشباب يتحدثون العربية إلي جانب هذه اللهجة، وهي –عموماً –تتجه إلي الاندثار أمام زحف العربية لان بعض تعابيرها وألفاظها الأصيلة لم تعد في نطاق التداول . ومن الملامـــح المشوقة –في هذه اللهجة – طريقة نطق النوبيين لحرف الدال . فـــبدلاً عـــن إخراجه بالصوت المعتاد ، نراهم ينطقونه بضغط خفيف لمقدمة اللســـان علي اللثة الداخلية للأسنان الأمامية العليا بحيث يأتي صوت الحرف ضـــعيفاً . والنوبـــيون –كشـــأن أغلب القبائل ذات اللهجة الخاصة –يقلبون المذكر مؤنثاً والمؤنث مذكراً وبالتالي يخطئون في تحديد نوع الجنس .





قصر الحاكم للعام ١٩٠٢م





زفة نوبية



الجرجار



د٠طه بعشر

الفصل السابع



سأحصـــر ملاحظاتي وانطباعاتي- من خلال هذه النظرة المجملة – علي الحياة الاقتصادية للنوبيين الذين يقطنون الجزء الشمالي من مركز وادي حلفـا .. أي المـــنطقة التـــي ستغمرها مياه السد العالي وتشمل أيضا بلاد السكوت والمحس التي تقع علي النيل ما بين شلال دال ومركز دنقلا .

وعلي خلاف ما سجله تاريخهم القديم –الذي قتل بحثاً –فان قليلاً من المعلومـــات قـــد تـــم تسـجيله بالإنجلـيزية حول مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصـــادية لقبائل النوبيين المعاصرة . ولعل هذا يعود –جزئياً –إلى أن الآثار المصرية القديمة المنتشرة في هذه المنطقة ، كانت أكثر إغراء للزائرين من المظاهر الثقافية للسكان. ويسجل رحالة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تفاصـــيل عشـــوائية عـــند مـــرورهم بـــأرض النوبة . ورغم أن الإداريين البريطانيين قد اهتموا كثيراً بالحياة القبلية في السودان إلا أنهم أولوا قليلاً من الإهتمام لحياة النوبيين المعاصرين . وقد انغمسوا بعمق في تتبع الماضي إلى درجـــة أنهـــم لـــم يكونـــوا يرون في الحاضر شيئاً ذا بال . ولم تحو دورية (الســـودان في رسائل ومذونات) سوي مقال واحد بقلم السيد إبراهيم أ حمد عـــن للزخرفة الفريدة لمداخل البيوت النوبية بصحاف الصيني ، رغم أن هذه الدوريـــة قد إ كتظت صفحاتها بمقالات الحياة القبلية . وسيكون ما أعرضه معـــتمداً علـــي المعلومـــات الأولية التي جمعتها من السكان المحليين وعلي ملاحظاتـــي الشخصـــية التي كونتها خلال السنوات الست التي أمضيتها في مركز وادي حلفا .

يغطي المركز مساحة ١٨٠٦٩٠ كيلو متراً مربعاً تمتد من خط عرض ٢٢ْ إلي خط عرض ٢٤ْ . غير أن الجزء المأهول منها ينحصر في شريطين

ضـــيقين علـــي إمتداد النهر ، وما تبقي من المساحة صحراء جرداء قاحلة .
وفـــي منتصـــف المركز ينحدر السهل الصحراوي من الشرق والغرب ليخلق وادياً ضيقاً تنساب فيه مياه النيل من أقاصي بحيرات وسط أفريقيا وبحيرة تانا في أثيوبيا ، نزولاً إلي مصر .ويدرك من يعيش في الصحراء النوبية القاحلة ، كـيف أن النيل هو حياة الناس هاهنا . فهو مصدر الري الأوحد للمحاصيل الزراعية والعلف وهو وسيلة الاتصال الوحيدة.

إن ندرة الأراضي الزراعية معلم بارز لمنطقة النوبة . وينحصر حزام خصوبة الأرض علي ضفاف النهر ،وفي بعض الأماكن– مثل (بطن الحجر) –تكاد التربة تنعدم تماماً . فالمنطقة كلها مغطاة بجبال صخرية وأودية رملية جافة . أما ضفتا النهر –هنا–فشبيهتان بطبيعة الأرض التي لا تعدو أن تكون منحدرات صلبة أو شواطئ رملية . وتبدو جزر شلال سمنة الصخرية عارية وملســـاء فيما عدا ما يكسو قمم الصخور من شجيرات السنط . فندرة التربة هـــي المعلم البارز لمنطقة (بطن الحجر) . ولذلك فإن المنازل تتميز بجدران من الحجر الجيري غير المملّط (أي أنها تبني بغير مونة).

وقـــد كشفت الحفريات التي أجريت علي المواقع الأثرية القديمة ، أن الأرض الزراعـــية بالـــنوبة كانـــت أوسع وأن الضفة الغربية كانت أخصب ومأهولـــة بالســـكان علي عكس الضفة الشرقية .ففي (فرص غرب) وجدت عظـــام آدمية علي بعد سبعة أميال من النهر ، كما وُجدت آثار عكشة ودبيره غرب وبوهين مدفونة في أعماق الرمل ، وكانت في الأصل قائمة علي رقعة واسعة من (الجروف ٠) هذا يدل علي أن الرياح الشمالية العاتية كانت تحمل معهـــا كميات هائلة من رمال الصحراء –عبر السنين –وتغطي بها شاطئ

النهر الخصيب فتحيله إلي كثبان من الرمل . ولعب النيل دوره في تقليص أرض النوبة. ففي أيام الفيضان (حين يرتفع منسوب الماء ويكون التيار قوياً) يتسع مجري النهر علي حساب الشواطئ الخصبة .

وقبل قيام خزان أسوان في ١٩٠٢م ، كانت بلاد النوبة السفلي غنية بجروف ممتدة ، وجزر منخفضة خصبة ، وغابات من أشجار النخيل . وعندما تم بناء الخزان وبدأ تخزين المياه ، غرقت معظم الأراضي الزراعية المنخفضة . وفي عام ١٩١٢ م تم (إعلاء) الخزان وارتفع منسوب الماء مما أدي إلي إحداث آثار بليغة علي ما تبقي من تلك الأراضي المنخفضة وما بقي من أشجار النخيل . وفي عام ١٩٣٢ تم (إعلاء) الخزان للمرة الثانية ، فأدي ذلك إلي أضرار مدمرة . ولحق الدمار الكامل منطقة الكنوز في النوبة السفلي : ففقد الأهالي قراهم ومساكنهم ونخيلهم . وعندما دعتهم الحكومة المصرية لإعادة توطينهم شمال أسوان رفضوا بعناد وفضلوا إعادة بناء القري فوق قمم الجبال والعيش بالقرب من وطنهم الغريق . وهجر كل الرجال القادرين المكان واتجهوا إلي القاهرة أو إلي داخل السودان بحثاً عن العمل وعلي أمل أن يساعدوا عائلاتهم .وأقام بعض الكنوز نهائياً في الخرطوم بحري وفي شندي .أما في داخل أرض النوبة السودانية فقد أدي (الإعلاء) الثاني للخزان إلي التأثير علي مساحات واسعة من الجروف والجزر المنخفضة وإلي خسائر في أشجار النخيل .. لكن الأثر – علي كل حال – لم يكن كبيراً.

توضح الحقائق السابقة مدي الأثر الذي فعلته الصحراء في الحزام الغربي للنيل وما أحدثته الفيضانات من تعرية في شواطئه وجزره ، كما توضح كيف أن (إعلاء) خزان أسوان – مرتين _جرّد النوبة تدريجياً من

أثمن أراضيها وأضعف مقدراتها الإقتصادية إضعافاً بيناً وإنخفضت إمكانات الأرض إلي ما دون الكفاف للسكان الذين يتزايدون بإنتظام . وهاجر معظم الشباب والقادرين من الرجال بحثاً عن لقمة العيش نتيجة لإفتقارهم لأي خيار إقتصادي يساعد علي إستقرارهم في وطنهم .

إن الأرض غالية جداً في بلاد النوبة كما أن المجتمع النوبي يعيش حالة حادة من الافتقار إليها. فقيمة الفدان الواحد من الأرض تبلغ ٢٥٠ جنيهاً . وتمليك الأرض يقوم علي أساس تسجيلات تمت منذ أجيال . وعلي مر الأيام يتضاعف الورثة بحيث تتجزأ الأرض – إذا تم توزيعها – إلي ملكيات متناهية الصغر . وعندما باشرنا التعويضات علي أساس هذا الوضع ، أكتشفنا أن آلاتنا الحاسبة كانت تعمل بالكسور . وأخبرني كاتب تسجيلات المركز أنه –عندما حسب نصيبه –حصل علي نصف متر مربع من الأرض . وكان أصغر الأنصبة التي حسبت في الأرضي التي ستغمرها المياه يساوي ٠,٠٠٠٤ فدان وهذه المساحة كانت أقل بكثير من التي يسمح بتسجيلها قانوناً . ولهذا السبب كان النوبيون حريصين جداً علي عدم فتح السجلات، ويفضلون عدم تحديد ممتلكاتهم من الأرض ويتجنبون تجزئتها. وكانوا سعداء بالعيش – مع بعضهم –علي نمط الملكية الجماعية ويستغلون أرضهم بأسلوب الإقتصاد المشترك . وينقل الغائبون –عادة –أملاكهم من الأرض إلي أقرب الأقربين القاطنين . ويتنازل الآباء المهاجرون عن أملاكهم لزوجاتهم وأطفالهم . وعموماً فإن منفعة الأرض تعود إلي أولئك الذين يعيشون في بلاد النوبة. ولأن النوبيين يدركون محدودية الأرض ، فكان عليهم أن يلتزموا بإقتصاد زراعي مباشر .. أي أنهم كانوا –خلال الدورة الزراعية –يقومون

باستغلال كامل للأرض دون أن يبقوا جزءً منها أرضاً (بوراً) لكي يحصلوا منها علي أفضل وأجزل أنواع الإنتاج . ويستثمرون التربة بعناية لا تترك بوصة مربعة واحدة خلال الدورات الزراعية الثلاث . وبما أنهم يستعملون السماد الكيميائي والحيواني بانتظام ، فإن التربة تحتفظ بخصوبتها وتعطي إنتاجاً جيداً وتظل علي الدوام يانعة الخضرة لأنها –أصلاً –طبقة من الطمي الذي تسهل فلاحته .

(١) الدورة الزراعية :-

تتكون الدورة الزراعية النوبية من ثلاثة مواسم (الشتوي والصيفي والدميرة) ، لكن الموسم الشتوي هو أهمها لأنه ينتج المحصولات الاستهلاكية إلي جانب بعض المحصولات النقدية . يبدأ هذا الموسم في منتصف أكتوبر حين يخرج الرجال والنساء والأطفال إلي الحقول فينظفون الأرض من الحشائش ويقتلعون جذور المحصول السابق . وهم عادة يستخدمون لهذا الغرض نوعاً من المعازق يسمي (الكرد) ، ولربما استخدموا أحياناً أدوات بسيطة . أما حين تكون التربة مفككة وناعمة فإنهم يعالجونها بأيديهم . ويستمر تحضيرها للحرث أسبوعا أو عشرة أيام قبل أن تسقي بللاً . وبعد أسبوع –وقبل أن تجف الأرض وتتصلب –تبدأ عملية الحرث . وبما أن النوبي مزارع تقليدي ، فينبغي هنا أن نلاحظ أنه لا يستخدم الوسائل الزراعية الحديثة ولا تحتاج أرضه ذات الرقعة الضيقة إلي مكننة . وكل الذي يلجأ اليه محراث بدائي (مثل الذي يستعمله الفلاح المصري) له شفره (سِنَة) تغرس في الأرض وتربط علي عمود خشبي يوصل أعلاه بظهر ثور . ويعمل المحراث بطريقة الضغط العميق علي

الشـــفرة مـــع حـــركة الثور . ويستمر الحرث –عادةً –إسبوعاً ثم يعرض الحـــرث لحرارة الشمس كي يجف وتتفكك كتل التربة . وفي منتصف نوفمبر يـــبدأ بـــذر الأرض وهذا عمل تقوم به –كلياً –النساء اللاتي يحملن أنواع الـــبذور فـــي صحاف و (سلطانيات) وينثرنها علي التربة الجافة . والنساء النوبـــيات ماهـــرات ومدربات علي هذا العمل بحيث تستقبل الأرض البذور بالكمـــية المطلوبـــة وفي المكان الصحيح . والمحصولات التي تبذر في هذا الموســـم هـــي القمح والشعير والبسلة والعدس والحمص والبطاطس والبصل والفاصوليا وخضروات أخري . وحال الفراغ من هذا العمل يشرع النوبيون فـــي تســـوية الأرض بتغطية البذور بطبقة رقيقة من التربة وتهشيم جزيئاتها الصلبة وتجهيزها لانسياب الري . ويستخدمون لهذا الغرض آلة تقليدية تتكون مـــن عارضـــة خشبية ثقيلة يجرها ثوران . وحين يتم إنجاز هذا العمل يقوم المـــزارعون بتقسيم الأرض إلي أحواض بواسطة (الواسوق) ثم يستخدمون (الأربل) للأعمال الصغيرة الشبيهة . في هذا الوقت تكون الأرض قد تهيأت للـــري ، وهنا تسحب الثيران للقيام بمهمتها الأساسية وهي إدارة الساقية التي تكـــون صـــيانتها وتجهيزاتها بحبال (الألس) والقواديس قد تمت . وفي نفس الوقـــت تكون مصدات الرياح قد أقيمت لمنع إنسكاب ماء القواديس بعيداً عن مصبها حين تهب رياح الشتاء الباردة في أواخر أكتوبر . وبالرغم من وجود قلـــيل مـــن مضـــخات المياه الحديثة لري المحاصيل ، إلا أن معظم النوبيين يعـــتمدون علـــي الســـاقية .. هذه الآلة العريقة التي يعود تاريخها إلي زمان الفراعنة.

تـــتم (الســـقاية) الأولي في الأسبوع الأول من ديسمبر . وفي خلال

ثلاثة أيام تبدأ البذور في النمو وبعد أيام قليلة لاحقة يبرز النبات إلي ما فوق سطح الأرض في منظر أخضر بهيج . في هذا الوقت تنزل النساء إلي الحقول بحللهن السوداء يحملن مناجل خفيفة لإزالة الحشائش عن الزرع ، أما الأعشاب السطحية فتُنزع بالأيدي. وقبل (السقاية) الثالثة يتم تسميد التربة بالطريقة النوبية وهي أن تُحزم كمية من السماد في خرقة وتوضع في منتصف حوض الساقية فيذوب بالتدريج حين تتدفق المياه إلى الجدول ثم إلي الأحواض . لكن الأسمدة العضوية لا تستخدم إلا في حدود ضيقة بعكس روث الحيوانات والعذرة الآدمية التي أثبتت جدواها في إنتاج أنواع جيدة من الخضروات . بعد هذه السقاية يصل النبات إلي مرحلة الإزهار. ثم تظهر سنابل القمح والشعير وتهتز عند هبوب الرياح الباردة، وتتشكل نباتات البسلة والبقول بزهورها البيضاء وتبدأ أغلفة الحبوب الخضراء في البروز.في هذا الوقت يولي المزارع اهتمامه الكامل لحقله ويراقب بعناية أية بوادر لظهور الآفات الزراعية . ويساعد الشتاء البارد الطويل –إلي حد كبير –في صحة كل محاصيل هذه الدورة . ثم تأتي (السقاية) الرابعة والأخيرة في الأسبوع الأول من أبريل حين يبدأ المحصول في النضج . وبعد أن تسقي آخر حوض ، تتوقف الساقية وتقاد الثيران إلي ظل أشجار النخيل حيث تتناول وجبتها من العلف.

ويقترب موسم الحصاد وتبدأ حملة طرد الطيور التي تتجمع من كل حدب وصوب لتهاجم المحصول في شكل غارات جماعية تلتقط حبات القمح والشعير وتسبب دماراً بليغاً للبقول . وبما أن موسم الحصاد يصادف موسم تكاثر الطيور ، فإنها تنقض علي الحبوب بشهية وشراسة لتجمع ما تملأ به

أفواه صغارها المنتظرين في الأعشاش . غير أن للنوبيين أسلوبهم الخاص في التصــدي لــتلك الغـارات . فتراهم يشعلون النار في روث الأبقار بمواضع مخــتلفة معرّضــة للرياح، وبذلك يحدثون سحباً من الدخان تؤدي إلي طرد الطــيور . وفي بعض السواقي يقومون بعمل (هنابيل[1] تتدلي منها كشاكيش) عــند تحريكها يفزع لها الطير .ويقوم بعض الصبيان الأذكياء بعمل عجلات هوائــية ذات أجــراس تحدث رنيناً حين تهب الريح . ويقوم آخرون بإحداث (فــرقعات) بالحــبال ويقــوم آخرون بالضرب علي الصفائح الفارغة .وهم يتجولون في أنحاء الحقل .

وبحلــول الأسبوع الأول من أبريل ، تبدأ بشائر الحصاد في الظهور. فيــتحول لــون أوراق نبات القمح والشعير من الأخضر الغامق إلي الأصفر الفاتح ، ويتصلّب الساق وتجف السنابل . أما أكياس البسلة والفاصوليا فتسوّد عند الأطراف، وتتجعد الأوراق وتخشوشن. وفي بداية الأسبوع الثالث ، يعمل المنجل قطعاً في أول حزمة شعير إيذاناً بافتتاح موسم الحصاد . وتُقطع سيقان المحصول من نقطة الجزرثم تجمع في حزم مرصوصة علي الأحواض لتجف تحت حرارة الشمس . ويتم حصاد البسلة والعدس ثم يفرز في أكوام ويعرّض لحرارة الشمس أيضا . أما حصاد البقول والقمح فيتم كالشعير . وبعد أسبوع ــأو نحــوه ـــمــن التجفيف ، تنقل أكوام وحزم الحصاد إلي (التر) وهي أرض صلبة من خليط الطين والزبل تُعد خصيصاً لدرس الحبوب .

وللنوبييــن طريقــتهم الخاصـــة في درس الحبوب الشتوية وذلك أما بإستخدام (النورج) وأما بدرسها بحوافر الحمير . فالنورج هو ماكينة بدائية

[1] يعرف في مصر بخيال المآتة – المترجم .

تصـــنع محلياً وتشبه مركبة خشبية صغيرة لها عجلات حديدية حادة متلاصقة مثل أقراص المحراث (دسك التراكتور) يجرها –عادة –ثور يسوقه صبي فـــي حـــركة دائرية دائبة ، فتنفصل الحبوب عن السنابل عندما تعصرها تلك العجلات في دوراتها المتكررة . أما الدرس بالحمير فيعتمد علي عدد منها ما بين السبعة والعشرة تربط أعناق بعضها إلي بعض.وتوصل بحبل إلي عمود في منتصف (الدَر) ، لضمان الحركة الدائرية الدارسة، وتحتاج الحمير إلي ثلاثين دورة لتدرس ما يغطيّ الأرض الصلبة من سنابل .

وعـــندما تنتهي عملية الدرس يُفصل (التبن) بمجراف وتبقي الحبوب وقشور السنابل ونديقها الناعم . ولاستخلاص الحبوب من هذه الشوائب فلابد من تذريتها في الهواء بالأيدي أو بمجراف أو في طبق من السعف . فتسقط الحـــبوب مباشـــرة في أرض نظيفة وتتطاير الشوائب في الهواء . ثم تجمع الحـــبوب وتعـــبأ في جوّالات حصيلة الفدان منها خمسة أرادب في المتوسط للأصناف الرئيسية . وينقل القمح إلي المنازل حيث يخزن في حاويات مغلقة مـــن الطين (قسّيبة) ويستهلك بخلط دقيقة مع دقيق الذرة بعد خبزة في فطائر رقـــيقة تسمي (الكابيدة) . أما الشعير فهو –عندهم –علف حيواني أو طعام لمرضي السُكّر . وهنالك جزء من الفول والبقول للاستهلاك المنزلي وجزء للتســـويق كشـــأن البسلّة والعدس . ومتوسط سعر الأردب في سوق حلفا ٧: جنـــيهات للقمح و ٤ جنيهات للبسلّة و٦ جنيهات للعدس ، وللنوبيين طرائق عـدة للاستفادة منزلـــياً من مخلفات الإنتاج. فيضيفون أوراق نبات البسلة (الوريَق) إلي الحساء لصُنع عجينة مغذّية يأكلون بها (الكابيدة). ويصنعون من سيقان القمح والشعير حصائر سميكة يستغلّونها في سقوف المنازل وإقامة

(الرواكيب) وحواجز الساقية ، وكذلك الأمر مع سيقان البسلّة . ويستفيدون مما يبقي من نبات البسلّة والعدس – بعد استخلاص حبوبه – علفاً ووقوداً.

وقبل أن أختم حديثي عن الموسم الشتوي ، ينبغي أن أذكر أن المزارع النوبي – بلا استثناء – يهتم بفلاحة مزرعة خضرواته الخاصة بجانب رعايته لمحصولاته الشتوية . ففي كل ساقية تفْرد مساحة صغيرة جانباً لزراعة خضروات الشتاء . فبالإضافة إلي البطاطس والبصل ، يزرع المزارع السبانخ والفلفل الأخضر والخيار والكوسا واللوبيا والطماطم والكرنب والقرنبيط والفجل والبنجر وخضروات (السلطة) . ويتم إنبات الخضروات الجذريَة في حافة الأحواض (التقانت) بينما تنبت الأخرى في الأحواض ويفضّل في تسميدها – دائماً – المخلّفات الحيوانية علي السماد الكيماوي. ويستهلك المزارع جزءً من خضرواته لكن الجزء الأكبر يذهب إلي السوق للبيع .

والموسم الصيفي ضئيل الإنتاج وقليل الأهمية إذ أنه يأتي في أشق شهور العام حين ينحسر ماء النهر وتعمل الساقية بطاقتها القصوي وحيث لا يشقي المزارع وثيرانه مثلما يشقي في هذا الموسم . فيزيد حبال دولاب الساقية كما يزيد عدد الدلاء (القواديس) لتغرف أقصي ما يمكن حمله من الماء . ويضيف أصحاب مضخات المياه مزيداً من الأنابيب للوصول إلي الماء مما ينهك الماكينات . وغالباً ما يصير النيل في يوليو شديد الانخفاض حين تنحسر مياهه عن الشاطئين وتنحصر في المجري الضيق . وفي هذه الحالة يضطر المزارعون إلي شق قنوات لتمكين السواقي والمضخّات من الوصول إلي الإمداد المائي . ولهذا السبب فإن الموسم

الصـــيفي لا يغطـــي سـوي ثلـــث الأرض القابلة للزراعة والتي تفتقر إلي الأحواض القريبة من قنوات الري .

ويتم تنظيف الأرض من جذور المحصولات الشتوية وتحرث وتجهز بـــنفس الأســـلوب الذي اتبع في الموسم الشتوي . ثم توضع البذور في حفر ســطحية وهــي —غالــباً– بذور الذرة والبرسيم واللوبيا بنوعيها والخروع والخضـــروات الصـــيفية كالبامـــيا والملوخية والرجلة . وبعد تسوية بواطن الأحـــواض تبدأ عملية الري . وبما أن يوليو وأغسطس هما شهرا الحرارة القصـــوي ، فان درجة الحرارة تتراوح من ٤٦ إلي ٥١ درجة مئوية مسببة بذلـــك قـــدراً عالـــياً من التبخُر .وفي الحقيقة فإن موسمي الصيفي والدميرة يحـــتاجان إلي كمية من الماء أكثر مما يحتاج الموسم الشتوي بمقدار الضعف في أغلب الأحيان . ويتم تنظيف الأرض بنفس الطريقة ولكن بجهد أقل لأن نباتات الصيفي والدميرة صلبة العود وتقاوم الحشائش الطفيلية . وحصاد الذرة يمـــاثل حصاد القمح والشعير باستثناء أن قناديل الذرة تُقطع وتنقل إلي أرض (الـــجُرن) وتوضع في الشمس مدة ثلاثة أسابيع لتجف ، كما أن فصل الحبوب عـــن القـــناديل يتم بإعمال العصي الغليظة . وينتج الفدان ٤ أرادب من الذرة والذرة الشامية . وتحفظ سيقان الذرة علفاً للبهائم أو للوقود .

ويمكن اعتبار الدميرة امتداداً للموسم الصيفي . فإن زراعته تبدأ حين ينضج حصاد الصيفي . ومنتجاته تشمل كل أصناف ذلك الموسم مع اختلافات طفـــيفة مـــثل زراعـــة الذرة الشامية . ومن تلك الأصناف : البطيخ والشمام والفول السوداني والكوسا والبصل.في هذا الوقت تبدأ بواكير فيضان النيل في وادي حلفـــا ويتغـــيّر لـــون المـــياه مـــن الأزرق الرائق إلي طمي في لون

(الشـــوكولاته) . وتمتلـــئ (مضارب) السواقي والطلمبات بمياه الفيضان مما يستدعي تقصير حبال (القواديس) وأنابيب الطلمبات. وتبدو سهولة العيش في وجوه الفلاّحين وفي غبطة الثيران . وفي سبتمبر يبلغ الفيضان مداه ويرتفع منسوب الماء إلي أعالي الضفاف وتُقصّر حبال دولاب الساقية تقصيراً يجعل طولهـــا يـــزيد قلـــيلاً عن محيط الدولاب ، وتروي الأحواض جيداً . ويتّبع المـــزارع نفـــس أسلوب الصيفي في الحصاد وذلك في شهر أكتوبر . وأثناء الأســـبوع الثالـــث من أكتوبر تبدأ مياه الفيضان في الانحسار ويضعف التيار تدريجـــياً ثم تبدأ أطراف الضفاف في الظهور مرة أخري وهي مغطاة بطبقة من طين الجروف المشبّع بالماء الكافي لري موسم زراعي كامل .

وبالتجربة فإن النوبي يعرف أفضل أنواع المحصولات التي تزرع في هـــذه الأرض الخصـــبة ويـــدرك المدى الزمني لنُضجها. فيزرع اللوبيا في الأعالي ثم اللوبيا العدسي في الوسط ثم الترمس والطماطم في الأجزاء السفلي ، ويشرع في الحصاد خلال شهر يناير ،

٢.مشروع دبيره الزراعي :-

يعتبر هذا المشروع الأكبر والأهم علي امتداد مركز وادي حلفا . وقد تـــم إنشاؤه في عام ١٩٠٦ بواسطة المقاول الإغريقي (لويزو) . وهو يغطي مســـاحة ٦٠٠ فـــدان تروي بمضختين إحداهما مقاس ١٢ بوصة للعمل شتاء والأخـــرى مقاس ١٦ بوصة للعمل في الصيف . وقد بدأ هذا المشروع ملكية خاصـــة وكان يدار بعقلية رأسمالية بحته ويستخدم (عليقات وادي العرب) عمـــالاً زراعيـــين باليومية ويتبع الدورة الزراعية المتعارف عليها فيما عدا إدخـــال محصول القطن في مساحات واسعة خلال الموسم الصيفي ، وأثناء

السـنوات الأولـي أكتشف مالك المشروع التكلفة العالية لنظام العمل باليومية خاصـة وأن العمـال يتقاضـون أجورهم علي جهد قليل أو معدوم . ولكي يحفـزهم علـي العمل ، وقّع معهم إتفاقية تجعلهم شركاء يحصلون علي ربع جملـة الإنتاج . وأثبتت الإتفاقية جدواها وأستمر المشروع حتي عام ١٩٣٠ إلي أن ظهرت –عقب الفيضان –جزيرة رملية غطت ١٧٠ فداناً من أراضيه الممـتدة علي طول الشاطئ وعلي مقربة من موقع الطلمبات . ودفنت الرمال (المضرب) وبعدت عنه مصادر المياه النيلية . وأخفقت كل محاولات إعادة عملية إنسياب الري ، فتوقف المشروع .

وقامـت الحكومة في عام ١٩٣٣ بشراء المشروع بمبلغ٦٠٠٠ جنية وزادت مسـاحته لتصبح ١٠٥٠ فداناً وشقّت له قنوات جديدة وجلبت له ثلاث مضخات عملاقة أقامتها علي بوارج طافية علي الماء عند (أشكيت) . وباعت الحكومـة أرض المشروع للسكان بواقع خمسة عشر جنيهاً للفدان لكي تغطي قيمة الأرض وتكاليف المضخات وحفر القنوات . وبالنسبة لتكاليف الري فقد قـدّرت بـأربع جنيهات للفدان . وهكذا أصبح سكان أشكيت ودبيرة مالكين لأحسـن مشروع زراعي في المنطقة . وبمجهود العمال الزراعيين المضني وبعـد الإتفاق مع الملاّك علي صيغة شراكة إنتاجية وتحت إشراف مصلحة الزراعة، نجح المشروع في رفع مستوي معيشة السكان .

٣. أشجار النخيل :-

عـندما يفكر أحد في بلاد النوبة فإن أول ما يخطر علي باله : أشجار النخـيل . لقد وجد النوبيون في أشجار النخيل تعويضاً من السماء عن ضيق أراضـيهم . فهـم يعتـبرونها أعـز ما يملكون وأقيم هبات الطبيعة وعماد

إقتصـــادهم المحلي والمصدر المضمون للنقود والمظهر الوحيد للثروة ، وهي مناط الفخر للأجيال المعاصرة ، وأقيم ثمرات الحياة بالنسبة لأجيال المستقبل .. فكـــل قـــرية وكـــل جار ، بل وكل فرد يملك شجرة نخيل أو جزءً منها . ويـــزدحم الشـــاطئ -كلـــه -بغابات من النخل تبلغ في بعض المناطق مثل (أرقين وأشكيت ودبيرة ودغيم) كثافة لا يتخللها شعاع من ضوء . وفي مثل صـــحراء الـــنوبة -حيـــث لا تنمو شجرة غير النخلة وحيث لا تحجب وجه الشمس سحابة طوال العام - تكون نعمة الظل من لفحة السموم راحة غامرة .

قـــال تعالي : (فأجاءها المخاض إلي جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً * فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سـريًا * وهُـزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا* فكلي واشربي وقـري عيـناً فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيًا [١]) *

وقال رسول الله (ص) (أكرموا عمتكم النخلة) وقال أيضاً (من الشجر شجرة تكون مثل المسلم وهي النخلة[٢])

هـذه النصـــوص الكـــريمة يكررها النوبيون كلما تحدثوا عن أشجار نخـــيلهم. إنهم ينظرون إليها بعاطفة من الحب تطابق أحاسيسهم نحو فلذات أكـبادهم . فـــيرعون الشـــتول ويســـقونها بانتظام ويشذّبون جريدها بعناية ويحمونها من أذى البهائم الطليقة . فهي تعتبر -عموماً- إحدى أهم الأصناف الإقتصـــادية المـــباركة بمعنـــي إنها تعطي ثماراً بمجهود قليل جداً . فالشتلة المـــزروعة لا تحـــتاج إلا إلـــي ثلاثة أو أربعة أعوام من العناية والسقاية ،

---

(١) الآية ٢٣ إلي الآية ٢٦ سورة مريم . المترجم .
(٢) صحيح البخاري الحديث رقم ٥٤٤٨ . المترجم.

لتستوي على ساقها ثم تثمر . وكل الذي تحتاجه حينئذ أن يقص جريدها السفلي اليابس ثم تلقّح ثم تجني ثمارها بعد نضج .

يخضع موسم استزراع الشتول للتقويم القبطي باعتبار أنه يتيح أدق مواعيد الزراعة ، ولذلك فإن النوبيين يلتزمون به اشد الالتزام . ويبدأ الموسم الأول في شهري (برمهات وبرمودا) عقب انقشاع برودة الشتاء ، ويقابلهما – تقريباً – شهرا مارس وأبريل . ويغطي الموسم الثاني شهري (أبيب ومسرا) الذين يقابلان يوليو وأغسطس . ويتم اختيار الشتول –بعناية – من أجود أنواع أشجار النخيل بعد أن تمضي في حضن الأم من ثلاثة إلى أربعة أعوام . ومن الضروري أن تجتز الشتلة من موضع الجذور السطحية للشجرة الأم . لأن الشتول التي تتعلق بأمها لا جدوى منها وينبغي بترها بمجرد ظهورها إذ أن الاعتقاد السائد أنها تقلل من إنتاج الأم . والشتلة الجيدة تكون مخضرة وتزن مابين ٩ إلى ١٢ كيلو جرام ويقاس نجاحها بنسبة وزنها ، ولا تقطع إلا بعد مضي شهر من السقاية اليومية بضربيتين أو ثلاث من إزميل خبير بهذا العمل تصل إلي أعماق الجذور البكر .

وحالما يتم فصل الشتلة تغطي جذورها بالطين ويتم لفها بقطعة من جوال مبلل ثم تنقل مع مثيلات لها إلي حوض يتسع لثلاثين أو أربعين شتلة . وتروي الشتول يومياً لمدة شهر تكفي لإظهار (الناجح) منها ، بعلامات تبدو في نمو الجريد وبروز(القلب) الذي يسمّونه (القلقول) . ويبدأ بعد ذلك نقل الشتول (كل شتلة إلى حفرة مستقلة) لتسقي مرة كل ثلاثة أيام أثناء الشهر الأول في الأمسيات عادةً . وبعد مرور الشهر الأول تسقي مرة أو مرتين في الأسبوع لمدة عام . وفي العام الثاني يختصر الري علي مرة أو

مرتين في الشهر حسبما تتطلب الظروف .

ويمكن أن تنمو شجرة النخيل من نواة مزروعة ، لكن الحكمة الإلهيه جعلت معظم النخل الذي ينمو بهذه الطريقة من فصيلة (الذكور) بينما تجئ (الإناث) منها ذوات إنتاج ضعيف ونوع رديء . وأشجار النخيل التي تنمو عـن نواة لا أم لها يسميها النوبيون : (أولاد الحرام) . وبالتقريب فإن كل الأشـجـار (الذكور) في منطقة النوبة تنتسب إلى هذه المجموعة . ولأن النوبيين لا يرغـبون فـي هذا النوع – أصلاً – فإنهم لا يتخيّرونه من بين الشتول المستزرعة .

وبمجرد أن يتم نقل الشتلة إلى حفرة مستقلة ، يتجه الاهتمام الأكبر إلى حمايتها مـن الحيوانات الطليقة بسياج من الأغصان الشوكية أو بسور من الطين ضمن بستان من النخيل . وبعد ثلاث سنوات يبرز ساق الشتلة ويصفر الجـريد (القديم) ثم يصير داكن اللون يابساً . فيقطع عند حد الساق ليترك أشـكالاً تشبه ما يعتري جلد السمكة من قشور . وفي العام الرابع تثمر الشتلة لأول مـرة بتمر قليل ، ويزداد إنتاجه ليبلغ ذروته في العام العاشر . وعندما تـبلغ الخامسة والأربعين أو الخمسين من العمر يتنازل إنتاجها بإضطراد إلي أن تـبلغ السـتين حيـن يتعذر تلقيحها وحصادها نسبة لعلو الساق . فيصير إنـتاجها عديم الفائدة نوعا وصعب المنال واقعاً ،وتبدأ علامات الشيخوخة في الظهـور . فيـتآكل السـاق من أسفله ويضعف ويفقد الجريد مظهره البهيج ويخشوشن ويجف . أما الجذور فتذبل وتتعري بحيث تعجز عن مساندة الساق وهو يواجه رياح الشتاء العاتية . هنا تنتظر النخلة أي عاصفة هوجاء لتقتلعها من جذورها وتلقي بها إلى الأرض جثة هامدة .

وأنواع أشجار النخيل التي تنمو في مركز وادي حلفا –تبعاً لأهميتها –هـــي : (الـــبرتمودة والقنديلة والبركاوي والجاو) . ومن الفصيل الأخير (أي الجاو) كل أنواع التمر الرخيص مثل (الجارقودا والدّقنا). والبرتمودة بلحـــة متوســـطة الحجـــم مكتنزة وحلوة الطعم وضئيلة النواة . وهي أفضل الأنواع وتباع في مصر بثمن غالٍ . أما القنديلة فأكبر حجماً وسُمكاً لكنها أقل حـــلاوة من البرتمودة وسوقها –كذلك –رائجة في مصر حيث يصنع منها مشروب شعبي يتناوله الناس في إفطار رمضان . وعيب هذه الأنواع الجيدة من التمر يكمن في نموها المتعثر وفي حاجتها إلى ري منتظم ، هذا بالإضافة إلـــي أن البرتمودة لا تثمر في كل موسم ومع ذلك فان قيمة ما تنتجه من تمر –مقارنـــاً مع الأصناف الأخرى –يغطي علي تلك العيوب . أما البركاوي فتمر سميك وأكبر نواة وأقل سُكّرا وحلاوة وهو مشهور في السودان لأنه لذيذ ومتوسط السعر ومقاوم للآفات وقابل للتخزين ، ولأن إنتاجه وفير فإن نخلته تعتبر أفضل الأنواع من الناحية الإنتاجية . أما أنواع الجاو فتأتي في مؤخرة الأصـــناف مـــن حيث الحجم والقيمة . فثمرتها ذات طبقة رقيقة تحيط بنواة ثخينة ولذلـــك فهي لا تجد رواجاً في الأسواق الخارجية مما يجعلها طعاماً للفقراء في السودان . ونسبة لقيمتها المتدنّية فإنها تدخل في الصناعات البلدية مثل تقطير الكحول والخل (والعرقي) وتخمير المشروبـــــات المحلية مثـــل (الدكّاي) و (الشربوت) .

ونخلـــة الجـــاو شجرة صحراوية نموذجية . فهي تنمو بسهولة وتقاوم أقســـى الظـــروف المناخية وشتولها لا تكاد تحتاج إلى استزراع ولذلك فهي تـــترك لتنشأ في كنف أمها حتى إذا ما ماتت الأم حلت محلّها . ولهذا السبب

فإن حفرة الجاو(أو البوره) ينمو فيها عدد من أشجار النخيل من أعمار مختلفة حول الأم ، ويخلف بعضها بعضاً وتتكاثر علي مر الأيام . وقد أخبرني نوبي عجوز أن هناك (حُفر أو بورات) معيّنة في قريته يتوارثها جيل عن جيل منذ عهد بعيد . ويشكل الجاو نسبة ٥٠% من جملة أشجار النخيل في مركز وادي حلفا.

وتلقـــيح النخل يقوم به – دائماً – خبراء محليّون ، وهم أنفسهم الذين يقطعـــون (يحشُون) سبائط التمر عند إستوائها فيحصلون علي سبيطة واحدة مـــن كل ثلاث سبائط . وفي أيام التلقيح نري هؤلاء الرجال يتسلقون أشجار ذكور النخيل من شجرة إلي أخري كالسحالي يقطعون أكمام اللقاح ثم يجففونها حتـــي تصـــير محـــتوياتها من الحبوب دقيقاً يجمعونه في صُرر من ورق ثم يربطونها بقطع من السعف فتكون كل صرّة في حجم طلقة بندقية الخرطوش. وحيـــنما تتفـــتح بـــراعم الإناث يحمل الخبراء صررهم في طواقيهم (التي يمسكونها بأسنانهم) ويتسلقون الشجرة. وكلما وجدوا من البراعم ما هو مهيأ لاســـتقبال حبوب اللقاح قبض الواحد منهم بيده اليسرى علي جريدة ثابتة ثم أخـــرج بـــيده اليمني صرة من الطاقية ونثر حبوبها علي البراعم . وبما أن الـــبراعم لا تتفتح كلها في وقت واحد ، فإن خبراء التلقيح يحتاجون إلي عدة أيام لإكمال العمل . وتنتج البراعم غير الملقّحة تمراً رديئاً أعجفاً لا طعم له يسمي (الصيص) تشبيهاً له بصغار السمك . وهذا التمر لا يؤكل وإنما يُجعل علفاً للبهائم .

وحصـــاد التمر من أكبر المواسم احتفاء في بلاد النوبة . ففي أواخر يونـــيو ويولـــيو يتغيّر لون الثمار الأخضر إلي اللون الرمادي سريعاً إما إلي

اللـــون الأصــــفر الفاقع أو إلي الأحمر القرمزي . وفي أغسطس تلين الثمرة ويغمـــق لونهـــا مع تجعّد وانكماش في مؤخرتها وهذه علامة النضج . وفي أواخر أغسطس يبدأ جمع (الرُطب) إلا أن العادة المتبعة هنا هي أن التمر لا يحصـــد إلا بعد أن يكتمل نضجه ويجف في سبائطه . أما التمر ذو الطبيعة الليّنة (العجوة) فيلتقط بمجرد نضجه حتى لا يتخمرّ ويتعفّن .

وفـــي أواخـــر سبتمبر وأوائل أكتوبر تجف الثمار ويميل لونها للسواد وتفقـــد إشــــراقها اللامــــع لتصــــير أقرب إلي الخشونة والجفاف . حينئذ يبدأ الحصــــاد. فـــيخرج الجميع إلي البساتين: فالرجال يحملون الجوّالات الفارغة والنســـاء تتكلي من أياديهن السلال وأطباق السعف ، ويتبع الأطفال الكبار . والذي ينظر إلي (الحشّاش) يراه وقد لف أدني جلبابه حول وسطه وغرز فيه المـــنجل ثـــم تسلّق النخلة . وعندما يصل إلي موضع الجريد يستند إلي قلب الشـــجرة ويجـــذب منجله بيمناه ثم يمسك السبيطة بيسراه ويُعمل فيها المنجل بحـــركة ســـريعة تفصـــلها عن القلب ثم يلقي بها في الأرض فتسقط بصوت مكـــتوم أشبه ما يكون بسقوط صقر مصاب. فينهمك الصغار في إلتقاط التمر المـــتطاير ، وتنشغل النساء بنزع الثمار من (شخاليب) السبائط وجمعها في السلال والأطباق بينما يعبئ الرجال الجوّالات بالمحصول ثم يخيطونها بعد أن تمتلـــئ . وكلما وصل العدد ألي ثلاثة جوّالات حُمل علي ظهر دابة ونقل إلـــي القرية ليفرّغ تحت حرارة الشمس حتي يجف وتعاد الجوّالات الفارغة لتعـــبأ من جديد ما دام (الحشّاش) يُعمل منجله من شجرة إلي أخري . وفي أواخـــر الـــنهار يعـــود القوم إلي بيوتهم في حبور . فالنساء الممسنّات يرجعن بعينات جيدة من التمر في أطباق يحملنها علي رؤوسهن وهن يمضغن أوراق

التبغ ويتبادلن الحديث مع بعضهن وقد خلّفن سحائب من الغبار أحدثتها ذيول (الجرجار) حين تنسحب علي الأرض. ويتسابق الصغار وقد امتلأت جيوبهم وطواقيهم بخيرات الحصاد فرحة وسروراً بعد أن تلقّوا أجرهم من العمل . أما (الحشّاش) فيهمه أن يُوفّي حقه بسبائط ممتلئة من ذلك الحصاد .

وشجرة النخيل الجيدة تحمل ما بين عشرين وثلاثين سبيطة بينما تحمل المتوسـطة حوالي عشرين . أما الأشجار الفقيرة الإنتاج فتحمل مابين الخمس عشـرة إلـى العشر من السبائط . لكن الشجرة الغزيرة الإنتاج تملأ ثمارها جوالين . أما المتوسطة فتملأ جوالاً و أما فقيرة الإنتاج فأقل .

وعندما يجف التمر ، يتم فرزه بعناية ويصنّف تبعاً للجودة ثم يعبأ في جـوالات سليمة . أما التمر اللين أو الذي لم يكتمل جفافه فيكال في صفائح . وعـند اكـتمال تعبـئة المحصـول ، يباع للتجار المحليين بالقرية (والذين يخصمون استحقاقهم من ديون صاحب المحصول أثناء العام قبل دفع القيمة) أو يحمل بالشاحنة إلى تجار الجملة في سوق حلفا . وتجربة التعامل مع تجار القـرى شـهدت استغلالاً للمنتجين حيث كان أولئك التجار يدينون المنتجين بأسعار باهظة ويشترون الإنتاج بأبخس الأثمان . ولكن بمرور الوقت ونتيجة للضـوابط التـي فُرضت لحماية المنتجين ، أقلع التجار عن أساليبهم الجشعة والتزموا بالمنافسة المشروعة . وفي ما قبل ١٩٥٨ كان محصول التمر يحقق أرباحاً جيدة عند بيعه في مصر ، لكن تقييد الاستيراد وسياسة التأميم الواسعة ، تسببت في إقصاء فرص المنافسة وأدت إلي كساد السوق . وهبطت الأسعار باطراد وتأثرت الصادرات إلى مصر لهذه الظروف .

ولـربما لا تُعرف شجرة في تاريخ البستنة بلغت من التأثير في الحياة

الاجتماعية والاقتصادية كما فعلت النخلة في بلاد النوبة . فقد أثرت في جوانب عديدة من حياة الناس وكان نفعها متنوعاً وبليغاً وتاماً .

وشجرة النخيل تباع نقدا بسعر جيد ، ويمكن أن تُرهن كما أن مجرد وجودها يُعدّ تأمينا اقتصاديا . فالأسر – كما رأينا – تحصل على حاجياتها اليومية من تجار القرية بالدَيْن . وطالما أن هناك نخل ، فإن التجار يضمنون استرداد حقوقهم عينا أو نقدا . وفوق ذلك فإن شجرة النخيل توهب في مناسبات الزواج .

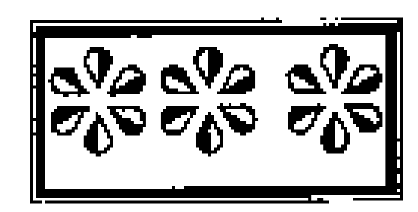
ومن سعف النخل يفتل النوبيون الحبال ويصنعون أطباق السعف والسلال والبروش وليف الاستحمام وليف تنظيف الأواني . ومن الاستخدامات الأخرى : علف الحيوان والوقود . ومن الجريد يسقفون بيوتهم وينسجون (عناقريبهم[1]) ويصنعون أقفاص الفاكهة والخضروات كما يصنعون منه العصي والكراسي والمناضد وأثاثات أخرى . كذلك فإن الجريد يستخدم في زينة المناسبات وعناقريب الجنائز الأنثوية وشواهد القبور. وقلب الشجرة التي تسقط يؤكل وهو ذو طعم لذيذ أما جريد الشجرة الفتية فيقطع ويدق لتصنع من خصلاته حبال دولاب الساقية (الألس) وبروش للسقف وحواجز الريح . ولساق النخل استخدامات عديدة في أجزاء الساقية وأخشاب السقف وأعتاب الأبواب والنوافذ وما تبقى منه يكون وقودا.ومن سعف الجريد المحزوم يصنعون المكانس والأطباق ومن ليف الساق يفتلون الحبال التي يربطون بها الحيوانات.

خلاصة القول أن البلح يؤكل رطباً أو عجوة أو تمرا ويقدم للضيوف

---

[1] السرير من الخشب و نسيجه من الحبال وهو معروف في بلاد السودان – المترجم .

ويباع للحصــول علـــى النقد، ومن البلح يصنعون المربي والخمور والخل والكـيك وشـــراب رمضان وعصيدة النفساء ويجعلون التمر التالف والمتعفن علفــاً للــبهائم والنواة وقوداً .وعلي العموم فإن دخل الأسرة يعتمد بطريقة أو بأخـــرى علي الحصيلة النقدية لحصاد البلح كما يعتمد بدرجة أقل علي فائض محصولات الدورة الزراعية .





حراثة الأرض



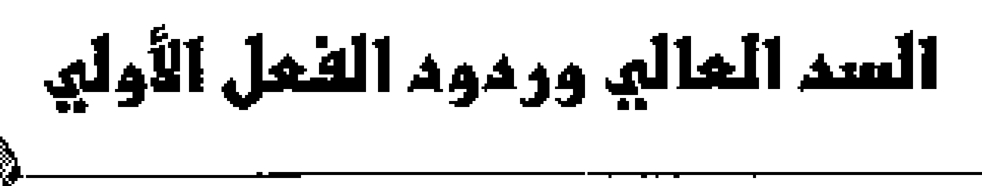
مزارعون : نساء وأطفال

حصاد

المرأة الصانعة

حصاد التمر

الفصل الثامن



السد العالي وردود الفعل الأولي

تـم توقـيع اتفاقية في ٨ نوفمبر ١٩٥٩ – بين السودان والجمهورية العربـية المـتحدة[1] لاسـتغلال مياه النيل علي أحسن الوجوه الممكنة لصالح البلديـن ، وللتحكم الكامل فيها . وفيما قبل هذه الاتفاقية كان تقسيم مياه النيل (خلال فترة الصيف) محكوماً باتفاقية عام ١٩٢٩ والتي نصت علي الحقوق الثابـتة لكل من مصر والسودان بحيث تنال مصر بموجبها ٤٨ مليارد متر مكعـب ويـنال السودان ٤ مليارد متر مكعب . ولم يؤخذ في الحسبان ٣٢ ملـيارد متر مكعب توفرها مياه الفيضان (وفقاً لمقياس محطة أسوان) لأنها تذهـب هـدراً إلـي البحر . أما الاتفاقية الحالية فتضع التدابير لحيازة المياه المهدرة وتوظفها لخدمة التنمية الزراعية في البلدين . فخزان أسوان العالي – كمـا اقترحـته مصر – يهئ الوسيلة اللازمة لتحقيق هذا الهدف، وقد اعتبر الرابط الأول لسلسلة من مشروعات تخزين مياه النيل علي مدار العام .

أكدت المادتان الأوليان من الإتفاقية الجديدة الحقوق المكتسبة للقطرين لتقسـيم مياه النيل الصيفية كما جاءت في اتفاقية ١٩٢٩ م . كما أن المادتين الأوليين من الفصل الأول (واللّتين تختصان بمشروعات التحكم في مياه النيل وتوزيـع منفعتها علي البلدين) أثبتتا موافقة السودان علي قيام السد العالي ، وموافقـة مصـر علـي إنشاء خزان الرصيرص وموافقتها علي مشروعات أخري يري السودان أنها ضرورية لضمان استغلال نصيبه من المياه .

وتقدّر المادتان : (٣) و(٤) من نفس الفصل متوسط كمية مياه النيل (حسـب مقياس محطة أسوان) بما جملته ٨٤ مليارد متر مكعب في العام . وبعد طرح الحقوق المكتسبة من مياه النيل في فتـرة الصيـف

[1] جمهورية مصر العربية حاليا – المترجم .

(٥٢ ملـــيارد متر مكعب) ثم ١٠ مليارد متر مكعب مفقودة بفعل التبخر عند بحـــيرة السد ، فإن السد العالي يوفر ٢٢ مليارد متر مكعب في العام . وهذه المـــياه الإضافية تم تقسيمها بحيث يكون نصيب السودان ٥و١٤ مليارد متر مكعـــب ، ويكـــون نصيب مصر ٥و٧ مليارد متر مكعب ، وعملاً بما نصت عليه المادة (٦) من نفس الفصل ، فإن مصر التزمت بأن تدفع للسودان مبلغ ١٥ ملـــيون جنيه تعويضاً كاملاً له عن الخسائر التي تلحق بالممتلكات بسبب ارتفاع منسوب مياه بحيرة السد إلي ١٨٢ متراً فوق سطح البحر .

وتضـــع المادة (٧) مسئولية ترحيل السكان (المتأثرين بمياه السد العالي داخل السودان) علي عاتق الحكومة السودانية وتحدد تاريخ إتمام هذا العمل بنهاية يوليو ١٩٦٣ .

إن المـــواد التـــي ســـبق ذكرها هي التي تعنينا في مادة هذا الكتاب . فالفصـــول الأخرى من الاتفاقية تتعلق بالمشروعات المستقبلية للاستفادة من المـــياه التي تضيع بالتبخر في الأطراف الجنوبية لحوض أعالي النيل ، كما تتعلق بالتعاون الفنّي بين القطرين –في هذا المجال مما لا يعنينا في شئ .

وحـــال التوقـــيع علـــي الاتفاقية ، أعلن المصريون –مباشرة –أنهم يـــنوون الشـــروع فـــوراً في تنفيذ مشروع السد العالي الذي كانت تصميماته النهائية –حينها– جاهزة . والسد العالي نفسه بناء هائل وفريد . فهو حائط مصمت من الرمل والصخور يسد مجري النهر من الضفة إلي الضفة بعرض ٣٦٠٠متر.أما جسم الخزان القائم في عمق النهر فعرضه ٩٨٠متراً وارتفاعه ١١١مـــتراً .وبنيان السد مغطي بطبقة أسمنتية سميكة وملساء لها قطاع أفقي منـــيع مواجـــه للتـــيار ومتصل بمركز العمق . أما بحيرة الخزان فتمتد إلي

مسافة ٥٠٠ كلم في اتجاه أعلى النهر، وينتظر أن تخزن –في الحد الأقصى– ١٥٧مليارد متر مكعب من المياه . وعرض هذه البحيرة يتراوح ما بين ٢٥و ١٠ من الكيلومترات ، وعمقها في ناحية أعالي النهر ٩٧ متراً كحد أقصى . وبالتالـــي فهي أضخم البحيرات التي صنعها الإنسان في العالم وتأتي –بهذه الصفة – مباشرة بعد بحيرة خزان (كاريبا) في روديسيا[١] .

كان أول من فكّر في السد العالي ، مهندس زراعي مصري من أصل إغريقـــي يدعـــي (أدريـــان دانيـــنوس) عُـــرف بخياله الخصب في مجال مشـــروعات الانتفاع بمياه النيل منذ عام ١٩١٢ . وكتب أولي أبحاثه الداعية إلي إنشاء خزان عظيم عند أسوان للاستفادة من مياه النيل طوال العام ، في عام ١٩٤٨ وذلك خلال الاجتماع الأول للمعهد المصري. وقدّر (دانينوس) الســـعة الاســـتيعابية لبحيرة الخزان الذي أقترحه في مشروع بحثه بـــ : ٥٢ ملـــيارد مـــتر مكعب . وفي سبتمبر ١٩٥٢ أعدت الحكومة الألمانية مشروع السد العالي –لمصر –في سبيل امتصاص غضبة العالم العربي علي ألمانيا نتيجة لمنحها إسرائيل مبلغ ٣٠٠٠ مليون مارك تعويضاً لها عما لحق باليهود مـــن اضطهاد إبان عهد (هتلر) . وقد تم تكليف إتحاد (هوتشيف ودورتموند) للمهندسين بألمانيا بطرحه في عطاء يشمل تقديرات التصميم والتنفيذ والتمويل وذلك في ١٨ أكتوبر . وفي ٢٢ نوفمبر قامت الحكومة المصرية بدعوة بيتيْ خـــبرة أحدهمـــا إتحاد (هوتشيف ودورتموند) لإرسال خبرائها الفنيين إلي أسوان لإعداد تصميم المشروع . وبعد عامين (نوفمبر١٩٥٤) أجازت لجنة استشارية عالمية أحد خيارات التصميم التي أعدها (هوتشيف ودورتموند).

---

[١] هي روديسيا الشمالية : كانت مستعمرة بريطانية أطلق عليها (زامبيا) بعد استقلالها عام ١٩٦٤ – المترجم .

يجلـــب الســـد العالـــي مزايا عظيمة لمصر . فمنسوب النيل عُرضة للتذبذب بين سنوات الجفاف والفيضان ، ولذلك فإن التحكم في نظامه المتقلب يعتـــبر أمراً حيوياً . وهناك تباين في قوة اندفاعه يتراوح ما بين ١٣٥٠٠ مـــتر مكعـــب في الثانية عند أسوان أثناء ذروة الفيضان ، و٥٠٠ متر مكعب عند هبوط منسوب المياه . وفي خلال الأعوام الستين الماضية تراوح متوسط اندفاع التيار ما بين ٩٥٠٠ متر مكعب في الثانية في حده الأعلى ، إلي ٤٥٠ مـــتر مكعب فحسب في أوقات الجفاف.وهكذا تغمر الفيضانات أراضي مصر المنبسطة من وقت لآخر مسببة الغرق للمدن والمزروعات . فإذا ما قام السد العالي فإنه سيكون وسيلة لتجنب هذا التذبذب عن طريق تخزين فائض المياه الذي يذهب – عادةً – هدراً إلي البحر ، كما أنه يضمن رياً منتظماً للزراعة القائمـــة وامتدادها . ويقدر المصريون أنه يمكن ري حوالي ٥ر١ مليون فدان من الأراضي الصحراوية المستصلحة حين تتوفر المياه .

ومستولد (التربينات) الإثنتا عشرة العملاقة المركبة عند الأنفاق القائمة أسفل النهر ١٠ مليارد كيلو واط من الكهرباء في العام . وهذه الطاقة الهائلة ســـتخفض تكلفة الكهرباء إلي حدها الأدنى وتجعلها متوفرة للتنمية الصناعية ولخدمـــة أغـــراض أخـــري علي امتداد القطر المصري . تلك هي الأهداف العظـــيمة التـــي سيحققها السد العالي لمصر . ولا شك أنها أهداف اقتصادية وقومـــية بالغة القيمة قصد بها رفع مستوي حياة الفلاح وإحداث تغيير جذري فـــي قـــاعدة الاقتصاد القومي ، لكن السد العالي لم يسلم من الألسنة الناقدة . ولـــربما كـــان أشهر النقّاد مواطن مصري هو (د. عبد العزيز أحمد) عالم المـــياه البارز . ففي ورقة بحث قدمها لمعهد المهندسين المدنيين بلندن ، حذّر

مـــن مغبـة فكرة السد العالي علي مصر لأنها تعني تحولاً كاملاً عن سياسة الري النيلي المتبعة تاريخياً . فالسد العالي الذي يخلو بناؤه من بوابات التحكم سـيحجز سـنوياً ١٣٤ ملـيون طن من الطمي المركّب من أخصب المواد البركانـية في العالم . وبما أن كل التربة الزراعية في مصر تتكون وتتجدد مـن رسوب هذه المادة- التي لم يخترع بديل اصطناعي لها حتى الآن- فإن الافـتقار الكامل لها سيؤدي إلي تدهور خصوبة التربة وانخفاض إنتاجيتها . كمـا أن مياه النيل الصافية والخالية من الطمي والتي ستتدفق إلي أسفل النهر من أسوان ستؤدي إلي تجريد أعماق النيل من الرواسب وتعرية شاطئيه وإلي تآكل كل القناطر المائية القائمة علي مجراه ابتداءً من أسوان وانتهاءً بالدلتا . يضـاف إلي ذلك أن نسبة التبخر والنز مع التغييرات التي يصعب التنبوء بها فـي حركة المياه الجوفية تحت قاع بحيرة السد ، ستكون هائلة إلي درجة أن مصـر ستتحصل علي كمية من الماء أقل مما كانت تحصل عليه. وعلي كل حـال فـإن الأيـام ستثبت صحة أو كذب هذه التنبوءات وستؤكد صدقها أو نزوعها إلي المبالغة. لكننا في السودان نتمني صادقين أن يعود هذا المشروع الطموح -علي مصر -بالخير العميم .

ومهمـا تعاظمت فوائد هذه الاتفاقية ، فإن آثارها الجانبية ذات طبيعة مدمّـرة . فضـحاياها هم النوبيين وحدهم ، إذ أن الجزء الأكبر من بلادهم سـيتعرض للخراب. وعلي إمتداد ١٥٠ كلم داخل السودان ، ستزحف بحيرة السد وتغمر تلك المساحات بالمياه . ففي النوبة السودانية ستغرق مدينة وادي حلفا إضافة إلي سبع وعشرين قرية بكل أراضيها الزراعية ونخيلها وآثارها التاريخـية . ويـتوقع أن يبلغ عرض البحيرة -في بعض المواقع ٢٠ كيلو

متراً من الشاطئ إلي الشاطئ . وبكلمات أخري فإن ضفة البحيرة تبعد عن ضفتها الأخرى بمسافة تتجاوز خط الأفق ، ويتوقع أن يبلغ عمقها عند وادي حلفـــا ٦٧ متراً ، فتصبح أعلي المآذن غرقي في عمق ٤٠ متراً تحت سطح المساء. وسيفقد ٥٠,٠٠٠من الناس مأواهم مما يقتضي حل مشكلتهم الإنسانية واللوجستية المعقدة والمرتبطة بترحيلهم وإعادة توطينهم قبل يوليو ١٩٦٣ .

..عندما أذيع البيان المشترك في ١٠ نوفمبر ١٩٥٩ من إذاعتي أم د رمان والقاهرة ، إنتشرت الأخبار انتشار النار في الهشيم . وكان رد الفعل الفوري إحساساً بالمرارة وعدم الرضا ، بالرغم من أن الأمر لم يكن مفاجأة للنوبيين . فاتجـــاه مصـــر لإقامة السد العالي والآثار المترتبة علي قيامه بالنسبة لمنطقة النوبة ، كانت أمراً معروفاً منذ وقت طويل لأن النوبيين كانوا يتتبعون المسألة فـــي الصـــحافة المصرية . وكانت قضية الاختلاف علي قسمة مياه النيل — والتـــي غلبـــت علي المفاوضات السابقة وانتهت بها إلي طريق مقفول – قد جعلتهم يعلّقون الأمل علي استحالة الوصول إلي إتفاق . لكن صدور البيان خيّـــب آمـــالهم . وكانت اللطمة أقسى مما يمكن احتماله ، فأصيب الكثيرون بصدمة كذّبوا فيها آذانهم وانطلقوا في الشوارع علي أمل أن يجدوا من ينفي لهم النبأ العظيم . وانتظموا في مجموعات صغيرة –يملؤها اليأس –يتبادلون وجهات النظر في ارتباك واضطراب . ولم يترك هول المحنة مجالاً لاختلاف فـــي الرأي . ولم تكن المجموعات تتفرق إلا لتلتقي من جديد ... لقد شُلَّت قواهم العقلية . وظلوا لأيام غارقين في وحل من الأوهام الكئيبة . وتلقي كبار السن– الذين سئموا الحياة– الأنباء بأنين يحسدون به أبناء جيلهم الذين سبقوهم إلـــي الـــدار الآخـــرة . وكان الناس يُرَوْن يسيرون منفردين يحدثون أنفسهم

بصوت عال .. ينظرون يميناً وشمالاً ثم يضربون كفاً بكف ويقولون إنهم لا يصدقون .. هنا نذكر قصة ذلك الرجل الدرويش (الذي عاش في مدينة حلفا) صاحب العمامة الحمراء والعصا الطويلة التي كان يشير بها إلي صخرة عند سفح جبل قرب المدينة قائلاً : إن الماء سيصل إلي ذلك العلو قبل وقت قريب . فأعتبره الناس من الصالحين الذين تحققت نبوءتهم . وألّف الشعراء قصيداً مؤثـــراً في شأن وطنهم صيغ لحناً غنته كل القرى . وأصيبت المنطقة كلها بقلـق يوشـــك أن يرديها في هاوية الهستريا . فالمستقبل مظلم والمحنة التي كانوا يولون .وجوهم شطرها كانت أشبه بيوم الحساب .

مــنذ أقــدم العصـــور كان النوبيون يتشبثون بشريط الأرض الضيق الخصـــب الممـتد علـــي شاطئ النهر ويعتمدون عليه في حياتهم السرمدية . وكانوا معزولين عن بقية الجنس البشري بصحراء قاحلة وراضين بما قسم الله لهـم من أرض وبما تنتج من رزق علي ضآلة الأرض والرزق . وروّضوا أنفســـهم علي تقلّبات المناخ : عُسرة ويُسرة ، ينعه وجدبه ، وتعلموا من ذلك قيماً نبيلة وتقاليد أخلاقية راقية . فأحبوا رمال صحرائهم وصخورها العارية . وعشـــقوا النـــيل الذي —وحده —يهبهم الحياة . وافتخروا بآثار الحضارات القديمـــة المنتشرة في أطراف قراهم : فقد اعتادوا أن يباهوا بأصلهم العريق وبـــأجدادهم الذيـــن ساهموا في بناء أولي الحضارات التي عرفها الإنسان . فالمعـــابد والكـــنائس —التـــي شيّدها أسلافهم —دليل علي صلة قديمة برب العالميـــن . والشلالات المنيعة التي تعترض مجري النهر في مواقع عديدة ، كانـــت هبة من الطبيعة ضد التدخل والتسلل الأجنبي إلي بلادهم . وبما أنهم عـــاطلون عـــن الجـــيران ، فـــإنهم حصروا أنفسهم في حدود رقعة الأرض

والمجتمع المتاح مما نمي في داخلهم إحساسا بالذاتية واعتدادا بالنفس .

في غمرة هذا الجو المفعم بالقلق والأحزان ،أعلن أن الرئيس (عبود) سـيقوم بـزيارة للمـنطقة في ٦ ديسمبر مما أدي إلي شعور بالارتياح بين المواطنيـن . فأخذوا يستعيدون عافيتهم من آثار الصدمة . وبدأ العقل يحل محل العاطفة ،وشرعوا يفكرون بجدية في وطن بديل . وملأت زيارة الرئيس نفوسهم بالأمل لأنها كانت إشارة إلي أن الحكومة قد تولت مشكلتهم ، وأنهم لم يعـودوا فريسة لمصير مجهول .. وفي الحقيقة لقد شاطرهم هذا الشعور كل مواطني السودان .

وكونـوا لجـنة محلية لإعداد استقبال طيب للرئيس في المدينة وفي القـرى الرئيسية ، لها صلاحيات بتقديم مذكرة (عريضة) تقترح فيها وطنا بديلا يتمتع بإمكانات تؤمن مستقبلا طيبا لأطفالهم ، وتطلب بها تعويضا عادلا عن ممتلكاتهم الثابتة . وفي غضون أيام قليلة زينت الشوارع ورفعت لافتات الترحيـب في مفارق الطرق الرئيسة وواجهات المتاجر . وأعدت الترتيبات لحشود جماهيرية في القرى الكبيرة.

وفـي الساعة السابعة من صبيحة ٦ ديسمبر ، هبطت طائرة الرئيس عـبود وكان في معيته نفر من ذوي الشأن من الوزراء منهم وزير الصحة : المـرحوم د.محمد أحمد علي (وهو نوبي من أهالي مدينة حلفا) . واستقبل الرئيس بحفاوة من حشد كبير تجمع بالمطار منذ ساعات الفجر . وفي الساعة التاسـعة صباحا ــ وفي ميدان وادي حلفا ووسط حشد عظيم ــ تقدم الرئيس عبود بخطوات واثقة نحو(الميكروفون) ببزته العسكرية المميزة برتبة الفريق . وكـان يحمل عصا أبنوس صغيرة ويضع علي عينيه نظارة شمسية . كان

وجهــه الوقــور هادئاً ولكن سحابة من الحزن بدت عليه . وعبّر عن شكره للمواطنيــن علــي حســن الاستقبال . وفيما كان يحاول الولوج في موضوع التهجــير ، طغت عليه عواطفه فقال في صوت متهدّج : (أثناء وجودي في الخــرطوم ، كنــت أســير الانطباع بأن وقع الحدث كان شديد القسوة عليكم فأرخيتم لعواطفكم العنان . وفكرت في المجيء إلي هنا لأقف إلي جانبكم أثناء هــذه اللحظات العصيبة . لكنني حين وقفت علي أحوالكم ، وجدتكم في روح معــنوية عالــية تقصر عنها مشاعرنا الذاتية .) .. هنا تهدّج صوته للحظات وســالت دموعــه إلــي ما تحت نظارته الشمسية. ثم أستجمع رباطه جأشه وشــرع في صوت صاف يشرح بنود الاتفاقية باستفاضة ويبيّن مزايا تطبيقها علــي القطرين . وواصل خطابه قائلا : (أعلم بالمعضلات الكبرى وبالحرج الــذي يكتنف وضعكم . غير أني أؤكد لكم أن وجداني مشغول تماما بإيجاد حل لقضيتكم الملحة، وأعلن أنني ألتزم بإيجاد حياة كريمة لكم وتعويضكم عن كــل ممــتلكاتكم المفقودة تعويضا عادلا . وليتأكد كل واحد منكم بأن حقوقه محفوظــة ومصانة .) وفي الختام أعلن عن نيته تعيين لجنة حكومية وتكوين لجــان أخــرى على المستوي المحلي للبحث في الخطوات المستقبلية لإعادة التوطيــن . وقــال : (أما بالنسبة لاختيار موطنكم الجديد ، فإنني أعد بقبول المكان الذي تختارون أينما كان في أي بقعة من السودان ، ولنه لن يجبر أحد بالرحيل إلي أي مكان دون رغبته) .

وفــي الــيوم التالي زار الرئيس قري (دغيم وأشكيت ودبيره) حيث أستقبل بالترحاب من قطاعات السكان . وفي اليوم الثالث أكمل تجواله بزيارة (أرقين وسره وفرص) علي شاطئ النيل فوق ظهر الباخرة (الثريا) ، وبذلك

غطي أكبر القطاعات السكانية للمنطقة المتأثرة بالغرق . وفي اليوم الرابع قفل راجعـــا إلي الخرطوم . وقبيل مغادرته ، تسلم الرئيس مذكرة (عريضـة) من بعض ممثلي اللجان نيابة عن السكان تحوي المطالب الإثني عشر التالية :-

١. أن تتم إعادة توطين السكان في أنسب المواقع من وجهة النظر الاقتصادية والاجتماعية والصحية.

٢. أن يتم توطين السكان بأسلوب يحفظ لهم ذاتيتهم ووحدتهم الاجتماعية .

٣. أن يتم ترحيل كل ممتلكاتهم المنقولة معهم إلي وطنهم الجديد .

٤. أن يمنح المهجّرون الحق الكامل في احتكار التنمية الصناعية في موطنهم الجديد .

٥. أن يـــتم تخطيط وتطوير –المشروع الزراعي في الموطن الجديد –بأفضل مستوي متاح .

٦. ينبغـــي المحافظة على الوحدة الجغرافية والاجتماعية للقرى كما هو قائم حاليا .

٧. يتوجـــب علـــي الحكومة طلب العون والنصح الفني من الخارج لتخطيط إعادة توطينهم.

٨. ضــــرورة إتاحـــة الفرصة لممثلي السكان لزيارة المواقع المقترحة لإعادة التوطين .

٩. وجوب تعيين نوبيين أكفاء للمشاركة في تخطيط وتنفيذ إعادة توطينهم .

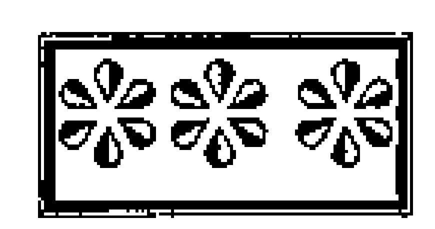
١٠.وجوب الإهتمام بتنسيق التنمية المستقبلية لمنطقة المشروع الزراعي .

١١. أهمية التخطيط والتصميم الدقيق لمنطقة إعادة التوطين الجديدة .

١٢.إعفاء كافة سكان المنطقة التي ستغمرها المياه من الضرائب باعتبار أنهم

سيواجهون مصاعب مالية أثناء فترة ترحيلهم وإعادة توطينهم .

وتعهـد الرئيس بوضع هذه الالتماسات موضع الاعتبار عند عودته إلي الخـرطوم ، ممـا جعل لزيارته أثر نفسي واضح . فتنفس السكان الصعداء وامتلأت نفوسهم بالثقة . واستطعت أن أري عودة الابتسامة إلي وجوههم وأن ألمـس نظـرتهم إلي المستقبل بتفاؤل . وباعتباري مسئولا عن إدارة المركز وجـدت نفسـي علـي رأس تجربة فريدة وممارسة ضخمة غير مسبوقة في السـودان . فكـل عملية التهجير وإخلاء الممتلكات المنقولة ــ بكل مشاكلها الإنسـانية والمادية ــ قد ألقيت علي عاتقي . وبقيت ــ فقط – ثلاث سنوات ونصـف السنة لإنجاز هذا العمل . ولذلك كان لا بد من الشروع فيه بسرعة فالوقـت مـن ذهـب . ويستوجب الأمر وضع خطة مُجدولة زمنيا وبصورة صارمة تحدد الخطوات الأولية للتهجير . وكان طبيعيا أن أصرف ذهني عن مؤانسة النوبيين وأنكفي علي مشاكلي . فهناك عمل ينبغي أن يتم إنجازه قبل أن يغادر السكان إلي موطنهم الجديد .





الرئيس عبود يخاطب أهالي حلفا



منظران لشاطئ النيل

الفصل التاسع

الإحصاء ومشكلة التعويضات

كانــت أولى القضايا بالنسبة لي، هي أن أعرف بالضبط عدد السكان المتأثرين بمياه السد العالي، الحاضرين والغائبين. ولم يكن الإحصاء السكاني الـذي أجري في عام ١٩٥٦ ذا فائدة تذكر لأنه اعتمد على (العينة) ولم يكن تعداداً فعلياً. فعدد المواشي والدواب وكمية الأمتعة والممتلكات المنزلية للسكان لم تكن محصورة. وكان علينا أن نحصر المخزونات التجارية للأسواق وفي حوانيــت القــرى، بالإضافة إلي الماكينات الصناعية مثل الطواحين وأدوات الإنتاج ومضخات المياه من أجل ترتيب طريقة نقلها إلى الموطن الجديد.كذلك كان علينا أن نعد أرقام التعويضات لكل المقتنيات الثابتة (أي تلك التي تتعلق بــالأرض.). فإحصــاء أشــجار النخـيل المعد لأغراض الضرائب لا يمكن الاعــتماد عليه لأن الملاك يدلون بأرقام أقل من الواقع للسلطات المحلية، ولا يحــوي ســوى الأشــجار الأنــثوية المنتجة . . فذكور النخل وشتولها كانت مســتثناة. كذلك فلا بد من تصنيف أشجار النخيل من حيث النوع لأن قيمتها تــتفاوت تــبعاً لــنوعها. وعلى نفس الوتيرة، ينبغي إحصاء أشجار الفاكهة وتصــنيفها. أما سجلات الأراضي الفعلية فلا تساعد علي معرفة الحقيقة لأن الأراضي – بلا استثناء – مسجلة بأسماء أشخاص توفوا منذ أجيال، ولا تحدد مساحة أي ساقية أو مشروع زراعي. وهي تحوي فقط الحصص التي يمتلكها أمــوات في مساحة غير محددة لساقية مرقّمة. ومن هنا فقد كانت هناك حاجة إلى إجراء عمليات مسح واسعة لتحديد أنصبة الأفراد من تلك الأراضي. يتبع هــذا تعيــين محــاكم شرعية لإصدار أحكام وإشهادات بتقسيم الأنصبة على الأحــياء تبعاً لقواعد الميراث الإسلامية. وهذا عمل مضنٍ ومجهد يتطلب أن تصدر تلك المحاكم قراراتها بناء على تتبع تاريخ حركة توارث الأنصبة حتى

تبلغ به الأحياء من الورثة. وبنفس الطريقة يتم تحديد ورثة أشجار النخيل. أما المساكن والحوانيت والمصانع فيتوجب إحصاؤها وتحضيرها لمرحلة التعويضات. ويتوجب- كذلك- فك الممتلكات العامة المنقولة (محطة الكهرباء وقضبان السكة الحديدية والورش وأعمدة التلفونات وماكينات مياه الشرب وخزاناتها وحوض كامل لحركة البواخر.) إلى جانب ذلك لا بد من حزم المعدات المكتبية والوثائق الرسمية. كذلك لا بد من أن يبحر أسطولنا النهري المكون من إثنتي عشرة باخرة وزورق إلى أعالي النهر ويعبر الشلالات الوعرة حيث لم يُعرف أن أسطولاً بحجمها قد قام بهذه المغامرة أصلاً. كان كل شئ تسراه العين يلقي عبئاً عليّ. وأخيراً ينبغي إجراء مسح اجتماعي واقتصادي ليساعد المسئولين في الخرطوم لتخطيط الوطن الجديد.

.. لم نُضيع وقتاً .. أعددنا الخطة الأولية وأرسلناها إلى الخرطوم مشفوعة بقائمة طويلة من الحاجيات المطلوبة للإحصاء الفوري. وفي ٢٦ يناير ١٩٦٠م صدر قرار وزاري موجّه إلى مصلحة الإحصاء لإجراء سلسلة من المسوحات الاجتماعية والاقتصادية في المنطقة المتأثرة بمياه السد العالي، كان الغرض منها جمع المعلومات التي تفيد في عملية التهجير وإعادة التوطين. غير أن عمليات المسح استوجبت أن تشمل – على وجه الخصوص – العمليات الإحصائية الآتية: (في مدينة وادي حلفا: تعداد السكان، عدد المساكن، الأثاثات، المعدات المنزلية، الأمتعة، والدواب) أما بالنسبة لباقي المنطقة فقد اتجه الإحصاء (عن طريق العينات) إلى معرفة أعداد المواشي والأمتعة وحصر الدخول والمصروفات وأنواع الغذاء .

وفـور اتخـاذ القـرار، زار المنطقة بالطائرة إثنان من كبار موظفي مصـلحة الإحصاء هما: السيد (ج.كليف) والسيد (أبو سمرة)، وقاما بإستبيان اسـتطلاعي حددا بموجبه خطة العمل. وقاما كذلك بالترتيبات اللازمة لإدارة العمل المكتبي والترحيل وتعيين العدادين. وفي اجتماع عُقِد بمكتبي، تم وضع الخطة النهائية بعد نقاش واتفاق. وبعد أسبوع عاد السيد أبو سمرة وفي معيته فـريق من المفتشين الميدانيين. وفي غضون أيام قليلة تم تعيين أثنين وثلاثين عـدّاداً محلـياً، أخضعوا لفترة تدريبية – في مجال التعداد– قدرها تسعة أيام مـنها يومـان مـن التدريب العملي. فتعلموا طريقة الحصول على الإجابات الصحيحة على أسئلة ضمنت في استبيانين للسكان وفي ثالث لعملية الإسكان. شمل الاستبيان الأول – الذي خصص للمقيمين من السكان – خمسة وعشرين سـؤالاً قصد منها الحصول على معلومات شخصية. أما الاستبيان الثاني فقد احـتوى على أحد عشر سؤالاً لا غير متعلّقة بالغائبين من السكان. ومن بين تلـك الأسئلة: هل يسجل الغائب منسوباً إلى أحد أقاربه أم أنه ترك أسرة من ورائـه؟ وأين هو الآن؟ ومتى زار المنطقة آخر مرّة؟ وعدد من يعولهم؟ .. ويخـتص الاسـتبيان الثالث بالمساكن وبالمعلومات التي تساعد لجان الحصر والتقيـيم، ويشمل الاستفسار عن نمط البناء وعما إذا كان بالحجر أم بالطوب الأخضـر أم بالطيـن أم هو عشه؟ كما يشمل مساحته وعدد غرفه. وكل هذه الاسـتبيانات تمت مناقشتها في اجتماعنا بوادي حلفا وروجعت بواسطة فريق مكون من عشرة متطوعين من جامعة الخرطوم ثم صممت – أخيراً – ميدانياً بواسطة موظفين متمرّسين من مصلحة الإحصاء .

ومــنذ الــبداية اتفقنا على أن نستهل عملنا بالتعداد السكاني وإحصاء المساكن كعملية موحّدة ثم ننتقل تدريجياً إلى القضايا الأخرى حسب البرنامج حــتى ننجز العمل كله – كما هو محدد – في نهاية أغسطس ١٩٦١م بتكلفة كلــيّة مقدّرة بمبلغ ٧٠,٠٠٠ جنية منها ١٥,٠٠٠ جنية للصرف على المرحلة التأسيسية. وكان أسطول الترحيل يتكون من خمس سيّارات (لاندروفر) وأربع شاحنات.

في هذه الأثناء قمت بطواف على كل قرى المنطقة وعقدت اجتماعات مع الأعيان والقيادات وأخبرتهم بالمسح الذي ننوي تنفيذه بعد أن شرحت لهم مــزاياه. وأوضحت لهم أن هدفه الرئيسي هو الحصول على معلومات حقيقية لتبنى عليها خطة مشروع إعادة التوطين المستقبلية، والخطوات التي تقود إلى هجره آمنة متى ما استقر الرأي عليها.

وشــددتُ على أهمية إدلائهم بإجابة صحيحة على كل سؤال وحثثتهم علــى عــدم الملل من طول الاستبيان أو الإحساس بالحرج من طبيعة أسئلته الشخصــية. ثــم أصــدرت تعليمات إلى كل العُمد وشيوخ القرى حاثاً إياهم للــتعاون معــنا وموضحاً لهم أن ظهورهم في معية فرق التعداد أثناء عملها ســيكون ضرورياً. كان نتاج هذه الاجتماعات والتوجيهات إيجابياً. وبذلك بدا واضــحاً بالنســبة لــي أن الأهالي قد أصبحوا – على الأقل– مهيئين ذهنياً للمرحلة الأولى من عملية التهجير ذات المدى الزمني الطويل.

وفــي ذات الوقــت أنهمــك ضباط الإحصاء بوادي حلفا في وضع تفاصــيل العمل على خريطة المنطقة. واعتُبرت أقسام الإدارة الأهلية قواعد لانطــلاق وحدات للتعداد. فتم تقسيم المناطق الريفية إلى أربع عشرة عمودية

وقُســمَت كــل عمودية إلى (مشيخات) تضم عدداً وافراً من القرى. ولتحقيق الهدف من عملية التعداد، قسّمت القرى إلى أحياء ثم إلى منازل كان كل منها يحمــل رقمــاً مسلســلاً وكان المنزل يعتبر الوحدة الصغرى للعمل. وصار تعــريف (المــنزل) في مصطلحات التعداد يعني ببساطة (مكان إقامة محاط بأسوار). أما المساجد والمدارس والدا خليات والمستشفيات والمباني التجارية فــلا يشــملها هذا التعريف. وتم تعريف (الأسرة) بأنها مجموعة من الأفراد يعيشــون في منزل واحد ويأكلون من إناء واحد. وحين تكون هناك زوجتين لــرجل واحــد وتأكلان من إنائين مختلفين، فإن كل واحدة منهما تعتبر أسرة مســتقلة. أما الزوج فإنه يسجّل تبعاً لزوجته الثانية، بينما تعد الزوجة الأولى عائلاً لأسرتها.

في ٢٢ فبراير إكتملت آخر التحضيرات وتم تقسيم القوى العاملة إلى ثمانــي فرق تتكون كل فرقة من مشرف وأربعة عدّادين يعملون تحت توجيه مفتش ميداني في المنطقة المخصصة لهم. وتم حزم معداتهم وأدواتهم المكتبية وحُملــت علــى شاحنات وغادروا بعد الظهر لتسلّم مواقعهم بالمناطق الريفية إيذانــاً ببدء العمل باكراً في صبيحة اليوم التالي. وتقرر أن تبدأ عملية التعداد مــن الشــمال عــند قرية (فرص) وتتجه جنوباً حتى تنتهي عند (كوشة) في مواجهة شلال (دال) .

وفــي الــيوم التالي ومع بزوغ الشمس، كان العدّادون يُشاهدون وهم يتحركون من منزل لآخر – مثل باعة اللبن – يطرقون الأبواب ويستجوبون أربــاب الأســر ويعبّــئون الاســتمارات. وفي الساعة التاسعة بدأتُ أتتبعهم للاطمئــنان علــى أن كــل شئ يجري كما يرام. كان كل شئ قد جاز على

رضاي. فقد علمت من مفتش الميدان أنهم استقبلوا من الأهالي بالترحاب، بل لـم يكـتفوا بالـتعاون معهم وإنما كان استقبالهم مشوب بالكرم. وشغل تعداد المســاكن اهــتمام الأهالي فاعتبروه تقييماً نهائياً تقوم على أساسه إجراءات الـتعويض. فكانوا يجادلون بأن ما يعتبره العدادون مطبخاً هو في حقيقة أمره غـرفة منزلـية وأن (مـراح الـبهائم) ينبغي أن يعتبر غرفة ضيوف. وفي (أشـكيت) كان هناك إصرار من الأهالي على تسجيل أساسات المنازل كمبانٍ قائمة. وعندما أوضحت لهم الأمر، اقتنعوا وأقلعوا تماماً عن إثارة هذا الجدل أثـناء سير عملية التعداد. ولعلّهم أجّلوا المجادلة إلى مرحلة لجان التقييم التي طرقـتهم فيما بعد .. في ذلك اليوم عُدت إلى (حلفا) بروح معنوية عالية لأن عملـية التعداد بدأت بنجاح. فقد كانت حدثاً بارزاً للخطوات الأولى التي نقلت النوبيين إلى موطنهم الجديد في خشم القربة .

واسـتمر التعداد لأيام من منطقة إلى أخرى. وحال الفراغ من منطقة يـتم جمـع استمارات الإستبيان لتصنيفها في مكتب الإحصاء بوادي حلفا ثم ترسـل إلى الخرطوم لتحليلها برئاسة المصلحة. وبعد أن اكتملت عملية تعداد السكان والمساكن، بدأ فوراً إحصاء أثاثات ومعدات المنازل من نقطة (فرص) أيضاً.

وفـي منتصف يوليو، تلقيت بسرور نسخة مصورّة من جداول مسح المـناطق الريفـية. وفـي أغسطس تسلّمت نسخة أخرى تحوي جداول مسح المديـنة. وتم طبع التقرير النهائي في مايو ١٩٦١ بتوقيع السيد/ أحمد عثمان إسحاق مدير مصلحة الإحصاء.

كان تقرير التعداد وثيقة بالغة القيمة. فالمعلومات التي تحويها جداولها أزالت كل غمام المجهول وأصبحنا لأول مرة على معرفة تامة بتفاصيل الوضع. فقد تم تجميع أرقام المناطق الريفية في اثنين وأربعين جدولاً، أما أرقام المدينة فقد جمعت في ثمانية وثلاثين جدولاً بالإضافة إلى أربعة رسوم بيانية. غير أن الملاحظات التحليلية كانت أكثر إثارة. وتمت مقارنة الأرقام ببعضها. ولكي لا يمل القارئ، فيكفي أن أشير إلى النتائج مع إبداء ملاحظاتي عند الضرورة.

أشار التقرير إلى أن عدد سكان المنطقة المتأثرين بمياه السد العالي يبلغ ٣٨,٤٧٨ نسمة منهم ١١،٠٥٦ نسمة في مدينة حلفا مقارناً مع ٣٦,٠٢٩ نسمة حسب تعداد ١٩٥٥/ ١٩٥٦ بزيادة ٢,٤٤٩ نسمة وهي زيادة طفيفة لا يؤبه لها. ولهذا عزا التقرير ثبات عدد السكان إلى الهجرة. وتفوق نسبة المواليد نسبة الوفيات في المناطق الريفية بمقدار ٣٩,٦ في الألف و ٣٠,٨ في الألف بالمدينة. وبمقارنة هذه الأرقام بنسبة ٣٣,٢ في الألف لكل السودان، يمكن القول باطمئنان أن عنصر الركود يعود إلى عوامل مفتعلة لا إلى عوامل طبيعية، ويؤيد هذا، العدد الكبير من الغائبين الذين يبلغون ١٤,٧٩٦ .

بدا توزيع جداول نوع الجنس والعمر غريباً. ففي كل القرى – بلا استثناء – يزيد عدد الإناث عن عدد الذكور بنسبة عالية، كما في (سرّه شرق وأشكيت وأرقين وفرص غرب وعكاشة). وتدعي قرية سرّه شرق أن عدد الإناث فيها هو ضعف عدد الذكور. ويوضح توزيع نوع الجنس على مستوى المنطقة أن عدد الإناث يبلغ ١٥,٥٦٢ في مقابل ١١,٨٦٠ من الذكور. وبالتقريب فإن نصف الذكور من السكان في الفئة العمرية (١٥ – ٢٠ عاماً)

غائبون، ويشمل هذا الرقم – بالطبع – طلاب المدارس الثانوية ومن يكبرونهم عمـــراً من الذين يتلقون التعليم في الخرطوم وغيرها. وعلى وجه العموم فإن عــدد الأطفـــال يفوق عدد البالغين بسبب نسبة الإنجاب العالية، وبالتالي فإن سكان القرى يغلب عليهم عنصر النساء والأطفال .

ويوضـــح جدول الحالة الاجتماعية أن هناك ٤,١٦٥ زوجة يعشن في كنف أزواجهن بالمنطقة، و١,٩٤٦ زوجة يعيش أزواجهن خارج المنطقة. كما يوضـــح أن عدد المطلّقات يبلغ ٣٨٣ (بنسبة عالية في الفئة العمرية ٢٠ – ٤٠) بينما يبلغ عدد الرجال المطلّقين ٨٥ رجلاً لا غير. ويعزي التحليل هذه الظاهـــرة إلى أن الرجال يتزوجون مرة أخرى بينما تضيق فرص النساء في زيجة جديدة. ولنفس هذا السبب يلاحظ أن الرجال الذين ماتت عنهم زوجاتهم (١٠٩ مــن الرجال) هم من كبار السن الذين أدركوا الستين وما فوقها. وتبدأ ســن الزواج في بلاد النوبة بالنسبة للإناث من ١١ إلى ١٥ عاماً، أما بالنسبة للذكـــور فتـبدأ من ١٦ إلى ٢٠ عاماً غير أنها تبلغ ذروتها في الفئة العمرية (٣١ – ٤٠عامـــاً). وتشـــير الأرقـــام إلى أن الإناث المتزوجات اللائي بلغن الستين وما بعدها يشكلن خُمس الذكور لا أكثر .

يـــبلغ عدد الغائبين في المناطق الريفية ١٤,٤٣١ رجلاً وهذا يعني أن عددهـــم يفـــوق المطلـــوب الكلّي من الرجال. وفي قرى (مرّه شرق وأرقين وفرص غرب وأشكيت وسرّه غرب) يتجاوز عدد الغائبين عدد المقيمين. وفي (دغـــيم وجمي وفرص شرق وعكاشة وكوشة) تبلغ نسبة الغائبين ٥٠ % لا أكـــثر. ومـــن الغريب أن (دوا شات) كانت أقل القرى في عدد الغائبين، وعند مراجعة هذه الحقيقة مع توزيع نوع الجنس والفئات العمرية للمقيمين، أستطيع

أن أستنتج بصفة عامة أن أسراً بأكملها هاجرت من (دغيم وجمي ودبيرة) بينما طالت الهجرة – عموماً – الرجال القادرين وأدت إلى تفكك الأسر.

ويُظهر الجدول الخاص بمحو الأمية أن المنطقة تتمتع بمستوى عال من الذين يقرأون ويكتبون بما لا يضارعها أي جزء من السودان (٧٥ % من الذكور والإناث في الفئة العمرية ٦ – ١٥ عاماً بالمناطق الريفية والحضرية، ٣٩ % من نساء المناطق الريفية و ٤٥ % من نساء المدينة) مقارناً بنسبة ٢٨ % من الذكور و ٨ % من الإناث – من نفس الفئة العمرية – على المستوى القومي. وفي الفئة العمرية فوق ١٦ عاماً، فإن النسبة المئوية هي ٥٣ % للذكور و ١٣ % للإناث في المدينة و ٥٥ % للذكور و ٢١ % للإناث في المناطق الريفية بالمقارنة مع ٢٢% للذكور و ٣ % من الإناث لكل السودان.وهذه الأرقام توضح المستوى التعليمي الجيد في منطقة النوبة .

ويشير جدول المجموعات الحرفية إلى أنه من بين ٤,٧٠٠ شخص يعملون بالزراعة هناك ١٥١٢ امرأة. وهذا الرقم الصاعق يوضح النسبة العالية للمرأة العاملة في بلاد النوبة بالمقارنة مع بقية أنحاء القطر مما يؤكد المكانة السامية التي تتربع عليها المرأة في المجتمع النوبي .

أما تصنيف مصادر الدخل فتوضح أن هناك ٢٦٨٥ أسرة تعتمد في دخلها على ما يأتيها من الخارج في مقابل ٣٥٩٠ أسرة تعتمد على مصادرها المحلية. فالأسر التي فيها من يقدر على الكسب لا تتلقى دخلاً من الخارج أما تلك التي تفتقر إلى من يكسب لها قوتها فإنها تتلقى العون من ذويها المغتربين.

ويمكن إجمال نتائج جداول تعداد المنازل التي بلغت ٢٨ جدولاً كما يلي:

- يبلغ عدد المنازل في كل المنطقة ٧٦٧٦ منزلاً، منها ٨٢١ منزلاً من الحجر و٩٧ من الطوب الأخضر و٦١٩٢ منزلاً من الطين و٥٦٧ كوخاً من القش.
- يبلغ عدد المنازل الكبيرة ١٧٤٠ منزلاً، أما المتوسطة فتبلغ ٣٨١١ منزلاً بينما يبلغ عدد المنازل الصغيرة ١١٢٥ منزلاً.
- يبلغ متوسط عدد الغرف في المنزل الواحد بالمدينة ٥,٨ غرفة، أما متوسط عددها في المناطق الريفية فهو ٤,٧ غرفة.
- يبلغ عدد سكان الغرفة الواحدة في المدينة ٠,٩ شخصاً، أما في المناطق الريفية فيبلغ ١,١ شخصاً.

كان الغرض من تعداد الأدوات المنزلية والأثاثات هو تمكيني – باعتباري معتمداً للتهجير – من تحديد عدد عربات السكة حديد والقاطرات الكافية – بالتعاون مع سلطات السكة حديد المحلية – لنقل أمتعة السكان إلى موطنهم الجديد عندما تبدأ عملية التهجير. ولكي أتوصل إلى هذا الهدف فقد عقدت اجتماعات عديدة مع مفتش السكة حديد السيد/ (الدريري الصاوي) ومع كبير المفتشين الميدانيين لمصلحة الإحصاء السيد/ أبو سمرة. فاتفقنا أولاً على حصر الأثاثات والمعدات المنزلية المعتادة لدى النوبيين في المدينة وفي المناطق الريفية ثم نقوم بإحالة كل وحدة منها إلى نسبة من زنة الطن المتري. ومتى ما تحصلنا على تلك النسبة كان من السهل علينا أن نحسب حمولة عربة السكة الحديد التي يبلغ حجمها ١٠ × ٢ × ٢ ١/٢ متر. وهذا المعيار – الذي تم استخدامه أثناء عملية إحصاء الأثاثات – كان الهدف منه ترجمة

كل الأمتعة المنزلية في المنطقة إلى عدد من عربات السكة حديد. وبما أن مستوى المعيشة في المناطق الريفية كان متشابهاً تقريباً، فقد اتفقنا على عدم أهمية الحساب التفصيلي للأمتعة والاكتفاء باتباع أسلوب (العينة) للوصول إلى هدفنا. ولكن التفاوت الواسع في مستوى المعيشة بالمدينة جعل من المحتم إتباع طريقة الحساب المفصل.

وجاءت النتيجة في جدولين مطولين لكل منطقة، أحدهما يبيّن عدد الأمتعة والمعدات المنزلية والثاني – وهو الأهم – يحدد عربات السكة حديد المطلوبة لكل قرية ولكل حي من أحياء المدينة. وكان عدد عربات السكة حديد المطلوبة للمنطقة الريفية ١٢٠٦ وعدد العربات المطلوبة للمدينة ٦٠١ عربة.

أما تعداد المواشي فقد تمت جدولته في تقرير منفصل يتعلق بالدخل والمنصرف في المنطقة وهو تقرير مفيد جداً بالنسبة للاقتصاد المنزلي للنوبيين. وقد كان هذا التقرير خلفية جيدة لتخطيط ملامح الحياة الاقتصادية لمشروع إعادة التوطين، وذا فائدة بالنسبة لإعداد الجدول الزمني لدفع التعويضات في وادي حلفا. ويكفي هنا أن نوضح عدد المواشي التي يحتاج إليها المهجّرون كما وردت في التقرير.

ففي المنطقة ١٩٣١٥ رأساً من الضأن و ٣٤١٤٦ من الغنم و ٢٨٣١ رأساً من الماشية و ٨٦ حصاناً و ٤١٥ حماراً و ٦٠٨ من الجمال. وبالنسبة للدواجن فهناك ٣٥٠٠٠ دجاجة و ٢٨٠٠٠ حمامة و ١٥٦٤ من البط والأوز. وعندما زار أحد مفتشي البيطرة وادي حلفا – في وقت لاحق إبان إختيار الموطن الجديد – تبيّن له أن المواشي والإبل النوبية تنتسب إلى سلالة متدنّية

بالمقارنة مع السلالات الموجودة في مديرية كسلا، فأوصانا بأن نتخلَص منها. فتحصّلتُ علـى تراخيص تصدير تُمكّن ملاك المواشي والإبل من بيعها في مصر بأسعار مجزية.

وهكذا فرغنا من عملية التعداد (التي أجرتها مصلحة الإحصاء بكفاءة وبدرجـة عالية من الإتقان) في الزمن القصير الذي أتيح لنا. وقد كانت عملاً أتـاح لـنا – بـلا شك – معلومات موسوعية عن المنطقة ذات قيمة عظيمة ساعدتنا في تخطيط عملية تهجير وإعادة وتوطين أهالي حلفا .

وفـي ذات الوقت الذي كان يجري فيه التعداد، قمتُ بتعيين سبع لجان لإحصـاء أشـجار النخيل والفواكه في المنطقة تحت إشرافه ضباط إداريين خـبراء فـي العمل الميداني وعلى دراية جيدة بمهمة تسجيل أشجار النخيل. وبناءً على طلب وجّهناه لمصلحة البساتين، قامت المصلحة بإرسال سبعة من شـايقية مروي من ذوي الخبرة الواسعة في تصنيف أشجار النخيل. بالإضافة إلـى ذلـك فقد تم توجيه كل شيوخ القرى ورؤساء السواقي لحضور عملية الإحصاء .

وفـي الاجـتماع الـذي عقد مع اللجان تم الاتفاق على اعتماد قوائم المجالس المحلية التي تحوي فقط عدد الأشجار المنتجة لغرض التعرّف على السـواقي والمّـلاّك لا غير. وتم اعتماد التصنيف التقليدي الذي يقسم أشجار النخـيل إلى: (برتمودة وقنديلة وبركاوي وجاو) كما تم تقسيم كل الأشجار – لأغراض التعويض – وفقاً للفئات الآتية وبناء على العمر والصنف :–

١– الأشجار المنتجة: بما في ذلك (الشتول) التي بلغت خمسة أعوام، وطولها – عادة – متر واحد من سطح الأرض.

٢- الأشجار غير المنتجة (الذكور)، والأشجار التي كانت منتجة في السابق وتقدم بها العمر.

٣- الشــتول التي بلغت من العمر ثلاث سنوات وأربع سنوات (على وشك الإنتاج).

٤- الشتول التي بلغت من العمر سنة إلى ثلاث سنوات.

٥- الشتول المعلّقة في الشجرة الأم وهي على وشك فصلها من أمها.

واستبعد الإحصاء الشتول الجانبية الملتصقة بأسفل ساق شجرة النخيل.

وبعــد الفــراغ مــن هــذه الإجراءات تمت طباعة الاستمارات وبدأ الإحصــاء بســهولة وغطــى ثلثي المنطقة قبل أن تتفجر أحداث ٢٢ أكتوبر الموسفة (والتي سنتطرق لها فيما بعد.) وتوقف العمل لمدة ثلاثة أشهر، ورُفع الــتقرير النهائي لي في منتصف يوليو ١٩٦١. وكان إجمالي أصناف أشجار النخيل كما يلي:

٣٧٢,٧٤٩ شجرة مثمرة.

٢٥٦,١٠٤ شجرة غير مثمرة.

٢٨,٨٠٧ شتلة لم يكتمل نموها.

٢٨,٩٣٩ شتلة صغيرة.

١٩٨,٢٥٨ شتلة لم تفصل من أمها.

بالإضــافة إلــى: ٧٤٢٢ شجرة موالح و ٣٥٤٠ شجرة فواكه أخرى. وهكــذا فــإن الشخص الواحد في المنطقة يمتلك عشر شجرات نخيل منتجة، قيمة إنتاجها ٧,٥ جنيهات في العام.

تعطـــي هـــذه الأرقام فكرة عن حجم العمل الذي قامت به اللجان التي غطـــت كـــل المـــنطقة سيراً على الأقدام تصنّف وتقيس – أحياناً – أطوال الشـــتول، ولهذا السبب فقد استطالت العملية إلا أن الناتج منها يستحق ما بذل فيه من وقت وجهد.

فـــي هـــذه الأثناء، أوليتُ اهتماما كبيراً لمشاكل ملكية الأرض. فبعد مجهـــود مضنٍ فرغ المساحون من مسح أراضي جميع السواقي وبذلك أكملنا السـجل فـيما عدا الأراضي الزراعية لعموديتي (بطن الحجر) التي لم يسبق مسحها أو تسجيلها. فتم تعيين السيد/ فرح شوربجي (مدير الأراضي السابق) معـــتمداً لتســـويات الأراضي الزراعية لقرى هاتين العموديتين. فوصل إلى المـنطقة وفـي صـــحبته فريق من المساحين ونسخة من المصحف الشريف (لأغراض القسم) وبدأ العمل في ديسمبر ١٩٦١. وبحلول شهر مارس ١٩٦٢ أكتمل السجّل ولم يبق إلا عمل القضاة الشرعيين – المتوقع وصولهم لاحقاً – للبدء في تقسيم الأنصبة والقراريط على الأحياء من الورثة.

ولإكمـــال ترتيـبات عمـل المحاكم الشرعية، استوجب الأمر إصدار إعـــلان في (الغازيتة[1]) وفي الصحف العالمية الشهيرة يدعو كل الأشخاص الغائبين الذين يحتمل أن تكون لهم أي حقوق تعويض عن الأرض أو النخل أو المنازل، لإرسال دعاواهم إلى معتمد التهجير بوادي حلفا في موعد لا يتعدى شـــهر يوليو من عام ١٩٦٠. وحال ظهور الإعلان، استقبل مكتبي سيلاً من رســـائل النوبيين المهاجرين أغلبها – بالطبع – من القاهرة حيث تعيش جالية نوبية كبيرة، ومن لبنان. ومن عجب أني تسلمت رسائل من نوبيين يقيمون في

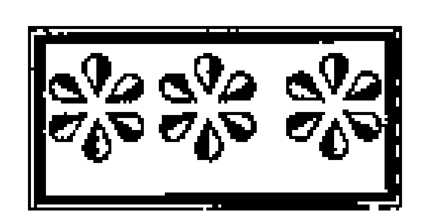
---

[1] الجريدة الرسمية التي تصدرها حكومة السودان وتسمى Sudan Gazette – المترجم.

(الولايات المتحدة الأمريكية وفي لندن وليفربول وسوانزي). وهناك رسالتان متميّزتان جاءتا من سيدني (أستراليا) وبومبي. وعندما راجعت محتويات هذه الرسائل مع ذوي مرسليها، أبدو دهشتهم لأن أولئك المهاجرين غابوا عن أهلهم لعقود من السنين وكانوا عندهم في عداد الموتى منذ ذلك الحين. وبالرغم من ذلك احتفظت بتلك الرسائل في الملف المخصص للمحاكم الشرعية.

وبدأت جلسات المحاكم – بعد ذلك – فوراً. فتم تعيين محكمتين إحداهما برئاسة الشيخ حسن الطيب والأخرى برئاسة الشيخ علي صالح (وهما من القضاة الشرعيين السابقين) يعاونهما نائبان وكاتبان. وبما أن طول الجلسات – التي ستعقد في القرى – يعتمد على عدد وطبيعة الحالات موضع النظر، فإننا لم نتمكن من وضع جدول زمني صارم لها مقدماً. ولذلك أصدرنا إعلاناً عن زيارة المحاكم للقرى بترتيب محدد يحوي فقط تاريخ بداية العمل ووجهنا أصحاب الدعاوى بتقديمها إلى المحاكم عند زيارتها لقراهم. وبالنسبة للنوبيين المغرمين بالشكاوي كانت هذه فرصتهم التي إنتظروها طويلاً. وأنتشر الشعور بالتظلّم بعد أن وجد تشجيعاً من خلال الإعفاء من الضرائب. فإذا بكل شخص – وقد ألفى المحكمة لدى باب منزله – يأخذ ورقة ويدبج عليها شكواه انتظارا للتقاضي. وتراكمت آلاف الدعاوى مما جعل عمل المحاكم يسير في بطء. وكانت إجراءات التقاضي معقّدة، وكانت سجلات الأراضي موغلة في القدم بحيث كانت المحكمة – في سبيل تقسيم تركة ما بين الورثة – ملزمة بالنظر في سلسلة من القضايا المترابطة. وفي إحدى قضايا الورثة كانت قاعدة الهرم من الاتساع بحيث تطلّب الأمر أن تصدر

المحكمـــة ســبعة وعشـــرين حكماً رجعياً. وأخبرني الشيخ حسن الطيب أن عشرين شخصاً – في صرص – جاءوا إلى المحكمة يطلبون تقسيم أنصبتهم فـــي شجرة نخيل واحدة. وكثيراً ما وجدت المحاكم نفسها تغوص في مستنقع مـــن القضــــايا التافهة وتقسيم الأنصبة في شكل كسور عشرية. ولهذا السبب جلبـــتُ إلـــى المكتـــب نصف دستة من الآلات الحاسبة كانت خير معين إبان عملية التعويضات.



الفصل العاشر

إختيار موقع إعادة التوطين

(العمل الميداني)

دعوني الآن أعود إلى الخرطوم لأقوم بتسجيل سلسلة من الأحداث التي تلت زيارة الرئيس عبود لوادي حلفا.

ففي ٩ فبراير ١٩٦٠ عيّن مجلس الوزراء لجنة لإعادة توطين أهالي وادي حلفا، تتكون من خمسة وكلاء وزارات، يمثلون وزارة الداخلية ووزارة المالية والاقتصاد ووزارة الزراعة ووزارة الري ووزارة الأشغال، وبرئاسة السيد داؤود عبد اللطيف محافظ مديرية كسلا. ولأن السيد داؤود كان إدارياً ونوبياً وأحد موظفي الخدمة المدنية الكبار فقد كان اختياره موفقاً.

كانت اللجنة بمثابة جهاز استشاري لوزير الداخلية وتختص بالصلاحيات الآتية:

١- تحديد أسلوب تنمية منطقة إعادة التوطين وتوزيعها إلى قطع سكنية وتحديد مستوى بنائها.
٢- تقدير نسب التعويض عن الأراضي في المنطقة المتأثرة بمياه السد العالي وتحديد الأسس التي تقوم عليها.
٣- التنسيق بين المصالح الحكومية المرتبطة بتنمية منطقة إعادة التوطين وترحيل الأشخاص الراغبين إليها.

وفي مطلع نفس هذا الشهر تدارست اللجنة المقترحات المتاحة لوطن بديل لأولئك الأهالي. فاختارت ستة مواقع للتعرف على مدى ملاءمتها لإعادة التوطين وهي وادي الخُوَيْ (في منطقة دنقلا) وشمال مشروع الجزيرة (جنوب الخرطوم) ومنطقة الكدرو (شمال الخرطوم) وامتداد المناقل (غرب مشروع الجزيرة) وود الحداد (بالقرب من سنّار) وخشم القربة (في مديرية

كسلا). ووجهت اللجنة كل المصالح المعنية بجمع كل المعلومات الضرورية عن كل منطقة بذاتها لتتمكن من تحديد ملاءمتها لإعادة التوطين.

وفي ٢١ مارس ١٩٦١ قام السيد داؤود عبد اللطيف بزيارته الأولى - كرئيس للجنة - إلى وادي حلفا. فاطّلع على سير عملية التعداد وأتيحت لي الفرصة لأناقش معه برنامجنا الموضوع لرصد أشجار النخيل والخطوات التي إتبعناها لوضع سجلاّت الأراضي في صورتها النهائية. ثم شرعنا في جولة خاطفة على المنطقة زرنا فيها - تقريباً - كل القرى. وفي ٢٣ مارس خاطب السيد داؤود جمعاً يقدر بـ: ٣٠٠٠ شخص بمدينة وادي حلفا. فأدلى - في خطابه - بمعلومات حول برنامج تخزين مياه السد العالي قائلاً إنه بحلول عام ١٩٦٣ ستصل الموجة الأولى من الفيضان إلى ارتفاع الكنتور[1] ١٣٥ مما يعني أن مدينة حلفا ستكون قد غمرتها المياه . وسترتفع مياه البحيرة حتى تصل الكنتور ١٨٥، وحينها ستكون المدينة على عمق ٥٠ متراً تحت سطح الماء. وأضاف إنه لا يتوقع أن ينحسر ماء البحيرة إلا في سنوات النقص الحاد في مياه نهر النيل، وحتى في هذه الحالة فإن فترة انحسار الماء ستكون قصيرة لا تسمح بالزراعة. وسيصاحب هذا الوضع، افتقار مركّب للأراضي الزراعية حول أطراف البحيرة يستحيل معه العيش والإقامة. ثم أعلن لأول مرة مواقع الخيارات الستة لإعادة التوطين وأعطى نبذة موجزة عن كل منها شملت الأحوال المناخية والتربة والري والاتصالات. وعند حديثه حول التعويضات، قال داؤود إن المسألة برمتها

---

(1) اصطلاح جغرافي يشير إلى الارتفاع منسوباً إلى سطح البحر -- المترجم .

ستكون موضع الدراسة في ضوء الأحوال السائدة في الموطن الجديد عند اختيار موقعه .

وعزا – في ختام خطابه – المكاسب الكبرى التي تحققت للإنسان إلى الهجرات السالفة في تاريخ الأمم وضرب بالأمريكيين مثلاً له مغزاه .

كان لهذا الخطاب أثره المُرضي إلى جانب تركيزه لأفكار الأهالي المبعثرة في سياق فكر محدد . فبدلاً عن الحديث عن حلفا وأشجار نخيلها، فقد طفقوا يعددون مزايا وعيوب المواقع المرشحة. وباختصار فقد أصبحوا مهمومين بقضية التهجير.

وبما أن كل المواقع المقترحة كانت ممسوحة ومدروسة من قبل بواسطة الإدارة البريطانية، فلم يكن صعباً على اللجنة أن تجمع المعلومات المطلوبة. وكانت منطقة الكدرو هي الوحيدة التي تحتاج إلى مسح وتحليل للتربة وهذا ما تم إنجازه في وقت قياسي بواسطة مصلحة المساحة ووزارة الزراعة. وهكذا – عند مغادرة السيد/ داؤود للمركز – كانت كل الحقائق والأرقام في متناول اليد. فقامت اللجنة بصياغة مذكرة مطولة تحوي المعلومات الأساسية عن كل منطقة لتكون مرشداً للاختيار النهائي للوطن الجديد. وفيما يلي ملخص للنقاط الرئيسية: –

(١) (وادي الخَوَى):

يوجد هذا الموقع على الضفة الشرقية للنيل في مركز دنقلا ويمتد من قرية (مَلواد) قبالة (الخندق) إلى (أبو فاطمة) على الحدود الشمالية للمركز. وباستثناء ثلاث قرى صغيرة فهو خال من السكان. ومعالمه الرئيسية أنه شبه صحراوي ويتميز بجبال رملية مبعثرة وكثبان تفصلها عن بعضها مساحات

صــــغيرة مـــن الأرض الطينية المنبسطة ذات درجات متفاوتة من الخصوبة وســـطحها غـــير سميك ولايتعدى عمقه في الغالب – ثلاثة أقدام. يضاف إلى ذلك نسبة الملوحة العالية في بعض أجزائه مما يستدعي عمليات استصلاح لا تنتهي .

تقــدّر المســاحة الصـــالحة للزراعة في هذه الأراضي المتناثرة بـــ: ۱۳۹۰۰۰ فدان لايمكن ريها إلا بالطلمبات (المضخّات) بكل ما يعني ذلك من تكلفـــة واستهلاك. ثم إن نسبة امتصاص التربة للماء عالية جداً مما يستوجب أن تبنى كل قنوات الري من الأسمنت.

والطقــس جاف على مدار العام مع اختلاف بيّن في درجات الحرارة بين الشتاء والصيف، مما يجعله شبيهاً بطقس وادي حلفا. وبما أن أرض هذا الموقع خلويّة فإنها خالية من الأمراض المستوطنة لكن المناطق المجاورة لها موبــوءة بالبلهارسيا والدودة الشريطية والملاريا. وإذن فهناك احتمال انتقالها إليه حال اكتظاظه بالسكان .

والمحاصيل الرئيسة التي يمكن زراعتها في (وادي الخوي) هي القمح والشـعير واللوبيا والبصلة والحمص والترمس وكل أنواع النخيل الصحراوية بالإضـــافة إلـــى الخضروات والفواكه والخروع والقنّب (نبات الخيش) والتي يتوقع أن تحرز زراعتها نتائج طيبة.

ومن الناحية الاجتماعية فإن المناطق المجاورة يسكنها الدناقلة والمحس الذين هم – في الأصل – نوبيّون يمتّون بصلة القرابة لأهالي حلفا.

(٢) منطقة الكدرو:

يقع هذا الموقع في الأطراف الشمالية لمديرية الخرطوم بمساحة تقدر بـــــ: ٥٥٠٠٠ فدان في سهل منبسط وتربته طينية سميكة مشبعة بنسبة عالية مـن أملاح الصوديوم. وفي بعض الأماكن – من الموقع – فإن التربة تختلط بنســبة عالية من الرمل والحصى، وخصوبتها تعتبر دون الدرجة الثالثة، ولا يمكن ريّها إلا بالمضخات كما هو الحال في (وادي الخوى) .

وهذا الموقع يمكن توسيعه ليشمل مساحة إضافية قدرها ٨٠,٠٠٠ فدان على الضفة الشرقية للنيل الأزرق جنوب الكدرو. لكن التربة هنا فقيرة أيضاً، كما أن المنطقة مأهولة بالسكان إضافة إلى أن الحقوق المكتسبة التي يحوزون عليها ستجعل من الصعب تمليك الأراضي للقادمين.

والظـــروف المناخية لهذه المنطقة شبيهة بالتي تسود في الخرطوم مع هطـــول أمطـــار متوســـطة. وهـــناك إمكانية لزراعة القمح والشعير واللوبيا والبرســـيم والـــذرة والبصل والخروع. ولكن وزارة الزراعة حذّرت من أن الإنتاج المتوقع لن يكون مربحاً.

تســكن فـــي المـــنطقة قبائل الجعليين والبطاحين التي تحترف تربية الحيوان .

(٣) شمال الجزيرة:

يقع هذا المكان على الحافة الشمالية الغربية لمشروع الجزيرة (المنطقة المـــروية) ويمـــتد مـــن مشـــروع (أبو قوتة) إلى قسم (كاب الجداد) بمساحة ٦٠,٠٠٠ فـــدان، وتـــتكون تربته من أرض طينية سميكة تحتوي على نسبة عالية من أملاح الصوديوم في الجزء الأوسط منه، لكن الأرض تكتسي بطبقة

من التربة ذات خصوبة من الدرجتين الأولى والثانية بالقرب من كاب الجداد وأبـــو قوتــة. ويمكن ري المنطقة كلها من امتداد المناقل وزراعة محاصيل الدورة الزراعية لمشروع الجزيرة من قطن وذرة ولوبيا.

المـــناخ هـــنا يشـــبه مثيله بمنطقة الكدرو مع هطول أمطار غزيرة. والمـــنطقة مهـــددة بالملاريا والبلهارسيا المنتشرة في المشروعات الزراعية المجاورة.

ويرحب سكان أبو قوتة وكاب الجداد بإعادة التوطين المتوقعة للنوبيين في هذه المنطقة.

(٤) امتداد المناقل:

تـــم تحديـــد هذه المنطقة لتكون امتدادا لمشروع المناقل. وهي تغطي رقعـــة من الأرض مساحتها ١٤٠,٠٠٠ فدان وتصنّف خصوبتها من الدرجة الأولى وبالتالي فإن محاصيلها ينبغي أن تتّبع النظام التقليدي للدورة الزراعية. ومـــناخ المنطقة شبيه بمناخ وسط الجزيرة وأمطاره تصل إلى ٣٥٠ ملم. أمّا الأمراض المتوطنة هنا فهي الملاريا والبلهارسيا .

وســـكان امـــتداد المناقل لا يرحبون بإعادة توطين النوبيين في منطقتهم على نقيض سكان (كاب الجداد).

(٥) ود الحدّاد :-

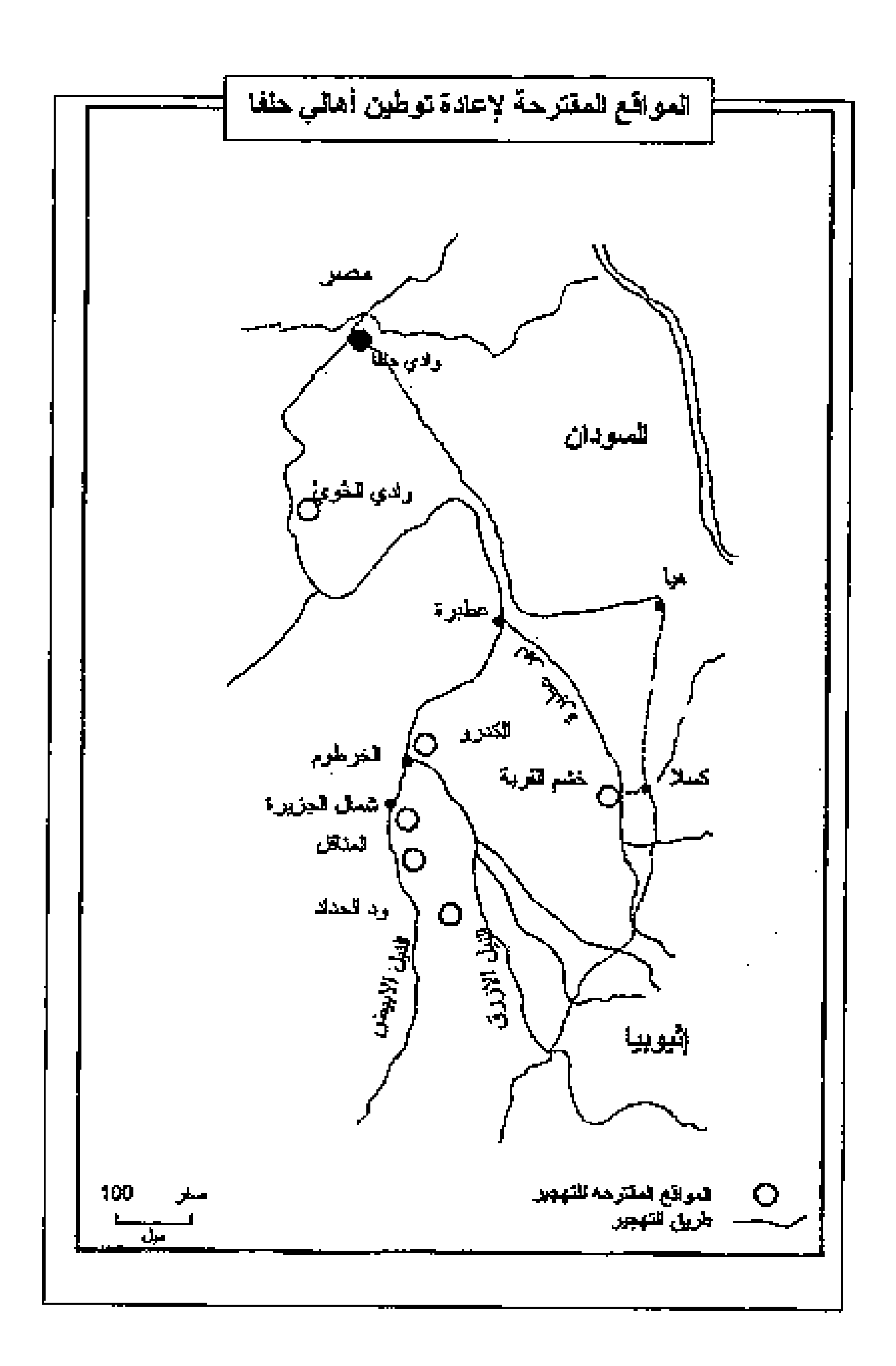
يضـــم هذا الموقع ٥٠,٠٠٠ فدان من أرض ذات خصوبة من الدرجة الأولـــى، ويقـــع في الطرف الجنوبي لمشروع الجزيرة ويمكن ريّه من القناة الرئيســـية لمشروع المناقل بواسطة المضخّات (الطلمبات) حيث يمكن زراعة محصـــولات الدورة الزراعية التقليدية بالإضافة إلى النجاح المتوقع لزراعة

الخضـــروات والفواكه. والأحوال المناخية لهذه المنطقة شبيهة بمناخ الجزيرة إلا أن الأمطار أغزر هطولاً.

وهذه المنطقة موبوءة بالملاريا والبلهارسيا والكلازار، ولا يسكنها إلا التشاديون. وهي كذلك معرّضة للإنتشار الموسمي للجدري والحمى الراجعة.

(٦) خشم القربة :-

المشـــروع المقــترح لهذه المنطقة يشمل كل السهول الشمالية لأرض الـــبطانة بمســاحة قدرها نصف مليون فدان على امتداد الضفة الغربية لنهر عطــبرة مـــن قـــرية خشم القربة (في الجنوب الشرقي) إلى قوز رجب (في الشـــمال الغربـــي). وهي منطقة ذات أرض منبسطة بكر مغطاة بطبقة طينية رقـيقة. وأثبتت تحليلات التربة أن معظم أراضي المنطقة تمتاز بخصوبة من الدرجة الأولى غير أن الخصوبة تتناقص في إتجاه الشمال الغربي إلا أنها لا تتدهور إلى ما دون الدرجة الثانية. وستروى المنطقة بقناة رئيسية تتغذى من الخـــزان المقـــترح عند مضيق النهر بقرية خشم القربة. وستخصص مساحة ١٢٥٠٠٠ فدان في أي جزء من المشروع للمقيمين الجدد، حيث يمكن زراعة القمـــح والقطـــن والـــذرة وقصـــب الســـكّر والقنّب والخروع بالإضافة إلى الخضـــروات والفواكه التي يتوقع أن يكون إنتاجها جيداً. والأحوال المناخية معتدلة طوال العام مع إختلاف بسيط في درجة الحرارة بين الشتاء والصيف (٢٦ مـــئوية في يناير و ٣٢ مئوية في مايو) ومتوسط هطول الأمطار ٣٩٠ ملم.


المواقع المقترحة لإعادة توطين أهالي حلفا
مصر
وادي حلفا
السودان
وادي الخوي
عطبرة
هيا
الخرطوم
شمال الجزيرة
المناقل
ود الحداد
الكدرو
خشم القربة
كسلا
النيل الأبيض
النيل الأزرق
إثيوبيا
100
المواقع المقترحة للتهجير
طريق التهجير

البلهارسيا مستوطنة في هذه المنطقة ومرض الزهري منتشر في القبائل المترحلة التي تجوبها. ولقرب المنطقة من القضارف فإنها ستكون جاذبة لمرض الكلازار عندما يكتمل نموها.

ويقال أن القبائل المترحلة – في المنطقة – كان شعورها مشوّشاً تجاه توطين النوبيين لكن شيوخ قبيلة الشكرية رحبوا بهم مؤخراً كجيران.

وأعدت اللجنة مُلحقاً للمذكرة أوضحت فيه أنها لم تضع خطة لتطوير وسائل المواصلات في المناطق المقترحة لإعادة التوطين، لكنها بصدد تحديد رأيها فيما يتعلق بإمكانية إقامة شبكة مواصلات في المنطقة التي يتم اختيارها تربطها بباقي أجزاء القطر. وأضافت اللجنة القول بأن مسألة تسويق الإنتاج والتنمية الصناعية تعتمد – بشكل أو بآخر – على كم وكيف الإنتاج الزراعي، وعلى الموقع الجغرافي لمكان إعادة التوطين وظروف المواصلات المحيطة به، ولذلك فقد قررت تأجيل النظر في هذه المسائل إلى أن يتم تحديد الاختيار النهائي للوطن الجديد. وقد يجد القارئ في الملاحظات التالية ما يسترعى انتباهه:

أولاً:–

لا أجد سبباً يدعو اللجنة إلى ضم منطقة الكدرو إلى قائمة الخيارات لأن كل المعلومات التي أتيحت حول هذا الموقع كانت تدعو إلى استبعاده. فمساحته ضيقة وتربته عقيمة وغير مهيأة لإنتاج أي محصول ذي قيمة. إلى جانب ذلك، فإن الأرض لا تمتاز بأي مقوّمات أخرى من أي نوع ليعتمد عليها السكان في معايشهم. ولو كان لهذه المنطقة أي إمكانية للتوسع الزراعي لما هجرها أصحاب المشاريع الزراعية في مديرية الخرطوم أمثال (السيد

علـــى الميرغني وأبو العلا ومحمد الخليفة شريف) ولما أقاموا مشاريعهم في مـــناطق بعيدة مثل (اليسطة والسوكي وبنزوقا والرنك). والصفة الوحيدة التي تميّز هذا الموقع عن بقية المواقع المختارة هي القرب من الخرطوم. وهذا لا يُغـري إلا طبقة الموسرين من الأهالي الذين قد يرغبون في إستثمار أموالهم في التجارة بالعاصمة ويعيشون حيث يكون عملهم. أما بالنسبة لأغلبية الأهالي الفقراء الذي يتطلعون إلى رفع مستواهم المعيشي وتحسين أحوالهم عن طريق الحصول على أراض أوسع تدر عليهم الفائدة، فإن هذا الموقع مخيّب للآمال. وإذا كانت اللجنة قد وضعت الأهمية الزراعية للموقع في مؤخرة إهتماماتها، فلماذا تجشمت المشاق تجوب السودان كله لتستطلع الإمكانات الزراعية؟ وإذا كانت المسألة قد إنحصرت في جانب الإسكان وحده، فما أسهل حلّها بتخطيط إمتدادات سكنية بالخرطوم أو أم درمان لاستيعاب النوبيين.

أن مجرد تضمين هذا الموقع في سلسلة الخيارات – برغم كل جوانبه السالبة – يوحي بصلاحيته لإعادة التوطين. وكما سنرى لاحقاً فقد تم استغلال هذه الصفة بصورة واسعة بواسطة الطبقة الموسرة التي حاولت تطويع الخيار ليلائم مصلحتها الذاتية.

ثانياً :-

أسـفتُ كثـيراً لعدم التفات اللجنة إلى عناصر المواصلات والتطور الصـناعي المستقبلي لكل موقع وجدواه العامة وتكلفته وعوامل نجاحه. وهذه الـنقاط بالغـة الأهمية لأنها جزء مكمل للمعلومات المطلوبة التي يتم عبرها تقييم المواقع. فمن جملة المواقع الستة – التي كانت تحت الدراسة – لم يحظ إلا (الكـدرو وود الحداد) بتسهيلات لخدمة السكة حديد. أما وادي الخُوى فقد

كان منطقة معزولة، ولو تم اختياره لإعادة التوطين لاحتاج إلى مئات الأميال مـــن الخطوط الحديدية لتربطه بالمحطة (نمرة ٦) التي تقع في وسط صحراء العـــتمور أو بـــذل مجهود عظيم لتعبيد طريق وعر طوله ٢٥٠ ميلاً لتسهيل تصدير التمور إلى السوق التقليدي في مصر. وسيكون هذا الطريق أكثر تكلفة – بـــلا شـــك – مـــن إقامة القنوات الأسمنتية. أما الامتداد الشمالي لمشروع الجزيـــرة ومشروع المناقل فإنهما خلو من خدمات السكة حديد وعاطلان عن الطـــرق المعـــبدة. غـــير أن مد الخط الحديدي الذي يربط خشم القربة بخط الخرطوم – كسلا، قد تم تضمينه في خطة مشروع هذا الخيار •

وبالنســـبة للتنمـــية الصناعية، فإن موقع خشم القربة هو الوحيد الذي سيتمتع بالإمداد الكهربائي (من الخزان المقترح) كما أن الخطة تشمل صناعة السكر وحلج القطن. غير أن المواقع المقترحة الأخرى لم يخطط لها على هذا المنوال ولم أكن أرى أملاً لذلك التخطيط – في المستقبل القريب – نظراً لأن المواد التي ستنتجها لن تفي بحاجات صناعة ضخمة •

ولو شملت المذكرة كل هذه النقاط لاتضحت الصورة الإجمالية ولسهل اتخـــاذ القـــرار النهائي. لكن دعونا نعود إلى وادي حلفا لنرى الأحوال عقب زيـــارة السيد داؤود عبد اللطيف وخطابه المفتوح، تاركين للنوبيين الإنهماك في تقليب خيارات إعادة التوطين على ضوء المعلومات العامة التي وردت في ذلـــك الخطـــاب. فمـــنذ البداية كانت وجهات النظر متضاربة، إلا أنها أخذت تتـــبلور في شكل تكتلات يسعى كل واحد منها إلى تحديد موقعه تبعاً لما تمليه مصـــلحته . فأهالي دغيم الذين كانوا الأكثر ثقافة وغنى في المنطقة الريفية، حصـــروا رغبتهم في ما يجاور الخرطوم وبالتالي تأرجحت أفكارهم ما بين

منطقة الكدرو والإمتداد الشمالي لمشروع الجزيرة. وهناك قطاع واسع من أهالـــي أشكيت ودبيره فضلوا خشم القربة بينما انحاز أهالي صرص وعكاشة وجمـــع من أهالي دبيره إلى خيار وادي الخُوى. أما أهالي أرقين وفرص فقد فضّـــلوا شمال امتداد مشروع الجزيرة. وبالنسبة لخيار المناقل فلم يجد مؤيداً لـــه. ويلاحـــظ أنـــه – حتى هذا الوقت – لم يعارض التهجير أحد، غير أن المنطقة برمتها كانت عرضة لحملة دعائية محمومة انقلبت – حالاً – إلى جو من التوتر الجسيم. كل هذا كان يجري أثناء إعداد اللجنة لتفاصيل المذكرة.

فـــي بواكير أبريل عقد السيد داوود مؤتمراً صحفياً بالخرطوم أكد فيه أن الأهالـــي ســـيختارون بحـــرية موطنهم الجديد وقال إن وفداً منهم سيزور الخـــرطوم لمقابلة المستشارين الفنيين ومناقشة القضية معهم.وسيرافقونهم إلى المناطق المقترحة ويطلعونهم على كل المعلومات التي جمعتها اللجنة عن كل موقع. ثم أضاف أن الوفد عندما يعود إلى وادي حلفا، فإن الأهالي سيحددون الخيار الذي يناسبهم. ثم قال: (إن اللجنة ستقوم بإعداد قائمة بالخيارات الستة مرتّبة حسب رغبة الأهالي، وتضعها أمام الحكومة لتتخذ القرار النهائي.) .. كانت هذه الجملة غير ذات قيمة، إذ أن الجزء الأول من البيان أعطى انطباعا بأن الخيار النهائي سيكون من حق الأهالي. فجاءت الفقرة الأخيرة لتلغي هذا الفهـــم وتضع خيار الأهالي في قالب استشاري لا غير وتجعل القرار النهائي فـــي يد الحكومة. وهذا يمثل حنثاً بالوعد الذي قطعه الرئيس عبود في خطابه الشهير بوادي حلفا.

عـــندما أطلعـــت علـــى هذا البيان في الصحف، ساورني شعور بأن الحكومة قد شرعت بالفعل في أخذ الأمر بيدها وأن داوود – الذي وجد نفسه

يــدور في دوامة – قد عالج البيان بذكاء بحيث يهيئ أذهان الأهالي تدريجياً للنتيجة النهائية. ولكن الأهالي – الذين أرضاهم الجزء الأول من البيان – لم يعــيروا إنتــباهاً كاملاً لما يناقضه من معنى في آخره، فكان تفاعلهم – على وجه العموم – إيجابياً. أما بالنسبة للجنة المحلية التي كان عليها تأليف الوفد، فقــد كــان المؤتمر الصحفي محكاً حرجاً لها لأن مقدرتها على المشاركة في مسئولية تقرير المصير ستكون عرضة للامتحان.

وأظــن أنه من المناسب أن أفيد القارئ بشيء عن اللجنة المحلية التي تصدت لمهمة قصيرة لكنها – في نفس الوقت – ذات قدر جليل في الأحداث التي يتناولها هذا الكتاب.

فــي عــام ١٩٥٤ – عندما قرّر المصريون إقامة السد العالي – كان أهالــي حلفا منتبهين إلى أن أرضهم ومستقبلهم قد أصبحا في كف القدر. ولم تُــبد حكومــة السودان – التي رأت في موقف الأهالي من بناء السد تعضيداً لموقفها التفاوضي عندما يحين وقت التفاوض حول مياه النيل – أي معارضة لهذا المشروع. لكنها كانت تدرك المخاطر التي ستقع على وادي حلفا وأهلها نتــيجة للموافقة عليه. فتم إنشاء مكتب خاص بوزارة الداخلية لتقدير الخسائر المحتملة وإعداد تفاصيل الممتلكات المعرضة للضياع – بأرقام مالية – حتى تتمكن الحكومة من الوقوف على قاعدة صلبة عند مطالبتها مصر بالتعويض، وكــان على رأس هذا المكتب السيد (محمد خليل بتيك) الإداري النوبي الذي أوكل إليه ملف السد العالي .. في ذلك الحين حصل الأهالي على إذن بتكوين لجــنة محلــية لتعمل جنباً إلى جنب السيد بتيك وتساعده في مهامه المتعددة. وحال إنطلاق العمل، بدأت مفاوضات مياه النيل. وكان وفدنا برئاسة ميرغني

حمـــزة – وهو حينئذ وزير الري – قد أحرز في بداية التفاوض تقدماً ملموساً بالقاهـرة. فقـد وافق السودان على إقامة السد العالي وبالمقابل وافقت مصر على بناء خزان الرصيرص على النيل الأزرق وخزان خشم القربة على نهر عطـبرة. ثـم إتفـق الجانـبان لاحقاً على تكوين لجنة مشتركة لتقدير حجم التعويضـات التـي ينبغـي دفعها لتغطية قيمة كل الممتلكات التي ستتعرض للغـرق فـي بحـيرة السـد داخل النوبة السودانية. ولسوء الحظ فقد تعثرت المفاوضـات – حـول مسـألة قسمة المياه – ثم توقفت. ونتيجة لذلك تم حل اللجنة المحلية. وجدير بالذكر أن نقول – هنا – أن فكرة مشروع خشم القربة قـد طرحـت – في ذلك الوقت – بواسطة السيد ميرغني حمزة لتكون موقعاً لإعادة توطين نوبيي وادي حلفا.

وعندما تم التوقيع على الاتفاقية في عام ١٩٥٩، أصبح مصير وادي حلفـا محتوماً وبرزت حاجة ماسة لتكوين كيان محلي لمساعدة الحكومة في الـتعامل مـع هذا الموضوع الحيوي والتعاون مع السلطات المحلية في حل المشـاكل المعقّدة المتعلّقة بتصفية الأملاك الثابتة وترتيب عملية التهجّير بأمن وسلام. وعندما أعلن الرئيس عبود عن زيارته لوادي حلفا، إغتنم الأهالي تلك المناسبة وكوّنوا لجنة محلية بمبادرة منهم. وضمت اللجنة فروعاً تم اختيارها على مستوى القرى بحيث تمثل كل قرية بمقعد أو أكثر في اللجنة المركزية. كذلـك تـم تقسـيم المدينة إلى أحياء ذات لجان فرعية، وجاء تكوين اللجنة المركـزية مـن ثلاثـة وأربعين عضواً بينما بلغت عضوية اللجان الفرعية الآلاف. وتـرأس اللجنة المركزية (أحمد شريف داؤود) أحد ملاك الأراضي فـي مديـنة وادي حلفا وكان سكرتيرها (عبد الرحيم محمود) أحد تجار قرية

دغيم. وبالرغم من أن التكوين كان يبدو جيداً ومعقولاً إلاّ أنني كنت أحس بأن بعض الشخصيات المهمة أبعدت نتيجة لخلافات محلية .

وفـــي ١٩ أبريل تلقيت توجيهات من لجنة إعادة التوطين تحثني على اختيار الوفد وإرساله إلى الخرطوم في غضون ثلاثة أيام. وقد استحوذت هذه الأحـــداث على العناوين الرئيسية في صحيفتنا المحلية. وفي اليوم التالي جاء إلـــى مكتبي رئيس اللجنة المحلية وسكرتيرها وقدما قائمة بأسماء أربعة عشر إسمًا وادّعيا أن الاختيار قد تم بواسطة اللجنة ليكونوا هم الوفد. وعند إطلاعي على الأسماء، لم يراودني شعور بضرورة استبعاد أي منهم لكنني لاحظت أن المؤيدين لخيار مناطق ما حول الخرطوم كانوا يشكلون تمثيلاً عالياً. فأخبرتهم أنني سأقبل القائمة ولكنني احتفظت لنفسي بالحق في إضافة أسماء أخرى حتى تـــتوافق مع المهمة المقررة للوفد المسافر إلى الخرطوم وتتماشى مع الأهمية الملقـــاة علـــى عاتقـــه. فرفضوا قبول وجهة نظري بحجة أنهم هم الممثلون المفوضـــون من قبل الأهالي ويعترضون على إضافة أي شخص إلى القائمة التـــي تقدموا بها وإلا فإنهم – إذا أصررت على رائيي سينسحبون. وعندما شعروا بإصراري على وجهة نظري، خرجوا من المكتب محبطين وقد خاب رجاؤهم. عندها تبين لي – حقيقةً – أنهم كانوا يعترضون على ضم أسماء لا تتماشـــى مـــع رغباتهم. وكان هذا مؤشراً واضحاً على أن الخلافات المحلية بـــدأت تلقي بظلالها على قضية التهجير. وفي اليوم التالي دعوتهم إلى مكتبي وبعـــد حديث طويل اقتنعوا بوجهة نظري وسحبوا اعتراضهم. وتمت إضافة ثمانية أسماء ليرتفع الوفد إلى أثنين وعشرين عضواً من ضمنهم السيد (علي أحمد علي) ممثلاً لطبقة المتعلمين والسيد (جريس) ممثلاً لمنطقة السكوت التي

ستتأثر بمياه بحيرة السد، والشيخ صالح عيسى عبده (صالحين) رئيس الإدارة الأهلية في المنطقة. ثم عينتْ السيد محمد علي عبد الرحمن الضابط التنفيذي للمجلس الريفي لمرافقتهم كضابط ارتباط. وفي ٢١ أبريل غادر الوفد محطة وادي حلفا وكان في وداعه حشد كبير مبتهج من الجماهير.

وعند وصول الوفد إلى الخرطوم قام بزيارة مجاملة إلى القصر حيث عقدوا اجتماعا ودياً مع الرئيس عبود وألقى أحمد شريف خطاباً مطولاً رد عليه الرئيس مؤكداً لهم أن قضيتهم تأتي على رأس همومه وأنه قرر تعويضهم بوطن أحسن ذي تخطيط حديث وبمستوى جيد من الخدمات وبمشروع إعاشي يضمن مستوى أفضل من المعيشة لهم ولأجيالهم القادمة. وأفادهم كذلك أنه قد وجه كل المصالح الحكومية والوزارات لتركيز جهودها وطاقاتها من أجل بناء وطن النوبيين الجديد، ولإعطائه الأسبقية على كافة مشاريع التنمية الأخرى. ثم عقد الوفد – بعد ذلك – اجتماعا مع لجنة إعادة التوطين وقف فيه على كل المعلومات المتاحة عن المواقع المقترحة. وتبع ذلك نقاش مطول مع المستشارين الفنيين – الذين شرحوا كل شئ وأجابوا على الأسئلة. وفي ٢٨ أبريل شرع الوفد بصحبة المستشارين في جولة على تلك المواقع .

في منطقة الكدرو أكد الخبير الزراعي عيوب التربة وعدم ملاءمتها للتنمية الزراعية ثم أفادهم أن إنتاج سواقي الخرطوم بحري هو الأسوأ في سجل وزارته. بعد ذلك أنتقل الوفد بالسيارة إلى الإمتداد الشمالي لمشروع الجزيرة. وفي قرية (كاب الجداد) تجمع الأهالي في حشد كبير على امتداد الطريق للترحيب بالوفد ترحيباً حاراً. ورفعوا شعارات مثل (عاش البرابرة)

(مرحـــباً بكم في دارنا لتنمية المنطقة من هنا إلى الخرطوم) ومر الوفد عبر السـهل المقترح لإسكانهم ثم قام بزيارة قصيرة إلى قسمي (الفراجين) (وأبو قوته) حيث وقفوا على مساكن المزارعين. ولعل الإنطباع الحسن الذي تركته هذه المساكن في نفوس الوفد بالإضافة إلى الاستقبال الحافل الذي لقيه في كاب الجـداد ، قد نزلا برداً وسلاماً على موفدي أرقين. أما بالنسبة لمنطقة المناقل فقد اتصف انطباع الوفد باللامبالاة. ثم استقل الوفد القطار إلى ود الحداد حيث عمقت إقامة بعض العناصر التي تقطن هذه الناحية، المخاوف حول الأوضاع الصـحية والأمنية فيها. وبعد قضاء وقت قصير في القضارف، واصل الوفد رحلته إلى خشم القربة حيث استراح قليلاً ثم توجه مباشرة إلى الموقع المقترح للخزان. وهناك كانت رؤية نهر عطبرة أول تجربة لمعظم أعضاء الوفد وكان مـنظر (الكَـرَب) وهي سلسلة واسعة من الكثبان الترابية ذات أخاديد عميقة غريـبة الشـكل، قد ترك أثراً سالباً في نفوسهم وقال لي العمدة صالحين عند عودتـه: (لقد ذكرتني تلك التضاريس بالمنفى الذي كان سيدنا سليمان يحبس فـيه الجن.) وكان ما قاله يتفق مع انطباعي عندما رأيتها في وقت لاحق. ثم قـام الوفـد بجولـة طولها خمسون ميلاً عبر منطقة المشروع المقترح وهي أرض قفـر منبسـطة خالـية مـن الحياة سوى ما يتراءى للعين من سراب يتراقص على مد البصر. وتوقف الوفد في منتصف المنطقة لاختبار خصوبة التربة. كان الموسم أواخر أيام الجفاف حيث لا تبدو أي آثار لعشب مما أثار شـكوك صالحين فسأل عن هذه الطبيعة الجرداء فأجابه الشيخ محمد حمد أبو سن ناظر الشكرية (الذي كان يرافق الوفد) بأن المنطقة كلها – أثناء الخريف – تكتسي بخضرة غنية بالمرعى تتجول فيه قطعان إبلهم. فابتسم – عندها –

صــالحين وقــال (لكني لا أرى أي بعر يؤكد هذا الزعم). وكانت ملاحظته صادقة لأن تلك الناحية بالتحديد كانت خالية من البعر، لكن إفادة الناظر كانت أميـنة أيضـاً. وجادل محي الدين محمد عيسى – الذي انحاز لخيار (وادي الخَـوَى) وكان عدواً لدوداً لخيار خشم القربة – جدالاً عنيفاً مع خبير التربة مدعـياً أنــه يملــك معلومات خاصة لا يتطرق إليها الشك بأن طبيعة أرض المشـروع الجيولوجية تتكون من طبقة رقيقة من التربة لا يتجاوز عمقها قدم واحــد تليها طبقة صلبة من صخور البازلت. وقال إنه يراهن بحياته إذا ثبت بالاختـبار أن معلوماتــه غير صحيحة. وبالتأكيد فإن الخبير قد أنزعج لكنه أجــاب بهــدوء قائلاً إن الحكومة – لو كان الأمر كما وصف – لا يمكن أن تكــون من الغفلة بحيث تنفق من الدخل القومي كل ذلك المال لتنمية المنطقة المعنية. بعد ذلك استقل الوفد حافلة حديثة إلى مدينة كسلا .

وعــبر طـريق وعِر فوق (الكَرب) ثم عبور قنطرة البطانة على نهر عطــبرة، اجتازت الحافلة سهلاً شبيهاً بمنطقة خشم القربة بينما بدا في الأفق جـبل كســلا الذي اتضحت معالمه عند المرور (بالحاجز) و (ملوبّة). وفجأة تغير المنظر وبرزت للعيان حدائق (جناين) كسلا الغناء الجميلة وهي تحتضن ضفتي نهر القاش. هاهنا – أخيراً – وجد الوفد ما يذكّره بوادي حلفا البعيدة. وفيما عــدا مجرى القاش الجاف – تبعاً للموسم – فإن كل ما رآه الوفد في كســلا كان ينبض بالحياة والجِدّة. وبقي الوفد قليلاً في هذه المدينة الخضراء، ثــم استقل الحافلة في رحلة مدتها سبع ساعات – عبر سهل البطانة الذي كان حيــنها خشناً وخالياً (نظراً لطبيعة الموسم) إلا من شجيرات الطلح المتناثرة –حــتى حطّــت رحالها بالخرطوم. وكانت هذه الحافلة تشاهد لأول مرة في

العاصمة، ولم يكن الوفد يدري أنه يفتح بها أول رحلة ما بين الخرطوم وخشم القربة الوطن الذي أصبح قدراً ومصيراً.

أمـــا رحلـــة أعضـــاء الوفد إلى (وادي الخُوَيْ) فكانت قصيرة وأكثر راحـــة. فقد استقلوا طائرة خاصة إلى دنقلا ثم إلى (وادي الخُوَيْ) بالسيارات حيـــث ألقـــوا نظرة على المكان وعادوا إلى الخرطوم في ذات اليوم. وفي ٧ مايو عاد الوفد إلى وادي حلفا.

أثـــناء غـــياب الوفـــد، كـــان الأهالـــي يتابعون تحركاته باهتمام بالغ ويستفسرون عن نتائج الرحلة وظلوا يترقبون الوصول إلى قرارات إجماعية مـــن خلال مقابلة الوفد للجنة إعادة التوطين ودراسته للتفاصيل التي وضعت بيـــن يديه للمواقع المقترحة، لكن – ولسوء الحظ – فإن أغلب أعضاء الوفد جـــاءوا كمـــا ذهبوا. ويبدو أنهم قد غادروا بأذهان خالية وبخيارات مسبقة لم تزحـــزحها المعلومـــات التـــي أدلت بها اللجنة ولا ما شاهدوه خلال رحلتهم الطويلـــة المضنية. ولعل الاختلاف الأوحد هو أن بعضهم – ربما – يكون قد جمـــع حججـــاً يســـند بهـــا الخيار الشخصي الذي يميل إليه، وينتقد بها بقية الخيارات. فجاء بعضهم بأفكار خيالية لتنفيذها في المواقع التي يفضلونها مثل بـــناء خـــزان علـــى الشلال الرابع أو شق قناة طولها ٥٠٠ كلم لري وادي الخـــوَيْ. ولقـــد ســـمعت بمشروع آخر لبناء مدينة جديدة لحلفا على الضفة الشـــرقية للنيل الأبيض جنوب الخرطوم في الجهة المقابلة لخزان جبل أولياء من الناحية الجنوبية، حيث يمكن إقامة مركز لصناعة سمكيّة تغذي كل القطر.

قـــام أعضاء الوفد --- بعد عودتهم – بالاجتماع إلى مؤيدهم في القرى وكشـــفوا لهم انطباعاتهم. وتم حسم تردد أهالي دغيم في اجتماع كبير بالقرية

قـــرروا فـــيه تأيـــيد خيار موقع الكدرو. وبعد أيام قليلة جاءني بمكتبي أحمد شـــريف داؤود لإبلاغـــي بأن (لجنة الدراسات) التابعة لهم والتي تتكون من ممثلـــيهم فـــي الوفـــد قامت بعقد اجتماع بحثت فيه كل جوانب زياراتهم إلى المواقـــع المقترحة وأصدرت إعلاناً بكل الحقائق المتوفرة عن تلك الزيارات والانطـــباعات التـــي خرجت بها. وسلمني نسخة من الإعلان فقمت بمراجعة محـــتوياته فـــي ضـــوء الحقائق الواردة في مذكرة لجنة إعادة التوطين التي تســـلمتها أثناء غياب الوفد. فوجدت الحقائق مطابقة لما جاء في الإعلان فيما عدا التضارب الذي أكتنف تحديد نوع خصوبة الأرض في منطقة الكدرو. فقد جعلهـــا إعلانهم من الدرجة الأولى. ولاحظت أيضاً أن هناك مبالغة كبيرة في تصـــوير مخاطـــر الكلازار بخشم القربة. وعندما استفسرت عن أسباب هذه الأخطاء، أخبرت أنهم قد حصلوا على المعلومات من أحد أقاربهم الذي يعمل بـــوزارة الـــزراعة. وزادت دهشـــتي عندما علمت من داؤود أنهم بدلا عن الاعـــتماد الكامل على المعلومات الواردة بالمذكرة – لجأوا إلى وجهات نظر رفـــاقهم في مختلف المصالح الحكومية بالخدمة المدنية بالخرطوم باعتبارهم (خبراء خصوصـيين). وفاقم هذا التصرف من شكوكي وشوش – في الحقيقة – أفكاري. فقلت لداؤود إنكم إن كان بعضكم يفضل العيش في الخرطوم فإن باســـتطاعتهم أن يفعلـــوا ذلك بما يحلو لهم، لكن تضليل جماهير البسطاء من الأهالي ليختاروا أرضاً جرداء لا مستقبل لها، سيؤدي إلى خلق وضع خطير ومأســـوي. وعندما غادرت مكتبي، قمت بنشر المذكرة الرسمية في صحيفتنا المحلـــية ووزعتها على أوسع نطاق في القرى حتى يعلم الأهالي الحقائق من مصادرها الرسمية.

وبعـــد أيـــام قلـــيلة حددت لجنة إعادة التوطين يوم ٣٠ يوليو موعداً لاختـــيار موقع الوطن الجديد. وحال صدور هذا الإعلان ماجت المنطقة كلها بحركة دعائية متضاربة أخذت تتصاعد كلما أقترب التاريخ المضروب. وأخذ أهالي دغيم – معتمدين على سبقهم التعليمي وقيادتهم التقليدية للمناطق الريفية بالإضـــافة إلى تشجيع رئيس وسكرتير اللجنة المحلية – يبذلون جهوداً كبيرة لحشد تأييد كل السكان لخيار الكدرو. ولم يحرز محي الدين ومؤيدوه أي تقدم ظاهر لخيار وادي الخُوَىْ. أما مؤيدو خيار خشم القربة فقد أزعجتهم الدعاية القويـــة المنطلقة من المعسكرات الثلاثة الأخرى المتضامنة والقائلة بأن خيار خشـــم القـــربة جـــاء مفروضاً عليهم من الحكومة منذ ١٩٥٤. ولكي تحبي الحكومة هذا الخيار فإنها لوحت بمشروع زراعي ضخم يبرر ضمه إلى قائمة الخيارات. فكان الدفاع عن خيار خشم القربة يعني بالضرورة أن مؤيديه غير وطنيين وهذه نظرية سادت طويلاً – على أقل تقدير – بعد خروج البريطانيين مـــن السودان. ثم ماذا عن مرض الكلازار هذا الداء المرعب الذي لا يحتاج تصوير خطره إلى مبالغة، فالأمثلة الحية التي يعرفونها تكفي. وكمثال لذلك ما جـــرى للشيخ (عبد الرحيم أحمد همت) المنتسب إلى قرية سمنة ولعشرين من رفاقه حينما ذهبوا إلى (قلع النحل)[1] بغرض احتراف الزراعة في العشرينات من القرن العشرين. فقد أصيبوا بهذا الداء الفتاك وذهب رفاقه واحداً إثر آخر إلى الدار الآخرة. أما هو – لحسن حظه – فقد عاش ليروي هذه القصة. ولذلك فـــإن المعارضين لخيار خشم القربة يقولون إن منطقة الجوار يقطنها الهدندوة ذوو الشـــعور الملـــبّدة والسيوف والخناجر والعادات المتوحشة. وهناك أيضاً

---

(1) تقع في الضواحي الجنوبية لمدينة القضارف وعلى بعد ٣٢٠ كلم من خشم القربة.

عـــرب الزبـــيدية الذيـــن يعيشون قرب المنطقة وهم قوم بدائيون وماكرون. وبرغم كل هذه الحجج القوية والواسعة الإنتشار، فإن أنصار خيار خشم القربة – من سكان أشكيت ودبيرة – ظلوا صامدين على خيارهم.

ومـــع أن أهالي دغيم قد جنبوا إلى معسكرهم بعض أحياء المدينة – وهـــي فـــي الغالب تلك التي يسكنها مصريون نالوا الجنسية السودانية وكانوا علـــى غـــير وفـــاق معهـــم في السابق – إلا أنهم ظلوا أبعد ما يكونون عن الانتصار لخيارهم. ولأنهم قدروا احتمال فشل مساعيهم وأدركوا ضيق الوقت، فقد غيّروا (تكتيكهم) واتبعوا أسلوب المناورة. فوجهوا الدعوة – في ١٧ يوليو – إلى بعض الأعضاء المؤثرين في لجنة أرقين الفرعية لاجتماع بمنزل عمدة دغـــيم بغـــرض التأثير عليهم للتنازل عن خيارهم (شمال مشروع الجزيرة) والوقـــوف معهـــم. وقـــبل الأعضاء الدعوة وحضروا إلى منزل العمدة حيث وجـــدوا في إنتظارهم سبعة عشر من الشخصيات القيادية من ضمنهم رئيس وسكرتير اللجنة المحلية. ودار نقاش مطّول – كانوا خلاله عرضة لكل أنماط الضـــغوط والإغـــراءات – لينســـحبوا من خيارهم ويساندوا خيار (الكدرو). وأصـــمّ أهالي أرقين آذانهم ورفضوا الاستسلام، وفي نهاية الأمر عادوا إلى القـــرية وأذاعـــوا ما حدث باعتباره مؤامرة مفضوحة خطط لها شريف وعبد الرحـــيم للتأثـــير علـــى حرية اختيارهم وتحويل ميزان القوى لصالح خيار الكدرو. وولّدت هذه الحادثة شعوراً بالكراهية في أرقين وأدت إلى بروز آثار سالبة لدى مؤيدي خيار وادي الخوّىّ وخيار خشم القربة الذين تجاهلهم أهالي دغيم. وفي الاجتماع التالي للجنة المحلية التهب الجو بملاحظات لاذعة حول تصـــرف أعضاء اللجنة الفرعية لدغيم واتهامات صريحة للرئيس والسكرتير

باتــقاء حــيادهما. وارتفعــت حــرارة النقاش إلى درجة أن عدداً كبيراً من الأعضاء هدد بالاستقالة.

وفــي الاجــتماع التالــي طرحت اللجنة للتصويت موضوع الاختيار النهائــي للوطــن الجديد، بحيث يملك كل عضو من أعضاء اللجان الفرعية صــوتاً واحــداً وذلك بأن يكتب العضو – يوم التصويت – خياراً واحداً على الورقــة المخصصة ويلقي بها في صندوق الاقتراع. وبنهاية عملية التصويت يــتم (تشــميع) الصــناديق بواسطة اللجان الفرعية وترسل – تحت حراسة الشــرطة – إلــى رئاسة المجلس الريفي بمدينة وادي حلفا حيث تقوم اللجنة الفرعية المعنيّة وبحضور عمدة المنطقة بإحصاء الأصوات لتحديد خيار واحد بالأغلبــية (أي صــوت واحد لكل لجنة فرعية) ثم ترسل النتيجة إلى مفتش المركز ليبعث بها إلى الجهات المسئولة في الخرطوم.

وفــي اجتماع قصير عقد مع ضابط الشرطة يوم ٩ يوليو، أعددنا كل الترتيبات لوصول رجال الشرطة إلى مراكز الاقتراع وتجهيز وسائل الترحيل لــنقل صناديق التصويت وتسليمها إلى مدينة وادي حلفا. وتم الفراغ من كل هــذه الترتيــبات في نفس اليوم وعند غروب الشمس كان كل رجال الشرطة وسياراتهم على أهبة الاستعداد في مواقعهم .

ثــم جاء يوم ٣٠ يوليو الذي لا ينسى .. كنت أخشى من أن يقال إنني تدخلــت في عملية الاقتراع، ولذلك لزمت مكتبي وأخذت في متابعة التقارير التــي كانــت تصلني على فترات من الشرطة المتمركزة في القرى المختلفة. وفــي الســاعة الثالــثة عصراً انتهت عملية الاقتراع، وكان يبدو أنها سارت بطريقة مرضية في كل المنطقة فيما عدا الحادث المثير الذي جرى في قرية

دبـــيرة. فقد انقسمت اللجنة الفرعية هناك إلى ثلاثة معسكرات لكل منها قائدة. وانحـــاز معسكران إلى خيار (وادي الخُوّيَ) ولكن – بسبب حزازات قديمة – رفض قائدا المعسكرين: محي الدين محمد عيسى والعمدة داؤود عبد الرحمن الاندماج رغم هدفهما المشترك. وفي عشية يوم الاقتراع حدث احتكاك خفيف بين الجهتين أثناء سعي كل جهة لاستمالة ناخبين على حساب الجهة الأخرى. وفـــي الـــيوم التالـــي أخّر النزاع ظهور الفريقين في مراكز الاقتراع لبعض الوقـت. ووفـــر هذا فرصة ذهبية للشيخ محمد أحمد عواض – قائد المعسكر الثالث – الذي كان يؤيد خيار الإمتداد الشمالي لمشروع الجزيرة. فعندما رأى خصـــميه يتنازعان، اغتنم الفرصة وجمع أنصاره البالغ عددهم مائتين وسبعة وثلاثيـن شخصاً ووجههم للتصويت مع سبعة وأربعين شخصاً آخرين لخيار خشـــم القـــربة. ونسبة لضيق الوقت لم يستطع أحد عشر من المؤيدين لخيار (وادي الخُـــوّيَ) الإدلاء بأصـــواتهم إلا بشـق الأنفس. وبعدها أسرع الشيخ عـــواض بتشـــميع الصندوق وقام بتسليمه للشرطة التي حملته بحسن نية إلى مدينة وادي حلفا. وعندما هدأ العراك بين المعسكرين الآخرين واتجه الناخبون للاقـــتراع تملكهـــم الغضب عند اكتشافهم للخدعه فارسلوا شكوى عاجله الى رئـيس اللجنة المحلية الذي جمع عدداً من أعضاء اللجنة وأسرع إلى دبيرة. وبعد تحقيق قصير اتخذوا قرارهم لصالح عواض وبذلك تم إسدال الستار على المسألة .

امتـــنع (الأصولية) و (عرب العقيلات) – وهم سودانيون من أصول مصـــرية ويســـكنون فـــي الســـوق بمدينة حلفا – عن التصويت بحجة أنهم

ينـــتظرون نتيجة المفاوضات بين السودان ومصر حول الميناء المستقبلي — الذي سيحل محل وادي حلفا – على ضفة البحيرة .

وفــي المـــاعة السادســة مســاءً اجتمعت كل اللجان الفرعية بقاعة اجــتماعات مجلس المدينة لإحصاء الأصوات. وبدلا عن إحصاء أصوات كل لجنة فرعية بطريقة مستقلة عن غيرها للتحقق من اختيارها الذاتي، تم إحصاء الأصوات إجمالاً وكانت النتيجة كما يلي:

	عدد الأصوات
خيار منطقة الكدرو:	٢٠٠٦
خيار شمال إمتداد الجزيرة (جنوب الخرطوم):	١٣٥٤
خيار (وادي الخَوَىْ):	٧٨٣
خيار خشم القربة:	٣٤٩
خيار سنار:	٢
خيار المناقل:	—
الممتنعون عن التصويت:	١٢٦

(بالإضــافة إلــى صوتين اقترحا إرجاع الأمر برمته إلى الحكومة لتتخذ فيه القــرار النهائي). وجدير بالذكر أن لجنة دغيم الفرعية وحدها قد اقترعت بما جملته ١١٢٥ صوتاً منها ٩٦٤ صوتاً ذهبت لخيار منطقة الكدرو.

جــاءت هــذه النـــتائج بمثابة مفاجأة غير سارة لأهالي أرقين، لكنهم اكتشــفوا أن اللجنة قد قامت بإحصاء الأصوات بطريقة تتعارض مع الأسس المتفق عليها مسبقاً. فقد كانت تلك الأسس تمنح كل لجنة فرعية صوتاً واحداً، بــدلاً عن صوت لكل شخص. فاتهموا قيادة اللجنة وأعضاء لجنة قرية دغيم

بعدم الأمانـة وطالـبوا بإلغاء نتيجة التصويت ومنح كل لجنة فرعية خياراً واحـداً. وأيّـدت هذا الطلب مباشرة اللجان الفرعية الأخرى. وهكذا بدت في الأفق بوادر أزمة حقيقية لأن أهالي (أرقين)، هددوا بالانسحاب ما لم يصحح الوضع ويتم إحصاء الأصوات على النسق المتفق عليه. ولم تجد قيادة اللجنة مبرراً لخرق أسس الاتفاق فانصاعت إلى هذه الطلبات.

وتم إجراء إحصاء جديد للأصوات يأخذ في الاعتبار إعطاء كل لجنة فرعية صوتاً واحداً فخرجت النتيجة كما يلي :-

١- خـيار (الامتداد الشمالي لمشروع الجزيرة) أيّدته اللجان الفرعية للقرى الآتية: أرقين ، دواشات ، دبروسة ، أشكيت ، دبيره ، سرة شرق ، سره غرب ، فرص شرق وحي الجبل في مدينة وادي حلفا .

٢- خـيار (منطقة الكدرو): أيّدته اللجان الفرعية في: جمي ، دغيم ،- حي العباسية ، حي العرب ، حي البصاولة ، فرص غرب.

٣- خـيار (وادي الخّـوَى): أيّدته اللجان الفرعية في: عكاشة ، صرص ، أركويت ، النوبة.

وفـي الساعة التاسعة من صبيحة اليوم التالي حضر إلى مكتبي أحمد شـريف داؤود: رئـيس اللجـنة وتقـدم إليّ بوثيقة توضح نتائج التصويت بالطريقتيـن وأطلعني على ما جرى في الليلة الفائتة. وأخبرني أن اللجنة قد أجازت خيار الامتداد الشمالي لمشروع الجزيرة والتمس مني نقل هذه النتيجة إلى الخرطوم.

هنا أود أن أكمل الصورة بإيراد ملاحظاتي الخاصة وتعليقي. فقد كان تكويـن اللجنة لا يخلو من غرابة، خاصة في مستوى اللجان الفرعية، إذ أن

عــدد أعضــاء كل لجنة فرعية كان كبيراً جداً بالمقارنة مع عضوية اللجنة المركــزية. ففي قرية صغيرة مثل صرص كان عدد الأعضاء ٤٣١ عضواً. وفــي حــي الجــبل وهو منطقة سكانية صغيرة بالمدينة – كان العدد ١٦٥ عضواً. أما دغيم التي كانت الأكبر في المنطقة الريفية فقد بلغ أعضاء لجنتها ١١٢٠ عضــواً. ويتساءل المرء عما إذا كانت أيٌ من هذه اللجان الفرعية قد عقدت اجتماعا قبل عملية التصويت. وبالإضافة إلى ذلك فإن تحديد العضوية بالمقارنــة مــع عدد سكان القرية قد بُني على تقدير تخميني لا على دراسة علمــية. ولــو كانت اللجنة ترغب في معرفة عدد سكان كل قرية لأسعفناها بأرقــام الإحصــاء السكاني لعام ١٩٥٥/٥٦، ولكنها فضلت أن تقوم بتوزيع عضــوية اللجان بالطريقة التي تحلو لها فوقعت في أخطاء شاذة مثل إعطاء حي البصاولة وحي الجبل عدداً متساوياً – تقريباً – من الأعضاء بالرغم من الفــارق الكبــير في عدد السكان بينهما، وإعطاء صرص عدداً من الأعضاء أكبر من الذي منحته لأرقين .

والانــتقاد الآخــر هو أن هذه اللجان الفرعية قد تم تعيينها قبل زيارة الرئــيس عــبود للمنطقة. في ذلك الوقت كان تمثيل كل قرية مقبولاً ولم يكن عرضــة للانتقاد. غير أن زيارة السيد داوود عبد اللطيف وتزامنها مع طرح خــيارات المواقــع، ثــم زيارة الوفد للخرطوم وتحديد المواقع المقترحة، قد أحدثت – بلا شك – تغييراً جذرياً في نظرة الأهالي إلى وطنهم المستقبلي مما أدى لانقســام أهــل القــرية إلى جماعات وشرائح وفقاً لموقفهم من المناطق المقترحة لإعادة توطينهم. فكان من المنطقي جداً أن يوضع اعتبار لضرورة حــل هيكل اللجنة المحلية واستبداله بكيان يستطيع أن يفي بمتطلبات الوضع

الجديـد. ولسـوء الحظ فإن حلاً كهذا لم يتبلور وإن وجهات نظر المواطنين المختلفة لم تجد تمثيلاً صحيحاً في مستوى اللجان الفرعية. ففي دبيره وأشكيت – مـثلاً – حيث كانت أغلبية الأهالي تفضل خيار (خشم القربة)، جاء تمثيل وجهـة نظرهم ضئيلاً في اللجنة الفرعية. والنقطة الثالثة هي الوضع الغريب للجان الفرعية في عملية الاقتراع. فلا هي اعتبرت مجموعة ناخبين ولا هي اعتبرت كليات انتخابية. فلو أنها اعتبرت مجموعة ناخبين، لكان حق الاقتراع قـد امتد إلى كل الأهالي الآخرين. وفي هذه الحالة فإن الأمر كان يقتضي أن تخضـع المواقع الستة للاستفتاء العام في كل المنطقة. أما إذا اعتبرت كليات انتخابـية، فإن ذلك يستوجب أن يشترك كل القرويين في العملية الانتخابية لا أن يتم التصويت بطريقة اعتباطية .

وقـد يتساءل القارئ لماذا لم نتدخل لوضع الأمور في نصابها ما دمنا نعلـم بكل هذه المآخذ؟ وإجابتي على ذلك هي أن اختيار الموقع المقترح كان شأناً مطلقاً وأن أي تدخل من جانب السلطات المحلية – مهما كان قصده نبيلاً – يحـتمل أن يشـكك فـي نـزاهة الحكومة. فطبقة المتعلمين كانت شديدة الحساسية تجاه نوايا الحكومة بالإضافة إلى أن اللجنة المحلية كانت قد أصرت مـنذ الـبداية على أهليتها لتحمل المسئولية فرأت الحكومة أنه من الحكمة أن تعطـيها الفرصـة. ولعـل خوف الحكومة من أن تسئ اللجنة ممارسة هذا الامتياز هو الذي جعلها تحتفظ لنفسها – مؤخراً – بحق الاختيار النهائي .

الآن دعونـا نـنظر في النتائج النهائية لعملية الاقتراع رغم انتقادي للنقاط الإجرائية. فواضح من الأرقام أن أياً من المعسكرات لم يحرز انتصارا فـي تلك العملية. بل إن أياً منها لم يحظ بنصف عدد الأصوات. والنتيجة في

رأيي كانت باهتة بحيث لا تعطي أي لون وماسخة بحيث لا تعطي أي طعم، لأنها أديرت بطريقة فاشلة. غير إن أهالي أرقين وحلفاءهم صفقوا لانتصارهم، وأهالي دغيم وتوابعهم اكتأبوا برهة لهزيمتهم غير أنهم، استسلموا للأمر الواقع بقبول خيار الامتداد الشمالي لمشروع الجزيرة.

قمت بتسجيل ملاحظاتي وإرسالها مع النتيجة إلى لجنة إعادة التوطين بالخرطوم قائلاً إنه – وبالرغم من أن النتيجة لا تعبّر بدقة عن رغبات كل الأهالي – يمكن اعتبارها مؤشراً لاتجاهاتهم وميولهم والتمست أن تعطي العناية التي تستحق. ووجد السيد داوود عبد اللطيف ثغرة للعمل من أجل خيار (وادي الخَوّي) الذي اعتبره موقعاً مثالياً لتوطين أهالي حلفا .

بعد انتهاء عملية التصويت وإرسال النتيجة إلى الخرطوم، نَعمنا بفترة هدوء مكّنتني من مواصلة أعمالي في الإحصاء وعد أشجار النخيل وحل مشكلة الأرض. وتمكن الأهالي كذلك من مزاولة حياتهم بهدوء رغم أنهم كانوا ينتظرون ما يجئ من الخرطوم بترقّب حذر. وفي أحد الأيام وبينما كنت بمكتبي أعد التقرير الشهري، رن جرس الهاتف وانطلق صوت داوود يخبرني بأنه سيرسل – شخصاً يقال له (مستر ألفرد كانت)[1] وهو أحد خبراء الأمم المتحدة – بالطائرة إلى وادي حلفا بتوجيهات للسفر بالسيارة إلى (وادي الخَوّي) لعمل مسح للتربة وإعداد تقرير حول جدوى إقامة مشروع إعاشي لتوطين أهالي حلفا ووجهني بتوفير ما يحتاج إليه في رحلته. وقد فوجئت بهذا التطور في الأحداث وبدأت أسأل نفسي أن كانت الحكومة قد قررت بالفعل الانحياز إلى خيار (وادي الخَوّي)؟ ورغم أن داوود لم يذكر لي ما يؤيد أو

---

[1] خبير أمريكي يعمل بالسودان، اختاره السيد/ داوود عبد اللطيف عن طريق السفارة الأمريكية.

ينفـــي هذه الشكوك إلا أنني جعلت مهمة مستر (سكاف) في طي الكتمان بقدر المســـتطاع خشية أن تسبب وضعاً حساساً وسط الأهالي. وقد تسربت الأخبار عن طريق عمال بدّالة الهاتف (الكبانية) الذين اعتادوا أن يسترقوا السمع على المكالمـــات الهاتفـــية الهامـــة وهـــذا ما أكده لي – في وقت لاحق – سائق اللاندروفـــر الـــذي اســـتقله المستر سكاف إلى (وادي الخُوَىَ). وبعد رجوع المستر سكاف إلى الخرطوم، استقبلت بمكتبي ممثلين لقريتي دغيم وأرقين وقد بـــدا علـــيهم القلق والبلبلة. وعبّروا عن شكوكهم وريبتهم حول مهمة المستر سكاف ثم سألوني بجديّة عما إذا كانت الحكومة قد قررت بالفعل ترحيلهم إلى (وادي الخُـــوَىَ)؟ فأجبـــتهم بأنني لا أملك معلومات حول أي قرار للحكومة يـــتعلق بأي موقع بعينه، لكن تفسيري الشخصي لمهمة المستر سكاف هو أن اللجنة كانت تريد أن تستوثق من نقاط معينة عن (وادي الخُوَىَ) قبل أن ترفع قائمة أسبقياتها للحكومة لتتخذ القرار النهائي. وأبدى أحدهم تذمره من أن ترفع اللجنة قائمة أسبقيات تتناقض مع نتيجة التصويت وقال إنه لا يفهم – والحال كذلـــك – لماذا رجعت الحكومة إليهم – أصلاً – لتحديد خيارهم؟ فقمتُ بلفت نظره إلى المؤتمر الصحفي للسيد داؤود المنشور بجريدة (الأيام) والذي كنت أحـــتفظ بقصاصـــة منه في أحد ملفّاتي. فأخذوا يتصفّحونه بالتناوب وعندها أحسست أنهم بدأوا يدركون معنى فقرته الأخيرة لأنها أكدت مخاوفهم ومن ثم غادروا مكتبي بروح معنوية منهارة للغاية.

تلـــي ذلـــك الاجتماع انتشار للشائعات في المنطقة بأسرها وبدأ الناس يقولـــون إنّ الحكومة تجاهلت رغباتهم وفرضت عليهم (وادي الخُوَىَ). وفي كل مكان كانت المعنويات هابطة خاصة في قريتي دغيم وأرقين. وفي دبيره

عوفـــي محي الدين والعمدة داؤود عبد الرحمن من آثار الهزيمة وتشجعا بجو الإشـــاعات فشـــرعا فـــي سن الفؤوس واستعراض مؤيديهما لمساندة القرار المـــتوقع. ونفخ المستر (سكاف) في هذه الروح الكئيبة لما آلت إليه الأمور، بزيارة (وادي الخَوَىْ) مرتين أخريين. وقد تطرقتُ معه – بلطف – إلى الآثار الســـالبة لزيارته لوادي الخَوَىْ على منطقة حلفا. فضحك وقال إنه قد أجرى مســـحاً أولياً للتربة في (وادي الخَوَىْ) لاختبار ملاءمتها لقيام مشروع إعاشي لتوطين أهالي حلفا، وهو يظن – بعد أن إنتهى من مهمته – أن المشروع ذو جدوى.

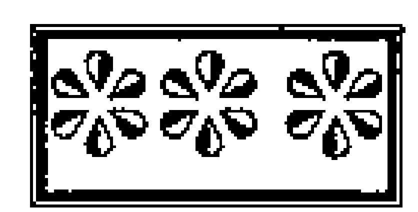
أود أن أشـــير باختصار إلى الظروف التي كانت وراء مهمة المستر (ســـكاف) لـــوادي (الخَوَىْ) والتي قررتْ – في وقت لاحق – مصير السيد داؤود كموظـــف عام. فقد كان السيد داؤود نوبياً ولد في قرية دغيم وترعرع فـــي المنطقة المتأثرة بمياه السد العالي، كان كل من أهله وممتلكاته جزءً من المحنة الكبرى التي ستحل بكل المنطقة، وهو – كأي نوبي – كانت له ردود فعله وميوله الخاصة ووجهة نظره حيالها. والاختلاف الوحيد هو أنه قد حظي بالمعـــرفة والتجربة عن طريق الخدمة في مناطق مختلفة من السودان، الأمر الـــذي لم يكن متاحاً لأغلب رفاقه من النوبيين. ووفرت له رئاسة لجنة إعادة التوطيـــن نـــافذة يطل منها على الوضع بصورته الطبيعية الواسعة، وفرصة لتوظيف معرفته وخبرته وطموحه في اختيار موقع مناسب لتوطين أهله. ولم يكـــن سراً بالنسبة لي أن داؤود كان يميل لخيار (وادي الخَوَىْ). ففي زيارته الأولى تمكنت من الإلمام بما كان يدور في خلده. كان يعتقد أن لوادي الخَوَىْ مـــزايا معيّنة تعطيه أفضلية تنافسية على بقية المواقع مما يجعله وطناً مثالياً

للنوبيين. فالنوبيون – بالدرجة الأولى – صاروا معتادين على الطقس الجاف بكل أبعاده، وأخضعوا له كل أنماط الزراعة ومحاصيل الدورات الزراعية وأشجار النخيل. ويعتقد داؤود أيضاً أن تكلفة تشييد المنازل ستكون أرخص، لأن انعدام الأمطار في وادي الخُوَيْ يجعل في الإمكان بناء المساكن بالطين والطوب الأخضر على نفس النسق الذي تبنى به في القرى القائمة بدلاً عن الأسمنت والحجر المكلف والمطلوب للبناء في المواقع الأخرى. بالإضافة إلى كل ذلك –ونظراً لأن النوبيين سيعيشون في إطار مجتمع المحس والدناقلة الذين هم منه – فإنهم لن ينقطعوا عن روابطهم الاجتماعية.

وبناء على كل هذه السمات، فإنني أظن أن أفكار السيد داؤود تبدو معقولة للغاية وصحيحة لكن هناك عيوب جذرية لا بد من وضعها في الاعتبار وعلى وجه الخصوص التكلفة العالية للري بالمضخات إلى جانب نسبة النز المرتفعة في التربة مما يستوجب بناء كل القنوات بالأسمنت المسلّح أضف إلى ذلك صعوبة المواصلات التي تتطلب مصروفات باهظة لربط المنطقة إما بطريق معبد إلى الميناء أو بخط حديدي طويل يتصل بالخط الرئيسي المتجه إلى الخرطوم. وكل هذه المصروفات يمكن أن تذهب بمزايا التكلفة المنخفضة لبناء المنازل.

على الرغم من حجج السيد داؤود المعقولة عن الأحوال المناخية المواتية والفوائد الاجتماعية للمناطق المجاورة، فإن نواياه قد سقطت بفعل أهله أنفسهم. فإن نتيجة الاقتراع أظهرت أن السكان لا يعيرون اهتماما للظروف المناخية ولا لجيران الغد. وبدلاً عن ذلك كانوا يتطلعون بكل الأمل جنوباً إلى حيث حزام المطر. وكل هذه العيوب التي اكتنفت خيار (وادي

الخَــوَى) كانت معروفة لداؤود ولذلك فقد حاول إيجاد موازنات توفيقية للحد من آثارها. وعندما لم يجد استجابة مشجعة من مستشاريه في اللجنة لجأ إلى هــذه المســاعدة الأجنبية في شخص المستر سكاف التابع للسفارة الأمريكية. وظــل الأهالــي يتساءلون عن طبيعة مهمة المستر (سكاف) لفترة من الزمن بينما لم تنبس الخرطوم ببنت شفة لوقت طويل حتى أوشك الأهالي أن يقطعوا الأمل في كلمة منها.





داوود عبداللطيف



محمد خليل بتيك

الفصل الحادي عشر

إختيار موقع إعادة التوطين
(القرارات وردود الفعل)

فـــي ١٠ أكتوبر انتشرت شائعة بأن الحكومة قد أجازت موقع (خشم القـــربة). وبـــدأ انتشار الشائعة ببطء لم يلتفت إليه الناس في البداية ولكنها – بحلـــول يـــوم ١٤ أكـــتوبر – استجمعت قواها واندلعت كسيل جارف عم كل المـــنطقة. وعـــندما تحريت من مصدرها تبين لي أنها نقلت بالهاتف بواسطة أشـــخاص معيّنيـــن في الخرطوم إلى آخرين في حلفا. ومن خلال الأثر الذي تركته على الناس نتيجة لاحتمالات صدق مصدرها، أمكنني أن أحكم بوجود قدر من الحقيقة فيها. وبدا لي أن الناس كانوا مفجوعين ومشمئزين إلى درجة كبـــيرة وعلى اقتناع كامل بصحة هذه الأنباء السيئة بحيث لم يكلف أحد نفسه بالـــتأكد من صدقها عن طريق الاتصال بمكتبي. وفي منتصف النهار جاءني (صـــالحين) وأخبرني – بنبرة الأمر الواقع – أن الناس قلقون للغاية من قرار الحكومة باختيار موقع (خشم القربة) فقلت له إنني لم أتلق أي إخطار رسمي بذلك وسألته عن مصدر أنبائه فأجاب قائلاً: (لا يوجد دخان بلا نار). وشعرت أنّـــي حوصـــرت بالشائعة أيضاً. فأجريت اتصالا هاتفياً باللجنة. وعندما رن الهاتف بعد لحظات سمعت صوت المرحوم د. محمد أحمد علي وزير الصحة والذي كان يبدو أنه يحاول الاتصال بي في نفس الوقت الذي كنت أحاول فيه أن أتصـــل به. فأسرّ إليّ بالأخبار المفجعة قائلاً بأن مجلس الوزراء – وبعد دراســـة كافـــة الوجـــوه للمناطق المقترحة وتمحيص كل التقارير التي رفعها الخـــبراء الدوليون والمحليون – قد اختار خشم القربة باعتباره أحسن المواقع لإعادة توطين أهالي حلفا. ثم أضاف قائلاً إن وفداً وزارياً سيزور وادي حلفا قريـــباً لإعـــلان السكان بالقرار.في تلك اللحظة شعرتُ – حقيقة– بحالة.من

الإجهاد العصبي فقلت له إن القرار لم يعد سراً بالنسبة للأهالي الذين تحصلوا عليه بطريقة ما منذ أيام.

كان الشعور تجاه الحكومة يتسم بالمرارة البالغة، وسيكون إبتعاث وفد وزاري في هذا الجو أشبه بالتلويح بخرقه حمراء لثور هائج. وأخبرت الوزير أنني أتوقع استقبالا سيئاً للوفد الوزاري ولا أرى سبباً لإرساله إلى حيث يتلقاه الناس بالسخرية والزعيق. وبما أن الغرض من إرسال الوفد هو إقناع الأهالي بالحكمة التي كانت وراء اتخاذ القرار، فقد اقترحت أنه سيكون من الأحسن أن أرسل وفداً من وادي حلفا إلى الخرطوم للالتقاء بالمسئولين هناك. فإما أن يتم إقناعهم ليواجهوا أهلهم بالقرار عند عودتهم ويمحوا مخاوفهم وإما أن يحاولوا حـــث الحكومـــة على العدول عن قرارها. وفي كل الأحوال فقد كانت زيارة الوزراء غير مرغوب فيها عند هذا المنعطف من مجرى الأحداث.

كـــان د. محمد أحمد علي ينصت إليّ باهتمام، فأعرب لي عن تفهمه للوضع وأشار إليّ بمخاطبة اللواء البحاري وزير الداخلية كتابة. وانتهت بذلك المحادثة الهاتفية. وهكذا سبق السيف العزل وأصبح لزاماً – في نهاية الأمر – أن يواجه الجميع الموقف مباشرة.

وبـــدأتُ أفكر بجدية في المخاطر المحتملة لاندلاع أحداث شغب نتيجة لهذه التطورات الاستفزازية، فهاتفت داؤود وزودته بتقرير كامل عن الموقف.

كان عليّ – قبل أن أتصل باللواء البحاري – إخطار السيد حسن على عـــبد الله الوكيل بوزارة الداخلية باعتباره رئيسي المباشر فيما يتعلق بالشئون الأمنية. فعثرت عليه بالهاتف وأعلمته بمحادثتي مع الدكتور محمد أحمد على وأحطـــته علمـــاً بانطباعاتي عن احتمالات الوضع الأمني وردود الفعل غير

المستحبة للزيارة المتوقعة. وأخبرته باحتمال وقوع تظاهرات وأحداث شغب. ورجوتــه – في الختام – أن يجتهد لإقناع البحاري بضرورة إرجاء الزيارة وتبنّــي اقتراحاتي كحل توفيقي. فقال السيد حسن إنه يتفهم وجهة نظري وإنه ســيرفع مذكرة بشأنها للوزير. وبعد الظهر أعددت تقريراً وافياً حول الموقف بعثــتُ بــه إلــى اللجنة وأرسلت صوراً منه إلى وزارة الداخلية وإلى مدير المديرية الشمالية. كذلك بعثتُ بخطاب خاص إلى اللواء البحاري بنفس المعنى رجوته فيه عمل ما في وسعه لإقناع زملائه بتأجيل زيارتهم المزمعة. وبقيت لــنا أربعة أيام كنت أثناءها آمل أن تحسّن اتصالاتي بالخرطوم الموقف وأن تتغلب الحكمة على مجلس الوزراء فيلغي الزيارة.

وفي ١٨ أكتوبر طلبني اللواء البحاري في الهاتف وأخبرني باستلامه لخطابي وتقريري كما أخبرني بالمذكرة التي رفعها إليه السيد حسن علي عبد الله وأنه قد أطلع مجلس الوزراء على ما احتوته كل هذه المكتوبات. وواصل حديثه قائلاً إنه مع تقديره لما أثار الأهالي من اختيار لموقع خشم القربة، فإن الرئـيس قد قرر أن تمضي ترتيبات زيارة الوفد حسبما هو مقرر لها في ٢٢ أكــتوبر، حــتى لا تنقطع الصلة معهم في هذا الوقت الحرج. ثم أخبرني أن الوفــد ســيتكوّن من اللواء طلعت فريد وزير الاستعلامات والعمل وشخصه واللواء مقبول الأمين وزير الزراعة والدكتور محمد أحمد علي وزير الصحة يــرافقهم الســيد داوود عبد اللطيف رئيس اللجنة وممثلون من وزارتي الري والزراعة. ولدهشتي، أردف قائلاً إنه يطلب منيّ تحضير استقبالات شعبية في المطار وفي مدينة حلفا وقرى (دغيم وأرقين وأشكيت ودبيره وسرّه وفرص). وأخبرني أن اللواء فريد سيرسل بعثة فنيين من وزارته – في غضون يومين

– إلـى وادي حلفا بطائرة خاصة وذلك لتركيب محطة إذاعية محلية ولتوزيع خمســة وســبعين مــن أجهــزة الراديو هدايا لسكان القرى لكي يتمكنوا من الاســتماع إلى القرارات المتعلقة بوطنهم الجديد. فأجبته بأنني قد أخذت علماً بكــل النقاط الواردة في حديثه، غير أنني – بالنسبة إلى الاستقبالات المقترحة في القرى – طلبت منه الإذن لإمهالي وقتاً للتفكير فيها ووعدته بالاتصال به لاحقاً. وبنهاية اليوم أبلغته وجهة نظري حول عدم جدوى زيارة الوفد للقرى ذات الشــعور العدائــي لخــيار خشــم القــربة، ما دام الأهالي المؤيدين له سيتقاطرون على المدينة لحضور الاستقبال. فوافقني على رأيي وحدد الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم وصول الوفد موعداً لمغادرته وادي حلفا.

ومــا إن وضــعت سـماعة الهاتف حتى تسربت الأخبار إلى المدينة وتشبع الأهالي بالقسوة وروح العداء بفعل حالة التوتر السائدة. وساء الموقف بســبب تحرك العناصر المتطرفة التي أستغلت الوضع إلى أقصى حد وكنت أشعر بالأيدي الخفية التي كانت تتحرك في اتجاه التصعيد.

فــي الــيوم التالي قمت بنشر برنامج الزيارة الذي شمل استقبال الوفد بالمطــار ولقــاءً بساحة المدينة في الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين صباحاً. وحدد البرنامج الساعة الثالثة بعد الظهر لمغادرة الوفد وفق ما كان مقرراً.

عقــدت اجتماعاً مطولاً مع الشرطة حيث درسنا الموقف باستفاضة .. كــنا علــى علم بأن النوبيين قوم مسالمون وليس لديهم ميول عدوانية ولكن الإثــارة العنــيفة التي تعرضوا لها جعلتنا نتحسّب لردود الفعل المتوقعة.وبعد استعراض كافة الاحتمالات من واقع تجربتنا معهم، رأينا أن استعراض القوة

-من جهتهم -لن يتعدى تنظيم تظاهرة ضخمة يمكن السيطرة عليها بإمكانات شرطتنا المتواضعة.

وحال انفضاض اجتماعنا، بلغنا أن اللجان المحلية قد عقدت اجتماعا وقررت مقاطعة زيارة الوفد الوزاري. وسهلت هذه الأنباء مشكلتنا الأمنية وأعطتنا فسحة من الوقت لضمان استقبال يتسم بالهدوء والسكينة. فإن الشرطة لا يسعدها أكثر من أن ترى مثيري الشغب وقد أغلقوا عليهم أبواب بيوتهم بسلام. وعلى كل فإن الذي هو على دراية بالأعراف النوبية الاجتماعية، يرى في المقاطعة تعبيراً بالغ الأثر عن عدم الرضا والاستياء.

كان المؤيدون لخيار خشم القربة سعداء ومنشرحون من بين السكان ذوي الوجوه المتجهمة والعابسة، فقد انتعشت أرواحهم بتحول مجرى الأحداث، فاستقبلوا نبأ الزيارة بسرور غامر. وتبادلوا التهاني مع مؤيديهم من دغيم وأرقين وأشكيت ودبيره وقرروا أن يكون الاستقبال حافلاً. ورفض حي السجار – الذي كان محايداً وعلى غير التزام بالتعاطف مع اللجنة المحلية – الانضمام إلى حركة المقاطعة. أما العناصر غير النوبية بالمدينة والتي كان تعاطفها مع أهالي دغيم مهزوزاً، فقد انحازت إلى خيار (خشم القربة). وبوجه عام – وبالرغم من أن أغلب السكان سيلزمون منازلهم مقاطعين – فقد كان هناك ما يكفي من حشد لاستقبال القادمين.

وفي ٢٠ أكتوبر وصل فنيوّ وزارة الاستعلامات وبدأوا في تركيب الإذاعة المحلية داخل خيمة واسعة بساحة المدينة المزمع تزيينها لتناسب الاستقبال. وكانت التعليقات العدائية للمارة قد جعلت الفنيين يدركون طبيعة إستقبال الأهالي لمحطة الإذاعة. فقد جاءني أحدهم بمكتبي وهو في حالة

شديدة من القلق وأخبرني بالمخاوف التي تنتابه إزاء الزيارة ظاناً أنني أجهلها. وعندما أخبرته أنني على علم بها صاح قائلاً: (وإذن فمالك لا تنصحهم بعدم المجيء؟) عندها اقترحت عليه الإنصراف وعدم التدخل في مالا يعنيه.

وفــي ٢١ أكتوبر حاولنا تهدئة الموقف بالاتصال بمؤيدي خيار خشم القربة ووضع خطط الاستقبال. فقد كان في إمكاننا أن نوفر احتياجات ترحيل المؤيديــن مــن القرى إلى المطار ثم إلى المدينة. وقد رأينا كيف أنهم كانوا ســعداء بتلقــي أجهــزة الراديو بينما رفضها أهالي القرى الأخرى. وبعد أن فرغنا من هذا الجانب بتنا نترقّب في قلق بزوغ فجر اليوم التالي محاولين أن نــتفادى كل ما يقلب علينا ذلك الوضع الهش. وفي المساء وصل بالقطار من الدامــر الســيد العــوض حامد جبر الدار مدير المديرية الشمالية ليكون في اســتقبال الــزوار الكبار الذين سيزورون ناحية من مديريته. فأوفيته بتقرير شــفهي جعلــه يفزع من تردي الأوضاع. ثم جاء اليوم الذي لا ينسى .. ٢٢ أكــتوبر. ففي الصباح الباكر صحبت السيد العوض إلى المطار وقد سرنا أن نجــد حشــداً كبيراً هناك. وفي الساعة السابعة صباحاً وصلت الطائرة وعلى متنها كل أعضاء الوفد. وعند نزولهم منها استقبلتهم الجموع بالهتاف. وانتحى بــي الدكتور محمد أحمد علي والسيد داؤود جانباً وسألاني إن كانت هناك أي تطورات جديدة. وبعد أن قدمتُ لهما تقريراً شفهياً، اتجهنا كلنا بالسيّارات إلى فــندق النيل. وفي الطريق مررنا بقرية دغيم التي كانت شوارعها خالية من الناس تماماً وكان واضحاً أن مقاطعتهم قد تم تنفيذها بالإجماع. وعند وصولنا إلى الفندق، تناول الضيوف إفطاراً سريعاً ثم ذهبوا إلى ساحة المدينة ووصلوا في الوقت المحدد حيث وجدوا حشداً كبيراً في استقبالهم. فتلقاهم أعضاء الوفد

بالارتـــياح وشـــقوا طريقهم وسط الشعارات والهتافات حيث أخذوا مقاعدهم داخل السرادق.

كان أول المتحدثين، السيد العوض، فقدم الوزراء إلى الجماهير ثم نوّه بفضـــائل الصـــبر واحـــتمال المصاعب في ساعة الشدة، مستشهداً بآيات من القـــرآن الكـــريم. وأعلن أن الوفد الوزاري جاء للالتقاء بالمواطنين ولإعلان وطنهم الجديد الذي سأل الله أن يباركه ويرعاه.

وتلاه اللواء طلعت فريد رئيس الوفد الوزاري والذي شجّع الأهالي – فـــي خطاب قصير – على كبح جماح عواطفهم وعدم التحسر على وطن كان حـــتماً أن يكـــون فقـــيداً، ونصحهم بدلاً من ذلك إلى التطلع لمستقبل مشرق. وأفـــادهم بـــأن وفده جاء من الخرطوم لإعلان أن الحكومة قد اختارت خشم القـــربة موطـــناً جديداً لهم قائلاً إن القرار قد أتّخذ من أجل مصلحتهم وأنهم سيتلقون تعويضاً عما يفقدون من ممتلكات وأن سندات ملْكية حرة ستصدر – في الوطن الجديد – لكل الذين يملكون حيازات حرة بوادي حلفا. ثم طلب من زميله اللواء البحاري توضيح الظروف التي أملت على الحكومة اتخاذ القرار. وعندما فرغ من حديثه صفقت له الجماهير.

كـــان خطـــاب الـــبحاري مهماً وموزوناً ومؤثراً. فقد تحدث الوزير بإعجـــاب عـــن التضحية العظيمة التي بذلها أهالي حلفا من أجل وطنهم الأم. وعبّر عن شكره للجنة المحلية على جهودها العظيمة في توضيح وجهة نظر الأهالـــي إزاء المواقـــع المقـــترحة كما شكر لجنة إعادة التوطين على تنسيق الحقائق الواردة في تقارير الخبراء المحليين والأجانب والتي كان لها الفضل فـــي تمكين الحكومة من إتخاذ قرارها النهائي. وواصل حديثه قائلاً إن الخيار

كـــان محصوراً في: (وادي الخَوّيْ وشمال أو جنوب للخرطوم وخشم القربة) وذلـــك بعـــد دراسة وافية لكل تلك التقارير. ولكي يتم اصطفاء واحدٍ من تلك الخـــيارات، وضعت التقارير اعتباراً لحاجات الأهالي العامة والتي شملت - بالطـــبع - مـــنح الحـــيازات الحرة، وسعة الأرض الزراعية، وإمكانية الري المستديم، وسهولة تشييد المنازل بمستوى معقول، والتنمية الصناعية، وتوفير خدمات اجتماعية مساوية - على الأقل - لتلك السائدة في وادي حلفا، وتوفر المواصـــلات واستتباب الأمن العام. ثم طبق هذه المعايير على كل موقع قبل أن يخلـــص إلـــى القول بأن مجلس الوزراء - الذي كان أعضاؤه مهمومين للغايـــة بمســـتقبل أهالي حلفا ومصير أجيالهم القادمة - قد قرر اختيار (خشم القـــربة) باعتباره أحسن المواقع وطناً جديداً لهم. وعدّد مزاياه المتفوقة على المواقـــع الأخرى بما يلي: خصوبة تربته وقلة سكانه، وريّه الحديث المتدفق مـــن خـــزان، وسعة أرضه الزراعية وإمكانية توفر الخدمات الطبية بمستوى جـــيد وسهولة ربط القرى بشبكة من الطرق، وربط المنطقة بخط السكة حديد المتجه إلى كسلا فالخرطوم.

قـــابل الحشـــد هذا الخطاب بعاصفة من التصفيق. وحتى هذه اللحظة كانت الأمور تسير سيراً طبيعياً وهادئاً. فالذين قاطعوا الاحتفال لزموا منازلهم وأخـــذوا يستمعون إلى كلمات الوزراء. ثم شرع اللواء المقبول الأمين وزير الزراعة في إلقاء خطابه وتحدث باستفاضة عن امتداد الرقعة الزراعية بخشم القربة وخصوبة تربتها كما تحدث عن الدورة المحصولية. وعندما كان يعدد أنـــواع المحاصيل والأشجار المثمرة التي يتوقع لها النجاح هناك، لاحظتُ أن جمعـــاً مـــن حوالي مائتي شخص كان يسير في موكب على الطريق المواجه

لمباني المجلس وهو بلا شك كان يتجه إلى ساحة المدينة. كانوا يحملون لافتة سوداء ويهتفون: (يسقط .. يسقط خشم القربة). واستطعت أن أتبين من ملامحهم أنهم كانوا أهالي قرية أرقين. واندفعت الشرطة إليهم وفرقتهم قبل أن يصلوا إلى الساحة، ثم ألقت القبض على عدد مقدّر منهم وساقته إلى المخفر. وقد لفت الحادث أنظار جماهير الساحة، غير أن المقبول واصل إلقاء خطابه حتى النهاية. تلاه الدكتور محمد أحمد على الذي أدلى بعرض موسع حول الأحوال الصحية بخشم القربة وأكد للأهالي أن أخطار الكلازار -- كمرض وبائي – لم تعد قائمة لأن الخدمات الطبية المعتمدة على الأساليب الحديثة قد تمكنت من السيطرة على العدوى واستبعدت إمكانية أي انتشار لهذا المرض. وقال إن وزارته قد أعدت خطة علاجية ووقائية واسعة لمكافحة كل الأمراض المعدية في المنطقة قبل هجرة الأهالي إلى وطنهم الجديد. واختتم حديثه بالتعهد بتوفير خدمات طبية كافية بخشم القربة لمقاومة الأمراض وتأمين ظروف صحية جيدة للناس. وبهذا الخطاب انتهى اللقاء الجماهيري وأنفض التجمع بسلام.

وغادر الوفد إلى فندق النيل لأخذ قسط من الراحة. وبعيد الظهر ذهبت إلى مركز الشرطة للاطمئنان على موقف الأمن. وعند وصولي لاحظت أن هناك حوالي سبعين معتقلاً يستظلون بأشجار فناء المركز بينما وقف شرطيان يحرسان البوّابة. وقد أدهشني أن أرى من بينهم سعاد إبراهيم أحمد الخريجة الجامعية التي تعمل بمصلحة الإحصاء والتي – كما قيل لي – كانت تحرّض الأهالي للانضمام إلى التظاهرة القادمة من أرقين. وحينما كنت أراجع حالتها، جاءتني مكالمة هاتفية من الخرطوم. وقدّم المتحدث نفسه بأنه اللواء محمد

نصر عثمان[1] والذي كنت أعرفه كوزير بلا وزارة وعضو بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة. فأخبرني بأنه قد نما إلى علم الرئيس عبود أن حوالي سبعين شخصاً قد تم اعتقالهم بواسطة الشرطة لاشتراكهم في تظاهرة سلمية. فأكدت لــه صــحة الأمر فمضى إلى القول بأن الرئيس قد أصدر توجيهات بأن يتم إطـلاق سـراح المعتقلين فوراً وألا تستخدم الشرطة القوة ضد الأهالي الذين ينبغي السماح لهم – بقدر الإمكان – بالتنفيس عن غضبهم بالطريقة السلمية، وذلــك احــتراماً مــنه لمشاعر أهالي وادي حلفا تجاه قرار الحكومة باختيار وطــنهم الجديــد وتقديراً منه للحالة العامة لروحهم المعنوية. وأختتم محادثته بــالقول إنه قد اتصل سلفاً باللواء فريد واللواء البحاري في فندق النيل ونقل تلك التوجيهات إليهما. فرددت عليه بأن التوجيهات سوف تنفذ، لكن إحساسي الفوري أنها كانت مفعمة بعطف إنساني زائد. واتصلت بالبحاري هاتفياً فأكد تلقيه لهذه التوجيهات. وتبعاً لذلك أطلقت سراح المعتقلين السبعين فلاحظت أن (سعاد) التي كانت سعيدة بإطلاق سراحها قبل عودة الوفد إلى الخرطوم ، قد اتجهت تواً إلى قرية دغيم بنية إحداث مزيد من المتاعب حتماً.

تم تسريب المحادثة التي جرت مع اللواء محمد نصر عثمان – حالاً – بواســطة عامل التوصيلات الهاتفية والذي كان يسترق السمع للمحادثة كلمة كلمــة. وانتشرت الأخبار بسرعة حيث كان كل شخص يضيف إليها شيئاً من بــنات أفكــاره إلى أن صارت توجيهات الرئيس للشرطة ألا يستخدموا القوة (حتى ولو استأصلهم الأهالي عن بكرة أبيهم).

---

[1] وردت: محمد عثمان نصر – المترجم.

وفي الساعة الواحدة ظهراً تحرك الوفد إلى منزلي لتناول طعام الغداء. وأثناء تناول الوجبة، لاحظت وجود ضابط الشرطة (محمد الهدي) بحديقة المنزل وكان يبدو عليه أنه يريدني. فانسحبت خارجاً لمقابلته، فإذا بملامح وجهه المنزعجة تنبئ بأنه يريد أن يفضي إلي بأخبار خطيرة. وأخبرني بأن تجمعاً كبيراً قوامه ٣٠٠ شخص ينتظم على شارع الأسفلت قرب جامع قرية دغيم. كان البعض يحملون عصي غليظة وآخرون يدحرجون أحجاراً ضخمة وصخوراً من فناء يقع بالقرب من مدرسة القرية ويكومونها على الأسفلت لعرقلة المرور وسد الطريق أمام موكب سيارات الوفد حين يتجه إلى المطار. وكان بعضهم يحملون المعاول والأزاميل ويحاولون إحداث تلف بذلك الطريق بينما تسلق بعض الأشقياء منهم أعمدة الهاتف وقطعوا أسلاك الخط الرئيسي المتصل بالخرطوم. وقال إنه قد ذهب إلى مسرح الحادث ووقف على الروح العدائية للمتجمهرين وعدم رغبتهم في الاستماع إليه. واقترح عليّ أن أستدعي حامية الجيش لمساعدة الشرطة في حفظ القانون والنظام. فأخبرته بأنه ما دام النوبيون لا يملكون أسلحة نارية أو أسلحة خطرة من أي نوع، فإنه لا حاجة لاستدعاء الجيش وأن قوتنا الشرطية – على صغرها – قادرة على التعامل مع الوضع. وذكّرته بتوجيهات الرئيس وأمرته باليقظة. وعندما غادرني وقفت لحظات أفكر في العاصفة التي أخذت تتجمع وتقترب بعنف. ذهبت مباشرة إلى جهاز الهاتف لأتأكد من حالة الخط الرئيسي، وطلبت من المحول توصيلي بالهاتف العمومي لقرية دغيم وبعد لحظات أفادني المحول بأن الخط معطّل.

خلال كل ذلك الوقت لم يكن الوفد الرسمي يدري بما حدث وكان – حينها – يستمتع بآخر أطباق الوجبة. فأخذت مقعدي على مائدة الطعام والذي

صـــادف أن جـــاء بجانــب المقبول، فهمست إليه بخلاصة الموقف. وتبادل الجالســون الهمس، وبعد دقائق – تناولوا خلالها رشفات عجلى من القهوة – خرجوا ميممين شطر الفندق.وعند وصولنا هناك عقدنا اجتماعاً قصيراً اتسمت نتيجــته الفوريــة بالحكمة: فقد رؤي أن يتم تقليص المخاطر التي تؤدي إلى تدهــور الموقــف وأن تؤجــل مغادرة الوفد إلى اليوم التالي – تحوطاً لنتائج السلوك القبيح الذي بدر من تجمهر أهالي دغيم – وأصدروا إليّ تعليمات بأن تتجنب الشرطة الاحتكاك بالأهالي، وتبعاً لذلك سحبنا قوة الشرطة من أطراف قرية دغيم ونشرناها حول الفندق.

وفـــي الساعة الرابعة مساء، بدأ المتجمهرون في قرية دغيم – والذين كـــانوا ينـــتظرون بتوتر وقوع موكب المغادرين في الشباك التي نصبوها – يدركـــون أن الـــوزراء قـــد غيروا مواعيد السفر. فقرروا التوجه سريعاً إلى الفندق. وفي الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة عشرة تبيّنتُ أنهم يندفعون إلينا بـــأعداد غفيرة. فجمعنا قوة الشرطة ونظمناها في صفوف كانت بمثابة جدار سميك يحيط بمباني الفندق. ووصل المتظاهرون في موجات أخذت تتجمع في حشد كبير أمام الفناء الواقع بين فندق النيل وشارع الأسفلت الرئيسي. ثم بدأوا يهـتفون: (أين وعودك يا عبود.) وفي خلال وقت قصير إنضم إلى التجمهر القرويون من أرقين وأشكيت والذين تصادف وجودهم بالمدينة في ذلك اليوم. كذلـــك جـــاء أهالـــي دبروسة وانضموا إلى التظاهرة ليتضخم بهم التجمهر ويـــزداد. وشـــاهدت ســـعاد إبراهيم أحمد تقود صفاً من النساء في ملابسهن التقلـــيدية الســـوداء وقد قدمن من جهة قرية دغيم وأنتظمن خلف المتظاهرين وبـــدأن يحثين التراب في الهواء مما خلق سحباً كثيفة من الغبار. وكن يهتفن

بصـــوت عـــال وبلهجتهن الخاصة: (الموت ولا الذهاب إلي خشم القربة).[1]
واستمرت التظاهرة سلمياً إلى أن تسلل إليها الانتهازيون السياسيون بهتافات: (تقدت تقتنا يا عبود .. إلى الثكنات يا عساكر.) وبذلك إنحرفت التظاهرة من قضـــية وادي حلفا إلى أمر آخر. واستاء الوزراء – الذين كانوا يجلسون في حديقـــة الفـــندق وهم يستمعون إلى هذه الهتافات – من هذا التغيير الذي طرأ علـــى الموقف. ثم خرج اللواء البحاري وهو يحمل مكبر صوت يدوي فرأى لأول مـــرة حجم التظاهرة التي تسبب مجيء الوفد في حدوثها. وعندما رأته الجمـــوع خـــيم الســـكون على المكان. فارتجل كلمة قصيرة نوّه فيها بسماح الســـلطة للمتظاهرين بالتعبير عن مشاعرهم وعن أنهم قد شبعوا من الهتافات التـــي طرقت آذان الوفد ووصلت إلى علمه. وهو يرى أنه لم يعد هناك سبب يبقـــيهم لمزيد من الوقت وينصحهم بالرجوع إلى أهلهم بسلام. وحال رجوعه إلـــى الفندق، رأيت بعض العناصر وهي تقذف بالحجارة على رجال الشرطة الذين ظلّوا ساكتين طوال الوقت. وعندما رأى (الهِدَيْ) رجاله وهم يتعرّضون لوابـــل الحجارة، أمرهم باستعمال الغاز المسيل للدموع لتفريق التجمهر. وفي هذه اللحظة ناديت بعض العقلاء من بين المتظاهرين وحذرتهم من المبالغة في إثـــارة رجال الشرطة بما يفقدنا السيطرة عليهم ويقود إلى عواقب وخيمة. فوافقونـــي علـــى رأيـــي وانطلقوا في ثوان ليغوصوا في لجة الحشد. وقبيل الغروب – بقليل – رأيت التجمع وقد بدأ يتفرق، وهكذا انتهت التظاهرة دون إصـــابات فيما عدا أذى بسيط لحق بثلاثة من رجال الشرطة بسبب الحجارة التي قذفت عليهم.

---

[1] نصها بالنوبية: (فليرو ولا هقوشو خشم القربة لا).

كانـــت الحقـــيقة التي أبرزتها هذه التظاهرة هي أنها أسمعت الصوت المعـــارض للتهجـــير من وادي حلفا وهي أيضاً التظاهرة الأولى التي شهدها النظام العسكري للرئيس عبود.

وفي الساعة السابعة مساءً – وبمبادرة شخصية منه – أصطحب داؤود (صـــالحين وأخاه محمد) إلى قرية دغيم لتهدئة السكان. فعقدوا اجتماعاً مثمراً مع الأهالي الذين بدا أنهم قد هدأوا بعد أن أفرغوا شحنة غضبهم. وأقر أعيان القـــرية أن لا ضرورة لإثارة أي متاعب أخرى وتعهدوا بأن يتولوا المحافظة علـــى هـــدوء أهلهـــم وعلى عدم اعتراض موكب الضيوف عند مروره إلى المطـــار فـــي اليوم التالي. وبعد نجاح مهمة داؤود السلمية، اقتادت الشرطة عصـــبة مـــن الســـجناء الصـــعايده (الذين لم تكن لهم صلة بأحداث الشغب) واســـتخدمتهم في إزالة الحجارة عن الطريق الذي لم يحدث المتظاهرون فيه ضرراً سوى ما أصاب سطح الإسفلت من آثار طفيفة. كذلك استطاع مهندس الـــبريد بالمركز – وبمعاونة عمال الهاتف – إصلاح الخط الهاتفي الرئيسي المـــتجه إلـــى الخـــرطوم. وبحلول الساعة الثامنة عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي .

تناول الوفد طعام العشاء مع الدكتور محمد أحمد علي بمنزله بدبروسة حيـــث تجمع أشخاص قليلون وهم يهتفون. إلاّ أنّ بعض العقلاء وبّخوهم على سوء استقبالهم لضيوف الحي، فانصرفوا خائبين .

وفـــي صـــبيحة اليوم التالي – وبناء على اقتراح من داؤود – نظمنا رحلـــة نيلية للوفد على متن الباخرة (الزهرة) وكان داؤود يرمي إلى إعطاء فكـــرة للوفـــد عـــن القرى وأشجار النخيل في بلاد النوبة. واغتنمتُ للفرصة

فدعــوتُ بعــض الأعيان لمرافقة الوفد وتبادل الرأي معه. وقد بلغت الباخرة شــمالاً إلــى نصــف المسافة من فرص. وعندما مرّت بأرقين كانت غابات النخيل الكثيفة تغطي شاطئ النيل وتحجب القرية عن العين وينعكس منظرها علــى صفحة الماء الرائق بشكل بديع. وعندما جاءت الباخرة بمحاذاة دبيره، ظهر جمع من النساء على شاطئ وهن يحثين التراب عليها تعبيراً عن السخط والاحــتجاج. وأثــناء الرحلة تبادل الوفد حديثاً منطقياً وبناءً مع الأعيان على مــائدة الإفطــار. ثــم عدنـــا إلى حلفا في الساعة العاشرة صباحاً لنجد رتل الســيارات في انتظار الوفد لحمله إلى المطار. وعندما تحركنا قال لي ضابط الشــرطة – الذي بدا لي في روح معنوية عالية – أن كل شيء يسير على ما يرام. ولم يهدر الوفد شيئاً من الوقت حيث تحركت السيارات في خلال دقائق. وعــندما مررنا بدغيم تحققنا من أن أهلها قد التزموا بوعدهم سوى أن سعاد إبراهــيم أحمــد قد هتفت ضد اللواء فريد. وعدا شيخ وقف وحيداً وهو يرفع عصــاه صائحاً: (عاش أهالي حلفا)، فقد خلا الطريق – تقريباً– من الناس. وبعد ربع ساعة كان الوفد في باطن الطائرة استعداداً للإقلاع إلى الخرطوم.

وفــي ٢٥ أكــتوبر تجمــع رجــال ونساء من النوبيين الذين يقطنون الخرطوم بشارع القصر وسيّروا تظاهرة تضامناً مع رفقائهم في أرض النوبة. وقد قاد التظاهرة السيد محمد توفيق مدير مصلحة العمل – في اتجاه القصر – وهــي تهاتف: "حلفا .. حلفا .. عاشت حلفا". وعند تقاطع شارع الجمهورية أنضــم إلــى التظاهرة طلاب الجامعة – الذين خرجوا من داخلياتهم – في موكــب ضــخم وتسلموا زمــام الهتاف وأحالوا التظاهرة إلى عمل سياسي معارض. ولم تكن الشرطة رحيمة هذه المرة لأنها استعملت الهراوات والغاز

المسـيل للدموع وألقت القبض على الكثيرون بمن فيهم محمد توفيق الذي تم تسريحه مـن عمله عقب التحقيق. وقد سببت إحالته إلى التقاعد استياءً في وادي حلفا واعتبرت عملاً انتقاميا ضد التظاهرات التي قام بها النوبيون.

.. والآن وقـد اتخـذت الحكومـة قرارها النهائي لصالح خيار خشم القربة، فإنني أود أن أدلي برأيي حول ذلك القرار الهام والمثير للجدل.

يلـوم كثـير من الناس الحكومة على مشاورتها للنوبيين بشأن اختيار وطـنهم الجديد. ويشجب (توم ليتل) في كتابه (سد أسوان العالي) هذا السلوك باعتباره خطأً ويثني على السلطات المصرية لمسلكها الحازم باختيارها (كوم أمبو) وطناً بديلاً للنوبيين المصريين دون اعتبار لرغباتهم. ورأيي الشخصي – حـيال هذه المسألة – مختلف جداً. وبرغم كل شئ فإن للنوبيين قد ووجهوا بكارثـة خلفـتها الحكومات. وبلا ذنب جنوه انقلبت وتيرة حياتهم رأساً على عقـب وفقـدوا ديارهم ومتاعهم وأرضهم. كل هذا إلى جانب قطع الأواصر الوجدانـية التي تربطهم بوطنهم. وبالرغم من أن السد العالي يمكن أن يعتبر أحد أعظم إنجازات البشر، فإن الأمر بالنسبة للنوبيين لا يعدو أن يكون لعنة. إن تجـاهل كل هذه الاعتبارات العاطفية عند معالجة شأن خطير يتعلق بمحو وطن أجدادهم، هو من قبيل النزول بهم إلى مرتبة السوام. ولست أدري ماذا كـان سـيكون شـعور (توم ليتل) لو ووجه بوضع مماثل في وطنه وأجبر بواسـطة حكومته على الرحيل والعيش في مكان لا يريده. لهذا السبب أعتقد أن لفتة الحكومة كانت نبيلة وإنسانية.

إن السؤال الحساس الآخر – الذي يُسأل – هو: لماذا لم تلزم الحكومة نفسـها بنتـيجة التصـويت إذا كانـت جادة حقاً في احترام الرغبة المحلية؟

وللإجابـــة على هذا السؤال، يلزمني أولاً أن أناقش الظروف التي تحكّمت في النتـــيجة ثـم أعلّــق على النتيجة ذاتها. فلو كنتُ نوبياً لحرصت على حصر اختياري في موقعين لا ثالث لهما: (وادي الخُوَىَ) أو (خشم القربة). فبالنسبة للموقـــع الأول، فإنني أسلفت القول في الميزات الفريدة التي تميزه عن بقية المواقـــع. وهي ميزات تنحصر في تماثل الظروف البيئية والمناخية مع تلك السائدة فــي وادي حلفـــا. وبالتالي فإن أهالي حلفا لن تواجههم أي تغييرات اجتماعـــية أو اقتصادية مما يمكنهم من مزاولة نمط الحياة الذي اعتادوا عليه. فيمكـــنهم بناء منازلهم بنفس التصميم المتعارف عليه في وادي حلفا وزخرفة مداخلهـــا بصــحاف الصيني. وستكون الفرصة مواتية لزراعة أشجار النخيل ولامـــتلاك مســـاحات واسعة من الأراضي الصالحة للدورة المحصولية التي يعرفونها. وفوق ذلك فإنهم لن يضاروا بالأمطار ذات الزوابع الرعدية التي لم يعهدوهـــا ولا يأمـــنوا جانـــبها. أمـــا الارتفاع المتوقع في تكلفة الري فيمكن تعويضه بالتمتع بهذه الميزات. ويبقى على الحكومة أن تنشغل بهمّ الصعوبات الفنية والمواصلات. تلك هي الخواص الفريدة التي تجعل من (وادي الخُوَىَ) خـــياراً جذابـــاً – إذا لم يكن الخيار الأقرب – للنوبيين. ذلك أنهم إذا أرجعوا البصـــر إلـــى مـــا وراء (وادي الخُوَىَ) جنوباً، فإن أي حجة حول الظروف المناخية والبيئية ستنتفي لأن المواقع الخمسة الأخرى كلها تقع في نطاق حزام المطـــر ذي المنســـوب المتشابه تقريباً. أما الظروف الإجتماعية والبيئية فلا تخـــتلف – مـــن موقـــع لآخر – كثيراً. فعرب الشكرية والحسانية والكواهلة والبطاحين والجموعية لا يختلفون عن بعضهم بعضاً إلا قليلاً. وقس على ذلك الظـــروف الصـــحية بينهم، فكما قال الدكتور محمد أحمد علي فإن الوسائل

الطبية الحديثة قد هزمت الأمراض المعدية وجعلتها تحت السيطرة. وبالرغم من أن الكلازار قد يظهر بصورة متقطعة في منطقة خشم القربة، إلا أن المواقع الأربعة الأخرى عرضة لانتشار موسمي لمرض الالتهاب السحائي، ومن هنا فإن العوامل الحاسمة المتوفرة للمفاضلة بين تلك المواقع تنحصر في سعة المساحة القابلة للزراعة وخصوبة التربة وتكلفة الري وإمكانات التنمية الصناعية وظروف المواصلات. وإذا ما تم تطبيق هذه العوامل بطريقة إيجابية، فإن (خشم القربة) كانت ستكون هي الخيار الأفضل. صحيح أن الأهالي قد تمت إستشارتهم وأن لجنتهم المحلية قد مارست اختصاصها وأنه قد تم الوصول إلى نتيجة. غير أن هذه النتيجة شابتها ثغرات وجوانب من القصور أضعفت صورتها. ولا يلام أحد على ذلك سوى اللجنة المحلية. فقد انتقدتُ – سلفاً – الطريقة التي تم بها تكوين اللجنة وأوضحت كيف أنها حجبت وجهات نظر معينة من أن تجد تمثيلاً فيها. وعلّقتُ على سلوك طبقة الأثرياء ودورها في محاولة التأثير لإصدار قرار لصالح منطقة (الكدرو). فمنذ قيام اللجنة كانت أغلبية أعضائها وقيادتها (على وجه الخصوص) تنتمي إلى هذه الطبقة. وبعد زيارة السيد داؤود اتخذوا خطوات واثقة لتوطيد موقفهم وخدمة أغراضهم. وهنالك دلائل عديدة يمكن تسجيلها في هذا الصدد. فقد تم اختيار أسماء الوفد الذي يمثل اللجنة – بعناية – من طبقتهم. وجاء الإعلان الصادر من (لجنة الدراسات) حاوياً لمعلومات مغلوطة عن خصوبة الأرض في منطقة (الكدرو) بنية تضليل البسطاء من النوبيين الذين يجهلون طبيعة الأوضاع السائدة في السودان وإغرائهم بتأييد خيار الرحيل إلى هذه المنطقة. بالإضافة إلى ذلك بالغت اللجنة في تصوير مرض الكلازار فوصفته بالإنتشار

في خضم القرية وهو الموقع الذي رآه أعضاء الوفد خالياً من السكان. ولسوء الحظ فقد نسوا أن أكبر مشاكل وادي حلفا تتمثل في نقص الأراضي الحاد الذي أدى إلى هجرة الشباب الجماعية بحثاً عن الرزق في مكان آخر. فلو اتبعوا سبل النزاهة والموضوعية لأعطوا أسبقية لحاجات الأهالي البسطاء الضرورية الذين كان طموحهم الغالب في الحياة هو الحصول على أرض خصبة وواسعة ليفلحوها ويرفعوا بها مستوى حياتهم. وبوضع هذه الأهداف الواضحة في الاعتبار، كان يمكن للجنة أن تقودهم إلى خير عميم. ومن أسف فإن اللجنة لم تلتفت إلى هذه الضرورات الحيوية وتمسكت بنظرتها اليائسة مما عرّض كل المنطقة إلى تيارات متضادة من وجهات النظر وسممت الأجواء بدعاوى مغرضة. ولم يكن مستغرباً – إذن – أن تؤدي هذه العوامل مجتمعة إلى تلك النتيجة الفاشلة. وقد أوضح إحصاء الأصوات – بجلاء – أن اللجنة عجزت عن النهوض إلى مستوى الأحداث. فكل الفرقاء سقطوا في الامتحان ولا يستطيع أي منهم الادعاء بتمثيله لرغبة الأغلبية ولا – حتى – نصف المقترعين. ولهذا السبب لم يكن أمام الحكومة من خيار سوى التدخل وإصدار القرار النهائي. وبرغم ذلك فإنه لا ينبغي النظر إلى تدخل الحكومة باعتباره أمراً لا مسوّق له إذ أنها – بعد كل ما حدث من ردود فعل الأهالي المعارضة واستيائهم وتظاهرا تهم الغاضبة – التزمت بما يمليه عليها واجبها الإنساني. بل إن النوبيين يتباهون – رغم صدامهم مع الحكومة – بمعاملة أكثر إنسانية واحتراماً مما لقيه ذووهم عبر الحدود المصرية.

أعود الآن إلى توالي الأحداث في وادي حلفا. فبعد عودة الوفد الوزاري إلى الخرطوم، استمر تدهور الروح المعنوية لدى السكان. وكنت

أتفهم أنهم يحتاجون إلى كم مقدر من الزمن لاستيعاب الحقائق واسترداد عافيتهم من أثر الصدمة. غير أن الوضع قد ساء نتيجة لقرار اللجنة الشنيع الداعي لمقاطعة الأهالي لتعداد أشجار النخيل وإجراءات المحاكم الشرعية المتعلقة بالميراث. وقد قابلت أعضاء اللجنة وحاولت جاداً أن أقنعهم بأن هذه الإجراءات لا علاقة لها بخيار (خشم القربة) وأن القصد منها هو تسجيل وحفظ حقوقهم من الممتلكات الثابتة التي ستتأثر تواً بمياه السد العالي بغض النظر عن الوجهة التي يختارون الرحيل إليها، وأن مقاطعة هذه الخدمة — من باب العناد المحض — أمر لا يخلو من سمة انتحارية. لكن أحداً لم يعرني أذناً، فأخفقتُ — بالتالي — محاولاتي. وجُبتُ — بعد ذلك — القرى داعياً لتعاون الأهالي من أجل حماية مكاسبهم من التعويضات، لكنهم — أيضاً — أحجموا عن الاستجابة لي. إلا أن المؤيدين لخيار (خشم القربة) اتصلوا بي مبدين الرغبة للتجاوب مع ندائي لكنني لم أكن أرغب في تعريضهم إلى مزيد من التهديد أو أقحم موظفي التعداد وقضاة المحاكم الشرعية في النزاعات المحلية. وقررت أن أترقب اللحظة المناسبة لحل هذه المشكلة برمتها ولذلك كان علينا أن نوقف عملنا وننتظر .

وفي ديسمبر ١٩٦٠، تم إخطاري بقرار الحكومة بإحالة السيد داؤود — رئيس لجنة إعادة التوطين — إلى التقاعد. وقد أذهلتني هذه التطورات المفاجئة في الأحداث والتي لم أجد لها تفسيراً مباشراً. فبعض الناس ذهبوا إلى التخمين بأن داؤود أثار المتاعب بوادي حلفا في ٢٢ أكتوبر وسمح لزوجته بالمشاركة في التظاهرة التي جرت بالخرطوم. لكنني كنت أحس أن ما قيل لا يشبه داؤود — الذي كان يتقلد منصباً كبيراً — ولا يليق بمثله أن يتآمر على

مختمه. وبما أني كنت مسئولاً عن وادي حلفا وراقبت الموقف عن كثب أثناء الأيام الحرجة، فإنني لم أجد أثراً لأي تدخل من قبل داؤود فيما أحدثه الأهالي من ردود فعل ضد قرار الحكومة باختيار موقع (خشم القربة) وفي ذات الوقت فإنني أستطيع القول بأن التصويت لم يكن مرضياً له. أما بالنسبة لمشاركة زوجته في تظاهرة الخرطوم، فإني لا أرى أن داؤود كان مسئولاً عن مشاركتها. فهي- ككل النساء النوبيات – قد عبرت عن مشاعرها تجاه مسألة أثرت على قريتها وعلى أهلها. وفي الحقيقة فإن كل أهالي دغيم الذين قادوا التظاهرة كانوا من أقرباء داؤود، ويصعب على المرء أن يتصور أنهم – لمجرد أنهم يمتون له بصلة القرابة – سيقفون موقفاً سلبياً ولا مبالياً. بالإضافة إلى ذلك، فقد لاحظت أن داؤود كان مرافقاً للوفد الوزاري طوال زيارته للمنطقة ولم يفارقهم إلا خلال ذهابه في مهمة السلام الناجحة إلى دغيم. غير أنني فهمت – مؤخراً – أن الحكومة كانت غاضبة من اتصاله بالسفارة الأمريكية ومن دعوته للمستر (سكاف) بغير إذن منها. ولم يكن هذا تفسيرا مقنعاً لأن الحكومة -- بكل تأكيد -- كانت على علم بمهمة المستر (سكاف) قبل زيارة الوفد الوزاري لوادي حلفا. وأنا على يقين من انتفاء وجود لأي خبير أجنبي أو عالمي قام برفع تقرير للحكومة – كما جاء على لسان اللواء البحاري أثناء إلقاء خطابه – إلا هذا المستر (سكاف). وتبرير إقصاء داؤود بهذه الطريقة المريبة يدعو للشك وأعتقد أن قرار إحالته للتقاعد كان جائراً وظالماً. فقد فقدنا بذهاب داؤود رجلاً عظيم الكفاءة أنجزنا معه عملاً مثمراً بدأناه بنجاح وخطونا به مسافة محسوسة في مسيرة التهجير. وحل محله السيد حسن علي عبد الله وكيل وزارة الداخلية وهو رجل خبير

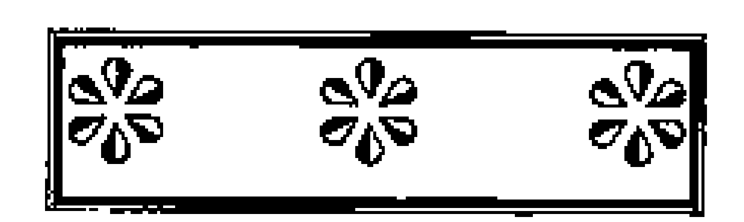
وحكيم ويتمتع بالكفاءة. وبالرغم من أن مسئولياته لم ترتبط – مباشرة – بقضية وادي حلفا، إلا أنه كان مطلعاً على موقفنا الأمني كما ذكرت سلفاً.

وبإحالة داؤود إلى المعاش، استمرت حملة محمومة من الشائعات الخبيثة ضد (خشم القربة) رسمت في أذهان الناس صوراً متوحشة لقبائل الهدندوة والزبيدية وادعت أن مياه نهر عطبرة ملوثة بطفيليات فتاكة وأن لونها أصفر كبول الحصان وأن الأمطار تصب من السماء كأفواه القرب وأن الرعود تفوق في قسوتها القنبلة التي ألقيت على هيروشيما وأن هناك داءً غريب يحيل الرجال إلى حوامل، وأن هناك قرود تغتصب النساء. وقالت الشائعات إن الحكومة كانت على علم بهذه الحقائق ولذلك قررت استخدام القوة لحمل الأهالي إلى القطارات تحت تهديد السلاح. وفي أحد الأيام جاء شخصان من دبيره إلى مكتبي للتأكد من صحة هذه الشائعات الخرافية فأخبرتهما أنني على استعداد لإرسالهما إلى خشم القربة ليريا بعينيْ رأسيهما إن كان فيها أناس أم قرود ومدى إحساسهما – عقب العودة – بحالة طبيعية أم بحمل. فضحكا مما قلت ثم غادراني.

وبتشجيع من سلوك الحكومة المتسامح تجاه أنشطة اللجنة التخريبية. قامت اللجنة بإرسال خطابين وقحين إلى الرئيس طلبت فيهما منه إسقاط خيار خشم القربة، لكنها لم تتلق رداً. ثم أرسلت في مارس خطاباً ثالثاً تشكو فيه – بفظاظة – من عدم ردّه على خطابيها السابقين. وفي ١٣ مارس جاءني رد يفيد بحل اللجنة. فقمت فوراً بإرسال خطابات – في هذا المعنى – لأعضاء اللجنة. وهكذا ذهبت اللجنة المحلية في خبر كان.

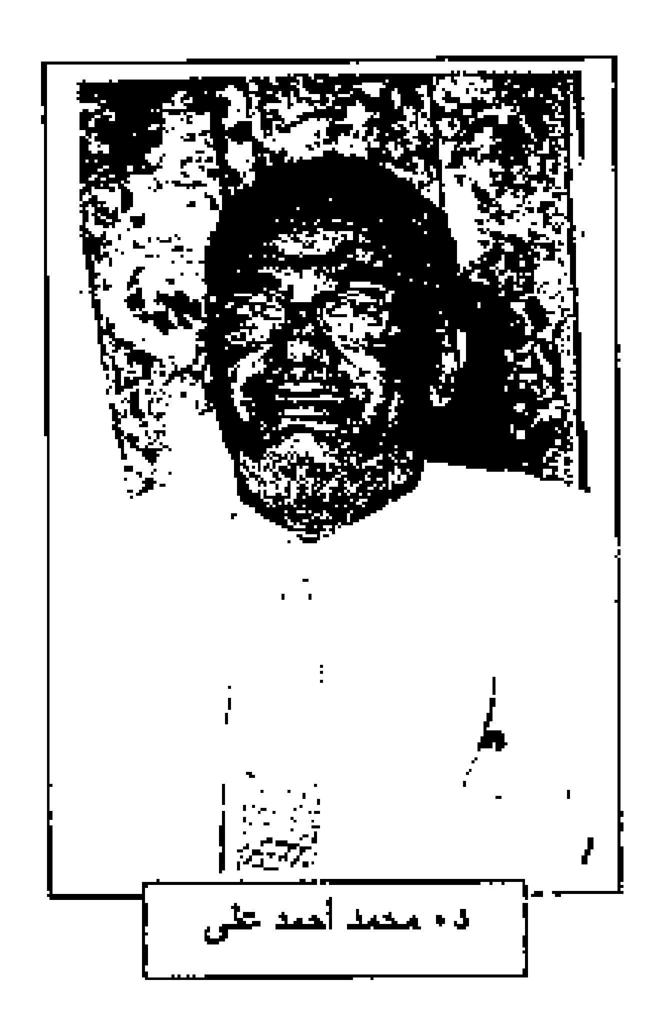
وحالما تم حل اللجنة، تغيّر الوضع تغييرا كبيرا. فقد شعرت أغلبية الأهالي بزوال عبء الضغوط والمخاوف الذي فرضته اللجنة وصاروا أكثر

تعاونا مع السلطات المحلية. واتصل بي الأعيان من مختلف الجهات يطلبون استئناف عمل التعداد والمحاكم الشرعية بالقرى. وفي خلال أيام قليلة بدأ العمل. وبتحسن الموقف وجدت الفرصة سانحة لمواجهة الشائعات العنيدة. فاقترحت – في تقرير بعثت به إلى الخرطوم – أن تعلن الحكومة على الملأ أن التهجير إلى خشم القربة ليس عملا إجباريا بأي حال وأن من لا يرغب في الرحيل إلى هناك يمكنه تدبير حاله للإقامة في أي مكان يريده في السودان. ووافقت الحكومة على الاقتراح وجاء الإعلان عنه بالنتيجة المرجوة •





اللواء طلعت فريد



د. محمد أحمد على



اللواء البحارى



اللواء المقبول

الفصل الثاني عشر

بدايات بناء الوطن الجديد

بعد عودة الوفد الوزاري إلى الخرطوم – مباشرة – قررت الحكومة الإسراع بإقامة خزان خشم القربة والشروع في تخطيط المشروع الزراعي . فقــد تقرر أن يُبني الخزان على نهر عطبرة عند المضيق الذي يبعد أربعين مــيلاً شــمال التقائه بنهر ستيت . وهذان النهران ينحدران من جبال أثيوبيا ويفيضان مثلما يفعل النيل الأزرق . ويبلغ عمق نهر عطبرة حوالي ٤٥ متراً عــن ســطح المنطقة المحيطة به بينما يبلغ سطح الماء في حالة الحد الأعلى للتخزين ٤٧٣ متراً فوق سطح البحر . أي أن سطح الماء ينخفض مترين عن ســطح الأرض المحــيطة به. ويقدر مخزون الماء بما يزيد قليلاً عن مليارد واحــد مــن الأمتار المكعبة ويمتد في اتجاه المنبع إلى حيث يلتقي النهران . ويروي هذا الخزان مساحة تقدر بنصف مليون فدان من التربة الخصبة على امتداد سهل خشم القربة. وهو خزان خطط له السيد ميرغني حمزة الذي كان وزيــراً للــري عام ١٩٥٦ . وعندما جاء نظام الرئيس عبود إلى السلطة ، قــررت الحكومــة وضــعه موضع التنفيذ ووفرت له التمويل ضمن الخطة العشــرية. وعندما صدر القرار بإعادة توطين أهالي حلفا في (خشم القربة) ، أصبح لزاماً على الحكومة أن تولى إقامة الخزان الأسبقية الأولى . فتم توقيع عقــد اتفــاق مع بيت الخبرة الفرنسي (سوجريا sogria) لتصميم الخزان وليعمل مستشاراً هندسياً لوزارة الري أثناء تشييده . وتم تحديد يوليو ١٩٦٣ موعــداً لإنجاز العمل . وفي يناير ١٩٦٠ أجري مسح جيولوجي في الموقع كانت نتيجته مُرضية. وخلال عام التوقيع على العقد قام (سوجريا sogria) بإعداد تصميم أنيق للخزان وأكمل خطط التنفيذ . فجاء التصميم في شكل كتلة مــن الأسمنت المسلح طولها ٣٥٠ متراً وارتفاعها (من قاع النهر إلى سقف

الخــزان) ٥٥ مــتراً ، ولهــا سبع بوابات تَحكُم تسدُّ مجرى النهر . وزود الخزان بثلاث تربينات كهربائية متصلة ببوابات التحكم تنتج ٧٠٠٠ كيلو واط مـــن الطاقة الكهربائية بالإضافة إلى ثلاث تربينات أخرى بنفس الطاقة أقيمت علـــى رأس القــناة الرئيسية. وتم بناء سدين ترابيين يربطان الجسم الرئيسي للخزان بالسهل المحيط به كجناحين يمتد أحدهما إلى مسافة كيلو متر واحد من الجهـــة الغربية ، ويمتد الآخر إلى مدى كيلو مترين شرقاً ، وكلاهما مغطى بطبقة حجرية في الجهة المواجهة للماء .

خـــلال هـــذه الفـــترة تم نشر إعلان في الصحف العالمية يدعو لتقديم عـــروض لتشييد الخزان . فتم استلام ثلاثة عشر عرضاً ، وبعد فحص دقيق قامـــت به وزارة الري ومستشاروها ، فاز العرض المقدم من شركة تورنو. (Dott . Ing. Torno and .Co.) الإيطالية الهندسية وأُعلن في ٢٦ نوفمبر ١٩٦٠ وذلك بمبلغ ٧,٤٥٦,٠٠٠ جنيه سوداني. وفي خلال ثلاثة أشهر كانت كـل آليات التنفيذ في الموقع . وقام الإيطاليون بنصب الحبال الفولاذية وبنوا بـــرج التحكم وجهزوا خلاط الأسمنت وماكينة ثلج لتغذية الخلاط بقطع الثلج بـــدلاً من الماء . وانخرطت البلدوزرات والكسارات والغرابيل كلها في عمل دؤوب وهـــي تكـــدس أكواماً من الحصى من كل الدرجات . ولتوفير المأوى للمهندســـين والعمـــال ، فقـــد بنوا مستعمرة صغيرة بمستوى جيد قرب موقع الخـــزان وألحقوا بها داراً للسينما . ولتسهيل أداء الشعائر الدينية والترويح ، بنى الإيطاليون الكاثوليك مسجداً بمئذنة في منتصف معسكر العمال . وبحلول فبراير ١٩٦١ تم إنجاز التحضيرات الهندسية وبدأت عمليات تشييد الخزان.

أما القناة الرئيسية للمشروع الزراعي فقد تقدمت لحفرها تسع وسبعون شـــركة مختلفة . وفازت بالعطاء(شركة فيليب هولزمان الألمانية) تتقدمها ســـمعتها الطيبة في حفر قناة امتداد المناقل ،وذلك بمبلغ يزيد قليلاً عن مليون جنـــيه إسترليني . فجاءوا (بحفَّاراتهم وبولدوزراتهم وكريلاتهم) إلى الموقع وبنوا ورشتهم ومستودعات وقودهم وشرعوا في إزالة ٩مليون متر مكعب من الـــتراب على امتداد مجرى القناة . وفي ذلك الوقت تم التوقيع على عقد مع شركة (سويست باريزيان دي أندستري إلكتريك) لإقامة الخط الناقل للكهرباء مـــن مولدات الخزان إلى الموقع المقترح لمدينة حلفا الجديدة على مسافة ٥٠ كيلو متراً .

وقـــد صـــحب هذه الحركة الإنشائية ،ما شرعت فيه وزارة الزراعة لإقامـــة مـــزرعة تجريبـــية فـــي جـــوار المشروع وعلى حافة مساحة تبلغ ١٢٥,٠٠٠ فدان خصصت لأهالي وادي حلفا . فأقامت الوزارة مضخة قرب موقـــع الخزان وحفرت قناة صغيرة لنقل الماء للمزرعة إلى مسافة ١٥ ميلا لري مساحتها البالغة ١٠٠ فدان والمقسمة إلى ثلاثة أجزاء ، خصص الجزء الأول مـــنها للـــتجارب البستانية التي تشمل زراعة أنواع مختلفة من أشجار الفواكه وأشجار النخيل . وخُصِّص الجزء الثاني لزراعة المحصولات الشتوية كـــالقمح والشـــعير وأنواع مختلفة من قصب السكر . وخصص الجزء الثالث لـــزراعة الخضـــروات الشـــتوية مـــثل البصل والبسلة والفاصوليا والبنجر والـــبطاطس وخضـــروات (السَـــلَطَة) وبجانب هذا العمل ، قامت مصلحة الغابات بتجارب واسعة لغرس أشجار الظل والأخشاب .

وحينما كان نوبيو وادي حلفا ينوحون على وطنهم الفقيد، كان الشكرية الذيـــن يقطـــنون فـــي أطراف خشم القربة ينظرون باستياء إلى تجريدهم من أراضيهم لصالح المشروع المقترح. ويبدأ شعراؤهم المحليون ينظمون القصائد التي تعبر عن أسفهم وحزنهم على ما حدث. فقد نظم أحدهم – وهو الصادق حمد مايلي :–

مجاليج الحسن راحن خلاص ونجزن

ترع القربة ما هن في الإديهم خزن

أبكن يل الأرانب للابيتر وعزن

ديك ناس حلفا فوق راس المعيقل أذن [١]

والمعنى : إن أشجار شيخ الحسن في خشم القربة قد سقطت وزالت إلى الابد ، وإن الماء الذي سيجري في قنوات المشروع قد بدأ تخزينه خلف ذلك السد الأدهم . وإن على أرانب البطانة البرية أن تبكي على حال كلب الصيد مبتور الذيل ، إذ أن ديك الحلفاويين على وشك أن يصيح من فوق جبل المعيقل . [٢]
وعـــندما رأى الشـــكرية الحركة الهادرة الدائرة فوق أراضيهم ، احتجوا لدى الحكومـــة وطالـــبوا بـــتعويض عن حق المرعى والزراعة الذي ذهب بقيام المشـــروع . وتـــبعاً لذلك تم تكوين لجنة لتسوية حقوق الأرض توصلت إلى

---

(١) عندما كانت المنطقة بكراً قبل إنشاء المشروع ، كانت الأرانب البرية تجول فيها فيصطادها الشكرية بكلابهم الضارية ، ولكنها سرعان ما ستكون ملكاً لأهالي حلفا وبواديهم مما لا يجعلها مرتعاً صالحاً لتلك الأرانب .

(٢) مع شكري للأستاذ الطيب محمد الطيب لضبط ألفاظ هذه القطعة الشعرية التي بان نصها الذي سمعه من شاعرها (الصادق ود حمد) هو كما يلي : مجاليج الحسن راحن خلاص وبجزن

ترع القربة ما هن في الإديهم حـــزن

أبكي يالأرنبات وللابتر عزن

ديك ناس حلفا في عقد المعيقل أذن

(المترجم)

اتفاق يقضي بمنح جنيه واحد عن كل فدان من الأرض لعرب الشكرية وذلك تعويضـــاً لهم عن حقوق زراعة ٦٨٠٠٠ فدان . ومنح امتياز إيجار الأرض للشكرية وقبائل محلية أخرى كانت إبلها ترعى في المنتـــــطقة (وهو امتياز لا يؤثر على ماتم تخصيصه لأهالي وادى حلفا) ، وتعويضهم عن حق مرور قطعـــانهم عــبر المشــروع إلى نهر عطبرة بحفر قناة (خارج حدود المنطقة المزروعة) لري الإبل.

بعد ذلك صرف الشكرية استحقاقاتهم النقدية وباتوا ينتظرون حواشاتهم في المرحلة النهائية للمشروع والتي تعقب توطين أهالي حلفا .

وفــي الخرطوم ، تم توسيع عضوية لجنة التوطين لتشمل ممثلين من وزارتــي الصحة والتربية والتعليم لجعل الجانب التنفيذي أكثر فاعلية . كذلك تم فتح مكتب فرعي للتوطين في خشم القربة برئاسة السيد عثمان حسين أحد زملائــي . ودُعِــم مكتبي بموظفين إضافيين لمواكبة كل تطورات الموقف. واعــترى التغيــير وظيفتــي فصـــارت (مفتش التهجير) بدلاً عن (مفتش المركز).

وفــي الأسبوع الأول من أبريل إخترت عدداً من الأشخاص من كل قرى وادى حلفا وبعثت بهم – في وفد – لزيارة المزرعة التجريبية في خشم القربة . وكان الاختيار واسعاً بقدر الإمكان ليمثل المؤيدين، وغير المتحمسين ،والمعارضين . فذهبوا بالقطار إلى الخرطوم ومنها استقلوا الحافلة عبر سهل الــبطانة إلــى الوجهة المقصودة . وعند وصول الحافلة إلى خشم القربة ، لاحـــظ الوفد أن سوق القرية محفوف بشرطة مسلحة وأن ضابطاً وفي معيته ثلاثـــة من رجال الشرطة كانوا يقومون بحملة تفتيش عن السلع المهربة من

أثيوبيا . وقد أثارت هذه المعلومات حب الاستطلاع عند ممثل (فرص غرب) فـــي الوفـــد والذي تقع قريته على الحدود مابين السودان ومصر حيث اشتهر رفاقه هناك بالتهريب .فنزل من الحافلة.وأجرى استفساراً مطولاً مع رجلين – كانـــا يقفان بالقرب منه – حول طبيعة وحجم التهريب في تلك المنطقة ونوع الســلع المهسربة ووســيلة تهريــبها والدروب التي تطرقها . وقد استغرقته الاستفسارات إلى حد أنه نسى رفاق الرحلة الذين كانوا – وقد عرفوا مراميه – يـــتابعون الحوار بابتسامات خبيثة . وعاد الرجل إلى مقعده وقد بدت على وجهه علامات الارتياح .

وبعد زيارة قصيرة لموقع الخزان ،إتجه الوفد إلى المزرعة التجريبية . وعند وصولهم كان مفتش الزراعة في انتظارهم . فطاف بهم على الأقسام المختلفة وشرح لهم تاريخ المزرعة ومراحل نمو المزروعات والإنتاجية التي تحققت في كل الأصناف المزروعة ، فسرهم ما رأوا وما سمعوا. فقد كانت (شـــتول) الفاكهة والنخيل مخضرة ونامية ، وكانت أعواد قصب السكر عالية وممتلئة . غير أنهم – بوجه خاص – إنبهروا بجودة إنتاج القمح وحجم حبته . وفـــي حديقـــة الخضر ، ذُهل الوفد بالنتائج الممتازة لكل أنواع الخضروات المزروعة بلا استثناء .وأبدى كل أعضاء الوفد اهتماماً كبيراً بزهريات إنبات الخضـــروات مـــاعدا صـــاحبنا ممثل قرية فرص الذي كان يبدو أنه قد وجد ضـــالته فـــي سوق القرية . وعندما انتهت الزيارة لم ينس المفتش أن يهدي أعضـــاء الوفد عينات من إنتاج المزرعة حملوها معهم –عند العودة – في غبطة وابتهاج .

وعـــاد الوفـــد إلى وادي حلفا وأنتشر أعضاؤه في قراهم وهم يحملون العينات التي كانوا يعرضونها في بيوتهم لمن يرغب في مشاهدتها . وأخبرني أحد المناوئين لخيار خشم القربة – من أعضاء الوفد – أنه قد جلب معه عينة مـن البصل يصل حجمها إلى مثل رأس الوليد ، قائلاً: (بصلتان منها تكيل ربعـــاً) . أما صاحبنا إبن قرية فرص فلا شك أنه قد أضاف إلى معروضاته معلومات مفيدة عن ظروف التهريب في منطقة خشم القربة .

كان للزيارة أثرها البالغ في إزالة مخاوف الأهالي حول خشم القربة . فقد أعطتهم أمثلة حية عن الإنتاجية العالية للأرض وعززت ثقتهم في مقاصد الحكومـــة . وأنتجت وزارة الإعلام فلماً سينمائياً ملوناً جميلاً (بناء على طلب منّا) للمزرعة التجريبية تم عرضه في سينما وادي حلفا . وكنت أرتاد السينما يومياً لأتابع الأثر الإيجابي الذي تركه على روادها . وخلال تلك الأيام اتضح لـــي جلياً أن الطريق إلى خشم القربة أصبح سالكاً وأنني يمكن أن أتنبأ بنجاح عملية التهجير .

وبـــنهاية أبـــريل قام السيد حسن علي عبد الله– باعتباره رئيس لجنة التوطيـــن – بـــزيارته الأولــــى لوادي حلفا. فجاب عدة قرى استقبله أهلها بحفـــاوة . وقد ناقش معهم الخطة العمرانية الأولية التي تم تحضيرها لقراهم ولمديـــنة حلفـــا الجديـــدة . وقال إن الخطة ستكون حديثة وستزود كل قرية بخدمـــات عامة وخدمات اجتماعية . أما المنازل فستبنى بالمكعبات الأسمنتية وتســـقف بمـــادة ثابتة تقليلاً لتكلفة الصيانة . وستكون خطة بناء المدينة جيدة وبشكل متفرد يجعلها جديرة بأن تكون عاصمة للمشروع الذي يجري تنفيذه . وقـــال إنّ القرى – جميعاً – ستبعد عن بعضها بعضاً بمسافة ٥ كيلو مترات

في انتشار على طول وعرض المنطقة المخصصة للإسكان والتي تتوسطها مديـنة حلفا الجديدة بحيث تقع أبعد القرى عنها بمسافة لا تزيد عن ٢٠ كيلو متراً . وهذا الوضع – في ذاته – يعتبر ميزة عظيمة بالمقارنة مع مسافة ٣٥ كيلو متراً إلى (فرص) في الشمال أو مسافة ١٠٠ كيلو متر إلى (عكاشة) في أقصى الجنوب من مدينة وادي حلفا الحالية . ولإكمال جولته قام رئيس اللجنة بزيارات عشوائية لعدد من المنازل النوبية للتعرف على حالتها الراهنة وذلك لأخذ المتطلبات الضرورية في الاعتبار عند تصميم مساكنهم المستقبلية .

وبعـد عودته إلى الخرطوم تم نشر إعلان لعطاء عالمي لتخطيط كل القرى ومدينة حلفا الجديدة ، ولتصميم المنازل والمباني الحكومية ، وللأعمال الاستشارية التي تساعد اللجنة في تنفيذ مشروع إعادة التوطين ، وللإشراف علـى الأعمـال الإنشـائية للمتعاقدين ، ولتحضير خطط التنفيذ والمستندات الأخرى التي يحتاج إليها مقدمو العطاءات الأجانب .

وفي يوليو ١٩٦١ تم توقيع عقد مع شركة (كوكس الألمانية الهندسية) لتولـي تلك المهمة . وفي خلال الأسبوع الأول من أغسطس وصل مهندسان إلـى وادي حلفا يحملان تصوراً أولياً للخطوط العريضة التي ينويان أتباعها عند تصميم المنازل المقترحة للسكن .

دعوت بعض النوبيين المثقفين للمشاركة في مناقشتنا مع المهندسين فتم الاتفاق على أن تلتزم خرط كل المنازل بالامتداد من الشرق إلى الغرب وأن يـتم تركيب كل النوافذ والأبواب متقابلة (شمال – جنوب) لتتيح قدراً كافياً مـن التهوية . ولضمان عدم تسرب الحرارة الخارجية من خلال الجدران ، أقـترح مهندسو (كوكس) أن تبنى الجدران من الطوب الأسمنتي المجوف أو

من طوب أسمنتي محشو بالحصا أسموه (روبكونكو) أما السقف فمن شرائح الإسبستوس . وقد قوبلت هذه المقترحات بالموافقة، ثم نوقشت خرط المنازل التي يتكون المنزل فيها من غرفتين بمساحة ٤×٣ متر مع (برنده) مساحتها ٦×٣ متر . أما المنازل الكبيرة فتضاف إليها غرفة للضيوف. وللنوعين مراحيض وفناء بمساحة ٥٠٠ متر مربع إلى ٦٠٠ متر مربع يحيط به جدار مبني من الألواح الأسمنتية . وقد جادل النوبيون – أولاً – في عدم كفاية غرفتين بالنسبة للمنزل المتوسط ، غير أنهم اقتنعوا بهما في ضوء تكلفة التشييد العالية .

وفي سبتمبر تسلمت كراسة ضخمة تحوي خرائط القرى وخريطة مدينة حلفا الجديدة بما في ذلك خرط المنازل والمرافق العامة بالتفصيل . فجاءت كل القرى في أشكال مربعة تشقها شوارع متعارضة لتخلق وحدات مستطيلة تتكون منها منازل متلاصقة ظهراً لظهر . وفي منتصف القرية سوق يحيط بالمسجد . وتبدو خرائط القرى متساوية المساحة مثل رقعة الشطرنج ، ومداخل القرى تبدأ بنقاط الخدمات العامة . فإن أول ما يصادف الزائر المستوصف فنقطة الشرطة فالمدرسة ثم السوق والمسجد . وفي أطراف كل القرى مساحات خالية مسوّرة لأغراض التوسع المستقبلي وهناك مقابر في زواياها.

وبالنسبة لخريطة المدينة فتبدو أكثر وجاهة لأن ملامحها الرئيسية مربعة وتشقها أربعة شوارع مستقيمة على امتداد حوافها ومقسمة –بشارعين متعارضين – إلى أربعة أحياء . ومنتصف المدينة خال من المباني وهو على شكل دائرة كاملة يحيط بها السوق ومباني الإدارة المحلية كالمحاكم المدنية

والشــرعية . وعلـــى حافـــة المربع الخارجية من جهة الشمال : المستشفى وخدمـــات المياه ومكتبَيْ الزراعة والري . وإلى الجنوب تم تخصيص مساحة واســعة مـــن الأرض للأغراض الصناعية ، وإلى الشرق تقع محطة السكة حديـــد.أمـــا المـــدارس ومنازل الموظفين فموزّعة على الأحياء السكنية بينما حجزت مساحة خالية في القطاع الشمالي للامتداد المستقبلي .

وكــل المبانـــي العامة تمتاز بارتفاع رائع ، فالمستشفى ذو الطابقين. يفـــوق رصـــفائه فـــي كل السودان مظهراً وتجهيزاً ، فيما عدا ذلك الذي في الخـــرطوم . والتصـــميم الغريب الوحيد هو تصميم المساجد فهو مأخوذ من أشـــكال الكاثيدرائيات والكنائس القديمة ولها مآذن طويلة عريضة مثل أبراج قـــرع النواقـــيس . والأغرب من ذلك ، الشكل العام للمسجد . فهو يقوم على جدران قصيرة الارتفاع وله سقف ينحدر من منتصفه إلى أطرافه وتقوم على زوايـــاه أشكال كما الخطّافات (صنارات صيد السمك) تشبه التي في المعابد اليابانـــية. ومؤكد أن مهندسي (كوكس) كانوا يجهلون تماماً أشكال العمارة الإســـلامية أو إســـتخدامات المســـاجد . فعندما التقيت بأحدهم في الخرطوم وإستفسرته عن هذا التصميم أجابني قائلاً (إنّ القصد منه هو أن يكون مركزاً اجتماعـــيا ومكانـــاً للعـــبادة وداراً للسينما .) وفاته عليه أن يضيف مسرحاً لتصـــميمه لتكـــتمل الخدمـــات الإجتماعية!! ولقد تم إلغاء هذا التصميم لاحقاً واستبدل بالشكل التقليدي للمسجد .

قمت بجولة خاصة لكل القرى أشرح للأهالي هذه الرسومات المدهشة التي تصور المعالم الرئيسية لوطنهم الجديد . كانوا يتابعون باهتمام وأنا أقلب صـــفحات الكراسة . فقد كانوا حريصين على معرفة كل التفاصيل من خلال

أسـئلتهم العديـدة . وبالطـبع فقد أثار تصميم المسجد كثيراً من الملاحظات الطريفة ، إلا أن بقية الأشكال كانت مرضية لهم .

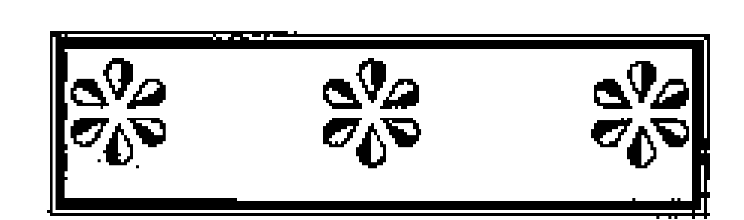
وفي ٢٨ أغسطس صدر إعلان آخر يدعو الشركات العالمية للتقدم بعروضـها لتشـييد أضـخم مشـروع إسكان في تاريخ السودان . فقد شمل المشروع بناء ثلاث وعشرين قرية وبناء مدينة حلفا الجديدة : أي بناء ٧١٩٠ منزلا للأهالي و٦٨٣ منزلاً حكومياً وثلاثين مدرسة وعشر داخليات للطلاب وسـبعة وعشـرين مسجداً و١٠٠ مبنى عام (تضم مكاتب إدارية ومستشفى كبيراً وعشرين مركزاً صحياً ومحطة مياه للمدينة وأحد عشر محولاً كهربائياً ومهبط طائرات وطريق دائم يسير محاذياً لقناة الري الغربية حتى نهاية منطقة الإسـكان) . وتقـرر توفير الإمداد الكهربائي لكل المنازل والمباني العامة بالمدينة ، وتم تحديد ٣١ مارس ١٩٦٢ موعداً نهائياً لاستلام العطاءات .

ومرت علينا فترة من الهدوء في وادي حلفا إستطعنا أثناءها إكمال إحصـاء أشجار النخيل في كل المنطقة . وبعد مراجعة القوائم سلمناها للسيد أحمـد الطاهـر(معـتمد التعويضات.) وفرغ السيد فرح شوربجي من تسوية الأراضـي فـي عموديات (صرص ودواشات) فأصبحنا قادرين على إعداد سـجل الأراضـي فـي صـورته النهائية لتمكين المحاكم الشرعية من حسم منازعات الأراضي توطئة للشروع في مرحلة التعويضات.

وفـي ٩ نوفمبر رفع المعارضون لخيار خشم القربة – خاصة أهالي دغيم – لافتات قماش سوداء على بوابات منازلهم في ذكرى توقيع إتفاقية مياه النـيل . وكـان المنظر لافتاً للأنظار خاصة لركاب القطارات الذين يمرون بقرية (دغيم) في طريقهم إلى محطة حلفا أو إلى الخرطوم . وبما أن ذلك كان

تعبيراً سلمياً عن المشاعر ، فإن الشرطة لم تتدخل وظلت اللافتات تخفق في الهواء لأيام حتى تمزقت .

وفي ١٧ نوفمبر أقيم احتفال كبير في ذكرى العيد الثالث لثورة الجيش . ففي الساعات الباكرة من الصباح تجمعت أعداد كبيرة من القرويين وسكان المدينة في الميدان العام . إلا أن مناوئي خيار (خشم القربة) قاطعوا الاحتفال بمـــن فيهم سائقو الحافلات من دغيم مما أضطر المؤيدين للمجيء إلى المدينة مــسيراً على الأقدام. وقد قمت بإلقاء خطاب مطول فصلت فيه الخطط المقررة للوطـــن الجديد في خشم القربة والخدمات التي خصصت للقرى ولمدينة حلفا الجديــدة . وبيّنـــت نسبة الإنجاز التي تحققت – حتى ذلك الوقت – في تشييد المرافق العامة والخطوات التي اتخذتها الحكومة من أجل بناء المدينة الجديدة وقـــراها . ثم قام النادي الرياضي باستعراض جمبازي ، تلته فقرات ترفيهية قبل أن يتفرق الجمع في سلام عند الساعة الحادية عشرة صباحاً . ومر باقي العام بهدوء .





حسن علي عبدالله



وفد أبناء حلفا يزور المزرعة التجريبية في خشم القربة

الفصل الثالث عشر

معالجة قضية التعويضات

في يناير ١٩٦٢ حضرتُ سلسةً من اجتماعات لجنة خاصة تم تكوينها لتقدير تعويضات أشجار النخيل والفواكه [1] .

تــرأس هــذه اللجنة السيد حسن علي عبد الله رئيس لجنة التوطين . وكنــت – قبل أن تباشر تلك اللجنة أعمالها- قد قمت بجمع أرقام من سجل المحــاكم توضــح أســعار أشجار النخيل في المنطقة خلال السنوات الخمس عشــرة الماضية . وتم جمع معلومات من منطقتي مروي ودنقلا خلال نفس الفــترة . كذلــك تم جمع معلومات عن نِسَبْ التعويضات السابقة التي دفعتها الحكومة المصرية لأهالي جزيرة فرص عن أشجار النخيل التي تأثرت بإعلاء خزان أســوان في عام ١٩٣٢، والنسب التي دفعتها حكومة السودان عن نخــيــل الداخلـــة [2] في منطقة عطيرة . وفوق كل ذلك ، قامت مصلحة البســاتين بإبــتعاث خبراء إلى المنطقة المتأثرة بمياه السد العالي وذلك خلال موســم الحصاد في أكتوبر ١٩٦١ لأخذ عينات تقديرية لنسب إنتاج التمر من أشــجار عشــوائية مختارة من سواقي مختلفة تمثل كل العموديات . وشملت العيــنات كــل أنواع النخيل كما شملت أعمار كل أشجارها المنتجة . وأُعدت قوائــم لأسعار الأنواع المختلفة للتمر خلال الخمسة عشر عاماً الأخيرة . وقام السيد يوسف حسن سعيد – الاقتصادي بوزارة الزراعة – بالبحث في مكتبته عــن كل النظريات التي وضعها الاقتصاديون الزراعيون السابقون عن تقدير تلــك التعويضــات وأســتخلص منها قاعدته المستقلة . وقد شرح القاعدة في كراسة ضخمة مليئة بالجداول والمعادلات الجبرية لإرشاد اللجنة .

---

(1) تكونت من السادة : عبد الرحيم ميرغني وكيل وزارة المالية ، يوسف حسن سعيد : الاقتصادي بوزارة الزراعة ، عبد الرحيم الأمين مفتش أول وزارة الزراعة، أحمد الطاهر محمد التعويضات ، عبد الرحيم إدريس المستشار القانوني للحكومة ، ومحمد كمندان للتهجير .

(2) كانت (الداخلة) منطقة زراعية ، ولكنها حولت إلى أرض سكنية ، فتم تعويض الأهالي عن أراضيهم وأشجارهم .

وأثناء إجراء كل هذه التحضيرات الرياضية ، كان النوبيون يبتدعون نظرياتهم الخاصة وعلومهم الجبرية التي يحسبون بها التعويضات. فقد طلبوا فـــي مذكـــرة سلموها لي ، بمبلغ ١٠٠ جنيه عن كل شجرة وذلك على أساس قـيمة المحصـــول الذي تنتجه الشجرة طوال عمرها. وقد لفتُ نظرهم – في نقاش معهم – إلى أن سعر السوق يتحكم في قيمة السلعة . فإذا تم جلب عجل للبـــيع ، فإنـــه لا يتوقع أن تضاف تكاليف تربيته إلى قيمته. وكذلك فإن سعر الدجاجـــة لا يشـــمل قيمة البيض الذي يتوقع أن تبيضه بقية حياتها. وبالنسبة لشـــجرة النخـــيل فإن الأمر يتعلق بحقيقة أنها لا تعطى كل إنتاجها في موسم واحـــد ،مثلما أن الدجاجة لا تبيض بيضها مرة واحدة . غير أن توزيع حجم الإنتاج على مدى طويل و تقدير قيمته وتسويقه ينبغي أن يوضع في الحسبان. وقـــد تقـــبلوا – فـــي نهاية الأمر – حجتي ولم يتمسكوا إلا بالتماس أن تكون التقديرات منصفة وعادلة .

وعقدت اللجنة خمسة اجتماعات متتالية درست فيها كل الأرقام . وقد قمـــتُ – بـــدوري – بإعطـــاء خلفية معلومات محلية حول تصنيف الأشجار المثمرة من مختلف الفئات العمرية تبعاً لنسبة إنتاجها . كما أدليت بلمحة حول العرف الذي يحكم الامتلاك الجماعي لأشجار النخيل والمعمول به في أجزاء عديدة بالمنطقة .

والأنواع التالية توضح النسب المختلفة للإنتاجية بالمقارنة مع الأشجار المـــثمرة : فالأشجار التـــي تعد (نصف – مثمرة) هي تلك الصغيرة قليلة الإنـــتاج (وهـــذه النسبة تتسق مع المعدل الطبيعي لزيادة عدد أشجار النخيل عبر السنين) . والأشجار (ثلث – المثمرة) هي ذات الإنتاج البكر في أفضل

الحـــالات . أما الأشجار (سدس – المثمرة) فهي التي بلغت من العمر عتياً أو تلك التي لا جدوى منها .

وفي وادي حلفا يحدث – غالباً – أن يتفق ثلاثة أشخاص على غرس بستان مـــن أشجار النخيل شراكة . وفي هذه الحالة فإن على أحد الثلاثة أن يجلـــب (الشـــتول) وعلى الثاني أن يدبّر الأرض أما الثالث فعليه أن يوفر الـــري . وعـــندما تنمو الأشجار وتثمر ، فإن إنتاجها يوزع بالتساوي بينهم . وفـــي بعض الأحيان فإن الاتفاق لا يغطي سوى الأشجار المبعثرة في أرجاء البســـتان . وفـــي هـــذه الحالة فإن لمالك الأرض الحق في استغلالها لإنتاج محاصـــيل الـــدورة الزراعـــية أو أي محصولات أخرى . وهذه النماذج من الاتفاق – التي تسود في وادي حلفا – تُظهر أنه ليس من الضروري أن يكون مالك الأرض هو وحده صاحب النخيل .

لقد لاحظنا – منذ البداية – أن قاعدة السيد يوسف تقوم على الوحدات المكوّنة للفدان ، وأن قيمة الأرض ضمنت في نسبة التعويض التي تم التوصل اليها . وبما أن معظم أشجار النخيل لا يتم غرسها في بساتين مستقلة وبما أن تقدير قيمة الأرض ضمن التعويض المقرر لأشجار النخيل يؤدي إلى مشاكل فـــي حالة المشاركة ويستعصي فهمه للمزارع البسيط ، فإننا يمكن – بعملية حســـابية عاديـــة – طـــرح قيمة الأرض واختزال القاعدة لتتناسب مع القيمة المقـــدرة للشـــجرة الواحـــدة . ثم انهمكت اللجنة في عمليات حسابية مضنية أخضـــعت فـــيها متوسط نسب الإنتاج ومتوسط الأسعار للمعادلة التي تستخدم لتقيـــيم كـــل أنواع النخيل . ولقد كان من المذهل أن تجيء النتائج قريبة من أســـعار السوق الحالية . وتم إجراء تقدير بواسطة السيد عبد الرحيم ميرغني

يعتمد على قيمة المحصول في عام ١٩٥٩ (آخر الأعوام التي سادت فيها ظروف طبيعية بوادي حلفا) ، وإجراء تقدير آخر بواسطة السيد عبد الحميد العتباني يعتمد على القيمة الحالية لشجرة النخيل ويستند الى نسب التعويضات التي منحت لأشجار نخيل (الداخلة) بمنطقة عطبرة . وجرى إعمال التقديرات الثلاثة جنباً إلى جنب على كل الأنواع – فيما عدا بعض الفروقات بالنسبة للبركاوي – فجاء الفرق بين أعلى التقديرات وأدناها للشجرة الواحدة ثلاثة جنيهات . ثم قررت اللجنة – بعد ذلك – الأخذ بمتوسط التقديرات الثلاثة ، فكانت النتيجة كما يلي :

١- <u>أشجار النخيل:</u>	<u>جنيه</u>
شجرة القنديلة:	١٠
شجرة البركاوي :	١٠
شجرة البرتمودة :	٨
شجرة الجاو :	٥
ذكر النخيل (الضكر):	١
شتول غير مثمرة :	١
شتول مستزرعة :	٠,٥
شتول لم تستزرع :	٠,١٥

٢- <u>أشجار الفاكهة:</u>	<u>جنية</u>
شجرة المانجو:	٨
شجرة الجوافة:	٢,٥
عريشة العنب :	٠,٤

شجرة الموز : ١

شجرة البرتقال : ٣

شجرة القريب : ٣,٧٥

شجرة اليوسفي : ٢

شجرة الليمون : ٢,٥

وتقرر إرجاء النظر في تعويضات كل أشجار الفاكهة غير المثمرة إلى حين إجراء التقييم – لاحقاً – بواسطة معتمد التعويضات . أما التقديرات الواردة أعلاه فقد رفعت للمعتمد لإجراء مزيد من الدراسة .

وفي فبراير ١٩٦٢ تم تعيين لجنة أخرى لدراسة أسس وتقديرات تعويضات الأراضي [1] قامت بتصنيف الأراضي بوادي حلفا في ثلاث فئات (زراعية ، سكنية ، تجارية) وتمت دراسة وتحديد كل فئة منها .

قُسّمت الأراضي الزراعية إلى نوعين رئيسيين :

١– ساقية : وهي الحزام الذي يمتد على طول شاطئ النهر ويسقي – عادة – برافعات المياه .

٢– الجروف (السلوكة): وتضم كل منحدرات الضفاف والجزر المنخفضة التي تغمرها مياه الفيضان وتظهر عند هبوط منسوب النيل. وهي أراضٍ مغطاة بطبقة من الطمي المشبع بالماء خلال موسم زراعي كامل.

وأرض الساقية تتكون كلياً – تقريباً – من طبقات مترادفة من الرمل الناعم والطمي ترتفع عن مستوى المياه السطحية بمقدار ١٠–١٥ قدماً وتمتاز بتركيبة سهلة الحرث. وهي أرض مثالية لاستزراع النخيل ومحصولات

---

[1] تتكون من: السادة : كيلاني عبد القادر ، مدير الأراضي ، عبد الرحيم الأمين ، يوسف حسن سعيد ، عبد الرحيم إدريس ، أحمد الطاهر ، عبد الله المرضي ، نائب معتمد التعويضات ، عابدين محمد عبد الله ، مسجل الأراضي ، طه عثمان ، مساعد نائب رئيس اللجنة ، وشخصي .

الــدورة الزراعــية والحمصــيات . ونسـبة لخصوبتها العالية بالإضافة إلى الأحــوال المناخية الملائمة فإن إنتاجية الساقية تعتبر من أعلى الإنتاجيات في السـودان. ولسـوء الحـظ فــإن ضيق مساحتها قد أدى إلى نقص حاد في الأراضــي الزراعــية تسبب في كساد سوق البيع والشراء فيها. ويبيّن سجل أراضي وادي حلفا أن ملكية الأراضي قد بقيت جامدة لأجيال. وانعكست هذه العوامــل فــي صــورة القــيمة الــباهظة للفــدان عــندما يعــرض للبيع . وفي الحقيقة فإن قيمته لا تقدر بثمن. والسابقة الوحيدة التي وقفــت علــيها اللجنة هي التعويض الذي دفعته سكك حديد السودان لامتلاك شريط ضيق عبر الأراضي الزراعية من مدينة حلفا إلى (فرص) لإقامة الخط الحديدي في عام ١٩٣٥ . فقد دفعت السكة حديد مبلغ ١٥٠ جنيهاً للفدان .

وقــد تضــمنت المذكرة التي رفعها كبير مفتشي الزراعة بالمديرية الشـمالية أرقامـاً عالية لنسبة إنتاجية التربة بوادي حلفا ، كانت أساساً طيباً لتقدير قيمة الأرض. وعندما أخضع السيدان يوسف وعبد الرحيم الأمين تلك الأرقــام لقاعدة تقييم الأرض ، بلغ التقدير ١٧٠ جنيها لفدان الساقية. وبما أن أعضاء اللجنة كانوا على علم بإصرار أهالي حلفا على تعويضهم بفدانين عن كل فدان وبسبب أن قيمة الأرض الزراعية في أنحاء السودان الأخرى كانت أقل قيمة ، فقد وافقوا على ذلك التقدير باعتباره معقولاً .

وأراضــي الجـروف (المــلوكة) هي الأخصب من بين كل أنواع الأراضي الزراعية لأنها تتجدد سنوياً بطبقة من الطمي الخصب وتروي جيداً بمـياه الفيضــان بحيــث لا تحتاج إلى وسيلة ري أخرى ، وبالتالي تنخفض تكالــيف الفلاحــة إلــى حدهــا الأدنى. وهكذا فإن كل أراضي الجروف في

السودان تفوق قيمتها أراضي السواقي بثلاثة أضعاف في بعض المناطق النهرية حسبما أوضحت الأرقام التي تم الوصول إليها . ولهذا السبب فقد وافقت اللجنة على اعتبار قيمة الفدان ٢٥٠ جنيها .

وبالنسبة للأراضي الزراعية الحكومية المؤجرة لمدة طويلة فإن التعويض يحسب على أساس الإيجار المنوي زائداً التعويض عن القنوات والمباني وتجهيزات الري. أما الأراضي التي يجدد إيجارها سنوياً فإن تعويضها يكون في شكل منحة بالإضافة إلى التعويض عن القنوات ووسائل الري الرافعة .

وبالنسبة للأراضي السكنية فقد ظهرت – في البداية – قلة الذين سيتأثرون بتقديرات اللجنة . فالغالبية العظمى من الأهالي سيرحلون إلى خشم القربة حيث يتم تعويضهم منزلاً عن منزل . أما الأقلية القليلة التي ستتأثر بالتقديرات فهم أولئك الذين يملكون أكثر من منزل أو أولئك الذين ينوون الهجرة إلى مكان آخر. غير أن ملكية الأرض في المناطق الريفية كان يكتنفها شيء من المفارقة كبير . فالأراضي السكنية ليست مؤجرة كما أنها ليست ملكاً حراً. وينطبق ذلك – تقريباً– على كل القرى التي تأثرت بفيضان ١٩٤٦ والتي لجأ قاطنوها إلى الأراضي المرتفعة بعيداً عن شاطئ النهر حيث شيدوا قراهم، بينما أضيفت أراضيهم السكنية السابقة إلى الرقعة الزراعية . وبما أن الفترة التي أعقبت عام ١٩٤٦ ، كانت قصيرة جداً بحيث لا تسمح بتطبيق القانون العرفي(بوضع اليد)فقد تعذر اعتبار تلك الأراضي المرتفعة ملكاً حراً .

أما في المدينة فقد اتضح أن هناك حالات نادرة لظاهرة بيع وشراء الأراضي السكنية (ملكية حرة) خلال الخمسة عشر عاماً الماضية .

والأرقـــام التـــي تـــم جمعها عن قيمة إيجارات منازل عديدة في وادي حلفا بالإضـــافة إلـــى الضرائب المفروضة عليها لم تكن ذات نفع في تقدير قيمة الأرض إذ أنهـــا – في حالات كثيرة – تلقي ضوءً على مستوى المباني أكثر من تحديدها لدرجة السكن أو شروط الملكية . وتبعاً لهذا الوضع فلم يكن أمام اللجـــنة خـــيار سوى الاعتماد على نتائج أرقام البيع والشراء للملكيات الحرة التي جرت في كوستي وشندي و استخلصت منها متوسطاً لسعر المتر المربع ، فكانت النتيجة كما يلي :

المتر المربع (ملك حر) في منطقة الدرجة الأولى: ٧٥٠ مليم

المتر المربع في منطقة الدرجة الثانية : ٥٠٠مليم

المتر المربع في منطقة الدرجة الثالثة : ٤٠٠مليم

ولـــم يمثل تقييم الأراضي المكنية المؤجرة من الحكومة مشكلة للجنة لأنهـــا سبق أن تحصلت على شروط الإيجار التي كانت سارية بموجب مزاد الخطـــة الإســـكانية للمديـــنة لعام ١٩٤٧. ورأت اللجنة أنه من العدل الأخذ بمتوسط نتائج المزادات التي جرت في وادي حلفا مؤخراً كما يلي :

قيمة المتر المربع في الدرجة الأول بمبلغ : ٢٥٠مليم

قيمة المتر المربع في الدرجة الثانية بمبلغ : ١٧٠مليم

قيمة المتر المربع في الدرجة الثالثة بمبلغ : ١٠٠مليم

ويتم التعويض على أساس المدة المتبقية من عمر الإيجار لا غير .

وقـــد وُضـــع للقـــرى تقدير اعتباري قدره ٥٠٠ مليم للمتر المربع ، ويطبق على المناطق السكنية (ملكية حرة) حيثما وجدت .

أمـــا في حالة الأراضي التجارية فلم يكن متوقعاً أن يتأثر أصحابها – إن وجـدوا — بتقديرات اللجنة نسبة لضآلة عددهم . وقد قادني الرأي العام في أوساط ملاك الحوانيت إلى الاعتقاد بأنهم يرغبون في إعادة فتحها بسوق حلفا الجديدة بمن فيهم أولئك الذين يودون الرحيل إلى أماكن اخرى غير(خشم القربة .)

وكمـــا حدث في حالتي الأراضي السكنية والزراعية فلم تقع مبايعات – يؤبه لها – في الأراضي التجارية خلال العقدين الأخيرين . وقبل أن تشرع اللجـنة فـي اجتماعاتها ، جاء إلى وادي حلفا معتمد التعويضات والمستشار القانوني فناقشنا ثلاثتنا أمر تقييم الأراضي التجارية باستفاضة . وقد أخبرتهم بأن إيجار الأراضي التجارية – بلا استثناء –قد استوفى مدته منذ وقت طويل وأن أحداً لم يثر متاعب حول تجديد الإيجار أو إعادة الملكية للحكومة. وكان رأيـــي الشخصي (لو سارت الأمور في وادي حلفا على طبيعتها) أن أجدد الإيجارات مادامت المباني بحالة مرضية ومادام شاغلو الحوانيت — موضع البحــث – هــم ملاكها المؤجرون . ولو طبقنا عليهم حرفية القانون فإنهم لن ينالوا شيئاً من التعويض مما يعرضهم لغبن عظيم لا يد لهم فيه . فاتفق معي زميلاي الآخران على اعتبارهم مؤجرين أصليين وبالتالي يستحقون التعويض . ثم قمنا بزيارة إلى عدد من الحوانيت وجمعنا أرقاماً أعطتنا فكرة جيدة عن الإيجارات ثم اطلعنا على تقديرات محايدة لأسعار معقولة للأراضي التجارية . كذلـك قمـنا بدراسة الأقساط المدفوعة في مزاد أراضي سوق (ديروسه) بمديـنة حلفا. وقد أطلع مفتش الأراضي اللجنة بأرقام بيع ملكيات حرة معينة مـن الحوانيــت جرى في كوستي وودمدني وأم درمان . وبهذه الذخيرة من

المعلومـــات تمكـــنا من الوصول إلى مقياس لتقييم الأراضي التجارية بمدينة وادي حلفا كان كما يلي :

قيمة المتر المربع (ملك حر) بالدرجة الأولى في المنطقة التجارية: ١ جنيه و٥٠٠ مليم.

قيمة المتر المربع (ملك حر) بالدرجة الثانية في المنطقة التجارية: ١ جنيه

وبالنســبة للأراضي التجارية المؤجرة أخذت اللجنة بمتوسط الأقساط المدفوعة في مزاد سوق (دبروسه) الذي انتهى إلى ما يلي :

قيمة المتر المربع (إيجار) بالدرجة الأولى :٧٥٠مليماً.

قيمة المتر المربع (إيجار) بالدرجة الثانية : ٥٠٠مليم.

ورؤى أن يُدفع التعويض على ما تبقى من فترة الإيجار وحدها . أما ملكيات الأراضي الأخرى مثل السينما والمناجم والملكيات غير المنقولة التي لم ترد في التصنيف المذكور سلفاً ، فقد أُرجئ تقدير قيمتها للجنة فنية يعينها معتمد التعويضات .

وفيما يختص بتقييم المباني ، فقد أوصت اللجنة بأن يتم تقدير قيمة كل المبانـــي بمديـــنة وادي حلفا بالمتر المكعب ، وأن يقوم التعويض على أساس قيمـــتها الجارية حسب تصديق مدير الأشغال لكل مستوى منها. واشتُرط أن يوضع في الحسبان عامل الإهلاك . أما في القرى فقد رُبط التعويض بالنسبة المقدرة لقواعد المباني (الأساسات) .

وبتاريخ ١٢ مارس – وبناء على طلب اللجنة – قمت بتقديم مقترحات للحصول على عون اقتصادي لتمكين الأهالي من تجاوز المصاعب المتوقعة خـــلال الفـــترة الانتقالية ما بين مغادرة وادي حلفا وحصاد أول محصول في

الوطـــن الجديـــد . فهذه الفترة ستكون – بلا شك – الأكثر حرجاً من بين كل مراحل إعادة التوطين. فستتعرض الأسر إلى بعض المشقة وتعجز عن تحمل مســئولياتها المنزلــية أو الوفــاء بالالــتزامات المتعلقة بالفلاحة ، مالم تتلق المساعدة. ومن المتوقع أن يتعرض جزء من أمتعتهم للضرر أثناء ترحيله مما يتطلــب إصـــلاحه عـند الوصـــول . كذلك فإنه لابد من تدبير المصروفات الضـــرورية لســد الاحتياجات المنزلية اليومية بالإضافة إلى الأعباء المالية الصعبة التي ستواجه أرباب الأسر خلال الأشهر الأولى في خشم القربة والتي تتمــثل فــي فلاحـــة الأرض – بكــل ما فيها من عنت ومكابدة – وحصاد المحصـــول الأول وتســويقه . وما لم يتم حل هذه المشاكل بطريقة ما فإنها ســتعرّض الأهالــي إلى نكسة اقتصادية ونفسية وتتسبب في تردي الأوضاع بشكل عام عقب إعادة التوطين .

ولتخفــيف العــبء خلال تلك الشهور الحاسمة ، كان علينا أن نختار وقــتا – للرحيل إلى خشم القربة – تكون فيه الظروف الاقتصادية للأسر في أحسن أحوالها ويكون فيه النشاط الزراعي في أدنى حالاته . وهذا ما ينطبق على فترة وحيدة من العام تبدأ من نهاية أبريل وتنتهي في أكتوبر وهي الفترة التي تلي حصاد الموسم الشتوي مباشرة . ففي هذه الفترة يستطيع المزارعون بــيع حصادهم نقداً أو حمله معهم قوتاً إلى وطنهم الجديد. وقد بلغت تقديرات قــيمة الحصاد الشتوي في منطقة حلفا ٧٥١٥٤ جنيهاً ، منها ٣٥٤٩٩ جنيهاً مــن نصــيب قرى شمال حلفا التي سترحل في المرحلة الأولى . أما متوسط دخل الأسرة من هذا المبلغ فهو ١٤ جنيهاً و ٧٠٠مليم باعتبار أن عدد الأسر ٢٤٠٥ أســرة. والمحصـــول الرئيســي هو – بالطبع – القمح ثم يلية الفول

فالبصل . ويبلغ عدد الأسر في الجزء الجنوبي ٣٤٤٥ أسرة منها ١٣٢٧ أسرة من قرية دغيم وحدها . هنا يهبط متوسط دخل الأسرة إلى ١١ جنيها و ٥٠٠ مليم بسبب ندرة الأرض في منطقة (بطن الحجر) . وقد تم استثناء مدينة حلفا من هذه التقديرات لأن سكانها من غير المزارعين .

وبالرغم من أن هذه المقترحات لن تحل كل المصاعب إلا أنها ستساهم في تخفيف الضغط على الأهالي . أما المقترحات الأخرى لتقليل مصاعب الموقف فقد احتوتها وجهة النظر التي تقدمت بها . وقد حرصت على تأكيد حقائق معينة تتعلق باقتصاديات المنزل والأرض في الوقت الراهن وشددت على مراعاتها قبل اقتراح الطرق والوسائل التي تساعد على سد حاجيات الأهالي المنزلية والوفاء بالتزامات الزراعة . ففي كل القرى بلا استثناء يعتمد دخل الأسرة على المصادر الآتية : محصول البلح ، فالحوالات البريدية التي يرسلها أرباب الأسر الغائبون ثم المحصولات الموسمية المحدودة التي تجنيها الأمهات بمساعدة أطفالهن . وقد أظهر المسح الاجتماعي والاقتصادي الذي أجرته مصلحة الإحصاء أن تدفق الصرف كان منتظماً أكثر من تدفق الدخل ، وأن الدخل – في معظم الحالات – يعجز عن تغطية المصروفات اليومية . لذلك تلجأ معظم الأسر إلى الإستدانة وتعيش جزئياً على أرصدتها الدائنة . وعندما تهاجر هذه الأسر إلى خشم القربة فإنها ستكتشف أن كل مصادر دخلها – باستثناء الحوالات البريدية – قد تغيرت ؛ وأن محصولها الثابت من البلح والذي يدر عليها دخلاً سنوياً منتظماً دون أن يكلفها عبئاً ثقيلا ، قد ضاع إلى الأبد . وأن الأمهات اللاتي كن يفلحن

مســـاحات صغيرة من الأرض لن يستطعن مواكبة التزامات فلاحة ١٥ فداناً في خشم القربة .

ولســـد هـذه الفجـــوة وتمكيـــن أرباب الأسر من الجنسين من تحمل مســئولياتهم كمزارعيسن مقتدريـــن ، اقترحت تعويضاً نقدياً لهم عن أشجار النخيل أو على الأقل أن يُدفع لهم قسط معقول منه قبل مغادرتهم وادي حلفا . وإذا ما تمت الموافقة على هذه الخطوة ، فإنني سأتمكن من أخذ زمام المبادرة لأنصـــح الأهالي باستغلال جزء من ذلك التعويض لإنشاء مؤسسة زراعية أو جمعـــية تعاونية عملاقة تمول بأسهم بواقع جنيه واحد عن كل نخلة. وسيجمع الاكتـــتاب رأس مال يفوق ثلث المليون من الجنيهات يكفي لشراء تراكتورات وحاصدات وورش ووسائل نقل لتسويق المحصول . ويمكن لمجلس إدارة هذه المؤسسة أن يفرض رسوماً معقولة على الخدمات التي تقدم للمزارعين لمقابلة مصـــاريف تشـــغيل وإهلاك الماكينات يتم جمعها في زمن الحصاد كما يمكن لمجلـــس الإدارة أن يصـــرف بعـــض الأرباح للمساهمين . ولتوفير العمالة الماهرة ، فإنه يمكن تعيين فريق من أهالي حلفا يتم إرساله – بأعجل ما يمكن – إلـــى معهـــد الزراعة الآلية (بتوزي) في منطقة الفونج أو إلحاقهم بورش مشروع الجزيرة للتدريب على قيادة وصيانة الآلات الزراعية . وإذا ما أفلحنا في إنشاء هذه المؤسسة ، فإننا سنكون على يقين من أن أهالي حلفا سيصبحون مزارعيـــن ناجحيـــن عـــند قيام المشروع الزراعي الجديد ،.ومن أن انتعاش حياتهم الاقتصادية المستقبلية ستكون أمراً مؤكداً . وعلاوة على ذلك فإن دفع التعويضات سيمكن الأسر من تسديد ديونها قبل الرحيل مما يتيح لها استهلال معيشتها في وطنها الجديد على أساس التعامل النقدي .

النقطة الثانية التي أثرتها هي : أن تقصر وزارة الزراعة الدورة الزراعية الأولى على المحاصيل ذات النضج المبكر ، وذلك لكي يتمكن الأهالي من حصاد محصولهم الأول بأسرع ما يمكن . ثالثاً : ينبغي زراعة أكبر مساحة ممكنة في المزرعة التجريبية بالخضروات لتأمين تموين منتظم للأهالي عند وصولهم . رابعاً : ينبغي أن يشغل الموظفون النوبيون (الذين ستكون أسرهم بحاجة إلى وجودهم إبان الفترة الانتقالية) كل الوظائف الحكومية في منطقة إعادة التوطين ، إضافة إلى أن المرتبات الشهرية لاؤلئك الموظفين ستعين الأسر في تغطية المصروفات اليومية . وقد أوصيت كذلك بأن تكون أولوية الاختيار لكل الوظائف الجديدة – في مشروع إعادة التوطين – قاصرة على النوبيين وعلى وجه الخصوص أولئك الذين عانوا من الاغتراب للعيش مع أسرهم. وأخيراً ، ينبغي أن توفر وزارة الإنتاج الحيواني [1] ما يكفي من الذبيح لإمداد السوق باللحوم ، وأن تمد الأسر بالأبقار الحلوب(تحت الحساب) لتوفير اللبن لغذاء الأطفال. ويمكن أن تسدد قيمة تلك الأبقار في موسم الحصاد .

.. هذه هي مقترحاتي التي رأيتها لتجاوز المصاعب خلال الفترة الإنتقالية . ولقد وقّع (برنامج الغذاء العالمي) – مؤخراً – مع حكومة السودان إتفاقية التزم فيها بالمساهمة بتوفير الأصناف الغذائية الآتية للأهالي خلال السنة الأولى التي تعقب إعادة التوطين :

القمح : ٧٢٠٠ طناً

خوخ معلب : ٦٥٠ طناً

---

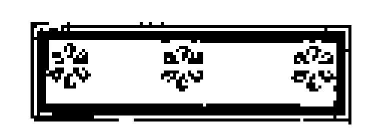
(1) كانت تسمى – في ذلك الوقت – وزارة الثروة الحيوانية – المترجم .

زبيب :	٥٥٠ طناً
لبن مجفف منزوع الدسم :	٢٥٠ طناً
لبن مجفف كامل الدسم:	٢١٠ طناً
زيت نباتي :	٣٦٠ طناً

وقـــد تـــم حســـاب هذه الكميات على أساس حجم الاستهلاك اليومي للشخص الواحد وذلك على النحو التالي :

القمح :	٤٠٠ جرام
الفاكهة المعلبة :	٣٥ جرام
لبن منزوع الدسم (للكبار) :	٣٠ جرام
لبن منزوع الدسم (للحوامل والأطفال):	٤٠ جرام
لبن كامل الدسم :	١٢ جرام
زيت نباتي :	٢٠ جرام

لقـــد وفـــر (بـــرنامج الغذاء العالمي) التابع للأمم المتحدة هذا العون تشـــجيعاً ومـــوازرة للحكومات ليساعدها في تنفيذ مشروعات من هذا النوع بغـــرض زيادة إنتاج العالم من الغذاء . وينبغي ألا يختلط الأمر على القارئ فيظـــن ان هـــذا العـــون هو (معونة خيرية) كتلك التي يقدمها برنامج معونة اللاجئيـــن. لقد أزاح هذا العون المجزي العقبة الكأداء المنتظرة ومكنني من تخطيط الجدول الزمني لبرنامج التهجير بحُريَّة . وقد قامت اللجنة بتنفيذ بقية مقترحاتي،واتّبع الأهالي نصيحتي بإنشاء جمعيات تعاونية في قراهم الجديدة .



الفصل الرابع عشر

إعداد برنامج تهجير السكان

بــنهاية مــارس بــدأتُ في إعداد برنامج أولي للتهجير . وبالاستعانة بتقرير التعداد السكاني ، قمت بحساب أعداد الراحلين وحجم المتاع لكل قرية وبالتالــي تحديد عدد مركبات السكة حديد المطلوبة لنقلهم . كذلك قمت بعملية مماثلــة لأغــراض تهجــير سكان مدينة وادي حلفا . وفي اجتماع عقدته مع مفتش السكة حديد تم تحديد عدد القطارات المطلوبة لنقل الركاب والمتاع كما تقرر إلحاق عربات نقل الحيوان بقاطرات الأمتعة .

تــم تقســيم العملية برمتها إلى ثلاث مراحل . تغطي المرحلة الأولى منها ، مدينة وادي حلفا وكل القرى الواقعة على ضفتي النيل شمالاً (فرص شــرق وفــرص غرب وسرّه شرق وسرّه غرب ودبيره وأرقين وأشكيت) . وقــد تــم وضع برنامج تهجيرها للتنفيذ خلال عام ١٩٦٣ . وتغطي المرحلة الثانــية (عــنقش ودغيم وجزيرة المجراب وقرية الكنوز المجاورة لبوهين ، وجمــي وجــزر كُوكــي ومرشد) حيث يتم تهجيرها في عام ١٩٦٤ . أما المرحلة الأخيرة وتشمل : (صرص ومسمة ودواشات وقرى عمودية عكاشة) فقد أُبقيت إلى عام ١٩٦٥ .

لقــد واجهتني مشاكل عديدة وأنا أقوم بإعداد هذا البرنامج ،ذلك أنني اعتمدت كليةً علي خيالي نتيجة لانعدام أي سابقة تتبع ، فتصورت ما يمكن أن يقــع مــن أمور قبل أن تحين ساعة الرحيل . وفي المقام الأول فقد وضعت اعتباراً لعودة معظم أرباب الأسر الغائبين الذين يتوقع أن يلتحقوا بعوائلهم قبل الرحيل إلى خشم القربة . ويقدر عدد هؤلاء الغائبين بما يساوي المقيمين في كثــير مــن القرى . ولذلك فقد كان حتماً أن يخصص لهم مكانهم على متن

مركبات القطارات المتجهة إلى الوطن الجديد وبالتالي يقتضي الأمر أن يشمل البرنامج قطارات إضافية عديدة .

وبالنسبة لصحة الركاب فإن الكثير منهم يحتاجون إلى عناية مقترة . ففـي كل حين فإن هناك العجزة والمسنيّن والمرضى والحالات المتقدمة من الحمـل وحديثات الولادة . ولا يتوقع أن يقوى هؤلاء على تحمل رحلة تمتد إلى ألفي كيلو متر دون رعاية طبية . فكان علينا أن نوفر – لكل قطار ركاب – مستشفى متنقلاً تحت إشراف طبيب ومجهزاً بغرفة عمليات صغيرة وقابلة و طـاقم مسـاعدة طبية . ثم إن المواشي المحمولة تحتاج إلى ما يكفيها من العلف والماء كما تحتاج إلى رعاية طوال الرحلة .

وتـم تقديـر المـواد اللازمة لحزم وربط الأمتعة بـ ٢٠٠٠٠ جوال مسـتعمل يمكـن جلبه من مشروع الجزيرة و ٢٠٠٠٠ ربطة من الحبال و ١٥٠٠٠ قفـة تجلـب مـن مدينة أبو حمد . وينبغي توزيع هذه المواد على الأهالي بوقت كاف قبل شحن الأمتعة . وبالإضافة إلى ذلك فإننا سنحتاج إلى أسطول من عشرين شاحنة لنقل الأمتعة من المنازل إلى محطة السكة حديد . ونسبة لاستمرارية عملية النقل ، فإننا سنحتاج إلى فرقتين من الحمالين تتكون الواحدة منهما – على الأقل – من ١٠٠ حمال . وبالنسبة للقرى الواقعة على الضفة الغربية فإن العملية ستكون مزدوجة لأن الأمتعة سيتم نقلها عبر النهر بإحدى البواخر .

وفـي اجـتماع مع السيد الدرديري الصاوي مفتش السكة حديد ناقشنا الترتيبات الضرورية للترحيل وحددنا المسار على الخط الرئيسي المتجه إلى الخـرطوم حتى تقاطع عطبرة ثم على خط بورتسودان إلى تقاطع (هيا) حيث

يـــنحرف الخط جنوباً إلي كسلا ثم إلى خشم القربة . ونسبة لأن خط حلفا – عطـــبرة كان خطاً حديدياً خفيفاً ، فقد استوجب ذلك استخدام قاطرات بخارية حـــتى عطـــبرة ومنها حتى بقية الرحلة يتم تسيير قاطرات ديزل كهربائية . وتســتغرق الــرحلة مـــن وادي حلفا إلى خشم القربة أربعين ساعة . وقد تم الاتفـــاق على شحن الأمتعة المنزلية في عربات الشحن تبعاً لتوالي السكن في خشـــم القربة بحيث يمكن حمل أمتعة الأسر المتجاورة في نفس العربة . ويتم وضـــع علامة مميزة لمجموعة الأمتعة التي تملكها كل أسرة بينما يتم تثبيت قائمـــة بأسماء أرباب الأسر وعدد وعلامات أمتعتهم وعناوين أقامتهم الجديدة فـــي خشم القربة وذلك لتمكين معتمد التوطين من معرفة وفرز أجزاء الأمتعة وإرســـالها إلى المنازل قبل وصول أصحابها . أما قطارات الركاب فقد تقرر أن تضـــم كـــل منها مركبة مستشفى لرعاية المرضى وكبار السن، ومركبة مخـــتلطة مـــن الدرجتيـــن الأولى والثانية لراحة الحوامل وحديثات الولادة، ومركـــبات من الدرجة الثالثة لبقية الركاب . ولتفادي الازدحام وجعل الرحلة مريحة بقدر الإمكان ، تم تخفيض عدد الركاب من ٨٠٠ راكـــب(وهو الرقم المعـــتاد لركاب القطار الواحد) إلى ٦٠٠ راكب لا يزيدون. وبالرغم من أن الـــركاب ســـيتم توجـــيههم مقدماً بأن تكون أمتعتهم المصاحبة لهم في حدود الحاجـــة التـــي تتطلبها الرحلة ، إلا أن مركبة أمتعة سيتم إلحاقها بكل قطار للركاب لمقابلة ما يتوقع من زيادة في المتاع . وتم الاتفاق كذلك على إلا يزيد فـــارق الزمـــن بيـــن انطـــلاق قطارات الأمتعة وقطارات الركاب عن أربع وعشرين ساعة . ووفقاً للبرنامج فسيتم ترحيل دفعتين أسبوعياً .

قمنا بعد ذلك برحلة قصيرة (بالموتر ترولّي) على امتداد خط السكة حديد إلى (فرص) لتحديد محطات مناسبة لأقرب النقاط لقرى الضفة الشرقية ومـا يقابلها من قرى الضفة الغربية . وعبرنا (باللنش) إلى الضفة الغربية لاختيار المواقع المناسبة لإرساء البواخر.

شكّل نقل أمتعة (جزر كوكّي) معضلة صعبة للغاية. فالأهالي يعيشون فـي بـيوت متناثرة على الجزر الصخرية للشلال الثاني والتي تفصلها عن بعضـها ممرات ضيقة تجري خلالها نهيرات جارفة . ولذلك يتعذر على أي مركب من أي نوع أن يحركهم ويلتقط حاجياتهم المنزلية ثم ينقلها إلى شاطئ النهر. فلن يكون أمامنا إلاّ خيار اللجوء للأساليب المتأخرة التي يتبعها الأهالي وهـي أن نصنع (أطوافاً) من الخشب ونربط في أطرافها قِرَباً منفوخة تزيد حجـم حمولـتها ، ثم نحمّلها بالأمتعة من جزيرة إلى أخرى ومن طوف إلى طـوف حتى نبلغ بها الشاطئ . ومما يزيد من صعوبة الأمر أننا اكتشفنا أن الضـفة الشرقية قُبَالة الشلال الثاني كانت بالغة العلو عن سطح الماء وتوشك أن تكـون عموديـة الشـكل بحيـث يتعذر على أي ناقلة أن تتلقى حمـولة الأطواف ، كما يستحيل على أي حمال الصعود إلى قمتها الشاهقة . انتهى بنا الأمـر إلى حتمية نقل كل الأمتعة إلى الضفة الغربية حيثما أنبسط الانحدار. غـير أن الـرمال الموحلـة هنا لا تقهرها إلا سيارات (اللاندروفر) التي ستحمل الأمتعة إلى (عبّارة) أرقين قبالة مدينة حلفا لتعبر النهر إلى الضفة الشرقية .

في ضوء كل هذه المعلومات ، قمت بإعداد البرنامج الأولي للمرحلتين الأولى والثانية . وتبيّن لي أننا سنحتاج إلى خمسة وخمسين قطار ركاب وستة

وستين قطار شحن (بضاعة) ملحق بها ٢١٦ مركبة حيوان . أما المرحلة الثالــثة والأخيرة – والتي يبعد سكانها عن محطة السكة حديد ويحتاجون إلى مزيد من سيارات الترحيل – فقد تُرك أمرها لما يتمخض عنه الغد .

هــناك نقطة أخرى تحتاج إلى حل . فأثناء الساعات الأربع والعشرين التــي تلــي شحن الأمتعة وفي ما قبل مغادرة الأهالي ، تنعدم وسائل طهي الطعــام مما يستوجب تدبير طريقة إطعامهم إضافة إلى تجهيز وجبات الطعام أثــناء الــرحلة . فتم الاتفاق – في اجتماع مع بعض الأعيان – على أن دفع مــبلغ إجمالي قدره ٥٠ قرشاً لكل شخص ، يكفي للوفاء بالغرضين وأن ذلك يمكن المسافرين من تدبير الطعام الذي يحلو لهم . واتفقنا أيضاً على ضرورة أن تصــدق وزارة التجارة على حصة إضافية من الدقيق لمخابز حلفا للوفاء بحاجات الخبز أثناء عملية التهجير .

في هذه الأثناء واجهت شركة (تورنو) – في خشم القربة – بعضاً من ســوء الحظ . فبينما كانت تقوم بحفر خندق – باستخدام المتفجرات – لإرساء قــاعدة الخــزان ، إصطدمت بشق في الصخور الرسوبية أستدعى مزيداً من الحفــر للوصــول إلى طبقة ثابتة . وقد كلفتهما هذه العملية مالاً وجهداً ووقتاً ثميــنا . وعــندما فرغت من حل هذه المشكلة ، لاحت لها مصيبة جديدة من ســوء الطــالع . ففي ٢٧ مايو فاض نهر عطبرة بصورة غير متوقعة وغير معــتادة . وتدفقت المياه من جبال أثيوبيا العالية إلى فروع النهر وإنصابت في مجــراه وجرفت السد الموقت الذي يحمى قاعدة الخزان مما أدى إلى تسرُب المــاء إلــيها. وعــندما إنحسرت المياه بعد أيام قليلة ، خلّفت وراءها خراباً

ملحوظاً في موقع الخزان . ولم يتم ترتيب الأوضاع واستئناف العمل إلا بعد وقت مقدر .

أمــا شركة (هولزمان) فقد بدأت عملها بكفاءة في حفر القناة الرئيسة وتقدمــت فــيه بخطــى جــيدة . وأمــا شركة باريس للصناعات الكهربائية (L,Industrie Electrique of Paris .) فقد بدأت في تكديس آلياتها للبدء فــي إقامة الأبراج الناقلة للطاقة الكهربائية . وفي ذات الوقت بعثت مصلحة الإحصاء فريقاً من المساحين إلى منطقة إعادة التوطين بأجهزتهم وخرائطهم وعمالهم (الجنزرجية) لتخطيط المدينة وقراها وتحديد مربعاتها ، وهذا عمل مضن تمثل في نراعةٍ متواصلة للمواقع جيئة وذهابا ، وإرساء حجارة الحدود الفاصــلة بينها وتثبيت الأوتاد في زوايا المواقع الخاضعة للتعمير . وشرعت وزارة الري – بجرّافاتها وحفّاراتها وناقلاتها – في تحريك الأتربة على امتداد القنوات الفرعية وفق جدول زمني صارم .

وخلال هذا الوقت بدأت قرية خشم القربة تنمو بفضل تدافع العمال من كل أنحاء السودان – إليها – بحثاً عن العمل مع الشركات المتعاقدة . وبرزت إلى الوجود الكثير من المطاعم والمقاهي في ساحة السوق وامتلأت الحوانيت بالســلع الاســتهلاكية، وشــيّدت لجنة التوطين نُزُلاً (استراحة) واسعاً على شــاطئ نهر عطبرة قرب القرية. كما تم تشييد مكاتب جديدة لمعتمد التوطين ولــنقطة الشرطة . وعلى الجانب الغربي من القرية – وفي منتصف الطريق إلــى الخــزان – بــدأت مستعمرة الرى بنُزلها (استراحتها) الجميلة ذات الطابقين في الظهور . وأقامت مصلحة السكة حديد خطاً خصوصياً إلى موقع أعمال الخزان وخطوطاً أخرى إلى المحطة مصحوبة بوسائل تفريغ إضافية

لتواكب حركة ورود مواد البناء المتزايدة . ونما ما كان يوماً قفراً – لا تميزه إلا أكــواخ متواضـــعة لقرية خاملة الذكر أتخذها عرب الشكرية محطةً أثناء سقاية إبلهم – ليصبح مستوطنة حديثة مزدهرة تعج بالحياة وبأزير الماكينات .

وفي وادي حلفا شرعت وزارة الصحة في حملة واسعة ضد الأمراض المعدية بالمنطقة . فتم تقسيم الحملة إلى جزئين تبعاً لطبيعة المرض وتقنياته . تمــثل الجــزء الأول فـــي مجـــيء الأطباء – وفي معيتهم فرق الممرضين والمرافقيــن – بصيدلية غنية بالأدوية وبمعامل لفحص الدم والبول والبراز . وتــم تعزيـــز وحـــدة الأشعة بمستشفى وادي حلفا بعاملين إضافيين وبمعدات إضـــافية . وكانـــت الوظيفة الرئيسية لهذا الفريق هي أن يمحو كل الأمراض المعديـــة خصوصاً البلهارسيا والملاريا والسل . فأقام مراكز بالقرى وبدأ في تنفـــيذ أحد أضخم المشروعات في تاريخ الخدمات الطبية بالسودان . وأخضع كـــل شخص في المنطقة لفحص شامل وحررت له بطاقة بكل تفاصيل حالته الصحية . وتم تصنيف المرضى بعناية وتلقوا أفضل العلاج الممكن . وقد تم إعطـــاء عـــناية خاصـــة لحالات البلهارسيا كما أقيم معسكر طبي في منطقة معـــزولة لعـــلاج حالات مرضى السل حيث بلغ الشفاء كثيرون أما الحالات المتأخرة فقد تمت متابعتها بعلاج مستمر – في مواقع معزولة – بخشم القربة. أمـــا حـــالات الملاريـــا فقد ووجهت بالطب العلاجي للمصابين بينما أخضع الآخريـــن من الناس لوسائل الطب الوقائي الجماعي . وإلى جانب هذا النشاط العلاجـــي ، بـــذل جهد كبير في خشم القربة لتعقيم المنطقة قبل أن يحل بها أهالـــي حلفـــا . وتمـــت الســـيطرة على حالات البلهارسيا في أوساط العرب المجاوريـــن كما تم إطلاق حملة كبرى لتطهير ضفاف النهر ومنطقة الخزان

مــن القواقــع . ووجهت عناية إلى حالات السل وسط العرب وساهمت هيئة الصحة العالمية في الجهود الرامية لاستئصال الملاريا في منطقة المشروع . فعولجــت كل الحالات وتمتع الأصحاء بحماية الوسائل الوقائية وبذلت جهود خارقة لإخلاء كل المنطقة من بعوضة (الأنوفيليس) الناقلة للملاريا .

أما الجزء الثاني من الحملة فقد تكوّن من أطباء العيون بقيادة الدكتور محمد شريف ويعاونه فريق مكوّن من خمسة عشر مساعداً طبياً من بينهم فني معامل ومحضّر عمليات . جاء هذا الفريق إلى وادى حلفا في فبراير ١٩٦٢ وبــدأ عمله في بيت مؤجر قرب المستشفى . وكانت هيئة الصحة العالمية قد أجــرت مسحاً عاماً لأمراض العيون في وادي حلفا صنفت فيه العدوى طبياً إلى نوعين هما : (التراكوما) وعدوى العيون العامة . وأوضح المسح أن ٦٨ % مــن الســكان مصابون بالتراكوما . وقد أستخدم هذا المسح كأساس لبدء حملــة العلاج . وبمشورة هيئة الصحة العالمية تم وضع خطة لضبط عمليات الحملــة التــي بــدأت بتســجيل السكان من منزل إلى منزل ثم تقرر العلاج الجماعــي الذي شمل كل شخص :المريض والصحيح معاً . واستمر العلاج لمــدة ثلاثــة اشهر بوادي حلفا وخطط له أن يستأنف عند الوصول إلى خشم القربة . وقد تم إجراء مسح – مباشرة – بعد التهجير أعطى نتائج باهرة . فقد اتضــح أن ٨٠ %مــن الذين تمت معالجتهم في وادي حلفا قد شفوا تماماً . وبالــرغم مــن ذلك فقد رأى الدكتور محمد شريف أن يواصل العلاج لأربع ســنوات أخــرى بعــد التهجير مصحوباً ببرنامج ثقافة صحية منتظم.وبذلك استطاع أن ينجح في استئصال أحد أوسع الأمراض انتشارا في وادي حلفا .

فــي هــذه الأثنــاء كنت مشغولاً بقضايا الجزء الجنوبي من المركز وبالمشــاكل الإداريــة التـــي ستواجه الأهالي بعد أن تغرق مدينة وادي حلفا وتختفي من الوجود. وذلك أن آثار بحيرة السد العالي ستمتد جنوباً حتى شلال (دال) وتغمر كل المنطقة المأهولة بالنوبيين الحلفاويين بالإضافة إلى عمودية عكاشــة فــي منطقة السكّوت . لكن المنطقة الممتدة على شاطئ النيل ما بين شــلال دال وقرية أبو فاطمة على حدود مركز دنقلا والتي يسكنها السكّوت والمحــس ، لــن تغــرق . وهذه المنطقة تشمل الجزء الأكبر من مركز حلفا ونسبة سكانها هي الأعلى في المنطقة التي ستغمرها المياه . وهي مثل منطقة حلفــا النيلية تفتقر إلى الأراضي الزراعية لكنها لا تعدمها مثل منطقة (بطن الحجــر) . وبــلاد المحــس تفــوق بلاد السكوت أرضاً وثروة لكن الأخيرة مشهورة بتمرها الممتاز . والمنطقتان ترتبطان بمدينة حلفا عبر طريق برّي ، فهي سوقهما الرئيسة وعاصمتهما الإدارية ومخرجهما الوحيد إلى باقي الدنيا لأنها نهاية الخط الحديدي وميناء البواخر المتجهة إلى الشمال . وليس لهاتين المنطقتيــن إدارة مباشــرة مســتقلة ، لكنهما يتبعان لمجلس ريفي حلفا الذي يشــكّلان أغلبية أعضائه . غير أنهما يتمتعان بإدارة أهلية تقوم على وحدات علــى رأس كــل مــنها ناظر ومحاكم أهلية تنظر في القضايا الطفيفة تحت إشــراف القاضي المقيم بحلفا . وبالنسبة لقضايا الأحوال الشخصية فإن هناك في عبري – مركز السكوت – محكمة شرعية تنتقل دورياً إلى منطقة المحس لفــض نزاعات الأحوال الشخصية. ولكل منطقة نقطة شرطتها المعززة بقوة راجلة وبقليل من السواري لمناهضة التهريب ، ولها مدارس قراها ومدارسها الوســطى (للأولاد والبنات) في دلقو وعبري . وهناك مستشفيان وعدد كبير

مــن المراكز الصحية المنتشرة في القرى ، وسوقان صغيران فيهما حوانيت صغيرة تدار – في الغالب – بواسطة وكلاء لكبار تجار مدينة حلفا . وسيخلق اختفاء وادي حلفا فراغاً إدارياً وتجارياً لابد من سده قبل زوال رئاسة المركز والسوق الرئيسية للمنطقة .

وهــناك حــلاّن للمشكلة الإدارية بهذه المنطقة يحتاجان إلى رؤية قبل اتخاذ قرار بشأنهما . الحل الأول هو أن يتم إلحاق منطقتي السكوت والمحس إلـــى مجلس ريفي دنقلا وضمهما إلى الدناقلة . أما الحل الثاني فهو أن يكون لهمــا مجلســهما المحلي المستقل ومؤسساتهما الحكومية الخاصة . وقد استند الحل الأول إلى منطق أن الدناقلة هم في الأصل نوبيون ويمتون بصلة القربى للســكوت والمحس ، كما يستند إلى أن جغرافية المنطقة الجنوبية من مركز حلفا تماثل الأحوال الجغرافية لمركز دنقلا ويمكن اعتبارها امتداداً له . ومن ناحــية أخــرى فإن عدد سكان المنطقة لا يتجاوز ٧٠٠٠٠ نفس – وهو رقم ضئيل لا يؤهلها لقيام مجلس محلي مقتدر ، وإن إيراداتها التي تجبى – غالباً – من ضريبة النخيل ومن ضريبة الأرض المحدودة ، لن تغطي تكلفة الإدارة مالم تدعم من الحكومة المركزية . غير أن هناك عوامل معيّنه لا تساعد على دمــج السكان فــي إدارة دنقــلا . فوتيرة حياتهم وبيئتهم حلفاوية أكثر منها دنقلاوية ولهجتهم الحلفاوية تختلف عن لهجة الدناقلة . ومن الناحية التاريخية فإنهم مرتبطون بأهالي حلفا ولم تكن لهم أي صلات بجيرانهم جنوباً . أما من جهــة الــتجارة فإن أنظارهم تتجه دائماً إلى الشمال . فمحاصيلهم تسوق في حلفــا أو تُحمــل منها بالبواخر إلى مصر . وهناك جزء كبير من محصول بلحهــم لــيس له ســوق فــي الســودان خصوصاً تلك الأنواع الجيدة الغنية

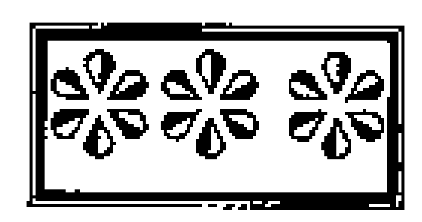
بالسكريات وغير المعهودة لدى تجار التمر السودانيين والتي تتأثر بالسوس ولا تقوى على مقاومته . ولهذه الأنواع سوق رائجة في مصر ، ولذلك فإنها تصدر إلي هذه السوق التقليدية . إضافة إلي ذلك فإن كل صغار التجار في هذه المنطقة هم وكلاء لتجار الجملة بحلفا والذين يمولونهم في زمن الحصاد لتمكينهم من شراء المحصول لقاء عمولة معينة . وأخيراً فإن السكوت والمحس يكنون للدناقلة قدراً محدوداً من الحب ويعارضون فكرة الخضوع لهم.

كل هذه الأسباب ترجح الأخذ بفكرة إنشاء مجلس مستقل لا ضم المنطقة إلي دنقلا . ولذلك فقد أوصيت – آخذاً في الاعتبار الأسباب السالفة – بمنحهم مجلسهم المحلي ليكون مقره في دلقو أكبر مراكز المنطقة أو في أي مكان آخر مناسب يتفق عليه الجانبان . وبالنسبة لنقطتي الشرطة اللتين كانتا تتبعان لمركز حلفا ، فينبغي تعزيزهما ووضعهما تحت إشراف ضابط شرطة يكون مقره في (عبري أو دلقو) أيهما يصير مكاناً لرئاسة المجلس . أما القضايا المدنية والجنائية فيمكن البت فيها بواسطة القاضي المقيم بدنقلا في جلسات دورية . ويمكن للقاضي الشرعي المقيم في عبري النظر في قضايا الأحوال الشخصية بالمنطقة مثلما كان في السابق كما يمكن لمكتب ضابط الزراعة بدلقو أن يتبع لمكتب تفتيش الزراعة بكرمة . وبالنسبة لتسويق التمر فإن الجمعيات التعاونية الممولة بواسطة البنك الزراعي يمكن أن تحل محل تجار القري وبذلك تتحقق إستمرارية الحركة التجارية . وبتوقف إنتاج حلفا والنوبة المصرية من البلح ، يتوقع أن تحتكر الجمعيات التعاونية سوقه في مصر مما يؤدي إلي ارتفاع أسعاره .

إن اتصـــال هـــذه المـــنطقة بميناء حلفا الجديد ســيكون من أصعب المصـــاعب . فالطـــريق الوحيد الذي يربط المنطقة بميناء حلفا ستغمره مياه البحـيرة إلـــي مسافة ١٢٠ كيلو متراً (أي المسافة من قرية فركة إلي نهاية الخط الحديدي) . ولذلك فقد أوصيت أن يقوم قســم الطرق بوزارة الأشغال باستكشـــاف الجانب الشرقي من حافة البحيرة علي أمل فتح طريق جديد من فركة إلي المحطة رقم ٤ (نمرة ٤) في صحراء العتمور أو منها مباشرة إلي الميـــناء الجديـــد المقـــترح . وألححـــت علي سرعة القيام بهذا العمل لتجنب إختـــناقات الحركة علي الإمتداد الجنوبي للمركز والعزلة التامة للمنطقة . في هـــذه الأثـــناء كانت وســـائل المواصلات البرية المستقبلية مع مصر يجري التداول حولها في أعلي المستويات حتي يتم الوصول إلي حل لها قبل ترحيل بواخـــرنا إلـــي الخـــرطوم . ففي الوقت الحاضر يتكون أسطولنا من بواخر مسطّحة الجســم غير صالحة للملاحة في المياه العميقة . وإذا تقرر استئناف الملاحة بين الميناء الجديد وأســوان ، فلا بد من تغييرها ببواخر صغيرة ذات قعر حاد . وبما أن حكومة السودان كانت تدير حركة البواخر بالخسارة خلال الســتين عامـــاً الماضية فهي لا ترغب في مواصلة المعاناة من هذا الصداع المزمن . وبما أن الخط الحديدي ينتهي عند الحدود المصرية ، فهي تميل إلي ربط البلدين بالسكة الحديد . لكن المصريين – وقد انتبهوا إلي التكلفة الباهظة لمـد خط حديدي من أســوان عبر الصحراء المصرية مسافة ٥٠٠ كيلو متر إلـــي وادي حلفا – كانوا يميلون إلي قبول ملاحة نهرية بميزانية ضعيفة عن تحمـــل أعباء إنشاء خط حديدي بذلك الطول . وعلي كل حال فإن بعضاً من الوقت سيمضي قبل أن يتم تصنيع البواخر المقترحة وتسييرها إلي بحيرة السد

العالـــي . وقــد يحــتاج هذا الأمر إلي سنين تتعرض أثناءها حركة الصادر بالمــنطقة إلـــي الخطر ، فإما أن تنهار تماماً وإما أن تتخذ طريقاً طويلاً إلي بورتسودان ثــم تــبحر منها إلي السويس . وهناك أمل ضئيل في أن يقدّر المصريون مصاعبنا المحلية ويحاولوا أيجاد طريقة لسد الفجوة التي ستخلقها مغادرة بواخرنا المنطقة وفقاً للجدول الزمني الذي ينتهي بفيضان عام ١٩٦٣ . وعلي كل حال فإن هذه المشكلة تتجاوز حدود مسئولياتي التي تنتهي بتقديم تصور للوضع كما يتراءي لي .

واستنادا علي كل هذه النقاط ، قمت بإرسال تقرير وافٍ حوى ميزانية لإدارة منطقتي السكوت والمحس مستقبلاً وشمل الاحتياجات الأمنيّة وذلك في ٢٩يونيو ١٩٦٢ وعنونته لمدير المديرية الشمالية كما أرسلت صورة منه إلي لجنة التوطين .



الفصل الخامس عشر

أثر التعويضات على الشعور العام (١)

بحلــول يولـيو تم إخطاري رسمياً بأن تاريخ بداية تخزين المياه في بحــيرة الســد العالي قد أجل إلي يوليو ١٩٦٤م . وقد تلقينا إشــعاراً سابقاً فــي مايو ١٩٦١ من وكالة رويتر للأنباء – والتي أوردت تصريحاً للدكتور (فيرونيز)[١] خلال زيارته للخرطوم إبان حملة إنقاذ آثار النوبة – يشير إلي أن العمــل في بناء السد العالي سيتأخر أربعة عشر شهراً نسبة للتحضيرات البطيـئة غــير المــتوقعة . وبما أن الجهات المصرية المسئولة قد نفت هذا التصــريح ، فـإن حكومــة الســودان قد تجاهلته والتزمت بالتاريخ الأصلي المنصوص عليه في الاتفاق ، لكن المصريين – كما يبدو – أجبروا أخيراً علي مواجهة الواقع وإعلان الحقائق . فأرجعوا أسباب التأجيل إلي التعديلات الجذرية التي أدخلها الخبراء الروس علي التصميمات الألمانية للسد العالي ، وإلــي بطء الأعمال التحضيرية بسبب عدم كفاية العمالة والآليات والطاقة . وقد تم الترحيب بهذه الأنباء في جميع أنحاء السودان خاصة في أوســاط لجنة التوطيـن التي كانت خططها لإنشاء القري والمدينة – في منطقة الإسكان – أبعــد ما تكون عن الاكتمال . وبالنسبة لشركة (تورنتو) فإن هذه الأنباء كانت بمــثابة هــبة من السماء وذلك لأنها فقدت وقتاً ثميناً في تعميق قاعدة الخزان وترمـيم الســد ومعالجة المياه التي تسرّبتْ إليه كما ذكرنا سابقاً . وستكون وزارة الري في موقف يمكنّها من شق القنوات وإنشاء أبواب تنظيم التصريف وحفر قنوات (أبو عشرين [٢]) لذي المزارع . وأما البعثة الطبية المقيمة في وادي حلفا فستكون قادرة علي مضاعفة جهودها ومعالجة مزيد من المرضي قبل التهجير . وأما لجنة التعويضات فستراجع كل قوائمها علي مهل وتجهّزها

---

[١] Dr . Veronese 0

[٢] قناة فرعية تسقي عشرين مزرعة (حواشة)

لمرحلة السداد . وبالنسبة لي فإنها تعطيني فرصة لتنقيح وتجميع كل تفاصيل برنامج التهجير ، ووقفة لالتقاط الأنفاس تمكنني من الانطلاق .

وفي منتصف أغسطس زار رئيس لجنة التعويضات وادي حلفا لفتح مكتب بالمدينة يزاول منه عمله والشروع في ممارسة مسئولياته بالمنطقة المتأثرة بالغرق . وقد سرني أن سلّمته كل قوائم النخيل وأشجار الفاكهة وسجل الأراضي ومسئولية الإشراف علي عمل المحاكم الشرعية . وقد اعتبر – شاكراً – ما قمنا به أصعب جوانب العمل الملقي علي عاتقه . أما تقييم المنازل والعقارات التجارية فقد كان العمل يجري فيها وفق خطة مدروسة . وقمنا بإعداد ميزانية أولية لتعيين ثلاث لجان تضم كل واحدة منها ضابط تعويضات ومهندس معماري ومسّاح وخبير تقديرات وثلاثة مقيّمين محليين ومحاسبيْن و ثلاثة كتبة وضابط تسجيلات أراضي وأربعة راسمي علامات وساعي ورجل شرطة . وقد حُدد لهذه اللجان أن تعمل في مناطق مختلفة . فأُسند لاثنتين منها العمل في القري الواقعة علي شاطئي النيل الشرقي والغربي شمال وادي حلفا بينما أُوكل للثالثة العمل بالمدينة وعمودية (دغيم) .

لا بد أن نذكر هنا أن التقديرات التي صدقت عليها وزارة الأشغال بالنسبة لقيمة المباني ، لم تشمل تلك المشيّدة بالطين ولا تلك المبنيّة بالطوب الأخضر . وقد نُصحنا بابتداع أسس للتقدير تقوم علي القيمة الجارية للمباني الطينيّة بالمنطقة . ولقد أخذنا بفكرة مهندس مركز وادي حلفا السيد حسن طه (وهو نوبي من قرية دغيم) والذي ذهب بنا إلي منزله – بالقرية – المبني من الطين علي الطراز المحلي . وكنا نظن أن معرفة قيمته ستجعل من السهل علينا إعداد جدول لتقديرات تعويض أصحاب المنازل الطينية ،

غير أن جولة قصيرة في القري المجاورة – وبتدقيق عشوائي في بنية بعض المنازل – أوقفتنا علي حقيقة أن المنازل الطينية ليست كلها علي هيئة واحدة . فهناك التي لها أسقف متميّزة عن أخري . وهناك التي لها نوافذ حقيقية بعكس تلك التي ليس علي جدرانها سوي منافذ للتهوية . ولهذه الأسباب فإن تطبيق القاعدة الإجمالية في التقييم لن تكون عادلة . فقررنا إجراء تقديرات دقيقة لكل المنازل في القري المعنيّة . وألزمنا اللجان بإتباع سجلات تعداد المنازل كدليل. ولتوثيق هذه العملية كان علينا إعداد خارطة كروكية لكل منزل مشمول بالتعداد .

حتي ذلك الوقت لم يكن قد تم إعداد قائمة رسمية بمالكي المنازل الذين يرغبون في الرحيل إلي خشم القربة. فالحكومة قد أعلنت مسبقاً أن الهجرة إلي خشم القربة ليست إجبارية ، غير أن الراغبين فيها سيتمتّعون بمزايا سكنية وزراعية . أمّا أولئك الذين يودون السكن في أي جزء آخر من السودان فإن عليهم تدبير مأواهم ومعيشتهم ، لأن مسئولية الحكومة – في هذه الحالة – ستقتصر علي توفير الترحيل المجاني . وبالرغم من أنه كان معروفاً – عموماً – أن ٨٥% من الأهالي قد اختاروا الرحيل إلي خشم القربة ، إلا أننا أحسسنا بأن اللجنة ينبغي أن تقف علي رقم إجمالي صحيح بعدد المنازل المطلوبة هناك . وقد أتاح لنا تقييم المنازل هذه الفرصة .

كان علينا أن نكون علي أشد الحرص لتجنُّب أي انطباع عن عدم حيدة اللجان حيال قضية التقييم ، فقررنا أن يتم التقييم أولاً ثم نقوم – بعد ذلك – بسؤال المالك عما إذا كان يرغب في تعويض نقدي أم أنه يفضل امتلاك منزل في خشم القربة بديلاً عن عقاراته المقيّمة . وحال تحديد الخيار فإنه

يكون نهائياً ولا رجعة عنه . وبعد الاتفاق علي هذه المبادئ ، قررنا أن يلتزم معـستمد التعويضـــات بإعلانها وأن يحدد ٤ سبتمبر موعداً لبدء التقييم بجدول زمنـــي يغطي كل القري في المناطق الثلاث المعنيّة . وفي نفس الوقت طلبنا مـــن المعـــتمد أن يعمـــم رجـــاءً إلي كل المصالح لمنح إجازات للمستخدمين النوبييـــن – الذين يملكون منازل في المنطقة المتأثرة بالغرق – ليتمكنوا من زيارة وادي حلفا خلال المواعيد المتفق عليها .

وفي ١٩ أغسطس صدر الإعلان بموجب البند (١٥) من قانون إعادة توطين وادي حلفا لعام ١٩٦٢ وتم نشره بالصحف . وحال ظهور الإعلان ، إنضم المناوئون لخيار خشم القربة للعناصر المعادية للحكومة وكوّنوا منظمة ســرّية أطلقــوا عليها : (حركة المقاومة) كان هدفها التأثير – عن طريق الخـــداع أو الإرهـــاب – علـــي الأهالي لمقاومة التهجير إلي خشم القربة والوقـــوف ضد تنفيذ قانون التعويضات ، وعلي وجه الخصوص : تعويضات المنازل . وبعثوا برسلهم إلي(دبيره وأشكيت) حيث لم يستجب لهم أحد . أما في (جمي ودبروسة وأرقين جنوب) فقد حققوا بعض النجاح واكتسبوا مناصرة بعض المتطرفين . وعندما أحسّوا بفشل مهمتهم ، قرروا تنظيم تظاهرة عنيفة في ٤ سبتمبر وإحداث شغب واسع النطاق بحرق محطات الخدمات البترولية ومكاتـــب اللجـــنة والبضائع (تحت التخليص) بحظيرة الجمارك وحوانيت التجار المؤيدين لخيار الرحيل إلي خشم القربة . وخططوا – كذلك – لتخريب خطـــوط الهاتف والتلغراف وخط السكة حديد الذي يمر بقرية دغيم . وبنهاية أغسطس تم توزيع منشورات بقرية دغيم تدعو الأهالي للإنضمام إلي مخطط الشـــغب ، كما تم رفع شعارات علي الحيطان تندد بالهجرة إلي خشم القربة .

وقــدم إلي مكتبي عدد من المواطنين المؤيدين لخيار خشم القربة يشكون من الإرهــاب والإثــارة التي تعرضوا لها في قراهم . وفي هذه الأثناء تجمّعت معلومــات لــدي مركز الشرطة عن المنظمة وقادتها وحجم وأهداف مخطط الشغب . وبعد أن تدارستُ الوضع مع ضابط الشرطة وقائد الحامية العسكرية بحلفـا ، اتفقــنا علي أن الموقف يتدهور بسرعة وأننا – ما لم نتخذ تدابير فوريــة – مواجهــون بتداعيات خطيرة . ولذلك قررنا وجوب اعتقال قادة المــنظمة الأربعــة عشر وإرسالهم إلي الخرطوم لحبسهم شهراً . وفي ذات الوقــت وضعنا كل مرافق الخدمات والمباني الرسمية تحت حراسة مشددة . وأرسلنا برقية مشفّرة مطولة إلي وزارة الداخلية ومكتب أمن عطبرة شرحنا فـيهما الموقــف وما اتخذناه من إجراءات . وفي أول سبتمبر تم اعتقال قادة المنظمة وجري احتجازهم في ثكنات الجيش انتظارا لترحيلهم إلي الخرطوم . ولتجنــب ردود الفعل العامة غير المستحبة ، قررنا أن ننقلهم بالسيّارات بعد منتصف الليل إلي المحطة رقم (١) (نمرة واحد) بصحراء العتمور . ومن هــناك سُــحبوا إلي القطار السريع المتجه إلي الخرطوم بسرّية تامّة . وعند منتصــف النهار تسرّب الخبر ، فجاء موكب مكوّن من ٢٠٠ امرأة من قرية دغــيم . توقفــن أمــام مبنــي المركز وحثون التراب في الهواء وهن يهتفن بشــعارات معادية للحكومة . وقد تم التشديد علي الشرطة بعدم التعرض لهن مع إحكام فصلهن عن الجمهور الذي بدأ – حينها – يتجمع قريباً من الموكب . وظللن يتصايحن لمدة ساعة ثم تفرقن . وهكذا ماتت (حركة المقاومة .)

وفي٤ سبتمبر ذهبت أولي لجان التقييم إلي(فرص شرق) وبدأت في تثمــين المنازل . واستقبل الأهالي أعضاء اللجنة بحفاوة مما شجعهم وجعلهم

يــبدأون العمل بروح معنوية عالية . فتم تحديد مكونات البيت الأول وقياسها وتقيــيمها بما يبلغ ٣٠٠جنيه . وعندما أعلن ذلك على الملأ ، قوبل الإعلان بارتياح مما يدل علي نزاهة الطريقة التي اتبعناها . وقرر صاحب البيت أنه ذاهب إلي خشم القربة ، وبذلك أبدي رغبته في تعويض نوعي . بعدها غمس راســم العلامـــات فرشته الضخمة في الدلو المملوء بماء الجير وخطّ علامة كبــيرة علـــي الحـــائط المجـــاور لمـــدخل البيت للدلالة علي تقييمه انتظارا للتعويض. واستمر العمل خلال اليوم الأول ليغطّي سبعة بيوت بنفس الطريقة المذكورة . وانتشرت الأخبار في ذات اليوم بكل القري لتخلق جواً طيباً لعمل اللجان الثلاث واستمراره دون عوائق . وفي الأيام التالية استطاعت اللجان – بعد أن اكتسبت مزيداً من الخبرة – أن تتحرك بطريقة أسرع . وبعد أسبوع تمكنت من مضاعفة سرعتها .

ووصل معتمد التعويضات – مؤخراً – إلي وادي حلفا وذلك في ٨ سبتمبر وترأس لجان التقييم . وجاء وفي حوزته حزمة من الاستمارات التي تغطـــي كـــل أشـــكال التعويضـــات . وحـتي وصوله كانت إجراءات دفع التعويضـــات تواجه مصاعب كبيرة شغلت ذهني لبعض الوقت . فكل القوائم كانـــت تحتاج إلي تدقيق كما أن الممتلكات المسجلة لكل شخص لم تكن مقيّمة نقـــداً ، بالإضـــافة إلي أن ممتلكات كل شخص والموزعة علي قوائم مختلفة كانـــت تفـــتقر إلي التصنيف والإحصاء ضمن قائمة نهائية مجهّزة لأغراض التعويض . وهذا يتطلب مجهود محاسبي شاق مع درجة عالية من الدقة . فإن أقـــل خطـــأ يمكن أن يشكك الأهالي البسطاء في مصداقية العملية المحاسبية

برمستها ، ويضـــيف – مـــا نحتاج من وقت لإنجاز هذه المهمة – عبئاً إلي الأعباء التي تحاصرنا .

أما الطريقة التي تتبع لدفع التعويضات فينبغي أن ترتَّب بعناية . فإذا تقـــرر أن تدفـــع نقداً فسيكون ذلك عملاً مضنياً ، لأن هناك حوالي ٣٠,٠٠٠ شـــخص من المحتمل أن يتقاطروا لاستلام نقودهم التي تقدر جملتها بمبلغ ٣ ملايين من الجنيهات . وسيحتاج الصرّافون إلي أصابع إضافية في كل يد لكي يتمكـــنوا من إنجاز العمل في ما تبقي من وقت قصير . وإلي جانب ذلك فإن حصـــيلة هـــذا المبلغ الضخم المدفوع بالسيولة النقدية ستؤدي إلي ارتفاع في أســـعار السلع وإلـــي تضخم تلقائي محتوم . ولا أستطيع أن أتصور هؤلاء النوبييـــن وهـــم يحومـــون بجيوب منتفخة دون أن يغريهم ذلك بالإسراف . ولـــتفادي هـــذا الإتـــلاف المـــتوقع في المال ، ولتجنُّب الأعباء الثقيلة لعملية الصرف ، كنت أنوي أن أقترح علي اللجنة إسناد دفع كل التعويضات النقدية إلـــي بـــنك تجاري . فهذا سيشجع كل أصحاب الدفعيّات لفتح حسابات جارية تجعلهم أكثر ميلاً للادخار لا السحب من تلك الحسابات .

ولجعـــل القوائم واضحة ومبسطة بقدر الإمكان ، اتصلت بمصلحة الإحصـــاء في شأن إمكانية تحريرها وإعدادها بالشكل النهائي للصرف . وقد قصدت بذلك أن توضع القوائم بترتيب أبجدي لكل قرية ، ثم يتم تصميم نظام بطاقـــة مفهرســـة باستخدام ألوان مختلفة تشير إلي طبيعة كل نوع من أنواع التعويضـــات . وبذلـــك يتضـــح الاســـتحقاق النقدي لكل مستفيد منسوباً إلي ممـــتلكاته ، وتحفظ هذه البطاقات في (كتالوج) للرجوع إليها عند اللزوم . يلـــي ذلـــك بطاقة وسطي تضم كل أنواع الممتلكات والتعويضات المطلوبة ،

وأخرى يتم إرسالها للمستفيد خلال وقت كاف لمراجعتها قبل الدفع . وأخيراً فلابد من إعداد قائمة رئيسة بالمستفيدين في كل قرية توضح نصيب المستفيد الواحد ، يتم إرسالها إلي البنك لأغراض التسديد .

وافقــت مصـــلحة الإحصاء على مقترحاتي ، وبعثت باثنين من كبار الإحصائيين إلى وادي حلفا . وبعد دراسة متأنية للقائمة التي قمنا بإعدادها ، أكدا بأن حاسبهما الآلي يستطيع أن يؤدى المهمة ، غير أنهما قالا إنها تحتاج إلـى ســتة اشـــهر . ولم يكن ذلك بالنسبة لنا أمراً مزعجاً لأن فسحة الوقت المـــتاحة هي خمسة عشر شهراً. وبذلك يمكننا أن نتخطى العقبة الرئيسة . وكنـــت ممتـــناً لهما على تعاونهما فأخبرتهما أنني سأبحث الموضوع أولاً مع معتمد التعويضات (السيد أحمد الطاهر) الذي – كما ظننت – سيكون سعيداً جداً بما سيقدمانه له من مساعدة . وبعد أن شرحت له مشروعي وذكرت له العرض الطيب الذي تكفلت به مصلحة الإحصاء حاثاً إياه للاتصال بها بأسرع ما يمكن ، فوجئت بأن استجابته الفورية كانت سالبة . فقد قال إن انتظار ستة اشهر شئٌ كثير لأن الكتبة والمحاسبين يستطيعون أداء كل هذا العمل يدوياً في زمـــن أقصر . ولأن السيد أحمد كان من المتقاعدين الذين أعيد استخدامهم ، فقد انتابني – لأول وهلة – شعور بأنه لا يثق في بركات الإلكترونيات الحديثة كحـــال أولئك الذين ينتمون إلى الجيل القديم جميعاً . وعلى كل فقد كان ذلك نهايـــة خطتـــي . غـــير أنـــه ينبغي أن أسجل هنا أن السيد أحمد ألقى نفسه مستغرقاً في التفاصيل وأنه احتاج إلى أن يسرع – في عمله – ليواكب برنامج التهجير ، وأنه ألقى جانباً بكثير من القضايا التي شغلته سنيناً ليقوم بتصفيتها في خشم القربة .

جـــاءت الاستمارات التي أعدّها وطبعها السيد أحمد الطاهر ، معتمدة علــى الجــداول التـــي كنا نستخدمها والمشتملة على هوامش لتسجيل أرقام التعويضـــات حينما يصدر القرار بشأنها . ولقد استرعى انتباهي هامش في استمارة تعويضات المنازل خصص لتحصيل الفرق بين القيمة المقدّرة لمنازل الأهالي في وادي حلفا وتكلفة تشييد المنازل الجديدة في خشم القربة ، فأخذت أهرش شعر رأسي ذهولا . فقد تبيّن لي أن أهالي وادي حلفا سيغادرون إلي وطنهم الجديد وهم مثقلون بديون تبلغ الملايين . فأرسلت في يوم ١٠ سبتمبر خطابــاً إلـــى اللجـــنة التمس فيه أن ترجو الحكومة إعادة النظر في قرارها مستخدماً في ذلك الحجج الآتيـــة :-

(إن الحكومــــة قـــد قررت تشييد المنازل في خشم القربة بمستوىً عال وبمـــواد من الدرجة الأولى دون أن تُجرى أي اتفاق مع الأهالي حول تسديد قـــيمة فرق التكلفة . وأن التعاطف الذي أبداه الرئيس عبود تجاه قضية وادي حلفـــا ووعـــوده المـــتكررة للأهالـــي وتصميمه علي تعويضهم بوطن أفضل ومخطـــط علـــى أحدث طراز، قد أحدث اقتناعاً عميقاً بأن التحسن الذي طرأ علـــى مســـتوى الإســـكان هو أحد المنح التي توقّعوها جزاءً على تضحيتهم بموطـــنهم العزيز . وإذا أصرت الحكومة على جباية الفرق في قيمة التكلفة، فلن يكون هناك تمييز بين الحلفاويين والقبائل المحلية التي يمكنها – طوعاً – الإقامـــة في منطقة المشروع ، إلا من حيث أن النوبيين سيسكنون في منازل جيدة بنوها بملكهم .

تـــم تقديـــر قيمة المنزل ذي المستوى المتوسط بمبلغ ٢٥٠ جنيها . وبعملـــية حســـابية بسيطة يمكن الوصول إلى أن جملة الفرق في قيمة التكلفة

تقــدر بمبلغ ٤ مليون جنيه، ولذلك، فإن من المستبعد تماماً أن يقبل الأهالي الرحيل إلى خشم القربة وعلى كاهلهم هذا الحمل الثقيل من الديون . وسيزداد الوضع سوءً على الأغلبية الغالبة من الأهالي الذين لا تزيد جملة مدخراتهم — في أي وقت — عن ١٠ جنيهات أو عشرين جنيها. فهل يفهم هؤلاء الناس ما تعنيه ملايين الجنيهات ؟ .

إن الديون العامة بهذا الحجم الكبير ليس لها سابقة في تاريخ السودان . وفــي الحالة التي نحن بصددها فان الدَيْن لم يخصص لمشروع ربحي يحقق عــائداً منـتظما يُصفَي بمقتضاه . واقتناعي الشخصي أن تحصيل ذلك الدين الهائل كان من قبيل المستحيلات إلا إذا كانت الحكومة مستعدة لطرد الساكنين والاســتيلاء علــى بيوتهم . وكان الأمل الوحيد لاسترداد تلك الأموال هو أن تنتعش الأحوال الاقتصادية للأهالي في وطنهم الجديد انتعاشا كبيرا يمكّنهم من الإسهام في حصيلة الخزينة العامة عن طريق الالتزام الضريبي.

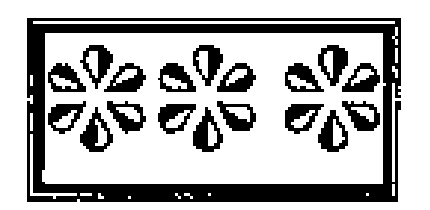
لهــذه الأسباب أوصيت أن تعيد الحكومة النظر في قرارها وأن تعتبر الفــرق في التكلفة منحة منها للأهالي تعويضاً لهم عن التضحية بوطنهم الأم مــن أجل المصلحة العامة . فاقتنعت الحكومة بهذا المنطق وأجازت توصيتي بالــرغم من أن ظروفا غير مرئية قد طرأت لاحقا لترفع فرق التكلفة إلى١١ مليونا من الجنيهات) .

وفي منتصف سبتمبر قام رئيس اللجنة يصحبه بعض الأعضاء بزيارة تفتيشية إلى وأدى حلفا .فاستقبلوا بحفاوة من أهالي المنطقة ومن بديع الطقس

علي السواء .وأعد لهم برنامج حافل بالزيارات يغطي كل القرى الواقعة شمال المديـــنة حيث حضروا كل الاجتماعات التي عقدت مع الأهالي والتي دارت فـــيها مناقشات مثمرة . وانحصرت النقاط المثارة في تلك الاجتماعات حول الخطـــط المـــتعلقة بالإسكان والخدمات الاجتماعية بخشم القربة. وبرزت في الـــنقاش –شـــكوى عامـــة من قرارات لجان التقييم الخاصة بتعويض منازل بعينها. ففـــي بلاد النوبة تعيش أسر الأزواج الغائبين – عادة – في منازل كبـــيرة مـــع أخـــوان أو آباء أولئك الأزواج . غير أن تلك المنازل تقسّم إلي أجـــزاء توفـــر الاستقلالية لكل أسرة وتكون ملكيتها مشتركة . وعندما قيّمت لجـــان التعويضـــات تلك المنازل ، اعتبرت كل واحد منها وحدة غير مجزّءة وبالتالـــي قـــررت أن تمنح في مقابلها منزلاً واحداً بخشم القربة .. ومن هنا جاءت الشكوى . وقام المسيد حسن وأعضاء اللجنة – أثناء الزيارة التفتيشية – بفحـــص عدد من هذه المنازل ، فوجدوا أن كل قسم منها هو– في الحقيقة – مـــنزل قـــائم بذاته. فقرروا – علي الفور – منح بديل جديد عنه في خشم القربة.

وفيما عدا هذه الشكوى ، مارست اللجان مهامها بسهولة ، لكننا تيقنّا – وقتها – أن ما تبقي من حجم العمل كان ضخماً بحيث يتعذّر علي تلك اللجان الفراغ منه في الزمن المحدد إذا سارت علي نفس الوتيرة . لذلك حصلنا علي موافقـــة فورية بتعيين ثلاث لجان أخري للإسراع بالعمل وتأمين إنجازه وفق الـــبرنامج .وكان لتعاون الأهالي أثره الواضح في تحقيق ذلك الهدف وهو ما يدفعني لأشير – بالتقدير والعرفان – إلي تراث النوبيين المفعم بالكرم والذي

طوق أعناق كل اللجان وفرق الإحصاء والخدمات الطبيّة والمحاكم الشرعية . فأينما حلت تلك اللجان والفرق ، لم يكن الأهالي يسمحون لها بإعداد أي لقمة مـــن الطعام ، وكانوا – في كل القري – يعاملون أفرادها كضيوف . واستمر هـــذا السلوك الإنساني الراقي حتى عندما كانت اللجان والفرق تزاول عملها بين الأهالي الرافضين لخيار خثم القربة .



الفصل السادس عشر

تشييد منطقة إعادة التوطين

فـــي الصفحات التالية سأتناول كيف أن حكومة السودان حاولت إسناد عملــية تشـــييد مديـــنة(حلفا الجديدة) وقراها – في منطقة التوطين – إلي شركات هندسية عالمية ، كما سأسرد المعوقات التي واجهت هذه المحاولة إلي أن انهـــارت فـــي نهاية الأمر . كذلك سأعطي فكرة عن تسلسل الأحداث في علاقة شركة (ترف الهندسية للتشييد/ السودان / المحدودة) بحكومة السودان خـــلال الفترة الحرجة عندما بقي علي وجود وادي حلفا أياماً معدودة وعندما أصـــبحت قضـــية إعـــادة توطيـــن أهلها كلها معلّقة في كف القدر . وبما أن الموضوع هو الآن أمام محكمة العدل الدولية ، فإنني سأحصر قولي – تماماً – فـــي الحقـــائق الـــبارزة للقصة وأتجنّب – بقدر الإمكان – الإدلاء برأيي الشخصي .

تم نشر إعلان عالمي في ٢٨ أغسطس ١٩٦١ للتقدم بعروض لتشييد منازل الأهالي ومباني الخدمات العامة بالقري والمدينة الرئيسة بمنطقة إعادة التوطيـــن . وحُـــدد الـــتاريخ النهائي لاستلام هذه العروض بيوم ٣٠ مارس ١٩٦٢ . وخـــلال هذه الفترة تسلّمت اللجنة عروضاً من شركات التشييد في أقطـــار عديـــدة . وتم تعيين السيد محمد عباس فقير – نائب رئيس اللجنة – ليرئس فريقاً خاصاً يقوم بدراسة تلك العروض . وبعد شهر كامل وعبر أربعة وخمســـين اجـــتماعا فرغت اللجنة من عملها . وفي ٧ مايو رفع المهندسون الاستشاريون تقريرهم للجنة . واجتمع فريق آخر مكوّن من ممثلين للمصالح الحكومـــية الفنـــيّة وجامعـــة الخـــرطوم لدراســـة العروض في ضوء تقرير المهندسين الاستشاريين . وبعد أن عقد هذا الفريق ثمانية وعشرين اجتماعاً – مـــا بين ١٢ مايو و١٧ يونيو ، درس فيها بعناية كل العروض – أنتهي إلي

اختيار أربع شركات هي : (ترف للتشييد – السودان/ المحدودة) وهي شركة بريطانية و (تكو إكسبورت) البلغارية و (سيكوب) ?بولندية و(فيليب هولزمان) الألمانية.

كان الاتجاه العام – في أول الأمر – أن يوقع العقد – شراكه – مع أفضل شركتين من الشركات المتنافسة . فتتولي (ترف) تشييد مرافق الخدمات العامة بينما تتولي (تكو إكسبورت) بناء منازل الأهالي . ونظراً لأن (ترف) تقدمت ببرنامج متسارع في اجتماع عقد في كوبلنز (ألمانيا) في ١٨ أبريل ١٩٦٢ ، بحضور ممثلي حكومة السودان ، والمهندسين الاستشاريين ، تعهدت فيه بإتمام ١٧٠٠ منزل بحلول ٣٠ يونيو ١٩٦٣ و ٣٥٠٠ منزل بحلول ٣٠ يونيو ١٩٦٤ وإتمام الـ ٢٠٠٠ منزل الأخيرة بنهاية عام ١٩٦٤ ، فقد قررت الحكومة تخصيص كل العقد لها . وفي ٢ سبتمبر عقد اجتماع آخر في وزارة الأشغال حضره ممثلو (ترف) وأعضاء من اللجنة فيهم السيد أحمد عبد الله أرباب الذي سأل ممثلي (ترف) – على افتراض فوزهم بالعطاء خلال الأسابيع القليلة القادمة –كم من منازل الأهالي يمكنهم إنجازها في ٣٠ يونيو ١٩٦٣ وكم منها في ٣٠ يونيو ١٩٦٤ ؟ فأجاب ممثلو (ترف) – وفقاً لما ورد في وقائع الاجتماع أنهم – مع الأخذ في الاعتبار التأخير الذي حدث في إرساء العطاء وهو أربعة أشهر ، والحاجة الماسة لبناء أكبر عدد من منازل الأهالي بأسرع ما يمكن – يتوقعون أن يتمكنوا من تشييد ٢٠٠٠ منزل بحلول ٣١ يوليو ١٩٦٣ و ٩٠% من مجموع المنازل بحلول ٣٠ يونيو ١٩٦٤ . وقد اشترطوا أن تعطي أسبقية لتشييد هذه المنازل على كل عمليات البناء الأخرى ، وألا يكون هناك مزيد من التأخير

لإرســاء العطــاء ، وأن يكــون هــناك وقت كاف للتخليص في الميناء مع تســهيلات بالســكة حديد ، وألا تفرض شروط جزائية فوق تلك المنصوص عليها في العقد ، وأن يستخدم نظام (الرويكونكو) في البناء .

بهذا الفهم ، تم منح (ترف) العقد في ١٩ سبتمبر ١٩٦٢ . وفي ١٥ أكتوبر وهو اليوم الســـابق لتوقيع العقد ، تسلّمت وزارة الأشغال خطاباً من (ترف) مؤرخاً بيوم ١٢ أكتوبر معه مذكرة مؤرخة بنفس التاريخ شرحت فــيهما الــتزاماتها التعاقدية كما ارتأتها . وقد جاء الخطاب والمذكرة مخالفاً للالتزام الأصلي المتفق عليه في حينه كما يلي : -

١ / العقد الأصلي :

(أ) كان سريان العقد يبدأ في ١٦ أكتوبر ١٩٦٢ .

(ب) في خلال أربعة عشر شهراً أي في ١٦ ديسمبر ١٩٦٣ ، يتم إتمام بناء ١٤٥٠ منزلاً زائداً ٢٥٠ منزلاً مستغلّة بواسطة المتعاقد .

(ج) في خلال ستة وعشرين شهراً أي في ١٦ ديسمبر ١٩٦٤ يتم تسليم ٩٠ % من المنازل أي ٦٤٨٠ منزلاً .

(د) يــتم الوفــاء بشروط العقد نهائياً في إثنين وثلاثين شهراً أي بحلول ١٦ يونيو ١٩٦٥ .

٢ / البرنامج المتسارع :

مـــع الأخذ في الاعتبار بدء سريان العقد ابتداء من ١٦ أكتوبر ١٩٦٢ ، فإن الموقف الراهن هو كما يلي :

(أ) ابتداء من ٢ سبتمبر ١٩٦٢ حدث تأخير في بدء العمل مدته شهر إضافي.

(ب) بمـــا أن العقد حتى ٣١ يوليو ١٩٦٣ لم يلزم الشركة بشروط محدودة ، فإن الشركة تأمل – بترتيبات خاصة – الفراغ من بناء ١٥٦٠ منزلاً في ذلك التاريخ .

(ج) أن يصـــبح الـــتزام الشركة بناء ١٤٥٠ منزلاً أخرى بحلول ١٦ ديسمبر ١٩٦٣ .

(د) بما أن التزامات العقد في ٣٠ يونيو ١٩٦٤ لم تؤكد بصورة قاطعة ، فإن الشـــركة – بترتيبات خاصة – تأمل أن تفرغ من بناء ٦٠٤٠ منزلاً في ذلك التاريخ .

(هــــ) تلـــتزم الشـــركة بأن تفرغ من بناء ٦٤٨٠ منزلاً بحلول ١٦ ديسمبر ١٩٦٤ .

(و) الفراغ من تنفيذ جميع التزامات العقد في ١٦ يونيو ١٩٦٥ .

لـــربما لاحظ القارئ الاصطلاحات الفضفاضة التي استخدمت في هذا الخطـــاب ، وفي إجابات ممثلي شركة (ترف) خلال الاجتماع الذي عقد في كوبلـــنز مـــثل (يـــتوقع) و (يأمل المتعاقد في إتمام) التي اختيرت بعناية لغموضـــها . ويحـــتمل أن تكون (ترف) قد حاولت إحداث ثغرات تنفذ منها حين الفشل . وعلى كل حال فإن هذا الخطاب قد صيغ بغير اللغة التي جاءت فـــي الـــبرنامج المتسارع المتفق عليه سلفاً في اجتماعي كوبلنز والخرطوم ، وهو ما لم يضمن في وثيقة العقد الموقع عليها في الاحتفال الذي أقيم في ١٦ أكتوبر ١٩٦٢ .

أمـــا قائمة الأسعار التي تم التعاقد عليها مع (ترف) فقد شملت ٦٣ صنفاً كانت أعلاها تكلفة تشييد المنازل والتي حددها العطاء كما يلي :

(أ) تكلفــة منزل من غرفتين مجهز بتوصيلات كهربائية بمدينة حلفا الجديدة = ٩٥٣ جنيهاً و ٣٥٩ مليماً .

(ب) تكلفة منزل من ثلاث غرف مجهز بتوصيلات كهربائية في نفس المدينة = ١١٧٠ جنيهاً و ٦٣٥ مليماً

(ج) تكلفة منزل من غرفتين في القرى بغير تجهيزات كهربائية = ٨٩٧ جنيهاً و ١٨٤ مليماً .

(د) تكلفة منزل من ثلاث غرف في القرى بغير تجهيزات كهربائية = ١١٣٠ جنيهاً و ٨١٠ مليماً .

وبالنسبة للمرافق العامة فإن المستشفيات تحتل المركز الأول من حيث الــتكلفة إذ أن قــيمة تشييدها تبلغ ٢٥٧,٦٨٢ جنيها و ٣٥٢ مليماً ، تليها قيمة تشـييد المبانـــي الإدارية والمدارس . وعلى وجه العموم فإن الأسعار التي تقدمت بها (ترف) بالمقارنة مع الأسعار الحالية للمباني تعتبر زهيدة للغاية .

وفــي ١٣ ديســمبر ١٩٦٢ – وبغير سبب معقول – أنهت الحكومة تعاقدهــا مـــع شركة (كوكس) التي كانت مستشارها الهندسي . ولم تفاجأ (كوكس) بهذا الإجراء إذ انها كانت تلاحظ بفزع – ولأسباب غير معروفة – السلوك العدائي الذي انتهجته الحكومة تجاهها منذ شهر يوليو . حدث هذا في الزمن الحرج وذلك عندما كان المقاول الجديد يقوم بإعداد الترتيبات لمشروع التشييد الضخم وعندما كانت (كوكس) ذاتها منهمكة في تجهيز خرط البناء لكــل المــرافق . ولمدة تزيد عن ثلاثة أشهر لم يكن للحكومة مستشار على الإطــلاق وأمضى السيد أحمد عبد الله أرباب كل هذا الوقت في إتمام العمل الذي خلفته (كوكس) . وفي ١٧ يناير ١٩٦٣ ، شرعت الحكومة في اتصال

مـع شركة هندسية محلية هي (شركة اتحاد المهندسين) وذلك للإشراف على الأعمـال الإنشائية التي تقوم بها شركة (ترف.) وقد اعترضت (ترف) على هـذا التعيين قائلة إنّ الاستشاريين الجدد لا يستخدمون مهندسين أكفاء وليست لهم خبرة في نظام (الروبكونكو) الذي تستخدمه .

وفـي ٢٢ يـناير حضر الرئيس عبود احتفالا كبيراً في منطقة إعادة التوطيـن وأرسـى حجر الأساس لمدينة حلفا الجديدة وقراها . وقد جئت إلى خشـم القـربة لحضـور هذه المناسبة العظيمة في صحبة (صالحين) والسيد (ميرغنـي علـى إبراهـيم) رئيس مجلس بلدي مدينة حلفا . ولم ينس السيد ميرغنـي أن يجلـب معه كمية قليلة من التراب جرفها من عمق أساس أقدم مسـاجد وادي حلفـا لتكون مادة لحجر أساس منطقة إعادة التوطين. وحضر الاحتفال أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة وأعضاء لجنة التوطين من الـوزراء ، والاستشاريين الجدد وممثلو شركة (ترف) . وخاطب الاحتفال معـتمد التوطيـن واللواء عروة وميرغني على إبراهيم وصالحين وشخصي والمسـتر هولينجسهد من (ترف) . وفي الختام تحدث الرئيس عبود طويلاً وأعـاد تأكيد وعوده لأهالي حلفا قائلاً إن الوقت قد حان للوفاء بها . ثم تقدم السـيد ميرغنـي على إبراهيم بكيس يحوي التراب المبارك وسلمه للرئيس . وبعـد بـرهة صُبّ عليه الماء ووُضِع على مالج (مسطرين) جميل قدمته (تـرف) للرئيس ليكون مادة لحجر الأساس . ثم تلا الرئيس آيات من القرآن الكريم سائلا الله تعالى أن يبارك الوطن الجديد .

وبعد ختام الاحتفال ، قام الرئيس بجولة تفقدية على المنطقة . وفي هذا الوقـت كانـت (تورنو) تباشر عملها في بناء الخزان ، حيث ظلت أقداح

الأســـمنت تروح جيئة وذهاباً في حركة مكوكية فوق الأعمدة الخرسانية حتى وصـل البناء إلى منتصف الارتفاع الكامل . وكان الموقع كله يضج بالحركة كأنــه خلــية نحل . أما الشركة الألمانية (فيليب هولزمان) فقد أوشكت أن تفرغ من حفر القناة الرئيسة ، بينما أحرزت الإدارة التابعة لوزارة الري تقدماً جـيداً فــي شــق القنوات الفرعية وإقامة بواباتها . وبدأت شركة (لنستري إلكــتريك الباريسية) في تجميع أبراج الخطوط الناقلة للكهرباء التي تم تجهيز العديــد مــنها لتنصــب في المكان المخصص له . وأخيراً فإن سكك حديد السودان قد استهلت العمل في مد القضبان على الخط الذي يصل خشم القربة بحلفا الجديدة وتشييد مباني المحطة التي اشرأبت أعمدة إشاراتها وسلالمها إلى أعلى .

ولم تكن (ترف) – من جهتها – ترقد في كسل وخمول ، فقد وصل جزء من آلياتها وبدأ تجميع كساراتها الضخمة في (مساريب)على ضفة نهر عطــبرة ، وتشييد مكاتبها ومخازنها وضبط قوالبها لإنتاج (الروبكونكو) الذي تبــنى بــه حوائط المنازل . وحتى شهر أبريل ، كانت تحضيرات (ترف) تسير بخطــى مرضــية توحي بأن البرنامج المتسارع سينطلق وفق الخطة الموضــوعية . وعلى كل حال فقد أخذت العوائق تتداعى – في هذا الوقت – ممــا أحدث تراخياً في عمل الشركة على كافة المستويات . وترجع (ترف) هذا التدهور إلى ثلاثة أسباب هي :

- فشــل سكك حديد السودان في الوفاء بالتزامها بترحيل المواد من بور تسودان في الوقت المطلوب .
- وعجزها عن إعطاء الأسبقية في تخليص تلك المواد من الميناء .

- غـياب المهندسـين الاستشاريين الذين يقع على عاتقهم إعداد الخرط والإشراف على التنفيذ .

وتـبعاً لهذه المصاعب المتصاعدة ، أعلنت الشركة أنه من المستحيل المضي في برنامجها المتسارع ، فتملصت منه وتمسكت بالعقد الأول . وكان وزيـر الداخلـية – الذي حدد تاريخ التهجير في أكتوبر لتمكين الأهالي من اللحـاق بالموسـم الشتوي في وطنهم الجديد – مصمماً على حث (ترف) لتواصـل تنفـيذ برنامجها المتسارع . فبعث بخطاب إلى الشركة فنّد فيه كل ادعاءاتهـا وأصـر على وجوب الوفاء بالتزاماتها المنصوص عليها في ذلك البرنامج . وبينما كانت الأمور تسير على هذا النحو ، أوضحت القائمة الفعلية للمنازل في وادي حلفا أن هناك ٧٥٠ منزلاً إضافياً لابد من توفرها في خشم القـربة ممـا يعني – من حيث العدد – إضافة ثلاث قرى جديدة بكاملها إلى الـتقديرات السابقة . واتفقت الحكومة مع (ترف) أول الأمر على ضم هذا العـدد إلى البرنامج ، غير أنها قررت – في ضوء المستجدات التي صاحبت حـرج الموقف – إمكانية أن يتولى تشييد العدد الإضافي من المنازل مقاولون محليون .

وبناء على ذلك تم نشر إعلان بدعوة مقاولين لتشييد منازل بالقرى ١و ٢و٦ بـالطوب الأحمر والحجر والبلوكات الأسمنتية . فعرض ثلاثة مقاولين محلييـن أسعاراً عالية للغاية ، إذ أن قيمة أدنى عرض – للبلوكات الأسمنتية المفـرّغة – كان أعلى من مثليْ ما تعاقدت عليه (ترف) . ولضمان سرعة التنفيذ وافقت لجنة التوطين على عروض المقاولين الثلاثة وقسمت العمل بينهم بحيث يتولى كل واحد منهم تشييد ١٠٠ منزل على الأقل شريطة إكمال العمل

بـــنهاية نوفمبر ١٩٦٣ . وكان المقاولون الثلاثة هم : السيد علي دنقلا والسيد حمـــد الطاهر التلب والسيد محمد البربري وشريكه علي صبرا . وقد قصدت الحكومة بهذا التصرف إيجاد مخرج – إلى جانب (ترف) – لتأمين قدر كاف مـــن المـــنازل يـــأوي – على الأقل– الفوتج الأول من المهجّرين في الوقت المحدد .

لم يكن هذا القرار المكلّف حافزاً (لترف) التي كانت قواها تخور يوماً بعـــد يـــوم . وبحلـــول شهر أغسطس لم يظهر الوضع أي نوع من التحسن، وجاءت التقارير من مختلف المواقع إلى وزارة الداخلية مشيرة إلى المستوى غير المرضي لأداء الشركة . وفي ١٣ أغسطس رفع المستشارون تقريراً إلى الوزيـــر قرروا فيه بوضوح أن (ترف) قد فشلت في الوفاء بالتزامها المتفق علـــيه فـــي الاجتماع الذي عقد بالخرطوم في ٢ سبتمبر ١٩٦٢م . وفي ٢٨ أغســـطس كتـــب للوزيـــر خطاباً مطولاً إلى (ترف) أشار فيه إلى أن كل المعلومات التي وصلته تدل على أن الشركة فشلت في تنفيذ التزاماتها . وبما أن حكومـــة الســـودان قد دخلت طرفاً في اتفاقية دولية لتهجير وإعادة توطين أهالـــي وادي حلفا بسلام قبل أن تغمر المياه بلادهم ، فقد عبر الوزير – في خطابه – عن شعور بأن الموقف قد وصل إلى نقطة تستوجب عليه أن يتعامل مـــع المســـألة بمـــا يراه مناسباً . وأنذر الوزير (ترف) بأنه سيدعو مقاولين آخريـــن ويخصـــص لهم جزءاً من البرنامج ، مالم تتقدم هي ببعض الحلول المرضـــية فـــي غضون أسبوعين . وفي ١٥ أكتوبر جاء خطاب آخـــر إلى (تـــرف) يعلنها بانتهاء مدة الإنذار ، غير أنها ردت في ٢٣ أكتوبر ١٩٦٣ وأبـــدت عدم ارتياحها للخطوات التي قام الوزير باتخاذها وأعلنت رغبتها في

الانسحاب مع الاحتفاظ لنفسها بحق التضرر من الخسائر التي تعرضت لها . وعـــندما لــم يــؤد هــذا الخطاب إلى نتيجة ، انسحبت (ترف) نهائيا بنهاية ديسمبر.

إن مـــن المؤسف للغاية أن تؤول العلاقة مع (ترف) إلى هذه النهاية الكئيــبة . فقــد كانت التحضيرات التي قامت بها للشروع في تنفيذ التزاماتها التعاقدية ، من بين أفضل التحضيرات التي شهدتها المنطقة ولا تضارعها إلاّ تلك التي تنسب إلى (تورنتو) إذ أن آلياتها ومعداتها ضمت كسارات وحفّارات وبلسدوزرات وجــرّافات ودحــراجات وخلاّطات ورافعات من كل الأحجام، ومقطــورات وقلاّبـــات وقوالـــب ، وأسطول من الشاحنات واللاندروفرات ، وورشـــة كبيرة للحدادة والصيانة ، وعرائش مليئة بالأسمنت ، وسيخ من كل الأحجام ، وأبواب وشبابيك وألواح خشبية ومواد سقف . كل هذه التحضيرات تـــم تجهيزها بالموقع وفي الوقت المطلوب ودون أن يحدث تلكؤ في تنفيذها . وكذلـــك فإن أسلوب (الرويكونكو) المتبع كان عالي الكفاءة وبسيطاً وأثبت مـــتانة وسرعة في البناء . ولم يكن من شك أن المنازل الأربعمائة والثلاثين التي أنجزتها (ترف)، كانت الأفضل من بين تلك التي شيدت في كل منطقة الإســكان كمـــا لـــم تكـــن متانتها تحتاج إلى برهان . فقد بقيت صامدة أمام العواصف الممطرة ولم تُظهر صدوعاً أو أي نوع آخر من العيوب .

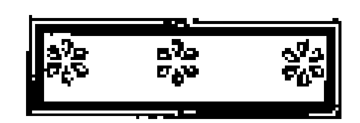
ولم يبق انسحاب (ترف) للحكومة خياراً سوى اللجوء إلى المقاولين المحلييـــن لتشـــييد معظم ما تبقى من المنازل البالغ عددها ٧٥٦٠ منزلاً إلى جانـــب مـــرافق الخدمات العامة . كما أن الوقت المتبقي لم يكن يسمح بطرح عطاء عالمي جديد . في هذا الظرف الاضطراري صار تخطيط حركة البناء

أشبه بعملية إنقاذ يتم فيها استثمار المهارة المحلية حتى الثمالة . واستجاب للإعلان -- في هذه المرة – حوالي خمسين مقاولاً تم تقسيم العمل بينهم . وكانت الأسعار أدنى من تلك التي تقدم بها المقاولون المحليون السابقون إلا أنها كانت أعلى بكثير عما تم الاتفاق عليه مع (ترف.) فتكلفة المنزل المكون من ثلاث غرف بلا توصيلات كهربائية ارتفعت إلى مبلغ ٢٣٢٠ جنيهاً ، بينما صارت ١٧٢٠ جنيهاً بالنسبة للمنزل المكون من غرفتين وبلا توصيلات كهربائية .

تقل هذه الأسعار مبلغ ١٥٠ جنيهاً للمنزل الواحد عن تلك التي سبقتها ، إلاّ أنها تزيد عن أسعار (ترف) برقم مذهل وهو ١١٨٩ جنيها للمنزل الكبير و٨٢٢ جنيها للمنزل الصغير ، إذ أن هذه الفروق في الأسعار تساوي تقريباً التكلفة الكلية التي كان متعاقداً عليها مع (ترف) . غير أننا إذا أخذنا في الحسبان الإعفاء الجمركي الذي منح لـ (ترف) على كل مواد البناء المستوردة وإذا وضعنا في الاعتبار تكلفة البناء الحالية في السودان ، فإن أسعار أولئك المقاولين المحليين لم تكن مبالغاً فيها . وعلى كل حال فقد تم توقيع عقود هذه المقاولات لتنتهي في تاريخ أقصاه ٣٠ يونيو ١٩٦٤ . ويلاحظ أن المستشفى والمرافق العامة الأخرى قد ذهب التعاقد عليها إلى مقاولين آخرين . وكان أبرز المقاولين – إلى جانب أولئك الثلاثة الذين سبق ذكرهم : جابر أبو العز ، أحمد أبو زيد ، صادق أبو عاقلة ، سيد عبد الله السيد . وقد كان المهندسون الاستشاريون مسرورين بالإشراف على عملية البناء بواسطة البلوكات الأسمنتية المفرّغة التي اكتسبوا فيها خبرة كبيرة . وبما أن المقاولين المحلين قد حلّوا محل شركة أجنبية وأصبحوا تحت مراقبة

القطـــر بأجمعه ، فقد كانوا مصممين على إثبات جدارتهم وإنجاز المهمة في الـــتاريخ المحـــدد ، خاصـــة وقد سهل عملهم معرفتهم بكل أولئك المقاولين المحليـــين الذيـــن شاطروهم الحماس والإصرار على أن يكونوا في مستوى الـــتحدي . وجمع المقاولون موادهم وآلياتهم وعمالهم المهرة واتجهوا بقوافلهم المكونة من الشاحنات المحملة بمواد البناء إلى مواقع التشييد في خشم القربة . ولم تلبث منطقة الإسكان أن امتلأت بمعسكرات العمل ، وانتشر العمال – من كـــل أنحاء القطر – في مواقع إنشاء القرى ومنطقة المدينة الرئيسة . فأقيمت أحـــواض عجن الأسمنت وجُهِّزت ماكينات البلوكات المفرغَة التي تدار يدوياً وبالكهـــرباء ، وبـــدأ حفر الأساسات . وأصاب الطريق إلى (سساريب) الـــتلف مـــن جراء حركة نقل الرمل والخرصانة بالشاحنات الثقيلة . وبدأ في الظهـــور مـــا يـــلازم هـــذا النشاط – عادة – من الباعة والمقاهي والمطاعم و(الأنـــادي) [1] ، بتراخـــيص مؤقـــتة . ومـــدت مصلحة البوسته والتلغراف خطوطهـــا مـــن خشم القربة إلى موقع حلفا الجديدة . ونسبة لأن المقاولين قد قرروا مواصلة العمل ليل نهار ، فقد جاءوا إلى معسكراتهم بمولدات كهربائية صـــغيرة ، وأعطت كشافاتهم ومصابيحهم الكهربائية انطباعاً غريباً بالليل في ذلك السهل المقفر .

.. دعونا الآن نغادر (خشم القربة) – وهي تستقبل مقاوليها المحليين الجدد – ونعود إلى (وادي حلفا) .



---

[1] أماكن بيع الخمور البلدية (المريسة والعرقي) – المترجم



شكل المنازل في حلفا الجديدة



مصنع سكر حلفا الجديدة

الفصل السابع عشر

أثر التعويضات علي الشعور العام (٢)

عملية تقييم المنازل – في وادي حلفا – تسير بهدوء ودون أن تتعرض لعوائـــق على امتداد المنطقة خلال المرحلتين الأولى والثانية للتهجير . ولقد ارتضى سكان القرى الشمالية – بكاملهم – الهجرة إلى خشم القربة فيما عدا خمس أسر يتزعمها الأعضاء النافذون في اللجنة المحلية المنحلة أمثال محمد أحمـــد عوض ومحي الدين محمد عيسى بقرية (دبيره) وأبو راس أيوب [1] فـــي أشـــكيت وأسرة محمد أحمد جاهين في(أرقين جنوب) . أما في المدينة فهناك أسرة شريف داوود وآخرون في دبروسه . وفي قرية دغيم كان الوضع فريداً من نوعه فقبل وصول لجنة التعويضات – مباشرة – إلى تلك القرية ، شن المعارضون لخيار (خشم القربة) حملة عنيفة سراً وعلناً ضد كل المؤيدين لذلــك الخيار . وأخذوا يستهزئون بهم عند خروجهم في الطرقات ، وقاطعوا الــتعامل مــع أصحاب الحوانيت والحرف منهم . وبالإضافة إلى ذلك كانوا يحشـــرون أوراقـــاً مـــن تحت أبواب المنازل تحتوي على إساءات وتهديدات وعـــبارات إرهابـــية تـــنذرهم بعدم اختيار الرحيل إلى (خشم القربة،) ولأن مؤيـــدي (خـــيار خشـــم القربة) كانوا على يقين من حالة اليأس التي اعترت مناوئـــيهم ، فقـــد قـــرروا عدم الدخول معهم في مواجهات مفتوحة . فقد لجأ بعضـــهم إلـــى فضـــيلة الصبر كما أن البعض الآخر – الأكثر ذكاءً – لاذ بالأســـاليب المخادعة لإقناع أولئك المناوئين برفضه لخشم القربة في حين أنه – حقيقة – كان أكثر إصراراً على الرحيل إلى هناك . وعندما ذهبت اللجان إلى دغيم ، لقيها جمع كبير كان يتتبعها بغرض التأثير على أصحاب المنازل لكي يطلبوا التعويض النقدي . فتسربوا – أول الأمر – إلى المنازل التي كان

---

(1) وردت : (Ayoud) في النص الإنجليزي ، ولعل ذلك خطأ مطبعي عارض – المترجم .

يجـــري تقيـــيمها لإعـــتراض العمل وتعويق مسيرته . غير أن بعض رجال الشرطة الذين كانوا في معية اللجان ، استطاعوا صد ذلك الجمع وهيأوا جوا مـــن حرية الاختيار لأصحاب المنازل يمكنهم من إبداء رغبتهم الحقيقية دون تأثـــير مـــن أحـــد . وبالرغم من هذه الإجراءات التحوطية فإن الأذكياء من أصـــحاب المنازل واصلوا المضي في محاولة استغفال المناوئين . فكلما دخل أحـــد ممثلي اللجنة منزلاً لتقييمه فإن صاحبه كان يندمج مع جماعة المناوئين الذيـــن كانوا يرددون بصوت عال أنهم يختارون التعويض النقدي . وبعد أن تفرغ اللجنة من التقييم ينادى على صاحب المنزل باسمه لتحديد خياره فإذا به يصيح وهو في غمرة الجمهرة – (نقدي .. نقدي .. أريد نقدي.) وكانت هذه العبارة تقابل عادة بصيحات الابتهاج والتصفيق من جموع المناوئين . ثم يتقدم صاحبنا نحو أعضاء اللجنة وهو يردد نفس العبارة مرة أو مرتين ربما لإزالة الشـــكوك حول خياره . وحينما يقف أمام رئيس اللجنة وجها لوجه فإنه يعيد تـــرديدها . حينـــئذ يقوم الرئيس بتسجيل اسمه ضمن الراغبين في التعويض الـــنقدي . لكـــن الرجل – بعدئذ – يتوجه بسؤال هامس : (ماذا سجلت ؟) وحيـــنما يجيـــبه رئيس اللجنة بقوله (تعويض نقدي) فإنه يرفع صوته قليلاً قـــائلاً (كـــلا . أنـــا قصدت بقولي نقدي إن يكون لي منزل في خشم القربة تعويضـــاً عـــن هذا المنزل.) هنا يتم تغيير التسجيل إلى تعويض عيني يوقع عليه المالك . وعندما يرجع صاحبنا إلى جموع المناوئين يصيح قائلاً : (لقد طلبـــت تعويضـــاً نقديـــاً) فيتلقونه بمزيد من التصفيق . وقد ظلّت الخيارات الحقيقـــية لأولئك الناس الأذكياء الكثر سراً لزمن طويل كانوا خلاله يتمتعون

بعلاقــات طيــبة مع مناوئيهم ولم ينكشف السر إلاّ بعد أن غادروا إلى خشم القربة .

وعــندما تم الفراغ من تقييم المنازل في(دغيم) ، اتضح أن الأغلبية العظمـــى من الأهالي كانت في جانب خيار الذهاب إلى (خشم القربة) . ولم يسـاند الخـيار الـنقدي سوى ٦٠٠ من ملاك المنازل في كل العمودية وهم مـــن(دغيم جنوب وجزيرة المجراب) وبنسبة مئوية ضئيلة في وسط دغيم وشــمالها . أما (عنقش) فقد مالت بكاملها إلى التعويض العيني فيما عدا ست أســر . وفي جمي استطاع العمدة حسن عقلان أن يسجل كل عموديته لخيار خشم القربة فيما عدا أقلية ضئيلة ساندت (حسن عثمان) سالعضو النشط في اللجنة المحلية المنحلة والذي طالب بالتعويض النقدي .

وبـــنهاية شهر يوليو ، وجهني رئيس اللجنة للحاق به لحضور اجتماع مـــع المديـــر العـــام للسكة حديد السودانية لحسم موضوع احتياجات برنامج التهجـير مـــن القطـــارات . فجمعت كل الإحصاءات ذات الصلة بموضوع الركاب والشحن وغادرت بالطائرة إلى عطبرة . وهناك عقدنا اجتماعاً ناجحاً مـــع السيد محمد فضل [١] المدير العام الذي تعاطف تعاطفاً كاملاً مع موقفنا وشــاطرنا الإحساس بأن نجاح عملية التهجير يعتمد على نوع الخدمات التي تحتاج للمسافرين وعلى كفاءة نظام السكة حديد ومواكبته لوتيرة الحركة التي حددناهــا لعملــية ترحــيلهم . وبعد أن أطلع السيد محمد فضل على برنامج التهجير الذي قمت بإعداده ، قرر أن يخصص أربعة قطارات ركاب كاملة و أربعـــة قطـــارات بضاعة للعمل المتواصل بين وادي حلفا وخشم القربة لنقل

---

[١] الصحيح : عبد الغني . - المترجم .

المهجّرين و أمتعتهم ومواشيهم خلال فترة إخلاء المنطقة من السكان . وأكّد لنا السيد فضل أن حجم الحركة سيكون أكثر مما هو مطلوب وأنه سيوجه المكتب الرئيسي لإدارة حركة القطارات لإعطاء أسبقية لمرور قطارات التهجير بحيث تتواصل رحلاتها دون عوائق إلى خشم القربة . وكان مشجعاً أن يفيدنا السيد فضل أن هناك ٢٠٠ عربة ركاب مجّهزة بإمكانات تهوية إضافية على وشك الفراغ من تصنيعها في ورش عطبرة ستتألف منها قطارات الركاب التي نحتاج إليها . ووافق السيد فضل على إحداث تغييرات في أربع حافلات مطاعم – بإزالة المقاعد والمناضد واستبدالها بسراير خفيفة – لتكون مستشفى متحركاً لرعاية المرضى والعجزة . ولتأكيد كفاءة محطة السكة حديد بوادي حلفا ، فإن كل الاحتياجات من القوى العاملة الإضافية التي يطلبها السيد الدرديري سيستجاب لها . وهكذا غادرنا عطبرة وقد أُثلجت صدورنا ولهجت ألسنتنا بالشكر للمدير العام على تعاونه المثمر .

وفي ديسمبر ١٩٦٢ ، أُعفي السيد حسن علي عبد الله من مسئولياته كرئيس للجنة ، واستأنف مهامه السابقة وكيلاً لوزارة الداخلية ... لقد كانت خدماته مع اللجنة وتعاونه وتوجيهه الرشيد لنا ، أمر قمين بالتسجيل . وحين خلف السيد داؤود عبد اللطيف – في وقت عصيب – كانت لحكمة السيد حسن وبعد نظره وقدراته الإدارية الفذّة أثرها في تمكنه من إحداث إنجازات عظيمة . ففي خلال فترة رئاسته للجنة تم تخطيط القرى والمدينة الرئيسة كما تم تصميم المنازل ومرافق الخدمات العامة . وعند صدور قانون إعادة توطين وادي حلفا ونفاذه ، اتسع عمل اللجنة بإنشاء مكتبين فرعيين فاعلين أحدهما في وادي حلفا والآخر في خشم القربة ، كما تم تعيين ثلاثة مُعتمدين . وتغيّر

موقـــف الأهالـــي تجـــاه خيار خشم القربة بصورة جذرية . فقد تم ترويض مقاومـــتهم الشرسة والعنيدة وانحاز كل سكان المنطقة – تقريباً – إلى جانب قرار الحكومة . كذلك أمكن التغلب على مشاكل التعويضات العويصة بتحديد أرقـــام تقيـــيم معقولة . وباختصـــار فإن فترة السنتين اللتين قضاهما مع اللجنة شـــــهدت انـــتقال عملية التهجير وإعادة التوطين من فكرة نظرية إلى حقيقة واقعـــة . وقـــد حل السيد عبد الله محمد الأمين – الذي كان حتى ذلك الوقت مديـــراً لمديـــرية كردفان– محلّه وبتعيينه نطوي أحداث إعادة التوطين لعام ١٩٦٢ .

فـــي يناير ١٩٦٣ تم افتتاح معرض ضخم بوادي حلفا من بنات أفكار السيد (طه عثمان)مساعد رئيس اللجنة ، فبعد أن وقف الســـيد (طه) على النـــتائج الطيبة لزيارة وفد أهالي حلفا للمزرعة التجريبية بخشم القربة، أقترح علَـــيّ إقامة معرض في مدينة حلفا يحتوي على نماذج وعينات وأشياء أخرى يكـــون مـــن شأنه إعطاء فكرة جيدة للأهالي عن شكل وطبيعة منطقة إعادة التوطيـــن . فوافقـــت علـــى هذه الفكرة النيرة ، وطلبت منه أن يقوم بتنفيذها فاســـتطاع – تـــواً – الحصول على تصديق للتمويل اللازم واتصل بالمصالح الحكومـــية المعنية . وقام أحد الفنانين التشكيليين من الخرطوم بتصميم قاعة العـــرض وكلّف أحد النجارين بتجهيز أجزائها الخشبية التي أرسلت إلينا في وادي حلفـــا لـــنقوم بتركيـــبها . وبعد أيام قليلة وصلت النماذج والملصقات والصـــور الفوتوغرافية . وبحلول نهاية ديسمبر تم تشييد قاعة العرض بساحة المديـــنة كمـــا تـــم ترتيب النماذج ومادة المعلومات ، وساهمت وزارة الري بنموذج عملي لخزان خشم القربة وآخر لنظام الإمداد المائي النقي من الآبار

للقـــرى عـــن طـــريق المضـــخات ومســـتودعات المـــياه العالية . و قامت شـــــــــركة(ترف) بتجهيز نموذجين ضخمين لنوعين من المنازل ونموذج كـــامل وجميل للقرية رقم ٨ (وسط أرقين.) أما وزارة الأشغال فقد ساهمت بنموذج لخدمات المياه في مدينة(حلفا الجديدة ٠) وأما وزارة الثروة الحيوانية فقـــد بعثـــت بقطيع صغير من أبقار كنانة والبطانة الحلوب التي تعتبر أفضل الســـلالات في أفريقيا كلها كما بعثت بفقاسة بيض كبيرة ومعها ٥٠٠ كتكوت مـــن إنتاجيات منتقاة بغرض استعراض تربية الدواجن وفق التخطيط المنتظر لمـــنطقة خشـــم القربة . وأرسلت مصلحة الغابات عينات لأنواع مختلفة من الكـــتل الخشبية بكميات كافية لإقامة موردة (سوق حطب) وذلك في بقعة من الأرض خلـــف قاعـــة المعـــرض . ونظمت وزارة الزراعية عرضاً ممتازاً لعيـــنات مـــن الخضـــر والبقوليات وقصب السكر والقطن . وجاءت شركة (لندستري إلكتريك الباريسية) بنموذج عملاق لبرج من أبراج خطوط الإمداد الكهربائـــي . وأخيراً فإن وزارة الاستعلامات ساهمت بكميات لا تحصي من الصور المكبرة التي تعكس شتى أنشطة العمل بخشم القربة . ولم أكن لأصدق أن يتمكـــن (طه) من جمع معروضات بهذه الكثرة في وقت قصير لولا أنني رأيتها بعينيْ رأسي .

وانـــتهزنا الفرصة لدعوة ممثلي كل المصالح – التي لها صلة بتعمير مـــنطقة إعادة التوطين – لحضور افتتاح المعرض . وكان مخططاً – أولاً – أن يفتـــتح المعرض اللواء عروة وزير الداخلية ، غير أنّ أسبابا تتعلق بمهام طارئـــة حالـــت دون حضوره . فبعث بالأميرالاي [١] محمد المهدي حامد

---

(١) العميد – المترجم

الحـــاكم العسكري للمديرية الشمالية نيابة عنه . وقد لبّى الدعوة كل المدعوين وجـــاءوا بطائـــرة خاصـة من الخرطوم فيما عدا السيد عبد الله محمد الأمين الرئـيس الجديد للجنة الذي كان طريح الفراش إثر نوبة قلبية . وبدأ الاحتفال صباحاً في ساحة المدينة بحضور حشد مكون من ١٠ آلاف شخص ، وتحدث فــيه الحاكم العسكري وميرغني علي إبراهيم وصالحين وشخصي ، معددين أوجــه الحــياة الجديــدة في الوطن الجديد والثورة الاجتماعية والاقتصادية المخططة لأهالي وادي حلفا . وأختُتِمت المناسبة بعرض رياضي شاركت فيه كل الأندية الرياضية ماعدا نادي قرية دغيم .

وبعــد الافتــتاح مباشرة تقاطر على المعرض الزوار المحليون الذين أنــتظم دخولهــم فــي مجموعــات . وقد رتبنا زيارة الرجال والنساء بحيث يخصص يوم لكل جنس . فزار المعرض في اليومين الأولين ٦٠٠٠ رجل و ٤٠٠٠ إمــرأة ، وكان كل زائر يريد أن يعرف كل شيء عن المعروضات . وفي اليوم الثاني جاءت نساء كثيرات من(فرص وبطن الحجر) لإلقاء نظرة علــى المعــرض . وقد كنّ مسرورات للغاية ، لكنّي علمت من أزواجهن أن معظم النساء في القرى عبرّن عن رغبتهنّ في مشاهدة المعرض لولا صعوبة المواصــلات . فخصصــت عدداً من السيارات لنقل المئات منهن – خاصة اللائي ينتمين إلى منطقة (صرص – عكاشة) – للحضور ومشاهدة النماذج المصــغرة لأرضــهن الموعــودة . وأثارت النماذج التي عرضتها (ترف) ومعروضــات وزارة الزراعة فضولهن. ففي اليوم الأول المخصص للسيدات وقع حوار شيق في قسم الخضروات كشف عن نظرة التحامل التي غلبت على المعارضين لخيار خشم القربة وانحيازهم ضد كل ما يتعلق بإعادة التوطين .

فقد كانت حبات الفلفل الأخضر ضخمة على غير العادة ولائقة جداً للخلط مع اللحـم المفـروم والأرز المسـلوق وطـبخها بالسمن كما تفعل النساء عادة. واسـترعى انتباه حجم الفلفل الأخضر إحدى السيدات المناصرات لخيار خشم القربة فصاحت قائلة : (يا لحجمها وبهائها) فأجابتها فتاة من المناوئات لذلك الخيار قائلة على الفور (ستحتاجين إلى كيلو من الأرز لحشو حبة فلفل واحدة وهذا مالا نقدر عليه) .

وفي ٩ فبراير – وبناء على رجاء من اللجنة -- قمت بتقديم اقتراحاتي حـول كيفـية إنقاذ مخلفات المنازل والمباني الحكومية وأشجار النخيل . فقد لاحظـت أن النوبيـن يستعملون – في منازلهم – عدداً محدوداً من الأبواب والـنوافذ ، لكنهم يعتمدون في سقوفها على عدد هائل من القضبان الفولاذية خاصـة فـي منطقة (صرص – عكاشة.) ولربما يمكن أن يستفاد من أبواب ونوافذ مباني المكاتب والمنازل الحكومية – رغم أن الكثير منها عتيق وبال – مثلما يمكن الاستفادة من قضبان السقف الكثيرة التي لا يكاد يخلو منها مكتب من مكاتب الدولة . وبالنسبة لمباني فندق النيل ومباني سكك حديد السودان – بسقائفها وورشها – فيمكن أن تنزع أبوابها ونوافذها على أيدي أربابها وترسل إلـى عطـبرة . لكـن تكلفة إنقاذ هذه المواد ونقلها إلى حيث الاستفادة منها ستكون مساوية – تقريباً – لقيمتها وهي جديدة إن لم تتجاوزها . كذلك لابد أن يوضع في الاعتبار ضيق الوقت المتاح ما بين إخلاء المباني وغرقها في مياه السد لأننا سنكون مشغولين بعملية التهجير وليس من المرغوب فيه أن نضيف إلـى أنفسنا مزيداً من الصداع. أما بالنسبة لأشجار النخيل فليس هناك معنى لإنقاذها ويستثنى من ذلك الشتول الجيدة التي يمكن لوزارة الزراعة أن تنتقيها

وتـنقلها وتعيد زراعتها في مكان آخر بالمديرية الشمالية . وهذا يعني أن كل أنـواع النخـيل – بـلا استثناء – يجب ألا تمتد إليها يد حتى تنتقل إلى عالم الفـناء. واقترحـت – في الختام – أن تطرح مخلّفات كل المباني في عطاء شـريطة أن يـتولى صـاحب العطاء الفائز مسئولية انتزاع الأبواب والنوافذ وأعـدة السقف وترحيلها بمعرفته . وبعد قبول اقتراحي ، مُنح العطاء لمحمد عـثمان عبد الرحيم[1] وشريكه عكاشة صالحين بمبلغ ١٢٠٠٠ جنيه . ونسبة لـارتفاع المشارع لمياه النيل – خاصة في موقع المدينة – فقد صعب على الشريكين جمع الأسلاب لكنهما – على وجه العموم – خرجا من الصفقة بربح مقـدر . وقاما بتخزين ما جمعاه في مكان قرب المطار وأرسلا معظمه إلى منطقة إعادة التوطين حيث أعيد استخدامه في إمتدادات المنازل .

وفـي ١٣ فبراير أعلن اللواء عروة وزير الداخلية – في بيان مطول عـبر إذاعـة أم درمان – فئات التعويضات التي وافق عليها مجلس الوزراء وهي نفسها التي أوصت بها لجاننا ، كما أعلن أن الحكومة قد اعتبرت الفرق بيـن قيمة المنازل في وادي حلفا وسعر تكلفتها في الوطن الجديد منحة منها للأهالـي وفـاءً لوعود الرئيس عبود وبرهاناً على حسن نواياه تجاههم . وقد قوبـل البـيان برضـا عام حيث وضعت منحه الرئيس عبود السخية نهاية للشـائعات التـي قالـت إنّ الفرق الشاسع في قيمة الإسكان ستتم جبايته من الأهالـي . وأصبح واضحاً أنّ الأهالي الذين اختاروا الذهاب إلى خشم القربة سيتمتعون بوضع متميز مقارنة بأولئك الذين فضلوا التعويض – عن منازلهم – نقـداً . وفـي الحقيقة فإن البيان أحدث صدمة في صفوف المناوئين لخيار

---

[1] الاسم الصحيح : كما ثبتت هو : محمد عثمان عبد الرحيم – المترجم .

خشم القربة . فالتمس كثير منهم الرجوع عن قرارهم بدعوى أنهم كانوا عرضة للتضليل من رفقاهم الآخرين ، إلا أن معتمد التعويضات رفض تلك الالتماسات إعتماداً على التحذير المسبق الواضح بأن لا رجعة في الخيار الذي شاءوه هم بأنفسهم . وحالما تم إعلان فئات التعويضات ، كان السؤال الطبيعي الذي يرد هو : كيف ومتى يتم الدفع ؟ فقد تباينت آراء النوبيين حول الإجابة على السؤالين . فالفقراء العاديون منهم – ومن منطلق حاجاتهم الماسة للمال – كانوا يتطلّعون إلى دفع التعويض النقدي فوراً دفعة واحدة . أمّا الآخرون الأعقل والأكثر وعياً بخطل هذا الرأي ، فقد رأوا أن يكون الدفع على أقساط .

وبعد مرور أسبوع على صدور فئات التعويضات ، جاء إلى مكتبي أربعة من النوبيين المعتدلين وطلبوا مني – بعد نقاش مطول ومثمر – أن أنصح الحكومة بدفع التعويض النقدي على أقساط وألا يكون الدفع – بأي حال – جملةً واحدة . وأشاروا إلى سابقة وقعت على أقربائهم من(الكنوز) في النوبة السفلي الذين تسلموا كل التعويضات النقدية عن ممتلكاتهم إبان الإعلاء الثاني لخزان أسوان عام ١٩٣٢ دفعة واحدة ، فأفقتوها سريعاً عن بكرة أبيها مما أدى إلى عاقبة وخيمة جعلتهم أكثر فقراً مما كانوا . واقترحوا أن يدفع القسط الأول للأهالي – بما لا يزيد عن ثلث جملة التعويض – قبل توجههم إلى خشم القربة لتمكينهم من تسوية ديونهم وتمليكهم قدراً معقولاً من المال يهيئهم لمقابلة أعباء الحياة المباشرة عند حلولهم بالوطن الجديد . أما بالنسبة لباقي أقساط التعويضات النقدية فقد أخبروني أنهم يدرسون خططاً لاستغلالها في شركة استثمارية . وقد تطابقت هذه الإقتراحات مع ما كنت قد فكرت فيه

، فناقشـــت معهم إمكانية قيام اتحاد للمزارعين – وذلك ما اقترحته على لجنة التوطيـــن ســـلفاً – أو إنشاء مصرف نوبي في منطقة إعادة التوطين . فأمّنوا علـــى حقيقة أن هذه الاقتراحات تتماشي مع ما فكروا فيه ، ووعدوا بدراستها وتبنّيها . كان أولئك الرجال هم : علي أحمد علي والمحامي محي الدين محمد نـــور وعلـــي الطاهر والمرحوم عثمان محمود . قمت بعد ذلك بعرض هذه الآراء الحصـــيفة مشـــفوعة باقتراحـــي السابق القائل بوجوب أن تتم دفعيات التعويضـــات عـــبر مصرف تجاري وبعثت بها في تقرير مطول إلى اللجنة. وبالنسبة للذين لا يرغبون في الرحيل إلى خشم القربة ، فان التوصية بشأنهم – بالطبع – كانت أن ينالوا نصيبهم من التعويضات دفعة واحدة حتى يتمكنوا مـــن تكيـــير إقامـــتهم في المكان الذي يختارون. وقد وافقت اللجنة على هذه الاقـــتراحات – في مجملها – لكنها قررت دفع قيمة ثلث التعويضات فقط في وادي حلفا وأجلّت دفع الباقي لحين وصول الأهالي إلى منطقة إعادة التوطين. ولأسباب فنية صرفت وزارة المالية النظر عن اقتراحي بدفع قيمة التعويضات عبر أحد المصارف.

وفـــي مـــارس أحيل السيد عبد الله محمد الأمين إلى المعاش لأسباب صحية وتم تعيين السيد علام حسن علام مدير المديرية الشمالية رئيساً للجنة . ومع أنني أسفت لمرض السيد عبد الله وإحالته إلى المعاش ، فإن تعيين السيد علام كان بالنسبة لي نبأ ساراً . فقد عملنا سوياً في المديرية الشمالية ، وبما أنه كان المدير فإنه ظل على علم بطبيعة الوضع في هذا الجزء من مديريته . وفوق ذلك فقد عرف بنشاطه وبمزاياه الإنسانية مما أكسبه ولاء كل مساعديه.

كمـــا أن خبرته السابقة كمساعد لمفتش مركز وادي حلفا ، جعلته قادراً على الإمساك – جيداً – بأطراف المشاكل التي كانت تحيط بنا.

وعـندما فرغـت لجـــان التقييم من أعمالها في المنازل المأهولة بمناطق المرحلتين الأولى والثانية، اتجهت أنظارنا إلى تقييم سوق وادي حلفا وبحث إمكانـــية تشييد دكاكين بخشم القربة قبل وصول الأهالي إليها. لذلك تم تقدير قـــيمة مباني كل الدكاكين بواسطة اللجان استعداداً للتعويض النقدي. وعندما شرعنا في تسجيل الأراضي التجارية لتعويضها عينياً جاءتنا تعليمـــات جديدة من اللجنة أفسدت كل القواعد التي وضعتها اللجنة الفنية (بخصوص تعويض الأراضـــي التجارية) خلال اجتماعها بالخرطوم . وقد رمت السياسة الجديدة إلى تخفيض الأراضي التجارية ذات الملكية الحرة في حلفا الجديدة عن طريق منح أصحاب الدكاكين المتعددة الجزء الأكبر من التعويض نقداً . وهذه القاعدة الجديـــدة توفـــر حوالـــي ثلث المواقع المسجلة . فهي تمنح دكاناً واحداً للذين يملكـــون ثلاثة دكاكين ودكانين للذين يملكون أربعة أو خمسة ، وثلاثة للذين يملكون ستة أو ثمانية وهكذا . ولعل القارئ يلاحظ أن القاعدة لا تلتزم بأنظمة حســـابية أو أي من قوانين التتابع ولذلك كان أثرها قاسياً على المالكين الذين يتقاضـــون إيجـــاراً عن دكاكينهم ، وقد تضررت أسرة شريف داوود – التي كانت تملك ١٠٠ دكان – كثيراً من هذه السياسة مما دفعها لرفع دعوى للنائب العـــام الذي حكم لها بعدد مساوٍ للمواقع التي تمتلكها بسوق حلفا الجديدة . إما توزيع الدكاكين الجديدة وفقاً لخريطة السوق الجديد فقد تقرر – بعد الاتفاق مع الملاك – أن يكون بالقرعة .

وقـــد أوصينا – أيضاً – بمنح امتياز لكل أصحاب الرخص التجارية الذين كانوا يزاولون أعمالهم التجارية بلا انقطاع من داخل دكاكين مؤجرة ، لشراء مواقع في سوق حلفا الجديدة عن طريق المزاد المقفول . فوافقت اللجنة علـــى التوصـــية وقـــام الســـيد عثمان حسين – أثناء زيارة لوادي حلفا – بإجراءات المزاد . وبما أن عدد المواقع كان على قدر عدد المتقدمين فلم تجر مـــزايدات ، وبيعـــت المواقع بالسعر الأساسي . وبعد الفراغ من هذا العمل ، توجهـــنا – بإلحـــاح – إلى أصحاب المواقع للإسراع في تشييد دكاكينهم قبل بدايـــة التهجير. فاستجابوا لطلبنا ووافقوا – خلال أيام قلائل – على خريطة نموذجـــية جـــيدة وكلفـــوا مقاولين من وادي حلفا بتنفيذها . فجمع المقاولون معداتهم وغادروا إلى خشم القربة للشروع في عملية البناء .

ثـــم برزت مشكلة أخرى تحتاج إلى معالجة وهي: كيفية توزيع القرى الحالـــية فـــي وادي حلفـــا على مواقع القرى الست والعشرين بمنطقة إعادة التوطين . فالأمر لم يكن سهلاً كما يبدو ، لأن كل القرى – في المنطقة التي ســـتغمرها المـــياه – تمتد على شاطئ النيل إلى مسافة ١٠٠ ميل . غير أن مشروع إعادة التوطين جعل القرى عريضة ومربعة وتتكون من ثلاثة خطوط مـــتوازية تبعاً للتصميم العام . علاوة على ذلك فإن القرى الجديدة تزيد عدداً عـــن القرى القائمة وقد تم تخطيطها لتشمل عدداً متساوياً من المنازل، بينما تتراوح أحجام القرى – في المنطقة المغمورة – ما بين مستوطنات كبيرة مثل دغـــيم ودبـــيره وأرقين ، إلى قرى صغيرة مثل (شيخ علي) و(الصحابة) . ولإيواء الأهالي – في موطنهم الجديد ، فقد كان لازماً أن يتم شطر القرى إلى

جزئيـــن وأن تُجمـــع القرى الصغيرة في قرية جديدة ، بينما أمكن في بعض الحالات – ضم مجموعة كاملة لأهالي قرية بعينها للعيش سوياً .

وقــد دعوت ممثلين لكل القرى وأريتهم خريطة منطقة إعادة التوطين وشـــرحت لهم كل الجوانب العصيّة في هذه المسألة الشائكة . واتخذنا الخطوة الأولـــى بـــأن جعلـــنا الوضع الجغرافي – للقرى الحالية – معكوساً بالنسبة لموقعهـــا في منطقة إعادة التوطين. وبما أن مدخل منطقة إعادة التوطين يقع فـــي الطرف الجنوبي، فقد قرر الاجتماع أن يكون موقع (فرص) ملاصقاً له، ويســـتمر الوضـــع هكذا كلما اتجهنا شمالاً من أجل الحفاظ على علاقة القرى المـــتجاورة مـــا وسعتنا الحيلة. ولحسن الحظ فقد اكتشفنا أن عدد المنازل في قريتـــي فرص الحاليتين ينطابق تماماً مع عددها في القريتين الجديدتين بخشم القـــربة ، فخصصنا القرية رقم (١) لفرص شرق وخصصنا جارتها (القرية رقـــم ٣٣) لفرص غرب . ووجدنا عدداً فائضاً من المنازل في قريتي (سرّه) خصصناها لدبيره شمال وأرقين شمال أقرب جارتين إليهما. وشطرنا كل من دبـــيره وأرقين ودغيم إلى ثلاث قرى . والتزمنا هذا النظام بسلاسة فيما عدا العـــائق الذي واجهنا في القرية رقم ١٤ التي أطلقنا عليها : بوهين نسبة إلى المديـــنة الأثـــرية التي حملت هذا الاسم . وقد تكونت هذه القرية من المنازل الفائضـــة عن دبيره وأشكيت والحصا . فاحتج الأهالي – أولاً – على فصلهم عـــن قراهم الأصلية لكنهم عندما تيقنوا أن قريتهم ستكون الأقرب إلى مدينة حلفـــا الجديـــدة ، آثـــروا القبول . وقد احتفظت كل القرى الرئيسة بأسمائها الأصلية أما القرى المشطورة من أصلها فقد سميت بالأسماء التي كان يطلقها علـيها الأهالـــي عـــندما كانت قرى فرعية . فقريتا أرقين الجديدتان سُمّيتا :

(شاركوتاري) و(أشاويركي) . أما دبيره ودبيره شمال (هاجر) فقد احتفظتا بسـكانهما الأصليين . وبالنسبة لأهالي قرية الكنوز (التي ليس لها إسم معين والتـي تقع عند أطلال بوهين) وأقاربهم من عنقش ودغيم ، فقد تم تجميعهم فـي حي بالمدينة الجديدة حيث توفرت منازل إضافية. أما قريتي (الصحابة) و(شيخ على) فقد دُمجتا في قرية واحدة أطلق عليها :(شيخ علي) .

وفـي المديـنة كان الوضع يتشكل على نحو طيب . فكل الأحياء تم توزيعهـا بسـهولة حفظت لها شخصيتها وأواصر الجيرة . كما أن المنازل الفائضـة تم تجميعها في حي واحد يتيح فرصة طيبة للذين يرغبون في تغيير نمـط حـياتهم من ريفي إلى حضري ، غير أن هؤلاء لم يكونوا من الكثرة بمكـان . فجـاءت الطلـبات مساوية لعدد المنازل المتاحة . وهناك عائلات شهيرة قليلة مثل عائلة صالحين وسليمان الشيخ المنتسب إلى(أشكيت) قررت العيش في المدينة .

وبعد أن فرغنا من هذه المشكلة المعقدة ، أرسلت قائمة طويلة بأسماء القـري إلـى اللجنة وصورة منها إلى معتمد التوطين راجياً أن تحل الأسماء الجديـدة محـل الأرقـام المتتالـية المبَينة بالخريطة واشترطت أن يستعمل الرسميون والمقاولون والعمال – في خشم القربة – هذه الأسماء. ولسوء الحظ فـإن كـل الناس في خشم القربة اعتادوا على استعمال الأرقام إلى درجة أن الأسـماء الجديدة لم يكن لها أثر على الإطلاق . والأسوأ من ذلك أن النوبيين عـندما حلّـوا بهذه القرى وجدوا أن استعمال الأرقام قد أصبح راسخا بحيث اسـتحال اسـتبدالها بالأسماء الأصلية . وعند أولى زياراتي للمنطقة – بعد تعيينـي مديراً لمديرية كسلا مباشرة – كنت حقيقةً –غير سعيد لرؤية لافتات

علــى مداخــل القرى تحمل أرقاما بدلاً من أسمائها ، كما أنّ النوبيين أنفسهم اعتادوا الإشارة إلى قراهم بالأرقام . وعندما سألتهم : (أين الأسماء الأصلية لقــراكم ؟) أجابني أحدهم قائلاً بأن السكان المحليين لخشم القربة يجهلونها . فقلــت لهــم : (إنّ عليكم أن تعلموهم أنكم تعيشون في وسط اجتماعي لا في مخــيم عســكري.) وفــي أول اجتماعاتي بالمجلس المحلي اقترحت عليهم اســتبدال كــل اللافتات التي تشير إلى الأسماء الرقمية للقرى ، بلافتات اكبر تحمــل أسماءها الأصلية . كما اقترحت عليهم أن يصدر المجلس أمراً محلياً بعدم النظر في أي (عريضة) أو وثيقة رسمية لا تسمى تلك القرى بأسمائها.

وفــي أبــريل عيــن مجلس الوزراء لجنة وزارية بصلاحيات تنفيذية واســعة للإشــراف علــى الشئون المتعلقة بتهجير وإعادة توطين أهالي حلفا والبــت فــيها دون الرجوع إلى المجلس . وقد أملت هذه الترتيبات الظروف الطارئــة والحــرجة التــي برزت نتيجة للبطء غير المتوقع في تشييد منازل الأهالــي بواســطة شركة (ترف) . وغدا الوضع حساساً للغاية بحيث أن أي تمــويف يقــع ســيؤدي إلى مالا تحمد عقباه خاصة في وادي حلفا التي كان يزحف عليها التوتر يوماً بعد يوم . وكان لابد من فعل شيء يؤكد أن الأهالي ســيجدون المــأوى قبل أن تغمر منازلهم مياه السد العالي . وجاء إنشاء هذا الجهــاز العالــي مهيمناً على اللجنة ومبطلاً لصلاحيات اللجنة الإدارية التي كانــت مستشاراً لوزير الداخلية ومخترقاً الشبكة البيروقراطية ومؤكداً انسياب العمل مباشرة إلى اللجنة الوزارية . فتصل الأمور إليها طازجة لتناقش ويبث فيها على التو .

كان رئيس هذه اللجنة اللواء محمد احمد عروة وزير الداخلية وتشكلت عضـــويتها مـــن اللواء أحمد رضا فريد [١] وزير الزراعة والسيد مكي المنّا وزير الري والسيد محمد حسين سليمان [٢] وزير المواصلات (وهذا العضو الأخـــير نوبـــي من أشكيت وكان تعيينه إشارة لاسترضاء أهالي وادي حلفا وتعويضهم عن الفقد العظيم بوفاة د. محمد احمد علي الوزير السابق للصحة والذي توفى إثر نوبة قلبية في أوائل ١٩٦١) .

.. عقد الاجتماع الأول لهذه اللجنة في ١٣ أبريل ١٩٦١ ، حيث وجدت نفسها وجها لوجه مع القضية المربكة المتمثلة في عجز شركة (ترف) عن الوفاء بالتزاماتها التعاقدية .

وفي أواخر يوليو بدأت الشائعات – في وادي حلفا – تأخذ شكلاً جدّياً مفاده أن تشييد منازل الأهالي قد تلكأ وأن المقاولين المحليين فشلوا في إنجاز مهمـــتهم حســب المـــيعاد المحدد . وكان هذا يعني – على أقل تقدير – أن برنامجـــنا لشهر سبتمبر لابد أن يؤجل لتاريخ متأخر يتعذر تحديده . وقد أكد السيد عثمان حسين تلك الشائعات مما زاد قلقي ، فكانت ردة فعلي المباشرة هـــي أن أعتبر برنامجنا الذي وضعناه للتهجير في شهر سبتمبر كأن لم يكن، وأن تأجيله قد أصبح أمراً حتمياً . لذلك قررت الذهاب إلى خشم القربة لتقييم الموقف و معرفة ما أحدثه تأخر تسليم المقاولين للمباني من آثار على جدول ترحيل الأهالي . وأبدى صالحين الرغبة في مصاحبتي فغادرنا كلانا إلى خشم القـــربة فـــي نهايـــة الأسبوع الأول من أغسطس . وعند وصولنا كان موسم الأمطـــار والأوحـــال قـــد انتظم المنطقة ، فأصبح من السهل علينا أن نتفهم صـــعوبة الحـــركة هـــناك في ذلك الوقت من العام ... كانت درجة الحرارة

معـــتدلة ، واكتســـت أرض البطانة – التي ارتوت ماءً – بغلالة سندسية من العشب أضفت على السهول الجدباء القاسية مسحة من النعومة واللّين .

وقـــمنا بزيارة لموقع الخزان فوجدنا شركة (تورنو) تعمل بهمتها المعهـــودة . وشاهدنا ما وصلت إليه قامة الخزان من عُلُوٍّ يكاد يبلغ الارتفاع المقـــدر له . ورأيـــنا الماء يتدفق في القناة الرئيسية باندفاع صخّابٍ وخرير مدوٍ. وعندما توجهنا إلى منطقة إعادة التوطين أطل علينا منظر ضفتي القناة الرئيســـية العاليتيـــن وأبراج الكهرباء والخط الحديدي – الموازي للطريق – شريان الحياة إلى هذه الأرض الموات ، التي لم ينبض فيها عرق من قبل عدا مـــا تمثله إبل الشكرية المتناثرة وهي ترعى في هذا الوقت من السنة . ولأن السماء قد أمطرت بغزارة خلال الليلة الفائتة ، فإن سيارتنا كانت تكابد السير في الوحل بجهد جهيد ، وتتمايل ذات اليمين وذات الشمال على الطريق اللزج تكـــاد عجلاتهـــا تـــنغرس فـــيه إلى الأبد . وفجأة تغير المنظر وظهر جبلا (المعـــاقل) أو (ســـرَه) كما أطلق عليهما لاحقاً ، وبديا بوضوح من جهتي الشـــمال واليمين. وفي منتصف السهل الذي بينهما ظهرت في الأفق المباني البيضـــاء لقرى منطقة إعادة التوطين . وبدت هيئة المنازل التي لم تكتمل – تحت أشعة الشمس المنعكسة – من ذلك الموقع ، مثل حطام مدينة من الزمن الغابـــر . وبعـــد مســـيرة متعثرة في الطين لمسافة ٥ كيلومترات أخرى فوق الطـــريق الموحـــل ، طالعتنا إحدى بوابات القناة الضخمة التي بنيت متقاطعة معه . ثم دلفنا يميناً على طريق يسير محاذياً للحافة اليسرى للقناة الفرعية إلى القـــرية رقم (١) التي كانت تقوم بتشييدها (ترف) عند سفح جبل المعاقل . فنزلـــنا ومـــررنا – تقريـــباً – على كل المنازل سيراً على الأقدام . وأجرى

صالحين فحصاً واسعاً على الأرضيات والأسقف واختبر قوة الجدران بلكمات مـن يده وجرّب حركة الأبواب والنوافذ فتحاً وإغلاقاً ، ثم امتدت أصابعه إلى الأقفال والمزاليج . وبعد أن دخل في كل الغرف ، بدا عليه الارتياح

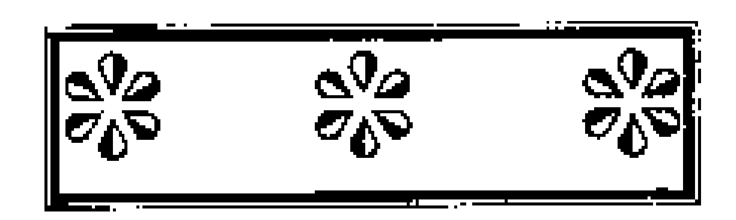
ثم انتقلنا إلى المنازل التي كانت تحت التشييد ، ورأينا رافعات (ترف) وهي تقل الألواح الأسمنتية لتقيم بها الجدران . وبينما كنت أستمع – بانتباه – إلـى أحد مهندسي (ترف) الذي كان يشرح لي الطريقة المتبعة في البناء ، لفـت نظري أن صالحين كان مستغرقاً تماماً في فحص دلو لرفع التربة من حفرة ذات عمق مناسب أعدت لمرحاض . فعندما برز الدلو من الحفرة حاملاً فـي جوفه كمية من التراب ، اتجه إليه صالحين مباشرة وأخذ منه قبضة ثم نظـر فيها ملياً وفركها بيده ثم صاح قائلاً : (ليس فيها حصاة واحدة !) فقد تأكد له أن الطبقة الترابية ليست سطحية كما كان يظن محي الدين ابن أخيه .

وفي القرية رقم (٢) شاهدنا عدداً قليلاً من المنازل المكتملة وما تبقى كـان فـي شكل طبقات من الألواح وضعت على الأرضيات انتظاراً لعملية التشـييد . وفي القرية رقم (٦) كان بنّاءوا (ترف) يضعون قوالب الطوب الأسمنتية المجوفة بعضها فوق بعض لإقامة منازل الأهالي .

وبالرغم من أن مستوى تشييد (ترف) قد جلب إلى أنفسنا السرور ، إلا أن تراخيها قد أفزعنا. وخرجنا من هناك لرؤية ما وصل إليه العمل في القـرى الثلاث التي عُهد بها إلى المقاولين الوطنيين . ففي القرية رقم (٣٣) شاهدنا رؤساء العمال والبنائين والعمال التابعين لعلى دنقلا وهم منهمكين في إعمـال مخـتلفة ، غير أنهم – وبرغم حركتهم الدائبة – كانوا متخلّفين عن الجـدول الزمنـي المحدد . وكان كثير من المنازل أما نصف مكتمل أو في

مــرحلة الأســاس، وغادرنــا القرية ونحن على اقتناع بأن (على دنقلا) لن يســتطيع – تحت أي ظرف – الوفاء بالتزامات العقد في سبتمبر . ومثل ذلك كــان انطباعــنا عــن مستوى أداء زميليه الآخرين في القريتين الأخريين . وعرجنا على خشم القربة وقضينا الليلة في (الاستراحة) تحت رعاية مضيفنا العطــوف الســيد عثمان حسين . وفي وقت مبكر من صبيحة اليوم التالي ، غادرنا المنطقة بقلوب مثقلة بالهموم.

وفي طريق العودة توقفت بالخرطوم لعدة أيام ، فعلمت من السيد علام أن التأخــير غــير المــتوقع في إكمال بناء المنازل قد استوجب على اللجنة الوزاريــة تقديــم موعد بداية التهجير من سبتمبر إلى نوفمبر . وغادرت إلى وادي حلفــا وأنا لا أملك خياراً غير أن أخضع برنامج التهجير للظروف التي استجدت .





إعداد قوائم التعويضات



علام حسن علام

الفصل الثامن عشر

الرحلة التاريخية للباخرة (الثريا) عبر الشلّالات

فــي ١٥ أغسطس ١٩٦٣ ، تحركت الباخرة (الثريا) من الرصيف الرئــيس لميناء وادي حلفا في رحلة – هي الأخطر والأجسر – إلى الجنوب عبر الشلالات المرعبة نحو الخرطوم .. كان الغرض من هذه الرحلة – غير المسبوقة في تاريخ الملاحة بالسودان – هو التغلب على المخاوف التي تثيرها هــذه الموانع الطبيعية في وجه البواخر التي يماثل حجمها حجم (الثريا) ، واستكشاف الإمكانية العملية لترحيل أسطولنا النهري .

ولقــد وصفتُ – من قبل – كيف أن هناك محاولات ناجحة قد جرت في القرن التاسع عشر بواسطة إسماعيل باشا ابن محمد علي باشا حاكم مصر في عام ١٨٢٠ ،ثم بواسطة الجنرال (ولزلي) – قائد حملة الإنقاذ – في عام ١٨٨٤ ، وأخــيراً محاولة الجنرال(كتشنر) في عام ١٨٩٨ عند بداية حملة اســترجاع الســودان. ودون تقليل من أهمية إنجازاتهم المشوبة بالخطر، فإن الــبواخر التي استقلوها كانت أصغر حجماً من (الثريا) ومن ثم كانت درجة المخاطرة العالية لرحلة هذا المركَب .

ومنذ عقد اتفاقية مياه النيل، كان إخلاء أسطولنا النهري مشكلة شائكة لــدى رئاسة مصلحة الوابورات[1] ... هل يتم تفكيك البواخر وترحيلها على أجــزاء بواسطة السكة حديد إلى مرسى الخرطوم بحري لإعادة تجميعها ، أم تسير ضد التيار إلى الخرطوم وهي تواجه مخاطر الشلالات المفزعة ؟ .. إن الخيار الأول يحتاج تنفيذه إلى نصف مليون جنيه ، بينما تشكل العملية الثانية مغامــرة كــبرى ضد سلامة البواخر وحياة البحارة . وفي عام ١٩٦٢ أحيل

---

[1] هكذا كانت تسمى قبل أن يطلق عليها : " مصلحة النقل النهري " فيما بعد - المترجم.

الموضـــوع برمــته إلـــى السيد إبراهيم مدني – المهندس النشط والجرئ – المسؤول عن منطقة (حلفا – كريمة) النيرية للدراسة وإبداء الرأي.

وللتعرّف على مخاطر تسيير أسطولنا كل المسافة – ضد التيار – إلى الخرطوم ، قرر ابراهيم مدني القيام برحلة استطلاعية – بزورق صغير لكنه قـوي – فـي اتجـاه منبع النهر عبر الشلالات الثلاثة الأعتى إلى (كرمة) . فجمــع كـل البيانات التاريخية المتوفرة عن المغامرات السالفة، وأعد بياناته بعـناية حـول الخطـط التي وضعها أسلافه وتتبع المسارات التي التزموها والطـرق التي استخدموها لسحب بواخرهم بين الممرات الضيقة الوعرة تجاه التيارات العنيفة، حتى بلغوا بها المياه الهادئة . وقد قال لي إبراهيم – مرة – :(كنت أطالع تلك التجربة للمتعة ولم أكن أدري أن القدر قد ادخر لي إحدى تلـك المغامــرات.) وبمساعدة خريطة للشلال الثاني وصورة جوية ممتازة التقطـتها مصلحة الآثار ، رسم إبراهيم مدني خط سيره عبر الشلال الثاني . وبكــل هــذه الخلفية المعرفية ومتسلحا بخرائطه ويومياته ومنظاره وأمتعته، إعتلى الزورق (غطّاس) البالغ طوله ٣٠ قدماً ، يصاحبه اثنان من القباطنة وسـتة مــن البحارة وغادر وادي حلفا في سبتمبر ١٩٦٢. وتتبعتهم – من الشاطئ – سيارتنا (لاندروفر) بنفس السرعة على امتداد الضفة الشرقية للنيل وهما تحملان الخيام والزاد .

والتسجيل التالي لتلك المخاطرة التاريخية يعتمد على ما رواه لي بطلها إبراهيم مدني :

لقد أبحروا لمدة نصف ساعة في مياه هادئة مروراً بالجزء الجنوبي مــن مدينة حلفا، فغابة النخيل المترامية على امتداد قرية دغيم، فأطلال مدينة

بوهيـــن القديمـــة حتى بلغوا حافة المياه المتدفقة من الشلال الثاني . وامتدت أمـــامهم جزر (كوكيّ) الصخرية بعيداً إلى خط الأفق، وسدت مجرى النهر من صخرة (أبو سر) غرباً إلى قرية (عبكة) شرقاً . وغمرت مياه بواكير فصـــل الدميرة القنوات الضيقة التي تحيط بتلك الجزر ، واندفع الماء بسرعة جنونية محدثاً دوامات وزبداً دوّاراً وسحباً من الرذاذ .

وواصـلوا مسارهم الوعر بحذر من قناة إلى أخرى بين المنحدرات الصـــخرية الشاهقة وخلال الصخور الحادة ، وأخذ زورقهم الصغير يتحسس طريقه ضد التيار الجارف . وعندما أدركوا منتصف الشلال ، اتسعت الجزر وعلت صخورها وغدت أكثر قسوة . وتعطّلت حركة الحياة إلا من حفنة من الكراكـــي تحلّق فوق ذلك الربع البركاني الموحش .. تبحث عن أسماك ميتة. ثـم زاد جمـــوح التيّار وارتفع صخبه حتى طغى على أزيز الماكينة ، لكنهم واصلوا المسير الصامد . وبعد مضي ساعة ، داوم السيل الهائج عدوانه على الـــزورق وغـدا خرير الماء رعداً ترّدده الجزر الجبلية صدىً لا ينقطع . ثم ألقـوا نظـــرة إلى الجنوب فإذا هم على مسافة قصيرة من (الباب الكبير) ، أخطـــر مواقع الشلال على الإطلاق . هنا داهمتهم موجة عاتية ارتفاعها ١٠ أقـدام حطت من منحدر حاد لا يفصلهم عنه سوى سبعين ياردة، بينما كانت الأمـــواج تصطفق ببعضها بعضا . وعند (الباب الكبير) ذاته – وهو ثغرة عرضـــها ٣٥ قدمـــاً – يندفع الماء إلى مسافة خمسة أقدام في كل دفقة، مما يجعل ابتلاع الدوامات الهائجة للزورق الصغير أمراً محتوماً لو حاولوا التقدم . فانحـــازوا – فـــي مناورة جانبية – شرقاً يلتمسون ممراً آمناً وسط تيارات تضـــرب زورقهم ذات اليمين وذات اليسار كأنه قطعة من الفلّين . هنا عثروا

علـى ممر مأمون يتسع لعبور الزورق لكنه ضيق للغاية بالنسبة إلى البواخر الكبـيرة . غـير أن التيار في هذا المنفذ كان قوياً بحيث يستعصي على دفع ماكينة الزورق . فمُدّت الأسلاك الفولاذية نحو الضفة الشرقية وبمساعدة جمع من الرجال انتظموا على صدر الشاطئ – وهم يراقبون الموقف بدقة متناهية – وبـإدارة الماكينة بسرعتها القصوى ، أمكن سحب الزورق إلى حيث هدأ التـيار . وهكذا تمكنوا من التغلب على الشلال الثاني عبر ذلك الممر الضيق متجنبين (الباب الكبير) و(كابانك) و(قرجان) و(سرحان)، أي تلك المنحدرات الفـوّارة الواقعـة فـي جهة الغرب. وأبحروا بالزورق في مياه هادئة على الشـاطئ الشـرقي، ممـا مكـنهم من نيل قسط من الراحة دوّن فيه إبراهيم ملاحظاته بمفكرته ووضع على الخريطة ممراً بديلاً يُشق بأعمال المتفجرات عند انحسار النهر .

ثـم واصـل أفـراد الفرقة الباسلة مسيرتهم نحو الجنوب، فأمخروا الأميال السبعين التالية في مياه ساكنة وهم راضون بما حققوا من نجاح أذهب عـنهم ما كانوا يكابدون من هم عظيم . غير أنهم ما إن أدركوا القسم الأسفل مـن الشلال الثالث حتى تبيّن لهم أنهم كانوا مخطئين . ففي الصباح الباكر ، أيقظ الخرير – الذي يماثل صوت ماكينة الطائرة – إبراهيم من نومه وسمع (ريّسـاً) مـن الـبحارة يعلـق قائلاً: (يوشك الشلال أن يجرف نفسه) . وبالانحـياز إلـى الغرب تمكنوا من العبور خلال مضيق ذي سعة، غير انه صـعب ، ثـم التقوا بالمياه الساكنة من جديد . وبعد عشرين ميلاً أخرى من الإبحـار ، وجـدت الفـرقة نفسها في مواجهة أصعب مناطق الشلال على الإطـلاق : (أم بكول) . إنها صخور سوداء بشعة مغموسة إلى نصفها في

المـياه الهائجة ومبثوثة في مجرى النهر وكأنها تفر من أرواح الغرقى الذين تحطمـت مراكـبهم عـندها منذ عهد بعيد . وشق الزورق طريقه وسط هذه الجـزر الشـيطانية قاصـداً (تنجور)، ذلك العائق المائي الرهيب الذي ابتلع الـباخرة (الجـيزة) قـبالة قرية (مك الناصر) في عام ١٨٩٦، حيث لازال حطامها باقيا حتى اليوم . وهذا القطاع من الشلال يتكون من رؤوس بركانية بعضـها تحـت سطح الماء والبعض الآخر يشرئب خارج المياه مكوناً جزراً صخرية جرداء . وتسبب الصخور المغمورة بالمياه انكساراً مائياً يطوّح ذات اليمين وذات الشمال بقوة رهيبة، محدثاً رذاذاً مصحوباً بهدير يصم الآذان .. فـي غمرة هذا الموقف، كانت الفرقة عاجزة عن فعل أي شيء ، ذلك أن أي محاولـة للتراجع كانت تعني أن التيار سيجرف الزورق المرتعش إلى حيث يصطدم بصخرة تهشّمه تهشيما ، بينما يعني أي تقدم، صراعاً مميتاً مع التيار الزاحف الذي سيتغلب على قوة دفع الماكينة . قال إبراهيم :

(لم تكن للحياة – بالنسبة لي – أعذب مما كانت عليه في تلك اللحظات .. فقد تـراءت أمامـي صورة أطفالي ، ولأجلهم واتتني الشجاعة والإصرار على هزيمة الخطر) .. ثم التفت إلى رفاقه الثمانية فرآهم مذهولين مشلولين تدور أعيـنهم كـالذي يغشى عليه من الموت، لأنهم كذلك كانوا مهمومين بلا شك بتذكر أهلهم . وفجأة صاح (الريّس: محمد) بصوته الأجش : (ثم ماذا بعد ؟) فاستجمع إبراهيم شجاعته وحكمته قائلاً – بصوت عال – إنه لا مخرج إلاّ بالـتقدم، وإنّ عليهم أن يحاولوا الخلاص من ذلك المكان الرهيب مهما كلفهم الثمـن . وأديرت الماكينة – في لحظة – بقوتها القصوى . وأمسك (محمد) الحاذق بعجلة القيادة بكل ما يملك من قوة . وأخذ الزورق يرتجف في مكانه

كأنما شُدَّ إلى قائم ، غير أنه كان يقاوم التيار ويشق طريقه إلى الأمام ببطء لا يكاد يُحَسّ، لأنه أمضى ساعة ونصف الساعة ليقطع عشرين متراً في ذلك الموضـــع العســـير. وتنفســـت الفرقة الصعداء حين خلّفت (تنجور) وراءها، وأبحرت جنوباً إلى قرية عكاشة . ومع ذلك ، تخللت الرحلة منحدرات مائية وضيق في المجرى وقوة في التيار .

وعـــند وصولهم إلى قرية عكاشة أدوا صلاة الشكر ودعوا الله – بجاه ذلك الرجل الصالح – أن يوصلهم إلى(كرمة) سالمين وأن يعيدهم إلى أهلهم غانمين . وقضوا يومين في تلك القرية، هدأ – خلالها – جنانهم واستعادوا – فـــيها – هدوء أعصابهم ، ووجد إبراهيم مدني ، ما يكفيه من الوقت لتسجيل انطـباعاته . وفـــي اليوم الثالث حزمت الفرقة معدات المخيّم ووضعتها على سيارتَيْ (اللاندروفر) ثم اتجهت إلى الزورق وواصلت رحلتها جنوباً لمسافة أمـــيال قليلة إلى شلال(دال) الذي هو آخر حلقات الشلال الثالث . ومجرى الـنهر هنا واسع وتعترضه سلسلة من المنحدرات والجنادل تجعل سطح الماء – عبر كل الممرات – عرضة للتيارات المضطربة والأمواج العالية . وقاست الفـــرقة – هنا – برهة من الوقت حينما كان زورقها يعلو ويهبط فوق أمواج كالجـــبال . وفي إحدى اللحظات رُفع الزورق إلى علو شاهق حتى بدا وكأنه يطـــير في الهواء، ثم هوى غاطساً في غوْرٍ عميق بين الأمواج الصاعدة مما جعل من المحال–على الذين على متنه -- أن يروا شيئاً غير جدار من المياه . وجـــاءتهم التـــيارات المـــتدفقة من أعالي النهر ترعد وتوقف تقدمهم وتفقدهم الســـيطرة علـــى الزورق . وكان الخوف قد تملكهم – أصلاً -- قبل أن يفقدوا الأمـــل فـــي التغلـــب على هذه المعضلات . فقرروا – تواً – أن يميلوا إلى

الشـاطئ الغربي . وفي طريقهم لإرساء الزورق، توقفوا عند جزيرة صغيرة تقطـنها أسـرة وحـيدة . عندما رأى الأطفال مركبا ميكانيكياً لأول مرة في حـياتهم ، هرعوا إلى بيتهم لإبلاغ الخبر المثير لوالديهم . فجاء شيخ كبير – بعـد قليل – من ذلك البيت المنعزل يرحب بالقادمين . فأخبروه بما لاقوا من عـناء . فصـعد علـى متن الزورق – بعد أن وصل إليه مستعينا بعود من الحطـب الطافـي لا يـزيد طوله عن متر – وقادهم إلى بر الأمان بدرايته وخـبرته الطويلـة بالموقع . وعند طرف الشلال، طلب منهم التوقف ثم ولج المـاء سـابحاً – وهو ممسك بالعود الطافي – في المياه الهادئة إلى جزيرته الصغيرة .

وإلـى الجـنوب من (دال) أصبحت الملاحة سالكة واستقبل أهالي القرى – الذين اصطفوا تحت ظلال النخيل على ضفتي النهر – جماعة الفرقة بابـتهاج وهـم يلوحون بأيديهم مرحبين . وفي خضم هذا المشهد الذي رفع معـنوياتهم، إندفعوا إلى المرحلة الأخيرة من المغامرة : الشلال الرابع . فبعد بضع ساعات وصلوا إلى مضيق للنهر ذي تيارات ضحلة وأمواج متلاطمة . وتراءت منازل قرية (أوردوان) الطينية المتناثرة عند سفح أحد التلال ، وكان هـذا يعنـي الاقتراب من مدخل الشلال . وولج الزورق – ببطء وحذر – فوهة القناة عند ذيل الطود الصخري . وتقدم إلى منتصف الشلال المكون من سلسـلة كثيفة من صخور المرو والبازلت حيث تكون للنيل غضبة مضرية . لكـن شـجاعة الفرقة وتجربتها مكنتها من اجتياز العقبة . وقال إبراهيم – يصف الموقف :- (وصلنا بسلام إلى هدفنا : (كرمة)، بعون الله وتوفيقه .)

وعــند عودتهــم إلى وادي حلفا ، انتظر إبراهيم لبعض الوقت حتى ينحسر النيل . وفي نوفمبر قام بزيارة للشلال الثاني حيث فحص قنواته خلال فــترة انحســـار النهر . وقام برسم خريطة حدد بها خط سير رحلة أسطولنا النهري كانت مغايرة لخط سير (غطاّس) . فقد عثر على مسار أفضل عبر قــنوات (مشاتاوا) عند مؤخرة الشلال الثاني و(كارموني) التي سحب – من خلالها – إسماعيل باشا قياساته، ثم (كرباج دولي) وأخيراً (الباب الكبير) بدلاً عــن (أوروقنوف) التي سحب القرويون عبرها (غطاس) . ومن سمنه يعبر المســـار الشـــلال عند (دفاتوج) ويجتاز قناة ضيقة قرب الضفة الغربية . وتم اختيار قناة قرب الضفة الشرقية في قطاع (تنجور) . وكل هذه القنوات عميقة بمـــا فيه الكفاية خلال فترة الفيضان لمرور البواخر لكنها تتطلب جهداً مضنياً لإزالة الصخور من أطرافها حتى تتسع للملاحة . وقام إبراهيم بتحديد أماكن كـــل هذه المضايق بالجير ليتم نسفها في الشتاء ، كما قام مهندس كريمة عبد الرازق بنفس العمل عند انحسار النهر بالشلال الرابع، وحدد بضعة مواقع في معبر يقال له : (خور الغطّاش) .

وبعــد هـــذا المســـح الجزئـــي ، أعــد إبراهيم تقريراً وافياً لمصلحة الوابـــورات قائلاً إنه من الممكن عبور أسطولنا إلى الخرطوم شريطة إكمال نسف الصخور على امتداد الخط الملاحي قبل فيضان ١٩٦٣ . وطلب توفير القــدر الكافـــي من المتفجرات من مصلحة الجيولوجيا وإرسال الخبراء لبدء أعمال النسف في مطلع الشتاء.

وبعد دراسة متأنية لذلك التقرير ، وافقت مصلحة الوابورات عليه . ثم وصل إلى وادي حلفا فريق ماهر من عمال مصلحة الجيولوجيا – في بواكير

تلك الشتاء – ومعهم ثقاباتهم إضافة إلى كمية كبيرة من مظاريف المتفجرات. فـــأخذهم إبراهـــيم مدني إلى الشلال الثاني حيث عسكروا في قرية (عبكة.) وقضـــوا عـــدة أيـــام ينسـفون مداخـــل معبر (مشاتاوا) ثم تقدموا نحو قناة (كارموني) واستأنفوا العمل . وعندما قمت بزيارتهم – في أحد الأيام– وجدت إبراهـــيم يضع خوذته فوق رأسه وهو يقود حملة تنفيذ مشروعه التاريخي . فأرانـــي الـــثقوب التـــي كانت تحشى بالمتفجرات إبان محاولة إسماعيل باشا لتوســيع ممـــر كارموني لعبور مراكبه في عام ١٨٢٠ . وفي مواقع (الباب الكبير) و(سمنة) و(تنجور) ، بذل إبراهيم عناية فائقة لتجنب تفجير مالا حاجة لتفجـيره مـــن الصخور خشية الإخلال بدرجة ارتفاع الماء، وحتى لا تتأثر المـناطق المنخفضــــة مـــن النيل بشح المياه التي تروي السواقي . وفي ذات الوقـــت قـــاد المهندس عبد الرازق فريقاً صغيراً لتفتيت الصخور البارزة في مـــنطقة الشـــلال الخامس، وفي (خور العُطّاش) على وجه التحديد . وبحلول شهر فبراير تم تنظيف المسار الملاحي إلى الخرطوم. ومن ثم بدأ إبراهيم في التخطـــيط لتنفيذ مغامرته الثانية بالغة الصعوبة لإبحار الباخرة (الثريا) على طـــول الطـــريق إلى أعالي النهر حتى الخرطوم، مع بداية فيضان النيل في أغسطس ١٩٦٣ .

وفـــي منتصـــف مايو ، أُدخلت (الثريا) إلى حوض ميناء وادي حلفا الواسع، حيث تم فحصها بدقة ووضعت لها خطة مفصلة للصيانة تحضيراً لها للقـــيام بالمخاطـــرة المرتقبة . واستبعاداً لأي عنصر من عناصر المجازفة ، تقـــرر إعدادهـــا بأحسن حالة ممكنة لمجابهة الامتحان. وخصص لهذا العمل فريق كبير من أمهر وأنشط الصناع والميكانيكيين يعملون – بالتناوب – ليلاً

ونهـــاراً على الرصيف وفي الورشة . ولقد عشت بالقرب من رصيف وادي حلفـــا لسنوات ست لم أشهد خلالها مثل ذلك النشاط الدؤوب . فقد كان العمال يستشعرون الامتحان العسير الذي ينتظر باخرتهم، ولذلك امتلأوا عزيمة وقوة . وامضـــت الباخرة ثلاثة أشهر كاملة بالرصيف لم يفلت – منها– مسمار من المراجعة . وفي مستهل أغسطس اكتمل تجديدها وملئت خزاناتها الاحتياطية بالوقود .

في هذا الوقت لاحت تباشير فيضان النيل بوادي حلفا ، فقام إبراهـــيم مدني بآخر رحلاته الاستكشافية إلى (مشاتاوا) و(كارموني) فـــي ١٤ أغســـطس حيث وجد المياه تمور بالدوامات . وفي صبيحة الـــيوم التالـــي أجـــرى الاختبار النهائي للباخرة وبدأ عمال الرصيف يزينونها بأكاليل الزهور وجريد النخل والأعلام الملونة .

وفـــي المساء أمخرت (الثريا) الجميلة – ببطء – من الحوض إلـــى المرسى الرئيسي لميناء وادي حلفا وهي تقطر معها زورقين و تطلـــق صافرتها في نوبات متقطعة . وتدافع الأهالي إلى شاطئ النهر وإلـــى الميناء – من منازلهم ومن منطقة السوق – لوداعها . وعندما بلغـــت المرســـى كان هناك ما يزيد عن ٣٠٠٠ شخص على رصيف الميناء .. كانوا كلهم يلوّحون بينما انتظم البحارة على ظهرها المديد . غير أن الأسى غشى أولئك الأهالي لأن رحلة (الثريا) كانت تعني لهم بدايـــة التهجـــير الجماعي من وطنهم الحبيب . وكنت أرى في عيون إبراهـــيم والبحارة – رغم ما ينتظرهم من مخاطر – الثقة والعزيمة

وهـــم يُحيّون الجموع . وفي الساعة الخامسة مساءً – وبعد أن أُطلقت (الثريا) صافرة طويلة– تحركت ببطء وهي تتهادى نحو الجنوب .

كانت تلك هي المرة الأولى التي تتجه فيها (الثريا) إلى جنوب وادي حلفـــا . وعندما جنّ الليل توقفت عند مؤخرة الشلال الثاني ، جنوب (جزيرة المجـــراب) . ثم أبحرت في الصباح الباكر إلى المدخل وواصلت مسيرتها – وحدها – لاقتحام القناة . فتقدمت لبرهة من الزمن لكن التيار العنيف عند أحد المنحـــيات الحادة أوقفها تماماً . هنا رُبطت الحبال المعدنية إلى صخور حافة القـــناة . وعندما أديرت أذرع الرافعة تسندها حركة الماكينة بقوتها الأقصى ، وبـــدأ المركـــب يـــتحرك بصعوبة بطيئة ، انقطع فجأة أحد الحبال وارتد كما السوط الفولاذي ليصيب أحد البحارة(المسمّي : محمد قناوي) إصابة مميتة ، فـــتوفي في الحال ، كما أصاب بحاّر آخر بجرح بسيط . وأُعتُبر هذا الحادث المؤســـف – في اليوم الأول لانطلاق الرحلة – مدعاة للتشاؤم لكنه –لحسن الحظ – كان الأول والأخير خلال كل الفترة التي شهدت تسيير الأسطول . وتأخـــرت الرحلة لساعات ريثما يتم نقل جثمان (قناوي) إلى المدينة ويرسل الـــبحّار الجريح إلى المستشفى. ثم إستؤنفت الرحلة في المساء. وعندما وجد إبراهيم أن الباخرة قد توغلت في المضايق الوعرة ، صمم على اتباع الطريقة التـــي ألتزمها سلفه في القرن التاسع عشر، فوضع خطة محكمة لسحبها إلى الأمام . وشُدّت الحبال الفولاذية إلى ظهر الباخرة ورُبطت على رؤوس التلال القائمـــة على الضفتين . وقامت على كل حبل طائفة من رجال البحر الأشداء يجذبونـــه بمساندة الماكينة – الزاعقة بكل قوتها– حتى بدأت الباخرة – زنة ٢٥٠ طـــناً – تـــزحف خلال المعبر. وبعد أيام من الجهد المتواصل، إجتاز

المركـــب مضـــيق (مشــاتاوا). وعند وصولهم إلى (كارموني) – ذات القناة الواسعة – داهمهم التيار العنيف والمنحدر الحاد، فصعب على البحارة سحب الثريا بطولها البالغ ١٤٥ قدماً وعرضها الذي يصل إلى ٣٠ قدماً إضافة إلى وزنهـــا الثقيل . فاتبعت نفس الطريقة التي استخدمت سلفاً في سحب الباخرة وظل البحارة يجذبونها- سحابة النهار وأحياناً إلى ساعة متأخرة من الليل- لمـــا يقــارب الأسبوع حتى اجتازوا بها إلى ما وراء (كارموني) . وقد قمت بـــزيارتهم هـــناك فرأيـــت التيار يندفع بعنف إلى أدنى حتى بدت لي الباخرة وكأنها تصعد إلى قمة الشلال. وانتابني إحساس بالتشاؤم وتملكني شعور بأنه لـــن يأتي يوم مطلقاً أسمع فيه بدخول مركبنا الفخم سالماً إلى حوض البواخر بالخرطوم بحري . ورغماً عن ذلك فقد هدأت روعي – نوعاً ما – شجاعة إبراهـــيم وثقـــته بنفســـه. وما إن أنجز البحارة مهمتهم الخطيرة عند جنادل (كارموني)، حتى تيقنت أن تفاؤله كان يستند إلى قاعدة صلبة. أما الزورقان فقد تم سحبهما دون مشقة نسبة إلى ضآلة البنية وخفة الوزن. وعندما عبرت الفـــرقة فرعـــي الشلال الثاني المعروفين باسم: (أكواندا) و(قلوتندي) ، ألفت نفســـها لـــدى مدخـــل (الباب الكبير.) وقد أخبرني إبراهيم أنهم عندما لمحوا المدخل لأول مرة – خلال رحلة (الغطّاس) كان عرضه ١٠ أمتار وكانت له هاوية عمقها ٨ أمتار، أي أنه كان شلالاً مهولاً. وكان إبراهيم يستغرب كيف اســـتطاع إسماعيل باشا وكتشنر سحب مراكبهما فوق سطحه. فلم يجد إجابة علـــى ذلك رغم أنّ التاريخ يثبت أنهما قد فعلاها دون شك . ولقد قام إبراهيم وفرقته بتفتيت المدخل ليصير عرضه ١٣,٥ متراً عند رأسه الجنوبي ثم إلى ١٦,٥ مـــتراً فـــي مكان ثان ثم إلى ٢٠ متراً في مكان ثالث. ونسبة لانتشار

الماء تبعاً لزيادة العرض ، فقد خفت قوة اندفاعه وبالتالي صار التيار أقل عنفا . وأمكــن – بجهد يماثل ذلك الذي بذل لاجتياز (كارموني) – اختراق (الباب الكبــير) . وهكذا قضت الفرقة خمسة عشر يوماً من العمل المتواصل قبل أن تجتاز الشلال الثــاني وبعد أن تضخمت عضلات البــحارة إلى حجم كــرات الــبولو. [1] وعندما تم سحب الزورقين بسلام و أعيد قطرهما إلى (الثريا)، أبحــرت الــباخرة بمحاذاة الضفة الشرقية طوال الليل . وأثناء الرحلة هرع البحارة إلى قبة (أبي حوّة) طالبين بركة ذلك الولي وسألوا الله أن يجنّبهم أي أهوال أخرى مثل تلك التي واجهتهم في الشلال الثاني .

وعــندما خلّفــت الباخرة الشلال الثاني إلى ظهرها ، واصلت المسير جــنوباً فــوق مياه هادئة بين ضفّتين موحشتين ذواتي جروف صخرية خشنة وتلال بركانية لا حياة فيها . ومضت الرحلة مريحة على امتداد ذلك الشاطئ النيلــي المهجور ، حتى سمعوا خرير(شلال سمنة) قبل أن يبلغوه بساعات . وعــندما دخلت (الثريا)الممر ، كانت الماكينة أضعف من أن تدفع بها إلى الإمــام . فنشر البحارة الحبال الفولاذية بمعاونة الرافعة اليدوية ، لكن التيار المتضــارب – في منتصف المدخل – أصاب المركب في جانبه فمال بزاوية حــرجة . وروى إبراهــيم أنهم فقدوا الأمل – جميعا – فظنوا أن (الثريا) قد انقلبت بالفعل . لكن رباطة جأش البحارة وحكمة (الريّس) السديدة أنقذتها . وتقدم المركب وهو يطوى منحدرات (سمنة) بسرعة كيلومترين في الساعة ، مــترنحا بيــن صخور الإردواز والبازلت حتى بلغت (أم بكول) . وكان التــيار قاسـيا بما يكفي لمنع تقدم الباخرة . ولذلك أخذت تناور وتتحول من

---

(1) لعبة رياضية شبيه بالهوكي تمارس على ظهور الخيل بمضارب طويلة وكرة خشبية – المترجم.

جانب إلى آخر بينما كانت الأمواج العالية تلطم مقدمتها وتغوص بها في قسوة ثـم ترفعها عاليا • وشرع البحارة يتلون آيات من القرآن الكريم ويسألون الله الــرحمة • واســتمرّوا في هذه الحالة المأساوية لساعات ، غير أن المركب استوى – أخيراً – على المياه الهادئة من تلقاء نفسه • وبعد أن هدأت نفوس الـبحارة عقب هذه المحنة ، إستفسر أحد البحارة إبراهيم عن النقاط الصعبة التـــي مازالـــت تنتظرهم ، فسمى له إبراهيم سبعة عشر حاجزا آخر • وهنا صـــاح بحـــار ثـــان : (أخبرنا – إن شئت – عن مزيد !) فلقد بدا لهم أنّ متاعبهم لن تنتهي أبدا •

ودخلت (الثريا) – بعد أن اجتازت (أم بكول) – منطقة المياه العميقة ذات الجزر البركانية والمضايق •وتباطأ إبحارها وهى تترنح من فج إلى آخر. وقـــد تراها – في بعض الحالات – وهي لا تكاد تتقدم إلا بوسيلة المناورة والالتفاف حول نفسها بسرعة تدنت إلى نصف كيلومتر في الساعة • وسارت بهذه السرعة مروراً بخرائب (الجيزة) حتى بلغت مؤخرة (تنجور) ذات المنحدرات العصيّة • وقد علّق إبراهيم – لاحقا – على هذه المنطقة معتبراً إياها الأسوأ • وظلّت جوانحه تمور بالقلق خشيةً على سلامة (الثريا) التي اتجهــت إلـــى جزيـــرة صخرية حيث صعد ابراهيم و (الريس) على إحدى الصـــخور واستكشفوا الموقع بالمنظار • وهدأ الماء أكثر مما كان عليه لكن المـــنحدرات الدوامة جعلت رأس إبراهيم يصاب بالدوار وأيأست البحارة إلى درجة الصمت المطبق. وأبحر المركب ببطء وحذر إلي تلك النقطة الرهيبة • وعـــندما وصـــل الى منتصفها ، وجد أن التيار من العنف إلى حد جعل من المســتحيل الــتقدم بوصة واحدة . فانحرفوا به شرقا في اتجاه الممر الذى تم

توميعه بالمتفجرات خلال الشتاء . وبمساعدة الحبال الفولاذية والرافعة اليدوية سحبوا (الثريا) بصعوبة عبر (تنجور.) وحالما أدركوا المياه الساكنة ، أبحروا جنوبيا بين الضفاف الصخرية حتى تراءت التلال الرخامية لشلال (عكاشة) عند خط الأفق . واجتازوا منحدرات (عكاشة) بقليل من الجهد ثم بدأ البحارة يستفسرون عن متى يدركون شلال (دال) .

ووصلت (الثريا) إلى شلال (دال) ظهراً وشقت طريقها بين المنحدرات المائية الجياشة ووسط الصخور البركانية القاسية المنتشرة عبر مجرى النهر إلى مدى ٤ كيلومترات . وعند الغسق كانت – تقريبا – في منتصف الشلال حيث التيار الخاطف والأمواج العالية ، وبالرغم من أنّ الباخرة كانت تبذل قصارى قوتها ، إلا أنها ظلت تراوح مكانها إلى أنْ أخذ التيار يدفع بها – ببطء – للوراء ، وحيثما نظر البحارة لم يكونوا يرون سوى سلاسل من الانحدارات الصخرية تسد الطريق وأمواج تتدافع من خلالها نحو الشمال ، فانحازوا بالباخرة إلى الغرب احتماءً من جلمود إثر جلمود حتى بلغوا بها الشاطئ، حيث لا أثر لحياة إلا نخلات – ذوات جريد يابس – هاملة لأزمان ، هنا التقط القوم أنفاسهم ثم استأنفوا مسيرتهم – قبل الغروب – يناضلون عبر شلال(دال) ، فولجوا معبراً عريضاً شديد الإنحدار والإرتفاع لا يزيد طوله عن ١٦٠ متراً ولكنه ينحط – عند مستوى الماء – إلى ستة أمتار ، وطفق البحارة جميعا يشدون الحبال الفولاذية ويديرون الرافعة إلى ما بعد الغروب حتى تمكنوا من سحبها إلى المياه الهادئة.

وبعد أنْ جعلت (الثريا) شلال (دال) إلى ظهرها ، أبحرت بسلام فوق مياه ساكنه بين ضفتين مأهولتين بالسكان ومحفوفتين بأشجار النخيل

والخضــرة . وانتظم الأهالي في زُمر عند الشاطئ يلوّحون للبحارة ويهتفون لهــم بعــبارات التهنــئة . وفى (عبرى) وقف معظم أهالى قرى السكوت ينتظرون – وصول الباخرة – على شاطئ النهر . وبعد استقبال حار ، أخذ البحارة قسطاً من الراحة ثم واصلوا المسير جنوباً فى اليوم التالي .

يعتبر الشلال الرابع – مقارناً مع الشلالين الثاني والثالث – سهلا ولا يشكل مصاعب جدّية خاصة و(الريّس) وبحارته يعرفون مشاق الرحلة ، ولذلــك فقد استطاعوا أن يجتازوه دون مخاطر تذكر. وعندما وصلوا (بلقو) جهّز المحس استقبالاً ضخماً للباخرة . وتجمع كل أهالي البلدة وسكان القرى المجــاورة تحــت ظــلال النخيل – بالقرب من آثار مدينة قديمة – ونظموا استقبالا مدهشاً للبحارة . ثم عبرت الباخرة عند نقطة فى رأس الشلال الرابع وبلغت (كرمة) بسلام . وهنا تضامن الدناقلة والمحس وأقاموا احتفالاً كبيراً تكــريماً للــبحارة الذيــن أفلحــوا – حينئذ – في التغلب على أخطر مراحل المغامرة . وبما أن (كرمة) لا تضم في مقابرها قبةً لوليٍّ ، فقد اكتفى البحارة بالدعــاء عــند خاتمــة الاحتفال . ومن (كرمة) إلى (كريمة) اتسع النيل وضــعفت أمواجــه . وفى هذه المنطقة التي تتمتع بخدمات ملاحية منتظمة وممتدة ، نال البحارة نصيبهم من الراحة واسترخت أجسامهم وأعصابهم من بعد عناء . وعند وصولهم إلى(كريمة) استقبل المهندس عبد الرزاق وقبيلة الشايقية (الثريا) استقبال الفاتحين واحتفوا بالبحارة أحسن الإحتفاء .

وعندما غادروا (كريمة) لاحت أمامهم المتاعب من جديد . فقد دخل المركــب علــى سلســلة من المنحدرات المحيطة بالجزر البركانية التي تسد مجــرى النــيل . ومــثلما كان الحال فى منطقة الشلال الثالث ، فإن الشلال

الخـــامس انـــتظم فـــي حلقات مترابطة من المساقط المائية التي تفصلها عن بعضها امتدادات من المياه الرائقة ٠ وأول تلك المساقط وأصعبها كان (خور العُطّـــاش) الـــذي انحبس خلفه تدفق الماء فجأة مما أدخل الباخرة في تجربة حـــرجة ٠ وأدي ضيق الممر واندفاع الماء بين حائطين من صخور البازلت إلـــي الإطاحـــة بالــثريا فـــأخذت تـــترنح يميناً ويساراً ثم ترتطم بالحافتين الصـــخريتين لاســـتحالة السيطرة عليها في خضم التيار العنيف، مما جعل الموقف بالغ السوء والخطورة ٠ وفي غمرة اليأس ، أوشك البحارة أن يرفعوا رايـــة الاستسلام ، لكنهم لاذو بالصبر وقوة العزيمة لسحب المركب بالحبال الفولاذيـــة مثلما فعلوا في (مشاتاوا) . وبمحاولة أخيرة – استجمعوا فيها كل قوتهم – جذبوها خارج منفذ ذلك الممر الخطير ٠ وتقدموا حتى وصلوا شلال (أبـــو حمامة) حيث اتسع مدى المياه وزادت قوة التيار مثلما زادت متاعبهم ٠ وأخذوا يستخدمون الحبال الفولاذية كلما كان ذلك ممكنا ويستعينون بالرافعة وبأياديهم لجذب المركب حتى صعدت – بوصةً بوصة – ذلك الممر الصعب. . وأثـــر ذلك على أياديهم فتورّمت بالقروح ٠ غير أنهم واصلوا عملهم وهم يصـــعدون منحدراً إثر منحدر حتى صاروا وجها لوجه أمام أعتي المنحدرات علـــى الإطلاق وآخرهـــــــا :(أم جراب) ٠وفي هبة أخيرة يائسة ، جذب الـــبحارة المركـــب دفعة واحدة هائلة حطّت به في المياه الساكنة مثلما يفعل العـــداءون حينما يبلغون نقطة النهاية ٠ فأخذوا – بعد أن تنفسوا الصعداء – يتصـايحون ويرقصون ويهنئ بعضهم بعضا ٠

ثم أبحروا حتى دخلوا (أبو حمد) ٠ فعبر أهالي جزيرة (مقرات) النهر إلى الضفة الأخرى وانضموا إلى القرويين الذين اصطفوا لاستقبال أول باخرة

–اقتحمت كل تلك الموانع لتصل إليهم – استقبالا مشوبا بالعاطفة والحماس .
وبوصولها إلى (أبو حمد) تكون (الثريا) قد صعدت من المنحدرات ما يبلغ مجموع ارتفاعاتها ٦٥٠ بوصة ، منذ أن غادرت وادي حلفا . ولم يبق لها –بعد أن تغلبت بنجاح على الشلالات : الثاني والثالث والرابع والخامس – إلا معبر (السبلوقة) بالشلال السادس شمال أم درمان وهو ممر مائي واسع – بما فيه الكفاية – لمرور (الثريا) بسهولة ويسر .

ومـن (أبـو حمد) إلى (بربر) كان مجرى النهر سالكاً وساكناً ولا تعترضـه إلا مـنحدرات(الكربة) التي اجتازتها الباخرة بغير مشقة . وفى بربـر، إسـتقبل الأهالي (الثريا) – على امتداد الشاطئ – بالترحيب ، بينما كانـت الجمـوع تُـرى على الضفة الشرقية للنيل عند عطبرة ساعة مغادرة المركـب لمدينـة بربر . وعند وصول (الثريا) إلى عطبرة ، لقي البحارة اسـتقبالاً جماهـيرياً كبيراً حضره المدير العام لسكك حديد السودان والحاكم العسكرى ومدير المديرية . وبعد أن مكثوا لبعض الوقت فى عطبرة – وقبل أن يبارحوها – تلقوا برقية من أحد زعماء الجعليين بشندي (وهو خالد أحمد خـالد) يدعـو فـيه كل بحارة الباخرة ليكونوا ضيوفه الخصوصيين لحظة حلولهم بتلك المدينة إلى أن يبلغوا الخرطوم .

وفى الطريق إلى أعالي النهر ، كان سكان القرى –على ضفتي النيل – يهنـئونهم بالنجاح . وحال وصولهم إلى شندى كان في انتظارهم استقبال حـافل . فقـد تجمع الجعليون هناك من كل القرى المجاورة ومن بينهم كل أهالـي المتمة – تقريبا – الذين عبروا النيل من الضفة الغربية ليشاركوا فى الاحـتفال . وعـندما رسـا المركب، صعد شيوخ الجعليين – بقيادة الناظر

إبراهـيم حـاج محمد والشيخ خالد احمد خالد – على متن الباخرة للترحيب بطاقمها . ثم ذهبوا بضيوفهم – الذين قاربوا السبعين – إلى مكان الحفل الذي أقيم على الشاطئ .. كانت الحشود ضخمة ، وكانت عبارات الترحيب بطاقم الـباخرة تختلط بضربات نحاس الجعليين . وذبحت الثيران والخراف لإعداد ولـيمة تذكاراً لمناسبة وصول الباخرة الثالثة في تاريخ المنطقة – من وادي حلفا – إلى ديارهم . كانت الأولى هي ذلك الإسطول الذى وصل به(ولزلى) إلى المتمة عام ١٨٨٥ عقب معركتي (أبوكلية وأبوكرو) وهو في طريقه إلى الخرطوم لإنقاذ غردون . أما الثانية فقد كانت الأسطول الذى قاده كتشنر فى أعقـاب معركة النخيلة بعطبرة عام ١٨٩٨ م حينما ألفى المتمة وقد استحالت الـى خراب بعد أن نهبها محمود ود أحمد . وأما الثالثة فقد كانت (الثريا) التـي جـاءتهم فـي مهمة سلمية . وقد حدثني إبراهيم بأن الاستقبال الحار والضيافة الكريمة التي أبداها الجعليون فاقت كل الاستقبالات التي لقوهـا . و لأن قبـيلة الجعليين عرفت بالشجاعة فقد أعجبها ثبات البحارة وبسالتهم . وقبل أنْ تبارح الباخرة مدينة (شندى) ، حُملَت بالذبائح والفاكهة والخضراوات وكل أصناف الزاد التى جادت بها أريحية الشيخ خالد أحمد خالد .

وفـي ٤ أكـتوبر وصـلوا إلى الشلال السادس . وحينها كانت مياه الفيضـان قد انحسرت، لكن معبر السبلوقة كان ممتلئاً بالمياه ، فاجتازوه بلا صعوبة . وبعد مسيرة ساعة فى لُجّة واسعة من المياه ، ظهرت قبة المهدى البيضـاء بمـناراتها عـند وصول الباخرة إلي الطرف الجنوبي البعيد لجبال كررى . فانتعشت قوى البحارة وارتفعت أرواحهم المعنوية، وعندما اقتربوا مـن الطـرف الشمالي لمدينة ام درمان ، لمحوا جموعا زاخرة تملأ الشاطئ

تماما من(أبو روف) إلى (الموردة) وهى تحييهم ، بينما كانوا يمخرون فى منتصـــف النهر وعن يسارهم جزيرة توتى وأمامهم – إلى الجنوب البعيد – أقواس قنطرة أم درمان [1] مهيمنة على المشهد ودليلا على اقترابهم من مقرن النيلين ، وعند وصولهم إلى المقرن اتجهوا شرقاً وولجوا النيل الأزرق ...
كان هناك تجمع كبير – على امتداد شارع النيل بالخرطوم – أخذ يحى الطاقم بيـــنما كانت (الثريا) الظافرة – التي حافظت على زينتها وأعلامها الملونة – تســوق زورقيها وتتهادى نحو المرسى . وحين مرت بالقصر شوهد الرئيس عبود واقفا بالشرفة يلوح بكلتا يديه . فبادلوه التحية بحماس وبصافرة طويلة. وفى مرسى الخرطوم بحرى أعدّ كل عمال وموظفي مصلحة الوابورات بقيادة مديـــرهم الســـيد / عبد الرحمن الناجي – وجمع غفير من مواطني الخرطوم بحـــري استقبالا عاطفياً، بينما أخذت كل البواخر التى كانت بالمرسى تصوت بصـــافرات ترحيب عالية إلى أن رسا المركب ببطء وسلام .. لقد قطعت (الـــثريا) مسافة ١٤٩٤ كيلومتراً وصعدت إلى منحدرات مائية بلغ ارتفاعها ٢٣٠ مـــتراً، وكانـــت تســير بمتوســط ســـرعة بلغ ٢٩ كيلومتراً فى اليوم واستغرقت الرحلة خمسين يوماً .

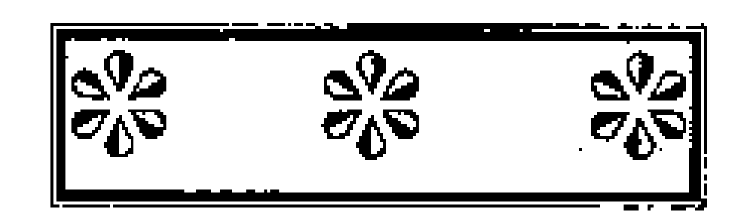
وعـــندما تسامع الناس بوصول (الثريا) ، إنهالت مئات البرقيات من وادى حلفا و من بينها برقية طويلة من شخصي نيابة عن أسر البحارة وأهالي المـــنطقة هـــنأتهم فـــيها بـــنجاح مهمتهم التاريخية وعبّرت لهم عن إعجابى ببسالتهم. وجرى استقبال رسمي بمصلحة الوابورات حيث تم تكريم الطاقم – ومـــن ضـــمنهم محمـــد قناوى الذى استشهد فى بداية الرحلة – بمكافأة مالية

---

[1] كبرى النيل الأبيض .. المترجم.

تساوى مرتب شهر رغم أنهم كانوا يستحقون ما هو أفضل . وكنت أتمنّى لو أنّ إبراهـيم و (الـريس) وطـاقم الـبحارة قد زانت صدورهم النياشين والميداليات .

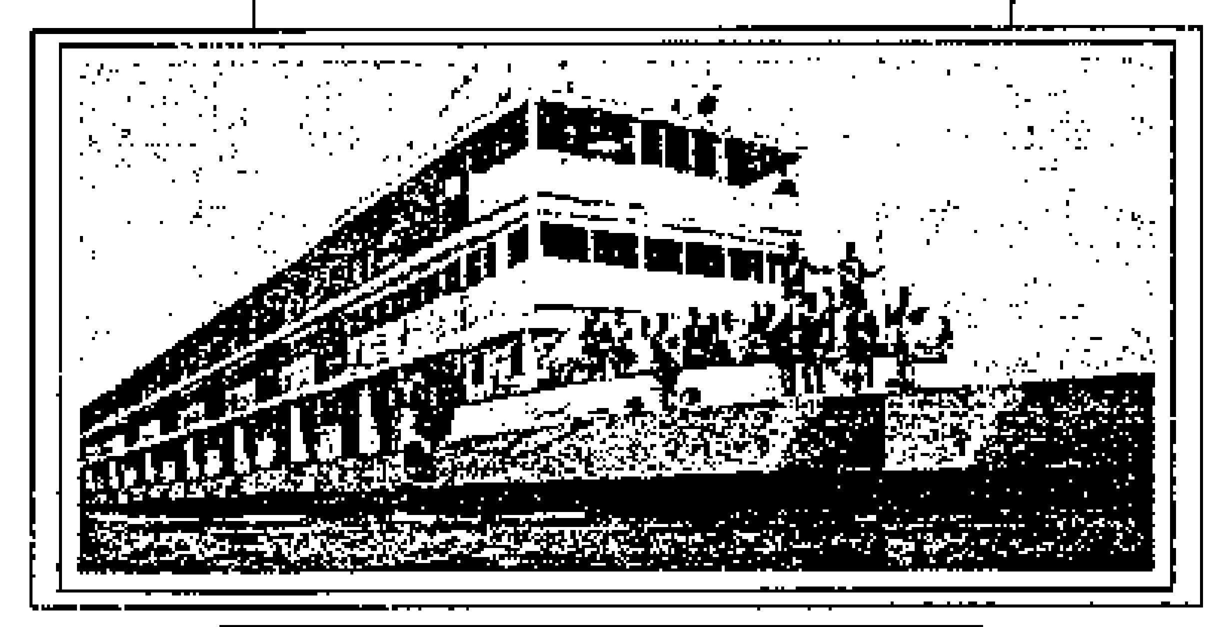
وهكـذا اختتمت تلك المخاطرة التاريخية (للثريا) والتي أثبتت عملياً إمكانـية إبحـار أسطولنا تجاه أعالي النهر إلى الخرطوم بدلاً عن (تفكيك) الـبواخر إلـى أجـزاء ونقلها فوق البر إلى مرسى الخرطوم بحري لإعادة تركيـبها بكـل ما يعنيه ذلك من تكلفة مالية . وأعد إبراهيم تقريراً قيما عن الـرحلة أوضـح فيه كل المواقع العصية بالشلالات ووضع- كذلك – خطة مفصـلة لصـيانة الأسطول قبل رحيله من وادى حلفا مع حلول فيضان العام التالـي. وأوصـى – أخيراً – بتجهيز الرافعات اليدوية لكل البواخر ببكرات مـتفاوتة، ونَصـب رافعـة كهربائـية ذات طاقـة عالية على ضفة النهر عند(عبكه)لسحب البواخر عبر(الباب الكبير).



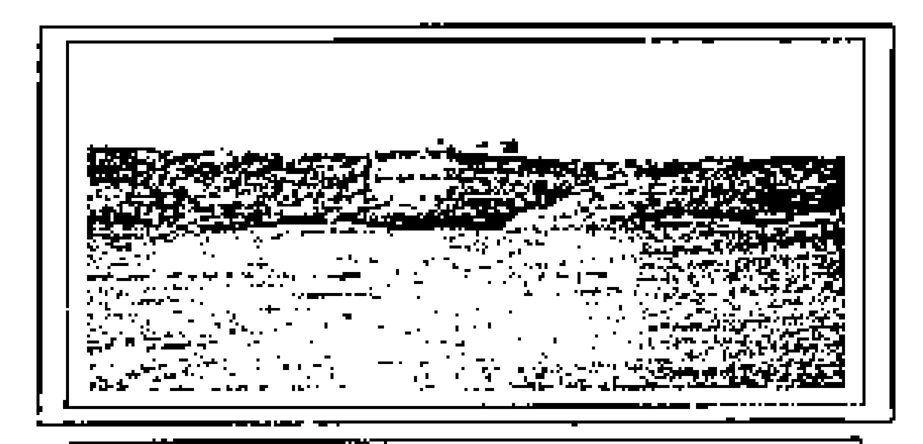




إبراهيم منمي يخطط ميدانياً لرحلة (الثريا) جنوباً .



(الثريا) تتأهب لرحلتها التاريخية



(الثريا) تجتاز الشلال الثاني

الفصل التاسع عشر

اللّمسات الأخيرة لما قبل الرحيل

بالرجوع إلى الموقف في وادي حلفا – في أعقاب رحلة (الثريا) إلى الخرطوم – فقد تابع الأهالي وشخصي بقلق أنباء مسيرة البناء في خشم القربة حيث وجدت الشائعات أرضاً خصبة لتبيض وتفرخ • فاقترحت على اللجنة إذاعة برنامج أسبوعي من راديو أمد رمان لتوضيح التقدم الذي تحرزه عملية الإنشاءات وبث المعلومات المتعلقة بمنطقة إعادة التوطين حتى يتمكن الأهالي من متابعة ما يجرى في وطنهم الجديد • ووجد اقتراحي قبولا وبدأ تقديم برنامج يحتوى على أخبار متنوعة عن خشم القربة ووادي حلفا • وحالما بدأت إذاعة البرنامج اتضحت الرؤية للأهالي وأخذت الشائعات تتوارى • واستمر حالنا على هذا الوضع الطيب إلى أن لُفت نظري – منتصف أكتوبر وبلا سابق إنذار – إلى أنّ اللجنة الوزارية قد أرجأت موعد التهجير – هذه المرة – ليناير ١٩٦٤ . فتسببت هذه الأنباء في هبوط روحي المعنوية إلى الحضيض • واستغرب الأهالي – أيضاً – للتبديلات المتتابعة لمواعيد التهجير فبدأوا ينتقدون التخبط الذي اعترى قرارات الحكومة • وعندما اتصلت بزميلي السيد عثمان حسين بخشم القربة ، كانت وجهة نظره حول الموقف هناك غير مشجعة على الإطلاق • فشعرت بإحباط لم يسعفني لأجد حيلة أشبع بها فضول الأهالي •

وفي خواتيم أكتوبر ، وقفت على تقرير بعثت به وزارة الري إلى رئاسة السكة حديد بعطبرة يشير إلى أن كل المنطقة المأهولة من فرص وحتى (جُمي) ستغمرها المياه مع أول مخزون لها خلف السد العالي وذلك أبتدأ من فيضان العام المقبل • وأرسل التقرير للسيد الدرديرى الصاوى مفتش السكة حديد بوادي حلفا الذي أطلعني عليه مشكوراً فلاحظت أنّ أي نسخه منه لم

ترسل إلى رئاسة لجنة إعادة التوطين بالخرطوم . ولحسن الحظ فقد كان إطلاعي عليه قبل يوم واحد من مغادرتي إلي الخرطوم في زيارة قصيرة . وعند وصولي إلي هناك أكد لي السيد علام أن المعلومات التي جاءت بالتقرير كانت صحيحة . ولأنني كنت علي علم بالوضع المتعلق بموقف حركة البناء في منطقة إعادة التوطين ، فقد تملكني قلق عظيم . وحاورت السيد علاّم – طويلاً – حول الموقف ولفتُ نظره إلي المصاعب التي تنتظر الأهالي في حالة عدم اكتمال بناء المنازل في الوقت المضروب . فإن التهجير تحت ظل الظروف الماثلة يحتاج إلي ثمانية أشهر علي أقل تقدير . أما إذا تأجل إلي ما بعد ذلك فإن تهجير السكان لن يكتمل قبل حلول الفيضان . وشاطرني علاّم هواجسي بأن ذلك متوقع . وفي آخر الأمر وجهني بأن أبحث عن خطة بديلة لإيواء الأهالي – مؤقتاً – في الأماكن المرتفعة قرب القري المهددة بالغرق، إلي أن يكتمل بناء منازلهم بخشم القربة . وعلي الرغم من إدراكي لعدم إمكانية تطبيق هذا الاقتراح ، فقد رأيت أنه من الأفضل أن أرفع به تقريراً وافياً إلي اللجنة عند عودتي إلي وادي حلفا .

وفي ٧ نوفمبر كتبتُ تقريراً مطوّلاً عبّرت فيه عن مخاوفي وشرحت المخاطر التي ستحدق بالأهالي إذا لم يتم التهجير قبل أن تغرق المنطقة . ويجد القارئ – أدناه – النقاط الرئيسة لذلك التقرير .

إن المناطق التي يتهددها الغرق – توّاً – تشمل تسع عموديات ويبلغ مجموع سكانها ٣٣٠٠٠ شخص، وهذا الرقم يقترب من ثلاثة أرباع سكان المنطقة المتأثرة بمياه السد العالي . وقد تم تقدير أمتعتهم بحمولة ثلاثة وستين قطاراً .. هذا باستثناء مواشيهم . فإذا لم يتم تخزين تلك الأمتعة بطريقة سليمة

فإنهـــا ستتعرض للتلف والخراب . أما إيواء أولئك المواطنين مؤقتاً فقد كان يعنـــي الشـــروع في تنفيذ عملية متكاملة بالمناطق المهددة يتم من خلالها نقل ممـــتلكات الأهالي إلي مواقع لا تستطيع السيارات الوصول إليها ، فضلاً عن أن احتياجاتـــنا مـــن الخيام تقدر بـــ : ٧٠٠٠ خيمة كان من المشكوك فيه الحصول عليها .

ســتغمر المياه الطرق الرئيسة بالضفّتين الشرقية والغربية مما يجعل من المستحيل – علينا – الاتصال بالمخيّمات . كذلك فإن المواصلات النهرية ســتكون غـــير عملـــية نظراً لأن المنازل المنهارة وغابات النخيل المتشابكة ســتكون عائقـــاً للملاحـــة فـــي مساحة واسعة قبالة الشواطئ المتاخمة لتلك المخيّمات .

وســـيبقي الأهالـــي كاللاجئيـــن الذيـــن فقدوا مأواهم ووسائل كسبهم معرّضين دوماً للجوع والفاقة . وستنفق ماشيتهم من الجوع بسبب انعدام قشّة خضـــراء . يضاف إلي كل ذلك حرارة يوليو وأغسطس الحارقة التي ستكون فوق الاحتمال ما لم يتوفر الظل الكافي .

وســـيتهدد الوضـــع الصحي انعدام المراحيض المناسبة والافتقار إلي الصرف الصحي الضروري ، فيتوالد الذباب الذي– بدوره – ينشر الأمراض. وستجرف المياه المتدفقة كل المقابر ومراحيض القري فتتحلل المواد العضوية وتـــتكاثر ، ممـــا قـــد يـــؤدي إلي حالات وبائية لأمراض مهلكة مثل التيفويد والكوليرا .

ولأن كل الأهالي سيواجهون أخطاراً جسيمة قد تؤدي إلي خسائر في الأرواح والممتلكات ، فإنهم سيعانون معنوياً ، وهذا بدوره سيؤدي إلي احتقارهم لكل العمل الجليل الذي تبذله الحكومة من أجلهم .

وفي ختام التقرير طرحت اقتراحين علي اللجنة لتجنُب الوضع غير المستحب الذي كنّا نتوقع . فإما أن تتصل حكومة السودان بالجمهورية العربية المتحدة لتأجيل برنامج التخزين مدة ستة أشهر حتى يكتمل بناء المنازل بخشم القربة (رغماً عن أن الاستجابة لهذا الالتماس كانت تبدو بعيدة) ، وإما أن تعلن حالة طوارئ خاصة تهدف إلي إيقاف عمليات البناء في مديريات القطر وتوجيه كل البنائين والصناع ورؤساء العمال إلي خشم القربة للمساعدة في حركة إنشاء القري .

وحالما تسلم السيد علاّم هذا التقرير – وقد كان يشاطرني التعاطف مع النوبيين – أطلع اللجنة الوزارية علي محتوياته . ونسبة إلي أن الحكومة المصرية كانت مقيّدة ببرنامج تخزين صارم ، فقد رفضت -- بالطبع – التماس التأجيل . ووجدت اللجنة الوزارية نفسها وجهاً لوجه أمام ضرورة إيجاد وسيلة أو أخري لحل المشكلة .

وفي ١٠ ديسمبر تلقيت دعوة لحضور اجتماع للجنة الوزارية يعقد في الخرطوم خلال أربعة أيام من هذا التاريخ . وحضر الاجتماع – أيضاً – السادة علاّم حسن وعبد الله شداد نيابة عن المهندسين الاستشاريين ومعتمد التعويضات . وقد قدّم السيد شداد شرحاً مفصّلاً عن موقف الإنشاءات بخشم القربة قرية قرية ومقاولاً مقاولاً . فاتضح أن العمل – عموماً – كان يسير ببطء وأن الوضع بدا غير مشجّع إلا أنه لم يكن ميئوساً منه تماماً . وأنهي

إفادتـه بـالقول إن العمـل يحتاج إلي شهرين لإتمام منازل الفوج الأول من المهجّرين ، ولذلك التمس تقديم تاريخ استلام تلك المنازل ليكون في مارس ، وقد سانده – في ذلك – معتمد التعويضات الذي أعرب عن عدم اكتمال قوائمه وعن احتياجه لمدة شهرين كي يراجعها ويحيلها للصرّافين .

وجـاء دوري فـي الكـلام ، فحدثت الاجتماع صراحة بأن التاريخ المحدد قد تم تغييره ثلاث مرّات، مما هزّ ثقة الأهالي – أصلاً – في قرارات الحكومة وتقديراتها . ثم إن كل الأهالي الذين سيفوّجون في المرحلتين الأولي والثانـية للتهجـير ما زالوا ينتظرون – في وضع متأرجح – منذ يوليو وقد حـزموا جزءً من أمتعتهم وتهيأت أمزجتهم تماماً للرحيل إلي وطنهم الجديد . يضـاف إلي كل ذلك – وتبعاً للبرنامج النهائي الذي وضعناه للتهجير والذي كان في أصله مزدحماً – فإن إخلاء المناطق المهددة بالغرق يحتاج إلي ثمانية أشـهر كاملة ليس من بينها فترة شهر رمضان . وفي هذا التاريخ فإن وادي حلفـا – ذاتهـا – تكون علي وشك أن تختفي من الوجود . ومن هنا فإن أي تأخير في البرنامج ستكون له عواقب وخيمة كما أن أي معاذير جديدة لن تلقي القبول .

سـاند اللـواء عروة والسيد علاّم وجهة نظري ووقف السيد سليمان حسـين – الذي كان علي دراية بأوضاع أهله -إلي جانبي وأصرّ علي نهائية الوقـت المحدد للتهجير. أما الوزراء فقد درسوا كل الاحتمالات لإكمال بناء قري إعادة التوطين في الوقت المحدد مع السيد عبد الله شدّاد صاحب الخبرة الطويلة في التعامل مع المقاولين والذي عبّر عن إدراكه الكامل لحرج الموقف ووعـد بالسـعي لكسب تعاون المقاولين من أجل إضافة ساعات عمل جديدة.

ومضـــاعفة الجهـــد . وكان علي ثقة من أن المقاولين – في هذه الظروف – سيقدّرون وضع الأهالي الذين أُقيمت من أجلهم تلك المباني . بعد ذلك حددت اللجـــنة الوزاريـــة تـــاريخ تحرك أول قطارات التهجير ليكون ٦ يناير وتم توجيهي للعمل بمقتضى هذا التاريخ . كذلك وُجِّه معتمد التعويضات لمضاعفة جهده وبدء تسديد الدفعيّات في وقت مناسب . وعندما إنفضّ الاجتماع شعرت براحة عظيمة .

وحينما عدت إلي وادي حلفا ، عقدت سلسلة من الاجتماعات مع كل المعنيِّيـــن من موظفي الدولة ، كوّنتُ من خلالها نظاماً يقوم علي فكرة توزيع العمل علي لجان أوكلنا لها مهام محددة . فوقعت علي اللجنة الأولي مسئولية توزيـــع المـــنازل الجديـــدة بخشم القربة ، وكانت تتكون من مهندس المركز وضـــابط إداري وعمـــدة المـــنطقة وشيخ القرية المعنيّة . وتقرر أن يوافيها معتمد التوطين بخرائط تفصيلية لكل قرية توضح مواقع القطع السكنية بأرقام مسلســـلة . وعـــند اســـتلام اللجـــنة لهذه الخرائط فإنها تحصل – من معتمد التعويضـــات – علـــي قوائـــم مالكيها . ثم تعقد اجتماعا عاماً لكل المالكين المعنيـــين تطلعهـــم فيه علي تفاصيل الخرائط وتطلب منهم تنظيم أنفسهم في مجموعات تتشكل علي أساس الجيرة، مع الأخذ في الاعتبار عدد المنازل في كـــل (مـــربّع) . وبالاتفاق مع أقرب الجيران يختار كل مالك منزله . وبعد إنجاز هذه المهمة ، تقوم اللجنة بتسجيل النتائج في دفتر بأرقام متتالية لمنازل القـــرية الجديـــدة ثم تصدر بطاقة لكل مالك تحوي اسمه وقريته وشيخه ورقم منزلـــه وعدد من يعولهم . ويُشترط أن أوقع علي هذه البطاقة بوصفي معتمداً للتهجير وأن تختم بختم خاص . وحال توزيع البطاقات ، ترسل اللجنة نسخة

من قائمة المالكين — تسبق قطار المهجرّين — إلي معتمد التوطين لتمكينه من وضــع لوحــات تمييزيّة علي واجهات كل المنازل بخشم القربة قبل وصول أصحابها . أما النسخة الأخرى من القائمة فتحفظ بمكتبي .

ويجــدر هــنا أن نذكر أن الجيران الحاليين — في أغلب الحالات — يظلّــون متجاورين ولا يفترقون إلا في حالات نادرة ، كما أن هذه الترتيبات تتيح فرصة فريدة للأقارب المشتتين بين القري العديدة ليلتئموا ويذوقوا نعمة الجوار .

واختصــت اللجــنة الثانية بدفعيات حزم الأمتعة وقيمة زاد السفر . وتكونــت من ضابط إداري وعمدة وشيخ القرية المعنيّة، وتباشر عملها حال الفــراغ مــن اكتمال توزيع المنازل . ومن واجباتها أن تدفع لكل رب أسرة جنيهيــن لشراء حاجيات حزم الأمتعة ، وأن توفر مبلغاً من المال لكل أسرة يمكّنها من الحصول علي زاد الطريق وذلك بمعدل ٥٠ قرشاً للشخص ، وأن تتأكد من توفر مواد حزم الأمتعة كالجوّالات والمقاطف والحبال بكميات كافية بالســوق ، وأن تطمئــن علــي ما يكفي من الخبز بالمخابز أثناء سير عملية التهجير .

واختصــت اللجــنة الثالثة بعمليات حمل ونقل الأمتعة إلي القطارات وكانــت برئاسة السيد الدرديري الصاوي ومعه عدد من موظفيه كأعضاء . وقد أوكلت لها عديد من الواجبات : أولاً : حصر كمية الأمتعة المسافرة لكل دفعــة ، بغــرض تحديد عدد العربات الملحقة بكل قطار . ثانياً : تسلُّم أمتعة المســافرين عــند عتبة الباب وتسليمهم المستندات الضرورية لأمتعتهم والتي تشمل (بوليصة) تأمين نافذة . ثالثاً : تعيين العدد الكافي من الحمّالين بشروط

خدمـــة الســـكة حديـــد لغرض حمل الأمتعة والاطمئنان إلي شحنها بواسطة الشاحنات ثم إنزالها في عربات السكة حديد . رابعاً : تعيين عدد من النجارين لإصــــلاح ما قد يطرأ علي الأمتعة من تلف جراء شحنها ونقلها وإنزالها في عربات السكة حديد . خامســـاً : إدارة حركة سائقي الشاحنات الذين يقومون بعملية نقل الأمتعة والتأكد من أنهم يؤدونها بطريقة مرضية . سادساً : مراقبة عملـية الشــحن في عربات السكة حديد والتأكد من أنها تجري وفق أسبقيات الســكن بخشم القربة لكي يتم فرزها بسهولة عند وصولها . وأخيراً : إلصاق قائمتين بمحتويات كل عربة من عربات السكة حديد من الأمتعة (إحداهما علي بـــاب العربة من الداخل والأخرى من الخارج) وأصحابها وقراهم وعلاماتهم المميـــزة وعدد أجزاء أمتعتهم ، وذلك بغرض تسهيل التعرف علي أمتعة كل شخص عند وصولها إلي محطة السكة حديد بخشم القربة .

أمـــا اللجـــنة الـــرابعة فقد أوكل إليها أمر إجلاء المرضي والعجزة والحوامـــل وحديـــثات الـــولادة ومواليدهـــن، وعضويتها من المفتش الطبي وموظفيه . وكان على هذه اللجنة أن تقوم بترحيل كل هذه الحالات إلي القطار بسيارات الإسعاف وأن يطمئنوا علي توفر أسرة المرضي والعجزة علي عربة القطـــار الخاصـــة التي تم تجهيزها لهم . وبالنسبة لحالات المرض المتأخرة وحالات الولادة الحديثة فقد كان علي اللجنة أن تتأكد من توفر ظروف الراحة لهـــا علــي العربة المزدوجة من الدرجتين الأولي والثانية . وهناك مضجع خـــاص فـــي هـــذه العربة المزدوجة ينبغي تأمين إمكانية تحويله إلي منضدة عملـــيات صغيرة لإجراء العمليات الطارئة أثناء الرحلة . كما ينبغي أن توفر اللجـــنة الإمـــدادات الكافـــية من الأدوية والمواد الطبية في كل قطار . كذلك

يتوجـــب أن تُراعي حالات الأمراض العقلية – علي قلّتها – وأن تداوي لكي يلـــزم أصـــحابها الهـــدوء خلال الرحلة . ويجب أن يرافق كل قطار طبيب عمومي وقابلة وممرضين .

أما اللجنة الخامسة والأخيرة فقد كانت مهمتها الإشراف علي ترحيل الماشية والدواب . وكان علي الضابط البيطري – بالتعاون مع سلطات السكة حديـــد – تحديـــد العـــدد المنقول منها علي كل قطار بضاعة والتأكد من أن عربات الدواب المطلوبة قد ألحقت به . كما كان عليها تعيين العدد المطلوب مـــن المشرفين أو الرعاة الذين يتولون ترحيل تلك الدواب والقيام عليها خلال الـــرحلة ورعايتها في خشم القربة إلي أن يتسلمها أصحابها . وكان لا بد من توفر قدر كافٍ من العلف والماء للإبقاء علي حياة تلك الحيوانات بحالة جيدة.

وبالإضـــافة إلـــي اللجان الوارد ذكرها ، قُررت تعيين ضابط تهجير لمرافقة كل قطار من قطارات الركاب . وسيمنح مبلغ ١٠٠ جنية نقداً لتمكينه مـــن مواجهة أي ظرف طارئ مثل وفاة راكب أو تأخر القطار لوقت طويل بسبب حادث أو قطع في الخط الحديدي . وسيكون من واجباته – عند وصوله خشـــم القـــربة – إعداد تقرير بمصروفاته –إن وجدت – وإيداع الفائض لدي خزينة مكتب التوطين . وقد وافق مفتش السكة حديد علي تقديم خدمات بوفيه خـــاص مـــتجول يـــرافق القطـــار ويوفر للركاب الشاي والقهوة والمرطبات والوجبات الخفيفة علي نفقتهم خلال الرحلة .

وأبلـــغ الاجـــتماع رسمياً بأن عملية تهجير السكان ستبدأ في ٥ يناير ١٩٦٤ وفقاً للجدول التالي :

٥ يناير : ترحيل وإرسال أمتعة الفوج الأول لأهالي فرص غرب .
٦ يناير : مغادرة أول قطارات التهجير بالفوج الأول لأهالي قرية فرص غرب .
٧ يناير : ترحيل وإرسال أمتعة من يتبقى من الفوج الأولي لأهالي فرص غرب .
٨ يناير : مغادرة الباقين من أهالي فرص غرب .
٩ يناير : إرسال الأمتعة المنزلية للفوج الأول لأهالي (سرّه غرب .)
١٠ يناير : مغادرة الفوج الأول لأهالي سرّه غرب .
١٢ يناير : إرسال أمتعة من يتبقى من الفوج الأخير لأهالي سرّه غرب .
١٣ يناير : سفر الفوج الأخير لأهالي سرّه غرب .
١٦ يناير : بداية شهر رمضان (فترة انتظار) .

وعلي الجانب الآخر ، كان نظيري : (معتمد التوطين بخشم القربة) قد استعد لترقيم المنازل وتثبيت لوحات علي أبوابها بأسماء المالكين ، وفرز ونقل الأمتعة إلي سكن القادمين قبل وصولهم ، وتأمين كمية معقولة من الفحم وزجاجة (كيروسين) وجرّة (زير) مليئة بالماء وعلبة ثقاب وحصة من الطعام الطازج لليوم الأول من وصول المهجرّين (قبل أن يتلقّوا أنصبتهم من إمدادات منظمة الأغذية والزراعية العالمية)، وكمية من العلف لحيواناتهم، وتوزيع المزارع (الحوّاشات) لأرباب الأمر عقب اليوم الأول لوصولهم .

وبعد أن تم توزيع ترتيبات إجلاء السكان علي اللجان ، أمضيت بعض الوقت في إعداد كتيب صغير أسميته : (دليل المهاجر) وصفت فيه الخطوات التي ينبغي علي كل رب أسرة إتباعها أثناء فترة الرحيل خطوة

خطوة ، شارحاً له ما هو مطلوب منه في كل مرحلة بلغة سهلة وذلك بدءً من حـــزم أمتعته إلي أن يدخل بيته الجديد في خشم القربة . وقد طبع الكتيب في الخـــرطوم وشمل صوراً لملامح عديدة من خشم القربة وخريطة توضح خط سير الرحلة ، وتم توزيع آلاف النسخ منه للأهالي .

وفـــي هذه الأثناء إنطلق الدرديري النشط – بناء علي مبادرة منه – إلـــي القري وفي معيته فريق من خبراء حزم الأمتعة (من بين عمالة) ليعلّم الأهالـــي كيفـــية حـــزم أدواتهم وأثاثاتهم بأفضل الأساليب . وبما أن الألياف الورقـــية لـــم تكـــن متوفرة بقدر كاف ، فقد وجد بديلاً عنها في ألياف شجرة النخـــيل وفي الملابس المستعملة وذلك (لتستيف) الأمتعة القابلة للكسر . لقد كـــان هذا البيان العملي مفيداً للغاية خاصة لهؤلاء النوبيين الذين لم يعيدوا – في حياتهم – حركة جماعية لنقل الأمتعة والأثاثات .

وبيـــنما كان الموعد النهائي يقترب ، كنت أقوم بزيارات منتظمة إلي القري الشمالية ، وأقضي معظم الوقت في (فرص غرب وسرّه غرب) أشرح للمهجرّيـــن ما هو مطلوب منهم قبل أن يغادروا إلي الوطن الجديد . وحدثتهم عن كل الترتيبات التي أعددناها من أجل سلامة الرحلة ، كما أخبرتهم بما قام به زميلي السيد عثمان حسين – في خشم القربة – استعدادا لاستقبالهم وإعادة توطينهم . وقد كان السيد علاّم حريصاً علي معرفة تفاصيل موقفنا خلال تلك الأيـــام الحرجة ، فقدم إلينا وذهبنا سوياً نجوب أنحاء الضفة الغربية . وقمنا بزيارة (فرص وسرّه وأرقين) وأطلعنا أهلها علي تفاصيل رحلتهم الآمنة إلي أن تنتهـــي باستقبالهم في خشم القربة . وعقد السيد علاّم – كذلك – اجتماعا بمعتمد التعويضات حيث وقف علي ترتيبات تسديد المستحقات تبعاً للبرنامج ،

ثــم أسـرع قـافلاً إلي الخرطوم قبل أن يطير إلي خشم القربة للتأكد من أن الأمور تسير بصورة مرضية .

وبدعـوة مـن الأنديـة الرياضية بمختلف أحياء مدينة حلفا ، عقدتُ العديـد من الاجتماعات الناجحة مع الأهالي وأوضحت لهم المشاكل المتوقعة خلال فترتيْ ما قبل وما بعد التهجير والاستعدادات القمينة بتمكينهم من التغلب عليها .وتلقّي الأهالي إجابات شافية علي كل أسئلتهم المتعلّقة بعملية التهجير . وكان الحضور الحاشد – لتلك الاجتماعات – دليلاً بيّناً علي الرغبة الصادقة لفهـم دقائق المعلومات . وبجانب هذه الاجتماعات ، ضاعف مكتب إعلامنا جهوده وأخذ يوزّع نشرته اليومية علي نطاق واسع .

وفي الأول من يناير ، أقمنا احتفالا كبيراً في ذكري آخر مناسبة تقام لاستقلال السودان بوادي حلفا . وقد قمت – في خطبة مطوّلة – بالتطرق إلي تفاصـيل الترتيـبات التي تمت من أجل ترحيل الأهالي بصورة آمنة ، وإلي الـثورة الاقتصـادية الكـبرى التي ستغير مجري حياتهم في خشم القربة . وتحدث السيد علي أحمد علي – رئيس المجلس البلدي حينها ، والذي أستشعر أن السـاعة قد أزفت ليتقدّم ويتسلّم مقاليد قيادة أهله في تلك الأيام الحاسمة – بلغـة بلـيغة عن الضغوط النفسيّة التي تحاصر الأهالي خلال تلك اللحظات الحـرجة . فقال : (أن قلوبنا ستظل معلّقة بأرض الأجداد حتي لو فتحت لنا أبـواب الجنان .) .. لكنه دعا الأهالي للتذرع بالصبر والامتثال إلي مشيئة الـرب بالرضـا واليقين . ثم أضاف يقول : (إننا نضحي بأرضنا من أجل وطنـنا الأم ونزكّـي تلك التضحية بالصبر والثبات .) وحثّ الأهالي علي الالتزام بتوجيهات وإرشادات مكتب التهجير الذي ليس له من هم سوي تأمين

رحيلهم وسلامة أمتعتهم . وتلاه السيد ميرغني علي إبراهيم الذي ألقي خطبة مؤثـرة مليـئة بعـبارات الأسى علي فراق أرض الأجداد . ثم تحدث السيد صـالحين حديثاً طيباً علي منوال ما جاء علي لسان السيد علي أحمد .. وأمّ الاحـتفال كـل سـكان المدينة وقراها تقريباً وقد شاركت الحامية العسكرية والأنديـة الرياضـية في البرنامج بفقرات شيقة . ورغماً عن ذلك فقد بدا أن الجميع جاءوا بوجوه متجهمة وقلوب محزونة وكأنهم يشيّعون قريباً عزيزاً .

وبعـد أن انـتهى الاحتفال ، أخبرني أعيان سرّه وفرص غرب أنهم بصـدد إقامة احتفال وداعي ضخم بقرية سرّه في صبيحة الثالث من يناير . وأخطرنـي العمـدة صـلاح عمدة فرص بأن قريته قد تكون المكان الأنسب لإقامة الاحتفال بحجة أنهم سيسبقون سرّه بالرحيل . غير أن انشغال قومه أما بحـزم أمتعـتهم وإما بتسلّم تعويضاتهم ، ونسبة لتدهور صحة أحد المسنّين بقريتهم – والذي ظلت حالته ميئوس منها وظل موته متوقعاً في أي لحظة – فقد أتفق مع عمدة سرّه (حسن محمد علي) علي إقامة الاحتفال في قريته . وأخبرونـي – كذلـك – بأنهم قد قاموا بالفعل بدعوة كل أهالي الناحية تقريباً بالإضـافة إلي أهالي مدينة حلفا . فوافقت علي هذه اللمسة الرقيقة ووجهتهم بتدبـير أمـر ترحـيل كل من يرغب في حضور الاحتفال . ووجهت ضابط إعلامنا – السيد محمد فضل الله – بالتعاون معهم لإعداد برنامج الحفل .

وفـي ذات الوقـت كانـت استعداداتنا – بوادي حلفا – ليوم الرحيل تجـري علي قدم وساق . فوصلت عربات الركاب الجديدة إلي ورش السكة حديـد بالمديـنة . وانتابني شعور بالارتياح عندما وقعت عيناي عليها . فقد كانـت كلهـا جديدة تماماً وكانت مقاعدها واسعة ومريحة ، كما كانت مزوّدة

بمـــراوح وبإضاءة خارجية تمكن الركاب من مغادرتها وتتيح لهم التجول – عندما يتوقف القطار – في المحطات غير المنوّرة . ولقد ابتهجت حينما رأيت عـــربة المستشـــفي بصـــفّيْ سرائرها النظيفة والمريحة وبمناضدها الصغيرة الموضوعة في متناول أيدي المرضي . ووصلت – أيضاً – عربات البضـاعة بـأعداد كبيرة وأوقفت جانباً في محطتي حلفا وعنقش . وخصصت مصلحة الوابورات – كذلك – باخرة لتكون علي أهبة الاستعداد علي شاطئ النهر عند فـــرص قبـــيل مغيـــب الـــرابع من يناير . وفي جولة رافقني فيها مساعدي (السـيد نديم) عبر قرية فرص ، لاحظت أن الأزقة قد اكتست بكثبان رملية يمكـــن أن تجعـــل مـــن المستحيل علي شاحناتنا الثقيلة (من طراز الكومر) الـــتوجه بحمولـــتها إلي الباخرة . ولذلك قررنا جمع كل أسطولنا من عربات (اللاندروفـــر) ذات الدفع الرباعي – رغم حمولتها المحدودة – واستخدامها لإنجـــاز المهمة بطريقة أفضل . وأستطاع المرحوم سعد الدين عبد الغني – الذي وقع عقد الترحيل مع سلطات السكة حديد – أن يهرّب أكثر من مائة من صعايدة أسوان لاستخدامهم في عمليات شحن وتفريغ الأمتعة .

وبالنسبة للحيوانات ، فقد أجري الضابط البيطري كل الترتيبات لعلفها وجمع كميات هائلة من اللوحات التعريفية ليكتب عليها أسماء مالكيها ويُعلقّها بحـــبال متينة علي رقاب تلك الحيوانات . وقام الطبيب البشري بتهيئة إحدى (قمـــرات) الدرجـــة الأولي لتصبح غُرفة عمليات صغيرة مجهّزة بالمعدات اللازمة والعقاقير والمواد الطبية . كما قام بانتداب الممرضين والقابلة لمرافقة الفـــوج الأول وأجـــري الكشف الطبي علي كل الحالات المرضية المغادرة . وبالإضـــافة إلـــي ذلك ، قام بزيارة إلي قرية فرص حيث تولي الكشف علي

الحوامل والعجزة ، بينما قاد المهندس حسن طه لجنته -- وفي حوزته خريطة لقرية فرص الجديدة – إلي فرص وشرع في توزيع المساكن . وذهب معتمد التعويضـــات – الـــذي واصـــل عمله ليل نهار – إلي فرص ومعه فريق من الصسيارفة والمحاســبين وخزيـــنة مالية وحرس وبدأ في دفع الاستحقاقات . وعـــندما قمت بزيارة خاطفة إلي هناك سرني أن أجد الأمور تسير بيُسر تام وفقـــاً للخطـــة . وعـــندما وقع نظر العمدة (الشيخ صلاح) علي شخصي ، تلقانـــي بجماعة يقدر عددها بثلاثين رجلاً – قدّمهم إليّ باعتبارهم أرباب أسر مغتربيـــن – جـــاءوا للانضمام إلي أسرهم قبل أن تبدأ عملية التهجير . وقد أكـــدت لهجتهم المصرية صحة المعلومة التي أدلي بها العمدة وزادوني تأكيداً بما قالوه لي من أن فوجاً آخر من زملائهم المغتربين في مصر سيلحق بهم . وعـــندما استفســـرت صـــلاح عن صحة المريض العجوز ، علمت أن حالته خطيرة .

وفي الثالث من يناير أقيم احتفال وداعي كبير في سرّه غرب حضره كـــل أهالـــي قرية فرص وأهالي سرّه وما جاورها من قري إلي جانب جمع غفـــير مـــن مدينة وادي حلفا . وانتهزتُ الفرصة فدعوتُ مراسلي الصحف الذيـــن كانوا بالمدينة لتغطية أخبار التهجير وذهبنا جميعنا إلي سرّه . فعبرنا النـــيل عند سرّه شرق . ثم مررنا بمجموعة من أشجار النخيل قبل أن ندخل فضاءً تظلله بعض أشجار الدوم . ثم بدت لنا حشود ضخمة في واجهة القرية حيـــث نصـــب هـــيكل لسرادق واسع من أعواد النخيل مظلّل بحصائر ليقي الضـــيوف وهـــج الشمس الحارق ، بينما تجمع القرويون -- في شكل نصف دائرة -- أمام السرادق الذي زيّن بجريد النخل وبأعلام من كل لون . وعندما

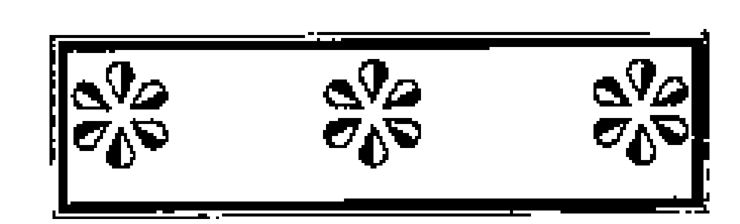
كنت أحيّ الجمهور ، أخبرني الشيخ محمد عبده – إمام مسجد فرص – بوفاة الـــرجل المريض في الليلة الفائتة . ثم علّق بارتياح قائلاً : (خير له أن يتوفـــي هـــنا من أن ينازع سكرات الموت علي متن القطار .) ولاحظت أن القوم كانوا وجلين من أن يتوفي الرجل في الطريق لأن ذلك كان يعني إشارة شـــؤم، فضلاً عما يسببه تجهيز الجنازة ودفنها في إحدى محطات الطريق من ارتباك .فكان ذلك من الحالات النادرة التي يكون فيها الموت مدعاة للارتياح

وقـــد خطبـــت طويلاً في ذلك الجمع وشاطرتهم مشاعر الأسى علي فـــراق أرض أجدادهم ومسقط رؤوسهم الذي ترعرعوا فيه منذ فجر التاريخ وأحبوه كما لم يحب أحد أرضه ووطنه . ثم ذكرتهم بأنهم ليسوا أول من غادر موطـــنه وهاجـــر واســـتأنف حياته في مكان آخر . فتاريخ الإنسانية يزخر بهجـرات أســـهمت فـــي ازدهار حضارات عظيمة . ولتدعيم هذه الحجة ، استشـــهدت بتأثـــير هجـرات الأمريكيـــن والأستراليين والعرب الذين نقلوا حضــــاراتهم إلـــي أماكـــن نائية كانت يوماً ما مظلمة ومتخلّفة ، فما لبثت أن ازدهرت وارتقت . وأعدت إلي أذهانهم سيرة الهجرة الجماعية لقبائل السودان إبـان فترة المهدية ثم دلفت إلي التغييرات الجذرية المتوقعة في حياتهم حين يستوطنون(خشم القربة) . وأشرت إلي أنهم سيفقدون نخيلهم الذي كان يمثل العمـــود الفقري لاقتصاد وطنهم الأصلي كما أشرت إلي أن اقتصادهم سيتخذ وجهـــة مغايـــرة خاصة وأن أسلوبهم الحالي في الزراعة كان محصوراً في فلاحـــة حيازات صغيرة من الأرض تزرعها الأمهات بمساعدة أطفالهن . أما في خشم القربة فإن الأرض واسعة والتربة خصبة والري متيسّر ، وهذه هي

البنـــية التحتية للاقتصاد الزراعي الناجح . ولن تكون هناك مشاكل لساقيه في خشـــم القربة وميرفع الماء – بواسطة الخزان – إلي القنوات ويتم التحكم في مســـاره عـــن طريق بوابات لري المزارع . وستكون المزارع كبيرة بحيث يـتعذر علي سيدة المنزل وأطفالها فلاحتها والحصول علي إنتاج جيد منها . ولذلـــك فإن الفاقد من الإنتاج المنتظم للتمر ينبغي أن يكون دافعاً حقيقياً لبذل مـــزيد من الوقت في العمل الزراعي . وحذّرتهم من أن أي إهمال للمزرعة سيؤدي إلي شح في الدخل مما ستكون له عواقب وخيمة علي مستوي المعيشة بـــدلاً من تحسينه . يضاف إلي ذلك أن المشروع الجديد بخشم القربة هو أحد أعظـــم أصـــولنا القومية التي ساهم دافع الضرائب – بسخاء – في إنشائها . ومن هنا فإن المزارع الكسول والفلاح المتبطّل لا مكان لهما في هذا المشروع وسيلقي بهما بعيداً . أما القصور المتوقع في الأيدي العاملة فيمكن معالجته – جزئياً – بالعودة المحتملة للقادرين من المغتربين الذين سينضمّون – أخيراً – إلي أسرهم بالوطن الجديد . وأهم من ذلك كله ، إمكانية قيام تعاونيات زراعية ميكانيكـــية لفلاحـــة الأرض جماعـــياً . وفي ختام كلمتي تمنيت لهم السعادة والرخاء في وطنهم الجديد .

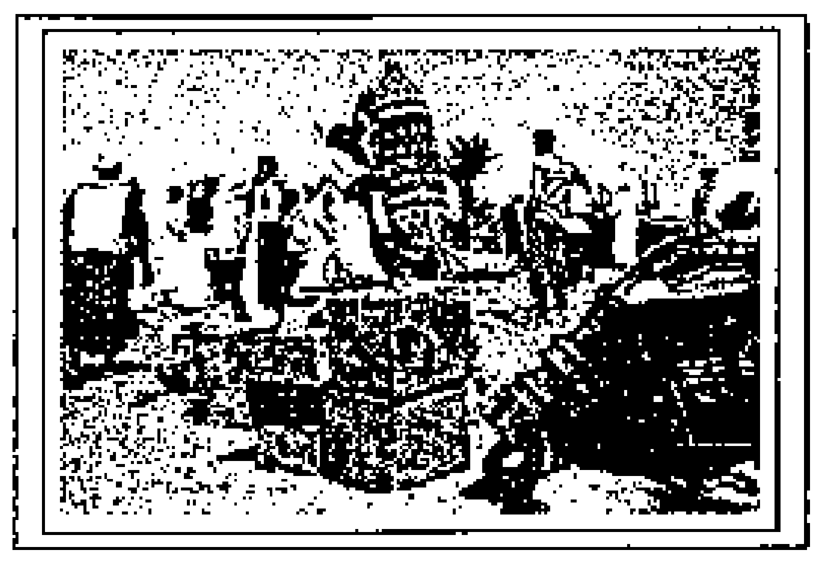
وألقـــي علـــي أحمـــد علـــي خطاباً مؤثراً عبّر فيه بإسهاب عن المشاعر العاطفـــية التي تربطهم بوطنهم ، وعن الشعور العام المفعم بالأسي الذي يحسه كل واحد منهم لفراقه إلي الأبد ثم قال – بنبرة بدا فيها أثر الدين واضحاً –: (إن لنا فـــي هجـــرة نبيّنا الكريم أسوة حسنة . فقد كانت هجرته من مكة إلي يثرب مفتاحاً لنشـــر دعـــوة الإســـلام في ربوع العالمين .) ثم أستشهد بآيات من القرآن الكريم والأحاديـــث النـــبوية داعياً إلي الصبر والإمتثال لإرادة الخالق . وكان واضحاً أن (علـــياً) قـــد بلغ به التأثر مبلغه وقد خنقته العبرات عدة مرات أثناء إلقائه خطابه .

وتحدث من بعده الإمام محمد عبده – الذي استأهل أن يلقب ببطل التهجير – حيث ألقـي خطـبه عقلانـية خففت الهم وخلقت جواً من الارتياح بما تضمنته من مُلح وطـرائف .ونبح أهالي (فرص وصرص) الكرماء ثلاثة عجول لضيوفهم وقدموا طعـام الغـداء المكون من الفتة والأرز واللحم، للجميع. وبعد تلك الوجبة الشهية انفضّ الاحتفال . وفي مساء الرابع من يناير ، ذهبت إلي فرص وفي صحبتي مسـاعدي (نديـم) وضابط الإعلام للإشراف علي اللمسات الأخيرة لعملية التهجير فوجدنـا أسـطول (اللاندروفرات) قد سبقنا بالوصول إلي هناك وأبصرنا أمتعة الفـوج الأول محزومة ومصفوفة أمام منازل القرية . وكان هناك – أيضاً – فريق للجمالين الصعايدة يعسكرون تحت ظلال النخيل قرب القرية، بينما أرسيت الباخرة وعلي متنها عمال السكة حديد بأمتاراتهم وأدواتهم المخصصـة لوسم الأمتعة. كذلك جاء عمال البيطرة ، ووقف قطار البضاعة بعرباته الفارغة في المحطة علي الضفة الشـرقية . أمـا معـتمد التعويضـات وجماعته من الصيارفة فقد فرغوا من دفع الاستحقاقات في الوقت المحدد . وأخبرني العمدة صلاح بأن اللجنة المكلفة بتوزيع المـنازل الجديـدة قـد أنجـزت مهمتها وأن كل مالك قد تسـلم بطاقته.كما تسلم مصـروفات حزم الأمتعة وقيمة زاد الرحلة . وعدنا في المساء إلي وادي حلفا وقد بدت علينا مظاهر الارتياح .





سليمان محمد حسين

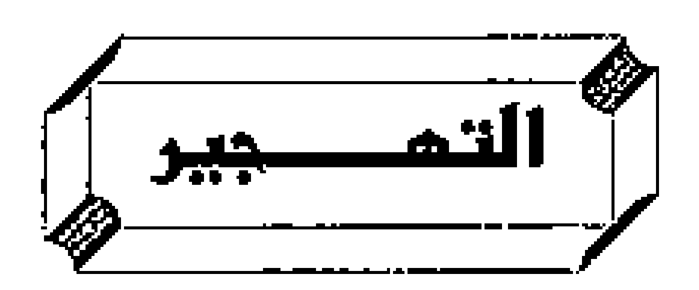


شحن أمتعة أهالي فرص



محمد الفضل

الفصل العشرون



في اليوم التالي (الخامس من يناير) عبرتُ و(نديم) النيل إلي فرص قبيل الشروق علي متن لنش الشُرطة ، فوجدت أن عملية إخلاء الأمتعة قد بدأت سلفاً تحت إشراف (الدرديري) . كانت الكثبان الرملية الناعمة قد حصرت الحركة إلي منطقة الشاطئ ، فساخت عجلات العديد من السيّارات في الرمل ، واحترق (مولّد) أحد (اللاندروفرات) مما احتاج إلى وقت لاستبداله بآخر .

وعندما حملت الباخرة أول دفعة من الأمتعة ، عبرنا معها إلي الضفة الشرقية للإشراف علي تفريغ الحمولة في القطار . وأثناء قيام عمال السكة حديد والحمّالين بعملية فرز الأمتعة ونقلها إلي عربة البضاعة ، جلست و(نديم) علي صخرة ملساء قبالة المحطة نتناول شيئاً من الإفطار . ومن هذا الموقع رأينا شاحنة حكومية وهي تنطلق بسرعة شديدة قادمة من مدينة حلفا . وعندما اقتربت منّا ، لا حظنا أنها تحمل عدداً من رجال الشرطة المسلّحين وعلي رؤوسهم خوذاتهم الفولاذية . فخطر لي لأول وهلة أن الوضع في حلفا لم يعد آمناً ، مما أزعجني . وعندما وصلت السيّارة نزل منها المرحوم (علي مساعد) ضابط الشُرطة – وقد تمنطق مسدّسه – ثم اتجه إلينا . لكنه – عندما رآنا نتناول إفطارنا بسرور وسمع أهازيج الحمّالين وهم يشحنون الأمتعة في القطار – إنفجر ضاحكاً وبدت عليه علامات الارتياح . وأوضح لنا أن شائعة قد انطلقت في مدينة حلفا تفيد بأن أهالي فرص قد نكصوا عن الهجرة إلي خشم القربة ورفضوا تسليم أمتعتهم لعمال السكة حديد ، وأنني ونديم – عندما تدخلنا في الأمر – لم نسلم من أياديهم مما ألجأني للعبور إلي الحدود المصرية وأوقع نديم رهينة لديهم . وكانت الشائعة قد طبّقت الآفاق بحيث صدّقها كل

مـــن كان في المدينة . ولهذا السبب فقد جمع الضابط كل ما استطاع من قوة الشــرطة وأنطلق لتخليصنا . وعندما نظرت إلي نديم رأيته يكاد ينفجر مثلي مــن الضـــحك . وقلت لمساعد إنه لا اعتراض عندي علي أن أجلد بواسطة النوبييــن ، إلا أن الهــروب واللجوء إلي مصر لا يشبهني . وبعد أن تناول (علي مساعد)كوباً من الشاي معنا ، وجهته بالإسراع إلي نقطة الحدود بفرص شرق ومهاتفة رجاله بسلامتنا وبأن الأحوال تسير كالمعتاد .

وفـــي المساء كانت أمتعة ودواب الفوج الأول قد حطت – سالمة – علي القطار . واحتاجت الباخرة إلي ثلاث رحلات للفراغ من نقلها إلي الضفة الغربية. أما الحمالون فقد احتاجوا إلي ثلاث نوبات عمل لإتمام تلك المهمة . وفـــي الســاعة الخامســة مساء أرسلت القاطرة ثلاث صافرات عالية إيذاناً بمغادرة أول القطارات إلي خشم القربة . وفي محطة حلفا سلّم للمهندس حسن طـــه مظـــروفاً ضخماً (للكمساري) يحوي قوائم توزيع المساكن ومعلومات أخـــري مـــتعلقة بالفوج الأول معنون إلي معتمد التوطين بخشم القربة . وتم توجـــيه (الكمساري) بتسليم المظروف للمعتمد شخصياً ساعة وصوله إلي هـــناك . وزودت عربة الدواب بأعلاف خضراء جلبت من مزرعة (راشد) كمـــا تم توفير المياه الكافية للرحلة . وبعد تجهيز كل هذه الاحتياجات غادر القطار وادي حلفا وأختفي رويداً رويداً في صحراء العتمور .

وعـــندما عدت إلي مكتبي كان أول ما فعلته أن اتصلت بخشم القربة هاتفـــياً وأخطـــرت السيدين علاّم وعثمان بمغادرة القطار وبالمظروف الذي أرســـلناه مـــع (الكمساري) لمعتمد التوطين . وإمعاناً في التحوّط فقد وجهت المهندس حسن طه للاتصال بخشم القربة وإملاء كل القوائم المبيّنة بالمظروف

– هاتفياً – وذلك ليتسني للمعنيين تخصيص مساكن مهجّري الفوج الأول بوقت كاف قبل وصول القطار إلي هناك . ثم اتجهت إلي علي أحمد علي القيّم علي شئون تهجير الفوج الأول والذي ظل يتردد علي فرص بانتظام ويتبادل الرأي مع المهجّرين . فراجعت معه واجباته وتناقشنا في كل دقيقة من الأمور التي يمكن أن تقع أثناء الرحلة . وكان علي –وهو رجل ذو منزلة مرموقة – علي دراية تامة بأهمية دوره خاصة وهو يقود الفوج الأول . وكانت لحكمته ومحبته الصادقة لقومه والاحترام الذي يلقاه من كافة قطاعات المجتمع ، ما جعلني علي اقتناع أنه كان الرجل المناسب لقيادة فريق المقدّمة.

وعدت إلي منزلي قبيل منتصف الليل لأجد أن زوجتي قد تلقت محادثة هاتفية من شقيقي في الخرطوم يرجوني ضرورة مهاتفته فور وصولي . وخلال دقائق قليلة استطعت أن أجري الاتصال . فأفادني أن شائعةً قد انتشرت في الخرطوم تتحدث عن مصاعب تلاقيها في فرص وعن فراري إلي الحدود المصرية . وبرغم أن زوجتي قد نفت الشائعة إلا أنه أصر علي سماع الحقيقة مني شخصياً . فأكدت له ما قالت زوجتي . ويبدو أن الشائعة التي انتشرت في المدينة صباحاً ، قد نُقلت – بلا شك – عن طريق عمّال الهاتف إلي زملائهم في الخرطوم والذين قاموا – تبعاً لذلك ببثها هناك .

وفي فجر السادس من يناير قصدنا فرص فوجدنا أن قطار الركاب قد تم تجهيزه بالمحطة كما وجدنا الممرضين وهم ينظّفون عربة المستشفي ويضعون المساند علي الأسرّة . ثم مررنا علي كل العربات فوجدناها بحالة مُرضية وقد مُدت بكميات كافية من المياه . وعند الشروق عبرنا إلي الضفة الغربية حيث وجدنا الطبيب وبعض مساعديه بالقرية يقومون بالفحص الطبي

النهائـــي علـــي كـــبار السن من المهجرّين . وتم إخطار ذوي المرضي بأن الإجــراءات قــد اتخذت لنقلهم مباشرة إلي القطار ساعة وصولهم إلي مدينة حلفــا. ولا حظـــت أن كثيراً من الناس قد جاءوا من فرص شرق وصرص شرق وصرص غرب وأدندان وبلاّنه : (علي الحدود المصرية) لوداع الفوج الأول . وقد كانت الرائحة النفّاذة للحوم المشوية – والتي ملأت الجو – دليلاً علي أن كــل ربــات البيوت قد كن يجهّزن طعام الرحلة . كما أن ريش الدواجن الذي كانــت تطــيّره الريح قد دلّ علي أن كمية مقدّرة من الدجاج قد ذبحت ذلك اليوم . وعــندما كــان عمال السكة حديد – تحت إمرة الدرديري – يقومون بوزن الأمتعة الخاصـــة بـــالفوج الثاني ، لاحظتُ أن الشيخ محمد عبده – الذي كان مقرراً له أن يكــون مــن ركــاب القطار الثاني – قد شرع يكوّم أمتعته عند مدخل بيته. وفي منتصــف الــنهار وصــلت عربة الإســعاف يصحبها فريق من الممرضين لأخذ المرضــي والمسنين و ذوات الحمل المتقدم إلي الباخرة . وفي الساعة الثانية بعد الظهــر كانــت الحقائــب والسلال والحشايا تتراكم أمام مداخل المنازل بينما أخذ الحمّــالون يــرفعونها علي الشاحنات ثم ينقلونها إلي الباخرة . وفي الساعة الثالثة عصــراً حُمّــل المســنون والمرضي – تحت إشراف الطبيب – إلي موضع خاص بالــباخرة . ثم حلّت ساعة الفراق حين دخل معظم أرباب الأسر إلي منازلهم لإلقاء الــنظرة الأخــيرة علــيها ثم خرجوا وهم ينتزعون المفاتيح الخشبية من الأبواب الخارجية تذكاراً وجدانياً عزيزاً . واتجهوا – بعد ذلك _ في موكب كبير إلي المقابر لقــراءة الفاتحـــة علـــي قبور أسلافهم، وعادوا إلي الباخرة يذرفون الدموع ويبكي بعضهم بحرقة وعويل . وظلّوا يديمون النظر إلي قريتهم ويمسحون دموعهم حينما بدأت الباخرة تتحرك، فلقد أدركوا أنها النظرة الأخيرة التي لن تتكرر . وكان كبار الســن _مــنهم _ الأكــثر شجناً .. أولئك الذين أثارت الزيارة الوداعية للقبور في نفوسهم ذكريات الحزن الدفين علي أجداث أعزّاء توشك المياه أن تطويها إلي الأبد

. وكــان المشــهد مؤثراً إلي أبعد مدي ، وخيّمت علينا سحابة من الحزن مشحونة بالمواســاة والعــزاء الجميل .. وبالسخرية الأقدار .. فقد كان الأطفال هم وحدهم الذيــن لم يؤثر عليهم الموقف ، بل إن رحلة القطار كانت بالنسبة إليهم ضرباً من الترفيه .

وقــبل أن تغــادر الــباخرة فــرص ، صعد عليها كل سكان القرية (مســافرون ومودّعــون) ، فعبرت بهم إلي الضفة الشرقية بحمولة كاملة . وعــندما أدركنا الشاطئ ، حُمل المسنون والمرضي أولاً إلي عربة المستشفي الــتي بالقطار . ثم تولّت القابلة إدخال الحالات المتقدمة من ذوات الحمل إلي كبائــن الدرجــة الأولي ، يتبعهن من تبقي من الركاب ليستقروا في عربات الدرجــة الثالــثة . وهنا قرر الشيخ محمد عبده(بطل التهجير) فجأة مصاحبة الفــوج الأول إلي خشم القربة بالرغم من أن أمتعته كانت مكدّسة أمام منزله انــتظارا لــنقلها إلي قطار الفوج الثاني . وقد طلب مني ترتيب رحيل عائلته وأمتعتها بقطار الفوج الثاني ، فوافقت . وأحتل مراسلو الصحف – الذين رأوا مصــاحبة الفوج الأول من المهجّرين في رحلتهم إلي وطنيم الجديد – إحدى كبائن الدرجة الثانية . وزين سائقو القطار ومساعدوهم مقدمة القاطرة بجريد الــنخل والــزهور إحتفاء بهذه المناسبة التاريخية . وغادر كل سكان فرص شرق قريتهم وجاءوا إلي المحطة لوداع جيرانهم . وفي الساعة الخامسة مساء – وحيــن أرسل القطار صافرته العالية – انهمرت دموع غالب الركاب بينما عمــت المحطــة نوبــة من العويل والصراخ في أوساط المودّعين . وأخذت أتســمع باتنــباه إلــي مــا يقولون ، وبعد هنيهة بدا لي أنهم كانوا يصيحون ويلوّحــون بعمــائمهم للمســافرين قائلين : (آفيالوقو .. هيروقو) أي : (رافقــتكم العافية .. وعلي خيرة الله .) وعندما بدأت عجلات القطار تدور ،

خطا الحلفاويون فعلا أولي خطي الخروج من دارهم التي ستغمرها مياه السد العالــي بعـد حيــن . وظل المسافرون يحدقون في قريتهم عبر النيل وهي تتضـاءل في أنظارهم كلما أوغل القطار جنوباً إلي أن أخفت انحناءة مفاجئة للخط الحديدي- حول أحد الجبال- القرية بعيداً عن الأنظار .

وتجمــع كل أهالي سرّه شرق ودبيره وأشكيت علي امتداد خط السكة حديد وهم يلوّحون بأيديهم أو بجريد النخل ويرفعون أصواتهم بشعار الساعة : (آقــيا لوقــو .. هير أوقو .. عديلة .. عديلة .) وتجمع كل سكان دبروسه والتوفيقية وأركويت والجبل في الساحة التي تفصل الخط الحديدي عن المباني لوداع الراحلين . وعندما وصل القطار إلي محطة عنقش في الساعة السادسة مساءً ، إنتحيت جانباً بعلي أحمد علي ونفحته مائة جنية لمقابلة أي مصروفات اضـطرارية غـير منظورة – أثناء الرحلة – وسلّمته لفّة من قماش(الدبلان الأبـيض) مغلّفة بقطعة من الورق وطلبت منه أن يحتفظ بها سراً في حقيبته لأنه قد يحتاج إليها كفناً إذا قدر الله أن يتوفي أحد الركاب في الطريق . وقام الطبيب المرافق بنقل كل الحالات المرضية – المهجّرة ضمن الفوج الأول – وأنــزلهم مــنازلهم علي أسرة عربة المستشفي . ثم طفت وفي صحبتي نديم وضابط الإعلام علي كل العربات وصافحت الركاب فرداً فرداً متمنياً لهم كل خــير . وكــانوا كلهم حزاني وكان بعضهم لا يزال يذرف الدموع الغزار . وأمتلأت المحطة بالناس وما إن تحرك القطار حتي ودّعوه بعواطف مشبوبة . وتناسـي أهالــي دغــيم خلافاتهم وتجمّعوا في حشد كبير أمام القرية لوداع المسافرين . أما أنا ونديم فقد سايرنا القطار حتي المطار ثم عدنا إلي المدينة بعد أن لوّحنا لهم بتحية الوداع الأخيرة .

وعــند السـاعة السـابعة والدقـيقة الثلاثين مساءً اتصلت هاتفياً – وبصورة مستعجلة – بخشم القربة .فتلقي محادثتي طه عثمان الذي أنبأني بأن الكُـل ينـتظرون أخبارنا بقلق . وأضاف بأن شائعة قد راجت حول نكوص أهالي فرس عن الرحيل في آخر لحظة ورفضهم مغادرة قريتهم، وأن الجميع فــي خشم القربة لا يعرفون موقفنا بالضبط . وقد زودته ببيان مقتضب حول مغادرة القطار الأول وحددت له ساعة مبارحته محطة عنقش . فسمعته ينقل الأنباء إلي السيد علاّم والذي – بدوره –أمسك بسماعة الهاتف وتحدّث إلّي . فاعــتذرت له عــن عــدم تمكننا من مهاتفتهم أثناء النهار لأننا كنا مشغولين بترحيل الفوج الأول من المهجّرين القاطنين علي الضفة الغربية حيث لا توجد خدمــات هاتفــية . وقلــت له إن الموقف هناك كان يختلف تماماً عمّا تمنّاه مــروّجو الشــائعات . ثم أحطته علماً بكل الخطوات التي اتخذناها لمغادرة الفــوج الأول ، وبالروح المعنوية للمهجّرين ، وبالوداع الحار الذي لقوه من كل الأهالي ، وبميعاد تحرك القطار وما حمله من حاجيات الركاب . وبدا لي أنــه كــان مرتاحاً للغاية ومسروراً لسماع قصة البداية الطيبة التي حققناها . وأخبرنــي أن اللواء حسن بشير نصر (رئيس هيئة الأركان وعضو المجلس الأعلي للقوات المسلّحة) واللواء محمد أحمد عروة : وزير الداخلية ، والسيد سـليمان حسـين : وزير المواصلات ، والسيد مكي المنّا : وزير الري ، قد وصلوا إلــي خشــم القربة ليشهدوا الاستقبال الضخم الذي تم إعداده إحتفاءً بوصــول الفــوج الأول . ثــم تحدث إليّ اللواء عروة مهنئاً لنا علي البداية الــناجحة ومؤكداً لي أن كل الاستعدادات قد اكتملت هناك لاستقبال المهجّرين وإراحــتهم. واختــتم المحادثة عثمان حسين الذي أطلعته علي كل التفاصيل

وعلـــي أمتعة الركاب وعلي ساعة مغادرة القطار وادي حلفا . كذلك أجريت إتصـــالين هاتفييـــن أحدهمـــا مع الحاكم العسكري والآخر مع مدير المديرية بالدامر .

وأرســـل ضـــابط الإعـــلام تقريراً مفصلاً إلي إذاعة أم درمان تمت إذاعـــته فـــي الساعة الثامنة مساءً . وفي اليوم التالي قدمت الإذاعة برنامجاً خاصـــاً أحـــاط بوقـــائع المناسبة وشمل البرنامج خطابي الذي ألقيته في سرّه والذي أذيع عدة مرات . وفي صبيحة السابع من يناير أبرزت كل الصحف – في عناوينها الرئيسة – أنباء عملية التهجير وغطّت –بالتفصيل عبر مراسيها الذيـــن كـــانوا بين ظهرانينا في وادي حلفا –أحداث مغادرة الفوج الأول من المهجّرين .

وأفادني علي أحمد علي – الذي رافق القطار إلي خشم القربة – بأن قبيلة الرباطاب عن بكرة أبيها كانت في استقبال القطار بمحطة أبوحمد حيث كان الترحيب حاراً ومضيافاً . وجاء عباس التجاني – الضابط الإداري لمدينة بربر – إلي المحطة ليرحب بالقادمين الذين قُدمت لهم جميعاً أقداح الشاي من أوانٍ ضـــخمة (قـــيزانات) . ولسـتقبل المسافرون فيما بين أبوحمد وعطبرة بمظاهـــر المحبّة والتعاطف بكل المحطات . وفي عطبرة كان هناك حشد من الناس – جاء بعضهم من الدامر – ليكونوا في استقبال القطار . وتقاطر نوبيو عطـــبرة – تلقائـــياً – علي المحطة للترحيب بأبناء عمومتهم المتوجهين إلي وطنهم الجديد، إلا أنهم لسوء الحظ لم يمكنّوا من الاقتراب من القطار . وأقيم أحـــتفال كبير بالمحطة حضره العميد محمد المهدي حامد والسيد حسن قرين والســـيد محمـــد الفضل . وانبري الخطباء يعبّرون عن اهتمام كل المواطنين

بمصير أهالي حلفا جميعهم ويتمنون لهم السعادة في مقرهم الجديد . وقبل أن يتحرك القطار انهمرت الهدايا – من جوالات السكر ودقيق القمح والأرز وصفائح الجبن والزبد والزيت والحلوي (للأطفال)– التي جاد بها الأفراد وممثلو السلطات المحلية . وفي محطة (مسمار) جاء الهدندوة يتلقون القطار بأواني الشاي المترعة يطوفون بها علي الركاب بالبشر والترحاب .

وبالرغم من أن القطار قد وصل إلي محطة (هيا) في ساعة متأخرة من الليل وفي برد قارس ، إلا أن ذلك لم يمنع أعداداً كبيرة من الناس أن تكون بانتظاره . وكان من بين المستقبلين الشيخ (بيرق) أحد زعماء الهدندوة الذي جاء من مقره البعيد في صحبة رؤوس من قومه وهم يحملون جوالات الدقيق والسكر وصفائح الزبد والعسل . وألقي الشيخ (بيرق) كلمة مطولة بلهجة البجا – رغم معرفته الجيدة للعربية – أكّد فيها للنوبيين أن للهدندوة لهجتهم المستقلة مثلهم . وبعد أن رحب بهم ، أمنّ علي إدراك البجا العميق لحجم التضحية التي بذلوها لصالح الأمة جمعاء ، وطمأنهم علي احترام قومه لهم وحرصهم علي العيش معهم بسلام وحبور . ثم قدّم هديته التي قال عنها إنها زهيدة إلا أنه رجا قبولها باعتبارها عربوناً للصداقة . وحدثني (علي) بأن الجميع قد هزهم الشعور النبيل الذي أبداه أولئك الناس وأنه قد أثني علي خطبة الشيخ (بيرق) مؤكداً احترامهم وتقديرهم له ولقومه جميعاً .

وفي محطة (أروما) ، توافد الهدندوة من (تمنتاي وهداليا ومتاتيب وجرجر وتوقان وهمشكوريب) ، لاستقبال جيرانهم الجدد . وكان مثيراً أن تراهم بشعورهم الملبدة التي تنضح بالدهن وسيوفهم وخناجرهم وعصيّهم المتهدلة من أكتافهم . وجاء الناظر(محمد الأمين ترك) علي رأس زعماء

قبيلـته لاسـتقبال القطـار . وتجمـع كافة أهالي أروما من التجار والعمال والمزارعين والموظفين وتلاميذ وتلميذات المدارس في الفناء المقابل لرصيف المحطـة انـتظارا لوصـول القطار . وعندما دخل القطار المحطة –مروراً بمصـنع الكـرتون – أطلقت صافرة المصنع صفيراً عالياً تحية للركاب . ثم ماجت المحطة كلها بصخب عنيف .. النساء يوقعن علي (الدلوكة) ويغنين .. والهندندوة يضربون نحاس ناظرهم ويهتفون مرحبّين بالبجاوية (دبايوا .. دبايوا) بينما رفع آخرون لا فتات من القماش تحمل عبارات الترحيب . وفي حقيقة الأمر فإن الجميع كانوا يهتفون ويلوّحون بأيديهم . وألقي (على) كلمة شـكر طيـبة فـي الجمـوع . وقبل أن يغادر القطار امتلأت عرباته بهدايا المستقبلين .

وفـي كسـلا – وحال مغادرة القطار أروما – بدأت الكتل البشرية تتقاطر علي المحطة . وتوافد كل أهالي المدينة ليكونوا في استقبال القطار كما توافـد عـدد كبير من سكان حي الختمية وقري (البني عامر) المنتشرة علي ضـفة نهر القاش إلي جانب (الرشايدة) الرُحل الذين تصادف نزولهم بالقرب مـن مديـنة كسـلا . وعـندما وصل القطار ، كان الاستقبال إسطورياً. فقد تصـاعدت فـي الجو إيقاعات الدلوكة وغناء النساء وهتافات كل الذين أموا المحطـة مـن الناس . وقال (علي) – يصف المشهد – : (لقد هزتنا حرارة الاسـتقبال . فسكان كسلا كانوا علي الدوام ودودين ومتدفقين بالحنان . وعند زيارتـنا الأولـي لهـم فـي أبريل ١٩٦٠ طوقوا أعناقنا بعواطفهم وكرمهم الأصـيل.) .. وتتابعـت كلمـات التشجيع من الشخصيات القيادية إنابة عن مواطنـي المنطقة تعبيراً عن الترحيب بمواطنيهم الجدد وإعلاناً عن سرورهم

بمجـــيء أهالـــي حلفا للعيش إلي جوار مدينتهم، وليتقاسموا معهم جهود تنمية المديرية . وقد ردّ (عليٌ) علي كلماتهم بخطاب بليغ ثم تبعه الشيخ محمد عبده بحديــث جــرى حشــد فيه عبارات إنجليزية مكسّرة كانت مدعاة للإضحاك والارتــياح . وجمـــع سكان كسلا – خاصةً المزارعون – أكواماً مكدّسة من الجوّالات والسلال المليئة (بالقريب فروت) والليمون والموز وكميات مهولة من الخضروات من كل صنف بالإضافة إلي أنواع أخري من المؤن ، حملوها إلي عربات القطار . ولقد كان حجم الهدايا التي تدفقت علي المسافرين – علي مدي الرحلة – كبيراً للغاية بحيث أن القطار – عندما وصل إلي خشم القربة – كان محمّلاً بما يفوق حاجة المسافرين وبما يتعذر معه حمل المزيد . واتجه القطار من كسلا مباشرة إلي خشم القربة وعندما عبر القطار قنطرة البطانة ، لمـــح الـــركّاب نهر عطبرة .. وترك المشهد انطباعا – في نفوسهم – بضآلة الـــنهر مقارنـــاً بالنـــيل العريض الذي خلّفوه وراء ظهورهم، لكنهم استعجبوا لمـــنظر القطعان الهائلة لإبل (الشكرية) التي تجمّعت علي ضفتيْه تستقي في تلـــك الســـاعة من النهار • وعندما وصل القطار إلي خشم القربة ، كان في إستقباله عثمان حسين ومساعده(محمد محجوب حسب الله) والموظفون، حيث رحّـــبوا بالقادمين وصحبوهم إلي منطقة إعادة الإسكان التي إتجه إليها القطار فوق الخط الحديدي الجديد المتفرّع من القضيب الرئيس .

وتململـــل الـــركاب والقطار يسرع في إتجاه منطقة إعادة التوطين ، وتعلّقوا كلهم بنوافذ العربات وعيونهم مشوقة للاكتحال بلمحة أولي من وطنهم الجديـــد . وعـــندما كـــان القطار يسرع تجاه (محطة الشيخ عمر) ، حجبت الحواف العالية للفرع الشرقي للقناة– عن أنظارهم– مشهد القري . وحين عبر

القطار القنطرة ، إنكشف – فجأة – أمام أعينهم منظر وطنهم الجديد . في تلك اللحظة برزت الرؤوس من كل نوافذ القطار بعيون قلقة وقلوب نافذة الصبر . فعلي يمينهم – وعلي مقربة من سفح جبل المعيقل – ظهرت البيوت البيضاء لقرية قرص شرق (القرية رقم٣٣) التي شيدتها شركة (ترف) والتي ظهرت ملامحها جيداً أمام الخلفية الخضراء للمزرعة التجريبية . واستطاعوا أن يروا في مواجهتهم – مباشرة وعلي البعد – برج الإشارة ثم – علي مسافة أبعد – مبانـــي المحطـــة . وعلي يسارهم بما يبعد عن نصف المسافة إلي خط الأفق تـــلألأت مـــنازل قراهم البيضاء عبر خفقات ضوء السراب . وكانت المنطقة برُمستها قد شُقّت بقنوات وقُسّمت إلي مزارع وحُرثت تربتها إنتظاراً لتُفلح .. هـــنا كـــان الركّاب يستعدون لمغادرة القطار . فإذا بالفتيات يخلعن الجرجار ويرتدين الفساتين العادية (اللابس) التي تستر جسم المرأة بأواسط السودان . أمـــا اللاتــــي تقدمت بهن السن فقد تمسكن بزيهن النوبي . وقد تمنيت أن لو خرجن جميعهن من القطار بملابسهن التقليدية لتأكيد قوة الطابع الذي يميّزهن . ومـــا إن بلـــغ القطـــار برج الإشارة حتي أنفعل النوبيون النظّارة بالجموع الزاخـــرة وبـــالأمواج البشرية المتلاطمة التي ملأت المنطقة المحيطة بمباني المحطة وأدركوا ضخامة الاستقبال الذي كان ينتظرهم .

وبعـــد أن مـــرّ القطار ببرج الإشارة ، أخذ يبطئ بينما طفق السائق يطلـــق صـــافرات متقطّعة تحية للمستقبلين وهو يدخل المحطة . وكان جريد النخيل الذي زان مقدمة القطار ينطق بمدي إعزاز الركاب لشجرة نخيلهم التي منحتهم الحياة طوال وجودهم في وطنهم القديم .. وأخيراً وعندما أنهي القطار

رحلته التاريخية وتوقف بالمحطة ، أخذت إحدى الفرق الموسيقية الكسلاوية تعزف أنغامها الشجية .

وتجمعت الحشود من كل أنحاء المشروع للترحيب بهؤلاء القادمين الذين تواصلت أعمال إعادة التوطين من أجلهم سنين عديدة . وجاء العاملون في حقل البناء وفي مصلحة الري وفي وزارة الزراعة جميعاً بالشاحنات ووقف الوزراء والموظفون ينتظرون – جميعهم – علي الرصيف . وتتبع أهالي قرية خشم القربة القطار وانضموا إلي الحشد الذي بلغ حجمه المنتهي . وشوهد – علي البعد – في الطرف الشمالي آلاف من الناس علي أسطح الشاحنات والعربات الثقيلة يشكّلون أبراجاً وأعمده من الأجساد البشرية . وإلي الجنوب اعتلي آلاف الشكرية الإبل وأقاموا جداراً طويلاً سميكاً من لحم ودم ، وكان منظرهم بديعاً وهم يهزّون سيوفهم تبعاً لعاداتهم . وبرزت – في منتصف الحشد – لافتات الترحيب، ولاحت لوحات كتبت عليها عبارات التحية والسلام مثل:(حللتم أهلاً ونزلتم سهلاً .) و: (أهلاً بكم في وطنكم الجديد.) .

وتقدم إلي القطار اللواء / حسن بشير والوزراء وأعضاء لجنة إعادة التوطين وناظر الشكرية وطافوا علي الركاب محيين . ثم حُمل المرضي تحت إشراف وزير الصحة شخصياً إلي مستشفي صغير مؤقت مجهز بكفاءة تامة ، بينما نقل باقي المسافرين وأمتعتهم بقافلة من السيارات إلي قريتهم الجديدة .

وفي قرية فرص غرب الجديدة ، قام عثمان حسين ومساعدوه بإرشاد القادمين إلي منازلهم . ولم تكن هناك صعوبة في أن يتعرّف كل ساكن علي منزله إذ أن أسماء المالكين كانت مدوّنة علي الأبواب تصحبها عبارة (

أدخلوها بسلام آمنين) .. وكان إنطباع السكان الأولي -- عن مستوي المنازل -- مدعــاة لسـرور غامــر . وقــد عبّر العمدة صلاح وبعض أعيان فرص الآخرون -- عن ذلك الانطباع عندما جئتهم بآخر الأفواج المغادرة من سرّه -- بقولهم : (لم نكن نصدق -- أول الأمر -- أن هذه المنازل كانت ملكاً لنا . لقد شعرنا وكأننا موظفون يقطنون منازل حكومية .) .. لقد قالوا -- فيما بعد -- إنهم دخلوا كل غرفة وحدقوا في الجدران والسقوف والأرضيات ، ثم خرجوا يــنظرون إلـــي المنازل من الخارج . وكانوا سعداء للغاية بسماع صيحات الفــرح المــنطلقة من حناجر النساء في كل بيت . ووجدت كل أسرة أمتعتها محفوظـــة بأمان في منزلها إلي جانب (زير) ماء وزجاجة كيروسين وعلبة ثقــاب . كمــا وجدت في زاوية السور الخارجي حزمة من حطب الحريق . وبعد قليل من الوقت ساق العمال البيطريون البهائم إلي داخل القرية وسلّموها لأصحابها . ولم يكن (علي دنقلا) -- المقاول الذي بني القرية -- بأقل أريحيّة وتقًـــيٍّ من (تورنو) الكاثوليكيّة المذهب . فقد شيّد في منتصف القرية مسجداً ملحقاً به دكانين لبيع اللحم والخضار علي نفقته الخاصة وجعله وقفاً لأهاليها. وكان هذا العمل هدية سخيّة تقبّلها أهالي فرص بالشكر والعرفان . أما الشيخ محمــد عبده -- شخصياً -- فقد سرّه أن يجد مسجداً يمارس فيه مهام الإمامة . وجلــب المهندسون الاستشاريون كميات كبيرة من الفاكهة الطازجة من كسلا وقدّموهــا مجانـــاً إلي الضيوف القادمين . وذبح أعيان القبائل المجاورة عدداً كبــيراً من الثيران والكباش احتفاء بأهالي القرية وطَعِم الناس جميعاً في ذلك اليوم نوبيون وغير نوبيين .

وازدانت القرية – ذاتها – بالأعلام والرايات وأنيرت الساحة الرئيسة بالثريات الملوّنة والكاشفات التي استمدت إضاءتها من المولّد الكهربائي لعلي دنقلا .

وفـــي المســـاء بدأ الإحتفال الرسمي وملأت الجموع ميادين القرية وشوارعها واختلطت ضربات الدلوكة ونغمات الموسيقي بغناء النساء . وقاد الشيخ محمد حمد أبوسن (ناظرالشكرية) قبيلته للمشاركة في الاحتفال .

واعـــتلى اللواء عروة منصة الخطابة وألقي خطاباً مطوّلاً وشاملاً ، رحّب فيه بأهالي حلفا في وطنهم الجديد وأكد لهم أن كل الترتيبات قد اكتملت لإقامـــتهم الفورية ولإنجاح مهمتهم كمزارعين في المشروع الجديد. وتطَرق إلي كل مظاهر الحياة الجديدة وشجّعهم علي العمل الدؤوب واستثمار ما أتيح لهـــم مـــن الفُرص . وتلاه السيد سليمان حسين وزير المواصلات – النوبي الأصـــل – فأكد لهم أن الحكومة ستواصل رعايتها الخاصة لهم حتي يعتادوا علـــي نمـــط الحـــياة الجديدة . ثم ألقي اللواء الطاهر عبد الرحمن المقبول – الحـــاكم العســـكري لمديرية كســـلا – وعثمان حسين كلمتي ترحيب وتبعهم ناظر الشكرية الذي تحدث حديثاً طيباً رحبَ فيه بالقادمين ومؤكداً أن الشكرية قبـــيلة تتســـم بالكرم والشرف وأن تاريخهم يزخر بدلائل الوفاء لجيرتهم . ثم رحّـــب بأهالي حلفا في موطنهم الجديد قائلاً إن قبيلة الشكرية قاطبة – رجالاً ومـــالاً – تقـــف رهن إشارتهم . وقدّم هدية شخصية قوامها خمسة وعشرون بقـــرة حلوبـــاً وقطـــيعاً يتكون من خمسين كبشاً لضيوفه الجُدد . وقام أعيان الشكرية ورجال القبائل التي تنتمي إليهم بتقديم هدية من مائتي ثور . وتبرع الشريف إبراهيم الهندي بثلاثة من الإبل احتفاء شخصياً منه بالقادمين .

وردّ (علـــي أحمد علي) بحديث مفعم بالعاطفة قائلاً (إن الاستقبالات الحــارة والحانــية التــي تلقيــناها علي طول الطريق من فرص والترحيب والحمــاس الــذي لمسناه الآن عند وصولنا ، أنســانا أحزاننا بفقد الوطن) . وأضــاف: (إن أهالي حلفا قد ضحوا بأرضهم من أجل وطنهم الكبير . وهم حينما يفعلون ذلك لا يطلبون دَيْناً من أحد من مواطنيهم ولا يشعرون أن أحداً في السودان ينبغي أن يكون مديناً لهم بالشكر والامتنان . فقد أدوا واجبهم في ســبيل وطــنهم برضـــاً ونكــران ذات ، ولا زالوا مستعدّين لتقديم مزيد من التضحيات إذا اقتضى الأمر تقديم المزيد منها مستقبلاً .).

وبعد أن انقضى الاحتفال الرسمي ، بدأ برنامج ترفيهي من الموسيقي والغــناء أدتــه فرقة غنائية موسيقية أوفدتها خصيصاً وزارة الإعلام لإحياء المناســبة ، وأمــتد البرنامج إلي ساعة متأخرة من الليل . وفي اليوم التالي ، تســلّم عمدة سرّد من زميله العمدة صلاح – عمدة فرص – البرقية التالية من خشم القربة :

(لقد حللنا بالجنة .. أسرعوا بالمجيء .) .

وأثارت أخبار هذه الاستقبالات – التي تناولتها الصحف وأستمع إليها الــناس عــبر برنامج إذاعي خاص بث مباشرة من قرية (فرص الجديدة) – مشــاعر عميقة في نفوس الناس الذين تأثرت منطقتهم بالغرق والذين تحققوا مــن أن قبائل السودان علي تباينها وتنوعها ، تجمعها وشيجة الوحدة وتقرّبها إلــي بعضــها مشــاعر الحــب الفياضة . ولقد لمست أنا شخصياً أن الروح المعنوية لهؤلاء القوم كانت عالية وأن أحزانهم قد تلاشت.

وبينما كانت كل هذه الاستقبالات الطيبة تجري في خشم القربة ، انشغلنا نحن بإرسال أمتعة الفوج الثاني من فرص . وعندما وصلت برقية العمدة صلاح إلى سره ، كان قطار البضاعة يدخل – بالفعل – محطة (الشيخ عمر) . وفي الثامن من يناير غادر فوج (فرص غرب) الأخير إلى الوطن الجديد كسابقه وودع بنفس المشاعر الدافئة واستقبل في الطريق مثلما استقبل الفوج الفائت . وقد صحبه (نديم) هذا الفوج إلى خشم القربة وحينها كان حسن طه ولجنته قد قاموا بتوزيع منازل قرية (سرّه غرب الجديده) تبعاً للخريطة قبل أن تصلهم القوائم في معيّة نديم ، وفي ذات الوقت كان معتمد التعويضات قد فرغ – تقريباً – من دفع مستحقات أهالي سرّه . واتجه عمال السكة حديد إلى سرّه ، وبدأوا في إخلاء أمتعة الفوج الثالث . وقد لاحظت أن أولئك العمال قد اكتسبوا خبرة مكنتهم من أداء عملهم بسرعة أكبر .

وعندما كنت أمارس مسئولياتي بسرّه رافقت صديقين إلى (فرص) لإلقاء نظرة على ما صارت إليه بعد الإخلاء . فتجولنا بأزقتها ودخلنا بعض المنازل . فوجدنا أن الصحاف الخزفية التي تزين البوابات قد نزعت ولم يبق منها إلا أثرها الذي انطبع على الجدران الطينية المحيطة بتلك البوابات . وعمّ السكون المطبق القرية إلا من الكلاب التي تركها أصحابها من خلفهم. وظهرت آثار الضباع حول القرية وفي داخل غرف المنازل مما يدل على أن مجموعة منها قد تسللت إلى هناك في الليلة الفائتة . وبدت القرية مختلفة تماماً عما كانت عليه (فرص القديمة) التي عرفتها فيما مضى ،فقد ظهر عليها الحزن وبدا جوّها مخيفاً لأنني أذكر حالتها قبل التهجير . ونظرت يمنة ويساراً إلى الأماكن التي كنت ألتقي فيها بالأهالي وأتجاذب معهم أطراف

الحديث ، وإلى المنازل التي كانت يوماً ما مأهولة بأناس ودودين وكرماء كم دعونــي إلى دخولها . وساقتني ذكرياتي إلى الاستغراق في خضم عميق من الرؤى جعلتني أتصور عياناً أشباحهم وأشكالهم المتميزة .

وصــعب علينـا ان نطيل الوقوف في تلك القرية المهجورة ، وعندما ركبـنا العربة تجمعت الكلاب وأخذت تجري من حولنا. ولم يظهر على تلك الكـلاب الجـوع لأنها – كما يبدو – تناولت وجبة مشبعة من فضلات ذبيح الدواجــن في اليوم السابق . وعندما غادرنا المكان لاحقنا بعضها على طول الطـريق إلى سرّه إحساسا منها بما وجدته فينا من مسحة إنسانية أرادت أن تتشـبّث بهـا . وعـندما عـدت إلى مدينة حلفا أمرت الشرطة بالذهاب إلى (قـرص) وإطــلاق الرصاص على ما تبقى من تلك الكلاب رأفة بها من أن تجن جوعاً.

وغــادر الفــوج الثالث من المهجّرين – بسلام – من سرّه إلى خشم القــربة بنفس المشاعر الحنونة من آلهم القاطنين على الضفة الشرقية وبذات الاســتقبالات الــودودة في كل المحطات الواقعة على الطريق . وفي المحطة (رقــم ١٠) ، عــند نهاية صحراء العتمور ، أجاء المخاض إحدى الحوامل فولدت ذكراً قبل أن يصل القطار إلى أبو حمد . وجاءت عملية الولادة –على يــدي القابلة – يسيرة وبطفل معافى كان أول من ولد أثناء الرحلة ليزيد عدد الــركاب واحداً . ولتخليد المناسبة أطلق عليه والده – جمال صالح الشيخ – اسم :(حمد) .

وبمــا أن الفوج الرابع كان متوقعاً له أن يكون الأخير قبل حلول شهر رمضــان ، فقــد قررت أن أصاحبه حتى بلوغه قريته الجديدة لأرى بعيني

أحـــوال أهالـــي فرص هناك . وقد صحب هذا الفوج أيضا عمدة سرّه الذي رفـــض أن يســـافر مع الفوج الأول وآثر أن يبقى ليطمئن على مغادرة آخر المهجرين القرية بسلام .

وفي يوم الرحيل – ١٣ يناير – تلقيت مكالمة هاتفية من نقطة الشرطة بفرص تفيد بوصول شخص من(بلانه) – على الحدود المصرية – يقول بأنه وثلاثين شخصاً آخرين قد جاءوا من القاهرة بغرض الالتحاق بأسرهم قبل أن تغادر إلى (فرص الجديدة) . ونسبة لعدم وجود وسيلة انتقال تصلهم بالفوج ، فقـد التمســوا منـــي اتخاذ ما يلزم لترحيلهم إلى سرّه لإدراك القطار الأخير المغـــادر إلـــى قريتهم الجديدة بخشم القربة . ولأنهم لم يكونوا يحملون معهم أمـــتعة ســـوى حقائـــب صغيرة وبعض اللفافات ، فقد بعثت إليهم بالقوارب الـــبخارية للسكة حديد والشرطة لتجئ بهم قبل أن يتحرك القطار . ولحسن الحـــظ فقـــد وصـــلوا في الوقت المناسب ، وأخبرني أحد البحّارة أن هؤلاء الأشـــخاص – عـــند مرورهم بقريتهم – أطالوا النظر إليها بأسى ، ثم أخذوا يلعـــنون كَـــلاً من الرئيس عبد الناصر والرئيس عبود على ما سبباه لهم من أذى.

وفـــي الساعة الرابعة مساءً بدأ إجلاء الركاب من القرية إلى القطار ، وقـــد كـــان العدد هذه المرة أكبر من سابقه ، فإذا أضيف إليه أبناء (فرص) القادميـــن من مصـــر – والذين وصلوا في ذلك اليوم – يكون القطار قد امتلأ تماماً . وقد التمس مني عكاشة صالحين وقلة من أهالي قرى أخرى ، السماح لهـــم بمـــرافقة الفـــوج وزيارة رفاقهم (بفرص شرق الجديدة) بخشم القربة ، فوافقت على طلبهم مما أسعدهم أن يكونوا – معنا – من المسافرين .

وفـــي المســـاعة السادسة والدقيقة الثلاثين مساءً -- أي بعد الغروب – غـــادر القطار محطة (سرّه شرق) وكان في وداعه أهالي سرّة شرق وأهالي ودبيره. وعندما مر القطار بدبيره جنوب وأشكيت ، اصطف الأهالي قُبالة خط السكة حديد وهم يهزون مصابيح الزيت المضيئة ويرفعون أصواتهم بتحية الوداع : (عديلة .. آفيالوقو .. هير أوقو ،) وغادر القطار مدينة وادي حلفا فـــي الســـاعة الثامنة مساءً ، وعندما وصل عطبرة استقبلته جموع كبيرة من الـــناس . وأصــرت جماعة النوبيين هناك – بقلب رجل واحد – على مقابلة أهلهـــا ، فســـمح لها بذلك وقضت وقتاً طويلاً داخل حافلات القطار . كما أن العميد محمد المهدي حامد والسيد حسن قرين والسيد محمد الفضل والسيد عبد الرحمن محجـــوب وقائد الشرطة ، كانوا جميعاً على رصيف المستقبلين . وتحدثت معهم طويلاً حول كل جوانب عملية التهجير ، ولم أنس أن أنقل لهم ثناء الأهالي على الاستقبال الذي وجدته الأفواج السابقة وما تركته في نفوسهم مـــن أثـــر طيب . وشكرت كذلك محمد الفضل على التجهيزات الخاصة التي وفـــرها علـــى قطـــارات التهجـــير وعلـــى جهد عماله الجهيد تحت إشراف (الدرديـــري) . وقبل أن يغادر القطار عطبرة ، تلقى الركاب هدايا مقدرة من المستقبلين .

وفي محطة (هيا) ، جاء الشيخ (بيرق) – للمرة الرابعة – في أواخر اللـــيل لاستقبال القطار ، وألقى كلمته الطيبة وقدم هداياه الكريمة . فرد عليه عكاشـــة صـــالحين بحديث معبّر قال فيه إنهم ظلوا يتابعون – بكل التقدير – المشاق التي يتكبّدها الشيخ وقومه بالمجيء من أصقاع بعيدة لمقابلة قطارات التهجـــير ، وإنهـــم يعتزون بكرمه الأصيل ومشاعره الفيّاضة تجاه مهجّري

وادي حلفا . وأكد له أن الاستقبال الحافل الذي أظهره أهالي مديرية كسلا كان ضماناً على ما ينتظر العلاقات بين الطرفين من مستقبل مشرق . وفي(أروما) رأيت المحطة تموج بالهندوة وبأهالي المدينة ، يقودهم الناظر (ترك) وأعيان قبيلته . وقاد الضابط التنفيذي – أبو جبر الحاج أجبر – أعضاء المجلس البلدي بينما تقاطر على المحطة كل التجار والعمال والموظفين. وبعد الاستماع إلى خطابـــات عديدة ، ألقى عكاشة كلمة شكر بليغة ،ثم حملت هدايا من جوالات وصفائح الزاد إلى القطار مثلما حدث في كسلا .

واســتقبل عثمان ومحمد محجوب حسب الله القطار لدى وصوله إلى خشم القربة. وفي الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين من يوم ١٥ مارس وصـــل القطـــار إلـــى المحطة القريبة من قرية سرّه . ونصبت خيمة واسعة بالمحطة لإنزال القادمين وقدمت لهم المرطبات جميعاً . وحضر إلى المحطة كـــل أهالي فرص كما حضر أهالي سرّه الذين انتظموا في الفوج الأول وذلك لاســتقبال أقاربهم . وعندما رآني الشيخ محمد عبده – الذي غمره السرور – خاطبنـــي بالإنجليزية (بما نصه بالعربية) قائلاً : " أهلاً .. كيف حالك ؟ " وتبادل معي العمدة النشط صلاح حديثاً طويلاً بالمحطة عبّر فيه عن شكره لما بذلناه من أجل تأمين رحلتهم وأخطرني بأن الجميع كانوا شفوقين وكرماء بهم منذ وصولهم . وبعد أن تم نقل المرضى إلى المستشفى حُمل الركاب بالسيارة إلى قريتهم وأدخلوا مساكنهم الجديدة .

وفـــي المســـاء ذهبت إلى قرية فرص لألتقي بأهلها في شوق متبادل وكأننا افترقنا – عن بعضنا – زماناً طويلاً ، وقد لمست التغيير الكبير الذي اعـــترى أحوالهـــم إلى درجة أن أياً منا لم يكن ليصدق أن ما حدث يمكن أن

يصير في فترة قصيرة لا تتعدى العشرة أيام . واستقبلوني بحفاوة وأصر كل واحد منهم على أن أدخل بيته ضيفاً عليه . وفي نهاية الأمر دخلت أغلب المنازل وقد أسعدني أن وجدت القوم في سرور وحبور . وكان الشيخ محمد عبده فخوراً بمسجده فأخذني لمشاهدته وهناك علّق مازحاً بأنه – وهو خريج الأزهر وبطل عملية التهجير – يتوقع أن يعينه الرئيس عبود وزيراً للأوقاف. وبعد أن قضيت وقتاً طيباً مع أهالي فرص ، ذهبت إلى سرّه فوجدت الناس – كذلك – في روح معنوية عالية لكنهم كانوا منشغلين بوصول القادمين الجدد. وذهبت كل نساء فرص – إلى هناك – لمساعدة صديقاتهن في فض الأمتعة وترتيب منازلهن . وجئتهن بكميات كبيرة من الطعام المطبوخ الشهي الذي يتفوق على ذلك الذي يقدمه مكتب التوطين إذ أن الأول أعد على الطريقة النوبية .

وأخبرني العمدة صلاح – الذي صحبني في زيارتي لسرّه – أنهم استعجبوا – عند دخولهم قريتهم لرؤية قطعان من الحمير الهاملة تسرح في أرض المشروع . لكنهم علموا مؤخراً أن اللواء طلعت فريد قد جلبها – إلى هذه المنطقة – عندما كان ضابطاً صغيراً إبان الحرب العالمية الثانية ، حينها كانت قوة دفاع السودان تستعد لشن هجومها لاستعادة مدينة كسلا من الطليان في يناير ١٩٤١م . فجاء النقيب فريد بقطعان من الحمير ليستخدمها الجيش في عملية إزالة الألغام من مسار الفرق العسكرية المتقدمة . وحال استعادة المدينة ، تم تسريح القطعان في منطقة خشم القربة لترعى في سهول البطانة وتستقي من مياه نهر عطبرة ، وما لبثت أن تضاعف عددها . قال العمدة

صلاح (بعد الوقوف على هذه الحقيقة ، أخذ كل منا حماراً إلى بيته لاستخدامه في حمل حاجيات مزرعته) .

وبعد أن قمت بزيارة (سرّه) رافقت عثمان حسين في جولة على القرى الأخـــرى والمديـــنة فلاحظت أن سرعة إنجاز المباني تفاوتت من قرية إلى أخرى . فبعضها أوشك أن يكتمل بينما لم تتجاوز نسبة تشييد بعضها ٥٠% . وقابلـــت عـــبد الله شداد وهنأته على إنجاز مباني القريتين الأوليين في الوقت المحـــدد رغماً عن أنها – تبعاً لشروط العقد – كان ينبغي أن تنجز منذ وقت طويل . فأخبرني بأن المواعيد التي ضُمّنت في العقود فرضتها الحكومة دون تفاكـــر مسبق مع المقاولين . وأضاف قائلاً إن كلاً من الحكومة والمهندسين الاستشـــاريين كانوا يدركون تماماً أنّ المواعيد التي تم تحديدها كانت مبكّرة جـــداً ، لكـــنهم أصرّوا عليها للضغط على المقاولين لإتمام العمل بأعجل ما يمكن. ثم قال: " الحقيقة إن معظم المقاولين أنجزوا ما لم يكن في حسباننا ، ولا بـــد لـــي مـــن أن أخـــبرك بأنهم جميعاً تقريباً قد استوردوا آلات تصنيع المكعـــبات الأسمنتية جواً من إيطاليا وكانوا يعملون على مدار الساعة . ومن خبرتـــنا الذاتـــية فـــإن سرعة الإنجاز كانت أكثر من مرضية ونؤكد لك أن جماعـــتك سيحلّون بسلام في قراهم قبل أن يدركهم فيضان بحيرة السد العالي ". وقد أراحتني هذه الكلمات لأنني رأيت ما يؤكدها من جهود المقاولين .

وعـــند عودتنا ، جلست وعثمان لمراجعة برنامج التهجير ليتماشى مع المواعـــيد المـــتوقعة لإكمال مباني القرى بخشم القربة . وكان لي – أيضاً – حديـــث مطـــول مع علاّم الذي أمضى وقتاً طويلاً بخشم القربة يشرف على وصول وإعادة توطين الأفواج الأربعة للمهجّرين .. وتدارسنا الموقف في كل

من وادي حلفا ومنطقة إعادة التوطين . وفي اليوم التالي (أي ١٦ يناير) حلّ شهر رمضان وأصبح الجميع صائمين . فاستقليتُ سيارة (لاند روفر) إلى ود مدني لزيارة والدي الذي لم أره منذ سنوات والذي كان يكاتبني على الدوام وأنا بوادي حلفا حاثاً إياي لأعمل كل ما في وسعي لمساعدة النوبيين حتى يتجاوزوا محنتهم . فقد عمل بوادي حلفا خلال عشرينيات القرن العشرين عندما كان موظفاً حكومياً ، وكانت فكرته عن النوبيين إيجابية . وبعد أن قضيت نصف يوم بود مدني أسرعت بالعودة إلى وادي حلفا عن طريق الخرطوم .

قضينا رمضاناً شديد البرودة تميّز بطقس قارس وجاف هبطت فيه درجة الحرارة – عند منتصف الليل – إلى نقطة الصفر (متزامناً مع الشهر القبطي : طوبة.) ويقول النجّارون النوبيون إن " المسامير لا تلتوي أبداً في شهر طوبة ، لكنها تتكسر. " ولا أدري إن كان ذلك صحيحاً أم خطأ ، لكن الطقس كان شديد البرودة بحيث كان يغلب علينا الجوع ويعتري جلودنا الجفاف والخشونة . وبحلول العيد هزلت أجسام الجميع وخفّ وزنها . وخلال شهر رمضان أعدتُ ترتيب البرنامج النهائي المراجَع وطبعته .

وبعد أن مضت أفراح العيد ، واصلنا برنامج التهجير . ففي السادس من شهر مارس تم شحن أمتعة الفوج الأول من أهالي (فرص شرق) بسهولة نظراً لأن هذه القرية تقع على خط السكة حديد مما وفّر علينا عملية نقل الأمتعة إلى الباخرة ثم عبور النيل ، فضلاً عن أن هذه القرية تمتد على سهل منبسط مكننا من استخدام الشاحنات الثقيلة . وعند منتصف النهار كان القطار

قــد شُــحن بالأمتعة والحيوانات ثم غادر إلى خشم القربة في الساعة الواحدة ظهراً .

وفــي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ذهبتُ إلى فرص شرق لأفاجــأ بخلــو المحطة والقرية من الناس . وعندما استفسرت عن أين ذهب السكان ؟ أجابني أحد عمال السكة حديد بأنهم جميعاً قد خرجوا إلى المقابر . فذهبت بدوري إلى هناك ، وعندما وصلت إلى قمة مرتفع من الأرض يفصل القــرية عــن المقابر ، رأيت مشهداً غير مألوف . فقد كان الأهالي يحملون جــريد النخل ويضعونه على شواهد القبور بينما كانت حلقة الذكر تدور حول المقبرة . وزينت قبة الفكي عثمان – وهو أحد الصالحين الذين عرفتهم القرية – بالرايات الخضراء لطائفة الختمية وقد أحاط بها الناس وهم يقرأون قصائد المولــد العثماني[1] .. كان المشهد مؤثراً للغاية . وبعد أن قضى سكان القرية زهاء الساعتين وهم يترحّمون على الأموات ، عادوا إلى القطار وهم يرفعون راياتهم العريضة الخضراء .

وعــندما كـــان المــرحوم العمدة محمد الأمين يبثني انطباعه وتقديره للترتيــبات الجــيدة التــي أعددناها لرحيلهم ، هزّنا – فجأة – مشهد عاطفيّ عميق. فقد رأيت شابة في العشرين من عمرها تحتضن سيدة متقدمة في السن والاثنتان تضمان بعضهما بعاطفة جيّاشة بينما انهمرت من مآقيهما الدموع . وكـــان أنينهما وتوجُّعهما يمزّق نياط القلوب . وعندما سألت العمدة عن الخبر أجابنـــي أنهما أمّ وابنتها حكم الزمان عليهما بالفراق. فقد كانت البنت تعيش مع زوجها في قرية (أدندان) بالقرب من (فرص شرق) على الحدود المصرية

---

[1] سيرة ميلاد الرسول (ص) التي نظمها شعراً السيد محمد عثمان الميرغني مؤسس الطريقة الختمية .

. وبما أنهما سيرحلان إلى (كوم أمبو) قرب أسوان ، فإن البنت جاءت لوداع أبيها وأمها اللذين سيغادران إلى خشم القربة .. كان المشهد محزناً لأنهم قد لا يـــرون بعضـــهم إطلاقـــاً مرة أخرى . وبلغ بي التأثر منتهاه فانتحيت جانباً لأكفكف دموعي . وكان ذلك أحد المشاهد المفجعة في مأساة (عملية التهجير)

وفـــي الســـاعة الحادية عشرة صباحاً غادر القطار بالفوج الأول من أهالي (فرص شرق) ،وكانت الأعلام الخضراء لطائفة الختمية التي تخفق من نوافذ الحافلات تضفي على القطار مسحة درامية خالصة .

كان يتعيّن أن تتأخر مغادرة الفوج الثاني من أهالي (فرص شرق) إلى حين اكتمال مساكنهم بخشم القربة . ولعل القارئ يذكر أن هذه القرية قد أوكل تشييدها لشركة (ترف) والتي تركت بعض المنازل – عندما انسحبت مؤخراً – دون أســوار ودون مراحيض . فأوكلت المهمة إلى وزارة الأشغال . وقد فهمـــت مـــن عثمان أن المنازل ستكون جاهزة لإيواء الفوج الثاني من أهالي فرص خلال عشرة أيام .ولهذا السبب قمت بوضع قرية (الحصا) في برنامج الترحيل المطبوع بحيث تأتي عقب الفوج الأول لفرص شرق . وعندما ذهب عمـــال السكة حديد إلى قرية (الحصا) لجمع الأمتعة توطئة لترحيلها ، رفض أهالـــي القـــرية تسليم أمتعتهم بحجة أنهم بصدد التقدم بمذكرة لي – في نفس اليوم – تحوي أسباباً معينة ، وأعلنوا أنهم – في حالة عدم الاستجابة لمطالبهم – ســيقلعون عن الرحيل . وبما أننا قد بدأنا بالفعل إخلاء الفوج الأول لأهالي قـــرية فـــرص شـــرق ، فقد راجت شائعات تتحدث عن تعثر الوضع بقرية

(الحصا) وعن أن أحداثاً مريبة قد وقعت بهدف عرقلة عملية التهجير . غير أن خلفيات هذا الوضع تتلخص فيما يلي :

وصــل إلـــى علمي – في منتصف سبتمبر ١٩٦٣م – أن الأهالي قد بـــدأوا يحضــرون أراضيهم الزراعية لفلاحة الموسم الشتوي . وبالقطع فإن الــتعديلات المســتمرة في مواعيد الرحيل والقصور في إنجاز المباني بخشم القربة ، كانت سبباً وراء ميلهم للاعتقاد بأن عملية التهجير لن تبدأ قبل شهر أبريل . لذلك فقد لفت نظر لجنة التوطين إلى هذه الظاهرة وأشرت إلى آثارها غـــير المســتحبة أثناء سير عملية تهجير الأهالي، إذا سمح لتلك التحضيرات الزراعــية بالاستمرار . فسيمتنع الأهالي عن الذهاب إلى خشم القربة قبل أن يجمعــوا حصادهم اليانع . وفي خاتمة المطاف طلبت قراراً حاسماً يمنع كافة الأهالــي مــن بــذر محاصيل الدورة الشتوية. ولأن اللجنة كانت تحس بأن اقتراحي يحوي – ضمناً – التزاما من المسئولين بأستمرار البرنامج بالإضافة إلــى احتمال كونهم غير واثقين من مقدرة المقاولين بالالتزام بمواعيد إكمال مبانـــي القـــرى ، فقد وجهتني بنصح الأهالي – من واقع أن عملية التهجير ستســتأنف خلال الشتاء – بأن ينصرفوا عن إدخال أنفسهم في فلاحة للموسم الشــتوي . وأوضحت لهم بأن من لا يلتفت إلى هذه النصيحة عليه أن يتحقق من مخاطر احتمال أن يغادر المنطقة قبل موسم الحصاد . ويلاحظ القارئ – بالــرغم من الصياغة الهشة لهذه النصيحة الرسمية – أن الحكومة ستكون قد تورطت بالتزام لا فكاك منه إذا تأخرت مسيرة عملية التهجير حتى أبريل... هذا إذا انصاع الأهالي للنصيحة . وقد شعرت – شخصياً – بأن منع الأهالي مــنعاً باتــاً مـــن التحضيرات الزراعية سيكون أفضل من جعل الباب نصف

مـــوارب لـــيدخل مـــنه صنّاع المتاعب كما يحدث عادة . وعلى كل حال – وإحساســاً مني بأني أحمل مسئولياتي للآخرين -- فقد أصدرت تنبيهاً مكتوباً بنشرتنا اليومية في ذلك الخصوص. وكانت ردة فعل الأهالي إيجابية ، حيث تخلّــت كل القرى عن زراعة الدورة الشتوية فيما عدا (الحصـا) و (عنقش) و (دغيم) .

وهــناك نقطـــة ثانــية تتعلق بنوع تسجيل الأراضي وحرية تصرف النوبيين في أراضي الملك الحر بخشم القربة . فقد وعد الرئيس عبود – إبان زيارتـــه التاريخية لوادي حلفا – بأن يتم تسجيل أراضي الملك الحر الخاصة بأهالـــي المناطق المتأثرة بالغرق كما هي عند حلولهم بالوطن الجديد . ومن جهـــتهم فـــإن النوبيين أنفسهم لم يطلبوا تعويضاً عن أراضيهم ، لكنهم كانوا حريصـــين على إثبات ملكيتها الحرة حتى يؤكدوا حقهم في الحصول على ما يســـاويها في خشم القربة . ورغم أن لجنة إعادة التوطين قد وافقت على هذه القاعدة من حيث المبدأ ، إلا أنها قررت – لسبب ما – ضم الأراضي المسجلة ملكـــاً حراً إلى منطقة المشروع بإيجار شهري قدره أربعة شلنات للفدان كما هـــو الحال في مشروع الجزيرة . لكن النوبيين لم يوافقوا على هذه الترتيبات التـــي تجعل أملاكهم الحرة تذوب في أراضي المشروع بهذا الإيجار البخس دون أن يكـــون لهـــم الحق في حيازتها واستغلالها في حالة رفضهم للاتفاقية الزراعية بين المزارع وإدارة المشروع . ويبدو أن كبار ملاك الأراضي – علـــى وجـــه الخصـــوص – لن يرضوا بحواشة واحدة في مقابل أراضيهم الواســـعة . يضـــاف إلـــى ذلك أن النوبيين أحسوا بأن القرار لا يتماشى مع طموحاتهم ولا يتوافق مع روح ما وعد به الرئيس عبود. من هنا عم الشعور

بالضيم والتشكّي وبرز سؤال جماعي وجه لكل المسئولين الكبار الذين زاروا حلفا وهو : " عملتولنا أيه في الأراضي الملك ؟ "

وعـــندما زار عـــلاّم وادي حلفا لأول مرة ، تناقشنا طويلاً حول هذا الموضـــوع وشعرت بأنه كان متعاطفاً تماماً مع وجهة نظر النوبيين . ووعد بأنه سيرفع الأمر إلى اللجنة في أول سانحة وسيحاول البحث عن حل.

وعلى القارئ أن يضع في حسبانه أن اللجنة قد قررت منح كل أسرة بستاناً مساحته فدان واحد لانتاج الفواكه والخضروات في مواقع حول القرى . وقـــد بلغـــت المساحة الكلية لهذه البساتين ٨٠٠٠ فدان تم تجنيبها من أرض المشروع .

وإذا مـــا عدنـــا إلى (الحصا) فإننا نجد أن أهلها لا يملكون إلا أراض محـــدودة جداً على نظام الملك الحر مما يجعل إصرارهم على إعادة تسجيلها بخشم القربة كتعويض أمراً لا يرقى إلى درجة المطالبة الجدية. لكن إحساسهم بالغبن كانت تؤججه مقاومتهم لفكرة التنازل عن محصول قمحهم الذي أوشك علـــى النضـــج . ونســـبة لعلمهـــم بضعف حجتهم في هذا المقام ، فقد بدأوا يخلطونها ببعض الدعاوى من أجل إحداث تأخير يمكنهم من جمع محصولهم قـبل مغادرة القرية نهائياً . وقد شجع هذا السلوك ملاّك الأراضي المتذمرين للانضمام إلى أهالي (الحصا) وتضمين دعاواهم في مذكرة التظلم التي تقدموا بهـــا . ومـــن جهة أخرى فقد شجعت التطورات الجديدة في الموقف العناصر المناهضـــة لخـــيار خشـــم القـــربة ، فحاولوا مؤازرة أهالي الحصا لكن تلك العناصـــر قوبلـــت منهم بجفاء ، إذ قالوا لهم إنهم لا يعارضون التهجير وإن اختلافهم مع الحكومة لا يرمى إلا إلى تحسين الأوضاع في الوطن الجديد.

وفي الثامن من مارس ، جاءني وفد من (الحصا) برئاسة محي الدين الشيخ والمرحوم عثمان أبو الريش.وسلموني مذكرة تحوي المطالب الخمسة الآتية : أولاً : تأخير تهجير قريتهم إلى حين فراغهم من حصاد الموسم الشتوي . ثانياً : إعطاء ضمان لصلاحية المباني الجديدة في خشم القربة لمدة خمسة عشر عاماً تكون الحكومة – خلالها – ملزمة بصيانتها وترميم ما يعتريها من تصدع . ثالثاً : ألا تكون أراضي الملك الحر جزءً من الأراضي الزراعية للمشروع وأن يتم تسجيلها قانوناً خارج حدوده . رابعا: أن تعطي الحكومة –كذلك– ضماناً بأن ما تبقى من التعويض النقدي محفوظ في أيد أمينة وأن يدفع لهم ساعة وصولهم إلى وطنهم الجديد . وأخيراً : أن تمنح لهم المزارع (الحواشات) بعقد ايجار مدته ٩٩ عاماً .

وأثناء نقاشي الأول معهم تبين لي عنادهم واستحالة إقناعهم بما يغير وجهة نظرهم . ولذلك وعدتهم بدراسة مذكرتهم ومناقشتها مع الأهالي عند زيارتي (للحصا) والتي اعتزمت أن أقوم بها في اليوم التالي . وعند مغادرتهم مكتبي هاتفت علام وأطلعته على الوضع قائلاً إنني سأحاول إقناعهم بالرحيل إلى خشم القربة طبقاً للبرنامج ، رغماً عن أنني لم أكن متفائلاً بإقناعهم . فوافقني على رأيي وطلب مني الأتصال به عند عودتي من القرية.

لقد شرحت آنفاً الأسباب التي كانت وراء المطلبين الأول والثالث . أما المطلب الثاني فقد عكس شكوكهم في متانة المباني بخشم القربة إذ أن العجلة التي كانت تصاحب برنامج التشييد هي سبب المخاوف التي انتابتهم . وأما المطلب الرابع فقد كان مجرد صدى لشائعات راجت – في ذلك الوقت – حول أن الوضع الاقتصادي للبلاد لم يكن مطمئناً . وفيما بعد وعندما تسلموا

تعويضـــاتهم النقدية بخشم القربة ، تبين لهم أن الشائعة لم يكن لها أساس من الصـــحة . وأما المطلب الخامس فقد كان فكرة حمقاء لا سابقة لها في تاريخ إدارة الأراضي في بالسودان . وبناء على ذلك جهّزت إجاباتي .

وفـــي الـــيوم التالي – يصحبني نديم ومحمد فضل الله – ذهبت إلى (الحصـــا) .. كانت أطراف القرية مغطاة بغلالة زاهية من خضرة الحقول . وعلـــى وجه الخصوص فقد كانت سنابل القمح تبشر بإنتاج وفير مما جعلنا – ثلاثتنا – نشعر بالتعاطف مع المطلب الأول من مطالب أهالي (الحصا) لأننا لـــو كنا في مكانهم لما تصرفنا – بالتأكيد – بغير الطريقة التي تصرفوا بها . وعند وصولنا إلي القرية وجدنا جمعاً كبيراً في انتظارنا . غير أنني لاحظت أنهـــم لم يكونوا بالطلاقة والود الذي أعرفه عنهم رغم أنني لم ألمس منهم – حينـــئذ – أي بـــادرة عداء . فاستنتجت من هيئتهم أنهم كانوا لا يتوقعون منا أخـــباراً طيـــبة ولذلك شرحت لهم كل النقاط المتعلقة بتسجيل الأملاك الحرة بالمشـــروع مستشـــهداً بالوضـــع في مشروع الجزيرة والمناقل . أما بالنسبة لمحصـــولهم الشـــتوي فقد أشرت لهم إلى أن تحذيراً قد وُجّه إليهم بأن عملية التهجير ستبدأ في الشتاء وأننا نصحناهم بعدم بذر محصول الدورة الشتوية ، وأضـــفت مؤكـــداً أن المباني ستكون من النوعية المتينة رغم استعجال إكمال تشـــييدها . وقلـــت لهم " إن تعويضاتكم في أيد أمينة وإن الخزينة العامة قد خصصـــت مـــا يغطـــي حقوقكـــم النقدية ." وعندما فرغت من كلامي أخذوا ينظرون إليّ وكأنما صدمتهم خيبة الأمل . وأخطرني العمدة الصائغ – بنبرات هائجـــة – أنهم لن يرحلوا ما لم يستجب لمطالبهم ، فقوبل كلامه بالاستحسان من قبل المجتمعين . وقد أوضحت لهم أنهم إن كانوا يرجون استجابة إيجابية

مــن الحكومة فإن عليهم أن يطالبوا بما هو معقول . ونصحتهم بعدم التسرع في الوصول إلى مثل تلك القرارات الخطيرة أو تبنّي تلك الروح الدكتاتورية . وقلت لهم إن إصرارهم على عدم الرحيل إلى خشم القربة يعني أن القرية التي خصصــت لهــم – هــناك – ستؤول إلى غيرهم من الأهالي الذين هم على اســتعداد للرحيل . وحاولت – في الختام – أن أهدئ من ثائرتهم بقولي إنني سأخطر الخرطوم بالموقف وأن القرار النهائي سيكون بيد الحكومة.

وعند عودتي – من الحصا – أخطرت علاّم بالموقف ، فأفادني بأنه قد أبلــغ الموضــوع –سلفاً – إلى اللجنة الوزارية بتوصية تدعو إلى تخصيص أراضٍ للملك الحر خارج المشروع. كما أفادني بأنه – وفقاً للموقف الراهن – فــإن كل الأسر ستخسر قطع الأراضي المخصصة للبساتين لأنها ستدمج في أراضــي الملــك الحر . وقال إنه سيكون بوادي حلفا في اليوم التالي لإجراء مزيد من النقاش مع الأهالي في محاولة لإقناعهم. واتفقنا على أن أدعو قيادات قرية (الحصا) للاجتماع به في مكتبي بدلاً عن مواجهة جمع غير منظم مثل ذلك الذي التقيت به في ذلك الصباح .

وفي الاجتماع – الذي عقد في اليوم التالي – نقل علام إليهم القرارات التالية : أولاً استجابة الحكومة لمطلبهم المتعلق بفصل أراضي الملك الحر عن المــنطقة الزراعــية (الحواشات) شريطة أن يكون ذلك على حساب أراضي البساتين المخصصة للأسر . وقد قدرت المساحة المحددة لأراضي الملك الحر بمــا يســاوي ثلاثين ألف فدان في مقابل ١٥ ألف فدان كانت مملوكة بوادي حلفــاء وذلك بنسبة ٢ : ١ وافقت عليها الحكومة مسبقاً . ثانياً : فيما يختص بتعويضهم النقدي فيمكنهم أن يطمئنوا تماماً بأنه سيدفع لهم حال وصولهم إلى

خشم القربة . ثالثاً : إن المنازل قد تم تشييدها بمواد من الدرجة الأولى من الجودة وتتوافق مع المستوى والخطط المصدق بها من الجهة الفنية، وأن عمل المقاولين يخضع لإشراف المهندسين الاستشاريين الذين تم تعيينهم -- خصيصاً – بواسطة الحكومة لهذا الغرض . وبالنسبة للمطالبة بمدة خمسة عشر عاماً ضماناً لمستوى تشييد تلك المنازل فقد اعتبرت فكرة غير صائبة رأتها الحكومة أمراً يتعذر أن توافق عليه . رابعاً : إن مطالبتيم بمنح المزارع لهم بعقد إيجار لمدة ٩٩ عاماً تعتبر مطالبة غير معقولة ، ذلك أن الحكومة كانت تحس أنها قد أوفت بالتزامها بعد أن خصصت ربع مساحة المشروع لإسكانهم ولم يكن منطقياً أن يتوقعوا معاملة تختلف عن تلك التي يلقاها مواطنو السودان الآخرون فيما يتعلق باتفاقيات إيجار الأرض . خامساً : لقد حذرتهم الحكومة – مسبقاً – بعدم زراعة الموسم الشتوي وأوضحت لهم بجلاء أن الذين لا يلتفتون إلى تلك النصيحة سيغامرون بمغادرة المنطقة قبل حلول موسم الحصاد . وأخيراً : أمهلهم علاّم مدة أسبوع لترتيب أوضاعهم وإلا ترك لهم الخيار للبقاء حيث يريدون إذا امتنعوا عن الرحيل ومن ثم تُمنح قريتهم الجديدة لأناس آخرين .

وبعد استماعهم إلى هذه القرارات ، غادر الوفد المكتب وقد بدا على وجوه أعضائه عدم الرضا . وبارح علاّم وادي حلفا إلى الخرطوم في اليوم التالي .

وبعد مرور يومين جاء إلى مكتبي علي أحمد علي ومحي الدين أبو الريش (الشقيق الأصغر لعثمان) وأخبراني أنهما تناقشا مع أهالي (الحصا) وأحرزا بعض التوفيق . فقد تخلّى الأهالي عن مطالبهم الأخرى غير أنهم

معنيين للغاية بحصاد موسمهم الشتوي . وعند سماعي لهذا التحول الذي حدث فـــي موقفهـــم ، شعرت بالارتياح وأخبرتهم أنني توصلت إلى حل لمشكلتهم وأريـــد أن أناقشـــه معهـــم بقريتهم ذلك المساء . وعندما ذهبت إلى (الحصا) وجـــدت الـــناس مهيّائيـــن لقبوله ومتعاونين . وطرحت عليهم خيارين لإنقاذ محصولهم . فإما أن يخلّفوا عشرين رجلاً منهم ليقوموا بعملية الحصاد ، وإما ان أصـــدر تذاكـــر سفر – إذا رغبوا في ذلك – لعشرين رجلاً يعودون إلى القـــرية بعـــد أن يرتـــبوا شئون أسرهم بخشم القربة لتعهد ما زرعوا وجني محصوله . وذهبت بما وعدت إلى أبعد من ذلك حيث أنني تعهدت لهم – في أي مـــن الحالتين – أن أرتب لمغادرة أولئك الرجال القرية بأول قطار عقب الحصـــاد إلـــى قريتهم الجديدة بخشم القربة وهم يحملون محصولهم . فتقبلوا الخـــيار الأخير بسرور وأنهوا ذلك الاجتماع الناجح بأن طلبوا حضور عمال السكة حديد إلى قريتهم لحمل أمتعتهم إلى القطار المغادر إلى خشم القربة .

وفـــي ١٣ مارس – أي بعد أسبوع من بداية مقاومة أهالي (الحصا) للرحيل – غادر أول قطارات الشحن بأمتعتهم ، إلى خشم القربة ثم تبعه قطار الـــركاب فـــي اليوم التالي . وفي ١٧ مارس غادر الفوج الأخير من أهالي (الحصا) إلى قريتهم الجديدة. وقام السيد آرنيل [1]ممثل الأمم المتحدة بالسودان –والـــذي لفتتْ تلك التطورات انتباهه –عند زيارته الأولى لوادي حلفا ووقف على الترتيبات التي أعددناها للتهجير وكان انطباعه عنها إيجابيا للغاية .

وبعد الفراغ من ترحيل أهالي (الحصا) غادر الفوج الأول من أهالي فرص شرق إلى خشم القربة يوم ٢٠مارس . وسارت العملية بلا أدنى تعقيد

---

(1) Mr . Arniel , United Nation Representative

إلى أن تم إكمال إخلاء الفوجين الأول والثاني . وسيكون مملاً – على القارئ – أن يحـــاط علمـــاً بكـــل التفاصيل ، لكن هناك بعض الأحداث الشيقة التي تستأهل أن تسجل.

فبعد تجربة (الحصا) ، قمت بمراجعة برنامج التهجير بغرض تأجيل رحـــيل أهالي قريتي (عنقش) و (دغيم) ليتسنى لهم حصاد ما زرعوا قبل أن يغادروا إلى خشم القربة . وقبل يوم من مغادرة الفوج الأول لأهالي (أرقين) ، أخبرنـــي ســـاعي مكتبي -- الذي ينتسب إلى تلك القرية – أنهم استيقظوا في الصباح ليجدوا أن القرية قد اكتظت بالمغتربين العائدين الذين وصلوا بالباخرة الليلة الفائتة . وقال إن كثيراً منهم كانوا يعتبرون في عداد الأموات منذ عهد بعـــيد ، وكان أقرباؤهم يحدقون فيهم وكأنهم قد بعثوا من قبورهم ، فقد انتاب الخـــوف بعـــض الناس بالفعل . ومن الطريف أن أحد العائدين والذي فارق زوجته منذ أربعين عاماً – وفي حضنها وليد ذكر -- كان في استقباله بالمحطة حفيده الطالب بالمدرسة الثانوية .

وعـــندما غـــادر البصاولة المنطقة ، تلاحظ أن كل حافلات القطار قد امـــتلأت بأقفاص للحمام والأوز والأرانب مما يوحي بأنهم قد أخذوا معهم كل دواجـــنهم معهـــم . وبرحـــيل البصاولة اختفت كل أسراب الحمام من سماء المدينة.

وبـــنهاية يونيو كانت كل القرى الشمالية قدتم ترحيلها إلى خشم القربة فيما عدا فوج واحد من سرّه شرق لم تكتمل منازل قريته هناك . فقد ظل هذا الفـــوج معـــزولاً ويفـــتقر إلى أي وسيلة مواصلات تقله إلى حيث يتسوق . فخصصتُ لأفراده سيارة لهذا الغرض وظللت أنا ونديم نتردد عليهم لنثبت لهم

أنهم ليسوا كما منسياً. وكنت – أول الأمر – أخشى عليهم من هجمات الضباع الجائعــة – التــي تعج بها تلك المنطقة – بعد أن نفذت بقايا أطعمة المنازل برحيل أهلها إلى الوطن الجديد . لكنني لم أتلق شكاوى في هذا الخصوص .

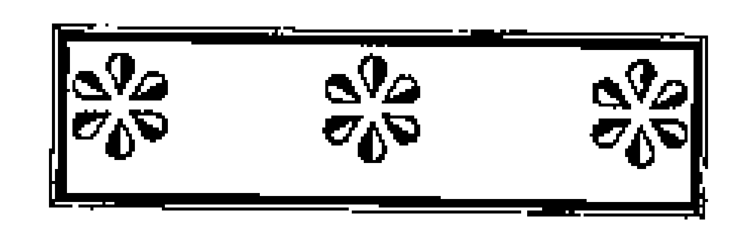
وفي ٢٠ مايو ، غادر الفوج الأخير لقرية (أرقين) بعد أن خلّف وراءه رجــلاً معتزلاً للناس هو : صالح عثمان ... لم يكن لهذا الرجل منزل إذ أنه كــان يعيش في عشة . وقد باءت كل المحاولات لإقناعه بالرحيل في صحبة أهالــي قريــته وأصر على البقاء وحيداً بالقرية إلى أن غمرتها المياه . وفي وقــت لاحق نجح المقيمون بدغيم في إقناعه بعبور النهر والعيش معهم على شاطئ البحيرة .

وبقى الشيخ محمد أحمد عواض وأسرته – وحدهم – بقرية (دبيره) مثلما فعلت أسرة أيوب التي بقيت بقرية (أشكيت) إلى أن داهم الماء منازلهم فغرقت . وقد جاء كل من أحمد محمد عواض(وكان مديراً لإحدى المدارس) ومحمــد طه أيوب (وكان يعمل بمصلحة السكة حديد في عطبرة) إلى وادي حلفــا – بإجازة – لإغاثة وإنقاذ أسرتيهما . ولم يتمكنا من ذلك إلا باستخدام قــارب ، إذ أن الطــريق البري كان حينئذ قد غاص إلى ما تحت الماء . ثم انضمت الأسرتان إلى المقيمين بقرية (دغيم .)

وعــندما غادر الفوج الأخير (من سكان الضفة الغربية) قرية الكنوز الواقعة قرب مدينة بوهين الأثرية خلّف وراءه مجموعة ضخمة من الكلاب . ونسبة لأن الشرطة لم تكن – في ذلك الوقت– تمتلك ما يكفي من الذخيرة فقد عاشــت تلــك المخلوقات أياماً بلا طعام وهي تعاني من شدة الجوع . وكان نباحها– الذي يسمع عبر النهر – مؤثراً .وفي احد الأيام – عندما كنت أقف

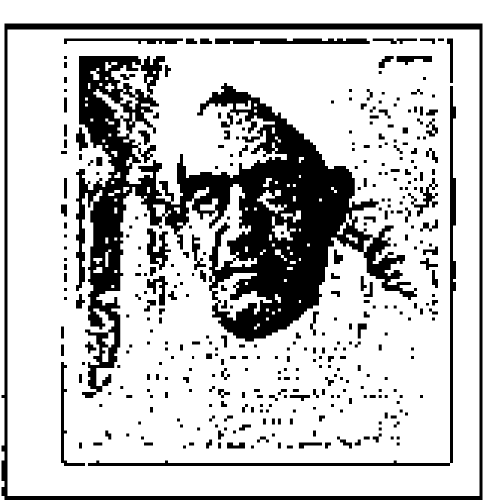
علـى شـاطئ النهر عند فندق النيل – إلتقطت عيناى العديد منها وهي تسبح فـي اتجاه البر الشرقي بحثاً عن الطعام. ولا شك أن حركة الآدميين وأضواء المدينة – ليلاً– على ذلك الشاطئ قد أغرتها بعبور النهر والانضمام إلى من تبقى من بني الإنسان . في هذا الوقت أبرقتُ عاجلاً مدير الشرطة في عطبرة لإرسال شحنة من الذخيرة لتدارك الموقف .

وفـي مـايو جنحـت قاطرة خارج الخط الحديدي قرب برج الإشارة بمحطة (عنقش) ومنعت الطريق، وبذلك أصبح برنامج التهجير مهدداً بالتأخير ولـم تكـن هـناك فسحة من الوقت تسمح بانتظار وصول رافعة من عطبرة لانتشـال القاطـرة ، فأقام الدرديري المبدع خطاً حديدياً إلتف حول القاطرة الجانحـة . ولـم تلبـث قطارات التهجير أن استأنفت رحلاتها بعد تأخير لم يـتجاوز الأربع ساعات . وفي أغسطس إتبعت نفس المعالجة عندما خرجت عـن الخـط ثـلاث عربات بضاعة فارغة بالمحطة (نمرة ٢) في صحراء العتمور.





قطار الفوج الأول



علي أحمد علي



اللواء محمد أحمد عروة يرحب بالفوج الأول في (حلفا الجديدة)



اللواء حسن بشير

الفصل الحادي والعشرون

الموقف في وادي حلفا وخشم القربة بعد عملية التهجير

شرع محمد عثمان عبد الرحمن وعكاشة صالحين في انتزاع ما يمكن انتزاعه من مخلّفات منازل القرى المهجورة بعد إخلائها من السكان مباشرة . فجرّدوا السقوف من عوارضها الخشبية واقتلعوا الأبواب والنوافذ ونقلوها إلى مستودع قرب المطار . فصار منظر تلك القرى – بالفعل – كأنما حلت بها كارثة . وقد رأيت (فرص شرق) في حالة من الخراب شبيهة بما آلت إليه الكنيسة الأثرية الكائنة إلى شمالها ، وجاء فريق من مهندسي مصلحة البريد (البوستة) وانتزعوا كل أعمدة التليفونات على امتداد خط حلفا – فرص ولفّوا الأسلاك في بكرات عملاقة . وقد خُزّنت كل هذه المواد في ساحة قرب المطار لنقلها إلى الخرطوم . وشرعت مصلحة الأشغال في فك مستودعات المياه بالمدينة و بقرية (دغيم) وتجزئتها وحملها على عربات السكة حديد . فتبين لي كم هو سهل أن تخرّب من أن تبني . وانهمك رجال من الهدندوة – استجلبوا من مديرية كسلا – في نبش شبكة أنابيب المياه ونقل المستنقذ منها إلى المطار . وكان شيقاً أن ترى رجال الهدندوة المغرمون بمذاق التمر يجيئون إلى وادي حلفا في موسم نضجه وأن تراهم –في وقت فراغهم – يحصبون السبائط ويجمعون ما يتساقط من ثمار .

وبعثت نفس المصلحة بالمهندس حامد عبد الحليم لانقاذ محطة الكهرباء وملحقاتها قبل أن تغمرها المياه . وبدلاً عن بدء العمل بالأحياء المهجورة بالمدينة ، شرع أولاً في قطع الأسلاك الكهربائية الممتدة إلى منزلي نفسه ثم امتدت يده إلى المنازل التي يقيم بها الموظفون . وبما أن الطقس – في ذلك الوقت – كان في ذروة حرارته ، فقد افتقدنا نعمة المراوح والثلاجات. وقُطع إمداد الماء بالمثل إلا أن حسن طه كان شفوقاً علينا فأمّدنا

بكمية من (الشب) لتنقية ماء النيل من الطمي فأصبح بعد ذلك صالحاً للشرب والغسيل. وجاء كل الموظفين بجرار (قناوية [1]) وقدور فخارية لتبريد الماء . وتكرمــت علينا مصلحة السكة حديد بإمداد منتظم من الثلج الذي تصنعه في مبرداتها بعطبرة ويأتينا بالقطارات العائدة .

وأرسلت هندسة السكة حديد جماعة كبيرة من العمال إلى فرص لخلع الخط الحديدي . فبدأوا العمل في يوليو وانتزعوا كل القضبان وشحنوها على عــربات خاصـــة حملـتها إلى عطبرة . ثم بدأوا في تفكيك سقائف الورش الفســيحة التي شيدت في عهد الخديوي إسماعيل قبل قرن من الزمان . ومن عجـب أن وُجــدت الدعــائم الحديديــة وألــواح الزنك بحالة سليمة وقابلة للاستعمال. أما فندق النيل فقد أرسلت أثاثاته وأبوابه ونوافذه إلى عطبرة .

وبــنهاية أغسطس تحولت وادي حلفا – الجميلة الحية – إلى مدينة مهجورة وخرابات . فقد انتزعت كل النوافذ والأبواب وسحبت أخشاب السقف مــن بعض المنازل . فأصبحت المدينة كئيبة وموحشة وكأنها قد تهدمت منذ قــرون. وقد تجولتُ في شوارعها الخالية من الناس وأنا أحس حزناً عميقاً . فكــأن كــل الأهالي الذين عشنا بين ظهرانيهم حتى الأمس القريب قد هلكوا ومضــوا إلـــى الأبد . وتجردت منازل علي حسب الله لاشين وبربيس وعبده أحمد سليمان وشوربجي آدم حنفي -- ذات الطوابق المزدوجة والفاخرة – من كل بهائها وأبوابها ونوافذها .

وبيــنما كان كل هذا الدمار والخراب يجري في وادي حلفا ، تواصل البناء بسرعته القصوى في خشم القربة . وأخذت منازل القرى تكتمل و تسلم

---

(1) نسبة إلى (قنا) بصعيد حيث تصنع .

واحدة تلو الأخرى وفقاً للجدول الزمني المتسق مع برنامج التهجير . ووصلت كـل أفواج المهجّرين بالسلامة وأنزلت في قُراها الجديدة وسُلِّمت مزارعها . وكانت الحادثة الوحيدة التي وقعت – في ٢٢ مايو – هي أن الفوج الثالث من أهالـي (أرقيـن) وجـد – عـند وصوله – أن المنازل كانت ما تزال (تحت التشطيب) .فأقاموا مع الفوج الثاني لمدة أسبوع ثم انتقلوا إلى منازلهم الجديدة. وقد تم تجاوز هذه العقبة بروح طيبة من قبل الضيوف والمضيفين .

وفـي يونـيو هبـت عواصف عنيفة على الجزء الشمالي من منطقة الإسكان . وجاءت تلك العواصف من منطقة (قاش داي) في الشمال بسرعة هائلة مثل الإعصار وقد حملت معها سحائب كثيفة من الرمل الناعم والأتربة. فاجتازت القرية رقم ٢٢ (دغيم) التي شيّدها المقاول جابر أبو العز وأطاحت بسقوف المنازل والأعمدة.وأحدثت دماراً متفاوتاً في مبانيها ، وقذفت بألواح السـقوف والأعمدة في الشوارع وساحات البيوت وأوقعت الجدران الأسمنتية للأسـوار عشـوائياً أمـام البيوت . وبالجملة فقد تأثر بهذه العواصف إثنان وسـبعون مـنزلاً . وكانـت معاناة هذه التجربة بالنسبة للنوبيين – الذين لم يعـتادوا علـى مثل هذا الطقس القاسي ولم يألفوا رؤية ألواح أسقف منازلهم تطـير فـي الهواء كالورق – مرعبة ومباغتة . ولحسن الحظ فقد اقتصرت الإصـابات علـى حالتي جروح طفيفة ، لكن الأهالي ادعوا أن خسائرهم من المواشي كانت كبيرة .

وتـم تكوين لجنة لتقصي الحقائق – ضمّت فنيين – أوكلت لها مهمة البحـث فـي الأسباب التي جعلت الدمار – الذي أحدثته العاصفة بالمباني – كبـيراً إلى ذلك الحد . وأجرت اللجنة فحصاً دقيقاً للمنازل المصابة وخلُصت

إلـــى أن أعمدة السقوف لم تكن مُحْكَمة الربط بأعالي الجدران. كما اتضح أن مواصـــفات البـــناء لم تضع اعتباراً لهامش سلامة كاف يتيح فرصة لمقاومة الضغط الناتج عن عاصفة بقوة تلك التي هبّت . هذا إذا تغاضينا عن حقيقة أن العاصـــفة ذاتهـــا كانت عنيفة بصورة استثنائية . كما خلُصت إلى أن الأعمدة التي تربط ألواح جدران الأسوار ، أقيمت على أساسات غير عميقة مما أدى إلـــى ســـقوطها . وفي جانب آخر اكتشفت اللجنة أن عديداً من السكان أبقوا الـــنوافذ الـتـــي تأتي منها الريح مفتوحة على مصاريعها بينما أغلقوا تلك التي تخـــرج منها . وعندما هبت العاصفة إلى داخل الغرف لم تجد منفذاً فاندفعت تزيح السقوف الضعيفة عن طريقها وتطيح بها في الهواء .

وراجع المهندسون الاستشاريون خطة البناء لتدارك هذه العيوب الفنية. وقـــام المقـــاولون بإعـــادة ربط مفاصل السقوف بما يضمن القوة والثبات ، وعمّقـــوا قواعد أعمدة الأسوار . ونصحوا بأن يقوم النوبيون بإغلاق نوافذهم عندما تعصف الريح .

ولـــم يكـــد الموقف في القرية رقم ٢٢ يعود إلى طبيعته حتى فُزّعت منطقة الإسكان – في إحدى أمسيات أوائل أغسطس – بزوبعة رعدية عنيفة وهطلت الأمطار كأفواه القرب ، تصاحبها بروق ورعود مرعبة . وكانت هذه التجربة بالنسبة للنوبيين (الذين انغرس في نفوسهم – أصلاً – خوف الأمطار والرعود) شيئاً رهيباً . فقد سمعت أن بعضهم قضى الليل تحت السرير وهو يرتعد من الخوف وأن امرأة تملكها الفزع أغلقت دولاب ملابسها على طفليها . وزاد الطين بلة أنهم عندما استيقظوا في صباح اليوم التالي وجدوا المنطقة

بكاملها غارقة في مياه الأمطار . وفاضت الجداول – المحيطة بالمنطقة – ماءً ووحلاً شلّ حركة السير .

وسببت هذه الحالة – التي جعلت المنطقة تغوص في الطين – متاعب جمـة لعـثمان حسـين . فعندما رأى عثمان استحالة استخدام الشاحنات لنقل الأمـتعة والـركاب ، لجأ لاستعمال (التراكتورات) في إنجاز العمل . وكانت محطات السكة حديد – كذلك – قد غمرتها المياه مما جعل الحمّالين يغوصون حـتى الركـب للوصـول إلـى حيـث تقف قطارات البضاعة . وعجزت التراكـتورات عن أداء المهمة فغاص بعضها في الوحل وسقى بعضها قطع المـتاع مـاءً حتى ارتوت . وقرر عثمان إيقاف تفريغ قطارات البضاعة من الأمتعة إلى حين أن يتحسن الموقف .

وبالإضافة إلى كل هذه المتاعب المتصاعدة في منطقة الإسكان ، زاد الوضـع سـوءاً انقطاع جزء من خط السكة حديد – الذي جرفته المياه – في جهـة (الشيديّاب) قرب(هيا) وفي جهة (قاش داي) قرب (أروما) تجمعت الأمطـار الغزيرة التي هطلت في القطاع الشرقي من مركز أروما لتندفع في نهيرات جارفة وتحدث تلفاً بالغاً في خط السكة حديد عند (قاش داي) ثم تندفع غرباً وتبتلع الجسر الذي يعبر عليه الخط عند (شيدياب) وتُبقي قطاعاً طويلاً مـنه معلقـاً في الهواء . وهكذا تكدّست كل قطارات التهجير في خشم القربة وهـي محملـة بالـركاب والأمتعة ، انتظاراً لجفاف المياه التي أحدثتها تلك الأمطار .

كانت سكك حديد السودان– التي تتقيد قاطراتها بجدول زمني صارم – معنيّة بالتأخير الذي طرأ في حركة تلك القطارات لفترات طويلة بخشم القربة

. فأرسـلت برقـية غاضبة إلى معتمد إعادة التوطين حذرته فيها بأنها ستقوم بتعطـيق بـرنامج التهجير إلى ما بعد موسم الجفاف ما لم يتم تفريغ العربات الأربـع والثمانيـن المحجوزة وإرسالها فوراً إلى وادي حلفا . وقد رد عليها عـثمان بـأنهم يبذلون كل ما في وسعهم لتجفيف المحطة من المياه غير أن تفريغ القطارات وتسريحها سيحتاج إلى أيام عديدة . وأخبرني عثمان بالهاتف أنهـم يواجهون وضعاً حرجاً . فكل الركاب محجوزون داخل القطارات منذ أيـام وقد توفى منهم مريض متقدم في السن . كما أخبرني أن كل شئ يعتمد على نجاحهم في تجفيف المحطة من المياه وعلى توقُف الأمطار عن الهطول خلال اليومين التاليين . وبالتأكيد فإن سكك حديد السودان كانت – أيضاً – في وضـع حـرج، فمعظـم مقطوراتهـا كانت محجوزة في بور تسودان نسبة لانجراف الخط الحديدي ولم يكن عندها فائض من العربات يمكن أن تبعث به إليـنا . فكـان طبيعياً أن تقترح على اللجنة تأجيل عملية التهجير إلى ما بعد موسـم الأمطار (أي حتى منتصف سبتمبر) .. ولقد سببت لي هذه الأنباء قلقاً حقيقـياً لأن منسوب النيل قد بدأ – بالفعل – في الارتفاع . وبحلول يوم ٢٠ أغسطس أرسلت البرقية التالية للجنة ولعثمان حسين :

" لوحـظ ارتفـاع مفاجئ لمنسوب النيل هنا . فإذا استمرت المياه في الارتفاع بهذا المعدل ، فإنها ستغمر الأجزاء المنخفضة من مدينة حلفا حالاً . وسـتنعزل قريتا (أشكيت) (ودبيره) حال اندفاع الموجة الأولى على الطريق الوحيد الذي يمر أسفل (جبل الصحابة) ... إن أي مشاق يلقاها المهجرون في خشم القربة تهون بالمقارنة مع أخطار الفيضان الزاحف . "

وبعـد أن أرسـلت هذه البرقية ، تحدثت طويلاً مع علام ونقلت إليه ملخصاً وافياً بالخطر المحدق بالأهالي إذا ما استجابت اللجنة لاقتراح مصلحة السكة حديد . وبما أن علام كان خبيراً بالمنطقة فقد تفهم تماماً الأسباب التي كانـت وراء توسُـلاتي . ولذلك فقد وضع كل حججي أمام اللجنة الوزارية والتي قامت – بدورها – بتوجيه سكك حديد السودان للعمل بمقتضى التماسنا مهمـا كانت النتائج . وفي ٢٣ أغسطس غادر الفوج الأخير لقرية (أشكيت) إلى خشم القربة يتبعه من تبقى من مهجّري(دبيره) ثم تلته بقية أفواج المدينة وقرى (فارقي) (ودغيم) و(المجراب) . وفي ٢٠ ديسمبر غادر آخر الأفواج المنطقة وبذلك انتهت المرحلتان الأولى والثانية من التهجير .

غادر المنطقة ٤١٠٠٠ من الأهالي ومعهم ٣٦٥١٤٢ قطعة من المتاع بأحجام مختلفة و ١٦٠٠٠ رأس من الماشية . وفقدنا – في الطريق – أربعة مـن الركاب أحدهم علي محمد آدم (من دبيره) والذي كان يعاني من سرطان الحلـق وقد توفي بأبو حمد . وتوفى آخر بمحطة (سمار) أما الثالث والرابع فقـد توفيا في القطارات المحجوزة بمحطة خشم القربة .وفي الجانب المشرق من رحلات التهجير ، كان (حمد) ثالث ثلاثة من المواليد الذين استهلوا حياتهم صارخين داخل مركبات القطار .

ابتداء من ٢٠ أغسطس واصل منسوب النيل ارتفاعه المنتظم . فلم يعد الفيضـان يأتي في شكل موجات – كما كانت العادة – لكنه أخذ يرتفع بانتظام واسـتمرار . وبـنهاية أغسطس وصلت الدفعة الأولى من الفيضان الموسمي والتـي أحالت مياه النهر إلى طينية داكنة اللون . وفي نفس الوقت تراجعت موجات من المياه من أبخس النهر لتزيد من منسوبه وتضعف تياره . وامتلأت

الشـــطان إلى منتهاها وأصبح متوقعاً – في أي لحظة– أن يفيض الماء عنها ويـــندفع إلى الأعالي . ولقد تم اتخاذ احتياطات موقتة لتجسير النقاط الضعيفة علـــى الرصيف المقابل للسوق (حيث كانت حوانيت التجار المقيمين ما تزال مليـــئة بالبضـــائع) وعلى امتداد محطة السكة حديد حيث كانت عملية إخلاء المواد والأمتعة ما تزال جارية .

وفي الساعة الواحدة صباحاً اندفع النيل من نقطة (لم تكن في الحسبان) عند مدخل الميناء وغمر محطة السكة حديد وزحف حتى بلغ مباني المستشفى .. كانـــت تلك بداية الطوفان. وعندما صحونا في الصباح الباكر وجدنا ساحة المحطة وكل المنطقة الواقعة إلى جنوبها ، تعوم في المياه وتتلف كل الأمتعة الملقـــاة على الرصيف . وحصرت المياه خمس عربات بضاعة وغمرت ما طولـــه نصـــف مـــيل من الخط الحديدي . ولم تجرؤ قاطرة من التقدم لإنقاذ العـــربات المحصورة خوفاً من أن ينهار القضيب تحت ثقلها . وبدلاً عن تلك اســـتطاع فـــريق مـــن الحمالين دفع العربات على أرض يابسة . وباستخدام الألواح الخشبية المثبتة بأحكام على براميل النفط الفارغة ، أمكن صنع رمث (طـــوف) لـــنقل الأمتعة المبللة إلى مكان جاف . وبينما كنا جميعاً بالمحطة نحاول انقاذ ما يمكن إنقاذه – في الساعة الواحدة والنصف ظهراً – فتح النيل ثغرة في نقطة مقابلة لمسجد التوفيقية وطوق قطاعاً واسعاً من منطقة السوق . فقمنا بتجنيد كل القوى العاملة المتبقية لترحيل البضائع من الحوانيت التي كان بعضـــها قد بدأ ينهار . ورأيت أحد المباني يسقط على بعد عشرين متراً من ســـيارتي فأسرعت وأزحتها إلى مكان آمن . وفي المساء إنهار جسر (القيقر) المقـــابل لمبانـــي السردارية ، لتندفع المياه إلى الغرف الخالية وتحيل المنطقة

المنخفضة الواقعة غرب ورش السكة حديد إلى بركة عظيمة الأتساع . وإلى الجنوب من مسكني تدفقت المياه بعنف خلال حديقة منزل مدير حوض البواخر وأحاطت بالمسجد الإسماعيلي وبذلك عزلت منزل مدير المطار ومنزل مهندس الحوض المجاورين لمنزلي . وانتصب فندق النيل غارقاً في المياه إلى منتصفه مثل معبد فيلة بأسوان . وفي قرية دغيم هوت إلى الأرض حوالي ثلاثين منزلاً ، فأرسلتُ فريق إنقاذ من رجال الشرطة بسياراتهم لانتشال الأمتعة .

وفي المساء شرعنا في عملية مستعجلة لإخلاء الأمتعة من أحياء الموظفين والمكاتب الحكومية . وتم نقل كل الأمتعة المنزلية والشخصية إلى منطقة المطار حيث وضعت في فناء واسع تحت حراسة الخدم . وفي اليوم التالي شُحنتْ أمتعتي الخاصة في عربتي قطار ولم أبق - تحت يدي - إلا الحاجيات ذات الضرورة القصوى .

وتواصل ارتفاع المياه تدريجياً . فغمرت السوق كلّه وزحفت على المنطقة السكنية في التوفيقية والعباسية . وانهارت معظم الحوانيت وذابت الطينية منها واختفت من الوجود . وبحلول الساعة التاسعة من يوم ٢ سبتمبر ، بلغت المياه منازل بربيس وعبده أحمد سليمان وبذلك غطّت الميدان الرئيسي للمدينة . وفي حي التوفيقية أقتحمت المياه الطريق الممتد ما بين المسجد ومحلات جلاتلي هانكي وانطلقت - من هناك - شمالاً لتغمر الحي بأكمله حتى النادي وحوصرت مباني المستشفى والمركز وانهار جزء كبير من المستشفى . وفي منطقة (القيقر) اندفعت المياه غرباً عبر الطريق المتجه إلى فندق النيل وهي تجرف أكواماً من العقارب والزواحف ثم تغرق مشروع

راشــد الزراعـــي بكامله وتنتهي عند شارع الإسفلت العام للمدينة . أما خط السـكة حديـد الــذي يربط الورش بمحطة (عنقش) فقد غرق أيضاً وبذلك انعزلت الورش التي كانت عمليات إخلائها تجري حتى تلك الساعة. وقد تم – فـــي نفــس الــيوم – مد خط حديدي من منطقة الورش إلى الخط الرئيسي المتصل بعنقش حيث أخليت المواد قبل غروب الشمس . واستطاعت مصلحة البوســتة والــتلغراف – بعد لأي – أن تنقل كل معداتها إلى منطقة المطار ، وبذلــك أغلقــت مكتــب وادي حلفــا القديمة نهائياً . غير أنني ابتعت اربع مجموعــات من الطوابع وألصقتها على مظاريف وختمتها بتاريخ ذلك اليوم المشهود تذكاراً وتخليداً .

وفـــي المســاء ذهبتُ إلى منطقة المطار لأرى موقع إقامتنا الجديد . وهناك وجدت أكوام أمتعة الموظفين المبعثرة بإهمال في الفضاء الواقع شمالي مباني المطار . وقد شغلت مصلحة البوستة والتلغراف الجناح الشرقي من تلك المباني وشرعت في مد خطوط الهاتف لتتصل بالخط الرئيس . وعندما عدت إلى منزلي ، وجدت أن المياه قد تسربت إلى الحديقة من جهة مبنى السردارية ، وأوشــك منسوب النيل أن يبلغ سقف الجسر . ورأيت الفئران – التي كانت تعــيش في مخزننا – تخرج من أجحارها حاملة صغارها في أفواهها وتسرع هاربة إلى الأعالي . وبدا لي أنها قد اشتمت غريزياً رائحة الخطر . وعندما كنت أتأمل هذه الظاهرة الطبيعية ، طرق سمعي صوت كفرقعة الرعد آت من جهـــة السردارية ، ورأيت سحابة من الغبار تملأ الجو .. لقد خرّ المبنى دفعة واحدة إلى الأرض . وأمضينا سحابة يومنا – ذاك – في جمع معدات المكاتب ونقلها إلى منطقة المطار .

وعندما عدت إلى منزلي آخر الليل ، وجدت فراشي مصمماً بالرطوبة .
كنت منهكاً وبحاجة إلى الراحة ، لكن احتمال أن تتدفق المياه إلى بيتي – أثناء نومي – كان يقلقني . وبما أن قواي الجسمانية كانت لا تمكنني من العودة إلى منطقة المطار ، فقد قررت المخاطرة بقضاء تلك الليلة بالمنزل . غير أنني جعلت حافة الملاءة تتدلى حتى تلامس الأرض وذلك لكي يوقظني البلل متى ما زحفت المياه إلى مستوى الفراش . ونمت نوم قرير العين هانيها ، واستيقظت في الصباح الباكر لأجد أن النيل قد بدأ يطرق حافة الأجزاء العليا من الجسر . وزادت المياه المتدفقة على الحديقة من جهة المردارية . فخرجت أنظر إلى المنطقة المحيطة بالمنزل . فإذا بي أجد أن منزل مدير الحوض قد هوى تماماً إلى الأرض الغارقة في المياه . وإذا بشق غائر قد أصاب المسجد الإسماعيلي من سقفه إلى قاعدته . أما في المدينة فقد غدا مبنى المستشفى حطاماً وانمحى جزءٌ منه تماماً . وأما منزل الطبيب فقد زال من الوجود فيما عدا مجموعة من أشجار النخيل كانت تطل برؤوسها من تحت الماء تعلن عن مكانها . وتوسطت منطقة السوق بحيرة تناثرت فيها جزر من أكوام الحوانيت المنهارة ، بينما بدأ الجزء الغربي من التوفيقية في السقوط . وعدت إلى منزلي وحملت – بمساعدة خادمي – ما تبقى من المتاع ومعه كلبي إلى منطقة المطار وتركت عكاشة صالحين يحاول أن يستخلص ما يستطيع من المبنى قبل أن تدخله المياه . وعندما وصلت إلى هناك أمرت الخادم أن يربط الكلب إلى عمود خوفاً من أن يعود أدراجه إلى المنزل الذي كان متوقعاً أن ينهار في أي لحظة . وفي الحقيقية فإنني – بعد أن تم ربط الكلب – كنت أشعر بأنني في حاجة أيضاً إلى من يشد وثاقي . فقد ظللت

أتردد على المدينة باستمرار لأرى ما كان يجري ، ولم أكن أصل إلى المطار إلا وأعـود تـارة أخـرى إلـى المدينة . وفي المساء حملت آلة تصويري الفوتوغرافـية من ماركة (روليفلكس) وزودتها بفلم وفي صحبتي نديم وذهبنا إلى المدينة لالتقاط بعض الشرائح الملونة. فرأينا – في منطقة القيقر– جزءاً مـن المسجد الإسماعيلي وقد أنهار بينما كان الأثر الوحيد الباقي لمنزل مدير الحوض هو السقف المعدني العائم فوق أعمدته الخشبية حيث موقع المنزل .. كانت المياه قد اقتحمت – بالفعل – غرف منزلي وغمرت الحديقة . ولاحظت أن الشجيرات التي كانت قد ذبلت بسبب انقطاع الإمداد المائي قد انتعشت من جديـد كمـا أن أوراقهـا التي تغضنت وأغصانها التي تلك عادت وامتلأت بالحياة . غير أن دفقة الماء التي أحيتها لم تلبث أن ردتها إلى عالم الاحتضار والفـناء. ثـم مررنا بحي الموظفين – حيث سقطت معظم المنازل – وتتبعنا أطـراف سـيل المياه ونحن نسير بمحاذاة جدران منازل العباسية حتى بلغنا الطـرف الشـمالي من التوفيقية عبر ملعب كرة القدم وحديقة البلدية . حينها كانت المياه قد وصلت إلى مركز الشرطة وملأت المنطقة المنخفضة جنوب الحديقـة ... هـنا رأيـت منظراً صاعقاً . فلقد استحال ذلك الحي الجميل – بمنازلـه الفاخـرة ذات الطابقيـن – إلى حطام . وطفنا عبر الشوارع فوق الأنقـاض والتقطـنا بعـض الصور . كانت الجدران – حتى تلك الساعة – تتهاوى وكنا في كل لحظة نفاجأ بدوي المباني المتساقطة المرعب تتبعه سحب الغـبار ويصاحبه نضح الماء المتناثر . ولم نتمكن من أن نواصل السير إلى الأمام فعرجنا على مباني النادي التي كانت أعلى من مستوى المياه . ومن هنا اسـتطعنا أن نـرى منزل عائلة شريف داود ذا الطابقين والذي بني بالطوب

الأحمر وقد أنهار جزء منه . أما منزل (يغمور) فقد انتصب صامداً رغم أن المـــياه قد حاصرته من كل جانب . وكم أثار منظر التوفيقية – ونحن نشاهده من نقطة النادي – أحزاننا .. إنها بداية النهاية لوادي حلفا . تلك النهاية التي لـــم تـــأت بغـــتة ولكنها جاءت مع زحف مياه النيل المبارك .. واهب الحياة ومصدر الرفاهية وأصل وجود المنطقة وأهلها .

وفي اليوم الخامس من سبتمبر لم يتبق من التوفيقية إلا المسجد ومئذنته الشـــامخة . فقد غمرت المياه ملعب الكرة وأسقطت حائطه الشمالي . وأصبح حـــي الموظفين بكامله جزءً من مجرى النهر . أما في (دبروسه) فقد أخذت المـنازل تتساقط وذابت بيوت الطين كقطع البسكويت . وتفتت منزلي بعد أن انشـــق من منتصفه ومالت أعمدة طابقه الأرضي وتدلى سقفه بزاوية حادة .. لقد أهاج المنظر في وجداني ذكريات السنوات الست الأخيرة التي عشتها فيه بسعادة وهناء .

وتواصـــل الدمـــار بالمدينة وبالقرى الشمالية ليلاً ونهاراً إلى حين أن غـــادرت وادي حلفا نهائياً في ١٧ سبتمبر منقولاً إلى الخرطوم لأتقلد منصب أمانـــة اللجنة القومية لشئون جنوب السودان حديثة التكوين . وعندما فارقت المـنطقة كانـــت أعالي العباسية ومنازل دبروسه والتبس هي التي لم تدركها المياه ، لكن معظم القرى كانت قد ابتلعها الطوفان . وانسدّ الطريق إلى فرص عند جبل الصحابة .

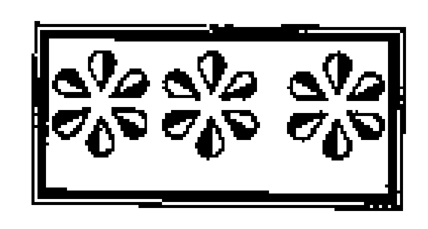
وبينما كان هطول الأمطار الغزيرة يعترض برنامج التهجير إلى خشم القربة ، غادر أسطول بواخرنا نهائياً من وادي حلفا جنوباً في ١١ أغسطس . ففي أبريل قام مهندسو الحوض بفحص كل بواخر الأسطول للنظر في إمكانية

قدرتهـا علـى القيام بالرحلة الخطيرة . وقرروا أن بعضها يستوجب أن يتم الاسـتغناء عـنه بسـبب العجز والتخلص منه محلياً (خصوصاً الباخرة : " السـودان " التي كان قد أدخلها إلي البلاد " توماس كوك وابنه") وأوقفت عن الخدمـة منذ سنين عدة ، وظلت طافية على شاطئ النهر كجزء ملحق بفندق النـيل . وقد تم تفكيكها الآن وبيعت حديداً جامداً . وهناك باخرة صغيرة هي (القمـر) ، كانـت فـي خدمة اللورد كتشنر إبان سني التحضير لإعادة فتح السودان . وقد بيعت لأبناء عبد الغني موسى (الأخوان بربيس) الذين أرسلوها إلـى أسوان حيث تم تجديد ماكينتها ومعداتها واستخدمت في الخدمة الملاحية بيـن وادي حلفـا وأسـوان في أعقاب إخلاء أسطولنا النهري . وهناك مبع بوارج تقرر أنها غير صالحة للعمل فبيعت كقطع معدنية (خردة) . وتم تفكيك الرصيف العائم وأرسل بالقطار إلى الخرطوم بحري

ورؤى أن الباخرتين : (المريخ) و (النجم القطبي) والمركب الصلب المسـمى: (النوبة) في وضع يمكنها من الإبحار جنوباً حيث تباشر الخدمة – في أعالي النيل – مع (الثريا) .

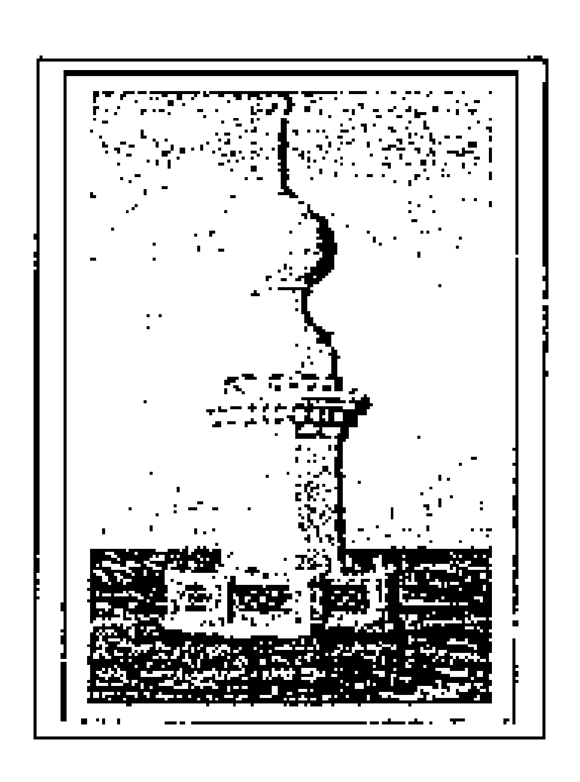
قـام المهـندس إبراهـيم مدني بوضع خطة عبور الشلالات وقامت الـبواخر الواحدة تلو الأخرى – وعلى مدى فواصل زمنية قصيرة – باجتياز الممرات الوعرة وكانت في مؤخرتها (النوبة) وكانت خطة إبراهيم تقوم على كبح جماح المياه المتدفقة عبر الممرات عن طريق رفع مستواها بحيث يتباطأ التيار . فكللت مساعيه بالنجاح . وقد رأيت – في أواخر أغسطس – الرافعة الكهربائـية العملاقـة عـند قرية (عبكه) وهي تسحب (المريخ) عبر (الباب الكبير) . وبرغم كل الطاقة التي بذلت فقد استغرق العمل أسابيع لتبلغ الباخرة

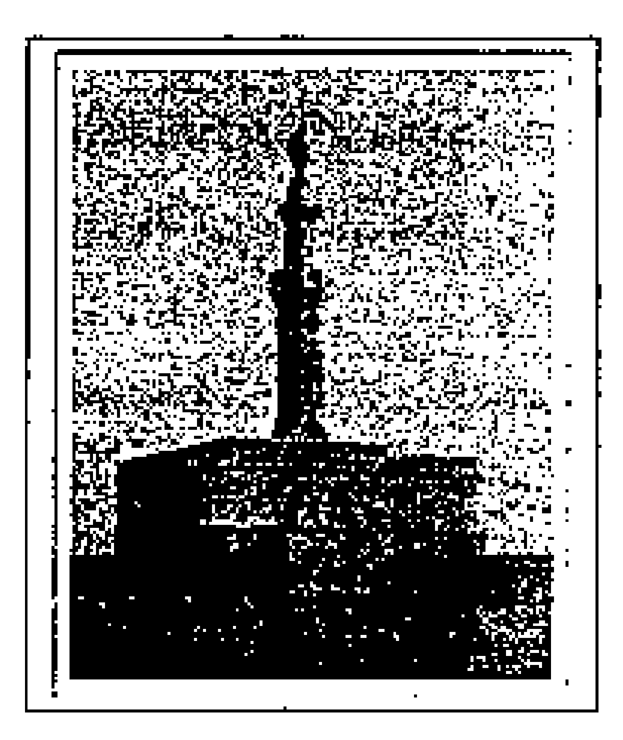
المياه الهادئة . وواصلت (النوبة) المثابرة مسيرتها – في المؤخرة – دون أن تمتد إليها يد المساعدة . وعندما بلغ الأسطول الصغير أعالي الشلال الثاني ، تم تفكيك الرافعة وحملها على متنه إلى الخرطوم . ومضت الرحلة – بعد ذلك – في أمن وأمان .





المياه تزحف نحو المستشفى





جامع دغيم قبل وبعد الغرق

الفصل الثاني والعشرون

إخراج أجساد العظماء من مراقدها

بينما كنا على وشك أن نفرغ من تهجير الأحياء – في تلك الأيام المزدحمة بالعمل – اتجه اهتمامنا إلى إخراج أجساد الموتى من مراقدها وبخاصة جسدي الأمير (عثمان دقنة) ، وسيدي (إبراهيم الميرغني) . فقد برزت فكرة نقل جثمان عثمان دقنة إلى حيث يعاد دفنه – في مكان ما بشرق السودان – وذلك لأول مرة في عام ١٩٥٨م عند قدومي لوادي حلفا (التي قضى فيها دقنة سني أسره حتى أدركته الوفاة .)

إن الذي يطّلع على تاريخ المهدية لا تخطئ بصيرته حقيقة أن أحداث تلك الحقبة التاريخية قد اتسمت بمعارك متصلة أظهرت السودانيين كمحاربين عظماء وأشداء . وحاز محاربون – بعينهم – على إعجاب كافة المؤرخين بالنظر إلى ما أحرزوه من انتصارات ، .ومن بين هؤلاء الأمير عثمان دقنة "أمير الشرق" . فخلال محاصرته لسواكن خاض دقنة ثمان معارك في تلال البحر الأحمر ، فألحق الهزيمة بطاهر باشا في معركة التب (٢٣ ديسمبر ١٨٨٣) ودحر الجنرال بيكر في معركة طوكر (٤ فبراير ١٨٨٤) ونازل سرايا الجيش البريطاني في واقعة هندوب (يناير ١٨٨٨) حيث اخترق المربع البريطاني [١] . وفي معسكرة كرري (٢ سبتمبر ١٨٩٨) اعتبر ونستون شرشل هجوم دقنة العنيف على فرقة الرماة الحادية والعشرين البريطانية المعروفة باسم (اللانسرز) [٢] – بموقع خور شمبات – أهم معالم تلك الملحمة ... لقد قرأت كثيراً مما كتب عن سيرة عثمان دقنة وأنا أحسبه أحد أبطالنا القوميين العظماء .

---

[١] تشكيل حربي تكتيكي إشتهر به الجيش البريطاني – المترجم .

[٢] The British21st Lancers

.. فـــي اليوم التالي لوصولي ، قمت بزيارة لقبره الذي ضمته المدافن الواقعـــة خلف ضريح سيدي إبراهيم الميرغني .. فلم أجد للقبر شاهداً يمكنني من التعرف عليه غير حائط قصير من الطين – كان يحيط بالمرقد – محفور علـــى صـــفحته اسم الأمير العظيم . وبالرغم من أن التوبيين كانوا يوقّرونه باعتـــباره رجـــلاً صالحاً ويقدّرون تدينه وتقواه ، إلا أنهم لم يكونوا على علم بتاريخ ذلك (الفكي)[1] الذي قضى تسعة عشر عاماً بين ظهرانيهم أسيراً مطلقاً ثـــم مـــات وقبر في مدينتهم العريقة . إنني أُعزي هذا الموقف إلى حقيقة أن حلفـــا لـــم تكن أبداً جزءً من السودان خلال حقبة المهدية ، ولذلك فقد انعزل ســـكانها عـــن الأحـــداث التي جرت خلال تلك السنوات بالبلاد وغابت عنهم بطولات الرجال الذين صنعوا الثورة .

فـــي ٥ أكتوبر ١٩٥٨م كتبتُ إلى مدير المديرية الشمالية أقترح عليه إخـــراج جـــثمان عثمان دقنه من قبره ونقله إلى بلاد البجا وإعادة دفنه وسط أحفاده المقاتلين الذين حاربوا تحت قيادته . وأشرت إلى ضرورة نصب لوحة تذكارية لائقة على قبره تعبّر عن تقدير الأمة له . لكنّ اقتراحي لم يلق سوى التجاهل . وفي يونيو ١٩٦٣م – وتحت تهديد المنطقة بالغرق – أثرت المسألة من جديد بمذكرة بعثت بها إلى لجنة إعادة التوطين استعرضت فيها تاريخ هذا الـــبطل واقترحـــت – مـــن باب أن كل انتصاراته العسكرية في تلال البحر الأحمر كانت ترمي إلى غزو سواكن التي عزّت عليه – إعادة دفن جثمانه في مدخل تلك المدينة العصية عند بوابة كتشنر . ومضيت في اقتراحي إلى القول بإقامة لوحة تذكارية على قبره تسجل تفاصيل حنكته العسكرية من أجل تخليد

---

[1] أي : الفقيه أو شيخ الدين – المترجم

ذكراه في وجدان أجيال الغد . ولأسباب غير معلومة أمسكت اللجنة الوزارية عـــن الرد على اقتراحي وبذلك ظلت القضية معلقة إلى حين . في ذلك الوقت كان الدكتور طه بعشر طبيب الأمراض النفسية والعقلية يجري مسحاً بالمنطقة ويتردد على وادي حلفا . ولأن جده كان أميناً لبيت المال التابع لإمارة عثمان دقـــنة ، فقـــد قرّ رأينا – خلال إحدى زياراته للمدينة – على أن إنقاذ جثمان عثمان دقنة يعتبر قضية قومية وأن من واجب الحكومة أن تقوم به . وقررنا – في حالة عدم تخلي اللجنة الوزارية عن موقفها السلبي قبل حلول الفيضان – أن نقـــوم بأنفسنا بفتح القبر وإخراج الجثمان ليتم دفنه إما في أم د رمان أو في سواكن على نفقتنا الخاصة .

وفي أغسطس جاء الفرج من جهات أخرى . فقد أتصل الأمام الهادي المهـــدي والســـيد الصادق بلجنة التوطين – لعلمهما بتلكؤ اللجنة الوزارية – للحصـــول على الموافقة بنقل الجثمان وإعادة دفنه في قبة المهدي . واهتمت الصـــحافة بالأمر واسترعت القضية الانتباه . وفي محاولة لممارسة مزيد من الضغط ، سرّب طه عثمان اقتراحي إلى الصحف . وقام السيد النذير حمد – ضابط مجلس بلدية بور تسودان – بإكساب القضية طابعاً شعبياً حين لفت إليها نظر المجلس . فرحب المجلس بالاقتراح وعيّن لجنة خاصة لتقوم بالتحضير لاستقبال الجثمان عند وصوله إلى بور تسودان وإقامة احتفال جماهيري عند بوابـــة سواكن . وأخطر رئيس المجلس وزير الداخلية بالقرار وطلب موافقته قـــبل أن يمضـــي المجلـــس فـــي التحضيرات. وأحست اللجنة الوزارية بأن الموضـــوع قد أصبح ساخناً بحيث يتعذر عليها التمادي في تجاهله وأن قراراً إيجابـــيا ينبغـــي أن يـــتخذ . فـــتم تشكيل لجنة مشتركة من ممثلي الأنصار

وعضــوية لجــنة التوطين لتحديد المكان المناسب لإعادة دفن الجثمان ، لكن اللجــنة المشــتركة لم تتوصل إلى قرار وتجمّد الموضوع من جديد . ثم قرر اللواء عروة – وزير الداخلية – وضع الأمر بين يدي مجلس بلدية بورتسودان ومنح المجلس موافقته للسير في إجراءات استقبال الجثمان .

وفي ٢٧ أغسطس تسلمتُ برقية من ضابط مجلس بلدية بور تسودان تفــيد بــأن المجلــس قد أنتدب مساعده سليمان عثمان فقيري لحضور عملية إخراج الجثمان من قبره بوادي حلفا ومرافقته إلى بور تسودان . كما أفادتني البرقــية بأن ترتيبات قد أجريت مع سكك حديد السودان لإرسال مقطورة إلى حلفا في يوم ٢٨ لنقل الجثمان .

وتــبعاً لذلــك أعددنا ما يلي لاخراج الجثمان من القبر بزمن كاف : تابوت خشبي متين يمكن إغلاقه بإحكام ، ولفافة من قماش الدبلان وقارورات عطــر ومطهــرات ، وعلــم الســودان لتغطية التابوت، وستة معاول ذوات رؤوس، ومجاريف، وعشرة أكاليل من الزهور عليها ديباجات تؤرّخ للمعارك العشر التي خاضها عثمان دقنة (يتم تجهيزها يوم إخراج الجثمان من القبر). وتــم إيــلاغ المفتش الطبي لحضور عملية فتح القبر والإشراف على عملية إخراج الجثمان .

ونشــرنا إعلاناً دعونا فيه من تبقّى من الأهالي لحضور المناسبة في الساعة الرابعة عصراً ليوم ٣٠ أغسطس بالمقبرة . وفي ٢٩ أغسطس وصل سليمان مــن بورتسودان وأخبرني بأن مجلسه قد جهّز احتفالاً ضخماً لتلك المناســبة التاريخية وأن القبر الجديد قد تم حفره قرب بوابة كتشنر بسواكن . وفــي الوقــت المحدد وبحضور جمهرة كبيرة من الأهالي ، أعمل أربعة من

الحفاريـــن معاولهم ومجاريفهم في قبر عثمان دقنة ... كانت التربة هشة مما ســهّل الحفر الذي لم يمض عليه سوى ربع ساعة حتى بلغ الغطاء الحجري للقــبر حيث كان جثمان الأمير ينعم براحته الأبدية . وأزاح الحفارون الحجر الــذي كــان يغطي اللحد عند الرأس فرأينا كفن الدبلان بحالة جيدة كما رأينا الشــريط الــذي يربط طرف الجثمان أعلى الرأس . ثم أزاح الحفارون بقية حجارة اللحد واحداً إثر واحد ليظهر الجسد كله ملفوفاً في كفنه بإحكام ... كان الكفــن ذاته بحالة طيبة إذ أن حياكته لم تفقد عروة واحدة ولم تخلّف السنوات السبع والثلاثون إلا نقطة صفراء باهتة ظهرت على هامش بياضه الناصع . وشممنا رائحة طيبة خفيفة أنبأتنا أن الجسد النحيل لم يتحلل بعوامل الجفاف . ثم رفع الجثمان على يدي ستة من الرجال (إثنين عند قدميه واثنين عند كتفيه واثنيــن علــى جانبيه) ووضع على أرض مبسوطة حيث كشفنا عن وجهه للتأكد من شخصه ... كانت ملامح الوجه ظاهرة سوى أن جلد الوجه قد خفّ عــند الوجنتين فأبرز العظام . أما فروة الرأس فقد احتفظت بجلدها وأما شعر عــثمان وحاجــباه الكثيفان فقد بديا كما هما بينما ظلت لحيته العريضة تتجلل بخضـــاب الحـــناء . ثم غطينا وجهه وكسونا الكفن بطبقة من الدبلان ونثرنا علــيها العطر . ووضعنا الجثمان في التابوت . وسمّرنا غطاءه وغطيناه بعلم الســودان وجعلنا أكاليل الزهور فوق غطاء العلم .. كان المشهد مؤثراً ونبيلاً معاً .

ألقيــتُ خطابــاً مطوّلاً ، وصفت فيه حياة عثمان دقنة ابتداء من لقائه بالمهدي عقب سقوط الأبيض عام ١٨٨٢م وتعيينه أميراً على الشرق وانتهاء بوفاتــه فـــي الأسر بوادي حلفا عام ١٩٢٧م . وأشدتُ ببطولته الباسلة التي

دافعت – بعناد – عن حرية بلده ضد الغزو الأجنبي . وختمت خطابي قائلاً :" قضـــى بطلنا العظيم سنوات حياته التسع عشرة الأخيرة أسيراً لدى السلطة البريطانية في هذه المدينة . وعاش وحيداً كسير النفس إلى أن توفى دون أن يحـس به أحد كما لو كان مخلوقاً وضيعاً عاش ومات خامل الذكر والأثر . لكـن الـتاريخ هو ذاكرة الأمم التي لا تَجهل ولا تَنسى . فالآثار الجليلة التي يخلفها الرجال تبقى أبداً من بعدهم مهما طال عليها التجاهل والإهمال ، لأنها كومـيض النار تحت الرماد فإنه سرعان ما يتوهّج- على مر الأيام – ويضئ الطريق أمام أجيال المستقبل .. لقد حلت علي جيلنا اللحظة التي يتوجب علينا فـيها أن نعظّـم ونخلّد هذا البطل ونتعلّم من سيرته مبادئ التضحية البطولية النبيلة والشجاعة والإنسانية . "

وعـندما فرغـت من إلقاء خطابي ، حمل ثمانية من رجال الشرطة الـتابوت الذي علته أكاليل الزهور بينما تبعه الجمع الحاشد ببطء وسكون إلى محطة السكة حديد . وهناك وضع التابوت في الحافلة التي تم إغلاقها وختمها بالشـمع الأحمر . وفي اليوم التالي ألحقت الحافلة بقطار الركاب الذي غادر المديـنة صباحاً . وعند وصول القطار إلى عطبرة صبيحة أول سبتمبر كان في استقباله بالمحطة جمع غفير على رأسه الحاكم العسكري الذي ألقى خطاباً تمجيداً للمناسبة . ثم فُصلت الحافلة من قطار الركاب وحُولت إلى خط جانبي لحين إلحاقها – في المساء – بقطار بضائع كان متجهاً إلى بورتسودان . وقبل مغادرة القطار لعطبرة تلقى سليمان – فجأة – توجيهاً رسمياً يفيد بتغيير مكان إعادة دفن الجثمان من سواكن إلى (أركويت) ، وأنّ عليه تسليم حافلة القطار إلـى أحـد ضباط الشرطة بمحطة (صميت) قبالة (أركويت) . وفي الصباح

الباكر فصلت الحافلة عن القطار في تلك المحطة حيث تسلّمها ضابط الشرطة بينـــما واصـــل سليمان رحلته إلى بورتسودان وحيداً وقد امتلأ سخطاً . وفي بورتســودان أصـــيب الجمهور -الذي أعد استقبالاً حافلاً - بخيبة أمل كبرى نتيجة لذلك التغيير المفاجئ . وفي ذات اليوم أصدر اللواء عروة بياناً أوضح فيه الأسباب التي دعت إلى تغيير موقع دفن الجثمان وكانت كما يلي : أولاً : إن عثمان دقنة لم يتمكن من اقتحام سواكن ، وسيكون من غير المفهوم أن يتم دفـــن الجـــثمان هناك . ثانياً : إن اختيار (أركويت) تم بحجة أنها كانت نقطة مراقـبة لمعظم غاراته على منطقة تلال البحر الأحمر . ثالثاً : إن (أركويت) موقـــع سياحي معروف ، وسيكون من الأفضل مواراة الجثمان ثراها وإقامة لوحـــة تذكارية على القبر وتشييد متحف صغير يتردد عليه السوّاح بدلاً عن إقامة هذه المنشآت في أطلال سواكن حيث يندر أن يزورها أحد .

وبالـــرغم من أن هذا البيان كان يحوي أسباباً مقنعة إلا أنه أثار بعض الشكوك – من جانب الأنصار على وجه الخصوص – لأن اللواء عروة الذي كان ينتمي إلى طائفة الختمية لم يكن يود أن يرى عثمان دقنة مدفوناً بسواكن قرب ضريح السيد تاج السر الميرغني . ومهما كانت الأسباب فإن الاستقبال الحافل الذي أعد في بور تسودان قد ألغي وتم تأجيل مراسم إعادة الدفن يومين لتمكيـــن مـــن يرغب في الحضور من بورتسودان ليشهدها . وفي الرابع من ســبتمبر وصـــل إلى محطة (صمبت) الحاكم العسكري لبور تسودان يصحبه أعضـــاء المجلـــس البلدي وكبار الموظفين والأعيان بمن فيهم ممثلون لأسرة عـــثمان دقـــنة . وحضـــر من (سنكات) السيد سر الختم جعفر الميرغني كما حضـــر ضـــباط وجنود حامية (جبيت) . وتخلف عن حضور المناسبة الإمام

الهـادي المهدي ووفد من رجال الأنصار بسبب عطل أصاب ماكينة الطائرة التي أقلتهم استدعى الرجوع إلى الخرطوم بعد وقت قصير من الإقلاع .

..حُمـل النعش من الحافلة – التي كانت تقف بالمحطة – على أكتاف ضباط الجيش بينما حمل آخرون أكاليل الزهور (التي ظلت بحالة جيدة رغم الذبول الذي اعتراها) وساروا ببطء إلى جانب النعش الذي نقل بعد ذلك إلى شـاحنة عسكرية حملته إلى أركويت يتبعه موكب طويل من السيارات . كان القـبر جاهـزاً على قمة تل منخفض بالقرب من فندق أركويت حيث ووري الجثمان الثرى .

في عام ١٩٦٦م قمتُ بزيارة للقبر فأحزنني أن ألفيته منزوياً في بقعة مهملـة وقـد علته طبقة خرسانية مبلّطة بمسحة من الأسمنت الخشن . وكما جـرت الأحداث فإن نظام عبود قد سقط بعد شهر من إعادة دفن الجثمان ، ولذلك فإن أحداً لم يهتم بتنفيذ ما وُعِد به من لوحة تذكارية ومتحف .

وفـي ٥ سـبتمبر – وبعد أن فرغنا من ترحيل جثمان عثمان دقنة .. تلقيـت برقية شخصية من السيد محمد عثمان الميرغني – أكبر أنجال السيد علـي الميرغني– تفيد بأن وفداً من الخلفاء قد توّجه إلى وادي حلفا لإخراج جثمان سيدي ابراهيم الميرغني ونقله إلى حلفا الجديدة ، ملتمساً مني أن أقدم لهم كل ما أستطيع من عون . ولقد استجبت لهذا الالتماس الهام وأجريت كل الترتيـبات الضرورية لفتح القبر وإجلاء جثمان الشريف على غرار ما فعلنا لجثمان عثمان دقنة . فتم إعداد أكاليل الزهور بينما جهز الختمية الزينة التي تتطلبها المناسبة وفق طريقتهم .

وفي السادس من الشهر وصل وفد مكون من ٢٥٠ شخصاً إلى وادي حلفا على قطار خاص بقيادة الخليفة إبراهيم صالح سوار الذهب والخليفة علي محمــد عثمان مالك والخليفة محمد الأمين خوجلي والخليفة ميرغني محجوب وهــم جميعاً رجال معروفون ومبجلون لدى طائفة الختمية . فتلقاهم جمع من المواطنيــن بمحطـــة (عسنقش) . وقــد أخــبرت الخليفة إبراهيم صالح بكل التحضيرات التي أعددناها ، فشكرني قائلاً إنهم – من باب معرفتهم للظروف الصــعبة بـوادي حلفا – فقد جلبوا معهم كل المعدات التي يحتاجونها لإنجاز المهمــة . وتــم الاتفــاق – بناء على موعد مغادرة القطار لوادي حلفا في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الثامن من سبتمبر – على فتح القبر في الصباح الباكر من نفس اليوم .

وفي الساعة التاسعة من صباح ٧ سبتمبر ، اتصل بي الخليفة إبراهيم صالح هاتفياً وأخطرني بأنهم قرروا الشروع في فتح القبر فوراً (قبل يوم من الموعد المتفق عليه) وأن جمعاً غفيراً حينها قد أمّ الضريح . والتمس مني أن ألحــق بهــم فأسرعت إلى ضريح سيدي إبراهيم . وهناك وجدت حشداً يملأ المســجد والساحة التي يقوم عليها الضريح وقد علت في الجو مدائح الختمية بنبرات مؤثرة . وكان بعضهم يلوّحون بأسياقهم بينما انخرط البعض في بكاء ونحيب . وتلقاني الخليفة إبراهيم صالح سوار الذهب عند المدخل وقادني إلى داخــل الضــريح . وهناك رأيت الناس في زحام وكأنهم قد زج بهم في علبة ســـاردين . . فلم يكن هناك موطئ لقدم ناهيك عن مجال يمكن الحفّارين من القيام بعملهم . ولم نستطع – إلا بمساعدة الشرطة – من إجلاء جزء من ذلك الجمـــع الحاشــد ليتسنى لنا بدء عملية الحفر . وتصدر الاحتفال الخليفة علي

محمــد عثمان مالك حيث أدلي بفذلكة تاريخية عن سيدي إبراهيم ثم تلا جزءً من القرآن الكريم ثم أنشد قصيدة (البرّاق) التي عادة ما يدفن الختمية موتاهم على نغماتها الحزينة . وطوال هذا الوقت كانت عملية الحفر تتواصل وكانت الرمال تجرف خارج القبر . وفجأة اصطكت مقدمة الفأس بحجارة اللحد . فعم المكــان صمت عميق ، وبدأ الحفارون في إزالة الرمال عن حفرة القبر دون أن تمــتد أيــاديهم إلـــى الغطاء الحجري . في تلك اللحظة خرج بي الخليفة إبراهيم صالح من داخل الضريح وأراني قائمة من ستة خلفاء بخط السيد علي الميرغنـــي ، وأخبرنـــي أن السيد علي قد وجه بألاّ يبقى في داخل الضريح غــيرهم عــند إخراج الجثمان . عند ذلك أمرت الشرطة بإخراج الجميع من الضــريح وألا يســمحوا لأحد بالدخول إلا بإشارة من الخليفة إبراهيم . ولم تمــض سوى لحظات حتى خرج الجميع ثم دخل الخلفاء الستة وأغلقوا الباب من خلفهم وبقيت أنا بالخارج كذلك . وبعد مرور ربع ساعة فُتح الباب ونُودي علــيّ . فتخلست الضريح ومن خلفي حشد يتزاحم على الباب . هناك رأيت جــثمان ســيدي إبراهيم ممدداً على كوم من الرمل جوار حفرة القبر ، وبدا الكفــن الذي يلفه شديد البياض ، كما بدا الجسد بحالة طيبة – قصيراً وممتلئاً ولحيماً . ولقد أثرت السنوات الست والخمسون – منذ أن ووري الثرى – على قوة احتمال القماش فتآكل قليلاً من أطرافه . غير أن الخليفة مالك قال إن ذلك حــدث عــند رفــع الجثمان من القبر . وأخبرني خليفة نوبي حضر إخراج الجثمان وشارك في حمله إلى خارج القبر إن الجسد كان على حاله يوم دفن ، وهذا ما أميل أنا إلى تصديقه .

وخـــلال لحظات إمتلأ الضريح بالناس الذين كانوا يتدافعون من أجل الوصـــول إلى الجسد المسجّى لينالوا لمسة يتبركون بها . ونزل آخرون إلى داخـــل حفرة القبر ليغترفوا من الرمل المبارك بقدر ما يستطيعون ويصرّونه فـــي جلابيـــبهم وعمـــائمهم . واســـتحوذ آخرون على حجارة اللحد بنيّة أن يستخدموها – أنفسهم – في قبورهم حين يتوفاهم الله .

في خارج الضريح عمّت المكان جلبة وتعالت أصوات البكاء والترانيم وأخـــذ الـــناس يرقصـــون بعصيّهم وسيوفهم وهم مسحورون بمعجزة الجسد المصون . وذُبحت أنعام كثيرة تخليداً للمناسبة وقُسّمت لحومها على الجميع . كان الاحتفال أشبه ما يكون بطقوس روحية سامية عمقت إيمان الناس بصلاح سيدي إبراهيم وعلو شأنه .

ووضـــع الجـــثمان – عقب ذلك – على (عنقريب) وحُمل إلى ساحة المسجد بعد أن غُطّي بقطعة شفافة من قماش أخضر ليتمكن الجميع من إلقاء نظـــرة عليه ، وبقي على تلك الحال إلى ما بعد صلاة العشاء . ثم وُضع في التابوت وحُفظ داخل المسجد تحت حراسة الشرطة إلى اليوم التالي .

وفـــي الســـاعة العاشرة من صبيحة الثامن من سبتمبر امتلأت ساحة الضريح مرة أخرى بالناس . ووضع التابوت – حينئذ- على عنقريب زُخرف خصيصاً لهذه المناسبة وحُمل على أكتاف رجال الشرطة في موكب ضخم إلى محطـــة (عنقش) حيث أدخل حافلة مغلقة . وغادر القطار الخاص في الساعة الحادية عشرة صباحاً .

كـــان الســـيد علـــي الميرغني يرغب – أولاً – في نقل جثمان سيدي إبراهيم إلى الخرطوم بحري ليدفن في ضريح السيد المحجوب غير أن إلحاح

النوبيـيــن علـــى دفنه في وطنهم الجديد ، دفعه إلى إرسال الجثمان إلى حلفا الجديدة ليقبر هناك .

لـــم يكـــن سكان دغيم راضين لرؤية الجثمان وهو ينقل من منطقتهم لاعـــتقادهم بسأن بقاءه في ظهرانيهم سيمنع النيل من إغراق المنطقة وقد ساد أغلبيـــتهم شعور بالإحباط امتنعوا بسببه عن حضور عملية فتح القبر وإجلاء الجثمان .

قوبـــل القطـــار فـــي (أبـــو حمد) بحشد من الناس جاءوا للتعبير عن مشـــاعرهم تجـــاه الرجل الشريف . ونُحرت الثيران ووزّعت الصدقات على الفقـــراء والمســـاكين . وفي (عطبرة) كان في استقبال القطار بالمحطة جمع كبـــير ضـــم الحاكم العسكري للمدينة . وفي محطة (هيا) رافق الجثمان إلى (حلفـــا الجديـــدة) السيد أحمد الميرغني – الابن الأصغر للسيد علي – ومعه الســـيد سر الختم والسيد هاشم : نجلا السيد جعفر . وعند وصول القطار إلى كســـلا خرجـــت المدينة عن بكرة أبيها بقيادة السيد الحسن الميرغني وأقامت احـــتفالاً ضخماً استقبالا للجثمان . وقبل أن يصل الجثمان إلى حلفا الجديدة – بمسافة بعيدة – إستقبله مئات من الشكرية والهدندوة على ظهور الجمال بينما تســـابق موكب ضخم من السيارات والشاحنات على جانب القطار وهو يتجه إلـــى المحطة . وتوقف القطار عند نقطة قبالة مكان الدفن حيث تجمعت كتل بشـــرية جـــاء بعضـــها من مناطق نائية ليشهدوا استقرار الجثمان في مثواه الأخـــير .كان هناك شيوخ الشكرية جميعهم يعتلون جمالهم – وسط آلاف من أتـــباعهم – ويلوّحـــون بسيوفهم اللامعة تعبيراً عن ولائهم وإجلالهم لصاحب

الجــثمان . وتجمــع النوبيون من كل القرى لاستقبال الجثمان الشريف الذي أظلّهم صاحبه بالبركات طوال إقامتهم في الوطن القديم .

ثم أُخرج التابوت من الحافلة فتلقته الجموع بمشاعر غامرة من التهليل والأناشــيد . وعلت أصوات البعض من هول الإثارة بينما انخرط آخرون في الــبكاء والنحيب . وانبرى الحاكم العسكري للمنطقة وزعماء العشائر خطباء بكلمــات مؤثــرة . ثم تحدث الخليفة علي عثمان مالك فشكر المستقبلين على تجشــمهم مشاق القدوم من أصقاع بعيدة ليشهدوا مراسم الدفن وأثنى على ما نحروا من ذبائح الإبل والبقر والضأن قرباناً بين يدي المناسبة الشريفة .. كان القبر جاهزاً فأُخرج التابوت ثم ووري الثرى . وأُحيط القبر بمظلة مؤقتة من الحديد المصقول إلى حين أن يكتمل بناء الضريح . وفي وقت لاحق خصص الســيد علــي الميرغني مساحة واسعة من الأرض – في حلفا الجديدة –لبناء معهــد علمي ومسجد يحمل اسم سيدي إبراهيم إلى جانب سياج فخم قام حول القبر .

وبعد أسبوع من إجلاء ونقل جثمان سيدي إبراهيم ، استقبلتُ وفداً من الأنصــار بعث به الإمام الهادي المهدي لإجلاء وإخلاء جثمان عمه : (السيد الطاهــر المهدي) الذي توفى بوادي حلفا أثناء عودته من المنفى بمصر عام ١٩٠٨م . وبما أنه كان قد دفن بمقبرة دغيم التي كانت المياه حينئذ قد غمرتها عــند وصولهم ، فما كان في الإمكان إخراج الجثمان فعاد الوفد إلى الخرطوم دون أن ينجز المهمة .

ومـــن بين الموتى العائدين ، لم يتم إخلاء وإجلاء أحد سوى جثمان السـيد (أحمد أبو جبل) حمو(إبراهيم مدني) الذي نقل ليدفن في الخرطوم . وبقى الموتى الآخرون في أجداثهم بسلام وسكينة .

وفي ١٧ سبتمبر غادرت وادي حلفا منقولاً نهائياً إلى الخرطوم مخلفاً (نديـم) ليـتولى مهمة تهجير الفوجين الباقيين وتهجير أفواج المرحلة الثالثة (عمونيــات صـــرص ودواشات وعكاشة .) وبحلول يوم ٢٣ سبتمبر غادر الفوج الأخير من المرحلتين الأولى والثانية المنطقة .

وفـــي ٢١ أكتوبر سقط نظام الرئيس عبود . فتكاتفت الحكومة الجديدة (تحـركها الرغبة في تشويه سمعة إدارة عبود)مع العناصر المناوئة للتهجير بالخرطوم وحلفا القديمة. وفتحت الباب واسعاً أمام الاتهامات والانتقادات ضد قضية التهجير وإعادة التوطين برمتها . وانتهى الأمر إلى رفع شكاوى تحوي كافـة أنماط الاتهام ضد الأشخاص الذين اضطلعوا بواجبات التهجير وإعادة التوطيـن . وتم تكوين لجنة لتقصي الحقائق تولت فحص كل جوانب المسألة وإعداد تقرير عنها . وعقدت اللجنة عدة اجتماعات واطّلعت على كافة وثائق وتقاريـر لجنة التوطين بالإضافة إلى تقرير مراجعة عامة شمل كل حسابات المصـروفات . ولم تجد اللجنة ما يستأهل توصية بمشروع اتهام لأحد . وقام رئـيس الوزراء يصحبه بعض الوزراء وقادة النوبيين المقيمين في الخرطوم بـزيارة لحلفا القديمة وقابلوا السكان المقيمين هناك . وكان طبيعياً أن يجدهم الوفد في وضع حرج لأنهم ظلوا في حركة مستمرة تبعاً للارتفاع المطّرد في منسوب المياه الذي كان يطاردهم . وسيحتاج الأمر إلى سنوات عديدة قبل أن يـتوقف منسوب المياه عند شواطئ ثابتة يحط عندها السكان رحالهم بصورة

نيابـــية . وبـــدلاً من أن يكون رئيس الوزراء عملياً فإنه بذل وعوداً مفرطة يتعذر الوفاء بها ويصعب تنفيذها على الفور .

أخّرتْ هذه المناورات تهجير المرحلة الثالثة وجعلته أمراً مشكوكاً فيه بيـــنما تواصـــل ارتفاع منسوب المياه وهدد المنطقة الشمالية لفرص بالغرق وقطـــع الطـــريق الوحـــيد الذي يصلها بالناحية الجنوبية . ولحسن الحظ فإن الوضـــع لم يستمر – هكذا –طويلاً . فحالما تسلمت الحكومة المنتخبة مقاليد الأمور ، اتخذت قراراً بمواصلة تهجير المرحلة الثالثة ، وتم رصد اعتمادات مالـــية لتشـــييد القـــرى اللازمـــة مما مكن المقاولين من إنجاز بنائها بسرعة معقولة. وأصبح تصميم المنازل أفضل وأنسب مما كان عليه - في المراحل السابقة - بالرغم من أنه تم بنفس الإمكانات المتوفرة .

وفي ٢٠ أكتوبر ١٩٦٥م - وبعد مرور عام بالضبط على سقوط نظام الرئـــيس عـــبود – غـــادر الفوج الأول من المرحلة الثالثة إلى خشم القربة . وبحلـــول يـــوم ٢٣ نوفمـــبر تم تهجير الفوج الأخير من المنطقة وكان عدده ٢٣٥٧ شخصـاً . غير أن العقبة الوحيدة التي واجهت التهجير في هذه المرحلة هي أن السيارات كانت تقطع مسافة طويلة من القرى إلى محطة السكة حديد وإلـــى مطـــار وادي حلفا. (ففي حالة "أكمة" وقرية عكاشة بلغ طول المسافة ١٢٠ كيلو متراً) .. ولم يحدث – كما أخبرني (نديم) – أي حادث ذي خطر خـــلال تهجير هذه المرحلة . وإلى هنا أُسدل الستار على عملية التهجير بكل مراحلها الثلاث .



جثمان عثمان دقنة قبل نقله إلي أركويت



جثمان إبراهيم الميرغني قبل نقله إلي حلفا الجديدة

الفصل الثالث والعشرون

تكاليف التهجير وإعادة التوطين

أثــارت ميزانية لجنة التوطين كثيراً من الشك في الأوساط الشعبية وعلى صــفحات الجرائد . فالأرقام التي قالت بها الشائعات – خصوصاً فيما يتعلق ببناء المســاكن – كانت مبالغاً فيها ، فقد قدّر البعض تكلفة بناء المنازل – وحدها – بما جملته ٢٧ مليوناً من الجنيهات

.. إن الحســابات الختامــية لكل التكاليف المرتبطة بهذا الموضوع – وفقاً للمراجعة التي قام بها مفتشو مصلحة المراجعة [1]– جاءت كما يلي :

١– المرتبات والعلاوات : ١،٦٣٦،١٣٠ جنيه

يشمل هذا الرقم رواتب وعلاوات كل الموظفين والعمال التابعين للوزارات الحكومــية الذيــن شاركوا في تنفيذ عمليتي التهجير وإعادة التوطين (رئاسة لجنة التوطيــن ، إدارة التهجير بوادي حلفا ، مكتب إعادة التوطين بخشم القربة ، إعداد قوائــم التعويضات وتسديد قيمتها ، مصروفات عمليات الإحصاء ومرتبات موظفي الأشــغال والــري والزراعة والصحة والتعليم والثروة الحيوانية والغابات والأمن والمساحة والإعلام ، الذين كانوا يتبعون للجنة التوطين٠)

٢–الخدمات المصلحية : ٧٥٥ , ٤٤٦ جنيه

كــان الــرقم الأكــبر – الذي يندرج تحت هذا البند – هو تكاليف ترحيل المهجّرين بالشاحنات ونقل أمتعتهم من مكان إقامتهم إلى محطة السكة حديد بوادي حلفــا ثم من محطة خشم القربة إلى قراهم الجديدة ، إضافة إلى تكاليف ترحيل كل الموظفين والعمال بالسكة حديد والسيارات خلال سنوات بناء منطقة إعادة التوطين ، وتكاليف خدمات البريد والبرق وقيمة المعدات المكتبية .

٣–تكاليف الإسكان والمرافق الحكومية : ١٥،٩٠١ , ٢٦٩جنيه

---

[1] ديوان المراجعة العامة حالياً – الخرطوم.

كـان ذلك أكبر وأهم بنود المشروع كله . وتندرج تحته قيمة تشييد ٧٢٢٤ منزلاً للأهالي و ٢٠٣ منزلاً حكومياً لسكن للموظفين والعمال ومسجداً جامعاً بحلفا الجديـدة و٢٥ مسـجداً صغيراً بالقرى وأربع مدارس متوسطة ومعهد علمي و٢٧ مدرسـة ابتدائـية ومستشـفى كبير (درجة أولى) ومكاتب إدارية للمجلس المحلي ومحكمتيـن ورئاسـة للشـرطة ومستشفى بيطري وسوق للحوم والخضر بالمدينة وسـجن ومكتب للبريد والبرق ورئاسة للري وأخرى للزراعة ومحطة مياه شرب للمدينة .

ومـن بيـن كل هذه الأعمال الإنشائية كلّفت عملية تشييد منازل الأهالي – وحدها – ١٤,٠٠٠,٠٠٠ جنيه .

٤-أتعاب المهندسين الاستشاريين: ١ ٧ ٤٢٧,٠ جنيه

وهي المبالغ التي دُفعت للسادة (كوكس الهندسية) وللمهندسين الاستشاريين السودانيين الذين أشرفوا على تشييد المباني .

٥-التعويضات : ٢،٩١٣،٨٦٧ جنيه

وقد تم دفعها لأهالي وادي حلفا عن ممتلكاتهم الثابتة التي غرقت تحت مياه البحـيرة . وقـد بلغت تعويضات النخيل – وحدها – حوالي ٣ مليون جنيه . أما تعويضات الأراضي والمنازل فقد استبعدت من هذا الرقم .

٦-إدارة التهجير : ١،٠٣٦،٥٧٧ جنيه

وتشـمل قيمة ترحيل أهالي وادي حلفا وأمتعتهم بالسكة الحديد إلى موطنهم الجديد بالإضافة إلى تكلفة حزم الأمتعة وقيمة زاد الرحلة للمهجرين .

٧-إعاشة المهجّرين : ١٣١،٥٤٢ جنيه

دفعـتها الحكومة مشاركة في العون الذي وفرته منظمة الأغذية والزراعة العالمية وتكلفة لوجبات الطعام الذي قُدم للمهجّرين في يوم وصولهم للوطن الجديد . ويشمل هذا المبلغ إدارة كميات الغذاء الذي وفرته المنظمة وتخزينه .

٨-مصروفات أخرى : ٢،١٩٦،٧٨٤ جنيه

تم شراء كل الماكينات الزراعية من هذا المبلغ لمشروع خشم القربة إضافة إلـــى قيمة أسطول السيارات المخصص لإدارة المشروع . ويشمل المبلغ أيضاً كل مصروفات تحضير الأرض للمرحلة الأولى للمشروع وتكاليف المزرعة التجريبية ومصنع السكر وحفر قنوات (أبو عشرين) وحفر آبار مياه الشرب للقرى .

وهكـــذا فإن جملة بنود المصروفات التي خصصت لعملية التهجير وإعادة التوطين قد بلغت ٢٥،٩٩٥،٧٨٤ جنيه .

لقد أنحى كثير من الناس باللائمة على اللواء فريد أو قُلْ : على إدارة عبود لقـــبولها مبلغ ١٥ مليون جنيه تعويضاً من مصر ، على أساس أن هذا المبلغ كان ضـــئيلاً للغايـــة . إلا أن منطق الناقدين لم يضع اعتبارا للمصروفات الباهظة التي خُصتصـــت لتشييد منازل الأهالي وقيمة ١١ مليون جنيه صرفت على إقامة خزان خشـــم القـــربة . وقد رأى الناقدون أن كل هذه المصروفات كان ينبغي أن تضمن (الفاتورة) التي رفعها اللواء فريد للحكومة المصرية . وفي ظني فإن تلك الحجة لم تكـــن من الإنصاف في شئ . ففي المقام الأول فإن كل المنازل التي غمرتها مياه البحـــيرة - تقريباً - كانت من مستوى متدن ، فهي إما مبان طينية أو من الطوب الأخضـــر . وكـــان متوسط قيمة المنزل حسبما أوضحته قوائم التعويض لا يتعدى ٢٥٠ جنيهاً . ولو شيدت إدارة عبود القرى الجديدة في خشم القربة بالمستوى الذي كانت عليه في وادي حلفا ، لانخفض مبلغ الـــ ١٤ مليون من الجنيهات إلى ٢،٦ ملـــيون جنـــيه - كحد أقصى - إذا وضعنا في الاعتبار الإرتفاع الطفيف في قيمة المســـاكن الطينـــية بوسط السودان . وإن الذين يحتجون بعدم قدرة المباني الطينية علـــى الصمود أمام الأحوال المناخية بخشم القربة ، ينبغي أن يتذكروا أن كل قرى الجزيـــرة -- رغم أمطارها الغزيرة - شيدت بالطين وأن بعض المنازل - في خشم القربة ذاتها - شيدت بالطين الخام . ولعل السبب في ارتفاع تكلفة المباني في خشم

القرية بالصورة التي بيّنتها الأرقام يرجع إلى أن إدارة عبود كانت قد صممت على خلــق ظروف معيشية حديثة تقوم على تخطيط عصري وتشييد مبان بالمواد الثابتة (هــذا ما لم يكن من هموم المصريين.) ولو سارت الأمور مع شركة (ترف) كما كان مأمولاً لنزلت قيمة التكلفة الإجمالية إلى ما دون النصف . ولا بد من أن نشير إلــى أن المصــــريين أنفسهم لم يوفروا مثل هذا المستوى العالي لنوبييهم الذين تم تهجيرهم إلى (كوم أمبو .) ومن ناحية أخرى فإن الحجة القائلة بإضافة تكلفة خزان خشم القربة أو جزء منها إلى (الفاتورة) ، تدحضها حقيقة أن أهالي حلفا لم يكونوا يعــرفون خزاناً في وطنهم القديم . وكانت وسائل الري عندهم مقصورة إما على سواقيهم التقليدية أو على المضخات ذات الدفع المحدود . وقد تم تعويضهم عنها في البـند (رقم ٥) من الميزانية الواردة أعلاه . ولعله من المناسب –هنا– أن نذكر أن كــل تلــك المضخات قد تم تفكيكها بواسطة وزارة الزراعة واستخدمت في أجزاء أخرى من السودان .

.. أما خزان خشم القربة فقد كان مشروعاً مستقلاً وظل قيد النظر منذ أيام الإدارة البريطانية عندما كان السد العالي مجرد فكرة تستهوي قليلاً من علماء المياه المغامرين . وحتى لو تم اختيار مشروع بديل للسد العالي ، فقد كان لا بد من قيام مشروع خشم القربة . ولا أظن – حينئذ – أن أحداً سيعترض على السماح للنوبيين – باعتبارهم سودانيين وبالنظر إلى الضيق الحاد في أراضيهم الزراعية – بالنزوح مــن بلادهــم والإقامــة في منطقة المشروع دون أن يفقدوا ما غرسوه في وطنهم الأول. ولعل الحاجة الماسة لرقعة زراعية – والتي واكبت تهجير أهالي وادي حلفا – كانــت هي وحدها الدافع للإسراع بتنفيذ المشروع مما أوحى لكثير من الناس أنه أقــيم خصيصاً للحلفاويين دون أن ينتبهوا إلى حقيقة أن أهالي حلفا لم يشغلوا سوى خمس مساحته بينما تم تقسيم باقي المساحة على القبائل المحلية .

لقــد غابت حقيقتان هامتان عن ذهن الناقدين ، أولاهما أن الفائدة الإجمالية التـي جنـاها السودان من مياه النيل المتوفرة من قيام السد العالي قد بلغت ١٤,٥ مليار متر مكعب .. أي ضعف الكمية التي توفرت للمصريين أنفسهم . ورغماً عن ذلك فإن الخزينة العامة المصرية تحملت تكلفة إنشاء المشروع دون إقحام السودان فـي التزامات مالية . وثانيتهما إن كل ما صرف على قيام مشروع خشم القربة لم يكـن هـدراً . فـإذا وضـعنا جانباً تشييد المنازل والتعويضات النقدية ، فإن كل المصـروفات وُجّهت إلى استثمار اقتصادي مجد . فالمشروع بالضرورة يدر دخلاً بذاتـه. إضـافة إلى العائد الذي يتمتع به المزارعون من خلال انتاج المحصولات الزراعية . فهو يغذّي الخزينة العامة سنوياً بمبلغ ٦ مليون جنيه .

لقـد انتقد البعض معدّلات التعويض التي دفعت عن أشجار النخيل باعتبار أنهـا كانت سخية للغاية بالمقارنة مع مبلغ الجنيهين الذي دفعه المصريون تعويضاً عـن النخلة الواحدة في النوبة السفلي . وأنا أعترف أننا كنا نميل قليلاً إلى شيمة الكـرم غير أننا لم نبالغ في ذلك . فقد شرحت – مسبقاً – كيف أننا صممنا معياراً لمعدلات تعويض عادلة .. كان المبدأ العام الذي التزم به أعضاء اللجنة هو الوقوف بصـلابة ضـد أي إتجاه يسبب ظلماً للنوبيين فيما يتعلق بتعويضهم عن نخيلهم . وساورنا إحساس بأنه من الخير أن نجزل لهم العطاء قليلاً من أن ننال من حقوقهم شيئاً . فجاءت النتيجة متماشية تماماً مع الأسعار الجارية لأشجار النخيل في السوق واستفاد النوبيون من القاعدة التي اتبعناها باعتبار المعمّر والمشتول من النخيل في مرتبة الذي في أوج إنتاجه. أما معيار المصريين لتقديرات التعويض – في النوبة السفلي – فليس من شأني .

وإذا مـا عدنـا إلـى تكاليف إقامة مباني الخدمات العامة (البند الثالث من ميزانية التهجير وإعادة التوطين) ، فإننا نقف عند حقيقة أن تلك المباني أقيمت من أجل خدمة منطقة المشروع وما يجاورها من القرى لا من أجل خدمة أهالي وادي

حلفا فحسب . وبالتالي فليس من الإنصاف أن تحمّل قيمتها الكلية ميزانية إعادة توطين أهالي وادي حلفا المحددة .

دعونا الآن نلقي نظرة واقعية على قيمة (الفاتورة) التي كان ينبغي أن يسددها المصريون كتعويض عادل لحكومة السودان . فإن المادة (٥) من الفصل الثاني للاتفاقية تعرّف الغرض الأساسي للتعويض وتحدده كما يلي :

(توافق الجمهورية العربية المتحدة على دفع مبلغ ١٥ مليون جنيه مصري لجمهورية السودان تعويضاً كاملاً عن الخسائر التي تقع على الممتلكات السودانية الحالية بسبب تخزين المياه في بحيرة السد العالي إلى ارتفاع ١٨٢ متراً) . وهكذا فإن من الواضح أن التعويض كان يعني الممتلكات التي تغمرها مياه البحيرة لاغير. إلا أن النقاد الحانقين كانوا يقولون إنه كان من الواجب أن يشمل التعويض إقامة مشروع إعاشي لأهالي حلفا ، ناسين أن كل أشكال الاقتصاد الزراعي للمنطقة (الأرض ، النخيل ، وسائل الري) كانت - بالفعل - جزءاً من الممتلكات الغارقة التي تم تعويضها بمبلغ الـ ١٥ مليون جنيه . وفيما يلي تفاصيل الممتلكات التي فُقدت مع بيان قيمتها :

منازل النوبيين :	٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه
أشجار نخيل وأصول زراعية أخرى:	٣,٥٠٠,٠٠٠ جنيه
أراضي (١٥,٠٠٠ فدان):	٢,٥٠٠,٠٠٠ جنيه
مباني حكومية :	٠,٢٥٠,٠٠٠ جنيه
الجملة :	**٨,٢٥٠,٠٠٠ جنيه**

الأرقام الواردة أعلاه هي جملة قيمة الممتلكات التي غرقت في مياه البحيرة بالمنطقة المتأثرة بفيضان السد العالي والتي تم تعويض حكومة السودان عنها تماماً . وتغطي عملية إدارة التهجير - حتى وصول المهجرين إلى قراهم

الجديدة بسلام – كل الفصل السادس (١,٠٣٦,٥٧٧ جنيه) ، ونصف الفصل الأول (٠,٨١٨,٠٦٥ جنيه) وكل الفصل الثاني (٠,٧٥٥,٤٤٦ جنيه) وكل الفصل السابع (٠,١٣١,٥٤٢ جنيه) وذلك ما جملته ١٠,٩٩١,٦٣٠ جنيه وبفائض قدره ٤ مليون جنـيه تـم رصده لإجراء أي تحسينات على مشروع إعادة التوطين . وأظن أنه – وفقـاً لهـذه الأرقام – يمكن للمرء أن يحكم على مدى عدالة أو عدم عدالة المبلغ المقرر للتعويضات (١٥ مليون جنيه) .

إن انـتقادي الشخصي للفاتورة التي تقدم بها اللواء فريد هو أنها بُنيت على التخمين ولم تستند على قوائم مفصلة للممتلكات المتضررة أو تقديرات دقيقة بقيمتها ولذلك فقد شابها عنصر المغامرة ، ولولا الصدفة المحضة لما كانت النتيجة عادلة.

بقيـت نقطة أخيرة تتعلق بالانتقاد الذي وُجه لعملية الصرف الإضافي التي حدثـت فـي العمليـات الإنشائية بموقع خزان خشم القربة . فقد كانت التقديرات الأصـلية لـتلك العمليات مبلغ ٧ مليون جنيه، إلا أن الأعمال الإنشائية الإضافية والظـروف الأخـرى غير المنظورة أدت إلى زيادة التقديرات لتصبح ١١ مليون جنيه. هنا ثارت ثائرة الصحافة ودبّج المحررون – الذين غابت عنهم حقيقة الوضع – مقـالات نـاقدة. غير أن الموقف الحقيقي – الذي أوضحته وزارة الري في ٢٤ سـبتمبر ١٩٦٦م أشـار إلى تفاصيل الأعمال الإضافية التي لم تشملها وثيقة العقد الذي أُبرم مع شركة (ترف) وذلك كما يلي :

١– تحويل مجرى نهر عطبرة مؤقتاً : ٤٩,٠٠٠جنيه

٢– تجسير أعماق وضفاف القناة الرئيسية بالأسمنت المسلح لمسافة معقولة من مخرج بحيرة الخزان : ٢٧٢,٠٠٠ جنيه

٣– إقامة أعمال إنشائية لمحطة (التربينات) في الجانب الأعلى للنهر خلف الخزان : ١٢٥,٠٠٠ جنيه

٤– قررت الحكومة إقامة مصنع للسكر – أثناء تشييد

الخزان – في منطقة خشم القربة ، وبما أن قصب السكر

–على عكس محصولات الدورة الزراعية – يحتاج

إلى ري مستمر طوال العام ، كما أن منسوب مياه

بحيرة الخزان سيكون منخفضاً بحيث لا يغذي القناة الرئيسية

في فصل الجفاف ، فقد تقرر إقامة مضختين عملاقتين

عند الخزان لرفع المياه إلى القناة بتكلفة قدرها : ٣٥٠,٠٠٠ جنيه

٥– تشطيبات الخزان وأعمال إنشائية أخرى : ٤٥٠,٠٠٠جنيه

٦– معدات إضافية للأعمال الكهروميكانيكية : ٤٧٦,٠٠٠ جنيه

٧– أثناء عمليات الحفر في قاع النهر، اضطرت شركة

(تورنو) أن تعمق الحفر، مما تطلب صرفاً إضافياً

علي المعدات والمواد : ٩١٠٣٧١جنيه

٨– أ– احتياطات مؤقتة في قاع النهر : ٨٨,٠٠٠ جنيه

ب– أتعاب المهندسين الاستشاريين للأعمال الإضافية : ٢٥٩,٥٣٤ جنيه

٩–أ– مطالبة شركة (تورنو) مقابل إسراعها في رفع

معدل تنفيذ المباني تعويضاً عن الوقت الذي ضاع في

حفر أعماق النهر : ٧٧٩,٠٠٠جنيه

ب– مطالبة شركة (تورنو) مقابل أعمالها الميكانيكية

والكهربائية المرتبطة بتشغيل المضخات ٤٠,٠٠٠ جنيه

١٠–تعزيز متانة الأعمال الأسمنتية التي لم يكن

تعزيزها مقرراً قبلاً : ١,٣٠٠,٠٠٠جنيه

الجملة **٤،٢٨٦,٨٠٥ جنيه**

وقد صادق مجلس الوزراء ، على هذا المبلغ في ١٧ أكتوبر ١٩٦٦م .

الفصل الرابع والعشرون

مشكلات ما بعد التهجير

فـــي نهايـــة عـــام ١٩٦٤م كان أكثر من ثلثي سكان المنطقة المتأثرة بفيضان السد العالي قد وصلوا إلى خشم القربة ، وبدأوا في الاستقرار بمدينة حلفا الجديدة وقراها . ولقد اختلفت حياتهم الجديدة في العديد من جوانبها عمّا ألفـــوه فـــي موطنهم السابق . فلقد تغيّرت أولا البيئة . فالنيل بشطآنه الخضر وجـــزره السندسية ، ونباتاته الكثيفة والمتفرقة وبغابات النخيل على ضفتيه ، هذا النيل الذي سيروا فيه (فلوكاتهم) ، وشاهدوا فيه البواخر الرائحة والغادية مـــن مصر ، وهي محملة بالركاب والبضائع .. كل ذلك لم يعد له وجود في موطـــنهم الجديـــد . فنهر عطبرة كان وادياً ضيقاً مقارنة بالنيل العريض ، وشواطئ نهر عطبرة كانت كثيبة وتكتسي بمجموعات متفرقة هنا وهناك من شـــجيرات السنط الشوكية التي وقفت دليلاً على طبيعة تلك الشواطئ الجافة . وعوضـــاً عن الامتداد الفسيح والخالي للصحراء برمالها التي لا يهطل عليها المطـــر ، وهضابها الصخرية ، التي عزلتهم عن منطقة السافنا ، أصبح لهم حـزام مســـطح ممطـــر فـــي منطقة السافنا يسكنه عرب جاءوا إلى منطقة المشروع حديثاً أو رعاة إبل يترحلون بقطعانهم في أرض البطانة . وأكثر من ذلـــك فان طرائقهم في الزراعة تغيرت بصورة جذرية ولم يعد هناك نخل في موطـــنهم الجديـــد ولا ساقية ولا جروف. وبدلاً عن النقص الحاد في الأرض الذي طالما عانوا منه لزمن طويل في وادي حلفا وبدلاً عن محاصيل الدورة الزراعـــية التي كانت النساء يقمن فيها بالإبذار والحصاد ، أصبحت المشكلة في كيفية التعامل مع متطلبات الحواشات (الجديدة) الواسعة التي منحت لهم . وإذا تركـــنا القمـــح جانباً فقد كان عليهم الحصول من السوق على محاصيل الدورة الزراعية التي يتكون منها غذاؤهم . فالعدس والكبكبي والترمس وكذلك

البسلة التي يُعد من أوراقها طبيخ (الورتيق) الشعبي الذي يؤكل مع الكابيدة، لا يمكسن زراعتها في حلفا الجديدة . ومساكنهم الجديدة أنشئت على طراز البناء فـــي أواســط الســودان الــذي أوثر على العمارة النوبية ليتناسب والظروف المناخـية للبيــئة الجديــدة. فــلا وجود هنا للصحاف الصينية لتزين بوابات المــنازل، ولا وجــود للمساطب التي تمتد على طول الجدران الأمامية والتي تجلــس النسوة عليها في المناسبات الاجتماعية . وفوق ذلك كله تنعدم أشجار النخيل التي يستظلون بها من حرارة الشمس .

ومـــن الناحية الاقتصادية أفتقدوا مصدراً مضموناً لا يتطلب عملاً ألا وهو الدخل الذي كانوا يحصلون عليه من ثمار النخيل . وكان يتوجب عليهم الاعتماد على قواهم البدنية أو على استخدام الآلات ذات التكلفة المالية العالية، كما أن مداخيلهم من الحولات البريدية تدنت نسبة لأن عدداً من أرباب الأسر الذيــن كــانوا مغتربين عن أسرهم آثروا العودة والاستقرار مع أطفالهم في ديارهم الجديدة .

وبعامـــه فإن وسطهم البيئي قد أهتز اهتزازا عميقاً ، كما أنّ محيطهم الجديــد أفادهم بتجارب وخبرات جديدة ، لم يعتادوا عليها ، كان يتحتم عليهم التكيف معها .

إنّ مناقشـــة تأثـيرات مجمل التحولات هذه على المجتمع النوبي الذي حل بخشم القربة ليست موضوعي هنا ، ولكنني أعتقد إنها تدعو لإثارة انتباه علماء الاجتماع ، وتهيئ لهم مجالاً ثراً للبحث. أنا مهتم بتقديم صورة واضحة للخطــوات التي تم اتخاذها لحل المشكلات الآتية التي واجهت المهجّرين في

المــرحلة الأولى ، وهم يضعون أقدامهم في الطريق الصحيح نحو الاستقرار النهائي :

(١) الأراضي الزراعية :

بالـــرغم من أن الخطة الأصلية لمشروع إعادة التوطين كانت تتكون من ثلاث وعشرين قرية ، وفي كل قرية ٢٥٠ منزلاً بمساحة كافية حول كل قـرية ،حيــث تغطي أعداد (الحواشات) أعداد المنازل . ومع أن مدينة حلفا الجديـــدة وضعت في الوسط ووقعت كل قرية على مسافة ثمانية كيلو مترات مــن الأخرى حتى لا تتجاوز المسافة بين أكثر الحواشات بعداً وحدود القرية عن أربعة (كيلو مترات) ليصبح وصول الفلاح إليها سهلاً، إلاّ أن هذه الخطة الأصلية المحكمة ، – لسوء الحظ – قد تأثرت أثناء التنفيذ باستجابة الحكومة للشـــائعات القائلة بأن نسبة مقدرة من سكان حلفا يفضلون السكنى بمقربة من ضـــفاف البحـــيرة ولذلـــك قـــررت تخفيض عدد المنازل في عدد من القرى وبخاصة القرى رقم (٢١،١٦،١٢،٩،٧،٤) . فقد تم تخفيض المنازل في كل قرية منها إلى مائة وخمسة وسبعين منزلاً . كما تم تخفيض عدد المساكن في القرية رقم (٢٣) إلى مائتي منزل. أما في القريتين (٢٠و٣٣) فقد تم تخفيض المـــنازل إلـــى ٢٣٥ منزلاً . ولقد كان لهذا القرار أثر مزدوج ، ففي المقام الأول تحـــتم لاحقـــا (عندما اتضحت الصورة) بناء قريتين إضافيتين استجابة للوضع الذي حتّم نقل السكان إلى مناطق أقل ازدحاماً، كما أن عدد الحواشات فـــي كثـــير مـــن القـــرى أصبح أكثر من المساكن ، في الوقت الذي نقصت الحواشات في القرى الأخرى مما أحدث اضطرابا في عملية توزيع الحواشات المطردة والتي تم تخطيطها من قبل .

وعـــندما اســـتجابت الحكومـــة لمناشدة أهالي قرية (الحصا) بفصل منطقة المشروع عن أراضي الملك الحر، كان ذلك على حساب الأرض التي تـــم تخصيصـــها من قبل للحواشات . لذلك فقد تم تقليص (الحواشات) فعلياً وجاء هذا القرار متزامنا مع إلغاء قرار تم اتخاذه من قبل ينص على منح كل عائلـــة فداناً واحـــداً لزراعة الفاكهة . كما أدى هذا أيضاً إلى إبطال النظام الصارم الرامي إلى أن تكون كامل الحواشات على حدود القرى .

ولمـــا لم تجد الحكومة حلاً لهذه المشكلة المثيرة للقلق ، اتخذت قراراً يقضي بان يقوم منح الحواشات على نظام يقوم على أسبقية وصول المهجّرين لديـــارهم الجديدة . وفي هذه المرحلة التي لم تتضح فيها الرؤية، وصل أول أفواج المهجرين إلى منطقة خشم القربة . وما إن وصلت الأفواج الأولى من المهجّرين حتى أطلت مشكلة أخرى برأسها ، نشبت من بند من بنود الاتفاقية المـــتعلقة بـــالأرض الزراعـــية . فوفقاً لهذا البند كان على المزارع دفع تسع جنيهات ومئتانة قرش مقابل رّي خمسة أفدنه في دورة القمح الزراعية . هذا البـــند تـــم رفضـه من قبل النوبيين. فلقد تم تقدير قيمة الري في الحقيقة على أســـاس الفـــئة المقـــررة له في كامل المشروع وتلك نظرة تأخذ في اعتبارها التشـــغيل والصيانة وما يتم استهلاكه من أصول في عملية الرّي . ولحساب ذلـــك بصـــورة صحيحة ، كان أكثر العناصر أهمية (والذي كان موضوعاً لنقاشـــات مطولـــة) هو متوسط العمر الافتراضي لخزان خشم القربة ذاته . وبالنســـبة لهذه النقطة أورد ممثل مصلحة الري ما يفيد بأن الخزان سيعمل أربعين عاماً لا غير . أما الاعتراضات التي أثارها الأعضاء من غير الفنيين –وهـــي أنّ خزان سنار الذي تم بناؤه من الحجر والأسمنت المسلح يبلغ من

العمر أربعين عاماً ومن المتوقع أن يستمر في الخدمة لسنوات قادمة كثيرة – فلــم يكــن لها من أثر . وتم الأخذ بالرقم الذي ذكره ممثل وزارة للرّي دون تغيــير . وقــد أدى ذلك إلى رفع تكلفة الري كثيراً وجعلها تكاد تساوي تكلفة الــري بالطلمــبات . ولقد قاوم النوبيون مبدأ جمع رسوم المياه معتمدين في مقاومتهم على أن الاتفاقية الزراعية في مشروع الجزيرة لا تنص على جمع رســوم للمياه فيما يتعلق بزراعة محصولي الذرة والقمح ، وأن الدولة إكتفت هناك بجزء من أرباح القطن المنتج ، وبالضرائب التي يدفعها المزارعون عن المحاصــيل التــي يزرعونها باختيارهم. وبناء علي ذلك فقد طالب النوبيون بتطبيق ذات الشروط عليهم.

المشــكلة الثالــثة كانــت مشكلة سايكلوجية خالصة تلك أنه كان من المقرر أن تتم حراثة الأرض وتجهيزها للزراعة قبل وقت كاف ، حتى يتسنّي توزيعهــا علــى الأهالي فور وصولهم ليبدأوا عملية البذار للدورة الشتوية . ولقد ألمح اللواء عروة إلى ذلك في الخطاب الذي ألقاه بمناسبة وصول الفوج الأول للمهجريــن . وبعــد يوم واحد فقط من وصولهم طلبت الحكومة منهم استلام حواشاتهم وبدء العمل في الدورة الزراعية . وقد تجاهل الأمر (والذي تــم تطبــيقه بصورة آلية) الظروف النفسية للمهجرين في أيامهم الأولى في موطنهم الجديد . وما كان على الحكومة أن تتوقع منهم حال وصولهم بقلوب مــثقلة بلواعج فراق أرض الأجداد إلى مكان آخر جديد تماماً بالنسبة لهم ، و أمتعــتهم لا تــزال محزومة .. ما كان لها أن تتوقع منهم أن يندفعوا زرافات ووحدانا نحو مزارعهم ليبذروا القمح . كانوا في حاجة لبعض الوقت ليتمكنوا من ترتيب أمتعتهم وتهيئة مساكنهم والتعرف عليها ، ولمعرفة قراهم والتعايش

مـــع بيئتهم الجديدة ... كانوا مشغولين بمشاكل بيوتهم ، وما كان هناك مجال للتفكير في مشاكل الزراعة وما يرتبط بها من مصاعب جسمانية وجهد نفسي . ولقــد رأت اللجــنة الوزارية أن تفويت دورة زراعية يعد خسارة قومية ، وكانت محقة في ذلك ، ولكن لتجنُب الخسائر ، كان عليها أن تجري ترتيباتها ليصـــل المهجــرون فـــي وقت أبكر من الذي وصلوا فيه . كل هذه العوامل مجــتمعة كانــت السبب في رفض النوبيين استلام (حواشاتهم) الجديدة. ولقد تركزت مطالبهم حول رسوم المياه وباءت محاولات الحكومة – في إقناعهم – بالفشـــل . ولما كانت تلك هي النتيجة ومع رغبة اللجنة الوزارية الأكيدة في عـــدم خسران الموسم الزراعي ، فقد قررت منح (الحواشات) لأي مواطن ، ســـواء كان نوبياً أو غيره دون أي التزامات حتى يتم النظر في الموضوع . كـــان هذا القرار بمثابة فتح الباب للمتقدمين من غير النوبيين ، ومعظمهم من عـــربان المـــنطقة ، الذيـــن تمكنوا من حيازة الحواشات فوراً . ولقد حصلت القـــبائل المحلـــية وحدها على ١٤٠٠ حواشة . وأضافت تداعيات هذا القرار تعقيدات أخرى على الوضع المعقد أصلاً .

وقبل بدء الموسم الزراعي الجديد كانت الحكومة قد أعادت النظر في مســـألة رسوم المياه وقررت إعفاء دورة زراعة القمح من الرسوم مثلما هو الحال في مشروع الجزيرة . فكان الرد الفوري للنوبيين إيجابيا ، ولكنّ العديد من المشاكل تلت ذلك بسبب رفض رجال القبائل المحلية التخلي عن حواشاتهم الألـــف والأربعمائة حتى يتم تعويضهم في المرحلة الثانية والثالثة للمشروع. وهذا ما جعل التوزيع المنظم (للحواشات) أكثر صعوبة . كما أن الموقف تفاقم بسبب السياسة غير المنضبطة في التوزيع نفسه . فهناك خمسمائة من أرباب

الأسر تم منح كل واحد منهم (حواشتين) ، وهناك اثنان وعشرون آخرون تم منح كل واحد منهم ثلاث حواشات. هذا غير خمسة عشر محظوظاً حصل كل واحد منهم على خمس أو ست حواشات . ونتيجة لذلك سادت عمليات التعدي على أراضي الآخرين مجمل أنحاء القرى في منطقة إعادة التوطين بداية من قرية (فرص) حتى قرية دغيم ، بل أن مزارع قصب السكر تعرضت للتعدي لدرجة ما وتم التعويض عن بعضها.

كانــت (حواشات) آلاف المزارعين بعيدة عن مساكنهم وهكذا انتفي الهــدف مــن وراء التخطيط الجيد الذي وضع من قبل . وعينت الحكومات المتعاقبة لجنة إثر لجنة لمراجعة الأمر ولكن تلك اللجان لم تحرز ألا تقدما يسيراً . فالملاك الذين امتلكوا أكثر من حواشة منحوا واحدة فقط وتم إخراجهم من الحواشات الأخرى وحولت تلك الحواشات لأرباب الأسر الذين حرموا من الحواشات في التقسيم السابق .

أستطيع القول إن المشكلة برمتها كانت ترجع إلى خمسة عوامل هي :

أولاً : تقليل عدد المساكن في القرى وإنشاء قرى جديدة لا يتناسب عددها مع عدد الحواشات .

ثانــياً : القرار الذي اتخذته الحكومة من جانب واحد وهو ضم أراضي الملك الحــر إلى منطقة المشروع في مراحل تخطيطه الأولى دون الرجوع للأهالي وهو نفس القرار الذي سفهه أهالي (الحصا) في غير وقته.

ثالــثاً : فــرض رسوم على المياه في الدورة الزراعية للقمح وهو أمر غير ملائم .

رابعــاً : العجلـــة غير اللائقة في حث المهجرين على استلام حواشاتهم فور وصولهم وفي وقت كانوا فيه غير مهيئين نفسياً.

وأخيراً : توزيع حواشات النوبيين على القبائل المحلية .

وبقيــت هــنالك معضلة متعلقة بالأرض . ففور قيام الحكومة بفصل أراضـــي الملــك الحـــر عن أراضي المشروع، قام النوبيون بتسليم عريضة تحوي المطالب التالية كشرط للموافقة على تسجيل أراضيهم. والمطالب هي : أن يــتم إدخـــال أراضـــيهم المملوكة ملكاً حراً في نظام الري الدائم وألا يتم اســتبعاد الأراضـــي التي عوّضوا عنها في السابق (إبان الإعلاء الثاني لسد أســوان) من هذا الامتياز . وأن تجمع كل الحيازات المشتركة من الأراضي لســكان كــل قرية ويتم توزيعها لهم في مناطق تجاور محال أقامتهم وأن يتم الــتعويض عن الأراضي التي كانت تزرع (بالسلوكة [1]) بنسبة ١:٣ في مــنطقة المشــروع . وأن يتم تعويض الأراضي المستأجرة بما يساويها من مساحة . وأن يمنح تعويض نقدي لمن يرغب من مالكي الأراضي التي تزرع بالســلوكة . وأن تخصـــص أراضي الملك الحر لأهالي (دبروسه) في مواقع على حدود المدينة .

بـــدا واضحاً أن مطالب النوبيين لا تحدها حدود و لكن كان لا بد من التجمل بالصبر والنظر لكل قضية بصورة منفصلة تأخذ في الاعتبار مالها من خصوصيـــية . بهـــذه الـــروح نظرت اللجنة الوزارية لتلك العريضة ومنحتها الاعتـبار الـــلازم واتخذت القرارات المختلفة . فأول القرارات كان هو أن قـــانون ١٩٤٨ لمشـــروعات أراضي حلفا القديمة وقراها يجب أن يطبق في

---

(١) يقصد بها أراضي الجرف – المترجم .

إدارة الأرض بمدينة حلفا الجديدة وقراها النوبية الخمس والعشرين . وهذا القرار ينطبق على تسجيلات الملك الحر والإيجار شريطة أن تظل كل الأراضي السكنية لكل القرى مؤجرة لمدة ثلاثين عاماً . ثانياً : أن تتم إعادة تسجيل أراضي الملك الحر الزراعية بعد مضاعفة الأنصبة كما أن القانون الذي يعين مساحة محدودة لتسجيل الأرض يجب إلا يعمل به . ثالثاً : استبعاد تسجيل كل الأراضي المعوض عنها عندما تم الإعلاء الثاني لخزان أسوان في ثلاثينات القرن العشرين. وأخيراً : فرز وتجميع وتسجيل الأنصبة المجزأة والمقسمة لأي شخص ومن ثم تسجيلها كقطعة أرض واحدة . وأما الذين يريدون تسجيل أراضيهم في مجموعات كما كان الحال في موطنهم السابق فيمكن ان يتم لهم ما يريدون .

هذه القرارات العادلة تم قبولها تماماً من قبل النوبيين ، ولكن فرز وتسجيل الأنصبة المجزأة لكل شخص من أفراد القرى والعموديات المختلفة كان معضلة بالنسبة لمعتمد التعويضات وكتبة الأراضي واستغرق العمل فيها أعواماً من الشغل الشاق .

(٢) المنازل :

وكانت الإشكالية الرئيسة الثانية ترتبط بصيانة المنازل ، وكيف تسلم – نهائياً – للمهجرين ؟ . فلقد أوضحنا في السابق كيف أن برنامج الإسكان قد تم إعداده في عجلة من الأمر، وهنا لا تُحمل الحكومة ولا المقاولون المحليون المسئولية . وفي الوقت نفسه فإن فترة السنوات الأربع بين توقيع الاتفاقية وإغراق مدينة حلفا ، كان يمكن أن يكون مدة كافية لتنفيذ برنامج الإسكان ، لولا تلكؤ شركة (ترف) وإهدارها لذلك الوقت الثمين في نقاشات لا طائل من

وراثها مع الحكومة . ولذلك – وعندما انسحبت الشركة – كان على الحكومة والمقاولين المحليين مسايرة الموعد المحدد لتشغيل السد العالي . فإن محدودية الوقــت لم تساعد على إتمام البناء بعناية ولذلك فإنه لم يكن من الممكن الجزم بصلاحية المباني على الرغم من أن كل الخطوات اللازمة قد تم اتخاذها للحد مــن أي انهــيارات مستقبلية محتملة لها . ولقد احتاطت الحكومة لنفسها عند التعاقد واحتفظت بنسبة معينة من مستحقات المقاولين والمهندسين الاستشاريين تحوّطــاً للإصــلاح والصــيانة في حالة ظهور أي تصدعات أو دمار خلال الفصــول الأربعة لسنة كاملة تعقب تسليم المنازل . ولكن باستثناء القرية رقم واحد (فرص غرب) التي ظهرت في بعض مساكنها تصدعات خطيرة وشيء من التضعضع في الأسقف ، كان جلياً أن الأبنية بكاملها قد نجحت في اجتياز فــترة الاختبار فيما خلا أعطاب ثانوية . ولقد وفر الأمر للنوبيين (المحبين للتقاضــي) فرصــة لممارســة هوايتهم وكان ظهور شق كالشعرة في حائط بغــرفة، كافــياً لتبــيج برقــية شكوى طويلة عريضة . وتكومت العرائض والشكاوى عالياً في مكتب معتمد التوطين وفي رئاسة اللجنة بالخرطوم ، مما أجبر المقاولين على تعيين فرق تقيم بصفة مستمرة في منطقة إعادة التوطين تتصــيد أي تصدعات وتعالجها في الحال . ولقد شهدت قرية (فرص غرب) إصــلاحات جذريــة تم دفع تكاليفها من الأرصدة التي أودعها المقاول (على دنقلا) والمهندسون الاستشاريون .

وبعــد مرور عام على الانتهاء من عمليات الصيانة ، طالب النوبيون بتســجيل كــل المنازل في القرى ملكاً حراً . ولقد ألمحت في السابق إلى أن الوضــع القانونــي للمــنطقة الســكنية لا يؤهلها للتسجيل كملك حر والسبب

الرئيســـي لذلـــك هو أن فيضان ١٩٤٦م دك كامل القرى القديمة وكان على السـكان تشـــييد قــراهم في مناطق عالية مما وفر لهم فرصة تحويل مناطق ســكنهم إلــى أرض زراعية . وكانت فترة حيازتهم للأرض السكنية الجديدة قصـــيرة ولا تـــبرر المطالـــبة بإعمال قانون (وضع اليد) الذي يمكنهم من تســـجيلها ملكـــاً حراً. ولم يُعرِ النوبيون أذناً للحجة القانونية في بادئ الأمر، ولكنهم بعد صدور قرار اللجنة الوزارية سالف الذكر من المجلس المركزي[1] استسلموا وانصاعوا للقانون .

كان معتمد التعويضات يجهز عقودات تأجير الأرض عندما سقط نظام الفـــريق عبود فجأة في ٢١ أكتوبر ١٩٦٤ وقضت حكومة ثورة أكتوبر على التوازن الهش الذي تم تحقيقه عندما فتحت موضوع التهجير وإعادة التوطين برمته للنقد العام . وعندما وجد النوبيون أن الحكومة تقبل أي نقد موجه لنظام عبود ، لم يضيعوا تلك الفرصة الذهبية ، وسلموا (عريضة) شديدة اللهجة عن الحالـــة السيئة لمنازلهم وطالبوا بتعيين لجنة لتقوم ببحث الأمر ومن ثم ترسل تقريرها للحكومة . ولقد أراد النوبيون أن تخدم (العريضة) هدفاً مزدوجاً ففي المقـــام الأول ستهيئ لهم فرصـــة لمعرفة الوضع الحقيقي لمساكنهم عن طريق حصـــولهم علـــى رأي فني من خارج الجهات السابقة . ثانياً : كانوا يودون تأخير عملية الرحيل حتى يتم اختبار منازلهم وذلك لأطول فترة ممكنة تكون فيها مسئولية الصيانة على عاتق الحكومة . ولم تتأخر الحكومة وعينت لجنة فنية زارت المنطقة وعاينت كل المنازل . ولقد أوضح تقرير اللجنة أن جزءً مقدراً منها كان في حاجة للصيانة فتم التصديق المالي لصيانتها وكلفت وزارة

---

(1) مجلس تشريعي قومي أنشأته حكومة الرئيس عبود – المترجم.

الأشـــغال للقيام بالعمل فأكملت المهمة قبل حلول موسم الأمطار . ولكن حتى ذلـــك الوقـــت ، رفض النوبيون التوقيع على عقودات الإيجار واستلام بيوتهم متذرعين بأسباب مختلفة . واستمروا في المماطلة بمهارة مما أجبر الحكومة على مواصلة عمليات الصيانة حتى كتابة هذه السطور .

وتجدر الإشارة إلى أن منازل القرى رقم (٢٠،٢٦،٢٤) كانت مشيدة بطـــريقة جيدة وقد أقيمت مؤخراً لإسكان المرحلة الثالثة من المهجرين وتم تســـليمها دون أن يظهر تصدع في أي منزل منها كما لم يشتك أي مالك من عيـــب فيها ، ذلك أن الوقت كان كافيا للمقاولين، فبنوها على مهل وبمستوى مرض .

وبينما كان النوبيون حريصين على تجميد عملية استلام المنازل، فانهم في الوقت ذاته لم يلتزموا من حيث المبدأ بذلك ، فلقد قام كثيرون منهم بالبناء كمـــا يحلو لهم وأضافوا إلى المنازل إضافات كثيرة . وعندما قمت بزيارتهم في العام ١٩٦٦م وجدت أن الكثير من البيوت قد تبدلت إلى درجة أنها فقدت تصميمها الأصلي . فالفرندات الحديثة ذوات الأعمدة والأسقف الأسمنتية كانت ســـائدة وكذلـــك (تمليّات) الحماية من البعوض . كما أزال بعض من السكان الجـــدران الفاصـــلة بين الغرف وأحالوها إلى مضيفات فسيحة، بينما أضاف البعض غرفاً جديدة .

كانـــت آخـــر مشكلة من المشاكل التي تندرج تحت هذا العنوان، ذات طبـــيعة قانونية . فعند تقييم معتمد التعويضات للمنازل في مدينة حلفا القديمة لأجل تعويض النوبيين عنها ، إختلف بعضهم معه فيما يتعلق بقوائم التعويض النوعـــي التي تم إدراجهم فيها (كان معظمهم من المالكين لأكثر من منزل أو

مـــن الذيـــن يملكون جزءً في منزل) . واشتكوا لقاضي المديرية الذي حكم لصـالحهم . أما معتمد التعويضات الذي لم يقنعه حكم المحكمة فقد استأنف لدى رئـــيس القضاة الذي ألغى حكم محكمة المديرية وأيد قراره . غير أن المشكلة هي أن ذلك الإجراء القانوني أخذ وقتاً طويلاً وعندما أصدرت المحكمة العليا حكمهـــا كـــان الســـكان قد احتلوا المنازل التي تم منحها لهم في وقت سابق بموجـــب الحكـــم الذي أصدرته محكمة المديرية . وكان طبيعياً أن يرفض السكان التخلي عن بيوتهم ، وحاولوا أن يخلقوا من المشكلة موضوعاً إنسانياً ، وتواصـــلت الحرب الضروس بينهم وبين معتمدية التعويضات (حتى تاريخ حـــل المعـــتمدية.) ... تلـــك الحـــرب التي لم تضع أوزارها حتى كتابة هذه السطور(١).

(٣) النشاط الزراعي :

ذكرتُ في السابق أنّ كل أسرة تم منحها (حواشة) تبلغ مساحتها خمســـة عشـــر فداناً لزراعتها على مدى ثلاث دورات تلي كل واحدة منها الأخـــرى وهـــي دورة القطن ودورة الفول السوداني ودورة القمح . وكانت مســـاحة الأرض ونمـــط الـــزراعة تجربة غريبة بالنسبة للنوبيين. وفيما عدا محصـــول القمـــح فإنهم لا يعرفون شيئاً عن المحصولين الآخرين . بل إن الـــدورة الزراعـــية نفسها والتي كانت تختلف عن الزراعة المختلطة ، التي ألفوها ، دخلت عليهم كشيء جديد .

كانت تلك أول مرة يجد فيها النوبيون أنفسهم أُجراء في مشروع منظم وتحت إدارة معقدة، وهم الذين اعتادوا زراعة أرضهم كيفما يحلو لهم . وفي

(١) ١٩٧٤ - المترجم .

مبتكر أيامهم اعتادوا أن يقولوا : (جينا من حلفا لا نعرف الفرق بين الساساريب والشكشن [١]). وألف النوبيون نكاتاً عدة عند وصولهم الباكر لمنطقة المشروع تعبيراً عن تجربتهم الجديدة . وهناك طرفة عن النوبي الذي استلم حواشته ورأى أبعادها الواسعة ، فسأل عن مساحتها، وعندما أعلموه أنها خمسة عشر فداناً صاح قائلاً :(إن فداننا في وادي حلفا ليس بهذه السعة.) وهناك طرفة أخرى عن المزارع الذي تم التصديق له بثلاث زكائب من الفول السوداني فسأل : لماذا منحوه إياها ؟ فأجابوه بأنها تقاوي . فردّ قائلاً : ولماذا أبذرها ؟ إنها تكفي عائلتي تماماً ولمدة عام ! ... هذه الملح خفيفة الظل تعطي فكسرة عن السلوك العام للنوبيين حينما جاءوا للمشروع لأول مرة . فدونما دراية بالأساليب الحديثة للزراعة ومن غير أنموذج يمكن اتباعه ، وجد النوبيون أنفسهم مستأجرين رواد في كل منطقة المشروع . وكانت الحسنة الوحيدة من توزيع الحواشات على القبائل المحلية هي أن تلك القبائل قد ضربت المثال الذي يحتذي .

لقد كان جلياً أن النوبيين كانوا على دراية بالمشكلات علاوة على انهم لم يكونوا عاطلين عن العمل ، في إبان تلك الفترة الانتقالية .فلقد مكنتهم حنكتهم من السيطرة على جوانب الموقف كافة ، فضلاً عن أن دفع ما تبقى من التعويض المالي مكنهم من التغلب على تلكم المشاكل . وأنشئت الجمعيات التعاونية في القرى بعد أن توفر لها رأس المال اللازم عن طريق بيع الأسهم للمزارعين . ولقد تم طلب شراء الجرارات والحاصدات من الخارج ولكن وصولها كان يتطلب بعض الوقت مما حتم الاستعانة بالوحدة

---

[١] أي أننا جئنا من حلفا ونحن لا نعرف الفرق بين الحجر والتقسيم الزراعي .

الميكانيكية التابعة لإدارة المشروع والتي حرثت الحواشات لعدة مواسم إلى أن وصلت الآليات الجديدة .

أنـــا شخصياً ما كنت أريد أن تنشأ تلك الجمعيات على مستوى القرى ذلـــك أنها ستجيء ومعها إخفاقات و مسالب الزراعة التعاونية لمنطقة وادي حلفـــا ودنقـــلاً . فقد غاب معظم مالكي الأراضي (والذين وافقوا على إنشاء الجمعـــيات وسددوا قيمة أسهمهم في لحظات الحماس الغامرة أثناء الرحيل) وتفرقوا تاركين العمل لشيوخ القرى وبعض المقيمين الذين لم يواكبوا تفاصيل العمـــل . ولقد لاحظت ذلك أثناء جولاتي في وادي حلفا . ففي ذات مرة كنت أمـــر عـــبر إحدى القرى فرأيت أن الأرض عطشى لأن أصحابها قد تركوها خالـــية أثناء الدورة الزراعية ، وأخبرني شيخ القرية أن سائق الجرار رفض حراثة الأرض . فأرسلت له أمراً بالمجيء فأخبرني أنه بحاجة إلى (كويل[1]) وإلى إطار مطاطي لإحدى عجلات الجرار . وعندما طلب من الشيخ القيمة أعطـــاه الشـــيخ مـــبلغاً لشراء (الكويل) فقط قائلاً له إنّ هذا يكفي في الوقت الراهـــن ! " لقد رفض هذا الشيخ تبديل الإطار التالف وكأنه يريد من السائق أن يصل إلى اتفاق مع الجرار ، فضاع منا موسم زراعي كامل " . وفي قرى أخـــرى فقـــد الأهالـــي ثقتهم في جمعياتهم التعاونية ولاذوا بوسائل الزراعة التقليدية .. وقد كانت قرية دبيره مثالاً صارخاً لنظام تخللت الخلافات المحلية فـــي أنشطته و أحدثت شللا كاملاً في حركته . وفي الموطن الجديد – ورغم أن الكثير من الغائبين قد عادوا وانضموا إلى عائلاتهم – إلاّ إن عدد الغائبين كـــان كبـــيراً . فهؤلاء كانوا في وقت التهجير مع أسرهم وتسلّموا حواشاتهم

([1]) ملف جهاز : coil – المترجم .

ودفعـوا مـا علـيهم من مال الأسهم ، وقفلوا راجعين من حيث أتوا تاركين مشـاكل الإدارة لشـيوخ القـرى وللأفراد المقيمين في البلد . وعند زيارتي الأولـى لمنطقة المشروع في عام ١٩٦٦م ، كنت مغتبطاً للنجاح الكبير الذي حققـته قـرية (عـنقش) وكنت سعيداً أيضا لأن حصادهم كان الأفضل على مسـتوى المـنطقة . لكنني عندما التقيت بصديقي القديم عثمان ماهر ، شيخ القـرية النشـط وجدته متعباً ومشمئزاً واشتكى لي من الإرهاق الشامل ومن كـثرة الإعياء قائلاً : (في يوم ما سيقصم هؤلاء الناس ظهري ، فلقد ترك كـل واحـد عائلته وحواشته وذهب يعمل في مكان آخر وتركنا نخوض في وحـل من البلايا) . لقد كانوا محظوظين إذ تركوا أسرهم في رعاية شخص أميـن ونشـط مثل الشيخ عثمان ماهر ، ولكن ما كان يمكن للمرء أن يتوقع مسـايرة الشيخ لتلك الحياة . ولم يمر وقت طويل حتى سقط الشيخ مريضاً ثم تدهورت الأحوال من بعد ذلك .

كنـت أتمـنى أن يـأخذ النوبيون مأخذ الجد اقتراحي بتكوين جمعية زراعـية تعاونـية لها مجلس إدارتها ومجموعة من الموظفين الدائمين تدير مجمـل الحواشـات كوحدة واحدة . فلربما كان قمينا بهذا الاقتراح أن يجنب المقيمين من الأعضاء الكثير من المشاكل ويكفل خدمة أكثر كفاءة . وعلى أية حـال فإن النظام الحالي ليس فاشلاً بالكلية ، فبعض التعاونيات كانت ناجحة ولكـن – في المتوسط – لم تكن الكفاءة عالية ومع ذلك فإن الموقف لم يكن يبعـث على اليأس . فبالمحاولة والخطأ وإذا ما تم إغراء المزيد من الغائبين بـالعودة والاسـتقرار الدائـم بالمنطقة فإن المشروع قد يستجمع قواه ويثبت جدواه.

كان ري أراضي الملك الحر يمثل مشكلة أخرى . ففي الوقت الراهن ، وللأسباب التي ذكرناها في السابق ، ليس هناك ماء كاف للري طوال العام وهذا يعني أن المحصولات البستانية كالحمضيات أو الموز لا يمكن زراعتها وكذلـك خضروات الدورة الصيفية . فالمضخات المنصوبة في موقع الخزان كانـت قوتها تكفي فقط لتأمين المياه الخاصة بزراعة قصب السكر في الدورة الصيفية وبتزويد المدينة وقرى المشروع بمياه الشرب. ولكن مع بناء سد آخر[1] سـواء كـان ذلك في منطقة (حجر الزرقة) على نهر (سيتيت) أو في منطقة (وادي حكومة) على رافد نهر عطبرة ، فمن المتوقع أن يتوفر منسوب مياه كاف في أعالي خزان خشم القربة يغذي القناة الرئيسية طوال العام ، مما يمكّـن النوبيين من استغلال أراضي الملك الحر بصورة كاملة . وإلى حين إنجـاز ذلـك المشروع فإن على النوبيين أن يقنعوا بزراعة دورتين فقط هما الدميرة والشتوي.

(٤) <u>القبائل المحلية :</u>

كانـت عمالـة عـزق الأرض ولقيط القطن وحصد الفول السوداني متوفرة ، وكانت المنطقة لا تزال تعج بعمال أتوا من جهات تشاد وأخرين من قـبائل أخـرى توافدوا منذ بدء المشروع . واصبح العمال سكاناً شبه دائمين وابتنوا مخيماً (كمبو) إضافياً ، وأقاموا أكواخاً من القش عند بداية المشروع . وأستمر الحال على هذا النحو حتى اكتماله . وكان لوجود منطقة متخلفة كهذه في قلب المدينة موسومة هنا وهناك برايات ترفرف على أماكن بيع (المريسة) وفـيها الشـابات الأثيوبيات اللاتي جئن من وراء الحدود وقد أحضرن معهن

---

(١) في الوقت الذي ذهب فيه هذا الكتاب للطباعة ، اكتملت الدراسات لقيام سد آخر على نهر عطبرة وينتظر صدور قرار به خلال عام ١٩٧٤ .

(الشــري والكلوميــت) . لتوفــير المتعة والمثوى لأفواج من العمال وبتلك الوســيلة قمن بالاستيلاء على رواتبهم ... كان وجود تلك المنطقة أمراً منفراً للنوبييــن المحافظين الذين ما اعتادوا على تلك الطريقة الفوضوية في حياتهم ... ولقد تعالت صيحات الاستنكار بوصول أول فوج للنوبيين المدينة ، وكان يمكــن ترحــيل هــؤلاء الناس بيسر إلى موقع آخر لولا تحرش النوبيين بهم وإثــارة غضــبهم بالشــكاوي والإهانات الواضحة . وفي البدء رفض هؤلاء الــناس الرحــيل وهــددوا بالمقاومة ولكنهم من بعد ذلك وافقوا على تحويل معســكرهم إلــى موقع آخر ثم تخصيصه لهم خارج منطقة الإسكان . وعلى الــرغم من الكراهية التي كان يضمرها النوبيون لأهل تلك المعسكرات ، إلا أنه لم يكن من الممكن الاستغناء عنهم في أثناء الموسم الزراعي ، بخاصة في أعمال العزق واللقيط . فخلال تلك الفترة كان النوبيون يتسامحون معهم ولكن ســرعان مــا كان شعور النوبيين يتغير تجاههم عندما ينتهي الموسم . كذلك كانــت القــبائل المحلية التي أغرتها الأجور المجزية أثناء مواسم الحصاد ، تــتوافد علــى المشروع عارضة خدمتها . وقد فضلها النوبيون على العمال القادميــن مــن تشاد ذلك أنها ما كانت بحاجة إلى الإقامة الدائمة في نواحي المشروع . وقد شجع السماح للحيوانات برعي شجيرات القطن بُعَيد الحصاد ، الكثيريــن من تلك القبائل على الإتيان بقطعانها للضفة الشرقية لنهر عطبرة ، للحصول على أجر جيد من عملية جمع (اللقيط) وبعد نهاية الموسم تدفع بتلك القطعان لترعى أوراق القطن .

وكانــت للقــبائل المحلــية محاسن ومساوئ . ففي السنة الأولى لقيام المشــروع حدث إتلاف للزراعة فيما بين شهري ديسمبر وأبريل عندما يكون

سهل البطانة جافا وقاحلا بينما تكون منطقة المشروع خضراء ومرتوية . ذلك أن الهدندوة والرشايده اعتادوا على تسريب إبلهم عبر المياه الضحلة لنهر عطبرة تحت جنح الظلام ، ثم يتركونها ترعى أوراق القطن الخضراء . فتلتهم الإبل الجائعة لوزات القطن والأوراق الخضراء على السواء مسببة تلفا بالغا بشجيرات القطن . ومن ناحية أخرى كان الشكرية والأحامدة يقودون قطعانهم عابرين منطقة المشروع مره تلو المرة متذرّعين بحجة أنهم يريدون سقيها في نهر عطبرة ، بالرغم من أن قناة جانبية تم حفرها على الضاحية الغربية للمشروع خصيصاً لتوفير المياه درءً لدخول الإبل حرم الحواشات . إلا أنّ الأخطر من ذلك كان سرقة القطن بواسطة القبائل الرحالة عند موسم اللقيط والتي اعتادت الدخول للحواشات ليلاً وتحميل جمالها بأكبر كمية تستطيع حملها من جوالات القطن والتسلل قبل بزوغ الشمس إلى "الكرب" (وهو سهل اعترته عوامل التعرية وتخللته الأودية والأغوار الوعرة .) وتقاد هذه القوافل عبر دروب غير مطروقة (بجبال الكرب) إلى (الحمْرة) و(أم حجر) و(تسني) في الحدود الأثيوبية حيث تجد السلع المهرّبة سوقا رائجة . وفي السنوات الأولى كان تهريب القطن ظاهرة معتادة قدرتها أداره المشروع بـ : ٢٠ % من الانتاج الكلي . وفي زيارة من زياراتي لإرتريا أكدت المعلومات التي جمعتها تلك النسبة المئوية . فقمنا بزيادة قواتنا عدداً وقدمنا لها ما تحتاج من إمكانات لمحاربة التهريب وإيقاف التعدي على أرض المشروع، فثبت لنا نقع هذه الإجراءات وجدواها .

(٥) التغيرات الاقتصادية والاجتماعية :

سندرس هنا الجوانب الاقتصادية للمشروع وصلتها بدخل الأسرة ونقوم بمقارنتها بدخل الأسرة في الموطن القديم . وسندرس كذلك المسح الاقتصادي الذي أجرته مصلحة الإحصاء في المناطق المتأثرة بفيضان السد العالي حيث كانت الدخول والمنصرفات الشهرية كما يلي : الدخل ١٦,٢٩٤ مليم/جنيه والمنصرف ١٨,٦٨٣ مليم/جنيه وهذا يفيد بأن دخل الأسرة النوبية الشهري لا يفي باحتياجاتها . وكانت مصادر دخل الأسرة النوبية في منطقة المشروع كالآتي :٣٧% من الزراعة ، ٢٧% من الحوالات البريدية التي يرسلها أرباب الأسر المغتربون ، ٢٤% من الرواتب والأجور ، ١٢% من مصادر أخرى . وبحساب بسيط نجد أن الدخل السنوي للأسرة النوبية الريفية يبلغ ٧٢٠ جنيه و ٣٤٥ مليم وهذا الرقم الذي يتضمن المنصرفات الزراعية ، لا يوجد مثيل له في أي مكان آخر من المسح الذي أجرته مصلحة الإحصاء .

تحكم اتفاقية الايجارة بين الحكومة والمزارع المستأجر الدخل والمنصرف في منطقة خشم القربة ، وتحدد الاتفاقية واجبات وحقوق كل طرف كما يلي :تمنح الحكومة الأرض للزراعة وتوفر الري والإدارة القادرة علي تسيير المشروع ، ويتحمل المزارع تكلفة إنتاج دورة القطن . ويتحمل الطرفان قدراً متساوياً من التكاليف في الآتي (وهو ما يعرف بالحساب المشترك) : إزالة النباتات الكثيفة والحشائش الضارة وتجهيز بذور القطن ووزنه وترحيله إلى الحلج ومراكز البيع ، الحلج و (الكبس) والتخزين في حالة الضرورة وتسويق القطن بما في ذلك التأمين ، العمولة وإجراءات السلامة واقتلاع وحرق ونظافة الأرض من سيقان القطن .

ثم يقسم الربح الصافي من زراعة القطن بنسب متساوية بين المزارع والحكومـــة. ويـــتحمل المستأجر كلفة الإنتاج في الدورتين الأخريين (دورة الفول السوداني ودورة القمح) ويحصل على كامل الربح .

وفـــي العام ١٩٦٥م أجرت مصلحة الإحصاء مسحاً إحصائياً أولياً ، وكان ذلك عند بداية إعادة التوطين ، لتقدير الدخل والمنصرف في المشروع الجديد . وتوصلت إلى النتائج التالية عن كل المحاصيل في الدورات الزراعية كافة :

(أ) القطـــن : إذا افترضـــنا أن متوســـط إنـــتاج الفدان هو ٤,٣٣ قنطاراً واعتـــبرنا أن متوســـط السعر هو ٢١جنيهاً للقنطار، فسيصبح الدخل الكلي للحواشة هو: ٢٧٠جنيه .

ومتوسط المنصرفات في الحساب المشترك هو:٩٧ جنيه

وبالتالي فإن إجمالي الربح سيكون مبلغ	١٩١ جنيه
والتزام المزارع بنسبة ٥٠% هو:	٩٥ جنيه و ٥٠٠ مليم
وتكلفة الإنتاج هي :	٧٦ جنيه
وربح المزارع الصافي هو :	١٩ جنيه

(ب) القمح :

كـــان حســـاب القمـــح مبني على متوسط انتاج يبلغ ٤ اراديب للفدان والسعر المتوسط للأردب هو ٥ جنيهات .

القيمة الإجمالية للانتاج هي :	١٠٠ جنيه
وتكلفة الانتاج هي :	٥٠ جنيه
الربح الصافي هو :	٥٠ جنيه

(ج) الفول السوداني :

قُدر أن ينتج الفدان طناً واحداً وقدر السعر بـــ ٢٢ جنيهاً للطن .

إجمالي قيمة الإنتاج هي :		١١٠ جنيهات

وتكلفة الإنتاج هي :		٣٢ جنيهاً و ٥٠٠ مليم

والربح الصافي هو :		٧٧ جنيهاً و ٥٠٠ مليم

ونصيب المزارع من الربح الصافي للدورات الثلاث هو: ١٤٦ جنيه و ٥٠٠ مليم .

عـــند إنجاز الدراسة لم يكن النوبيون على علم جيد بالطرائق الحديثة للإنــــتاج فـــي موطـــنهم الجديد ، وعليه يمكن أن نفترض أن الأرقام التي تم إعطاؤها كتكاليف للإنتاج كانت عالية نسبياً فضلاً عن أن الأرباح الناتجة عن زراعة أرضهم المملوكة ملكاً حراً لم يتم تضمينها في المسح . ولقد اعترض معـــتمد إعادة التوطين على تلك الأرقام ، وقدر الربح الصافي للمزارع بمبلغ ٤٠٠ جنـــيه . وفي اعتقادي أن هناك مبالغة بالنسبة للرقمين وأنه ما لم يجر مسح آخر فإن القيمة الحقيقية للأرباح ستظل مجهولة .

وقعت حادثة مؤسفة في ٢١ أبريل ١٩٦٥م في القرية رقم (١) (فرص غـــرب) بســـبب الانـــتخابات البرلمانية. فقد كان حزب الشعب الديموقراطي يعارض قيام تلك الانتخابات وقرر مقاطعتها . فأغار عرب الشكرية (الاتباع المخلصـــون لذلـــك الحـــزب) بسيوفهم الحادة على مركز الاقتراع وحدثت مجزرة دموية قتل فيها أحمد سري (وهو ضابط الانتخابات) مع خمسة من رجال الشرطة وسائقين كما فقد صلاح دهب عمدة (دبيره) يده اليمنى وأصيب بجـــراح خطيرة أخرى .وعندما أدركت قوات الشرطة -بعد تريث- خطورة

الموقف أطلقت النار على المغيرين وتمكنت من قتل أحدهم ولاذ الباقون بالفرار طلباً للسلامة . ومن بعد ذلك تم اعتقال الجناة وقدموا للمحكمة . وقد أصابت تلك الحادثة العدائية النوبيين بالانزعاج الشديد ولكنهم ما كانوا مذعورين . ولقد شاب علاقتهم بقبيلة الشكرية شئ من الاهتزاز حيناً من الوقت • وبعد إدراكهم الأسى الذي سببته الحادثة للشكرية عادت الثقة بين الطرفين .

لقد زرتُ المنطقة للمرة الأولى في الأسبوع الأول من يوليو عام ١٩٦٦م بعد أيام قليلة من نقلي إلى مديرية كسلا . وفور ترتيبي لأمتعتي هرعت لرؤية أصدقائي النوبيين الذين كنت أتابع أخبارهم باهتمام وشوق منذ أن تركوني في وادي حلفا .

ولقد شهدت موطنهم الجديد وقتئذ عندما رافقت فوج قرية سرّه .أما في هذه المرة فقد أهاجوا مشاعري بحرارة استقبالهم وكنت حريصاً على رؤيتهم كما أنهم كانوا بالمثل حريصين على رؤيتي . وأصر كل واحد منهم أن أرى قريته ، وفي آخر الأمر جلتُ في القرى كافة ، من فرص حتى دغيم ، وأمضيت أقصى ما أستطيع من وقت في كل قرية .

كنت فرحاً لأنهم استقروا في موطنهم الجديد استقراراً تاماً ، ولأن أحوالهم كانت قد تحسنت . كانت دُورُهم منظمة وكانت قراهم نظيفة كدأبهم وكان للسكان أثاث حديث ، كما أن الكثيرين منهم امتلك المبردات ومواقد غاز تعمل (بالبوتين) خاصة في مدينة حلفا الجديدة . ولم أرَ أبنيةً من الطين لتخزين القمح وعوضاً عن ذلك كانت جوالات القمح تتكوم عالياً في الصالات. ذلك كله كان دليلاً على المستوى العالي للمعيشة .

وكثر أطفال المدارس ، وبدت علامات الامتلاء والتغذية الجيدة عليهم .ولقد تحسنت أحوالهم الصحية العامة ، وأخبرني المدير الطبي د. إبراهيم سليمان بارتفاع معدلات الولادة بنسبة ٣٠% ويعود ذلك بصورة جزئية لعودة الكثير من المغتربين واستقرارهم بصورة كاملة في منطقة المشروع كما يعود إلى العناية والاهتمام الصحي الذي وجده المهجرون في موطنهم الجديد .

كانت العقبة الرئيسة هي الافتقار للطرق الدائمة وهذا ما كان سبباً للمتاعب في فصل الخريف . ففي ذلك الوقت من العام كان الدخول إلى القرى لا يتم إلا عبر الطريق العالي على القناة الرئيسة أو عبر الطريق المعبد بالحصا الموازي لتلك القناة .

أسرتني مدينة حلفا الجديدة بجودة تخطيطها ، فالميدان الدائري الذي كان يتوسطها في السابق والذي قامت بتصميمه شركة (كوكس) ، حلت محله ساحة فسيحة قبالة مبنى المجلس البلدي وفي خاصرته قام المسجد بمنارته السامقة . وكانت مباني المجلس ومكتب البريد مبان رائعة تستشرف وسط المدينة . وكان السوق مخططاً تخطيطاً جيداً وبدت صفوف الحوانيت مفصولة عن بعضها البعض ، بدلاً من تلاصقها وبروز حواجزها الخشبية التعسة المدلاة من الأبواب ، كما كان الحال في حلفا القديمة . فالحوانيت هنا واسعة وملحق بها مخازن ، ولها (فرندات) ذوات قوائم خرسانية وأسقف مبنية بالأسمنت تظلل الواجهات الأمامية . وكان تصميم مجمل الحوانيت يمكن من بناء طابق ثان. و شيد الكثيرون فنادق بإضافة أجزاء للسكنى فوق حوانيتهم ومع ذلك كانت تضيق بالسلع والمنتجات المحلية ، وتعج فرنداتها بالمشترين من النوبيين والسكان المحليين. وفي الناحية القصية للشمال الغربي تقع

المباني الرائعة للمستشفى ومجمع الري والزراعة . وكانت هناك منشأتان صناعيتان في طور التشييد وهما محلج القطن الذي يقع في الشمال الشرقي للمدينة ومطحنة الجمعية التعاونية للمزارعين وتقع في الجهة الجنوبية الشرقية.

كانت منطقة إعادة التوطين خالية من الأشجار ، وغابت اللمسات الخضراء التي تضفيها نباتات الزينة على المدينة وقراها فبدت جافة وقاحلة بخاصة في موسم الصيف . ولقد بدأتُ مشروعاً بالمشاركة مع مصلحة الغابات كان يهدف إلى توفير ثلاثين ألف شتلة ، تم توزيعها في حفل كبير . ولقد شارك النوبيون جميعهم بمن فيهم فتية المدارس في إعداد الحفر لغرس الأشجار وفي عمل الجداول المتفرعة لريّها . ولإدخال البهجة على النوبيين بإضفاء لمسة من موطنهم القديم، أرسلتُ في طلب ثمانمائة شجيرة نخيل جلبناها من ناحية عطبرة ، لتُشتل على طول الطرق الرئيسية . وعند نموها ستُلد مزيداً من(الشتول) ليتم غرسها على جوانب الطرق الأخرى أو في سوح البيوت .

كان الناس لا يزالون يحتاجون إلى ثلاث خدمات رئيسة هي: الميناء الجوي (المطار) والسينما وملعب لكرة القدم . وفي مستهل قيام المشروع تم بناء مهبط من الحصا للطائرات لتيسير سفر موظفي الحكومة والشركات العاملة في إنجاز المشروع . ولقد أنشأت المصالح الحكومية والشركات مكاتبها الرئيسة في منطقة خشم القربة ولكن الشركات -عند اكتمال المشروع- رحلت من المنطقة بينما نقلت المصالح الحكومية مكاتبها إلى مدينة حلفا الجديدة. ولم يبق في خشم القربة من أحد يستعمل الخدمة الجوية لذلك

المهبط كما أن ساكني حلفا الجديدة ما كانوا متحمسين لرحلة لمنطقة خشم القربة على بعد خمسين كيلو متراً بخاصة عندما يكونوا في أمس الحاجة للخدمات أثناء فصل المطر . لذا فإن تحويل خدمات الطيران إلى حلفا الجديدة كان من قبيل البدهيات الضرورية . ولقد سلّمتُ في وقت لاحق مشروعاً لمصلحة الطيران المدني أعلمتهم فيه بضرورة تشييد المطار بمقربة من مدينة حلفا الجديدة ، ليس للأسباب الآنفة الذكر فحسب ولكن لأن مدينة حلفا الجديدة تقع في الطريق بين الخرطوم وكسلا . وكان موقع المطار قد تمت الموافقة عليه ضمن الخطة الموضوعة للمدينة ليقوم بمقربة من (مشاريب) حيث يتوفر الحصا بكميات هائلة .

كانت هنالك دار للسينما في مدينة وادي حلفا وبنيت بطريقة بسيطة إبان الحرب العالمية الثانية للترويح عن الجيوش المتجهة إلى شمال إفريقيا . وعند انتهاء الحرب استولى المجلس البلدي عليها وقام بتأجيرها لرجل اسمه سيد حامد ، أحد علية القوم من البصاولة. ولقد ادارها الرجل بطريقة مرضية منذ ذلك الوقت . وعندما اكتملت عملية التهجير واستقر عدد كبير من القبائل في منطقة المشروع ، أيقن الناس كافة بضرورة انشاء دار سينما راقية . فأسس المزارعون بقيادة عضو ناشط هو محمد حسن عطية الله سينما محلية جمعوا المال اللازم لقيامها عن طريق الأسهم . واكتمل البناء الجيد للسينما في عام ١٩٧٣م . وعند تقييم الإستاد القديم لمدينة وادي حلفا تقييماً مجزياً ، مُنح اتحاد الكرة مبلغ ستة آلاف من الجنيهات لتمكينهم من بناء إستاد جديد في مدينة حلفا الجديدة تبز تكاليفه العالية قيمة البناء في حلفا القديمة. وقد تبنى اتحاد الكرة التصميم والتقديرات التي شُيّد بها إستاد القضارف الجديد ، فوجد

أن مـــا بحوزتـــه من مال لا يكفي لبناء الإستاد ، فأتموا ما نقص من مال ، بقرض منحتهم إياه وزارة الإعلام . وتم اختيار موقع جيد لإقامة هذا الإستاد الذي اكتمل بناؤه حينما ذهب هذا الكتاب إلى المطبعة.

ومـــع ان مســـتوى تخطيط القرى كان جيداً ، فإنه لم تبذل محاولات لتزويدها بالتيار الكهربائي ، بالرغم من أن (التربينات) في خزان خشم القربة تولـــد ٧٠٠٠ كـيلو واط مـــن الكهرباء وهي طاقة تتجاوز احتياجات منطقة المشـــروع والقضـــارف وكسلا من الطاقة الكهربائية . وكانت ميزانية تنمية المشـــروع تـــتكفل بتزويد المدن الرئيسة فحسب بالكهرباء وقد ضُمّن هذا في العقـــد المبرم مع شركة (ترف) كما أشرنا آنفاً . ولكن مد القرى بالكهرباء لم يـــتم وضعه في الاعتبار ، فيما عدا أبنية المحولات القابعة في أماكن مناسبة على خطوط الضغط العالي قبالة القرى . وكانت القرى في حاجة فقط للأعمدة والخطوط المعدنية ليصل التيار الكهربائي إليها .

وفـــي عـــام ١٩٦٩م اقترحت على الإدارة المركزية للكهرباء والمياه توصـــيل الكهـــرباء لكامل القرى في منطقة إعادة التوطين . وتأهب السكان لتحمل كلفة التوصيل الداخلي في حال توصيل التيار إلى بيوتهم .ولا شك أنهم كـــانوا يشعرون بالمهانة والغيظ وهم يرون خطوط الضغط الكهربائي العالي تمـــر فوق قراهم دون ان يحصلوا على خدمات الكهرباء . ومن المؤكد أنهم كـــانوا بحاجـــة لها من أجل الإنارة والتبريد والتهوية ولأي خدمة أخرى من الخدمـــات المنزلية . وعلى كل فقد تعاملت الإدارة المركزية للكهرباء والمياه معهـــم إيجابـــيا ، فوافقـــت علـــى توصيل الكهرباء لأربع قرى في الضاحية الشـــمالية من منطقة إعادة التوطين كمشروع رائد .وبحلول عام ١٩٧٠م تم

توصيل تلك القرى بالخط الذي يصل مصنع السكر بالكهرباء وأنار النوبي ساكن القرية لأول مرة منزله بالمصابيح الكهربائية .

وخلال إعداد مسودة هذا الكتاب ، بدأت مصلحة الطيران المدني التفكير في إقامة مهبط للطائرات بمنطقة (مساريب) .

في تلك الأثناء كانت ست من السنين قد مرت على النوبيين في موطنهم الجديد ، وبدأت حياتهم تأخذ شكلاً مستقراً ، وفي تلكم الحقبة القصيرة طفق النوبيون يكيفون حياتهم مع البيئة الجديدة بمختلف الطرق .

ونسبة لرسوخ تقاليدهم ، ولسطوة الحياة القبلية عليهم كان من الطبيعي أن يجيئ التغيير شديد البطء . ويمكن أن نلخص التحولات التي طرأت حتى الآن فيما يلي :

أولاً : تخلت الفتيات عن (الجرجار) التقليدي و أبدلنه بالثوب الذي تلبسه نساء أواسط السودان. وتمسكت النساء الأكبر سناً بالجرجار مع إحداث تعديلات في حوافه جراء التربة الموحلة خلال فصل الخريف . واتخذ قلة من الرجال زي الهدندوة كموضة وكانوا يشاهدون بسراويلهم الفضفاضة وبصديرياتهم وعمائمهم ، كالشباب في (تيمنتاي) .

ثانياً : كانت التقاليد النوبية لا تزال تحكم طرائق الزواج ، ولكن المهر ازداد ليصل إلى مئات الجنيهات ، وصار خاتم الذهب ، وساعة اليد ، وقطع الملابس ، علامة للخطوبة . واتسمت حفلات الزواج بالغنى والبذخ وصارت بيوت الزواج تزان بإضاءة ملونة ، وشقت الرقصات والموسيقى الحديثة طريقها إلى النوبة الجديدة.

ثالــثاً : بدأ النوبيون في تذوق طبيخ (الويكة والكسرة) الذي اعتاد نوبيو حلفا القديمة على نعته بـــ:(طعام السودانيين الرديء) .

رابعــاً : تخلى النوبيون عن التعابير المصرية للاتجاهات الجغرافية من قبيل (قبلي) و(بحري) واستخدموا كلمتي (شمال) و(جنوب) كسائر السودانيين وبدأ الــبعض منهم في استخدام كلمات قبلية مثل : (السافل) و (الصعيد)، وهجروا الــتقويم القبطي الذي كان يحكم المواسم الزراعية في ديارهم القديمة ، وبدأوا فــي استخدام التقويم المحلي العربي الذي يرتكز على مواقع النجوم ، وينقسم الموســم فــيه إلى عينات أربع (العينة تمتد إلى ثلاثة عشر يوماً وربع اليوم) وتــبدأ العينة باختفاء نجم معين فيما وراء الشمس وتنتهي حين رؤيته من قبل طلــوع الشمس . وأكثر العينات أهمية عند النوبيين عينات الفصل الممطر ، وتــبدأ بعيــنة (الــذرة) والتي يتحكم فيها نجم (الشعري الشامية) تتلوها عينة (النــترة) ونجمهــا (الســرطان) ومن بعد ذلك تأتي عينة (الطرفة)التي تليها (الجنحة) وآخر الأمر تأتي عينة (الخيرسان .)

وكامل الأنواء في برج الأسد (السرف) ترتبط بالجزء الغائم من طرف المذنــب وتنتهي بـــ:(العوا والسماك) وهو يتألف من (السماك الأعزل) في برج الدب الأكبر والعصا (العصابة) والسماك في برج العذراء [1] . وعلاوة علــى ذلــك تعلــم النوبيون التنبؤ بالمطر تبعاً لموقع (البرق البعيد.) فعند حــدوث (الــبرق العبّادي) من جهة الشرق يعني ذلك احتمال غالب لسقوط المطــر ، وعــند ما تبرق السماء من نواحٍ أخرى فإن ذلك يعني أن هطولاً للأمطـــار في مكان بعيد سيحدث . وكان عليهم أن يدركوا أنه في شهر مايو

---

(1) لقد أشرت إلى ثماني (عينات) تختص بفصل الخريف . ففي الجزء الثاني من حزام السافانا حيث يبدأ هطول المطر المبكر . [illegible] (عينة قصيرة) في الخريف وعندئذ (السماك) حيث يبدأ موسم الأمطار – عادة – بالنترة وتنتهي بالسماك وذلك في الحزام الشمالي .

حينما تأفل نجمة (الثريا) خلف الشمس ، يكون ذلك إيذاناً ببدء أشد (العينات) حــرارة . وبدأ النوبيون في إدراك أنعم موسم المطر وعظم ما يلعبه من دور في الزراعة ، وبدلاً من الخوف من الأمطار والصواعق طفقوا يرتاحون لها . وعــند زيارتي الأولى للمنطقة وجدتهم يشكون تأخر المطر في ذلك الموسم . ونقطة ملاحظة أخيرة ، هي أن الأسِرّة المصنوعة من جريد النخل ما عادت تستخدم وسادت – على وجه العموم- أسرّة الحديد في كل الدور.

إن الكثيريــن من علية القوم ما عادوا على قيد الحياة فلقد مات الناظر صالح من مرض القلب في حلفا الجديدة عام ١٩٦٥م ، ومات بربيس بمرض الســرطان فــي مدينة أسوان ،وفقد السوق الكثيرين من أكفأ التجار . فمحمد علي إبراهيم- وهو في طليعة التجار النوبيين- آثر هو وحسب الله لاشين (من قبــيلة العقــيلات) والمرحوم نصر شبيّن (وهو من أفضل التجار السوريين) الإقامــة فــي الخرطوم. ومن التجار المصريين رحل من السودان يحي عبد الغفــار أبــو زيد وخويلد واستقرّوا في أسوان . وفضل نوبيون آخرون مثل الشيخ محمد أحمد عواد.وعبد الرحيم محمود وأبو روس أيوب البقاء في حلفا القديمة ، وأقامت عائلة (شريف داؤود) الكبيرة والمعروفة في الخرطوم .

ولقد اهتمت الحكومات المتعاقبة بالمنطقة اهتماماً فائقاً ، وكان هنالك علــى الــدوام مســئول كبير أو وزير في زيارة للمنطقة ، كما زار رؤساء الحكومــات التــي تعاقبت منطقة إعادة التوطين . فرئيس الوزراء (الصادق المهدي) والمرحوم (إسماعيل الأزهري) رئيس مجلس السيادة زارا المنطقة ، أما الرئيس نميري فقد زار المنطقة ست مرات في جولات تفقدية .

إن تجـــربة التهجير وإعادة التوطين بهذا النطاق الواسع وبهذه الوتيرة المـــنظمة مازالت تجربة وليدة وحديثة على السودان . ويحتاج النوبيون إلى وقـــت طويل للانسلاخ من مجتمعهم القديم لكي يتمكنوا من التكيف مع بيئتهم الجديدة . ولربما وجد الجيل الراهن الذي ولد وتربى في حلفا القديمة مشقة في قـــبول التغيـــير، ذلك أن ذكرى موطنهم القديم لا تزال ماثلة بأذهانهم وستظل هكذا إلى وقت طويل في المستقبل . فالولاء والإخلاص يشدهم لمهد ميلادهم ، وسيبقى مؤثراً على وجدانهم وذكرياتهم لجيل على الأقل . وإن الجيل القادم دون غيره(جيل "حمد" الذي ولد في القطار وهو في طريقه نحو خشم القربة) هـــو الـــذي لن تكون له وشيجة ولا ذكرى مع حلفا القديمة ، وسيدين بكامل الولاء للموطن الجديد ، وسيرى الحياة هنا في خشم القربة أمراً مسلّماً به .

(٦) النوبيون الذين تخلّفوا في وادي حلفا :

شـكل النوبـيون الذيـن تخلّفوا بوادي حلفا هاجساً مؤرقاً للحكومات المتعاقـبة ، فقد اختلقوا أزمة مع حكومة الفريق عبود حول الرحيل إلى خشم القربة ، وقرروا البقاء على ضفة البحيرة بمقربة من بلادهم التي أغرقها النيل . وبـاءت محـاولات أقـربائهم على حثهم ليهاجروا بالفشل الذريع كما انهم أداروا آذانهم لنصائح الحكومة.وجلي أن النوبيين ما كانوا أول أناس يقاومون مثل ذلك الوضع ، فتاريخ الهجرة يسجل سوابق مشابهة . فأقرباؤهم (الكنوز) الذين دمرت ديارهم عند إعلاء خزان أسوان مرتين رفضوا مبادرة الملك فؤاد ملـك مصر لتوطينهم في (كوم أمبو)، وأقاموا قراهم على السفوح الصخرية لشواطئ النيل .

وحيـــنما تم بناء خزان (جبل أولياء) على النيل الأبيض رفض سكان (القطيـــنة) الذين فقدوا قراهم وأرضهم الزراعية الهجرة إلى مشروع الإعاشة الذي تم تخطيطه لهم في منطقة (أبو قوته) وهي على مرمى حجر من ديارهم ، وفضـلوا بناء منازلهم على التلال الرملية الواقعة خلف قريتهم التي ابتلعها الـــيم ، وهذا ما جُبل عليه الإنسان . وما كان متوقعاً أن تلقى هجرة جماعية مـــثل هجـــرة النوبيين إلى منطقة بذاتها قبولاً من الناس كافة تجعلهم يقبلون الـــتحول إلـــيها ســـواء كانـــت خشم القربة أو (أبوقوته) أو جنة الخلد ذاتها. فالروابط العاطفية تسود على الدوام . وفي مجمل الأحوال فإن هناك أفرادا و جماعـــات يحكّمـــون العاطفة ، وينظرون إلى الوضع من زاوية ذاتية . لهذه الأسباب ارتأت الحكومة أن تعالج الوضع بحكمة ، وألاّ يكون التهجير قسرياً.

إن العقـــبة الرئيسة التي كانت تعتري الموقف في حلفا القديمة هي أن الحد النهائي لمستوى مياه البحيرة إلى ١٨٢متراً (إحصائية من المسح) الذي كان يؤمل الوصول إليه بعد أن يتواصل ارتفاع المياه على مدى سبع سنوات ، كـــان يقـــع على بعد أربعة وعشرين كيلو متراً من شاطئ النيل . لذا فإن الموقع النهائي لإعادة توطين الأهالي كان بعيد اً عن مصدر المياه وأعلى منها ولذلك فإنه غير صالح للمكنى إلى أن يحين ذلك التاريخ . في هذه الأثناء كان عليهم الانتقال بصورة متكررة إلى مناطق أكثر علواً في كل مرة تصل المياه فيها إلى مستوى الكعبين . كانوا يعيشون في مساكن خشبية مؤقتة صنعت من خشـــب (فلـــنكات) السكة حديد والتي كان يستلزم تفكيكها في كل مرة حينما تتســـرب المياه إليها لتنصب ثانية في موقع ملائم لتبقى إلى أن يرتفع منسوب المياه مرة أخرى ، ليعاد فكها وهكذا .

لقــد احــتملوا سنيناً من البؤس في حالة عدم الاستقرار وأضاف فقر بعــض العــائلات مــن صعوبة الموقف. وعندما راجعتُ أسماءهم في قوائم التعويضات وجدتُ أن الاستحقاقات الكلية لبعض العائلات لا تتجاوز السبعين جنــيهاً . ولا بد أنهم كانوا يعيشون في حافة المجاعة قبل أن يتلقوا العون من منظمة الأغذية والزراعة الدولية .

فــي ٣٠ مــارس ١٩٦٧م وبعد ما يزيد عن ثلاث سنوات من الكدح والمعاناة قررت الحكومة إحياء مدينة حلفا القديمة على ضفة البحيرة ، وعهُد بالأمر إلى وزير المواصلات لدراسته وتنفيذه . وشكلت لجنة سباعية تضم لفيفاً من النوبيين المعنيين بالأمر برئاسة السيد صالح محمد طاهر أحد مديري المديريات السابقين وضمت عضويتها السيد داؤود عبد اللطيف والسيد محمد توفيق والسيد صالح محمود إسماعيل . وقد أنجزت اللجنة الكثير من الأعمال الــنافعة ، واتصلت بزهاء ثلاثين مصلحة ووزارة ، وحصلت على اقتراحات محددة لمساعدتها في إعادة تشييد حلفا القديمة .

وفــي الثلاثين من أبريل عام ١٩٦٧م قام وزير المواصلات بصحبة أعضـــاء اللجــنة ورؤساء المصالح الحكومية بزيارتهم الأولى للمنطقة حيث التقوا بالسكـــــــان وناقشوا معهم الموضـــوع برمته . وفي ٢٥أغسطس عام ١٩٦٧، زار الوفــد ذاته المنطقة مرة أخرى ليؤكد للأهالي حرص الحكومة علــى الاستجابة لمطالبهم وتحديد موقع بديل للمدينة الجديدة تقوم على أساسه استعدادات رؤساء المصالح لتنفيذ أعمال التشييد . وزارت المنطقة أيضا بعثة مــن هنقاريا (المجر) كانت مهتمة بأهلها (قبيلة المجراب) وأجرت دراسة لتقصي أوضاعهم .

وفـــي ٢٣ فـــبراير عام ١٩٦٨م، زار المنطقة وفد من الأمم المتحدة برئاســـة البروفيسور (وايت) وعقد – مؤخراً – اجتماعاً مع رؤساء المصالح الحكومـــية ناقشـــوا فـــيه سبل ووسائل استغلال الثروات الطبيعية للبحيرة ، وأوصى تقرير الوفد بدراسة العناصر التالية دراسة وافية وهي : دراسة كامل الحـــياة المائية (نباتية وحيوانية) وأثر ارتفاع المياه عليها ودراسة الظروف المحيطة بالثروة السمكية مع الاهتمام باختيار مواقع ملائمة لمصائد الأسماك . ودراسة طرق الصيد والعلاقات المختلفة للأسماك بين بعضها البعض والغذاء المـــتوفر للأســـماك مـــن حيث تكاثر الأعشاب المائية والعوالق . ودراسة المنطقة المتوقعة للجروف التي ستظهر سنوياً عندما ينحسر مستوى المياه في موسم الجفـــاف . ودراسة التغيّرات المتوقعة خلف البحيرة وبخاصة ظاهرة توالد البعوض وديدان البلهارسيا والذبابة الرملية وكيفية مكافحتها .. ودراسة التغـــيّرات المناخية الناتجة عن المعدل العالي للتبخر والنزّ الذي تحدثه المياه علـــى الشطآن . ودراسة التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي من المحتمل أن تؤثـــر علـــى حياة السكان والتي تتبع التغيرات في أحوال البيئة . كل ذلك كان يستلزم توفر أخصائيين مناسبين للقيام بتلك الأبحاث .

فـــي تلـــك الأثناء بدأت المصالح الحكومية بتزويد السكان بالخدمات الأساسية التي استطاعت تقديمها للتخفيف من حدة ظروفهم السيئة ، وأرجأت تخطـــيط وتنفـــيذ مشـــروع التوطيـــن النهائي حتى يستقر منسوب المياه إلى المســـتوى الدائم . وزوّدت وزارة الأشغال السكان بالمياه النقية خلال سنوات عدم الاستقرار الانتقالية. وفي عام ١٩٦٨م – حينما تم الاختيار النهائي لموقع التوطيـــن – ربطت المنطقة السكنية بخط للمياه يغذي من الخزان (الصهريج)

الخاص بالسكة حديد ، كما زودت مباني الخدمات الحكومية بالكهرباء في ذلك الوقت . وابتعثت مصلحة مصائد الأسماك مجموعة من الخبراء لتعليم السكان الأساليب الحديثة للصيد . ولقد أكد مسح تجريبي تكاثر الأسماك بكميات كبيرة وبنوعيات جيدة . وأكملت وزارة الحكومة المحلية بالتعاون مع مصلحة المساحة الخطة المتعلقة بالمدينة الجديدة وعينت مساحة الخطة ثم وزعت ٣٢٩٧ قطعة سكنية على الأهالي . وتم بناء مستشفى بمواد غير ثابتة في المنطقة المخططة ، يزاول الخدمة فيه طبيب مؤهل . وخصصت وزارة الصحة ٣٠,٠٠٠ جنيه في ميزانية التنمية لبناء مستشفى لائق يضم جناحين كبيرين وغرفة للعمليات الجراحية . وكانت هناك مدرستان ابتدائيتان واحدة منهما للبنين والأخرى للبنات ، ومدرسة وسطى [1] للأولاد . وبمساعدة وزارة التربية والتعليم قام الأهالي ببناء مدرسة وسطى للبنات ومدرسة أخرى للبنين كانت تحت الإنشاء (وكل هذه المدارس تم بناؤها بمواد مؤقتة) .

وحددت وزارة الري على الأرض المستوى النهائي لارتفاع الماء بـ ١٨٢ متراً في وقت مناسب يمكّن من إنجاز أعمال البناء في الموقع الدائم الذي يقع بعيداً تماماً عن نطاق المد المتصاعد للبحيرة .

وفي عام ١٩٦٨م وزّعت مصلحة الغابات على الأهالي (شتول) النخيل وشتول أشجار خشبية أخرى لغرسها في الموقع الدائم. وفي الوقت ذاته أجرت وزارة الزراعة فحصاً للتربة في المنطقة بغية التعرف على مدى ملاءمتها للدورات الزراعية المختلفة ولزراعة أشجار الموالح .

---

[1] مرحلة تعليمية سابقة للمرحلة الثانوية تم دمجها حالياً في ما يعرف بمرحلة الأساس – المترجم .

واستحقت مكاتب البوستة والتلغراف الإشادة لعملها المتواصل دونما انقطاع أو خطأ منذ أن انتقلت إلى المطار في سبتمبر ١٩٦٤م . وقد قررت مصلحة الآثار المساهمة بإنشاء متحف صغير للآثار النوبية ، كما اقترحت وزارة الثروة الحيوانية بناء محجر كبير للعناية بصحة الحيوان تكون طاقته الاستيعابية ٦٠,٠٠٠ ألف رأس في الموسم وهي في طريقها إلى مصر . والتزمت أيضاً بإدخال إنتاج الألبان وتربية الدواجن في المنطقة . وتنتظر الآن وزارة التجارة الخارجية وصول المياه للمستوى النهائي لترتيب بناء أرصفة جديدة في الميناء ومبنى للجمارك . وقدمت مصلحة السكة حديد عملاً قيماً للغاية عندما أنشأت صهريجاً للمياه وزودت الأهالي بخشب (الفلنكات) الذي كانوا في أمس الحاجة إليه لتأسيس مساكنهم المؤقتة . وأخيراً أدرجت منظمة الزراعة والأغذية التابعة للأمم المتحدة الأهالي في برنامج العون الغذائي الذي كانت تقدمه في مثل تلك الأحوال .

في الثاني من أكتوبر عام ١٩٦٩م جال الرئيس (نميري) على كل المناطق بدءاً من دنقلا وانتهاءً بحلفا وفي صحبته وزراء الثروة الحيوانية ، والتربية ، والصحة والتنمية الريفية والتعاون . وقد استقبله الأهالي – جميعاً– بحفاوة إذ أن آخر عهدهم برئيس للدولة كان الرئيس عبود الذي قام بزيارته الشهيرة للمنطقة في ٦ ديسمبر عام ١٩٥٩م . وتحدث (النميري) مع الناس وبحث مشاكلهم على الطبيعة ، وقبل أن يغادر في ٣ أكتوبر سلمه الأهالي مذكرة طويلة بمطالبهم العاجلة .

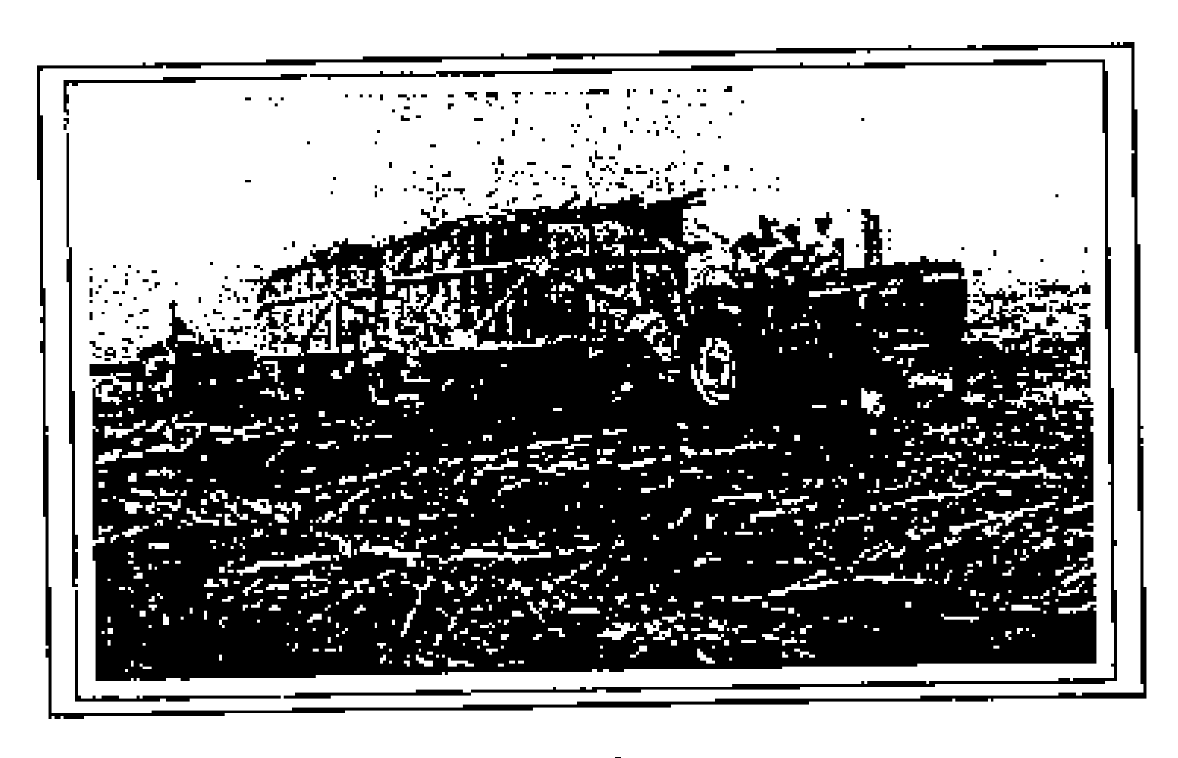
وعندما كنت أسطر خواتيم هذا الكتاب كان أهالي وادي حلفا قد فرغوا من بناء دورهم على النسق النوبي واستقروا في مدينتهم الجديدة المستلقية

علـى شـاطئ البحـيرة عند نهاية خط السكة حديد وهي تستشرف الأمواج العالية التي تضخ مياهها على موقع مدينتهم القديمة .

وســيمر بعــض الوقت قبل أن تستقر حياتهم الاقتصادية . فليس في الإمكان تحديد منطقة الجروف ما لم تصل المياه إلى خطوط الكنتور النهائية . إضــافة إلــى أن شتول نخيلهم في حاجة لعقد آخر من الزمان للوصول إلى درجة الإنتاج القصوى . وكذلك فإن بناء المرسى يحتاج لوقت طويل مثلما أن انــتظام الاتصال بين مصر والسودان لن يأخذ شكلاً محدداً إلا بمرور بعض الوقت . وإلى أن يتم ذلك كله فإن الخدمات الملاحية المحدودة القائمة ستستمر عن طريق الباخرة (إبس) التي أعيد تأهيلها وعن طريق مركب صغير وضعه المصريون تحت الخدمة . أما بواخر المصريين الصغيرة ، فقد طال انتظارها وأوشــك الأمل فيها أن ينقطع ، ذلك أن الأمر في مجمله كان يرتبط بالموعد النهائي لوصول المياه إلى مستواها الثابت ، والذي كان يبدو أنه قد تأخر .

إن مـــا ستنفرد به (وادي حلفا الجديدة) هو العزلة ، فبينها ومنطقة السكوت والمحس ستمتد الصحراء ، وفيما عدا صورة البحيرة فستبدوا المدينة كواجهــة في الصحراء معزولة عن بقية العالم ، والأمل الأوحد هو أن يُغري بروز الجروف حول شطآن البحيرة – بين وادي حلفا ودال – أهالي السكوت والمحــس الذيــن يعانون من ضيق الرقعة الزراعية بالمجيء والسكنى على شواطئ البحيرة وسد ذلك الفراغ .

ومهمـــا يحدث في مستقبل الأيام فإنني أعتقد أن ما لاقاه هؤلاء الناس مــن معاناة في نضالهم الذي ما فتر يوماً وهم يواجهون المصاعب الطبيعية ، سيكون فألاً حسناً للجميع يستقبلون به حياة سعيدة .



حصاد قصب السكر



حصاد الفول السوداني

الفصل الخامس والعشرون

بعث تاريخ النوبة

بيـــنما كانـــت ترتيـــبات الهجرة تجري على قدم وساق، كانت هناك فعاليات أُخرى ذوات أهمية كبرى قد بدأت ، وهي استخراج التماثيل والحلي وغيرها من الآثار لحضارات النوبة السحيقة ، والتي كانت أما قد تم اكتشافها ، أو لا تزال مطمورة في باطن الأرض . ومنذ إعلان خطط بناء السد العالي في مصر ، أدركت الحكومة السودانية الخطورة التي تتعرض لها الآثار غير المكتشـــفة . والـــنوبة الســـودانية تختلف عن النوبة المصرية ، فيما يختص بالاكتشـــافات الأثـــرية ، فكل آثار الحضارات بدءً بالعصر الحجري وانتهاءً بحملـــه إسماعيل باشا لفتح السودان في عام ١٨٢٠م ،لم تمتد لها أيدي علماء الآثـــار بالاكتشاف ، سوى اكتشاف أجزاء من الحصون الفرعونية في بدايات هذا القرن . لذا فقد رفعت الحكومة شارات الخطر طالبة العون الدولي لإنقاذ هـــذه الكنوز النوبية المطمورة. وكان نطاق العملية أكبر من مقدرات السودان المالـــية والفنـــية . ولما كانت المعرفة التي يتم اكتسابها من الاكتشافات تفيد العالم بكامله ، ولماَ كان الوقت ضيقاً للتنقيب عن تلك الكنوز ، فقد جاء طلب العون مبرراً تماماً .

وجـــدت الدعـــوة اســـتجابة فورية من منظمة اليونسكو ، وتضمنت اســـتجابة المـــنظمة إنقـــاذ جميع الآثار في النوبة السودانية وما بقي من آثار مـــنطقة النوبة العليا المصرية سواء بسواء. وكان الوضع في النوبة المصرية مخـــتلفا لأن بـــناء سد أسوان وإعلاءه مرتين ، أدى إلي الشروع في عمليات التنقيـــب هـــناك فـــي وقـــت مبكر حتى اكتملت عام ١٩٣١م. ولكن معبدي (رمســـيس الثانـــي) العظيمين في (أبو سمبل) واللذَيْن كانا مهددين بمياه السد العالـــي ، شكّلا مشكلة قائمة بذاتها لعلماء الآثار والمهندسين على حد سواء .

وبـــدأت منظمة اليونسكو في الرابع من ديسمبر ١٩٥٨م حملة للحصول على الأمـــوال اللازمـــة لأجل إنقاذ الآثار القديمة والتنقيب عنها في منطقة بحيرة السـد. وتم تكوين لجنة برعاية دولية لذلك الغرض برئاسة الملك (جوستاف أدولـف السـادس) ملـك السويد كما تم تعيين الأمير (صدر الدين أغاخان) مستشـــاراً خاصــــاً للأمين العام لمنظمة اليونسكو فيما يتعلق بكل ما يختص بالعملية . فزار الأمير السودان في عام ١٩٦٠م . واجتمعت اللجنة المركزية لليونســكو فـــي ٨ مارس عام ١٩٦٠م في باريس لتدشين حملة عالمية لجمع التـبرعات اللازمـــة ، وأشـرف وزير الثقافة الفرنسي على الاجتماع الذي حضــره ممثلو كل الدول الأعضاء ورؤساء البعثات الدبلوماسية في باريس . وكـــان ممــثلا مصر والسودان من بين الحضور . وألقى السيد زيادة عثمان أرباب وزير المعارف السوداني كلمة نيابة عن حكومة السودان .

وفـــي تلـــك الأثناء كانت مصلحة الآثار تشحذ قواها للعمل الضخم ، وعلقـــت أنشطتها كافة في كل أنحاء البلاد ، وتم توجيه موظفيها للتحرك نحو وادي حلفـــا. كانـــت خطة الإعداد بذاتها عملاً ضخماً استوعب أوجه النشاط علـــى محورين : الأول منهما كان مسحاً أثرياً علمياً لكامل المنطقة المتأثرة ببـــناء الســـد العالي ، يعيّن مواقع الآثار ، ويحدد أنواعها ويقيم حجمها . وتم إنجـــاز هـــذا العمل عن طريق رصد عام لطبغرافية المنطقة التي تم مسحها لتمييز السمات الحقيقية للأرض التي تحوي آثاراً عن غيرها من المواقع التي لا يرجح وجود آثار فيها . وكلما حُدد موقع لوجودها يتم إدراجه في سجل . وفـــي أغلب الأحيان، كان يتم إجراء حفريات استكشافية للموقع لتحديد فترته التاريخـــية وامتداده ، وحالته العامة . ولكي يرتكز البحث على دعامة صلبة

قامـــت مصلحة المساحة بمسح جوي مكثف عبر ثلاثة مستويات مختلفة خلال عـــام ١٩٥٩م وهـــي الصور التي التقطت من علو شاهق وتم استخدامها في إعداد الخرائط الأثرية التي لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت . ثم المسح الذي تـــم عن طريق علو متوسط والذي أفاد في تحديد المواقع المحتملة للآثار لأنه أظهر سمات على سطح الأرض تشير إلى وجود بعض الخرائب الأثرية التي تم اختيارها بدقة لتأكيد أو نفي وجود آثار في المنطقة التي يظن وجودها فيها . وأخـــيراً المســـح الذي تم من ارتفاع منخفض والذي اقتصر على الأماكن الأثـــرية المعروفة وذات الأهمية في المنطقة . كان ذلك عوناً عظيماً لبعثات التنقيب في تجهيزها للخرائط وإعدادها لخطط الحملة .

أعدّ الخريطة الأثرية خبيران نشطان من منظمة اليونسكو هما : (و.ى . آدمـــز) و (أ.ملز) ، ومن بعد ذلك – وعندما توافرت الموارد المالية – تم إعـــداد مجموعة بطاقات من الصور الضوئية المساحية المتعلقة بعملية إعادة بـــناء المعابد . وعلاوة علي ذلك فقد تم استخدام الصور التي تم التقاطها من الجو بفاعلية لرسم خريطة فسيفسائية هائلة أُدرجت صورها بأرقام متسلسلة تم حفظها في ملف خاص لاستخدامه في الإعمال الميدانية . وعند اكتشاف موقع أثـــري جديـــد، يتم إدخاله في البطاقة المصورة عن طريق إحداث ثقب مكان موقعـــه ورسم دائرة حوله (أي الثقب) على ظهر الخريطة الفسيفسائية يحمل رقـــم الموقـــع . وبهـــذا أمكن تسجيل وتعيين كل الآثار دون إتلاف الواجهة المغطـــاة التـــي تحمل الصورة . وعند تعريض الفسيفساء إلي إضاءة خلفية تظهر كل المواقع للناظر في مشهد واحد .

والمحــور الثانــي من خطة التجهيز يختص بتفكيك أربعة من معابد المملكة الوسطى (بوهين ،عكشة ، سمنة شرق وسمنة غرب) ومدفن فريد في نوعه قائم بمنطقة (دبيره شرق) . وما كان هناك بد من تجزئة هذه المعابد، ثم نقلها إلى الخرطوم ليتم نصبها ثانية في المتحف القومي. وكان لا بد من عمل صــور كاملة لها من الصور المساحية الضوئية وإدراج حجارتها المجزأة في أرقــام متسلسلة ليعاد تركيبها في الخرطوم . ووُجدت رسومات على جدران الكـنائس ، كان لا بد من نزعها بعناية من على الحوائط لتحفظ في الخرطوم كمــا كــان لا بد من توثيق وتصوير النقوش والرسومات من على الصخور الجرداء في منحدرات الشلال .

كانت حكومة السودان قد ضمنت تعاون هيئة اليونسكو معها في إنشاء لجــنة استشــارية تضــم خبراء لعملية إنقاذ الآثار في النوبة السودانية . وقد عقدت اللجنة اجتماعها الأول في الفترة ما بين ٣ إلى ١٠ أكتوبر عام ١٩٦٠م ترأســه المديــر المساعد لمنظمة اليونسكو . ثم زارت اللجنة المنطقة حيث طافت على جميع المواقع الأثرية وحددت أسبقيات العمل . وفي عام ١٩٦٢م عقــدت اللجنة مؤتمراً في مدينة وادي حلفا برئاسة وزير المعارف ، اطّلعت فــيه علــى تقريــر مفصّل من مدير مصلحة الآثار السيد ثابت حسن ثابت . وتضمن التقرير الملامح العامة لعملية الإنقاذ ، وتناول بصورة رئيسة عملية فك المعابد الأربعة ومقبرة منطقة دبيره ، وكيفية نقلها إلى الخرطوم و إعادة تركيــبها هناك ثانية . وركزّ الاجتماع أيضاً على أهمية نزع الرسومات من علــى جدران الكنائس ، وعلى توثيق وتصوير النقوش واللوحات المرسومة على الصخر ، وقرر عمل نماذج لبعض الآثار المهمة المبنية أصلاً من اللّبِن

لأن تلكـــم الآثـــار يستحيل تحريكها . وكان آخر ما قرره الاجتماع هو إنشاء مكتب لتسجيل الآثار يكون مقره بالخرطوم ، على غرار مكتب الآثار بالقاهرة.

وأعلنـــت اللجنة الإجراءات التي يجب أن تتبعها البعثات التي ستتولى أعمـــال الحفـــر ، وناقشت تعهداتها من أجل إنجاح العملية ، والتزامها بنشر تقاريـــر سير عمليات التنقيب وفقاً لاتفاقها مع حكومة السودان. و تقرر تعيين اختصاصي في (الإنثروبولوجيا) حتى تستفيد بعثات التنقيب من علمه وخبرته في بحثها عن الآثار .

١) بدء عملية التنقيب :

نتـيجة للـــنداء الذي أطلقته حكومة السودان للمساعدة الدولية ونتيجة لتعاون منظمة اليونسكو ، طلبت الكثير من البعثات الأثرية الأجنبية المشاركة في عملية إنقاذ الآثار السودانية. وفي عام ١٩٦٠م كانت هناك ست بعثات قد بـــدأت أعمال التنقيب في المنطقة، وارتفع العدد إلى اثنين وعشرين بعثة من سبعة عشر قطراً، استطاعت معظمها الوصول إلى اكتشافات جديدة .

ولإعطـــاء صـــورة عن البرنامج الذي تم إنجازه إبان تلك الفترة التي اتســـمت بحمـــى البحـــث عن الآثار، قُمتُ بتلخيص الإصدارات التي نشرتها مصلحة الآثار وسجلت بعضاً من ملاحظاتي الشخصية عندما كنت في وادي حلفـــا . فقـــد تم تقسيم العمل إلى جزئين يتمم كل منهما الآخر : العمل الذي قامت به مصلحة الآثار ، والعمل الذي قامت به البعثات الأجنبية تحت إشراف مصلحة الآثار .

سنناقش أولاً البرنامج الذي نفّذته المصلحة على امتداد النهر من قرية (فـــرص) فـــي الشـــمال حتى (جُمي) في الجنوب ، وهي المنطقة التي كانت

مهددة بالمرحلة الأولى من تخزين المياه في بحيرة السد العالي . وقد نفذت مصلحة الآثار جزءً من هذا العمل منفردة ونفذت الجزء الآخر بمساعدة خبيري اليونسكو الذين أشرنا إليهما آنفاً . وقد قام بالمساحة الضوئية خبيران بلجيكيان وذلك في الفترة ما بين نوفمبر ١٩٥٩م وحتى مايو ١٩٦٢م وأدى ذلك إلى اكتشاف عدة مئات من المواقع الأثرية المجهولة على امتداد من الأرض لا يتجاوز ستين كيلو متراً . وتم تصنيف تلك المواقع بعناية وتولت مصلحة الآثار أعمال التنقيب عن الآثار في كافة المواقع التي كان متوقعاً أن تعمل فيها بعثات التنقيب .

تواصلت بعد ذلك أعمال المسح في بقية المناطق المتأثرة بفيضان السد جنوب جمي . وتم تحديد مائتين و أربعين موقعاً جديدا قامت مصلحة الآثار بأعمال الحفر فيها ، واستغرقها العمل في تلك المواقع حتى شهر مايو ١٩٦٩ م حيث تم إنقاذ آثار قيمة من الضياع أضيفت إلى ما يعرض في متحفنا القومي.

كانت المواقع الرئيسة التي قامت مصلحة الآثار بأعمال التنقيب فيها هي :-

أ) شمال بوهين : تم العثور على مدافن بالغة الأهمية يرجع تاريخها إلى فترة المجموعة (أ) . وكانت حالة هذه المدافن جيدة ، حيث وجدت الآثار المدفونة مع الأموات سليمة. غير أن الاكتشاف التاريخي المهم لهذه الأعمال الحفرية يتمثل في الوصول إلى علاقة يمكن تتبعها بين حضارة المجموعة (أ) وما كان يسميه (أ.ج.أركل) :(حضارة العصر الحجري للخرطوم .) واكتمل العمل في هذا الموقع عام ١٩٦٢م .

ب) جزيرة كسنارتي : هذه الجزيرة كانت أول منطقة ستواجه الطوفان وهي على مسافة من وادي حلفا تبلغ خمسة وعشرين كيلو متراً . وقد كشفت أعمال

للتنقيب آثاراً يعود تاريخها إلى العهد المروي(المجموعة س) والعهد المسيحي . وتم إنجاز هذا العمل في فترة شهرين انتهت في فبراير ١٩٦٣ .

ج) **جزيرة ميناريتي :** وكانت من أكثر المناطق غنى بالآثار بحسبان أنها تقع عند نهاية الشلال الثاني على بعد ١٠ كيلومترات جنوبي حلفا . وقد عُرفت هذه المنطقة منذ أمد بعيد بأنها من أكثر المستوطنات المسيحية أهمية في منطقة النوبة. و أكدت الحفريات وجود آثار قيمة ترجع إلى الفترة المروية والمسيحية وفترة دخول الإسلام في منطقة النوبة . ووجدت آثار هذه الحضارات على طبقات بعضها فوق بعض .علاوة على ذلك تم العثور على ١٢٤١ قطعة أثرية بعضها أجمل ما تم العثور عليه من خزفيات حتى ذلك الوقت في منطقة النوبة . ولقد تُوّجت الحفريات في هذه المنطقة باكتشاف كنيسة عتيقة ذات لوحات ورسومات بالجص ونقوش نوبية. وعمل في هذا الموقع ٢٥٠ عاملاً لمدة سبعة عشر شهراً .

٢) **فك المعابد وترحيلها :** شكلت مسألة فك وترحيل معابد عكشة وبوهين وسمنه ومقبرة دبيره مشكلة بالغة التعقيد لمصلحة الآثار . فهذه الآثار جميعها أصاب بناءها الضعف وكانت في مراحل مختلفة من البِلَى. فمعبد بوهين (أكبر هذه المعابد وأكثرها محافظة على هيئته الأولى) لم يبق منه سوى جزء من مبناه الأصلي . وفي عكشة ما بقي سوى نذر يسير من الآثار المبعثرة من الطوب الرملي المفتت . وظل ما بقي من جدران المعبد وأعمدته مطموراً حتى نصفه في الكثبان الرملية . وقد رأى (د. هارولد ج.بلندرليث [1]) أن هذه المعابد يستحيل إنقاذها وأن معبد عكشة سينهدم تماماً عند تحريكه .

(*) مدير المركز الدولي للدراسات المحافظة على الممتلكات الثقافية .

ورأت مصـــلحة الآثــــار أخـــيراً أن البناء الحجري للمعابد لا بد من تدعيمه بمعالجات كيميائية ولا بد من حفظه عن طريق استخدام محاليل مقاومة لطقس الخـــرطوم . ولقـــد تم اتخاذ هذه التدابير تحت إشراف : (ف.و.هينكل) وهو خبير من ألمانيا الشرقية يعمل بمنظمة اليونسكو.وكانت المعابد قيد النظر هي:

أ) **<u>معـــبد عكشــــة :</u>** وقد أقامه رمسيس الثاني ، البنَّاء العظيم لمعبد أبو سنبل (١٢٩٠-١٢٢٤ق.م) وقـــد تـــم تشـــييده بالطوب الرملي ، وكان مخصصاً لعرض تاريخ حياته . وفي عام ١٩٦١م وُجِدَ أن هذا المعبد يكاد يكون مهدماً تماماً كما ذكرنا آنفاً . وفي ما عدا حائطه الغربي ، كان من المستحيل إصلاح مـــا تـــبقى منه ولكن المنحوتات والنقوش على ذلك الحائط كانت ذات أهمية تاريخـــية بالغة ، فقد حوت قوائم (في جانبها الشمالي) تشير إلى البلاد السفلى التـــي فتحها رمسيس الثاني ، وفي جانبها الجنوبي تشير إلى تلك التي فتحها هـــذا الفـــرعون في أعالي النهر . وهناك لوحة مصنوعة من الجص لأسرى أيديهم خلف ظهورهم تدل على خضوعهم لسلطانه . وقد استغرق العمل الفني لكشط الجدران وتحويلها إلى شرائح وتعبئتها إلى خمسة وعشرين يوماً. وفي أواخـــر يناير ١٩٦٣م كانت القطع الأثرية جاهزة للإرسال للضفة الشرقية . وفي الرابع والعشرين من مارس نقلت الحجارة الأثرية وهي محزومة ، إلى وادي حلفا بقارب . ومن هناك نُقلت عن طريق السكة الحديد إلى الخرطوم . وفـــي عـــام ١٩٦٨م أعـــيد نصب تلك الحوائط في أقصى الجهة الغربية من المتحف القومي في سقيفة من أعمدة الفولاذ تظللها ألواح حديدية مطلية بالزنك لـــدرء الصدأ . وكانت المباني تقوم على دواليب (عجلات) وقضبان حديدية بحيث يتسنى تحريكها إلى خارج السقيفة .

ب) معبد بوهين : أكبر المعابد وأكثرها أهمية في المنطقة المتأثرة بفيضان السد العالي. بنته في الأصل الملكة حتشبسوت (١٤٩٠-١٤٦٨ق.م) وأوقفته للإلـه حـورس (رأس الصقر) رب بوهين . ولقد محا خلفُها تحتمس الثالث اسمها ووضع اسمه بديلا، ولم يقف عند ذلك بل غيّر التصميم الأصلي للوحة الجدارية وشّوه شكلها المستطيل وقبّح صورة الملكة .

كـان تصـميم هـذا المعبد تقليدياً وكان مقسماً إلى قسمين : الساحة والمعبد ذاته . كانت الساحة تقعُ في الجانب الشرقي وتحتل على وجه التقريب ثلـث مساحة المعبد . وكانت البوابة الرئيسة تقع إلى الجنوب قليلاً من الوسط وتستشرف مباشرة الضفة الغربية للنيل وتقودك إلى الساحة التي أخذت شكلاً مسـتطيلاً محاطـاً بصفـين من الأعمدة وله فناء قام ببنائه (تحتمس الثالث) امتداداً للمعبد الأصلي. ونقشت أسماء (رمسيس الثالث والرابع والخامس) على جداره.

كانـت للمعبد سته أقسام ، أولها يمكن الدخول إليه من الجهة الشرقية وهو صالة التتويج . وقد زيّنت الحجرة الشمالية بلوحة من الجص (تحتمس الثاني) وهو راكع في حضرة الإله الذي وضع يده على كتف هذا الفرعون. وصـوّرت علـى الحائط الجنوبي بقرة بالنقش البارز وهي تلعق عجلاً بينما وقفت أخرى بجانب ثور. وهذه الحيوانات كانت قرابين للإله . ولتلك الصالة بابـان (بـاب شمالي يقود إلى غرفة مستطيلة ضيقة.وآخر يؤدي إلى الغرفة المقدسـة المزخرفة والتي كان جدارها الشمالي يزخر بنقوش عديدة لتحتمس الثالـث وهـو يقدم البقر وآنية من الخمر قربانا لإله بوهين.) وظهرت على

جـــدران الحجرة الخلفية رسومات بالألوان تصور مشاهد الاحتفالات ، وكان التشويه الذي أحدثه تحتمس الثالث لصورة (حتشبسوت) واضحاً جداً .

كانـــت هنالك صورة ثالثة على حائط المعبد الجنوبي الخارجي المبني مـــن الطيـــن ، لملـــك كوش الشهير (تهراقا) الذي يمكن تمييز أنفه الأفطس وشفتيه الغليظتين وتاجه المخروطي . وكان واضحاً أن النقوش البارزة قد تم نحـــتها بعـــد أن نهب الكوشيون بوهين . وبينت النقوش أن تهراقا كان يحكم المنطقة بيد من حديد.

لقـــد زرت بوهيـــن أثـــناء تفكـــيك المعبد لكي أرى الوسيلة المأمونة المســـتخدمة في تحريك رتل الأعمدة الضخمة للساحة ، وفي تحريك الجدران الصـــلبة للمعبد نفسه . فدهشت لرؤية المعبد بكامله مدفوناً تحت كثيب كثيف مـــن الـــرمل ولا يشاهد منه شيء سوى رؤوس الأعمدة. ورأيت منحدرين يميلان برفق ، أحدها يقع في الجهة الجنوبية ويقودك من أعلى الكثيب إلى ضفة النهر حيث يجسر ممر ممهد من الألواح الخشبية الفراغ ما بين الكثيب إلـــى داخل العبارة . وتم بناء المنحدر الآخر في الجهة الغربية وهو يربط ما بيـــن أعلـــى الكثيـــب وكومة من رمل تكونت جراء حفريات سابقة . وقد تم اســـتغلال هذا الطريق كخط خفيف للسكة حديد لنقل الرمال واستخدامه وسادة ذات ارتفاعات مختلفة تبعاً لمستوى قامة أقسام الأعمدة التي تم تحريكها .

وتحت إشراف (د.بلندرليث) تمت تقوية حجارة المعبد ونقوشه قبل أن يفكك . وكانت الخطوة التالية هي إزالة أعشاش الطيور والدبابير والترسبات الأســـمنتية التـــي تراكمت حديثاً باستخدام مدية حادة ثم تنظيف مفاصل الكتل الحجـــرية. وتم تنظيف كل المنحوتات والصور برقائق من مادة (الشيلاك)

المذابـــة فـــي الكحول باستخدام الفرشاة . أما طبقات الجبص الضعيفة فقد عولجـــت بالشـــاش القطني بعد أن مسحت بسائل من مادة (البـولفاس –ب) اللاصـــقة . وبقي الشيلاك المذاب بالكحول أربعاً وعشرين ساعة ليجف قبل اســـتخدام المـــادة اللاصقة . ثم نظفت مفاصل الصخور باستخدام مدية حادة لتخليص القماش من الأجزاء الصخرية [1] .

وفي ما يلي نورد ما تم اتخاذه من إجراءات لتحريك الأجزاء الرئيسية الكـبرى للأعمدة . فقد تم اكتشاف فراغات في قلب أجزاء الأعمدة أدخل فيها البـــناءون المصـــريون القدماء كتلاً خشبية ليربطوا بين أجزاء العمود ،وكان العمـــال يـــنزعون الكتل الخشبية ثم يوسعون الفتحة ، ويتم إدخال قضيب له ســـنان يقبض على الأجزاء الداخلية للجدار . ويربط القضيب بسلسلة حديدية متصـــلة برافعة ذات بكرات تفاضلية . ومن ثم يتم رفع أجزاء الأعمدة على مهـــل قـــبل وضعها بحذر على وسادة الرمل في أعلى الكثيب ثم تدحرج إلى الأسفل حتى تبلغ شاطئ النهر . وهناك يتم حزمها باستخدام لوحين من خشب الميوقنـــي فـــي طرفيها . ثم تربط زواياها قضبان لولبية قبل أن تنزلق فوق المهاد الخشبي إلى (العبّارة) في وضع عمودي .

وعـــندما يـــتم تحريك كل الأجزاء العليا للأعمدة ، تزال الرمال عن كثيـــب الرمل ويبدأ العمل في نقل الأجزاء السفلي على نفس المنوال . وكانت هـــذه الطريقة العملية وذات الكفاءة في فك المعابد مشابهة لتلك التي بنى بها قدماء المصريين – أصلاً – معابدهم . وقد تم استخدام هذه الطريقة بنجاح في نقـــل المعابد الثلاثة الأخرى . وأستغرق نقل معبد بوهين أربعة أشهر كاملة .

---

[1] مجلة كورير – العدد – ١٩٦٠ (مقال بقلم بروفيسور أمريكي)

وتـــم ترقـــيم كـــل قطع الحجارة وعمل قائمة لها. وأعد خبراء بلجيك صورة مســـاحية ضوئية للمعبد . ونقلت حمولة الأحجار إلى الخرطوم بقطار للشحن في عربة مكشوفة وتمت عملية إعادة نصب المعابد في حديقة المتحف القومي عام ١٩٦٩م .

ولكـــبر معـــبد بوهيـــن فقد أقيمت له سقيفة ذات ثلاث مجموعات من الأعمدة مفصولة عن بعضها البعض. وسقفت بالحديد المطلي بالزنك ورفعت السقيفة على عجلات وقضيب من الحديد حيث ينطوي القضيب على العجلات كـــانطواء الحافظة الجلدية على كاميرا كوداك (من الطراز القديم) حتى تكون دحرجة السقيفة إلى الخلف ممكنة متى ما كانت هنالك حاجة لتعريض المعبد لأشعة الشمس .

ج) <u>معبدي سمنة</u> : معبد سمنة غرب مبني كشكل الحرف الإنجليزي [L] ويتكون من غرفة منفردة وحائط يبرز من المبنى الرئيسي . ويعتقد أن الملك تحـــتمس الثالث الذي بناه فوق أساس معبد أقامة في الأصل الملك سنوسيرت الثالـــث .[1] وكـــان المعبد يشابه معبد سمنة شرق (كوما) فقد كان يقع داخل حصـــن حصـــين تم بناؤه بغرض حراسة الحدود الجنوبية للمملكة الوسطى . وكانت حوائطه تزدان بلوحات وصور من الجص لتحتمس الثالث وسنوسيرت الثالـــث وهمـــا يقدمـــان القرابين لـــ (ديدوان) إله النوبة . ويعتبر المعبد أحد أحســـن المعابد المنفردة لحقبة ما قبل حقبة البطالمة محافظة على هيئته وذلك في منطقة وادي النيل قاطبة .

---

(١) صفحة ٨٨ من كتاب (السد العالي يغمر النوبة) لمؤلفه ليزلي غرينر .

أما معبد سمنة شرق (كوما) فيقع على الضفة الشرقية لنهر النيل ، قبالة نظيره في الضفة الأخرى وكان أكثر اتساعاً من معبد سمنة غرب ، وبنته في الأصل الملكة حتشبسوت ، وقام بتوسيعه خليفتاها تحتمس الثالث وأمنوفيس الثاني وذلك في الفترة ما بين (١٤٩٠-١٤١٠ق.م) وكان هذا المعبد مكرماً لعبادة الإله (خوم) الذي كان له رأس كبش . وبني المعبد من الحجر الرملي الذي يعتقد انه استجلب من جزيرة (صاي) الواقعة على بعد ١١٢ كيلومتراً إلى الجنوب من سمنة. وكان هناك حائط خارجي من اللبن ، شكلت ثلاثة جوانب من المعبد الرئيسي جزءً منه . وضم الجزء الرابع من المعبد الذي يواجه اتجاه الجنوب عمودين مربعين وصفين من المسلات كان الغرض منها تثبيت سقف الغرفة الأمامية. وحوت جدران المعبد ستين صورة بدا فيها الملكان : تحتمس الثالث وأمنوفيس الثاني في أوضاع جسمانية مختلفة في حضرة الإله (خوم) . وكما كان الحال في بوهين ، كان يمكن مشاهدة نقوش الملكة حتشبسوت المشوهة .

تم فك هذين المعبدين ونقلهما بالشاحنات إلى وادي حلفا في عام ١٩٦٤ م ثم نقلا للخرطوم عن طريق السكة الحديد حيث تم نصبهما في المتحف القومي مع معبدي بوهين وعكشة. وتمت حمايتهما بوضعهما داخل عريش مثل المعبدين المذكورين .

<u>(د) مقبرة دبيره</u> : وهي ضريح منحوت في الصخر للأمير النوبي (جيحوتي حتب) ولكونه أقدم ضريح مزين في السودان فقد اعتبر ذا أهمية خاصة . كان هذا الضريح يبعد نحو ميل واحد عن شاطئ النيل في أحضان قرية دبيره الواقعة على بعد أربعة عشر ميلا إلى الشمال من مدينة وادي حلفا . وكان

بنقوشه المنحوتة يغلب عليه الطابع المصري مما يجعل في الإمكان الظن بأنه ضـــريح مصـــري ، لولا اسم الأمير ولقبه . وقد أوضح البروفيسور (سيف ســـودربيرج) رئـــيس البعثة الاسكندنافية المتحدة ، والتي كانت تقوم بتسجيل القيمة التاريخية لهذا الضريح، بأنه يمثل دليلا قاطعاً على أن تمصير رؤساء النوبة وصل درجة متقدمة وقت بنائه ولذلك فقد كان من الصعب التمييز بين المصـــريين الخُلص والنوبيين الذين كانوا تحت إدارتهم . وكان ذلك الضريح مكرسا لتخليد آثار الملكة حتشبسوت (ملكة البرّين) .

ضم الضريح نفسه حجرة مستطيلة الشكل مساحتها ٤×٦ م لها منحدر فـــي قبالة الجهه الغربية تجاه النهر • وقد تم حفر قبر صغير مستطيل الشكل فـــي الجدار الشرقي من الباحة المستطيلة حيث تم وضع أربعة تماثيل حجرية كانـــت سـيئة الحفظ لدرجة أنه كان من المتعذّر تحريكها . ويقود مدخل في الجـــدار الجنوبي إلي الضريح نفسه والذي يقبع في ممر ينتهي بغرفة مربعة حيـــث تم العثور علي العديد من التوابيت الخشبية الملونة داخلها . كانت كل جـــدران غرفة الضريح مزدانة بمنحوتات جميلة للأمير النوبي – مع أشكال أخـــري لـــرجال وآلهـــة – تصـــوّر جوانب خاصة من حياته مسجّلة بنقش (هيروغلوفـــي) . وفي عام ١٩٦٣م قطّعت الجدران إلى أجزاء و أرسلت إلى المتحف القومي في الخرطوم حيث تم نصبها ثانية في عام ١٩٧٠م .

لقد أنقذت مصلحة الآثار – إضافة إلى المعابد الأربعة وضريح دبيره – بعـــض أعمـــدة ذات قيمة منها عمود تم العثور عليه في صخرة نائية في جزيـــرة فـــرص ، يصور نائب الملك (ستاو) وزوجته وهما يقفان أمام الملك رمســـيس الثاني في ضراعة وخشوع . كما عثر على عمود آخر في صخرة

(أبو سر)عليها اسم رمسيس الثاني وأمنحتب. [1] و عثر علي عمود ثالث يعتبر وثيقة تاريخية مهمة في (جبل سليمان) في الشاطئ الغربي قبالة قرية دغيم . وأبرز ما سجل علي هذا العمود حقيقة أن قدماء المصريين قد أخضعوا النوبة فـي عهد الملك (دجر ٣٠٠٠ق م) ثالث ملوك الأسرة الفرعونية الأولى. ويعد هذا أقدم نقش عُثر عليه في منطقة النوبة على الإطلاق .

٣- أعمال البعثات الأثرية الأجنبية :

باشـــرت البعثات الأثرية أعمالها في مواقعها عام ١٩٦٠ م. وفي عام ١٩٦٢ م بلغت إعدادها اثنتين وعشرين بعثة من مختلف أرجاء العالم ، وقد شهد شاطئا النيل في المنطقة المتأثرة بفيضان السد العالي أعمال تنقيب مكثفة لــم يشهد العالم مثيلا لها في تاريخه ، كان الحفر يجرى على قدم وساق في المــناطق كافــة ويتواصل في المناطق الخالية وفي المقابر وما تحت كثبان الرمل وفي الكنائس والمعابد وفي بعض الأوقات كان الحفر يجرى في الدور التـي يقطـنها النوبيون ، وقد تأكد أن المنطقة كانت تزخر بالآثار حتى أن المرء كان يمكنه أن يقول إن الكنوز المدفونة التي بقيت تحت أقدام النوبيين لم تكن لتصل إليها الأيدي لولا إقامة السد العالي ،

ومــن المستحيل تقدير النتائج المادية للعمل العظيم الذي قامت به البعــثات الأجنبــية ، وكذلك يستحيل تقدير قيمته التاريخية لأن ما تم اكتشافه سيكون له وزن أكبر وذو مغزى عند الأجيال القادمة. ومسأسجل هنا باختصار عمــل كل بعثة وما وجدته من آثار، أما تفاصيل عمل تلك البعثات فقد دونته مجلــة (كــوش).وأنــا أنصح كل دارس للعملية الفريدة للكشف عن الآثار

---

[1] وردت في نص الإنجليزي .. (AMENHALEP) وربما كان ذلك بسبب خطأ مطبعي - المترجم .

بالــرجوع إلي تلكم الإصدارة . وحسبي هنا أن أعطي القارئ فكرة عما كان يجري من عمل :-

(أ) البعثة البولندية :

وهـــي إحدى البعثات التي توصلت إلي اكتشافات مهمة . ففي عام ١٩٦٠ منحت مصلحة الآثار هذه البعثة حق العمل في الموقع الأثري (بفرص غــرب)، وبــدأت البعثة العمل في الثاني من فبراير عام ١٩٦١م تحت قيادة البروفيسور (ك . ميكالوسكي) .

كـــان الموقع يقوم علي تل رملي بشاطئ النهر شرق قرية فرص لا يميزه ما يسترعي الإنتباه سوي غرفة حجرية كان (العمدة صلاح) يستخدمها مَضْــيَفة ، وبعـــد أن عُوِّض بقليل من المال عنها ، اكتشف أن الحجرة بناها (ودهـــاوس) في عام ١٨٨٨م كنقطة مراقبة لصد تقدم عبد الرحمن النجومي نحـــو توشـــكي . وكانـــت البعثة البولندية علي علم بأن كنيسة فرص العتيقة مطمورة تحت الرمال في مكان ما بتلك المنطقة ، لكنها لم تكن علي يقين من أنها تحت ذلك التل فقامت بإزالة الغرفة . وبعد أن واصلت الحفر لعدة أيام – إزدادت خلالها شكوكها – ارتطمت معاولها فجأة بحائط الكنيسة. وبعد ساعات قليلة من العمل ظهر قوس المدخل الرئيس ذو الطوب الأحمر . وعملت البعثة لعـــدة أشهر لإزاحة الرمل حتي يظهر بناء الكنيسة من أساسه. وعندما أبانوا الحـــائط الشرقي – وكان العمل مستمراً – قمت بزيارتهم وهنأت البروفيسور (مايكالوســـكي) الــرجل ذا الشـــعر الفضـــيّ بنجاحه وعلقت قائلاً إنهم كانوا محظوظيـــن لارتطـــام معـــاولهم ببوابة الكنيسة . فردّ باسماً بأن ذلك لم يكن ضربة حظ ولكنه (كان ثمرة الخبرة يا بني.)

كانـــت الكنيســـة بناءً ضخماً وكان جزء منها مبني بالطوب الأحمر ، ولكــن أغلـــب أجـــزائها شيد بالطوب الأخضر بينما بُني الأساس من الحجر الرملـــي ، وأخبرونـــي أن الكنيســـة تم بناؤها علي أنقاض معبد قديم ،.وظل الموقـــع مســـتخدماً منذ عهد الفراعنة وحتى زمان (العمدة صلاح) الحالي . وكانـــت حوائط الكنيسة مكتملة حتى السقف الذي تشكل من عوارض خشبية ظلت تغطي جزءً من الكنيسة . كان المبني – عموماً – آيلاً للسقوط وتهدمت العديد من أجزائه . وكنت أعتقد أن العمل تحته يمثل خطراً . وكانت الجدران الداخلـــية مطلـــية بالجير الأبيض وعلي سطحها رسومات بالغة الجمال لونت بجـــير أبـــيض . وهناك لوحة تجدر الإشارة إليها بخاصة وهي لوحة للسيدة مريم العذراء ذات قيمة فنية عالية مما أدي إلي عرضها في نيويورك .. كانت الكنيسة بأكملها – حقاً – معرضاً للوحات بديعة. وكان (جوزيف قازي) عضو البعثة البولندية متخصصاً في كشط الرسومات من علي الحائط وكانت مهمته تتسم بالصعوبة إذ أن الطريقة التي إتبعها كانت تعتمد علي استعمال الفرشاة لمعالجة الرسومات بسائل كيميائي ثم يغطيها بطبقة من قماش رقيق ويواصل العمل على مدى عشر ساعات في نزع الرسومات من علي الحوائط كما تنزع ضـــمادات الشـــاش مـــن مواضع الجروح . وكانت كلما أزيحت رسومات ظهـــرت أخـــري مـــن تحـــتها . وبلغت أعداد الرسومات التي انتزعت ست وثمـــانون لوحـــة دون أن تـــتلف واحـــدة منها . ثم شُحنت بعناية للخرطوم و(وارسو) لصيانتها . وعلاوة علي اكتشاف تلك الرسومات القيمة فإن البعثة البولندية عالجت آثاراً تاريخية ووثائق هامة ألقت الضوء علي حقبة الحضارة المسيحية في منطقة النوبة . ووجدت عظام بيضاء لجثة أحد المطارنة في قبر

داخـــل الكنيسة بالقرب من المدخل الشرقي ويرجع تاريخ الكنيسة لعام ٦٠٠ ميلادية .

(ب) البعثة الفرنسية الأرجنتينية المشتركة :

أنجــزت هذه البعثة المشتركة أعمال تنقيب لها أهميتها في منطقة (عكشة) وكانت تحت قيادة البروفيسور (ج . فيركوتر) والبروفيسور (روزر فاسر) . كان الموقع الذي عملت فيه هذه البعثة يقع علي الشاطئ الغربي للنيل علـــي بعد أحد عشر ميلاً إلي الجنوب من مدينة وادي حلفا . وقد بدأت البعثة أعمالهـــا فـــي العاشر من يناير عام ١٩٦٠ وفرغت منها في عام ١٩٦٢م . وعـــلاوة علي حفريات معبد (رمسيس الثاني) الذي أشرنا إليه آنفاً ، أجرت البعثة المشتركة العديد من الحفريات في المدافن التي تكاد تنتسب إلي العهود الفرعونية كافة . وفي إحدى المدافن التي يرجع تاريخها إلي ثلاث آلاف سنة قـــبل المـــيلاد ، وجدت الأجساد محتفظة بحالتها ولم يصبها أي تحلل . ولو تركنا جانباً عمليات البتر التي حدثت في عصور بعيده ، كانت الأعضاء جافة ودون أن يـــبدو عليها أي علامات للتحلل والتلف . كانت المعالم واضحة جداً كما أن المُقل لم تتقرح وما انتفخت البطـــــــون ولا انفجرت وكانت تمنمات (الـــتاتو) ظاهـــرة علـــي بشـــرتها . وقد أفادني البروفيسور (فيركوتر) أن لصـــوص المدافـــن هم الذين قاموا ببتر الأعضاء لسرقة الحلي التي تزينها . ومـــن الاكتشـــافات المهمـــة لهذه البعثة العثور علي جثة طفلة في الثالثة من عمرها محفوظة في تابوت خشبي التهم النمل الأبيض الكثير من أجزائه ولكن جسد الطفلة ظل سليماً وعليه لبسة من قماش وحول عنقها قلادة من الخرز .

وبجانب مـــا تم العثور عليه من جنائز عُثر علي العديد من التحف من بينها حلي من المرمر والفخار وقطعة نقدية إسلامية لم يعرف تاريخ سكها .

(ج) بعثة جامعة غانا :

تـــرأس هـــذه البعثة البروفيسور (ب . ل. شيني) ، وقد قامت البعثة بالتنقيـــب إلى مسافة ميلين على الضفة الغربية للنيل في منطقة دبيره غرب لمـــدة ثلاثـــة مواسم كاملة امتدت من أكتوبر ١٩٦٠م إلى مارس ١٩٦٤م .

وحـــوت المنطقة مواقع مختلفة للآثار ، تتراوح من آثار فترة المجموعة (ج) وإلى فترة العصور الوسطى . وقد استطاعت هذه البعثة الكشف عن مستوطنة مسيحية كبيرة بكنائسها وأبنيتها ، كما حفرت مدافن قديمة وعثرت على الكثير من الحلي الأثرية فيها.

كانـــت جامعـــة غانا هي الجامعة الأفريقية الوحيدة التي اشتركت في عملـــية إنقاذ آثار النوبة وعندما كنت أتحسر على غياب الجامعات الأفريقية (ومـــن بيـــنها جامعة الخرطوم) شعرت بالفخر لرؤية طلاب (جامعة غانا) بوجوههم السمراء وهم يعملون مع أساتذتهم البيض من الأمم الأخرى .

(د) البعثة الأسبانية :

تـــرأس هذه البعثة البروفيسور (م . المارقو) ، وقد حصلت على إذن بالتنقيـــب فـــي مساحة شاسعة من الأرض تمتد ما بين أرقين وقرية عبكه . وتمكنـــت مـــن القـــيام بأعمال تنقيب مكثفة في مدافن الفراعنة ومقابر أخرى خاصـــة بالمجموعـــة (س) والعصر المروي وعثرت على العديد من الفخار والحلـــي . وانهمكت البعثة في العمل بمستوطنة مسيحية قديمة بها بقايا آثار لكنيســـتين ، وذلك في جزيرة (كازاريكو) عند حدود الشلال الثاني وعلى بعد

عشـــرة أمـــيال إلى الجنوب من وادي حلفا . ولسوء الحظ فقد بهتت اللوحات المرســـومة على حوائط الكنيستين مما جعل من الصعب معالجة نقلها ولذلك قنعـــت البعـــثة بتوثيق تلك الرسومات وتصويرها . إلى جانب كل ذلك قامت البعثة بحفريات في منازل عديدة .

(هـــ) بعثة جامعة كلورادو :

أذن للبعـــثة بإجـــراء مســـح أثـــري فـــي عام ١٩٦٢م تحت إشراف البروفيسور(ج.و هيوز) في رقعة من الأرض على امتداد ستة كيلو مترات على شاطئ النهر وتضم جزيرة دبروسه . وعثرت البعثة على مواقع أثرية لم تكـــن معـــروفة وأجرت حفريات في مواقع أخرى معروفة . وغطى نشاطها مســـتوطنات يرجع تاريخها إلى حضارة المجموعة (س) والحضارة المروية والحضـــارة المســـيحية . واكتشفت البعثة كثيراً من الآثار غير أن اكتشافها الأعظم كان عظاماً حيوانية وآدمية متحجرة وأدوات صخرية كانت مدفونة في طـــبقات بعضـــها فوق بعض . وأتمت البعثة عملها في هذا الموقع في عام ١٩٦٤م ولكـــن تـــم منحها أذن للقيام بمسح أثري في منطقة واسعة جداً على الشاطئ الغربي للنيل تمتد من (جمي) شمالاً إلى (دال) على الضفة الغربية . واكتملت أعمال المسح في فبراير من عام ١٩٦٦م .

(و) البعثة البريطانية :

شـــرعت هذه البعثة في أعمال الحفر في مدينة بوهين الأثرية في عام ١٩٥٧م تحت قيادة البروفيسور (و. ب . أميري) الذي كان يعتبر أحد أعظم علماء الآثار المختصين في علم المصريات القديمة. وقد أنجز هذا العمل نيابة عـــن (جمعية الاكتشافات المصرية) ، وكان عمله الرئيس يتمثل في اكتشاف

الـــنظام الدفاعـــي لـــتلك المدينة القديمة وإلقاء الضو على تصاميم وتخطيط الحصون التي أقامها قدماء المصريين لحماية هذه المدينة ذات الأهمية والتي تقع في طرف الشلال الثاني الذي يعتبر النقطة الأخيرة على الطريق التجاري الرئيس المتجه جنوباً .

وبحلـــول عـــام ١٩٦٠م تم الكشف عن كل بقايا الحصون في غرب وشـــمال المدينة بعد أن أزيلت كميات كبيرة من الرمل . وقد وجدت الأجزاء الســـفلى من أنظمة الدفاع محفوظة بحالة جيدة تحت الرمال ، ولكن الأجزاء العلـــيا كانـــت مـــتآكلة ، وما كان من الممكن تتبع أثرها . ولكن البروفيسور أميري وجد ضالته فيما بقى من البناء ، فقد وجد أن النظام الدفاعي يقوم على الآتـــي : تم إحداث خندق عرضه ٨,٤أمتار وعمقه ٦,٥ أمتار في أسفل البناء وخـــارج القاعدة عند صخرة الأساس تماماً . وكان الجدار الخارجي للخندق موصـــولاً بممـــر ضيق مغطى بالطوب وهو المدخل الوحيد للحصن . وفي وســـط الجدار الغربي وحول محوز المدينة بالضبط كانت هناك بوابة ضخمة تقفـــل بـــباب خشـــبي مزدوج يطل عليها جسر متحرك يستند على بكرات. ويحـــيط جانبـــي الـــبوابة والجسر معاً جداران قويان يكونان دهليزاً ليس من الســـهل علـــى للقـــوات المهاجمة اختراقه. ويبلغ طول ضلع السور المحيط بالحصـــن مائة وأثنين وسبعين متراً وارتفاعه ٩ أمتار وسمكه ٤,٨ أمتار . وعلى ارتفاع يعادل ربع المسافة من قاعدة السور إلى قمته ،(مسطبة) شبيهة بالشـــرفة ، مكونـــة حاجزاً يحمي الجزء الخارجي منه و يستشرف الخندق . ولقد شيدت ثمانية مواقع دائرية حصينة على هذا الجدار بها فرجات لاطلاق الأســـلحة . وكانـــت هـــذه المواقع تطل علي الجهات الثلاث لذا فإن القوات

المهاجمـــة كانت تتعرض لوابل من السهام والرماح قبل أن تتمكن من عبور الخندق . وفي كل ركن من الأركان الأربعة كان هناك موقع حصين . ويرتفع طـــول الحـــائط الرئيس من على الحاجز بنحو سبعة أمتار . وهناك ستة عشر موقعـــاً حصـــيناً ، مربّعة الشكل في تجاويف الحائط تبلغ مساحة الواحد منها ٢,٢٥ × ١,٩ متراً . ويقول البروفيسور (أميري)[١]:"إن قمة الحائط تهدمت تماماً ولكن وفقاً للأثر المصري القديم الذي يتضح من خلال الحقبة التاريخية للمملكتيـــن الوســطى والحديـــثة ، فنحن موقنون بأن الحاجز كان مكوناً من فتحات دائرية- يستخدمها رُماة السهام - مبنية من طوب طيني وأن الزوايا البارزة في أطراف الجدران تم رفعها إلى مستوى أعلى "

أعـد البروفيسور (أميري) رسماً مفصلاً لكل حصن ، مصوراً هيئته بالكـــامل إبان حقبة المملكة الوسطى . وقدرت كميات الطوب التي استخدمت في بناء ذلك المبنى العسكري بنحو ١٥ مليون طوبة من القطع الكبيرة .

وبالإضافة إلى تلك التفاعلات ، تمت اكتشافات أخرى هامة . فقد عُثر علـــى عظام بيضاء لهيكل عظمي لحصان مطمور في زاوية من زوايا إحدى الأجزاء الدفاعية بين الرماد ، تحت طبقة من الرمل على عمق متر ونصف . ولم يكن هنالك شك في أن الحصان نفق عندما نهب الكوشيون المدينة في عهد المملكة الوسطى عام ١٦٧٥ ق م . وتأكدت النظرية التي جاء بها البروفيسور (أميري) – علمياً فيما بعد – والقائلة بأن إفريقيا قد عرفت الحصان قبل قرنين مـــن غزو (الهكسوس) لمصر . وهذا ما يدحض الزعم السائد بأن الهكسوس هم الذين جلبوا الحصان إلى إفريقيا .

---

(١) الحدة ... من مجلة كورير (١٩٦٠) .

كمـــا اكتشفت آثار أخرى يجدر ذكرها هي : جمجمتان لفرس النهر ، وبقايــا مصـــنوعات من الحديد الصلب والنحاس . ولقد دهشت لرؤية مئات القوالب الطينية التي يصب فيها الحديد المذاب . وكانت هناك أكداس من خام الحديــد من المرجّح انها استجلبت من جبال بعينها بالقرب من قرية عكاشة ، عرفت بغنى صخورها بمكونات الحديد . ومن بين ما تم العثور عليه – ضمن آثار هذا الموقع – جرّتا خمر لهما سدادتان طينيتان تشيران إلى تاريخ ومكان صنع الخمر . ولسوء الحظ كانت الجرّتان فارغتين .

وهـــناك نفـــق تحت الحائط الشرقي يبدأ من داخل المدينة وينتهي عند النهر . وكان واضحاً أنه يستخدم لنقل إمدادات المياه للمدينة عند حصارها . وقـــد كشفت أعمال التنقيب عن مبنى رئاسة قوات الشرطة الذي يقع في اتجاه الشـــمال الغربـــي مـــن المدينة ويتميز بدرج يقود إلى استحكامات الحصن . وكانت المدينة مزودة بنظام ملائم لتصريف المياه يصب في النهر .

وقـــد قدّم البروفيسور (أميري) أيضاً خدمات لا تقدر بثمن في تفكيك معبد بوهين.

(ز) البعثة اليوغوسلافية :

نجحـــت هـــذه البعـــثة التـــي أوفدتها الحكومة اليوغوسلافية في نقل رســـومات جدران كنيسة عتيقة تم العثور عليها في قرية تسمى (عبد القادر) تقع على الضفة الغربية للنيل . وقد تم نقل الرسومات عن طريق كشطها من الجدران . وهي الآن محفوظة ومعروضة بمتحفنا في الخرطوم.

(ح) البعثة الفرنسية :

بعــد أن أنهــت هذه البعثة مهمتها المشتركة مع البعثة الأرجنتينية في مــنطقة عكاشة ، واصلت بمفردها أعمال التنقيب في موقع (ميرقيسا) الواقعة علــى الضــفة الغربــية للنيل قبالة الشلال الثاني . فبدأت أعمالها في أكتوبر ١٩٦٢م وفرغت منها في يناير ١٩٦٩م .

وكانــت النــتائج التــي توصــلت إليها البعثة جد مرضية إذ اكتشف البروفيسور(فيركوتر) حصن ميرقيسا العتيق الذي كان أكثر تطوراً وصيانة مــن معبد بوهين . وقد بنى ذلك الحصن فراعنة الأسرة المالكة الثانية عشرة فــي موقــع مــا بيــن بوهين وسمنة لغرض حماية الطرق التجارية النهرية والبرية.

وكــان تصــميم النظام الدفاعي يشابه تصميم حصن بوهين لكنه كان أكــبر حجماً ولربما كان أكثر أهمية منه . ولامتدت الجدران إلى مئات الأمتار فــي كل جانب وبها ذات الحواجز وذات الفتحات التي يطلق المحاربون منها أســلحتهم ، ولكن كانت أعداد الحواجز والفرجات أكثر . كانت حالة المساكن جــيدة وبعضها ازدانت جدرانه الخارجية بتعاريج . وتم العثور – في المدافن – على توابيت خشبية مزينة وبحالة جيدة ، كما عثُر أيضاً على خزفيات بالغة الجمــال علــى بعضــها نقوش (هيروغلوفية) وعلى تماثيل صغيرة وأسلحة وأدوات للزيــنة . ومن أكثر الاكتشافات إثارة : قناة فرعية استخدمت لسحب القــوارب لتصــل إلى عمق المياه في النهر. وعلى السطح الطيني لهذه القناة المطمورة الجافة انطبعت آثار أقدام البحارة الذين كانوا يجرون القوارب وآثار أقدام كلابهم بوضوح تام .

ويدّعـــي البروفيسور (فيركوتر) أن عنده دليلاً كافياً يبين أن ميرقيسا هي (حصن إكين) المفقود والذي وردت سيرته في أوراق البردي ضمن قائمة الحصون النوبية في معبد رمسيس بالأقصر .

(ط) بعثة جامعة شيكاغو:

حصلت هذه البعثة التي ترأسها البروفيسور (ك. سيل) على ترخيص للتنقيب في قرية سرّه شرق في عام ١٩٦١م واكملت مهمتها في عام ١٩٦٤م بعـــد أن كشـــفت عـــن حصـــن فرعوني عتيق قامت حوله في وقت لا حق مســتوطنة مســيحية . وكشــفت أعمال التنقيب كذلك عن العديد من الكنائس والـــدور التي يعود تاريخها إلى الحقبة المسيحية كما كشفت عن مدافن تنتسب إلـــى المجموعـــة (ج) . ومن المكتشفات النادرة كتاب مكتوب باللهجة النوبية القديمـــة في بواكير الفترة المسيحية . وعندما أنهت البعثة أعمالها في منطقة سرّه شرق ، أذن لها بالتنقيب عن حصن عتيق في جزيرة (درقو نارتي) عند طرف الشلال الثاني .

وفي عام ١٩٦٦م تم منح البعثة تصديقاً ثالثاً للتنقيب عن حصن عتيق وبعض المدافن في منطقة سمنة جنوب . وقد استمر العمل حتى عام ١٩٦٨م تحـــت إشـــراف البروفيســـور (ل. زابكار) و أسفر عن العثور على أجمل الخزفـــيات التـــي وجدت في منطقة النوبة على الإطلاق كما تم الكشف عن بعض الأدوات الفضية والبرونزية المتعلقة بالعصر المروي والمجموعة (س) ، والعثور على مئات الأختام المستهلكة . ثم أجرت البعثة حفريات مكثفة على الحصن فوجدت أن بنيانه متين وإن نظامه الدفاعي مهول . ولقد حوت أوراق البردي التي وجدت في معبد رمسيس بالأقصر اسماً لحصن نوبي في موضع

تمزقــت فــيه حــروف الاســم فيما عدا الحرف الأخير . ويعتقد بروفيسور (زابكار) أن سمنة جنوب هي الحصن المفقود .

(ي) البعثة الاسكندنافية :

وهي بعثة مشتركة لعلماء آثار من السويد والنرويج والدنمارك وفنلندة يقودها البروفيسور (سيف سودربرج) . وقد حصلت في عام ١٩٦٠م على إذن بالتنقيب في منطقة على الضفة الشرقية للنيل فيما بين فرص وجمي على امتداد خمسة وخمسين كيلو متراً وهي أوسع مساحة يؤذن لبعثة بالعمل فيها .

اكتشــفت هذه البعثة – إضافة إلى توثيق مقبرة دبيره – مئات المواقع الجديــدة والصخور التي حوت رسومات تنتسب إلى حقب تاريخية مختلفة . وقــد استطاعت – خلال ثلاثة مواسم من العمل – إجراء حفريات في ٣٦٤ موقعــاً و ١٢٩٠ قــبراً . وعثرت على المئات من القطع الأثرية شملت قبعة ذهبية ، وأدوات من المرمر والنحاس والفخار وأختام مستهلكة .

كانــت أكــثر مكتشفات هذه البعثة إثارة للاهتمام جثمان امرأة يرجع تاريخــه للقــرن الرابع الميلادي وقد عثر على جثمانها في أحد مقابر (سره شــرق) بحالــةٍ جيدة للغاية ... كانت ترتدي تنورة جلدية (رحط) تشدُّ إلى بعضها بحزام جلدي . وكان هناك قماش خشن حول ردفيها وصدرها. ولعلها – ساعة أن لقيت حتفها – كانت في حال الجالس أو كانت راقدة على ظهرها وركبــتاها مثبتــتان وقــد بدا وجهها– الذي احتفظ بملامحه – بشعاً للغاية . فالوجنــتان مشــدودتان والفــم مفــتوح والعيــنان جاحظتان . وكانت يداها المصــبوغتان بالحناء تلتصــقان بجانبي وجهها وحبل من الجلد يلتف حول عنقها. وقد تم إرسال هذه الجثة للخرطوم لتعرض في المتحف القومي ، ولكن

ولســوء الحــظ فإن رطوبة الجو عملت على نمو البكتريا فيها مما أدى إلى تحللها . فأعيدت – بعد ذلك – إلى وادي حلفا لدفنها ثانية .

ومــن الاكتشــافات المهمـــة الأخــرى التي توصلت إليها هذه البعثة مجموعــة ســلال تم العثور عليها في منزل اثري بالقرب من دبيره ، كانت مصــنوعة من المواد المحلية المعروفة بـــ : (سعف النخيل) وبنفس الأسلوب الــذي ما يزال سائداً حتى اليوم . وعندما رأيتها لأول وهلة ظننت أنها ملك للعمال الذين استخدمتهم البعثة في عمليات الحفر وإزالة الأتربة .

وبقيــت حادثــة ثالــثة جديــرة بالاهــتمام ، فعلي مقرُبه من قرية (الصـــحابة) كـــان هناك ضريحٌ يُعتقد أنه لولي مسلم مشهور هو(أويس القرنـــي) [1] الذي اعتاد النوبيون زيارته في أوقات معينة طلباً للبركة وكانوا يقدمون له القرابين والذبائح . وكان قبره يزين على الدوام بالرايات والأعلام .. وفـــي مطلـــع عام ١٩٦٤م وجدت البعثة الإسكندنافية ضريحاً عتيقاً تحت مـــزار الشيخ أويس القرني وكان البروفيسور(سودربيرج)خائفاً من الحفر في ذلـــك المكـــان لأن ذلك قد يثير ثائرة النوبيين ، فتحدث إليّ طالباً مني السعي للاســـتئذان منهم. ولذلك اتصلت بالشيخ صالحين ووجهاء المنطقة ، ونجحت في إقناعهم بقبول الحفر لأن الضريح بمجمله ستغمره المياه عاجلاً أو آجلاً ، فلـــيس من الحكمة الاعتراض علي الحفريات المهمة ، مادامت البعثة ملتزمة بإخـــراج جسد الشيخ أويس من مرقده وإعادة دفنه بكل عناية في محيط نفس المكان . إغتبط البروفيسور لنجاحي في إقناعهم وأكد لي أنه سيظل وفيّاً للعهد الذي قطعه لي .

---

(١) أويس القرني (رض) كان من صحابة رسول الله (ص) – المترجم .

وبعـــد أيـــام قليلة قام أعضاء البعثة بصحبتهم عمالهم وبعض وجهاء المـــنطقة بالحفر في قبر الشيخ (أويس القرني) . وقد ألجمت الدهشة ألسنتهم عندما اكتشفوا أن صاحب القبر كان أسقفاً مسيحياً يتدلي الصليب من عنقه مما أثار قدراً من الدهشة والضحك بين النوبيين . فقد كانوا يبجلون قساً معتقدين أنه شيخهم (فكي) . ويبدو أن تتابع الأديان واحداً إثر الآخر هو ما سبب هذا الخلط .

ومـــع كل ذلك فإن جسد القس تم نقله بعناية ودفن في القبر الذي تم حفره لدفن جثمان الشيخ أويس . واستأنفت البعثة حفرياتها في المقبرة الأثرية التـــي كانت منحوتة في الصخر مثل مقبرة دبيره فيما عدا أن جدرانها كانت خالـــية من النقوش أو الكتابة . وعثرت في إحدى الغرف علي أربعة تماثيل غـــير أن حالـــتها كانت مزرية مما أزهد البعثة في أي محاولة لنقلها . كما عـــثرت علي عمود أوضحت نقوشه أن القبر كان لأمير نوبي هو(أ م – نم – حت) شقيق أمير دبيره المُسمّي (جيحوتي – حتب) .

وفي الحادي عشر من شهر نوفمبر عام ١٩٦٢م تشرفت مدينة وادي حلفـــا بـــزيارة الأمـــيرة (مارقريت) ولية عهد الدنمارك . وكان الهدف من زيارتها هو المشاركة الشخصية مع بعثة بلادها في إنقاذ آثارنا النوبية ولأجل ذلـــك انضـــمت إلي البعثة الاسكندنافية . وبدلاً عن الإقامة في فندق النيل – متمـــتعة بوسائل الراحة التي أعدتها لها هناك – فضلت أن تقيم مع أعضاء البعثة في منزل نوبي في منطقة (دبيره) كان مفروشاً بحصير محلي . وقد رفضـــت الأميرة حتي السجاد الذي أعدته لفرش غرفتها وفضلت أن تفرش الغـــرفة بالـــبروش المصنوعة من جريد النخل بدلاً عنها . ولقد تم استقبالها

استقبالا حافلاً في المطار ، وعندما وصلت إلي دبيره أهداها العمدة داؤود عبد الرحمن – تمشياً مع العادات النوبية – طبقاً من السعف عليه عينات من التمر وقبضة من قمح محمّص وبعض فروع من نبات الريحان الفوّاح ، وحفنة من (الآبــري) . أمـــا الناظر صالحين فقد أهداها عقداً من (السملوك) وهذه الأشـياء تعتبر فألاً حسناً لحياتها الزوجيّة في المستقبل . وكان الجمهور الذي تقاطر علي المطار قد استقبلها بهتافات الترحيب الحماسية وردّت الأميرة علي ذلـــك شاكرة بكلمات بليغة . ولم يكن النوبيون فخورين لمشاركتها الشخصيّة فـــي إنقـــاذ آثار أسلافهم فحسب ولكن لأنهم لمسوا حرصها علي تذوق الحياة النوبـــية أثـــناء زيارتهـــا.وكان من الطريف أنّ أعضاء البعثة المشاركين في الاستقبال قد ارتدوا (الجلاليب) والعمائم التي أخفت ملامحهم تماماً حتى إنني حسبتهم من العمال الصعايدة .

أمضـــت الأميرة جزءً كبيراً من الأيام الأربعة والثلاثين التي قضتها بالمنطقة ، في التنقيب بالمقبرة تحت إشراف البروفيسور (سيف سودربيرج) وكان مألوفاً أن تراها – يومئذ – وهي تحمل أدواتها مبتهجةً إلي موقع العمل . وكـــان العمال فخورين برفقتها وبسلوكها المتحضر وبقدرتها علي العمل . وقـــد حرصـــت – قبل مغادرتها للمنطقة علي تناول طعام الإفطار معهم في سقيفة واسعة من الخشب عُرشت بالقش. وكان الطعام مكوناً من رغيف وفول لا غـــير . وفي الرابع عشر من ديسمبر غادرت الأميرة إلي الخرطوم حيث قضت أياماً قليلة قبل أن تعود إلي بلادها .

(ك) بعثة جامعة كاليفورنيا :

فــي أكــتوبر مــن عام ١٩٦٢ م منحَت بعثة جامعة كاليفورنيا إذناً بالتنقيــب فــي جزيرة (إسكوت) التي تبعد خمسة وثلاثين كيلومتراً جنوبي وادي حلفــا . كانت الجزيرة تحوي آثاراً يعود تاريخها إلي المملكة الوسطي وإلــي الفترة المسيحية ، وقد أدت الحفريات التي قادها البروفيسور (إسكندر بــدوي) إلي إكتشاف بعض المصنوعات الفخارية ونظام أثري لقياس مناسيب النــيل إستخدمه قدماء المصريين لمعرفة مستوي ارتفاع النيل وانحساره . ثم انتقلــت البعــثة إلي جزيرة (دابنارتي) قبالة (ميرقيسا) حيث عثرت علي جدار متصدع ظنّته دليلاً علي وجود حصن ، لكنها – لسوء الحظ – لم تعثر علي أثر ذي بال .

(ل) بعثة جامعة كلومبيا :

وهــي بعثة مشتركة تكونت من موظفين في جامعة كلومبيا وجهات علمــية مســتقلة . وقد قُيّد الترخيص الذي مُنح لها بالتنقيب عن فترة ما قبل الــتاريخ فــي الضــفة الغربية للنيل في منطقة تمتد من(فرص غرب) إلي الشــلال الثاني خارج المناطق التي مُنحت من قبلُ لبعثات أخري .

امــتد نشــاط البعثة من أكتوبر عام ١٩٦١م وحتي فبراير ١٩٦٥م وأدي إلي اكتشاف المئات من المواقع البكر التي لم تكن معروفة من قبل كما تــم العثور علي الآلاف من الأدوات الحجرية والعظام المتحجّرة ، فضلاً عن آثــار تــرجع إلي ما قبل التاريخ يمكن تحليلها بطريقة الإشعاع الكربوني . وقامت هذه البعثة بعمل مسح جيولوجي للمنطقة .

(م) بعثة جمهورية ألمانيا الديمقراطية :

فـــي عـــام ١٩٦٢م حصلت هذه البعثة علي ترخيص يخولها تسجيل وتوثـــيق كل النقوش المرسومة علي الصخور والرسومات في المناطق التي تقـــع خارج نشاط للبعثات الأخرى . وقد شرعت هذه البعثة في العمل خلال شهر فبراير ١٩٦٢م وواصلت الجهد حتى إنتهت من أعمالها في ديسمبر عام ١٩٦٣م وأنجزت توثيقاً كاملاً للكتابات (الهيروغلوفية) والرسومات المنقوشة علي صخور التلال والتي بلغت المئات .

(ن) البعثة البلجيكية :

قامـــت هذه البعثة بتوثيق لكامل الكتابات (الهيروغلوفية) التي وجدت علي جدران معبدَيْ سمنة ، وهناك كتابات علي الحوائط ومسلاّت لم يلاحظها الأكاديمـــيون الذيـــن عملـــوا سابقاً في سمنة (وهم البروفيسور داوس دنهام والبروفيســـور جنســـن والبروفيســـور لـــبوس) مما قاد إلي مراجعة بعض اكتشافاتهم . وقامت بعثة بلجيكية أخري بعمل مسح جوي لتوثيق معبد بوهين ومعـــبدَيْ سمنة وقد استخدم هذا التوثيق كمرشد عند إعادة نصب المعابد ثانية في متحف الخرطوم .

(س) بعثة جامعة براون :

تولت هذه البعثة الأمريكية توثيق كل الرسومات والكتابات الموجودة علـــي جدران كل المعابد في المنطقة المتأثرة بالفيضان . وقد قاد هذه البعثة البروفيســـور (ر .أ . كاميرر) بالتعاون مع (الجمعية البريطانية لمسح الآثار المصرية) . وقد استغرق العمل أربع سنوات انتهت في عام ١٩٦٥م .

(ع) بعثة الألمان الغربيين :

إضطلعت هذه البعثة التي قادها البروفيسور (دينكلر) بأعمال التنقيب فـــي جزيرتي سمنة وتنجور الواقعتين علي بعد مائة كيلومتر إلي الشمال من مدينة وادي حلفا حيث اكتشفت في سمنة حصناً يعود تاريخه للفترة المسيحية، وعـــثرت فـــي (تنجور) علي جدران خربه لكنائس ومستوطنات مسيحية. وأنهـــت أعمال التنقيب في ١٩٦٨م . وعندما انتقلت إلي جزيرة (كلوبنارتي) قبالة عكاشة لم تعثر علي شئ ذي قيمة .

(ف) البعثة الإيطالية :

فـــي عام ١٩٦٦م تم منح هذه البعثة – التي كان يرأسها البروفيسور (دونا دوني) – أذناً بالتنقيب في الكنيسة القديمة بمنطقة سونكي التي تبعد مائة وعشرة كيلومترات إلي الجنوب من وادي حلفا عند حدود بحيرة السد العالي . واســتغرقت الحفــريات عامـــاً كاملاً وكانت نتيجتها عظيمة . فقد عثر علي لوحـــات جداريـــه بحالـــة جيدة مثل تلك التي وجدت بفرص . فتم كشطها ثم حُفظـــت للعـــرض في متحف الخرطوم . وعثرت البعثة علي كتابات كثيرة باللهجة النوبية علي جدران الكنيسة .

وأجرت بعثة إيطالية أخري – بقيادة البروفيسور (سجنورا جرجيني) بالـــتعاون مـــع جامعة (بيزا) -- لمدة تزيد عن عشر سنوات حفريات (بمعبد صُــلب) رائـــع الجمال والذي يقع في جنوب المنطقة المتأثرة بفيضان السد العالـــي . وتـــم توثـــيق المعـــبد توثيقاً كاملاً ، كما تم إجراء حفريات بمدينة (صُــلب) الأثـــرية ومقبرتها . وكان التصريح الذي منح لهذه البعثة ذا طبيعة خاصة وخارج إطار برنامج حفريات اليونسكو .

(ص) بعثة جامعة هلسنكي :

عملت هذه البعثة — تحت إشراف بروفيسور (جستاف دونر) علي إمـــتداد ١٥ كيلو متراً علي ضفة النيل الشرقية بمنطقة (جمي – مرشد) . وأدت حفرياتها التي إستغرقت عاماً إلي إكتشاف مواقع لم تكن معروفة وإلي إكتشاف آثار لكل العصور التاريخية .

(ق) بعثة جامعة جنيف :

غطت جهود هذه البعثة حفريات في منطقتي (أُكمه) و (عكاشة) فـــي أقصـــي جـنوب المـــنطقة المـتأثرة بفيضان السد العالي وذلك بقيادة البروفيسور (س. ما يستر) . ثم امتدت حفرياتها إلي سلسلة من المقابر يعود تاريخها إلي كل العصور . كما شملت الحفريات بعض المستوطنات المسيحية والكنائس .

(ر) بعثة جامعة كنتكي :

قاد أعمال هذه البعثة خبير اليونسكو البروفيسور (آدمز) الذي ساعد مصـــلحة الآثـــار أثـــناء أعمالهـــا التحضيرية . وقد عملت البعثة في جزيرة (كلوبنارتي) ابتداء من عام ١٩٦٩م إلي عام ١٩٧٠م . فعثرت علي كنيسة عتـيقة علـــي جدرانها رسومات بحالة جيدة تم كشطها وإرسالها إلي (روما) لمعالجتها قبل أن تعرض في متحف الخرطوم .

......

وبينما كانت البعثات المختلفة تقوم بأعمالها، كان الســيد (نجم الدين) مشغولاً بجمع وتجهيز كل التماثيل التي كانت تعرض في متحف وادي حلفا الصغير . وقبل أن يرسل تلك الآثار إلي الخرطوم ، لم ينس أن يزور منزلي

لأخذ تاجَيْ [١] عمودين أثريين يعود تاريخهما للعهد المسيحي ، كان أحد الحكام البريطانيين قد نصبهما علي جانبي درج الحديقة . وقد اقترحت عليه أيضاً أن يأخذ مدفعي (الكُرب) المنصوبين عند بوابة المنزل . لكنه أعتذر عن نقلهما ضمن منقولاته الأثرية لأنهما لم يكونا مدرجين في قائمة المنقولات التي سيتم نقلها للخرطوم . وقد قمنا بإرسال المدفعين في وقت لاحق إلي الخرطوم لعرضهما في القصر الرئاسي .

ومـا مـن شـك أن مصير منطقة النوبة – بكل آثارها وتحفها -- قد استرعت إنتباه العالم عقب إبرام اتفاقية مياه النيل . كما أن التدابير التي كانت مطروحة لإنقاذ معبديْ أبو سمبل (إما برفعهما لمستوي سطح بحيرة السد أو الإبقاء عليهما في مكانهما وبناء سياج حولهما يمكّن من يريد مشاهدتهما تحت الماء، أو تجزئتهما ثم إعادة نصبهما بنفس المنطقة في مكان عال) قد أثارت فضولاً واسعاً وأبرزت إهتماما عميقاً بهذين الأثرين الفريدين .

يكلف المشروع الأول وحده ٢٤ مليوناً من الجنيهات وهو رقم خيالي يجعـل الإنسان يتخيّل أنه كاف لإعادة الحياة للمومياءات الفرعونية ويسخّرها لبناء معابد جديدة مثيلة !!

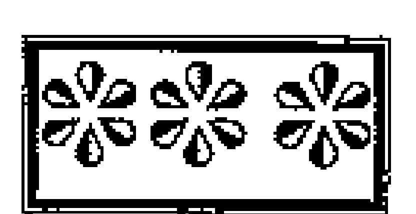
لقـد جذبـت هـذه المشروعات – وما أثير من جدل حول ما إذا كان هذان المعـبدان يستأهلان حقيقة كل تلك القيمة – آلافاً من السياح جاءوا من أقطار عديدة ليشهدوا هذه الأعاجيب التي أبرزت قدراً كبيراً من الإعجاز الهندسي.

ولا عجـب – إذن – إن غصـت مـنطقة النوبة بالسياح منذ أن أعلنت الحكومـة المصـرية عـن عـزمها علـي إنشاء السد العالي . ولما لم يكن

[١] تاج العمود : رأسه – المترجم

المصــريين خــط ملاحي منتظم من (أسوان) إلي (أبو سمبل) ولا فنادق في منطقة المعابد فقد كان علي السياح استخدام بواخرنا إلي وادي حلفا مع البقاء طويلاً في منطقة أبو سمبل لرؤية عجائب رمسيس الثاني .

وكانــت كل باخرة تأتي بالمئات من السياح الذين يقضون يومين في وادي حلفا ثــم يعودون إلي أسوان . وكان السياح يملأوون الفندق وملحقاته ومرسي الباخرة العتيقة (السودان) التي كانت تقف قُبالة حديقة الفندق . وكان بعــض الســياح يستخدم المراكب الشراعية النوبية ويعبر لرؤية آثار بوهين العتـيقة كما أن بعضهم كان يستعمل عربات الأجرة إلي قرية (عبكه) لرؤية الشــلال الثانــي . ومــن بيـن الــزوار المشــهورين الذيــن نــزلوا بحلفا آنــذاك:المارشال(تيتو) و(دوق أدنبرة) وبعض أفراد العائلة المالكة البريطانية والأمــير (بــرنارد) الهولــندي و(سومرست موم)[١] ورئيس مجلس الشيوخ الإيطالي .



---

(١) روائي بريطاني شهير – المترجم .

الأميرة (مرقريت) مع البروفيسور (سوفر بيرج)



السواح يتقاطرون على المناطق الأثرية

ملحق

المسح السكاني (لوادي حلفا)

١/ ا مدينة حلفا

توزيع السكان حسب الجنس ومجموعات العمر – القسم الرئيسي وكل المدينة

الأقسام الرئيسية	الجنس	سنوات العمر														
		فوق ٦٠	٥١–٦٠	٤١–٥٠	٣١–٤٠	٢١–٣٠	١٦–٢٠	١١–١٥	٦–١٠	٥	٤	٣	٢	١	مجهول العمر	كل الأعمار
كل المنطقة	الجنسان	٤٩٢	٤٢٠	٨٤٣	١٢٧٣	١٧٣٥	١٠٠٠	١٣١٩	١٧٣٠	٣٣٧	٤٠٣	٤٦٥	٤٦١	٣٧٨	٢٤٠	١١٠٥٩
	الذكور	٣١٣	٢١٥	٤٧٤	٦٩٣	٧٩٥	٤٣١	٧٠٨	٨٩٥	١٥١	١٨٥	٢٢٣	٢٢٥	٢٠١	١١٢	٥٥٩١
	الإناث	١٧٩	٢٠٥	٣٦٩	٥٨٠	٩٤٠	٥٦٩	٦١١	٨٣٥	١٨٦	٢١٨	٢٤٢	٢٣٦	١٧٧	١٢٨	٥٤٦٥
البرجسة	الجنسان	١٠٠	١٠٥	١٥٣	٢٠٧	٢٥٠	٢٠٠	٣١٩	٣٠٥	٦٩	٧٢	٧٦	٧٥	٥٤	٤٨	٢٠٠٣
	الذكور	٤٢	٤٩	٨٨	٩٢	١٣٤	٨٥	١٣١	١٦٥	٣٣	٣٢	٤١	٤٠	٣٥	١٧	٩٧٧
	الإناث	٥٨	٥٦	٦٥	١١٥	١٥١	١١٦	١٨٨	١٤٠	٣٧	٤٠	٣٥	٤٥	١٩	٣١	١٠٣٦
حي الجبل	الجنسان	٦٥	٥٣	١٢١	١٣٠	١١٧	٦٨	٤٧	١٢٥	٢٧	٢٧	٣٤	٣٢	٢٢	١٣	٤٧٤
	الذكور	٣١	٣٠	٦٠	٦٢	٤٣	٣٧	٦	٧١	١٥	١٥	٢٠	١٩	١١	١٠	٢٦٣
	الإناث	٣٤	٢٣	٦١	٦٨	٧٤	٣١	٤١	٥٤	١٢	١٢	١٤	١٣	١١	٣	١٥٥
حي فركويت	الجنسان	٥٩	٥٦	١٠٩	١٧٢	٢٣٧	١٣٣	٢٠٠	٢٥٣	٤٠	٥٣	٦٦	٥٩	٥٥	٣٨	١٥٣٢
	الذكور	٣٢	٣١	٥٩	٩٦	١١٣	٥٦	١٠٢	١٢٢	٢٣	١٨	٣٠	٢٨	٢٧	٢١	٧٥٧
	الإناث	٢٧	٢٥	٥٠	٧٦	١٢٤	٧٧	٩٨	١٣١	١٧	٣٤	٣٦	٣١	٢٨	١٧	٧٧٥

١ / أ مدينة حلفا (تابع ما قبله)

توزيع السكان حسب الجنس ومجموعات العمر – القسم الرئيسي وكل المدينة

الأقسام الرئيسية	الجنس	سنوات العمر: ٦٠ فأكثر	٥١–٦٠	٤١–٥٠	٣١–٤٠	٢١–٣٠	١٦–٢٠	١١–١٥	٦–١٠	٥	٤	٣	٢	١	دون العام	كل الأعمار
المدينة	الجملة	٣١	٦٥	٤٩	١٩٣	٢٢٧	١٢٦	٢٠٠	٢٦٠	٥٧	٦٤	٦٣	٦٥	٥١	٣٢	١٥١٢
	الذكور	٢٢	٤٠	٢٣	١١٣	٩٩	٥٦	١٠٣	١٣٢	٣٠	٣٢	٣٠	٣١	٢٧	١٥	٧٧٥
	الإناث	٩	٢٥	٢٦	٨٠	١٢٨	٧٠	٩٧	١٢٨	٢٧	٣٢	٣٣	٣٤	٢٤	١٧	٧٣٧
خمس	الجملة	٦٥	١٠٠	٢١١	٣٤٤	٥٠٣	٢٦٨	٣١٠	٤٢٦	٨٧	١٠٦	١٤٥	١٢٤	١٢٢	٦٠	٢٨٨٠
	الذكور	٤٠	٦٤	١٢٥	٢٠٠	٢٣٦	١١١	١٦٤	٢٠٩	٣٩	٥٠	٧٣	٦٥	٦٧	٣٠	١٤٦٨
	الإناث	٢٥	٣٦	٨٦	١٤٤	٢٦٧	١٥٧	١٤٦	٢١٧	٤٨	٥٦	٧٢	٥٩	٥٥	٣٠	١٤١٢
الصوالة	الجملة	٧٣	٩٢	١٥٣	٢٢٨	٣٥٣	٢٠٠	٣٠٦	٢٢٨	٦٧	٨٦	٨٢	١٠٦	٧٤	٤٦	٢١٥٢
	الذكور	٤٧	٥١	٨٥	١٣١	١٧٠	٨٧	١٤٥	١١١	٣٢	٤٢	٣٩	٥٢	٣٤	١٩	١١٢١
	الإناث	٢٦	٤١	٦٨	٩٧	١٨٣	١١٣	١٦١	١١٧	٣٥	٤٤	٤٣	٥٤	٤٠	٢٧	١٠٣١

١/ب المنطقة الريفية

توزيع السكان حسب الجنس ومجموعات العمر (العموديات وكل المنطقة)

الأقسام الرئيسية	الجنس	فوق ٦٠	٦٠-٥١	٥٠-٤١	٤٠-٣١	٣٠-٢١	٢٠-١٦	١٥-١١	١٠-٦	٥	٤	٣	٢	١	مادون العام	كل الأعمار
		سنوات العمر														
كل المنطقة	الجنسين	١٨٠٤	١٥٦١	٢٣٦٣	٢٨٧٤	٣٦٦٠	٢١٠٩	٢٨٩٢	٤٣٧٢	٩٧٦	٩٨٢	١١٨٩	١٠٨٠	١٠٢٢	٥٦٩	٢٧٤٣٢
	الذكور	٧٥٧	٦٨٧	٩٣٣	١٠٥٤	١١٠٤	٦٥٩	١٤٧٠	٢٣٦٣	٤٧٨	٤٨٩	٥٥٩	٥٥٧	٥١١	٢٧٩	١١٨٦٠
	الإناث	١٠٤٧	٨٧٤	١٤٣٠	١٨٢٠	٢٥٥٦	١٤٥٠	١٤٢٢	٢٠٠٩	٥٠١	٤٩٣	٦٣٠	٥٢٣	٥١١	٢٩٠	١٥٥٧٢
قرص غربا	الجنسين	٨٠	٤٩	٧٥	٧٧	٩٣	٣٨	٥٨	٨٣	٢٣	٢٠	٢٢	١٦	١٨	٤	٦٥٥
	الذكور	٢٣	١٤	٢٣	٣٥	٣٣	١٣	٢٦	٤٣	١٠	٩	٧	٥	٩	٣	٢٥٣
	الإناث	٥٥	٣٥	٥٤	٤٢	٦٠	٢٥	٣٢	٤٠	١٢	١١	١٥	١١	٩	١	٤٠٢
قرص شرق	الجنسين	٣٠	٢٩	٤٩	٦٦	٩٢	٤٥	٤٥	٧٨	٢٢	١٧	٢٢	١٥	٢٢	١٤	٥٤٩
	الذكور	١٢	١٣	٢٢	٣١	٢٠	١٧	٢٢	٥٠	٩	٨	٧	٦	١٠	٥	٢٣٢
	الإناث	١٨	١٦	٢٧	٣٥	٧٢	٢٨	٢٣	٢٨	١٣	٩	١٥	٩	١٢	٩	٣١٧
سرة شرق	الجنسين	٧٥	٥٣	٨٦	٨٨	٨٩	٥٣	٦٤	١٠٧	٤٢	٢٣	٣٨	١٧	٤٠	٩	٧٨٤
	الذكور	٢١	١٥	٢٧	٢٥	١٨	١٢	٣٠	٥٥	٢٦	١١	٢٥	٩	١٨	٥	٢٩٤
	الإناث	٥٤	٣٨	٥٩	٦٣	٧١	٤١	٣٤	٥٢	٢٢	١٢	١٣	٨	٢٢	٤	٧٤٢
سرة غرب	الجنسين	٨١	٥١	٧٧	٩١	٨٤	٥٩	٦٧	١١٣	٢٦	١١	٤٠	١٧	١٤	١٥	٧٥٤
	الذكور	٣١	١٨	٢٤	١٦	١٤	٩	٢٥	٦٤	٧	١٠	١٨	٨	٦	٧	٢٦٧
	الإناث	٥٠	٣٤	٥٣	٧٥	٧٠	٥٠	٤٢	٤٩	١٦	١	٢٢	٩	٨	٨	٤٨٧

١/ب المنطقة الريفية (تابع ماقبله)

توزيع السكان حسب الجنس ومجموعات العمر (العموديات وكل المنطقة)

الأقسام الرئيسية	الجنس	سنوات العمر: فوق ٦٠	٦٠-٥١	٥٠-٤١	٤٠-٣١	٣٠-٢١	٢٠-١٦	١٥-١١	١٠-٦	٥	٤	٣	٢	١	أقل من عام	كل الأعمار
جمي	الجملة	١٨٣	٧٧	١٩٥	٢٤٠	٣٤٣	١٩٩	٢٧٢	٤٥٥	١٠٣	٩٥	١٣٠	١١٩	١١٧	٥٨	٢٥٨١
	الذكور	٦٨	٤٥	٦٩	٨١	٧٤	٥٣	١٥٨	٢٤٥	٥٥	٤٣	٦٣	٥٥	٥٩	٢٥	١١٠٤
	الإناث	١١٥	٣٢	١٢٦	١٥٩	٢٦٩	١٤٠	١١٤	٢١٠	٤٨	٥٢	٦٧	٦٤	٥٨	٣٣	١٤٧٧
صرص	الجملة	٩٧	٩١	١٨٢	٢٥٣	٢٧٨	١٩٩	٢٥١	٤٤٤	٩٣	١٠٩	١١٨	١٣٣	١١٧	٥١	٢٥١٨
	الذكور	٥٤	٥٦	٨٦	١٢٤	١٣٣	٥٧	١٢٤	٢٢٤	٤٧	٦٢	٥٦	٧٠	٦٣	٣٢	١١٨٨
	الإناث	٤٣	٣٥	٩٦	١٢٨	١٤٥	١٤٢	١٢٧	٢٢٠	٤٦	٤٧	٦٢	٦٣	٥٤	١٩	١٣٣٠
دوالشات	الجملة	٤٢	٥٦	١٠٨	١٧٥	٢٥٠	١٧٧	١٧٦	٢٩٢	٧٩	٦٩	٩٥	٧١	٨١	٤٤	١٦١٦
	الذكور	٢٣	٣٢	٥٩	٧٦	١٢٢	٩١	٩٥	١٦٠	٣٤	٢٩	٤٦	٤٦	٣٧	١٥	٧٨٥
	الإناث	١٩	٢٤	٤٩	٩٩	١٢٨	٨٦	٨١	١٣٢	٤٥	٤٠	٤٩	٢٥	٤٥	٢٩	٨٣١
عكاشة	الجملة	٩٦	٨١	١٣٨	١٧٧	١٥٣	٩٩	١١٦	٢٥٩	٦٦	٧٩	٧٨	٦٤	٥٩	١٤	١٥٢٠
	الذكور	٣٩	٣٠	٥٢	٤٦	٥٠	١٥	٤١	١٢٩	٢٩	٤٢	٣٣	٣٤	٢٣	١١	٥٦٤
	الإناث	٥٧	٥١	٨٦	١٣١	١٠٣	٨٤	٧٥	١٣٠	٣٧	٣٧	٤٥	٣٠	٣٦	٣	٩٥٦
كوشة	الجملة	٥٠	٦١	٩١	١١٥	١٢٥	٦٧	١١١	١٦٩	٣٩	٣١	٤٧	٣٠	٤٠	١٤	٩٩١
	الذكور	٢٢	٣١	٣٧	٣٠	٤٢	٢٣	٥٤	٩٣	١٨	١٦	٢٨	١٤	١٩	٧	٤٣٤
	الإناث	٢٨	٣٠	٥٤	٨٥	٨٣	٤٤	٥٧	٧٦	٢١	١٥	١٩	١٦	٢١	٧	٥٥٧

١/ب المنطقة الريفية (تابع ماقبله)

توزيع السكان حسب الجنس ومجموعات العمر (العموديات وكل المنطقة)

الأقسام الرئيسية	الجنس	سنوات العمر														
		مافوق ٦٠	٥١-٦٠	٤١-٥٠	٣١-٤٠	٢١-٣٠	١٦-٢٠	١١-١٥	٦-١٠	٥	٤	٣	٢	١	مادون العام	كل الأعمار
دبيرة	الجملة	٢٦٤	٢٦٥	٣٤٢	٣٦٧	٤٥٥	٢٧٦	٤٣٤	٥٩٥	١٢٩	١١٦	١٤٥	١٥٢	١٢٢	٨٣	٣٧٧٥
	الذكور	١١١	١٣٠	١٣٥	١٢٨	١٢٧	١٠٦	٢٣٠	٣١٤	٧٤	٥٧	٨٢	٧٨	٧٠	٤٣	١٦٩٥
	الإناث	١٥٣	١٣٥	٢٠٧	٢٣٩	٣٢٨	١٧٠	٢٠٤	٢٨١	٥٥	٥٩	٦٣	٧٤	٥٢	٤٠	٢٠٨٠
اشكيت	الجملة	١٦١	١٢٨	١٤٢	١٨٧	٢٢٧	١٤٢	٢١٤	٣٠٠	٦٠	٦١	٦٤	٧٤	٦٥	٣٥	١٨٦٠
	الذكور	٦٤	٤٦	٥٥	٦٧	٥٥	٥٣	١٠٧	١٥٦	٣٢	٣٠	٢٨	٣٨	٣٦	١٩	٧٨٦
	الإناث	٩٧	٨٢	٨٧	١٢٠	١٧٢	٨٩	١٠٧	١٤٤	٢٨	٣١	٣٦	٣٦	٢٩	١٦	١٠٧٤
أرقين	الجملة	١٩٢	١٥٢	١٩٣	٢٠١	٢٨٢	١٥٧	٢٧٦	٣٢٨	٦١	٦٧	٨١	٧٠	٨١	٥٥	٢٢٥٦
	الذكور	٦٣	٦٢	٥٣	٨٦	٨٠	٥٢	١٣٧	١٥٣	٢٣	٣٠	٤١	٣٣	٣٤	٢٣	٨٦٠
	الإناث	١٢٩	٩٠	١٤٠	١١٥	٢٠٢	١٠٥	١٣٩	١٧٥	٣٨	٣٧	٤٠	٣٧	٤٧	٣٢	١٣٩٦
[illegible]	الجملة	٤٧	٣٦	٧٠	٧٩	١٠٦	٦٧	٩٤	١٤٢	٣١	٣٧	٣٠	٣٩	٢٧	٢٣	٨٢٨
	الذكور	٣٢	٢٥	٣٤	٣٦	٤٣	٢٩	٤٩	٧٧	١٨	٢٣	١٦	٢١	١٦	١٢	٤٣١
	الإناث	١٥	١١	٣٦	٤٣	٦٣	٣٨	٤٥	٦٥	١٣	١٤	١٤	١٨	١١	١١	٣٩٧
دغيم	الجملة	٤٠٦	٣٧١	٦١٥	٦٧٩	٩٣٤	٥٧٧	٧٤٥	١٠١٠	٢٠٨	٢٣٩	٢٣٩	٢٦٣	٢٦٣	١٤٧	٦٧٠٦
	الذكور	١٩٢	١٦٦	٢٥٧	٢٦٣	٣٠٤	٢٣٠	٣٩٢	٥٠٣	١٠١	١١٩	١١٩	١٤٠	١٤٤	٧٣	٢٩٨٠
	الإناث	٢١٤	٢٠٥	٣٥٨	٤١٦	٦٣٠	٣٤٧	٣٥٣	٥٠٧	١٠٧	١٢٠	١٢٠	١٢٣	١١٩	٧٤	٣٧٢٦

٢/المنطقة الريفية

توزيع السكان من عمر ١١ سنة فما فوق حسب الحالة الاجتماعية والجنس ومجموعة العمر .

المجموعة العمرية / الجنس	العدد	الحالة الاجتماعية	فئات العمر						
			فوق٦٠	٦٠-٥١	٥٠-٤١	٤٠-٣١	٣٠-٢١	٢٠-١٦	١٥-١١
ذكور	٢٦٦١	عازب	١٣	١١	٣٧	٥٦	٣٦٦	٦٦٩	٤٧٠
إناث	١٩٦٢	عازبة	٤	٤	٩	١٦	٩٠	٤٩٤	١٣٥٠
ذكور	٣٨٩٩	متزوج	٦٦١	٦٤٤	٨٧٦	٩٧٦	٧١٣	٢٩	—
إناث	٦٦٦١	متزوجة	١٦٣	٣٠٦	٩٩٦	١١٥٥	٢١٨٦	٨٦٨	١٢٩
ذكور	٨٥	مطلق	١٤	١٥	١٧	١٧	٢١	١	—
إناث	٣٨١	مطلقة	٢٩	٣٣	٧٠	٨٧	١١٨	٤٠	٦
ذكور	١٠٩	أرمل	٧٠	١٧	١٣	٥	٤	—	—
إناث	٢١٠٦	أرملة	٨٩١	٤٨١	٤٣٥	٣٢٢	٩٨	٨	١
ذكور	٦٧٠٤	المجموع	٧٥٧	٦٨٦	٩٣٣	١٠٥٤	١٠٠٤	٩٩٩	١٤٧٠
إناث	١٠٥١٠		١٠٤٧	٨٣٤	١١٣٠	١٨٣٠	٢٤٥١	١٤٤٠	١٦٢٣

٣/ مدينة حلفا

تقسيم السكان من ١٦ سنة فما فوق حسب القطاع والجنسية والجنس

القطاع	الجنسية							
	الجملة		أجنبي		سوداني بالتجنس		سوداني بالميلاد	
	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور
الزراعة	٢	١٨٠	٢	١١٠	–	٢٢	–	٤٨
التجارة	٤٤	٤٦٤	٢١	١١٤	..	٨٠	٢٣	٢٧٠
النقل الحكومي	–	٢٢٤	–	٣٨	–	١٩	–	١٦٧
النقل الخاص	–	٣٢٥	–	١٨٦	–	٦٩	–	٧٠
الصناعة	٣١	٣٣٩	٧	٦٩	–	٢٨	٢٤	٢٤٢
البناء	٢	٢٩٠	–	١٣٤	–	٤٢	٢	١١٤
الخدمات	٢٦	١٢٢	١	٤٩	–	١٢	٢٥	٦١
متنوع	١	١٢	–	٤	١	٢	–	٦
حكومي	٤٠	٦٥٥	–	٥٥	١	٢٩	٣٩	٥٧١
غير مصنف	٢٦٩٦	٢٦٠	٨٩٤	٦٠	١٢٥	٢٤	١٦٧٧	١٧٦
الجملة	٢٨٤٣	٢٨٧١	٩٢٥	٨١٩	١٢٧	٣٢٧	١٧٩٠	١٧٢٥

٤/المنطقة الريفية

تصنيف أرباب الأسر بحسب القطاع الاقتصادي والجنس (لكل المنطقة)

القطاع الاقتصادي	أرباب الأسر		
	الجملة	إناث	ذكور
الزراعة	٣٤٠١	٩٥٦	٢٤٤٥
التجارة	٢١٦	٦	٢١٠
النقل الحكومي	٢٦١	–	٢٦١
النقل الخاص	٧٧	–	٧٧
الصناعة	٩٥	٨	٨٧
البناء	٨٥	–	٨٥
الخدمات	٥٨	٧	٥١
متنوع	٣٦	٨	٢٨
حكومي	٣٣٤	١٤	٣٢٠
غير مصنف	٢٠٠٩	١٨٣١	١٧٨
كل القطاعات	٦٢٧٥	٢٥٣٣	٣٧٤٢

٥ /المنطقة الريفية

تصنيف المنازل بحسب أصحاب الدخول (لكل المنطقة)

المستفيدون حسب الأسرة	عدد الأسر		
	الجملة	لا يتلقون دخولاً من الخارج	يتلقون دخولاً من الخارج
صفر	١٧٤٧	٢٨٧	١٤٦٠
١	٣٠٧٣	٢٢١٣	٨٦٠
٢	١٠٥٢	٧٧٠	٢٨٢
٣	٢٧٨	٢١٤	٦٤
٤	٨٧	٧٦	١١
٥	٣٠	٢٢	٨
٦	٥	٥	-
٧	١	١	-
٨	١	١	-
١٢	١	١	..
كل الأسر	٦٢٧٥	٣٥٩٠	٢٦٨٥

٦/المنطقة الريفية

تصنيف عدد السكان حسب الجنس ، العمودية والمشيخة لكل المنطقة

العمودية/ المشيخة	العدد					
	المشيخة			العمودية		
الاسم	إناث	ذكور	الجنسان	إناث	ذكور	الجنسان
كل المنطقة	١٥٥٦٢	١١٨٦٠	٢٧٤٢٢	١٥٥٦٢	١١٨٦٠	٢٧٤٢٢
فرص غرب				٤٠٢	٢٥٣	٦٥٥
فرص الشمالية الغربية	١٨٦	١١٢	٢٩٨			
فرص الجنوبية الغربية	٢١٦	١٤١	٣٥٧			
فرص شرق				٣١٧	٢٣٢	٥٤٩
فرص شرق	٣١٧	٢٣٢	٥٤٩			
سرة شرق				٤٩٢	٢٩٢	٧٨٤
سره شرق(الأولى)	٢٤١	١٣٤	٣٧٥			
سره شرق(الثانية)	٢٥١	١٥٨	٤٠٩			
سره غرب				٤٨٧	٢٦٧	٧٥٤
سره الشمالية الغربية	٢٣٧	١٤٦	٣٨٣			

٦/المنطقة الريفية (يتبع)

تصنيف عدد السكان حسب الجنس(العموديات والمشيخات وكل المنطقة)

العمودية/ المشيخة	العدد					
	المشيخة			العمودية		
الاسم	إناث	ذكور	الجملة	إناث	ذكور	الجملة
ـره الجنوبية الغربية	٢٥٠	١٢١	٣٧١			
دبيرة				٢٠٨٠	١٦٩٥	٣٧٧٥
هاجر شرق	٦٢٩	٥٠٢	١١٣١			
دبيرة الوسطى	٦٩١	٥٩٥	١٢٨٦			
دبيرة جنوب	٤٠٦	٣٢٧	٧٣٣			
الحصا جنوب	٣٥٤	٢٧١	٦٢٥			
أشكيت				١٠٧٤	٧٨٦	١٨٦٠
أشكيت شمال	٥٦٢	٤٠٣	٩٦٥			
أشكيت جنوب	٥١٢	٣٨٣	٨٩٥			
أرقين				١٣٩٦	٨٦٠	٢٢٥٦
أرقين شمال	٦٢٨	٣٦٦	٩٩٤			
أرقين جنوب	٧٦٨	٤٩٤	١٢٠٢			
دبروسة				٣٩٧	٤٣١	٨٢٨
دبروسة	٣٩٧	٤٣١	٨٢٨			
دغيم				٣٧٢٦	٢٩٨٠	٦٧٠٦
عنقش	٧٨٧	٦٨٥	١٤٤٢			
دغيم شمال	١٨٦٣	١٥٢٢	٣٣٨٥			
دغيم جنوب	١٠٧٦	٨٠٣	١٨٧٩			
جمي				١٤٧٧	١١٠٣	٢٥٨٠
جزر كوكي	٢٣٧	١٩٦	٤٣٣			
لكمة	٣٧٠	٢٥٨	٦٢٨			
جمي شرق	٣٢٩	٢٤٤	٥٧٣			
جمي غرب	١٥٧	١٠٦	٢٦٣			
مرشد شرق	٣١٨	٢٤٢	٥٦٠			
مرشد غرب	٦٦	٥٧	١٢٣			
صرص				١٣٣٠	١١٨٨	٢٥١٨
صرص	٦٨٩	٦٢٩	١٣١٨			
سمنة	٣٣٤	٢٩٣	٦٢٧			

٦/المنطقة الريفية (تابع ماقبله)

تصنيف عدد السكان حسب الجنس(العموديات والمشيخات وكل المنطقة)

العمودية/ المشيخة	العدد					
	المشيخة			العمودية		
الاسم	إناث	ذكور	الجنسان	إناث	ذكور	الجنسان
أتيري	٣٠٧	٢٦٦	٥٧٣			
دواشات				٨٦١	٧٨٥	١٦٤٦
دواشات	٣٣٧	٣٠١	٦٣٨			
أم بكول	٢١٤	٢٢٥	٤٣٩			
مالك البصير	٣١٠	٢٥٩	٥٦٩			
عكاشة				٩٥٦	٥٦٤	١٥٢٠
سنكي	١٣٤	٤٧	١٨١			
أكمة	٣١٦	١٨١	٤٩٧			
عكاشة	١٦٠	١٢٦	٢٨٦			
كلب	٣٤٦	٢١٠	٥٥٦			
كوشة				٥٦٧	٤٢٤	٩٩١
دال	٢٨٦	٢٣٢	٥١٨			
ساركمتو	٢٨١	١٩٢	٣٧٣			

٧/مدينة حلفا

عدد السكان المقيمين والغائبين

(القسم الرئيسي وكل المدينة)

الأقسام الرئيسية	عدد المقيمين	عدد الغائبين
كل المدينة	١١٠٥٩	٣٦٥
دبروسة	٢٠٠٣	٢٤٥
حي الجبل	٩٤٧	١
حي أركويت	١٥٣٢	٤٤
المدينة	١٥٤٢	٤١
التبس	٢٨٨٠	٢٣
البصاولة	٢١٥٢	١١

٨/ المنطقة الريفية
عدد السكان المقيمين وعدد الغائبين
(العموديات وكل المنطقة)

العمودية	عدد المقيمين	عدد الغائبين
كل المنطقة	٢٧٤٢٢	١٤٤٣١
فرص غرب	٦٥٥	٦٤٤
فرص شرق	٥٤٩	٢٥٩
صرص شرق	٧٨٤	٨٦٦
صرص غرب	٧٥٤	٦١٢
دبيرة	٣٧٥٥	١٩٠١
أشكيت	١٨٦٠	١٢٠١
ارقين	٢٢٥٦	٢٠٤٣
دبروسة	٨٢٨	٨٧
دغيم	٦٧٠٦	٣٥٦٨
جمي	٢٥٨٠	١٢٥٤
صرص	٢٥١٨	٥٤٨
دواشات	١٦٤٦	١٦٢
عكاشة	١٥٢٠	٧٧٢
كوشة	٩٩١	٥١٤

الفهرســـــت

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع
٢٠٠٢/٣٣٣

الطابعون
دار مصحف إفريقيا
تلفون :٢٢٣٣٧١ فاكس:٢٢٣٣٧٢

إستدراكات وتصويبات

أولاً : الاستدراكات :-

الصفحة	السطر	النص الذي سقط في الطباعة
١٠	١٢	وللأخ صهيب ميرغني البدوي لاهتمامه ومتابعته .
١٠٤		أ . سقطت العبارة التالية من بداية الصفحة وهي :- بالخير الواعد . إلا بعد طرح قضية التهجير وإلا بعد أن أرسلنا وفداً منهم لزيارة المواقع المقترحة لوطنهم الجديد . ب . سقط العنوان الجانبي الآتي عقب العبارة الواردة أعلاه :- **(٥) اللهجة النوبية .**
٢٩٧		سقطت الحاشيتان (١) و(٢) أسفل الصفحة :- (١) ورد الإسم في الأصل هكذا :- محمد رضا فريد . (٢) الصحيح :- سليمان محمد حسين .

ثانياً التصويبات :-

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٨	١٧	بالتدنا	بلاته
٣٤	الحاشية أسفل الصفحة	قموس	قاموس
٤٤	١٢	٢٠٠	و ٢٠٠
٢٠٥	١٨	تياتقف	تيتقف
٢٠٦	١	الكثيرون	الكثيرين
٢١٧	٢	الألمانية	الألمانية
٢٣٥	١٥	الأول	الأولى
٢٣٥	١٩	إعتباري	إعتباطي
٢٨١	١	عملية تقييم	كانت عملية تقييم
٢٩٨	٣	وقسمنا	وقمنا
٣٨٨	١	الشطان	الشطان
٤٥٠	١٣	عبد الغفار	عبد الغفور



حسن دفع الله

- ولد عام ١٩٢٤م بالسودان.
- تخرج في كلية غردون التذكارية (جامعة الخرطوم حاليا).
- عمل في سلك الإدارة وتقلد العديد من المناصب الإدارية في السودان.
- من أعظم إنجازاته تهجير أهالي (وادي حلفا) إلى منطقة خشم القربة.
- سجل تجربته في كتاب: (هجرة النوبيين) الذي ظهر بالإنجليزية بعد وفاته بحوالي عام.
- توفي في مايو ١٩٧٤م وكان قد بلغ الخمسين من العمر.



عبد الله حميده

- ولد بالسودان عام ١٩٤٧م.
- تخرج بدرجة البكالوريوس في الآداب من جامعة الخرطوم (١٩٧٠).
- عمل إداريا في الخدمة المدنية (١٩٧١ - ١٩٧٨م) في مواقع حكومية عديدة.
- عضو البرلمان السوداني (١٩٧٨-١٩٨١م)
- أحد مؤسسي بنك التضامن السوداني (١٩٨١ - ١٩٨٥م).
- مدير عام الشركة العالمية لخدمات الإعلام (١٩٨٥ - ١٩٨٩م) السودان.
- أمين سر مجلس إدارة بنك التضامن السوداني (١٩٨٩ - ١٩٩٨م).
- مستشار إعلامي وإداري ومالي (١٩٩٨ ...).
- مترجم كتاب (هجرة النوبيين) عن الإنجليزية (٢٠٠١).
- مترجم كتاب (الحملة على دنقلا وسنار) عن الإنجليزية (٢٠٠٢).

